





ملحمة الرامايانا

فالميكي (900 ق.م)

ترجمة وتقديم
عبد الإله الملاّح

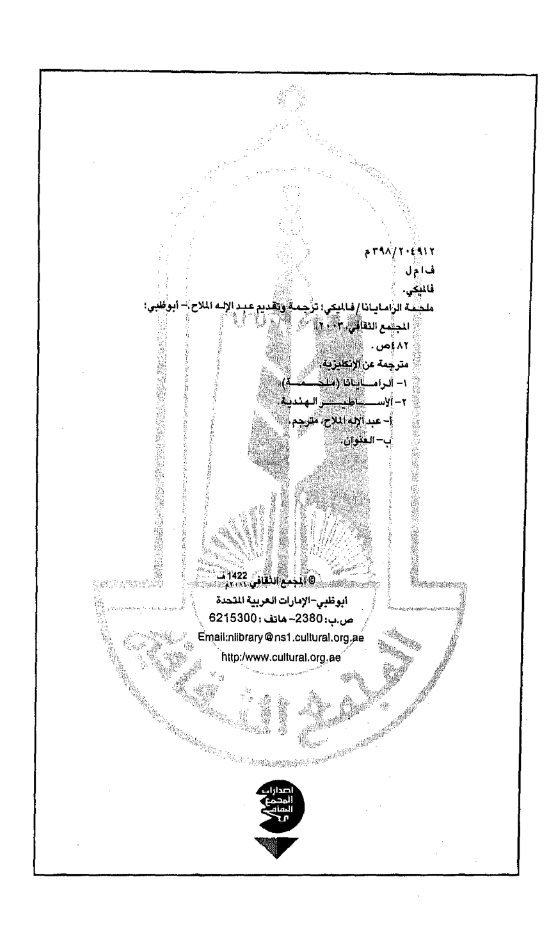
إهـــــــداء2005
مؤسسة المجمع الثقافي
أبو ظبي

ملحمة الرامـايانا

فـالمـيـكي (٩٠٠ق.م)

ترجمة وتقديم

عبد الإلـه الملاّح



٣٩٨/٢٠٤٩١٢ م
ف ا م ل
فالميكي.
ملحمة الرامايانا / فالميكي؛ ترجمة وتقديم عبد الإله الملاح.- أبوظبي:
المجمع الثقافي، ٢٠٠٣.
٤٨٢ص.
مترجمة عن الإنكليزية.
١- الرامايانا (ملحمة).
٢- الأساطير الهندية.
أ- عبد الإله الملاح، مترجم.
ب- العنوان.

ابوظبي-الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380- هاتف: 6215300
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae

اصدارات المجمع الثقافي

فـالمـيـكي

ملحمة الرامايانا

المحتويات

الإهداء

إلى روح والدي محمد علي الملاح

مررتَ كالشهاب ومازال أثرك نوراً من الفضائل

أجدُّ وراءه، فهل أدرك ولو بعضه !

عبد الإله

تصـــديـر

شاءت صدفة سعيدة عرضت لي قبل نحو عقد من الزمن أن أتعرف إلى شيء من الهند وحضارتها. وأردت يومئذ أن أقدم بعض ما أدركته من آدابها وفنونها. وكان أن قدمت ترجمة لملحمة المهابهاراتا، وهي أثر جليل من آثار القوم. ولقد وجدت تلك الترجمة تقابل عندئذ باحتفال فاق كل توقعاتي، ورأيت الكثيرين يسألونني ترجمة صنو المهابهاراتا، ملحمة الرامايانا. ولم ينقطع هذا الحماس بالرغم من تعاقب السنين منذ ذلك العهد.

والتفت يومئذ أتخير أفضل الروايات، وهي عديدة، وإذا بين يدي روايات وروايات، جلها من وحي ملحمة الشاعر فالميكي التي خرج بها ليروي قصة الأمير راما وأخباره ومآثره، وعنه أخذ الشعراء وصاغوا بكل لغة من لغات الهند روائع من الفن الخالص.

وكان أن اجتمعت لدي عدة روايات عن هذا الأمير، بل قل الأسطورة، ثم استقر العزم على تقديم رواية فالميكي على سواها، لأسباب أولها أن هذه هي الرواية الأقدم وما تزال المرجع، ولا تبلغ في الغلو براما ما يصادفنا في الروايات الأخرى. ففالميكي وإن كان يسمو بصاحبه، إلا أنه يسير به من حال إلى حال حتى ينال مرتبة القداسة، بعد أن يمضي على طريق المعاناة إلى الكمال، ولا يعصمه من نقد الناقدين، ثم يعرض دفاعه، في شكل فني متسق متماسك، يصوره مختاراً تلبسه كبير آلهة القوم، وله عندهم المقام الأسمى، ليطهر الأرض من الأشرار وعبثهم وعسفهم وليقيم عليها المدينة الفاضلة.

ولقد انكببت في تلك السنوات على قراءة روايتين أخريين لهما كل الشأن في حياة أهل الهند الروحية، أعني "مآثر راما" للشاعر العظيم تولسيداس و "رامايانة" كمبان التاميلية. وللأولى مقام خطير، فيطالعها الهندوس المحافظون بانتظام ودأب ويستمدون منها موضوعات لفنونهم ويجلون بطل الملحمة أشد الإجلال. ولرامايانة كمبان شأن لا يقل عن شأن الأولى في الحياة الروحية عند القوم، وهي التي عملت على إشاعة القصة في أقطار

جنوب شرق آسيا . وهناك روايات أخرى تتراوح في التطويل، إلا أنها على الجملة تستوحي قصتها من أحد المصادر الثلاثة وقد استأنست بهذه الروايات في بعض مواضع الترجمة.

وكان مرجعي الأساسي في هذا العمل روايتين كاملتين بنصهما، وهما مترجمتان إلى الإنكليزية نثراً عن الأصل السنسكريتي. وقد التزمت في هذه الترجمة برواية أحداث الملحمة الأساسية وتقديم شخصياتها الرئيسة وما كان يدور بينها من حوارات هامة، أي قصة راما ذاته وما يتصل به، وأهملت القصص الثانوية التي قصد بها فالميكي التوضيح بالمثال أو تقديم شخصية عارضة، وإن كنت حريصاً طوال العمل على الحفاظ على طابع الرواية، قدر حرصي على تثبيت النصوص الفلسفية، إذا جاز التعبير، وما يتصل بمفاهيم الحكم والإدارة لتوفر للقارئ معرفة بالمجتمع وفن الحكم في عصر فالميكي. وقد عمدت في تيسير الأمر إلى تعريب أسماء بعض المحاربين وأدوات الحرب في السفر السادس، لطولها وصعوبة نطقها أصلاً.

واضفت بعدئذ معجماً يجده القارئ في نهاية الكتاب وعرضت فيه للشخصيات والمصطلحات والمفاهيم والأساطير ليستأنس به كلما شاء. ويجد القارئ في آخره ثبتاً بالمراجع التي اعتمدتها في إنجاز هذا العمل. وهذه هي أول ترجمة لملحمة الرامايانا إلى العربية، على ما أعلم.

ولما تحققت ترجمة العمل، أو جُلّه، وجدتني أواجه مشكلة النشر، وقد عانيتها من قبل وأعلم ما فيها من المكابدة. والتفت عندئذ إلى "المجمع الثقافي" في إمارة أبو ظبي، أسأل المساعدة، بعد أن عرفت المشروع الثقافي الكبير الذي ينهض به القائمون عليه وفي المقدمة معالي الأستاذ محمد أحمد السويدي بتقديم أمهات الكتب التي أغنت تراث الإنسانية، وسبق أن شرفني معاليه بتكليفي بترجمة "تاريخ هيرودوت"، وهو الأثر الخطير الذي لم يقيض له أن ينشر بالعربية حتى كان هذا المشروع الضخم الذي يتولاه بعنايته ورعايته. ولقد وجدت لدى القائمين على المجمع الثقافي أجمل الاستجابة والاهتمام وأحسن الرعاية،

منذ البداية، مما حفزني على المضي في العمل وإنجازه بكل ما في وسعي.

وبعد، فإن الكمال مبتغى لا يُدرك، وإذا ما بدا للقارئ من قصور فعذري أن ذلك من قدرتي لا من مشيئتي، وإن وفقت كان توفيقي من الله تعالى، وهو ولي التوفيق.

م٠ع

مقدمة المترجم

تفخر الهند بملحمتي، الرامايانا والمهابهاراتا، كما يفخر الإغريق بالإلياذة والأوديسة، فهما مساهمتها الأصيلة في تراث الإنسانية، ومن نتاج حضارتها الخاصة، وما زال ما حوتهما هاتان الملحمتان من عقائد وأساطير حياً يوجه أهلها، ويساهم في تكوين نظرتهم إلى الحياة وعواطفهم وسلوكهم الاجتماعي، ويرسم لهم عقائدهم وطقوسهم وأساليب عيشهم حتى تنتهي بهم الحياة على نحو ما ترضاه لهم عقيدتهم. وهذه مزيَّة تفضل بها الهند وآدابها على سواها، فتكسب هذا المجتمع ديمومته، ولو في حدود الأسطورة؛ فلقد قيض لهذا المجتمع الواسع العريض أن يستمر ويدوم، كما كان شأنه منذ خمسة آلاف سنة، بينما طوي البساط على ما فيه من حضارات أخرى، ولم يُضِره ما هو عليه من تعدد الأقوام والعقائد والطوائف، بفضل هذه الثقافة التي وفرت له التماسك وأسباب الاستمرار. وحسبك أن تنظر إلى أسفار الهندوس وأخبارهم ثم ترى فعلها في تصوراتهم عن العالم والحياة ومفاهيمهم الدينية والدنيوية وعلاقاتهم الاجتماعية، ثم تجد هذه الصور تسري إلى فنون القوم وآدابهم، في التاريخ وسير الآلهة (البورانات)، والتعاليم السرانية (الأوبانيشادات)، والملاحم (التاريخ الشعبي وسير الأبطال)، وفنون الرقص والغناء؛ ولهذه طقوس في دراستها واكتساب معرفتها، كما أن لها مناسباتها ومواسمها التي تتفق وأعياد ذات دلالة دينية، وفي المواقع التي يفترض أن الأحداث دارت فيها، والشخصيات الأساسية فيها من أبطال الملاحم والأساطير. ولقد لاحظ المؤرخ والفيلسوف أناندا كومارسوامي مبلغ أثر الملاحم في ثقافة الهندوس، فهم يتعلمون من أبطالهم، ويجلونهم ويرون فيهم القدوة التي تحتذى، ولو أن ذلك، في واقع الحياة، أمر لا يُدرك، إنما يظل إطاراً يحكم هؤلاء القوم وعاداتهم وتقاليدهم وعالم أفكارهم وحياتهم الروحية وآدابهم وفنونهم إلى اليوم.

ولئن تساوت الملحمتان عند أهل الهند، في القيمة الروحية والثقافية فالصحيح كذلك

أن الرامايانا كانت أشد نفوذاً في حياة الناس من رديفتها المهابهاراتا وأبعد أثراً. وآية ذلك أن الهندوس يتخذون من الرامايانا وأبطالها وأحداثها المثال الذي يقتدون به في حياتهم والمعيار المعتمد في إدراك أسرار الحياة، والموت أيضاً، فيعلمون ما يتوقع منهم في حياتهم الاجتماعية وأساليب السلوك. وهذا ما توفره الرامايانا لهؤلاء الناس على مختلف مستوياتهم. فراما هو مثال الزوج الهندي، وسيتا مثال الزوجة الهندية. والمثال المنشود للرجل إجلال الآباء والأمهات والدفاع عن الزوجة ومُثُل الحق، وللمرأة العفة والطهارة والإخلاص للزوج. وقد وجدنا الرامايانا تتجاوز حدود الهند إلى سواها من الأمصار، وتشيع وتتسرب إلى ملل وطوائف اخرى وبروايات مختلفة.

أما المهابهاراتا، إلياذة الهند، فموضوعها أشد تجريداً، وهي تلي الرامايانا في الزمن، وتدور حول الحرب العظمى التي دارت بين أبناء العمومة آل باندو وآل قوروش، على مُلك بهارات، أي الهند، وهكذا فالمقصود بالمهابهاراتا، الهند الكبرى أو العظمى. ويغلب على هذه الملحمة أجواء الكآبة ويخيم الموت على أحداثها، التي لا تقل عن رديفتها قدسية عند البراهمة، وخاصة الجزء الذي يتضمن كتاب "البهغافات غيتا".

والحق أن اهل الهند اشد إقبالاً على الرامايانا، يستوي في ذلك الفلاح في أقصى بقاع ذلك البلد الفسيح والعالِم في أحدث المختبرات أو أرفع المؤسسات الجامعية. ولعل السبب في الإقبال على قراءة الرامايانا والرهبة من المهابهاراتا، هو أن الرامايانا، كما يقولون، تصور الحياة في شكلها الأمثل، فيما المهابهاراتا تقدمها كما هي في واقعها.

والملحمتان كلتاهما من نتاج شمال الهند، بُعيد استقرار قبائل الآريين، قبل ألفي سنة (ق.م)، وقد رسخ المجتمع الهندي في ذلك الحين، وتقدمان لنا أدق صورة عن أحواله وما يتألف منه، والأقوام التي كانت تسكن تلك البقاع، وأساليب الحكم والإدارة؛ وهما إذن تنتسبان إلى ذلك النوع من الأدب الهندي الذي يجمع بين الرواية والتاريخ والأسطورة المسمى بالبورانا، والإيتاسا أحياناً، أو التاريخ الذي يرويه راوية عارف مشارك في أحداثه.

ولنا أن نصنفهما في أيامنا ضمن ذلك الصنف من الأدب المسمى بمرآة الملوك الذي يحتوي على النصائح اللازمة للملوك في الحكم وتصريف شؤونه، وكلاهما يحتوي على مقالات مطولة في أصول الحكم وإدارة المجتمعات.

والرامايانا التي بين أيدينا، تقدم لنا لمحة عن مجتمع الهند وترسم صورة لتكوينه وطبقاته ومؤسساته، والأحوال السياسية والاقتصادية والمفاهيم السائدة فيه ونظرته إلى الإنسان ومبرر وجوده وعقائده الدينية وطقوسه. ولو شئنا أن نحدد لهذه الرواية زمناً معيناً لوجدنا المهمة بالغة الصعوبة، شأن كل ما يتصل بتاريخ الهند القديم. حسبنا أن نقول إن هناك من يرجع بها إلى ألف وأربعمئة سنة (ق.م)، وهناك من يذكر أنها تعود إلى ألفين ومئتي سنة، أو أربعمئة سنة (ق.م)، أو مئتين على مذهب الذين يغالون في الحذر في تقديراتهم. ثم يورد الناقد والمترجم ب. لال، نقلاً عن صحيفة "آناندا بازار باتريكا" في 24 ديسمبر/ كانون الأول 1980، خبراً يفيد بأن أحد علماء الجيولوجيا في الله آباد توصل بعد بحث واستقصاء إلى أن الرامايانا تعود إلى ألفين وثمانمئة سنة على أبعد تقدير. وقد توصل جماعة من العلماء إلى هذه النتيجة بعد النجاح في الكشف عن مدينة شرينغيرافيربور، ما بين ولايتي أوتار براديش والبنجاب، التي ورد ذكرها في الرامايانا. وقد بينت المعاينة والتصوير الدقيق أن هذه المدينة ترجع إلى القرن التاسع (ق.م).

كذلك تُنسب الرامايانا إلى الشاعر البراهمي فالميكي، المسمى الشاعر الأول، (آدي كافي) بسبب من وضعه الملحمة في قالب شعري (كافيا) لم يكن معروفاً قبله، وسُميت لذلك بالقصيدة الأولى أو الرائدة (آدي كافيا). وفالميكي كان شاهداً، ببصيرة خارقة، على أحداث الرامايانا، وهو الذي أنزل زوج راما، سيتا، في صومعته، يوم نفيت إلى الغابة، وهي حامل؛ وتولى هذا الناسك تنشئة ولديها وقدمهما إلى أبيهما حين بلغا سن اليفاعة. وما نعلمه عن فالميكي أنه كان في مبتدأ حياته في تلك الدورة من الزمن من الأشقياء وقطاع الطريق، ثم صلح حاله وتنسك، وانقطع لحياة الزهد والعبادة في الغابة. والإجماع قائم على الإجمال على أنه صاحب الرامايانا، أو أسفارها الستة، أما السفر السابع وهو الخاتمة فعليه

اخـتـلاف. ومنهم من يذهب إلى القـول بأنه قـد وضع في وقت لاحق، وتعـددت رواياته ولحقته عدة إضافات.

ولقـد شاعت الرامـايانا وأقبـل على قراءتهـا برواياتهـا المختلفـة أقوام من غير أهـل الهنـد، وأصبحت شائعة في أرجاء التيبت والصين واليابان ومنغوليا وماليزيا ولاووس وبورما وتايلند وكـمبوديـا وسريلانـكا ونيبـال وسواها. وقد بلغ شغف التـايلنديين بالرامايانا ما جعل عـدة ملوك منهم ينشغلون بإعادة كتابتها في روايات وقصائد.

وتتميز الرامايانا بأن لها مكانة قدسيـة عند الهندوس حتى أنهـم ينسبـون إليها المعجزات، ويقولون إنها تفيد في طول العمر، وتأتي لمن يسمعها بالحظ السعيد، وتبدد الشرور، وتطهر من الآثام، وتماثل أسفار الحكمة المقدسة، وفي قراءتها عندهم ثواب فيبرأ العقيـم من عقمه، وينال الفـقير الثروة. ومن قرأ مقطعاً واحـداً من هذه الملحمة تخلص من الشرور والمعاصي. وقد بلغت عناية الهندوس بقراءتها أنهم وضعوا لذلك مذهباً، فيقرأ منها فصل معين في حلقة كل أسبوع.

وأثر هذه الملحمة في فنون الهند كبير، فمن موضوعاتها يستلهم الرسامون والنحاتون الكثير، وهناك مدارس في الرقص تقوم موضوعاتها على تصوير أحداثها وشخصياتها، وتقام مهرجانات موسمية خاصة لهذه الرقصات.

ولكن أعظم أثر للرامايانا إنما يتجلى في ثقافة المجتمع الهندوسي الذي يتخذ من المفاهيم المبثوثة في طياتها نظامه الفكري ومزاجه العقلي، وتقدم له أنموذج المجتمع المثالي الصالح، بل والأسرة المثالية، ويعلم كل فرد ما يتوقع منه في حياته الخاصة والعامة سواء بسواء.

والرامايانا قصة حب عذبة ليس فيها من أجواء الكآبة والأهوال التي تصبغ المهابهاراتا، ولا تقل عنها مع ذلك تشويقاً؛ فهي مثل تلك حافلة بالأحداث العجيبة والخوارق المذهلة، وتدور في أجواء أسطورية، أحداثها متصلة بلا انقطاع، وإن حفلت بالقصص الفرعية التي قصد بها صاحبها أن توضح شخصية ظهرت أو حدثاً عرض.

وتدور القصة حول مآثر الأمير راما الذي نفاه والده ملك آيوديا (أوده، بولاية أوتاربراديش الشمالية) بتدبير من زوجه، ليتولى ابنها العرش بدلاً من الأمير ولي العهد. ويمتثل راما كما يقضي الواجب وتتبعه زوجه سيتا وأخوه لكشمانا، ويأخذ في التجوال في الغابات، في الجنوب. وهو لا يدري أن ذلك كله من تصاريف الآلهة التي شاءت له، وفيه الكثير من روح القداسة، أن يحمي النساك والبراهمة في الغابات من شر العفاريت ، الراكشا، التي دأبت على إفساد الخلوة عليهم وتدنيس معابدهم، وفي النهاية تم له القضاء على ملك الراكشا رافانا الشرير. فراما يمثل هنا الخير المطلق وصراعه هو صراع مع الشر المطلق الذي يمثله رافانا ملك لانكا، ذو الرؤوس العشرة، إشارة إلى قدراته العقلية العظيمة. ويبدأ هذا الصراع مع اختطاف رافانا سيتا، ويتخذ عندئذ أبعاداً أسطورية، وكل يحشد له الحشود ويعقد من أجله التحالفات التي تدخل فيها كل المخلوقات، والآلهة بطبيعة الحال، ويظهر كل أسلحته الخارقة من سهام كالصواريخ وعربات طائرة تجوب الفضاء، ويجعل من كل بقعة، حتى السماء، مجالاً للقتال والحرب.

وأخيراً يتحقق النصر لراما، بعد القضاء على رافانا الشرير وقوم الراكشا أنصاره الأشرار وإنزال الدمار بمملكته الزاهرة. ويعود المنتصر إلى عاصمة ملكه، وقد خلت من الملك بعد موته، وليس فيها سوى أخو راما، بهاراتا الذي كان يحكم باسمه، ليبدأ العصر الذهبي في تاريخ الهند الأسطوري. وتنتهي الملحمة براما وهو يوزع الملك بين ولديه اللذين ترعرعا في كنف فالميكي في الغابة.

والمرجح أن فالميكي أخذ قصته، وكانت صغيرة في مبدئها، عن أحد أمراء الحرب، راما، في مملكة كوسالا في شمال الهند، وصاغ منها عملاً درامياً، في فترة استقرار الآريين بعد اجتياحهم المنطقة. ولا ريب بأن لهذا الرأي نصيباً من الصحة، ويتجلى ذلك في النظرة المتعالية التي ينظر بها بطل الملحمة إلى حلفائه. فهل كان أولئك الحلفاء من الحيوانات قردة ودببة، وخصومه شياطين وعفاريت حقاً؟ الواقع أن هذه أوصاف أكثر منها حقائق موضوعية طبعاً. والأقرب أن صاحب الملحمة كان يردد ما هو شائع في وصف أهل البلاد الأصليين

ذوي البشرة السمراء الذين يختلفون عن الغزاة الآريين ذوي البشرة البيضاء، وأشد منهم خفة في الحركة، خاصة وأنهم أخبر بطبيعة أرضهم، وأقدر على التنقل السريع فيها. فهم بذلك إلى القردة أقرب؛ وهذا ما يجعلهم وهم من الأقوام المقهورة في وضع أدنى من الغزاة الظافرين.

أما الصدام مع الراكشا فقد جرى على الأرجح مع الأقوام التي ظلت تناهض الغزاة الآريين حتى بعد أن استقر ملكهم. فالثابت من المكتشفات الأثرية أن المناطق التي دخلها الآريون كانت عامرة بحضارات أقدم عهداً منهم، وهم الطارئون على الحضارة، فظلت الأقوام تقاومهم، وكانت لديهم أسلحة أكثر تطوراً مما لدى الجحافل الغازية، ويتمتعون بنظام اجتماعي متطور يسمح باستيعاب الغزوات والرد على الغزاة بفضل نظامهم الاقتصادي الذي تشير إليه الملحمة بالثراء الذي كانت مملكة لانكا تتمتع به، ولم يُقدَّر للآريين أن ينعموا بمثل ما نعم به أعداؤهم إلا بعد القضاء على قلعة المقاومة، لانكا، وملكها الداهية رافانا.

إلا أن الظروف قد فرضت في النهاية أن يتعايش الغزاة الآريون ذوو البشرة البيضاء، والدرافيديون أهل البلاد الأصليين ذوو البشرة السمراء مع بعضهم البعض؛ وكان من ذلك أن ظهرت صورة راما وهو تجسيد فيشنو، إله الدرافيديين، ببشرة زرقاء، أي مزيجاً من هذين اللونين. وذلكم ذروة النزعة التوفيقية التي اتسم بها الفكر الهندي إلى يومنا هذا.

ولقد وجدنا فالميكي يسترسل كثيراً في وصف لانكا ولا يخفي إعجابه بها. فأين تقع لانكا هذه: هل هي سريلانكا الحالية؟ أم أنها تقع في مكان آخر؟.

إن معظم الآراء كانت تتجه حتى وقت قريب إلى الأخذ بالقول بأن لانكا القديمة هي سريلانكا الحديثة. وقد حملهم على هذا الرأي استغراق فالميكي في الحديث عنها، فبدت كأنها جزيرة، أو هي جزيرة بالفعل، وليس هناك جزيرة أقرب إلى الهند من سريلانكا، ولا وسيلة لبلوغها إلا الجسر الذي وصفه الشاعر كآية من آيات الهندسة. وكان هذا الرأي يصح

لو أن علم الهندسة كان قد بلغ هذه الدرجة من التطور في تلك العصور. ولكن ليس هناك من دليل على هذا التقدم العلمي، أو بعضه. وبالرغم من تردد الإشارة في أدب الهند القديمة إلى حروب طاحنة بين جيوش جرارة، تتبادل القصف والتدمير بسهام كالصواريخ وعربات كالطائرات النفاثة، مجالها الأرض والسماء كأننا نشهد حرباً عالمية في أيامنا، إلا أننا لا نقع على شاهد على وجود جيوش في ذلك الزمان تتمتع بمثل هذا القدر من الدقة في إصابة الأهداف، ولا ريب بان حشد هذه الجيوش عبء لا بد أن تنوء به أشد الإدارات حنكة ومقدرة، ولم يعرف مثله من قبل، على هذا الشكل من التنظيم والإدارة والإمداد حتى في حملات إسكندر المقدوني، بعد قرون من التاريخ المفترض الذي دارت فيه أحداث الرامايانا. ومثل هذا الإعجاز يصدق على أعمال الهندسة من بناء الجسور وآيات العمارة. كذلك كان من الإعجاز ما تم لراما، ولرافانا أيضاً، من التحالفات مع الآلهة، وانفضاضها، ثم مع الدببة والقردة، والعفاريت، مما يذكر بالتحالفات التي ألفت القوى الكبرى على الانخراط فيها، وهي تُعد للحروب العظمى، في أوقات متأخرة من التاريخ.

ولطالما أثارت الرامايانا التساؤل عن قصة راما، إن كان لها نصيب من التاريخ والحقيقة؟ هل كان راما شخصاً حقيقياً؟ وأين دارت الأحداث التي تصفها الرامايانا؟ ومتى؟ وكان ما يحمل على طرح هذه التساؤلات قوة الرواية وعظمة المآثر واختلاط هذه وتلك بالعجائب والخوارق.

والحق أن الرامايانا هي من نتاج الزمن وقرائح الشعراء، وقد يكون من العسف الشديد إنكار حقيقتها جملة وتفصيلاً، لما قد يبدو ضرباً من شطحات الخيال حين يطالع المرء عن غضب الآلهة وذعرها، وحديث القردة والدببة، وبناء جسور لعبور جيش بحراً بكامله، وغير ذلك من الحوادث العجيبة والأخبار الغريبة.

ولكن هناك في الملحمة من الدليل الضمني ما يفيد بانها لا تخلو من الحقيقة تماماً. فالأرجح هو أن راما شخصية حقيقية، من أسرة مالكة، في شمال غرب الهند، من قبيلة من الآريين، وكان له شأن في توطيد سيطرة الآريين والقضاء على مقاومة القبائل المحلية

الدرافيدية لهذه السيطرة. وهم أقوام أكثر حضارة ومدنية من الآريين. ويلوح أن راما كان على قدر من الموهبة والحنكة حتى أمكن له أن يكسب ثقة بعض تلك الأقوام، القردة والدببة، ويقيم وإياها تحالفاً ضد رافانا والعفاريت، وتمكنوا جميعاً في النهاية من إخماد تلك المقاومة المنطلقة من لانكا الزاهية.

ولا ريب أن تلك الأقوام كانت على قدر من الحضارة ويتفوقون على الآريين الذين لم يكونوا قد تعرفوا إلى المدنية بعد، ولا عُرف عنهم عنايتهم بالدين واكتساب المعارف، فوجدنا راما يخوض وأهله في قضايا التشريع والسياسة العملية، وأقل انشغالاً بالقضايا الفكرية والروحية، التي كانت تشغل المردة والعفاريت، أصحاب رافانا ذي الرؤوس العشرة، إشارة إلى طاقاته العقلية والفكرية. وفي هذا نلمح بواكير تقسيم العمل الاجتماعي في المجتمع الفيدي، بين أهل العقل، وطبقة الأمراء المحاربين، والتجار، والمزارعين. ولكل طبقة من هذه الطبقات شرعتها، والواجب المفروض على كل من أبنائها، وبأقصى حد من الصرامة.

وفي الرامايانا نصادف، كما في شرائع مانو أهم صورة لنظام الطبقات المثالي عند الهندوس. ويقدم لنا مانو الأصل الأسطوري للطبقات، فيخبرنا بأن البراهمة نشؤوا من فم الإله براهما، والشاتريا (الحكام المحاربون) من ذراعه، والفيشيا (التجار) من فخذه، والشودرا (المزارعون) من قدمه. ولئن كانت هذه الرواية، وهذا التقسيم الوظيفي، صحيحاً من الناحية المجازية، كما يقول أناندا كومارسوامي، فإن الوصف تجاوز في الواقع حدود البلاغة، وصار يؤخذ به حرفياً ليضفي على النظام صفة قدسية صارمة. ولكن ليس لنا أن نعتبر أن هذا النظام الذي عرضه فالميكي أو مانو هو النظام القائم في الواقع. فالحق هو أن الهند لم تعرف هذا المجتمع المثالي القائم على التقسيم الوظيفي الذي قدماه. فلطالما كان المجتمع الهندوسي يواجه الأزمات، وإذا أخذنا بالوصف الذي تقدمه الرامايانا فإننا نجد أن الصراع كان على أشده بين الطبقات على اختلافها، بين أهل الحكمة ذاتهم، والكهنة، كما بين العامة والخاصة، وبين البراهمة وأمراء الحرب، حتى في عصر الرامايانا الذهبي؛ كذلك حمل هذا الصراع طبقة الحكام المحاربين على توسيع رقعة ممالكهم حتى بعد استقرار تلك

الممالك وشيوع الرفاه في المدن. ولم تستقر الأحوال، على ما يصور لنا فالميكي إلا بعد أن قضى راما على المردة والعفاريت الذين كانوا يفسدون على النساك الزهاد، أهل العلم والثقافة، حياتهم وعباداتهم في الغابة، وأخضع الأقوام الأخرى من العفاريت المردة، الراكشا، الذين كانوا يمثلون التحدي الأعظم، بل الشر الخالص، أمام راما، حين اختطفوا منه زوجه سيتا إبنة الملك جناكا التي ولدتها له الأرض، وخرجت منها، حين كان يشقها بمحراثه. وفي هذا ما يقدم صورة رمزية للصراع الذي كان محتدماً بين أمراء الحرب الآريين، وسكان البلاد الأصليين، ولما تم إخضاعهم أُدخلوا في النظام الطبقي الهندوسي المغلق بإحكام. وقد أدت هذه العملية الاجتماعية من الاستيلاء والامتصاص والهضم إلى ثورات اجتماعية عبر التاريخ، فظهرت حركات الاحتجاج والتمرد ولم تنقطع؛ وما البوذية والجانية والسيخية، وحركات العصيان الأخرى داخل المؤسسة البراهمية والثورة عليها، إلا التعبير عن محاولة الإفلات من قبضة النظام الصارم، تقابلها اليوم محاولات استيعاب الطبقات الصاعدة ضمن نظام مغلق الدوائر.

لقد أراد فالميكي، إذن، أن يقدم صورة عن المجتمع المثالي، وهي صورة لمجتمع بالغ التعقيد تتمايز فيه أجزاء هذا المجتمع أشد التمايز. ويقوم هذا المجتمع على مفهوم اعتماد هذه الأجزاء على بعضها بقدر ما تتمايز عن بعضها؛ وهو تمايز لا يقوم على الثروة وإنما على الخصائص الذهنية، وهذه تسلم بحلول الروح بعد الموت كما تأخذ بمبدأ «الكارما» الذي يعني في أبسط صوره مبدأ السبب والنتيجة، أي أن المرء يجني ثمار أعماله في حياته القادمة على الأرض، مما يعني أن المرء يكتسب مرتبته بحكم الإرث. فمن كان جديراً بأن يولد براهمياً كان براهمياً على الأرض، والشودرا الفلاح يولد فلاحاً، ومن هنا كان منشأ نظام اللون، أو "المولد" في المصطلح الحديث.

وهذه حالة كثيرة التكرار، بطبيعة الحال، في القصص والملاحم الهندية، فلا تنقطع تطالعنا بأخبار حكماء ونساك وبشر من الرجال والنساء ساء مسلكهم فساءت عاقبتهم، وما زالوا يتعاقبون حياة بعد حياة حتى يصلح حالهم. وهذا ما كان من أمر فالميكي، أعظم

الشعراء، وصاحب الرامايانا. فقد علمنا من أمره، كما يحدثنا هو ذاته عن أخباره، أنه كان في حياة ماضية براهمياً، وصدف أن وقع في هوى امرأة سوء، وعملت هي ذاتها على غوايته، واستجاب لها، وأصبح يدمن عشرتها، بينما أخذ يسيء معاملة زوجه الصابرة. ولما أصابه المرض كانت هذه الزوج ملجأه، وهي تقوم على معالجته؛ وفي إحدى النوبات قضم إصبعها فمات مختنقاً. ثم بعث في الحياة من جديد على غير هيئته الماضية، دون أن يصلح حاله، وعاد يبعث مرة بعد مرة، والرجل على سوء حاله، حتى قيض له أن يأتي بفعل خير فاستعاد حاله كما كان في مبدأ عهده، قبل الغواية، ونال أحسن الجزاء حين أخرج قصيدته الملحمة للعالم فبرأ من الإثم وتحققت مهمة الحكيم في العالم.

وبطلة الملحمة سيتا، مثال آخر؛ فقد اتهمت باطلاً لكشمانا أخو زوجها، بالرغبة فيها فعوقبت بأن اختطفها ملك المردة وعانت على يديه، ثم أتى من يطعن في عفتها وطهارتها، حين أنقذها زوجها من براثن هذا العفريت المارد، واضطرت لخوض التجربة لتثبت براءتها، ثم عانت الطرد والإقصاء من زوجها إلى الغابة، جزاء لها على تجنيها وتقولها، حتى برأت بعد أن دخلت مطهر العقاب.

كذلك كان حال رافانا الذي انتهى بدمار مملكته لانكا العظيمة عقاباً له لما صار عليه من التيه والعسف، ولجرأته على الآلهة، بعدما كان أثيراً لديها.

والركن الثاني في الهندوسية هو نظريتهم في الشرعة، أو الواجب الذي تختص به كل طبقة، وهو ما يسمى عندهم بال "دارما". فالإنسان في منظومة الأفكار الهندوسية يولد، كما علمنا، في طبقة معينة ويختص بالتالي بواجب مفروض عليه بحكم هذا الانتماء. وإذن فعلى من ينتمي إلى طبقة معينة أن يأخذ بالواجب المفروض عليه، ويمتثل لمقتضى الواجب. والحق أن هذه العقيدة تؤدي مهمة حاسمة في المجتمع الهندوسي فهي تقوم بتوزيع العمل في إطار هذا المجتمع، ويكون على المحارب أن يقوم بعمله حسب ما يمليه عليه وضعه، ومهما يكن العمل الموكل إليه منافياً لميوله الخاصة، ويمضي به حتى نتيجته النهائية، مهما تكن تلك النتيجة.

وتفيد الرامايانا أن الأخذ بالشرعة على هذا النحو الصارم لم يعرف إلا في العنصر الذهبي، حين كانت رياضة النفس تقتصر على البراهمة وحدهم، ولم يكن لسواهم أن يبلغ الكشف، المعرفة الكاملة؛ وفي العصر الثاني كان البراهمة والشاتريا متساوين في السلطة والقوة، وقد قيل إنه في هذا العصر وضع مانو شرائعه التي تحدد واجبات كل طبقة وطائفة؛ ولما حل العصر الثالث كان التجار قد أخذوا بممارسة الكفارة، وسيليهم المزارعون في العصر الرابع. وهكذا نجد العصور الأربعة تمثل مسار الانحطاط من حكم رجال الدين المبتغى إلى الديمقراطية التامة. وكانت النذر بحلول العصر الرابع قد بدأت تلوح، حين أخذ أحد الفلاحين بممارسة اليوغا فقتله راما لئلا يؤدي هذا الشطط إلى اضطراب المجتمع؛ وهذا اضطراب بدأ يظهر حين اختطف الموت ولد براهمي، وهو ما يزال فتى صغيراً.

إن الرامايانا عمل مثالي بكل معنى الكلمة، وهي لذلك تتجاوز أحياناً حدود الفهم أو طاقة البشر. وراما هو مثل أعلى، ولربما لا يُدرك، وكثيراً ما يحمل أهله وأصحابه على الإتيان بالمستحيل؛ ولكنه هو ذاته يأتي في كثير من الأحيان بالمستحيل، إما بالإشارة وإما بالفعل الظاهر. إنه رجل صارم ذو عزيمة ماضية حتى لتعجز المخيلة عن استيعاب ضرباته المؤثرة الحاسمة. وهو مثال يحتذى في النهوض بما يشغل أهل الهند منذ قديم الأزمان، أي الدارما، أو شرعة الأخلاق، حكم القانون والنظام، في حياة الإنسان، وقدر المرء الذي يتعين عليه أن يكتشفه ثم يتبعه قدر ما يستطيع، ويعمل على صياغته قدر الطاقة. والرامايانا بهذا المعنى مجموعة من الدروس العملية في الأخلاق وسفر من التفكير الرفيع. إنها كتاب قيم الهند، وشرعة الأخلاق، الدارما، التي هي المبتدأ والمنتهى.

ولعل عقد المقارنات عمل مقيت، ولكن لا مناص منه. وإنه لمن صدق القول إن المهابهاراتا، الملحمة الثانية والمتأخرة، تقدم مشهداً شاملاً للحياة على نحو ما هي عليه، في الواقع. والرامايانا تقدم نظرة إلى الحياة كما ينبغي أن تكون عليه. إنها أنموذج يشد الإنسان ويمتحنه ليخرج قدراته الخارقة والقدسية من أعماقه. وما يتوقع من أهله الأقرب إليه وأصدقائه ليبلغ حدود الإعجاز. فأن يعيش المرء مع راما يعني أن يعيش في عالم من

الأهداف الخارقة التي تتجاوز حدود الإنسان العادي، ويتوقع منه أن يمضي الحياة في سعي دؤوب لا راحة فيه ولا تهاون.

وفي هذا السياق على المرء أن يتذكر ان الرامايانا تجري في العصر الثاني من العصور الأربعة، في سلسلة دورات الزمن الراهن؛ وقد نال عصر البراءة الأول شيء من الفساد فيما كان الانقلاب يجري من عصر إلى عصر، ولعل فالميكي أراد أن يذكر قومه بالخير الذي كان يسود في عصر غير بعيد ولا زالت آثاره سائدة. وتبرز الإضافات التي لحقت بالملحمة هذه النغمة وتدخل في لحمتها فكرة تجلي الفكرة القدسية في إنسان يبعث لتقويم الضلال.

في الرامايانا حماسة تتغذى بالأمل، وفي المهابهاراتا، وتحديداً البهغافات غيتا، جو من اليأس والاضطراب المطلق، غياب الإيمان وعتمة العقل: أرجونا، البطل المحارب والإنسان الخارق يرمي بأسلحته أرضاً، وقد ضاقت نفسه وشاع فيها الجزع مما يرى في حيرة عقله من تشوش القيم التي يقيم لها كل الاعتبار وانحلالها. وليس هناك مثل هذه الصورة في الراماياانا، بل إننا نجد الأمل عارماً والثقة عالية عند أولئك الذين ينافحون عن الحق، والعقيدة. وبالمقابل هناك، وبالقدر ذاته، إحساس بالهزيمة يسري في المعسكر المعادي. الفكر هنا واضح والأهداف أيضاً جلية. وبالتالي فإن في قصة راما نقاء وصفاء كضوء النهار، وتيار من أفكار ومشاعر لم تنل منه الشوائب بعد، تيار مصدره نهج الحياة المتجذر في الحكمة القديمة والخرافة والطقوس، وفي موازاته إصرار على الالتزام بالشدة في رياضة النفس. ويتمثل وضوح الحياة الداخلية المتقدة بالإيمان بالروح التي تقتدي بالتدريب الروحي بالحكماء، وراما يستمد من أسلوبهم في الحياة عزيمة ويشحن نفسه قوة. وانتصار راما على رافانا هو انتصار الحياة الداخلية. فوسائل رافانا الضخمة، وإن كان من بينها القدر الكبير من رياضة النفس والتكفير عن الذنوب لم تكن موجهة من الشرعة الأخلاقية، وإنما برغبة بالخلاص منها، بل وقهرها. ولذلك لا تجد لدى فالميكي تعظيماً لشأن رافانا، وليس هناك حتى بين المقربين من يبرئونه من اللوم. والخطوط، بل قل خطوط المعركة بين الخير والشر، محددة بوضوح وجلاء.

وقد تبدو الرامايانا، للعقول اليوم وهي تحاول رسم مصائرها في العصر الأسود، وهو الرابع والأخير في دورة الزمن الراهنة، متشددة صارمة في دعوتها للالتزام بشرعة الأخلاق. ونحن نسير في ظلال أفول أخلاقي مديد وأمامنا ظلمة القيم الميتة أو التي تحتضر. إننا نتمسك بقشة اللاأخلاقية التي تبرر الشر في أنفسنا والآخرين وتجيزه. إننا نعيش حياة صعبة ونحجب نور الحقيقة الذي يخطف الأبصار، وهو مشعل الأخلاق. وعالمنا اليوم مساحة رمادية اللون وينزلق سريعاً في العتمة. ولكن المرء يجد كل السحر في قصة راما بما فيها من قيم تشد من العزيمة في لحظات الوهن أمام ضغوط العالم المادي، وظلام النزعات الكلبية التي لا تقيم وزناً إلا لما هو عياني، عارض لا ديمومة له. وهذه تجربة الهند في استلهام هذه الملحمة في الفن؛ في الشعر والغناء والمسرح، فتتكرر مرة بعد مرة وتشيع في النفس، وإذا برؤيا فالميكي الشاعر تنشر بذورها فتنغلق حباتها وتضرب بجذورها عميقاً من جديد. فلا عجب إن وجدنا واحدة من شارحي الملحمة، لكشمي لال، تصف الرامايانا بأنها إحدى أسلحة الهند الخفية والعجيبة، ومصدر من مصادر قوتها التي لا تظهر للعيان، وهي التي توفر للأمي من الهنود، مثلاً، شخصيته التي ينفرد فيها عن أمثاله.

ولقد كانت الرامايانا التي أتى بها فالميكي البذرة ومصدر العديد من الرامايانات، إذا جاز التعبير، ولكل رواية مكانتها وشهرتها. فهناك روايات تنطق بكل لغة من لغات الهند الرئيسة، كما أن هناك رواية بوذية وأخرى جانية، ولكل رؤيتها. ومن بين تلك الروايات الشعرية رواية كامبان بلغة التاميل الجنوبية التي شاعت في أقطار جنوب شرق آسيا، وعنها صدرت ملاحم الرامايانا في تلك الأمصار، وتعود إلى القرن الثاني عشر؛ وهناك أيضاً "أعمال ومآثر راما" لتولسيداس بلغة الآفادي من القرن السادس عشر، والتي أثرت في شمال الهند وتسربت إلى التيبت والصين واليابان.

إن الرامايانا هي تراث حي وإيمان وعقيدة حية أيضاً في الهند، فهي تؤلف أساس التربية الأخلاقية في المجتمع الهندوسي كله. ولا تزال الأجيال المتتالية من الهندوس يدرسون هذه الملحمة في ترجماتها الحديثة ولا يملون من تكرارها باستمرار. وما زالت القيم وأنماط

السلوك والمبادئ الأخلاقية التي تظهر في هذه الملحمة تؤلف جزءاً هاماً من بناء الثقافة في المجتمع الهندي الحديث.

عبد الإله الملاح

دمشق، الروضة، خريف 2000

السفر الأول

الطفولـــة

كان الليل قد انقضى إلا أقله، والعتمة تلف الغابة حتى ليكاد الطارق لا يتبين طريقه، لولا القمر الذي كان يرسل ضوءه الفضي فيتيح للعابر أن يمضي في دربه، ولو بشيء من التلكؤ؛ وكان السكون يهيمن على المكان، إلا من حركة أرنب يتنقل من مكان إلى مكان، أو نعيق بوم على شجرة قريبة. ولو مد الطارق بصره لرأى بصيصاً من ضوء مما ترسله جذوات قليلة من نار الحطب في معتكف من تلك المعتكفات التي يفزع إليها طلاب الحكمة وأهل التأمل.

ولو اجتذب الطارق شيء من ذلك الضوء البعيد، ومضت به قدماه إلى مصدره، لتبين له إذا ما اقترب من النافذة شيخان مهيبان يأتزران بإزار أصفر بلون الزعفران وقد جلس أحدهما مستقيماً وجعل إحدى قدميه فوق فخذه الأخرى على عادة الحكماء. وكان هذا هو الحكيم فالميكي الذي طبقت شهرته الآفاق، وعُرف في بداية أمره بالشقاوة وقطع الطريق، ثم صَلُح حاله، وبات من أهل الحكمة والكرامات.

أما صاحبه فكان يتخذ مجلسه قبالته، وقد احتضن قيثارته "الفينا"، وشرع يداعب أوتارها بأنامله فتصدر أنغاماً من إيقاع الزمن، الماضي والحاضر والمستقبل، مطوفاً في العوالم الثلاثة الأرض وما تحتها وما فوقها، ويصور في ذلك أحوال جميع المخلوقات في العالم. كان هذا نارادا، أحد الحكماء السبعة العظام، العارف بالأخبار والمشهور بروح الدعابة ورواية الطرائف.

ووجد نارادا صاحبه فالميكي ينتشله من موسيقاه، بقوله: "قد عرفناك محيطاً بأخبار الناس جميعاً، فهل علمت برجل اجتمعت لديه في أيامنا هذه الفضائل من قوة البدن وصدق اللسان والوفاء بالعهد؛ وكان عارفاً عالماً بليغاً، عطوفاً على الناس، رحيماً بالضعيف، حليماً، راجح العقل، ومع ذلك قوي العزم، يأخذ نفسه بالشدة والصرامة، وإن كان رؤوفاً

بالخلائق جميعاً، وفوق هذا منكباً على طلب العلم والمعرفة، يجمع بين شدة البأس ودماثة الطبع، ويترفع عن تسقط عثرات الآخرين، وهو، بعد، غضوب في ساحات القتال، إذا أقبل ارتعدت من وطأته الأرباب؟ فأخبرني أيها الحكيم العارف بأحوال البشر، إن كنت قد عرفت مثل هذا الرجل؟"

ابتسم الحكيم نارادا، المحيط بأخبار الماضي وأحوال الحاضر والمتبصر بما يحمله الآتي من الزمن، وسُرَّ لعبارات فالميكي، وشرع يفصل الحديث عن هذا الرجل: "أجل، إنهم ندرة هؤلاء الذين امتلكوا هذه الصفات والخصال! ومع ذلك فقد عرفت أحدهم. وصاحبك هو راما سليل بيت ايكشفاكو، والمأثور عنه أنه صادق شهم، صاحب مروءة، مُجلٍ بين الرجال. وبلغنا من صفاته أنه يحسن تقدير الأمور، بحر في دستور الأخلاق، بليغ، تسايره الأقدار، جريء مقدام، شديد على أعدائه، غلاّب. وإذا نظرت إليه راعك منه طول هامته وانتصاب قامته وقوة بدنه، وأسرك جمال طلعته وتناسق أعضائه، عريض المنكبين، طويل الذراعين؛ مشرئب العنق، ذو قوة دونما جلافة، بارز الذقن، خبير بالقوس، ليس له مضارع في استعماله، وإذا نظرت إلى جبينه دلك على رفعة نفسه وأصالة محتده، وقد دل تناسق الأطراف وشيء من الزرقة تخالط لون بشرته على أن صاحبنا من أهل الفضيلة، وزاد في ذلك ما يظهر من وضوح العينين وما يزين صدره العريض من علامات مميزة مباركة، وهو معروف بإغاثة الملهوف، ونصرة أهله وقومه، صادق العهد، إذا وعد وفى، شغوف بالدراسة وتحصيل العلم، مشهود له بالأعمال الصالحة، ونقاء السريرة وصفاء الإيمان، والتأمل في حقيقة نفسه..

وهو مقصد أهل الفضيلة ينجذبون إليه كالأنهار إذ تندفع إلى البحر، مشهود له بالذكاء والبلاغة والدماثة ورجاحة العقل، كذلك عُرف راما بانشغاله بصالح القوم، والصدق في المعاملة وحسن تقدير الأمور. وقد بلغنا عنه أنه حريص على الخلائق حرص براهما، ومثله حرصاً على صلاح المعتقد، لا تأخذه بالذين ينتهكون الشرائع والأعراف شفقة؛ ثم إنه قدوة في اتباع الفضائل، يكرم من يوالونه ويقيمون القرابين، عارف بمكنونات كتب الحكمة،

"الفيدا" ، متضلع في القوانين الإلهية، محيط بشرائع هذا العالم والعوالم الأخرى، بحر في العلوم الستة، الحساب وفقه اللغة وسواها، وأصولها وفروعها، قوي الحافظة، متمكن من علوم الحرب وسيد من رمى بالقوس. ولذلك كان قبلة أهل العلم والفضائل وكرام القوم، وقرة عين أمه الملكة كاوساليا؛ عميق الأغوار كالبحر العظيم، ثابت القدمين، كجبال همالايا، صورة لفيشنو في قوته وللقمر في بهائه وجماله. أما إذا ثارت ثائرته وجدته كالنار المضطرمة التي تأتي على كل ما في طريقها، ولكنه مع ذلك حليم، ذو أناة وصبر، كصبر الأرض، وكريم معطاء كرم كوفيرا، إله الأرزاق والثروات، صادق صدق دارما صاحب الشرائع."

كان والده الملك دشاراتا قد عزم على توليته العرش من بعده، ولكن إحدى زوجاته الثلاث الملكة كايكيه، أفشلت قراره بتذكيره بعهد قديم قطعه على نفسه بأن يلبي لها رغبتين متى شاءت. وكان مطلبها أن يقصي ولده راما ليمضي أربع عشرة سنة مشرداً في الغابات، ثم ينصب ابنها بهاراتا مكانه ولياً للعهد. وكان الملك وفياً بعهده، فأرسل ابنه راما إلى منفاه، وأحل ابنه الآخر، كما شاءت زوجه، ليخلفه على العرش. وأما راما فقد امتثل لأمر أبيه ومليكه، وقضى أربع عشرة سنة في الغابة منفياً.

ولقد شاء أخوه لكشمانا، ولد الملكة سوميترا، أن يتبع أخاه راما إلى منفاه، يحمله على ذلك ما يكن له من الحب والإخلاص. كذلك شاءت زوجه، سيتا أبنة الملك جناكا – وكانت قد حلت فيها روح لكشمي، زوج فيشنو– أن تتبع زوجها، كما يفترض الإخلاص والوفاء، حيثما ذهب وحل.

وكان خروج الجماعة من عاصمة البلاد، آيوديا، حدثاً مشهوداً، إذ كان الملك دشاراتا قد خرج وحاشيته في إثرهم، وراما وزوجه سيتا وأخوه لكشمانا، في عربة تجرها الجياد المطهمة، ويقودها كبير الوزراء سومانترا، وتحف بهم حشود الناس. ولكن ما أن بلغت الجماعة بعد حين شرينجافيرا على ضفة نهر الغانج، حتى نزل راما، وأمر سومانترا بالعودة إلى العاصمة.

وهناك التقى الأمير وصاحبيه غوها ملك النيشادا، فقام هذا بنقلهم عبر النهر، ودخل بهم الغابة، وبلغوا بعد ذلك جبل تشيتراكوتا. فحلت الجماعة في تلك البقعة، فكانت مرتعاً سعيداً لهم، يعيشون في رحابها كالمخلوقات النورانية "الديفا" وأصحاب الموسيقى السماوية "الجندارفا".

وفيما كان راما وزوجه سيتا، وأخوه لكشمانا، مستغرقين في حياتهم الجديدة، غلب الهم على الملك دشاراتا، ووجد بُعد ولديه عنه شاقاً عليه، وزادت شيخوخته في بلواه، فتدهورت أحواله، وهو يشكو ألم الفراق، إلى أن فارق هذه الحياة، وابنه راما مقيم في ذلك الوقت عند جبل تشيتراكوتا.

ولما غدا العرش خالياً بعد وفاة الملك دشاراتا جاء الحكماء الكبار يعرضون التاج على الأمير بهاراتا، فاعرض عن قبوله. ثم مضى إلى الغابة لطلب رضا راما الهمام الصادق، وتقدم منه مستعطفاً، ليعود به ويقيم حكمه.

ولكن راما العطوف الحليم ذا البأس أعرض عن قبول العودة، وأجاب أخاه بأنه يؤثر أن ينفذ ما شاء له مليكه. وبعد طول إلحاح سلم الأمير بهاراتا برغبة أخيه، وقدم له راما حذاءه للدلالة على تعيينه نائباً له، فشرع بهاراتا يصرف أمور الحكم من مدينة نانديغراما، منتظراً عودة أخيه إلى ملكه.

كان الحكماء والنساك الذين يقيمون يومئذ في تلك الغابة يشكون مُرَّ الشكوى من "الأشورا" العفاريت وما كانوا يلحقونه بهم من الشر والأذى، حتى عيل صبرهم، فلم يجدوا سوى راما يلجؤون إليه ليخلصهم من شرورهم. فنهض راما تشاندرا وجه القمر للمهمة، مدافعاً عن الحكماء الذين جاؤوا يقصدونه ويطلبون منه النجدة. ولقد اطمأن هؤلاء الحكماء المهيبون حين سمعوا راماً يعلن لهم عزمه على اجتثاث شافة أولئك الأشرار الذين كانوا ينزلون الخراب والدمار في ديارهم.

وكان أول من صادف من الأشورا شربناخا، التي كان لها القدرة على الظهور بمختلف

الأشكال والمظاهر فغلبها وأخوه لكشمانا. فهرع أشرار قومها وعلى رأسهم ثلاثة من كبارهم للانتقام لها من راما، فقتلهم، وبعدهم أربعة عشر ألفاً من سكان الغابة "الراكشا" أفناهم على بكرة أبيهم . فلما بلغ رافانا، ملك لانكا، خبر تلك المجزرة غضب وثار، ومضى ومعه ماريخا، وكان مثله من الراكشا الشياطين، لقتال راما. ولقد حاول ماريخا، وكان يعلم بقوة راما ، أن يثني رافانا عن عزمه، ولكن للأقدار تصاريفها، إذ شاءت له أن يمضي في الطريق الذي اختطته له، فأعرض عن نصيحة صاحبه، فخرج الاثنان إلى أرض راما. وهناك استدرج ماريخا راما، بينما تولى رافانا قتل النسر الكاسر جتايو، حارس سيتا، واختطف زوج راما، حين لم يكن هناك من يعترض طريقه. ولقد غلب الحزن على راما حين سمع من جتايو وهو يلفظ آخر أنفاسه باختطاف ابنة ملك ميثيلا، واستولى عليه الغم. ولكن ذلك لم يشغله عن القيام بطقوس الجنازة للنسر، إلى أن صعدت روحه إلى مستقرها.

وكان راما قد أدى طقوس الجنازة للنسر الصريع، وهو ما يزال يضرب عصا الترحال في بحثه عن سيتا ولا يجد لنفسه مستقراً، وإذا به يصادف كابندها، وهو أشورا رهيب يثير الفزع في قلب كل من يلقاه. فقاتله وصرعه بعد جولة، ثم أقام له طقوس الجنازة فصعدت روحه إلى العالم العلوي؛ ولكن كابندها حدثه قبل صعوده إلى العالم السماوي عن شابري الزاهدة، وسأله أن يزورها في معتكفها. وكان أن لبى راما رغبة كابندها، فأخذ يبحث عن تلك المرأة الزاهدة الصالحة؛ وقد أذهل المرأة حين أطل عليها ما لمحت فيه من علامات الإعجاز، فتوجهت إليه بالدعاء وجعلته قبلة وجدانها.

ثم أخذ الأمير راما يضرب عصا الترحال بحثاً عن سيتا، فالتقى على ضفاف بحيرة بمبا بالقرد هانومن، فقدم له سوغريفا. وروى له راما حكايته واختطاف الأميرة سيتا. وكان سوغريفا في هذا كله يولي راما انتباهه وما يرويه، ثم كان بينهما عهد صداقة. وروى سوغريفا بدوره محنته مع أخيه فالي، وما لقي على يديه. فاقسم راما عندئذ، كما يقضي العهد، بأن يجتث فالي وشروره من الأرض، ولكن سوغريفا لم يكن ليطمئن إلى امتلاك راما ما يكفي من القوة والبأس لينجز هذا الوعد، فشاء أن يمتحن قوته بأن أظهر له جبلاً من

العظام من جسم العملاق دندابي. فما كان من راما إلا أن رمى بذلك القدر الهائل من العظام مسافة عشر يوجنات بركلة من قدمه، ثم سدد سهماً وأطلقه من قوسه فإذا بذلك السهم يصيب سبعاً من أشجار النخيل، وشق بعدئذ جبلاً إلى نصفين بضربة من رمحه، واخترق الأرض حتى بلغ منتصفها. واطمأن سوغريفا حين شاهد تلك المآثر إلى قوة راما ومحضه كل ثقته. ولقد سار سوغريفا وصاحبه راما بين وديان سحيقة حتى بلغا مدينة كيشكيندا؛ وهناك أطلق سوغريفا صرخة رهيبة كقصف الرعد اهتزت لها المدينة. فبرز زعيم القردة الهمام فالي، بالرغم من مناشدة زوجه تارا أن يتجاهل الاستفزاز ويمكث في مكمنه، وشرع يصارع سوغريفا.

نظر راما إلى فالي، ثم التقط قوسه وكما شاء سوغريفا، صرعه بسهم واحد اخترق بدنه فسقط قتيلاً لتوه؛ وعهد إلى سوغريفا عندئذ بحكم كيشكيندا، فحشد هذا قوة كبيرة من القردة، وأرسلهم إلى جميع الأصقاع، ليستطلعوا مكان سيتا. ثم إن زعيم الكواسر الشجاع سمباتي، أخبر هانومن بعد حين بمكان سيتا. فنهض القرد وبقفزة واحدة قطع البحر بين بلاد الهند ولانكا، وهي مسافة تبلغ مئة يوجنا.

وما أن دخل هانومن مدينة لانكا التي سهر رافانا على تحصينها وبذل الكثير لتبقى منيعة، حتى أخذ يجول فيها، إلى أن أبصر سيتا جالسة منشغلة بالتفكير براما وضارعة أن يأتي لإنقاذها من محنتها. فتقدم منها وقدم لها خاتماً منه، وطمأنها إلى حال زوجها ومولاها. وكان في هذا اللقاء ما بعث في قلب سيتا الأمل والشجاعة، واندفع هانومن فحطم باب الحديقة، ثم التفت فوجد سبعة من أبناء كبار أعوان رافانا وخمسة من كبار قادته، فعمل فيهم قتلاً وذبحاً، وأحال ابن رافانا ذاته إلى رماد. ولكنه وقع أسيراً في قبضة رافانا.

ولقد كان هانومن يعلم أنه منيع أمام السلاح الذي منحه براهما لرافانا حين أُشهر في وجهه، إلا أنه اعترافاً بجاه صاحبه، براهما، آثر أن يؤخذ أسيراً، محتملاً في ذلك الكثير من العسف والإهانة مما ناله من أعوان رافانا، ولكنه سرعان ما انقلب على حراسه فثار واندفع كالعاصفة الهوجاء يشعل الحرائق حيثما وطأت قدماه، فاصبحت لانكا خراباً، ولم يبق على

شيء منها، سوى المكان الذي كانت سيتا أسيرة فيه.

ولما انتهت مهمته عاد ليروي لراما ذي الباس والجبروت خبر سيتا، مسهباً في الحديث عمّا صادفه حتى عثر عليها وما كان من أمرها.

ولقد خرج راما يصحبه سوغريفا وجماعة من الأعوان، إلى البحر، فاثار بوابل من سهامه عاصفة هوجاء، وظهر له صاحب المحيطات والأنهار والجداول ساغرا. وبمشورة منه أقام نالا، جسراً ليعبر القوم البحر إلى لانكا؛ فدخلها راما، ثم قتل رافانا وحررّ سيتا من الأسر. وكان قد أثير الكثير من الأقاويل حولها، وأخذ بعض حاشية راما يعرِّضون بها، وينالون من سمعتها، ويحرضونه على طردها، إذ لا يليق به أن يحتفظ بامرأة عاشت أمداً تحت سقف قصر ذلك الشيطان رافانا، فوجه إليها زوجها أقسى العبارات على مرأى ومسمع من الناس. وقد احتملت سيتا بصبر ورباطة جاش ما سمعت من مُر القول من راما، ثم نهضت حين انتهى حديثه وسارت نحو النار العظيمة وسط المجلس، ودخلت بين ألسنتها الملتهبة، ثم خرجت ولم ينلها أي أذى، فكان ذلك برهاناً ساطعاً على براءتها، أمام زوجها واتهاماته لها، فجلس راضياً.

ولقد تعالت أصوات المخلوقات كلها من العوالم الثلاثة، الأرض وما تحت الأديم وفي السموات العلا، والآلهة والحكماء الصالحين، تلهج بالشكر لزوال أثر رافانا وشروره. ومن ثم قام راما فولى أخا رافانا فيبيشانا ملكاً على الراكشا.

ولقد سافر راما بالمركبة الطائرة، بوشباكا، يصحبه سوغريفا إلى صومعة الحكيم بهرادفاجا؛ وأوفد من ذلك المكان هانومن إلى الأمير بهاراتا، وبعد حديث مع سوغريفا ركب مركبته مسافراً إلى نانديغراما.

وبعد انقضاء فترة النفي الذي شاءه له والده الملك دشاراتا، قصّ شعره، وجلس وإلى جانبه سيتا، على عرش آيوديا، وسط تهليل الشعب، فعمت الأفراح وصدحت الأصوات بالأهازيج، وقد برئ الناس يومئذ من أمراضهم وأسقامهم، وما عادوا يعرفون المجاعة

والأمراض أو تهديد أمنهم، ولا فقد أب ابنه، أو مات زوج عن امرأته، وبات الناس في أمان من العواصف والسيول، ومن فتك الحمى والطاعون؛ ولم يعد هناك من يخشى الفقر والعوز، أو مداهمة اللصوص. وباتت البلاد جميعها في ذلك العصر الذهبي في رخاء، وعمت السعادة الناس أجمعين.

وأحيا السيد راما وزوجه سيتا منذ ذلك الحين ما لا يحصى من الطقوس المقدسة وبذلا الكثير الكثير من القرابين حسب التقاليد الفيدية، وما انقطعا عن توزيع الهبات من الذهب والآلاف من الأبقار، فكفلا لنفسيهما مكاناً في جنان الخلد. وكان من أمر راما أنه زاد في النعم لذريته، وبذل الثروات الطائلة للبراهمة. وقام في عهده برسم مهام كل طبقة، وقد دام حكمه أحد عشر ألف عام انتقل بعدها إلى مكانه المحفوظ في السماء، المعروف بالفايكونثا فردوس فيشنو.

يقول الراوي إن من يطالع حكاية راما، وهي ترسم الفضائل وتصف النفس في نقائها، يبرأ من كل إثم. وإذا طالعها بإيمان وإخلاص غدا وأبناؤه وأحفاده وخدمه يوم يثوي في أعلى مقام.

والبراهمي إذا ما طالع هذه الرواية أصبح متضلعاً في كتب الحكمة، الفيدا، والفلسفة؛ كذلك فإن المحارب، الشاتريا، يصبح من الملوك بعد ما يتعرف إلى حكاية راما، ويتسع رزق التاجر، الفيشيا، وسيحظى الفلاح، الشودرا، بالمقام العالي في طبقته.

امتلأت نفس فالميكي الحكيم البليغ وتلميذه بهرادفاجا، لسماع حكاية راما بعبارات نارادا عجباً ودهشة، وحل راما في أعظم موقع في قلبيهما. ولما شاء محدثهما الرحيل احتفلا به وقدما له ما تفرضه مكانته السامية من واجب التقديس، ثم ارتقى من موضعه عندئذ على الأرض إلى مقامه في السماء. وبعد رحيل نارادا، مضى الحكيم الزاهد فالميكي إلى ضفاف نهر تاماسا، بالقرب من نهر الغانج ولما بلغ المكان المقصود ورأى مياه النهر تتدفق صافية رقراقة قال لحواريه: "انظر، أي بهرادفاجا، صفاء ماء هذا النهر المقدس وروعته،

فكأنك ترى عقل إنسان صالح. فهيا، يا بني، وآتني، على عجل؛ بجرة وبردائي المنسوج من لحاء الشجر من الصومعة، لأغتسل في هذا الجدول القدسي!"

صدع الحواري بأمر معلمه وأتى على عجل بالإزار من صومعة الحكيم. فارتداه الرجل الصالح، وتهيأ للطقس بالتأمل حتى خضعت لامره حواسه وملكاته، ثم نزل إلى النهر، وهو يتلو صلواته المألوفة، ويرفع جرة الماء مليئة ثم يصب ما فيها ولسانه يلهج بالدعاء لأسلافه ويبتهل إلى الآلهة. وأخذ في التجول بعد انتهاء الطقس في أرجاء الغابة، والاستمتاع بجمال الطبيعة الأخّاذ.

وما زال فالميكي في تجواله يتقصى تلك المواقع التي لم يكن قد دخلها من قبل، حتى صادف زوجاً من طيور الكركي يتزاوجان، لاهيين عما حولهما وهما مستغرقان في تبادل الحب بينهما. ورأى الحكيم، وهو واقف على مشهد الحب، صياداً يتسلل إلى ذلك الموضع من الغابة، ثم يقبع متربصاً، يرصد الطيرين وهما يتحابان والذكر يغرد جناحه على رفيقته وكلاهما في أعلى ذرى المتعة، فلما حانت السانحة وجه سهمه إلى الذكر المخيم على أنثاه، فناله، ووقع مضرجاً بدمائه وهو يطلق صرخات الألم، فالتفتت إليه ورأت دماء وليفها الصريع، فسُمع لها نحيب ونشيج تردد صداهما في الغابة.

ولقد غمر الحزن قلب الحكيم، حين رأى الصياد الصلف يرمي الطائر بسهمه، فيقع صريعاً، واستولى عليه الأسى وهو يسمع نواح وشكوى أنثاه، واشتد به الضيق لشناعة ما فعله الصياد، فقال: "قد قتلت أيها الصياد طيراً في ذروة متعة الحب ، فحق عليك أن تحرم من الخلف. وألا تطأ هذه الغابة طوال السنين، وإلا نزل بك الشر العظيم."

ولكن ما أن نطق الحكيم بهذه العبارات، حتى أخذ يتمعن في مضامينها وآثارها البعيدة، وقال محدثاً نفسه: "أي عبارات هذه التي نطقت بها، بتأثير الشفقة على الطائر لقتيل؟"

وشرع حكيمنا العارف يعمل الفكر في الأمر لحظة من الوقت لا تزيد، والتفت بعدها إلى

تلميذه وقال: "قد حملني ما انتابني من الأسى على نظم قصيدة مطولة تفتقت عنها قريحتي متوازنة الأبيات، أنشودة يصدح بها المغنون، لعلها تخلد ذكري فيبقى بين الناس غير مثلوم بعد أن أرحل عن هذه الدنيا. فاصغ إليها، يا بني!"

وكان الفتى ذا ذاكرة حسنة، فحفظها بينما كان مرشده يتلوها عليه، ونال لذلك الرضا من صاحب الملحمة. وعاد الحكيم إلى النهر واغتسل حسب التعاليم والطقوس، ثم قفل عائداً إلى صومعته، وفي إثره تلميذه، حاملاً جرة ملأى بالماء.

وإذ حل الحكيم في صومعته التفت بادئ ذي بدء للصلاة لمولاه فقام بالطقوس على خير ما يرام، ثم توجه إلى تلميذه بعدئذ وشرع يلقنه أصول المعرفة ويبسط له التاريخ القدسي، ثم جلس للتأمل واستغرق في ذلك كل جهده وطاقته. وانقضى حين والحكيم منقطع لتأمله، وإذا ببراهما ذي الوجوه الأربعة يطل عليه بجلال طلعته. فنهض فالميكي على عجل، وقد استولت عليه الدهشة من وقع المفاجأة، ليرحب بزائره ذي القداسة، بكل ما في أعماق الحكيم من تواضع والمؤمن الصالح من إجلال؛ ثم أجلسه في مكان الصدارة اللائق، وشرع يسكب ماء النذور أمامه، كما تقضي الشرائع، وأخذ يسأله عن أحواله. ولقد تقبل ذو القداسة ذلك التكريم برضا وسرور، وأشار إلى الحكيم بالجلوس، فامتثل وجلس حيث أشار له براهما، وبدأ في عرض أحزانه شاكياً قسوة الصياد وقتله الطير الذي كان يشع سعادة، وهو يعانق وليفته. فقال براهما وقد رأى ما أصاب الحكيم من الحزن والألم: "لتكن هذه الكلمات التي حملك على قولها، أيها الحكيم العظيم، موت الطائر، شعراً يأخذ عنك الناس فنه. ولترو قصة راما، صاحب الفضيلة الخالصة، وأسمى الصفات، كما رواها لك نارادا. ولتعرض قصيدتك مآثر راما وسيتا ولكشمانا والأشورا. ولتعلم الخليقة أن روايتك عن الملك دشاراتا وأزواجه، وبلده وقصره، ومقالاته ونهجه وما كان من أحواله، إنما كان بنعمة مني. ولسوف تكون كلماتك صدقاً خالصاً. فهيا ارو حكاية مآثر راما السامية الممتعة. واعلم أيها الحكيم أن الناس سيرددون حكاية راما، ما دامت الجبال منتصبة والأنهار جارية .ولسوف يظل ذكرك يتردد ما دامت حكاية راما تدور بين الناس".

قال براهما هذه الكلمات، وصمت قليلاً وأطرق متمعناً في ما قال في أعماقه، واختفى عن النظر.

ولقد عجب الحكيم وتلميذه أشد العجب لذلك الحدث العظيم، والتفتا بعدئذ إلى قراءة تلك القصيدة التي جادت بها قريحته، بتمهل وتان، مقطعاً مقطعاً، وكلما انتهيا من قراءة شيء من الملحمة ازدادا عجباً وذهولاً، واستغراباً واستمتاعاً. ولما فرغ الحكيم فالميكي من قراءة الملحمة انقطع للتأمل في خالق الكون، وطرأ في خاطره، في تلك الوهلة، أن يروي قصة راما ذي الخصال والمناقب، قاهر رافانا، عنوان الشر.

امتلكت سيرة راما كما بلغت الحكيم فالميكي من شفتي نارادا قلبه ووجدانه، فكانت تشيع الصفاء في نفسه كلما استذكرها. فانشغل باستقصاء موضوعها الجليل. وقام كما يفعل في مثل هذه الأحوال وغسل يديه وقدميه، وارتشف قليلاً من الماء الصافي؛ وجلس متجهاً نحو الشرق على حصيرة من الحشائش وضم كفيه إلى بعضهما؛ ثم استغرق في تأمل عميق، وإذا براما يظهر له في رؤى عرضت للتجارب التي مر بها وسيتا ولكشمانا، وعلم فالميكي ما جرى لهم، وما كان من أمرهم في كل حين. وشهد في تلك الوهلة الحقيقة، وما كان عليه أمرهم في الغابة وسواها من البقاع.

واستطاع الحكيم فالميكي أن يطالع أحداث الماضي، بفضل ما له من قوة التأمل وتمكن من رياضة النفس، كما لو أنه يطالع في صفحات كتاب مفتوح. وهكذا شرع الحكيم المستنير يعرض لحياة راما، بعدما شهد كل ما صادف من أحداث ومحن ووقائع.

إن سيرة راما التي رواها فالميكي عن نارادا تعرف قارئها إلى نهج الاستقامة وتاتي له بالرفاه وتمنحه متعة الفكر والروح، وليس فيها ما يحط بالفكر، بل كل ما يبعد عن النفس الأسى، فتسحر الفؤاد، وهي كالبحر تذخر بالدُر النفيس.

والقصيدة المأثورة كما قدمها فالميكي تعرض لحياة راما وتبسط الحديث في مآثره الجليلة من شجاعة في مواجهة كل امر، وشهامة في كل حال، وحدب على كل إنسان، وسلامة

طوية في كل موقف، وما اتصف به من نزوع إلى المغفرة والرحمة؛ وما كان يتحلى به من ملامح وضاءة، ولين طباع؛ ثم ما عرف به من شغف بالصدق وما هو حق، وما اتصف به من تواضع، وما كان منه في نجدة الحكيم فيشفاميترا. كذلك تعرض لما أخذه عن فيشفاميترا من علم ودأبه على الدرس على يديه، وتصف قصيدتنا كسر راما القوس الرهيب بقبضته، ونعلم منها أسرار زواجه بالأميرة سيتا، ثم نزاعه وباراشوراما، وتصف لقارئها الإعداد لجلوسه على كرسي ولي العهد؛ ومنها نحيط بخصاله العظيمة، ونتعرف إلى معارضة الملكة كايكيه لهذا التعيين، ونعلم بنفيه إلى الغابة، وموت أبيه الملك دشاراتا، وزيارته الحكيم بهرادفاجا، ورحيله إلى جبل تشيتراكوتا وإقامته في كوخ، ومحاولة بهاراتا إقناع راما بالعودة إلى مملكته، وزيارة راما غابة دنداكا ومقتل فيرادا الشرير، ومقابلة الحكيم شارابنجا، ووصول رافانا، ومقتل ماريخا، واختطاف سيتا، والالتقاء بهانومن، وعهد الصداقة بين راما وسوغريفا، ومقتل فالي بيد راما؛ وحزن تارا، وحشد جيش القردة، واستطلاع أحوال لانكا، وعبور هانومن البحر قفزاً إلى لانكا، وبروز جبل ميناكا من أعماق البحر، ومقتل العفريتة سيميكا الشريرة، ومصادفة رافانا وعربته الطائرة بوشباكا، ووصول خاتم راما يحمله هانومن إلى سيتا، وهديتها إلى راما، ووصول راما إلى الشاطئ، وعبور البحر العظيم، وحصار لانكا، ولجوء فيبيشانا أخو رافانا إلى راما وإعلانه خطة للقضاء على رافانا، وفيبيشانا يهدي راما العربة الطائرة، بوشباكا، وعودة راما إلى آيوديا، ولم الشمل، واحتفال الرعية بتتويج راما، وحديث المتقولين عن سيتا، وثبوت براءتها، ثم خاتمة الملحمة التي صاغها فالميكي وروايته لسيرة راما وبطولاته ومآثره العظيمة.

وضع الحكيم العظيم فالميكي هذه التحفة الخالدة، والملك راما ما يزال على عرشه في آيوديا، وصاغها شعراً في أربع وعشرين ألف بيت، ثم صنف عمله في خمسمئة فصل، وستة كتب، أضاف إليها فوق هذا خاتمة. ولما تم عمله نظر إليه متمعناً، وتساءل: "لمن تراني أدرس هذا الأثر؟"

ووجد هذا الحكيم ولدي راما وسيتا، الأميرين الصغيرين كوشا ولافا، يدخلان عليه

يقطعان خلوته وأفكاره، ويحييانه بكل ما يليق بمن ولد في ذلك البيت العتيد من الوقار والأدب. فأخذ يتأمل هذين الأميرين وما يتحليان به من كمال الخلق وعذوبة الحديث طوال إقامتهما معه في الصومعة. ولما كان الحكيم، قد عهد فيهما الذكاء ورجاحة العقل ومعرفة كتب الحكمة، فإنه قام على تدريسهما هذا الأثر العظيم الذي ضمنه شرح الكتب المقدسة.

وهكذا بسط فالميكي المشهود له بالمعرفة للأميرين في هذا الأثر الخالد سيرة راما وسيتا وما كان من شأنهما، وما جرى من الحوادث التي أدت إلى مصرع رافانا. وهذه الملحمة تروي تاريخاً، وهي قصيدة تطرب الأذن لسماعها وتتكيف مع إيقاعات الزمن الثلاثة، السريع والمعتدل والبطيء، وتنصاع للغناء على أوتار القيثارة الفينا؛ وتعرض لأحوال الحب والشجاعة، الاشمئزاز والغضب، الرعب والحنان، العجب والضحك، وصفاء النفس، على وجوه هذه الأحوال كلها وتحولاتها وتقلباتها.

وكان الأميران رغم ما هما عليه من حداثة السن، موسيقيين مجيدين، بارعين في العزف وفنون الإيقاع والغناء، يساعدهما في ذلك ما لهما من رخامة الصوت وملاحة التقاطيع فيحلو للناظر أن يملي العين منهما، وهما يشدوان بتلك القصيدة الدُرّة، وكأنهما من الجندارفا، تلك المخلوقات العلوية التي عُرفت بموسيقاها العجيبة. وكانا يمتلكان الجمال الذي تختص به المخلوقات السماوية وحسن الصوت والأداء مما يجعل منهما تذكرة براما ذاته، وقد دأبا أن يرددا ذلك الأثر الأدبي العظيم والسفر المجيد حتى رسخ في خاطرهما، وباتا ينشدان الرامايانا بأعذب صوت وهي تدعو إلى الفضيلة، أمام الحكماء والبراهمة المتبحرين في فروع العلوم وأصولها والزهاد على اختلافهم، كما أخذا عن معلمهما فالميكي الرواية وفنون الإلقاء.

وقد صادف أن ألقى الأميران هذه الملحمة العظيمة ذات مرة في مجلس الحكماء، وتجلت براعتهما في الإلقاء يومذاك فأجادا وأبدعا في الغناء، والقوم مشدودون إليهما، وظهر عليهم التأثر حتى اغرورقت عيون أكثرهم بالدموع تأثراً وانفعالاً. ولم ينقطعوا طوال الوقت عن

إبداء عبارات الاستحسان من شدة الاستمتاع.

وكان الحكماء لا ينفكون طوال الوقت عن تكريم المغنيين الصغيرين، فكان هذا يقدم لهما الشراب المحلى بالسكر، وذاك يكرمهما بالثمار الطيبة، وآخر يخلع عليهما المآزر المحاكة من لحاء الشجر، ثم آخر يقدم لهما جلود الغزلان؛ وقام بعضهم بتكريمهما بالخيوط التي تقدم في الطقوس المرسومة لمن بلغ كمال الروح، ثم أهداهما البعض أوان لجمع العطايا، كما قام بعضهم بخلع مختلف أشكال الأردية عليهما، فكان منها ما صنع من الجلود وأغصان الكوشا، ومنها ما كان من النسيج الأصفر، وقدموا لهما الأوشحة والخيوط لربط الشعر، والسبحات والفؤوس. وكانوا جميعاً يمطرونهما بالدعوات الصالحة بطول العمر والعيش الرغد، وهما مسترسلان في شدوهما لتلك الملحمة الرائعة.

وبينما الجمع مستغرق في متعة الإصغاء إلى الأميرين الصغيرين وهما يعرضان هذا الأثر العظيم بصوتهما الرخيم وفنهما الحسن، مر بذلك المجلس راما تشاندرا، ولفت انتباهه إقبال الحكماء على سماع المنشدين، وأصوات الاستحسان والتقاريظ التي كانت تتعالى من الحضور. فدعاهما راما عندئذ إلى قصره، ولما اتخذ مكانه على عرشه المصنوع من الذهب، يحيط به وزراؤه وإخوته، لكشمانا وشاتروغنا وبهاراتا، أشار إليهم بالاستماع إلى الملحمة التاريخية وهي تجري على لسان هذين الطفلين الرائعين، وتصور أحداثاً بديعة المعاني.

وهكذا شرع الأخوان بالإنشاد، وقد شجعهما حديث راما تشاندرا وتقريظه، ويبديان في روايتهما على أنغام القيثارة من ضروب الإبداع وفنون الغناء ما جعل الحاضرين في مجلس الملك يصغون لذلك العرض وكأنما مسهم السحر.

***

كان العالم يتألف، في قديم الأزمان، من سبع جزر يقوم عليها ملك واحد، هو مانو، أول البشر، وصنيعة براهما، والمنصور أبداً، ومن نسله كان كل من تعاقب على هذه البقاع من

الملوك.

وقد أعقب أحدهم، ساغرا، ستين ألف ولد، هم الذين احتفروا البحر المحيط. والرامايانا هذه تروي تاريخ بيت ساغرا الذي أسسه ايكشفاكو، ومملكة كوسالا على طرف نهر سرايو، وعاصمتهما آيوديا التي أسسها مانو ذاته، وجعلها منذ ذلك الحين قبلة أنظار العالم. وقد امتدت رقعتها لمسافة ست وتسعين يوجنا طولاً وأربع وعشرين يوجنا عرضاً، وكانت رائعة العمارة والتخطيط، واسعة الحدائق والجنان، وتحفل بكل أنواع الورود والأزهار.

ولما تولى الملك فيها دشاراتا أحاطها بكل أسباب الحماية فاصبحت حاضرة حصينة، لا تقل عن أمارافاتي، عاصمة إندرا، قوة ومنعة. وكان للمدينة أربعة أبواب ضخمة حسنة الصنع، وما وراءها أسواق جميلة تزهو على سواها بما تحتوي عليه من أفخم المصنوعات وأبهاها، ومن حولها حصون قام على بنائها ابرع المهندسين وأمهر العمال. وكان من يتجول فيها يُسحر بما يتردد في شوارعها وساحاتها من غناء المغنين وإنشاد جوقات المنشدين. أما أهل المدينة فكانوا يرفلون في عيش رغيد وحياة هانئة، في دور فسيحة تزين مداخلها أعلام وبيارق ترفرف خفاقة في السماء، وتحيط بكل بيت حديقة غناء حافلة بالزهور والورود وأشجار الفاكهة، فتكسب المدينة منظراً جميلاً يأسر القادم إليها، وهي تستقبله من بعيد باطيب أريج، فيحسب أنها تلك الجنان التي يتغنى بها الشعراء. ومما زاد في منعتها خندق عظيم يشق على أفضل الجيوش عدة وعتاداً أن يخترقه ليبلغ أسوارها الحصينة العالية. ولكن من دخلها سلماً كان يجد فيها من الفيلة والأبقار والجمال والبغال ما لا عد له ولا حصر؛ وذلك شاهد على مبلغ ثراء أهلها، وهذا ما جعلها مقصد التجار من مختلف بقاع الأرض، فكانوا يأتون إليها حاملين أجمل البضائع ليبيعوها باغلى الأسعار، أو ليقايضوا بها بضائع أخرى مما تحتويه مخازن تجارها أو مما يحمله تجار آخرون من بلدان المعمورة الأخرى، فيعود ذلك عليهم وعلى بلادهم بالخير الوفير.

وكانت آيوديا تبدو للزائر مكاناً فريداً، لكثرة ما فيها من القصور العامرة المزينة بالذهب، والمرصعة بالجواهر النفيسة، بينما تبدو قبابها أشبه ما تكون بقمم الجبال العالية؛ وكان المرء

يرى إلى جانب تلك القصور المباني العالية الشامخة بطولها حتى ليحسبها المرء تعانق السماء، فضلاً عن البيوت الواسعة الرحبة ذات البناء الجميل، والتي تتردد في جنباتها أعذب الألحان، وكانت دور النبلاء تنتشر في مختلف أرجاء المدينة، فتظهر للناظر أشبه بالمركبات الطائرة التي تحمل أهل الصفاء وكمال الروح إلى الجنان في السماء.

أما طبقة المحاربين الشاتريا الذين يعيشون في المدينة فليس من خلقهم قتل العدو إذا أدبر، وقد اشتهروا بالمهارة في الرمي بالقوس والقدرة على تدمير الهدف بقوة الصوت وحده. وأكثرهم عُرف بالفتك بالنمور والأسود والذئاب الهائمة بالقرب من منازلهم، إما بمنازلتها عزلاً أو مسلحين. تلكم هي المدينة التي شيدها الملك دشاراتا، ليقيم فيها الآلاف والآلاف من قادة البلاد وما لا يحصى من أهل العلم والفضيلة الذين ديدنهم الحرص على أصول الشريعة؛ وكان هناك، بعد، إلى جانب هؤلاء وأولئك الحرفيون والصناع، والعارفون بكتب الحكمة والمنشغلون دوماً وأبداً بالبحث عن الحقيقة، وسواهم من أهل الصلاح والبصيرة المتمكنين من اليوغا وأسرارها.

كان القائم على الزمان في تلك الحاضرة الباهرة الملك دشاراتا؛ وكان ملكنا هذا يسير على نهج ملك الملوك مانو، رجلاً عالماً عارفاً، متضلعاً في شرح كتب الحكمة المقدسة، قوياً بسعيه إلى الحقيقة والتعمق في أحوال العالم وامتلاك المعارف وحماية الفضيلة، ولم يكن بالرجل الذي ينكث بعهده قط، بل عُرف بالحرص على الفضيلة، وكان مهيباً محبوباً من رعيته، وفارساً لا يشق له غبار في قيادة المركبات، رجلاً جديراً بنسبه إلى ايكشفاكو، شديد العناية بالطقوس، مقيماً دائماً على الحق واتباع الطرق القويمة. فلا عجب إن كان رعاياه يسلمون له القياد، وهو المعروف بالحكمة والبصيرة الثاقبة، وبأن النصر حليفه في كل الحروب التي خاضها، وهو الرصين المالك لعقله المسيطر أبداً على حواسه وشهواته، وإن اجتمعت له ثروات كوفيرا، رب الثراء، وعظمة إندرا ذي السلطان.

وكان هذا الملك الصادق الصدوق الحريص على رفاه قومه وسعادتهم، يقوم على شؤون مدينته كما يتولى إندرا شؤون أمارافاتي. وقد قُدِّرَ لأهل المدينة أن ينعموا بالسعادة في

حماه، وعرفوا منذ ذلك اليوم بالحرص على الفضائل والدأب على تحصيل العلم واكتساب الخبرات، وكل فرد منهم راض عن حياته في حمى ذلك الملك، منقطع لما تيسر له من العمل، حريص على عفة اللسان والصدق في الكلام. ولم يكن من هؤلاء من يرضى لنفسه الهوان أو السخف أو التورط في أي رذيلة؛ وكل منهم يعيش سعيداً وأسرته بما كسب وماله من أطيان وماشية وخيل. ولذلك لم يكن المرء ليصادف في تلك المدينة ما يشي بضعة بين الناس أو تيه أو حمق أو كِبر. وقد عرف الرجال والنساء، سواء بسواء، بسلوكهم الرصين وضبط النفس عن الشهوات، فكانوا عموماً أشبه بالحكماء العظام في حياتهم. ويحرصون، إلى هذا وذاك، على نقاء أفكارهم وطهارة أبدانهم، وسماحة النفس، أيديهم مبسوطة، لا يعرف بينهم جائع، فإن كان منهم من أصابه ضنك هرع إليه الجوار وأعانوه على حاله. غير أنهم لشدة حرصهم لم يكونوا ليقربوا المحرم من الطعام مهما يكن السبب، ويدأبون على رياضة النفس وإخضاع العقل بالمران؛ وذلكم أمر يستوي فيه الكبير والصغير. ولم يكن بين هؤلاء من يعرض عن الواجب أو اتباع أوامر الدين؛ وما كان المرء ليجد من هؤلاء من أخذ بالسرقة، أو مولوداً من أبوين من طبقتين مختلفتين.

وكان البراهمة مشهوداً لهم بالحرص على أداء واجباتهم وأخذ النفس بالصرامة، وأن من حقهم قبول الهدية. وهؤلاء هم القائمون بأمر الدين والصدق في الفكر، والمعروفون بالإعراض عن شهوات الدنيا، والترفع عن الصغائر والتعريض بالآخرين. وليس بين هؤلاء البراهمة من لم يكن يحيط بمدارس الفلسفة الست، أو تجده يهمل الصيام عند اكتمال القمر وسوى ذلك من المواعيد الموسومة؛ والحق أنه لم يكن بين هؤلاء من يشكو علة في البدن أو العقل، أو يضيق بالحياة في تلك المدينة.

وما كان المرء ليصادف بين أهل الحاضرة من ينزع إلى الثورة على النظام أو عصيان الملك أو الدولة. ولكن عهد المرء بأولئك الذين يسكنون البلد أنهم يكرمون الآلهة والضيف وعابر السبيل؛ وإذن فهم أهل كرم وأريحية وطيب نفس.

وكان هؤلاء القوم يعيشون حياة مديدة لا يحيدون فيها عن الحق والصدق، يألفون حياة

الأسرة؛ وكنت تجد في البيت الواحد العديد من الأبناء والبنات والأحفاد، والنساء التقيات الفاضلات. ويتلو البراهمة ذوي العلم والمعرفة في المرتبة المحاربون، وهم عماد الدولة وسيفها الصارم المشهور في وجه العدو، فطبقة التجار، والناس يخدمون هؤلاء وأولئك حسب تبعيتهم.

ولقد عرف الملك دشاراتا باقتدائه بمبدأ ملك الملوك، مانو، في قيامه بشؤون الدولة بالحكمة والمقدرة وسمو النفس.

وكان لآيوديا في عهده جيش عرمرم، وجحافل من المحاربين ذوي الشدة والبأس يقومون على حراستها، كما تحمي الأسود عرينها، فباتت لذلك منيعة حصينة. وحرص الملك دشاراتا على أن يزودها بأفواج من الخيل جاء بها من كل البقاع المعروفة بتربية الخيول، مثل كامروجا وفانيا، وفهلي وسفوح الهمالايا؛ وأما الفيلة فمن فيندهو وهيمافات، وهي ضخمة كالجبال العظيمة.

وكانت مدينة آيوديا عامرة برجالها أهل الشجاعة والإقدام من الأقوام النبيلة، من البهادرية والمولا والمريجا، وأرضهم في نواحي البنجياجالا وسفوح الهمالايا. فلا عجب، إذن، إن سميت بآيوديا، أي "المدينة المنيعة التي لا تؤخذ حرباً".

وهكذا حكم الملك دشاراتا مملكته، كالقمر وسط نجوم لا حصر لها ولا عد؛ فهو إذن، أشبه بإندرا ذاته، يبسط حكمه من عاصمته المنيعة الحصينة ذات الحواضر والآلاف من السكان أهل اليسار والعيش الرغيد.

قد علمنا أن وزراء أسرة ايكشفاكو السبعة وعلى رأسهم كبيرهم سومانترا، كانوا يوالون الملك دشارلتا أشد الموالاة ويحرصون على مصلحة الحكم، ويبذلون في ذلك ما وسعهم فيقدمون له المشورة الصادقة المخلصة، كما كانوا يلتقطون إشاراته وتلميحاته، ويقومون بتنفيذ ما يوحي به دونما تأخير أو تلكؤ.

وإلى جانب هؤلاء كان الملك دشاراتا يجد العون في قضايا الروح من فاسيشطا ومهاديفا،

وهما ملجاه في أوقات الشدة، فيرجع إليهما كلما اقتضى الأمر نصيحة أو مشورة، مطمئناً إلى ما لهم من البداهة وحسن التدبير، وما يتمتعون به من اطلاع واسع على القوانين الموضوعة والأخلاق فضلاً عن طول الأناة والصبر، والخلق القويم والكياسة في تدبر الأمور، والترفع عن الصغائر والبعد عن الضغائن، والاستقامة والنزاهة في التقدير والحكم، والبعد عن الأثرة والهوى، فلا يحابون قريباً ولا يتشددون في أمر يتعلق بغريب.

وكان هؤلاء المستشارون والوزراء أهل علم وتبصر، ولهم باع طويل في علوم الاقتصاد والحرب، ويتصفون بالعدل فلا يعسفون حتى بالعدو. كذلك يشهد لهم بالشجاعة والإقدام واجتناب الطمع؛ إنما كان دأبهم متابعة الأحداث والإحاطة بكل ما يجري في البلاد، والعمل على رعاية كل من يعيش في حمى الدولة. وزيادة موارد الخزينة، دون إرهاق أهل العلم وأهل الحرب؛ لكنهم كانوا مع ذلك يأخذون من أخطأ سواء السبيل أو ضل الطريق بالشدة حتى يثوب إلى رشده، دون عسف أو إرهاق. وإذن، فقد كان هؤلاء الوزراء أهل صفاء ونقاء وعفة. ولو نظر المرء إلى أمرهم علم أنهم لا يخالطون امرأة الجار، ولوجدهم جماعة من الناس يؤثرون السلام في حياتهم، وهم يجاورون بعضهم البعض. ولقد شاع نبأ هؤلاء وطار صيتهم إلى أقصى البلاد، فوصفوا بالشجاعة والمهارة في مختلف الفنون، وكانوا دوماً المرجع كلما اختلف المشرعون في قانون أو حكم من الأحكام، يلتمسون الحكمة في كل رأي أو تشريع، ويحرصون على سمعتهم بالاستقامة، وتنمية قدراتهم العقلية بالنقاش ودراسة الفلسفة. فيتبادلون الرأي فيما بينهم وما يبلغهم عن أحوال الناس وما يحتاجون من العيون والأنصار، فيعملون على معالجة الخلل وتصويب ما يضطرب من تلك الأحوال حتى تستقيم بالتدبر والحصافة في التقدير.

أما الملك فشأنه أن يحول دون أهل السوء وإفساد الأوضاع في مملكته، ولذلك عُرف في العالم باسم "بحر العدل"، وكان له المقام الأسمى بين حكام المقاطعات في بلاده، فحكم كإندرا في مملكته بكل جلال وبهاء، وشع نوره في العالم أجمع.

وهكذا كانت الأحوال تجري في يسر في آيوديا، لا ينغص على ملكها التقي الورع، ابن

الجود والكرم، سوى حرمانه من الخلف، وهو ما كان يثير فيه الحزن والأسى. ثم خطر بباله ذات يوم أن يقدم قرباناً علّ الآلهة تستجيب لتوسلاته فتنعم عليه بعقب تقر به عينه ويخلفه على العرش.

ولقد وافقه الحكيم فاسيشطا والبراهمة الآخرون، وتم اختيار حصان أبيض واستقر الرأي على أن تكون الضفة الشرقية من نهر السرايو الموقع الذي تجري فيه طقوس التضحية بالحصان "الأشفاميدا".

ومضى الملك من ثم فارسل سفراءه إلى كافة الممالك ليعلنوا عزمه على القيام بتقديم القربان العظيم زلفى وتقرباً لتمنحه الآلهة ولداً يعقبه، ويرث الملك من بعده.

وفي غضون ذلك أخذ الحرفيون والبناؤون والنجارون المهرة في إعداد السرادق العظيم والقصور حيث سيحل الضيوف العظام من الملوك ورؤساء القبائل، من أصدقاء الملك دشاراتا وأصفيائه: جناكا صاحب ميثيلا، وروميادا صاحب أنجا، وملوك كل من مغادها والشمال والسند وسوفيرا وسوراشترا، وسواهم حشد غفير من الملوك وأهل السلطان.

ولقد مضى عام بالتمام والكمال جال فيه الحصان المكرس للتضحية أقطار العالم حول كوسالا، حاملاً شارة الملك الذهبية، فلما كان ربيع العام التالي عاد إلى حيث انطلق، لتتم التضحية به قرباناً على مشهد من كبار الضيوف حسب ما تقول الكتب المقدسة.

تقدم سومانترا سائس الملك دشاراتا ووزيره الناصح، وقال له: "أحسب، أيها الملك العظيم، أن القربان والتضحية بالحصان لن يأتيا وحدهما لمولاي بولد. والواجب أن نكمل الأمر بأن نلتقي بالحكيم ريشيا - شرينجا موني ليتولى الطقوس. ولعل مولاي ما يزال يذكر أن بلاد الأنجا ظلت تعاني انحباس المطر اثنتي عشرة سنة، إلى أن جاء الملك رومبادا بهذا الحكيم الصالح فتمكن بقدراته المذهلة من إنهاء الجفاف الرهيب، فأخذت الأمطار تهطل أياماً بلياليها وتغمر الأرض حتى نبتت بالزرع وكان امتنان ملك أنجا عظيماً فزوجه من ابنته، والرأي عندي أن تتصل به وتدعوه لهذا الأمر؛ ولست أحسب أن في ذلك مشقة عليك.."

وقد استحسن الملك دشاراثا مشورة سومانترا، فتهيأ وسار في قافلة إلى بلاد الأنجا ليأتي بالحكيم الصالح، صاحب الخوارق.

وكان أهل آيوديا في فرح وبهجة وترقب ينتظرون الطقس العظيم، والمدينة يومئذ حافلة بالمآدب والصدقات للمحتاج وعابر السبيل، والأصوات تتعالى بالدعاء بالنصر للملك العظيم.

وكان أن حلت اللحظة الميمونة، وبدأ طقس التضحية بالجواد، وبذل الحكيم كل طاقاته في ذلك الطقس ليفوز الملك بولد. فأخذ في تلاوة النشيد السراني أمام موقد النار الملتهبة عند المذبح، بصوت جليل أخاذ استولى على حشد المجتمعين في هذه المناسبة، فانشدوا إليه مذهولين. وكان أريج الأزهار العَطِر يمتزج بروائح أوراق أشجار التفاح الخضراء المحببة إلى الآلهة. وجرار السمن الصافي، ومعها أطايب الثمار اليانعة والحبوب الذهبية، وأقداح الحليب الخثر والعسل، تصب فوق النار المتقدة، فتغذيها وتزيدها اشتعالاً فتتعالى ألسنة اللهب. والطقس يتدرج في مراحله وصوت الحكيم الذي بدأ خافتاً، بطيئاً، يعلو شيئاً فشيئاً ويتسارع غنياً بإيقاعاته، صافياً، رائقاً، فيما هو يرمي إلى النار بتفاحة برية، قدمها له الملك بيد مرتعشة.

وفي تلك اللحظة همس أحد الملوك من الضيوف في أذن وزير كان بجانبه، وهما يتابعان الطقس: "ما هذا الذي رأيناه؟". وأجابه وهو يهز رأسه حزيناً: "إنها هدية ناسك أعمى، مكلوم؛ وقد تأتي بخير لمليكنا أو تنزل به شراً، لأنه أخطأ بحق الحكيم." وكانت ألسنة النار تعلو، في تلك الأثناء، وتتصاعد فتبلغ عنان السماء، ثم تزداد ارتفاعاً، والقوم يحبسون أنفاسهم رهبة وترقباً، ومن بين ألسنة اللهب، يخرج عملاق لم ير الناس مثله من قبل، مهابة وجلالاً، في إزار قرمزي، تحلق فوق هامته أطياف تأخذ بالأبصار، حاملاً بين يديه طبقاً من الذهب مغطى بغطاء من الفضة.

وقال ذلك العملاق الجبار، وظله يخيم على المكان، والناس شهود على ما يرون: "لتعلم أيها الملك، أن براهما ذاته قد أعد بنفسه هذه العصيدة، وقوامها الرز والحليب والجوز واللوز

والزبيب. فلتأكل منها أزواجك، ومن ثم يحملن ويلدن لك الأبناء." قال هذا وقدم له الطبق، واختفى عن الأبصار، دون أن يترك أثراً.

ولكم فرح الملك دشاراتا وزاد سروره لتلك العلامة الإلهية، فشرع للتو يقسم ذلك الطعام بين زوجاته الثلاث. ولقد تحقق الوعد؛ فلم يمض إلا حين حتى ولدت له نساؤه أربعة أطفال، وكان أن وضعت كل من كاوساليا وكايكيه ولداً، أما سوميترا فولدت له أثنين. وكانوا جميعاً بهجة للناس والملك لما تحلوا به من جمال أخاذ. وقد بلغ الملك دشاراتا مبلغاً عظيماً من السعادة بهذا العقب، فأخذ يوزع الهبات والعطايا من خزائنه على أهل الحاجة ويفرق النعم على الناس من حوله، فأخذوا يلهجون بالدعاء له ولأبنائه بالعمر المديد.

وفي اليوم الحادي عشر من ولادة الأمراء حضر الحكيم فاسيشطا إلى القصر لتسميتهم، فكان أن سمّى ابن كاوساليا راما، وابن كايكيه بهاراتا، أما توأما سوميترا فقد أطلق على أحدهما اسم لكشمانا والآخر شاتروغنا.

ولقد نشأ الأخوة الأربعة على أحسن ما تكون النشأة، فكانوا قبلة الأنظار لما عرفوا به من وسامة المحيا وحدة الذكاء وكمال الفضائل والشجاعة وحسن الطبع والإقبال على اكتساب المعارف وتعلم فنون الحرب. وكان يجمع بين الأمراء فوق هذا وذاك شدة العصبية والوفاء لبعضهم البعض، وخاصة راما ولكشمانا. فلا عجب إن شغف بهم الملك وأزواجه لما لهم من صفات وخلال، وكانوا قبلة الناس تشخص إليهم الأبصار أينما اتجهوا وساروا.

وكان أن مضى حين من الزمن واشتد عود الفتيان وغدا شاغل الملك دشاراتا أن تقر عيناه بزواج أبنائه ورؤية أحفاده يدورون من حوله. ولكن ما كاد يمضي في مداولاته ووزرائه لتدبير هذا الأمر حتى ورد عليه الحكيم فيشفاميترا، المعروف بحدة الطبع والنزق وشدة الغضب، وكان من طبقة الحكام المحاربين ثم تحول إلى طلب الحكمة، وشاع صيته منذ ذلك الحين.

فرحب به الملك أشد الترحيب، وأراد أن يكرم وفادته على عادته في وصل الحكماء الذين

يفدون إليه، لولا أن فيشفاميترا أعرض عن قبول الصلات، قائلاً إنه إنما جاء لينال مساعدته في أمر جلل. فأكد له الملك أنه لن يدخر وسعاً في تقديم كل عون مهما يكن الأمر.

فأخذ فيشفاميترا في عرض غرضه، ووصف له ما يلقاه من عنت وهو يؤدي الطقوس فالراكشا رافانا ملك لانكا قد أرسل اثنين من أعوانه العفاريت، ماريخا وسوباهو، إلى الغابة قرب معتكفه، وما أن يبدأ في تقديم القرابين حتى يقوما بتدنيس المذبح ولذلك فإنه لا يسأله سوى أن يرسل معه ولده راما مدة لا تزيد على عشرة أيام، لأنه هو وحده القادر على القضاء على هؤلاء الأشرار، ذلك أن الحكيم لا قبل له بالتصدي لهم حينما يكون منصرفاً بكليته لأداء الطقوس. وإذن ما من أحد سوى راما الفتي القوي الشجاع لينهض بمقارعة العفاريت الأشرار، وليس للملك أن يخشى أي سوء يلحق براما، فلا بأس عليه ولا ضير إن مضى معه وقاتل أهل الشر، بل له أن يتوقع الخير كل الخير، إن فعل.

ولكن ما كان للكلمات أن تهدئ من روع الملك أو تبدد من فزعه، وهو يخشى هول اللقاء بين راما وعمال الشيطان رافانا. فشرع يرجو الحكيم أن يقبل به بدلاً من راما ليقاتل أعداءه وليدع جيشه يقوم على حراسة معتكفه. فما جدوى راما الغر الصغير في معركة كهذه لا يدخلها إلا المجرب، وإذن فهو الأصلح لهذه المهمة.

ولقد اشتاط غضب الحكيم الزاهد فيشفاميترا وضاق بما سمع، حتى خشي كاهن العائلة المالكة فاسيشطا من شدة غضب الحكيم وخشي أن يحيق بالملك شيئاً من باسه، فاشار عليه بأن يأتي براما في التو واللحظة، وإلا كان عليه أن يخشى أن يزول ملكه إن ظل الحكيم على غضبه، وهو المعروف بقدراته الروحية الخارقة. وبعد فأي ضير يمكن أن ينال راما وهو في رعاية فيشفاميترا.

وما زال الكاهن يلح على الملك ويعمل على إقناعه حتى بعث في طلب راما ولكشمانا، لمعرفته أن الأخوين لا يقبلان بالافتراق عن بعضهما. ولقد وجد الملك راما سريع الاستجابة لطلب فيشفاميترا والانصياع لأوامره وكذلك كان حال لكشمانا.

وهكذا تهيا الأخوان ولبسا لباس الحرب، وحمل كل منهما كنانته على كتفه، وقد امتلأت بالسهام الفتاكة، وكان مشهداً جميلاً لكل من رآهما في صحبة الحكيم المهيب. وودعهما الملك وزوجاته بالقبلات على الجبين، وذهبا مصحوبين بدعاء كل من حضر المناسبة بالتوفيق والعودة العاجلة.

وبعد مسيرة طويلة التفت الحكيم فيشفاميترا إلى الأخوين، وأشار عليهما بغسل وجهيهما بماء نهر سرايو، قبل أن يعلمهما "البالا والأتيابالا".

ولقد أطاع راما ولكشمانا الحكيم في ما أشار به عليهما، فكشف لهما عندئذ شيئاً من الأسرار الخفية، فعلمهما أصول تركيز الذهن وشحن البدن بالقوة العاتية لقهر الأعداء.

وما أن انتهى الحكيم من بسط هذا الفن لهذين الأميرين الشابين حتى شعرا بدفق عظيم من القوة تسري في جسميهما. ثم تابعت الجماعة رحلتها نهاراً، ولما حلّ الليل هجعوا إلى جانب النهر طلباً للراحة والنوم، وفي الصباح تابعوا المسير طوال النهار إلى أن بلغوا غابة انجا ديشا في المساء، حيث يلتقي السرايو والغانج، فحطوا الرحال هناك وخلدوا للنوم العميق.

وفي صباح اليوم التالي عبرت الجماعة النهر، في مركب جميل، ثم دخلوا الغابة الرهيبة في أعماق البلاد، موطن تاتاكا أم العفريت ماريخا، ذات القوة والبأس، وقد عرف عنها أنها استولت على ذلك الطرف الجميل من الغابة، وقضت وابنها على جميع سكانها، الذين كانوا يعيشون فيها من قبل في سلام ودعة. فاتت وولدها الوحش فالتهما القوم وكل من دخل الغابة لقي مثل هذا المصير.

وهناك وجه فيشفاميترا إلى قتل العفريتة أولاً، فصدع راما بالأمر وأرسل سهماً في الهواء كان له صوت شق عنان السماء وفزعت منه وحوش الغابة. ولما سمعت تاتاكا دوي ذلك الصوت كزئير الأسد خرجت من مكمنها فاغرة الفم، غاضبة صاخبة، صارخة من شدة الغضب.

ولقد ثارت عندئذ العواصف والزوابع واكفهر وجه السماء، فاختفت تاتاكا عن أنظار

الأخوين وشرعت تقذفهما بوابل من الصخور الضخمة. ورد راما بسيل من السهام، فتمكن من بتر إحدى يديها. ولكنها ظلت على بأسها لا تستسلم، ومضت تهاجم الأخوين بفم مفتوح. وكان ان أرسل لكشمانا سهامه باتجاهها، فجدع أنفها وقطع أذنيها.

ولكن تاتاكا الحاذقة ذات الباع الطويل في فنون السحر توارت مختفية عن أنظار مهاجميها، وتابعت رميهما بالصخور الضخمة دون أن تفلح في إصابتهما بأي أذى. أما راما فكان أدق في تسديد سهامه، معتمداً في توجيهها على ما كان يبلغه من أصوات تصدر عنها، فأصابها في لحظة بسهم قاتل، فسقطت مضرجة بدمائها، وهي تلفظ أنفاسها، وتطلق صرخة منكرة.

كانت الآلهة تتابع مشهد المعركة الضارية، متبسمة راضية. كذلك كان فيشفاميترا راضياً عما آلت إليه، فبارك راما ولكشمانا لما أتيا به من ضروب الشجاعة والباس في القتال.

وفي اليوم التالي شاء هذا الزاهد الحكيم أن يكرّم راما بأن وعده بتقديم أعظم الأسلحة، التي ستجعله منيعاً في وجه أعدائه، بحيث يستحيل التغلب عليه.

وللتو جلس فيشفاميترا مستقبلاً بوجهه الشرق، مستغرقاً في التامل، لا ياتي بصوت أو حركة، ثم نطق فجاة بكلمات فانهالت أمامه، من الفضاء الواسع، أسلحة عجيبة غريبة، وتوجهت إلى راما معلنة انصياعها له. فأخذ راما يتفحص كل سلاح، فكان كل منها يقدم نفسه معلناً اسمه، ثم أشار إلى الأسلحة، في نهاية الاستعراض، بالانسحاب إلى أن يحين الوقت، فيستدعي إليه ما شاء منها. وكما ظهرت الأسلحة اختفت عن ناظريه. ومن ثم مضى فيشفاميترا بالأميرين إلى بقعة جميلة من الغابة، كان لمشهدها أشد الوقع في نفس راما، فسأل الحكيم عمن يسكنها. فأجابه أنها معتكف كان يقيم فيه حكيم عظيم منذ قديم الزمن، ثم جاء هو وحل فيه مع زوجه اديتي ديفي لينقطعا للعبادة ورياضة النفس، مباركين من الإله فيشنو، لولا ان أشرار الراكشا كانت تأتي لتفسد عليه تامله وعبادته،

ولذلك فإن مهمة الأمير المقدام أن يقتل هؤلاء.

وفي صباح اليوم التالي حضر راما ولكشمانا إلى معتكف الزاهد فيشفاميترا ليحدد لهما متى يحتمل ظهور العفاريت، فوجداه قاعداً على قطعة من جلد الغزال على الأرض مستغرقاً في تأمل عميق، ومن حوله طائفة كبيرة من الحكماء الزاهدين.

والتفت إليهما عندئذ أحد هؤلاء الحكماء وأخبرهما أن الحكيم قد دخل حالة التأمل، وسوف يظل على هذه الحال أياماً ستة بلياليها بالكمال والتمام، وعليهما أن يحرسا الغابة خلال هذه الفترة بكل حيطة وحذر.

وللتو نهض الأخوان وتسلحا بكل ما توفر لهما من السلاح، وشرعا في حراسة المعتكف ساهرين طوال خمسة أيام بلا انقطاع، دون أن يغمض لهما جفن ولو للحظة، أما في اليوم السادس فكانوا أشد يقظة بعد. ثم وجدا المذبح يلتهب فجأة بالنيران والسماء تبرق وترعد وتنهمر الدماء مدراراً. فرفع راما نظره نحو السماء فرأى أشد العفاريت فظاظة وشراسة، ماريخا وسوباهو، قادمين وفي إثرهم مجموعة من الأتباع.

فبادر راما ماريخا بسهم "الواثق" فأسقط العملاق مسافة مئة يوجنا في عرض البحر، ثم أرسل سهمه "الملتهب" فإذا بسوباهو يخر قتيلاً. وكان حسبه أن يوجه سهمه "العاصف" ليقضي على بقية الأتباع.

وفي غضون ذلك كان الزهاد الصالحون يرسلون أدعيتهم مع كل سهم يصوبه هذان الأميران المحاربان. فلما انتهت المعركة بعد طول قتال واستراح القوم جلسوا للطعام، ثم خلدوا للنوم على فراشهم من ورق الشجر وعشب الأرض، بينما كان القمر ينير الغابة، التي هدأت الآن، بضوئه الفضي.

صحا القوم في الصباح، وكان أول ما خطر ببال الزهاد أن يمضوا إلى بلاد الميثيلا، حيث كان الملك جناكا يُعدُّ لقربان عظيم واجب حضوره، فضلاً عن تلهفهم لرؤية القوس الشهير الذي آل إليه من شيفا والذي عجز أقوى الملوك والأمراء، بل الآلهة والأرواح الأثيرية،

الجندارفا، عن شد وتره.

وتنبه فيشفاميترا للحديث، وأضاف شارحاً: "وكم من أمير سعى فما قدر على حمل القوس أو شد وتره ـ وهذا شرط الملك على من ينشد الزواج بابنته، الأميرة سيتا".

وأثار قول الحكيم بما انطوى عليه من الغموض إحساساً غريباً في نفس راما، وكأنما يحفزه على اللحاق به، بلهجة تجمع بين الرجاء والأمر. فانضم وأخوه لكشمانا إلى الزهاد في رحلتهم إلى بلاد الملك جناكا.

وسارت الجماعة شمالاً في بادئ الأمر، وفق ما أراد فيشفاميترا، وقد عزم على زيارة جبال الهيمالايا. وتهيأ لراما ولكشمانا، عندئذ؛ أن يلما بسيرة الحكيم، فشرع يحدثهما عن أصول وماضي حياته: "كان أول أسلافي كوشا بن براهما. أما والدي فهو كوشنبا، وقد ولدت له مئة بنت، حتى رُزق بذكر بعد أن نذر النذور وطوّل في الصلوات، وأسماه جادي، وكان صاحب فضيلة وعلم. وأنا ولد جادي هذا، ولي أخت اسمها ستيافاتي. فلما مات زوجها عنها لحقت به بجسدها إلى ابواب الموت والسماء، وتريانها تجري اليوم نهراً يعرف باسم كاوشيكي، نسبة إلى جدنا كوشا. وأنا أعرف أحياناً باسم كاوشيكا. ولذلك تجداني أسعد بمقامي عند ضفة نهر كاوشيكي، فأكون قريباً من هذه الأخت. أما صومعة الناسك، سيداشراما، فكانت محطة في رحلتي الروحية. وإني أباركَكما لأنكما أزحتما العقبات من طريقي إلى تنوير الروح." ثم داهم الليل القوم، بينما النجوم ترسل أضواءها والأسرار تحيط بالمكان، والأميران الضيفان يتهيئان للنوم، لتبدأ مع الفجر الرحلة إلى ميثيلا، ومعها مغامرة أخرى.

ولما عبر القوم نهر الشونا دخلوا منطقة ذات جمال وسحر غنية بالأشجار الكثيفة المتراصة مع بعضها البعض والتي تشكل غابة واسعة أخاذة. وقد استمر هؤلاء يضربون عصا الترحال إلى أن طالعهم عصر ذات يوم نهر الغانج المقدس، يجري واسعاً متدفقاً، ينزلق البجع على سطح مياهه الصافية، وطيور الكركي تقف على ضفتيه منتصبة، سامقة، بيضاء. وهناك

أمضوا ليلتهم. ولما أثار مشهد الغابة فضول راما ولكشمانا، روى لهما فيشفاميترا بحر العلم والمعرفة والمحيط بتاريخ المقدسات قصة غانجا، ابنة الجبال:

"تزوج هيمفات أو هيمشالا، ملك الهيمالايا، منجم الثلوج والمعادن الثمينة، مينا ابنة جبل ميرو، محور العالم، ورزق بابنتين: الكبرى غانجا والصغرى أوما. وقد احتاج الآلهة غانجا لمساعدتهم بإقامة شعائر التطهر العديدة التي يواظبون عليها، فصدع هيمفات بالأمر، وافترقت عنه ابنته. ولقد أحبت غانجا موطنها الجديد وشغلت بواجباتها. أما أوما فقد امضت في التعبد حيوات عديدة، ثم تزوجت من شاءت أن يكون زوجها، وهو شيفا ذاته".

فسأله راما: "وكيف نزلت غانجا إلى الأرض؟"

فاجاب فيشفاميترا: "إن لأحد أسلافك، الملك ساغرا، ضلعاً في هذا. وتلك قصة طويلة تمتد أجيالاً وأجيالاً وتخللت أحداثها أمور وأمور. ولكن لنلتفت أولاً إلى ما صار إليه أمر أوما وشيفا. ذلك أن هذه القصص شديدة الاتصال ببعضها البعض في نقاط عديدة."

وتابع فيشفاميترا روايته، وقد سرّه من الشابين فضولهما: "أحب شيفا أوما حباً ملك عليه فؤاده وطغى على كل جوارحه، وكان هوى عاصفاً، شغله عن كل ما يحيط به. فخشيت الآلهة هذا الحب وما يولده من قوة وحيوية، ومن خطر يتهددهم. وكان مصدر خوفهم ما قد ينجم عن هذا الزواج من الخلف، فيكون في ذلك دمار الكون. وبدأوا يعدون للأمر عدته وتطويق هذه القوة قبل أن تفلت من عقالها، فتثب وتعصف بالعالم على حين غرة.

ولقد مضت الآلهة إلى شيفا، لتخاطبه باحترام ووجل: "إن سلامة العوالم الثلاثة، يا كبيرنا، في خطر. ورجاؤنا ان تكون أوما شريكاً لك حين تنقطع للتأمل، فيمكنك، عندئذ، ان تحتوي طاقاتك داخلك، ولا تتحول إليها."

وكان شيفا متفهماً لمقالة الآلهة، فأجاب: "لسوف أعمل على السيطرة على طاقاتي.

ولكن من يتلقى بعض قوتي إن تدفقت بتأثير مشاعري نحوها؟"

فصاح الجميع بصوت واحد: "الأرض الطيبة".

وهكذا كان! واحتملت غابات الأرض، وجبالها والبحار ثقل بذرة سيد الآلهة.

ولما علمت أوما بمؤامرة الآلهة لحرمانها من حمل ولد شيفا، لعنتهم جميعاً: "لسوف تحرمون من الخلف، والأرض ستظل عاقراً أيضاً لتواطئها معكم".

ثم غادرت وشيفا إلى البقاع الشمالية العالية، حيث ظلا لسنوات وسنوات مستغرقين في التأمل ورياضة النفس.

وكانت غانجا، شقيقة أوما الكبرى، تقوم في تلك الأثناء على خدمة الأرباب وهم في أعمالهم المقدسة. ولكن هؤلاء غدوا الآن بلا رأس يتقدمهم.

بعدما غادر شيفا إلى بلاد الشمال، انتقل من أقصى هيامه بأوما، إلى نقيضه، زهد لا نهاية له. وبات الأرباب في حيرة من أمرهم الآن. وما كان لهم يومئذ إلا أن يقصدوا براهما في طلب مخرج من هذا المأزق.

وكان أن أجابهم براهما بالقول: "أما اللعنة التي أنزلتها أوما فلا راد لها، غير أن آغني، إله النار، يملك أن ينقذ الوضع. فبوساطته ستحمل غانجا ولداً تتخذه أوما بمثابة ابن لها وتوليه حبها؛ وسيقود هذا جيوشكم، وهو الذي سيقوم على حمايتكم".

ولقد كان أن تحولت غانجا إلى حورية سماوية، ومضت بعدئذ إلى آغني، والتقطت أطرافها النار، وأطلقت روحها حرارة بيضاء اللون من الطاقة الخالصة، بينما كانت تحمل في أحشائها قوة إله النار، آغني. ولما وجدت نفسها لا تطيق حمل ما استودعها تحولت البذرة عندئذ إلى سفوح الهيمالايا الباردة بصقيع الثلج. وما زال الكثير من مادة الولادة المتألقة المبثوثة في أطراف الجبل، كامناً عميقاً في الأرض، ذهباً وفضةً ونحاساً، ومعادن اخرى. وكان لهذا المشهد ألق يخطف الأبصار، ومنه ولد كومارا. ولقد شاءت الآلهة أن تقوم نجوم

الثريا الستة بإرضاع الطفل، فكان ينهل بأفواهه الستة من أثداء الثريا الستة دفعة واحدة، وما هي إلا أشهر ستة وحسب، حتى شب ونهض ببنية ضخمة قوية. وغدا بعد حين قائد جيوش الآلهة، وهو يعرف باسم سكاندا، أوكارتيكيا، أوكومارا.

وكان راما يتساءل في خلده إن كان لأسلافه صلة بقصة غانجا، إذ بدت له متداخلة في حياة العديد من الناس والعوالم. وإذ حدس فيشفاميترا بما يدور في أعماق الأمير، أراد أن يكشف له ما يتصل بتاريخه، فتابع الرواية: أراد ساغرا، صاحب آيوديا، وسلف راما، تقديم قربان الحصان" أشفاميدا" . وكان للملك زوجتان، كيشيني وسوماتي، أخت غارودا. وقد ولدت له كيشيني صبياً واحداً، ورزق من الأخرى بستين ألف ولد. فلما تهيأ الملك ساغرا للقربان عهد إلى حفيده أنشومان، وكان صبياً مطيعاً باراً بأهله، بالحصان الضحية عند إطلاقه كما يقتضي الطقس. ولكن الإله إندرا أراد إفساد القربان، فسرق الحصان وأخفاه عن العيون.

فأرسل ساغرا أبناءه الستين ألفاً للبحث عنه. وما زال هؤلاء في بحثهم عن الحصان المختفي حتى قلبوا الأرض عاليها سافلها، وأفسدوا الغلال وقتلوا ما قتلوا من الأفاعي في بحثهم، ونالوا من العفاريت والمردة. فعم الاضطراب العالم وسادت الفوضى. وهرعت الآلهة تستنجد ببراهما، فأشار عليهم بالصبر، قائلاً: " إن الحال لن يدوم طويلاً. ذلك أن الأمر معهود إلى الحكيم كابيلا بأن يكبح جماح هؤلاء الفتية."

وعاد أبناء ساغرا من حملتهم بالفشل. غير أنهم كانوا قد أخذوا يستمرئون الفوضى التي أشاعوها في الأرض، فلما وجههم ساغرا إلى متابعة البحث، خرجوا مسرعين، وشرعوا ينقبون الأرض شرقاً وغرباً وجنوباً، وهم يحيون في طريقهم الفيلة حراس البقاع والأمصار. وفي النهاية اتجهوا شمالاً، فأبصروا هناك بغيتهم، الحصان، وكان يرعى بهدوء قريباً من كابيلا الزاهد، الذي يقال عنه إنه بعض من فاسوديفا.

ولقد ذهب الظن بهؤلاء الفتية الحمقى إلى أن الحكيم سارق الحصان، فهمّوا بقتله، قبل

أن يمسكوا بالحيوان. وكان جهلهم سبباً في تهلكتهم. إذ تملك الحكيم غضب عظيم عقد لسانه، فما كان منه إلا أن أطلق، بكل ما أوتي من قوة اكتسبها من طول ممارسة اليوغا، زفرة كالفحيح تثير القشعريرة في البدن. فأحاط هواء الزفير وما احتوى من ذبذبات قاتلة بأبناء ساغرا الستين ألفاً وأحالهم للتو رماداً.

وفي آيوديا كان القلق قد بدأ يساور الملك ساغرا، بعدما تأخر أبناؤه بالعودة. فأرسل حفيده أنشومان ليستطلع خبرهم. ومضى الصبي يبحث عن أعمامه، يتعثر في تلك الأنفاق التي شقها أعمامه في الأرض، ثم أخذ يسأل الفيلة حراس الأصقاع والبقاع إن كانوا قد شاهدوهم، فلم يجد لسؤاله جواباً. ثم وقع أخيراً على كومة هائلة من الرماد، وأيقن، حين شاهد الحصان يرعى بالقرب منها، أن تلك الكومة بقايا أعمامه. ومضى يبحث بعدئذ عن ماء يطهر به رفات الموتى، فإذا به يصادف النسر العظيم، الغارودا، وهو خاله الكبير. فقال النسر للفتى: "لا تنثر أي ماء على هؤلاء، لأن خلاصهم من إسار الأرض لا يكون إلا بماء الغانج."

"ذلك هو مبدأ صلة أسلافك يا راما بحياة غانجا وسيرتها على الأرض". وهذه حكاية طويلة معقدة.

عاد أنشومان مصطحباً الحصان، ومعه أخبار مصير أعمامه، إذ ماتوا ملعونين. ومضى ساغرا في طقوس الأشفاميدا، إلا أن الأمر لم ينته، طبعاً، مع إتمام تلك الشعائر.

لقد دام حكم ساغرا ثلاثين ألف عام، غير أنه لم يفلح في حمل غانجا الأبية على النزول إلى الأرض. وكانت تقابل محاولاته لاستمالتها للنزول بالرفض؛ فلم تكن لترضى بالتنازل عن مكانتها في السماء. ثم تلى ساغرا أنشومان الذي تنازل عن الملك لابنه ديليبا، بعد أن ظل يسعى طوال اثنين وثلاثين ألف عام بجهاد النفس لاسترضاء غانجا بالنزول إلى الأرض - ولكن عبثاً، وكذلك كان أمر ديليبا من بعده، إذ دأب على المحاولة، مدة ثلاثين ألف سنة أخرى، دون أن يفلح في مسعاه أيضاً.

بعد ديليبا تولى الحكم باجيراتا، وكان رجلاً ذا همة وعزيمة، وشاء أن يكمل ما بدأه والده وجده من قبله، لئلا تذهب جهودهما سدى. ولما كان بلا عقب فقد عهد بالمملكة إلى وزرائه، وانقطع هو لرياضة النفس، وأخذها بشدة دونها ما قام به الأب والجد معاً.

وقد علمنا أن الرجل صمد في رياضته عشرة آلاف عام، لم يكن يتناول فيها طعاماً، إلا مرة كل شهر، وما زال هذا حاله حتى أخضع عقله وحواسه كل الخضوع. وكان يرفع ذراعيه عالياً إلى السماء، ويظل هذا حاله، فيتقد جسمه الهزيل بالنار، وكأنما اشتعلت فيه خمسة حرائق ضخمة. ولما شاهد براهما الرجل مستغرقاً على هذا النحو في تأمله، سُرَّ به أيما سرور وأعلن مشيئته بأن "تنزل غانجا إلى الأرض، قراراً باتاً لا مناص لها من الانصياع له. وبذلك أتم باجيراتا واجبه تجاه أهله، وبرأ ساغرا وديليبا من دورة الموت والحياة. ولكن أمر النزول معهود إلى شيفا، فعليه يقع عبء حمل غانجا إلى الأرض، بشعره." ومع أن الاتصال بشيفا أمر يرهبه المرء عادة، إلا أن باجيراتا لم يراوده أي شعور بالوجل من التضرع إلى هذا الذي لا يتقرب منه إلا من كان ذا بأس وجلد. فانتدب باجيراتا نفسه لهذه المهمة، وأمضى عاماً كاملاً ثابتاً كالصخرة على رأس إصبع واحد من قدميه، صائماً عن الطعام، لا يستنشق سوى الهواء.

ولقد وقع هذا أحسن موقع عند شيفا، وسر به أيما سرور، ورضي بحمل غانجا على رأسه بطيب خاطر. وبدت نهاية الأمر عندئذ قريبة. إلا أن أحداً لم يأخذ بالحسبان ما كانت عليه غانجا من تيه وخيلاء. ذلك أنها حين علمت بالقرار بنزولها قسراً إلى الأرض أعدت العدة لتنزل إلى مأواها الجديد في تيار هادر، تعبيراً عن برمها وضيقها وثورتها! غير أنها لم تكن قد خبرت من قبل حقاً قوة شيفا وسلطته. إذ أنه سرعان ما اكتشف خبايا نفس غانجا المتمردة، فعزم على أن يلقنها درساً لا تنساه، بأن وضعها بين خصلات شعره الكثيف العارم فضاعت فيه، وأمضت السنين تحاول أن تجد مخرجاً من هذه المتاهة.

وكم كان وقع هذه الأحداث مؤلماً على باجيراتا! فقد بددت تصاريف الأقدار آماله من جديد، وحملته على ان يعود إلى سابق عهده من رياضة النفس بالشدة والصرامة، فغدت

منذ ذلك الحين نهجه المألوف في الحياة. ولكن الفرج بات قريباً الآن. وما عليه إلا الصبر.

وفي نهاية الأمر أطلق شيفا سراح غانجا المتمردة، وقد عملت التجربة على ترويضها قليلاً، عند بحيرة بندوسارا، ومنها تفرقت في سبعة فروع، فاتجهت ثلاثة منها يميناً، وثلاثة يساراً، ولحق فرع واحد بعربة الشيخ الحكيم باجيراتا، وهو يقود عربته، في دربه إلى معرفة الحقيقة. ولقد بلغ يومذاك من الصرامة والشدة في رياضة النفس شأواً عظيماً، فعرف بالملك الحكيم.

وقفت الخليقة كلها تشهد نزول غانجا المقدسة؛ وكان مشهداً يأخذ بمجامع القلوب أن يرقب المرء نزولها واندفاعها في مجراها القدسي، لتروي الأرض بكنوزها وتنثر الثروات على العالم الظامئ المتطلع إلى كرمها. غير أن غانجا كانت تحتفظ بدعابة أخيرة تواجه بها هذا العالم. إذ التفت باجيراتا وراءه، فشاهدها تتوقف هنيهة، ثم تندفع في تيار عارم، فتغمر صومعة الحكيم جاهنو وتجتاح المذبح الذي أقامه ـ فما كان من الحكيم الزاهد إلا أن ابتلعها، ومن جديد اختفت عن الأنظار. وصاحت الآلهة عندئذ: "تلك ابنتك، يا جاهنو، فترفق!" ولقد رضيت نفس الحكيم، وترفق بها كما شاءت الآلهة، فأطلقها من أذنيه.

وعندئذ أطلق باجيراتا زفرة طويلة من أعماق صدره. فقد تم له ما سعى إليه وأبوه وجده من قبله. ومن جديد عادت غانجا للحاق به، وحين بلغت البحر اندفعت إلى عوالم الظلمات، حيث تنتظر رفات أبناء ساغرا الستين ألفاً لحظة الخلاص.

وهناك غسلت غانجا عنهم آثامهم وحررتهم من انتظارهم الطويل. وأعلن براهما على الملأ، اعترافاً بفضيلة نكران الذات والبذل، كما تجليا في باجيراتا، على نحو لم تعرف له الإنسانية نظيراً من قبل: "لسوف تكون غانجا ابنتك الكبرى على هذه الأرض، أي باجيراتي، ولسوف تعرف في العالم كله بهذا الاسم. ولأنها تجري في العوالم الثلاثة فلسوف تعرف كذلك باسم "ذات الاتجاهات الثلاثة". أما وقد تم الأمر، فقد شاء باجيراتا أن يعود إلى مملكته ورعاياه. وهناك استقبل بالفرح والبهجة بعودته."

ولما كان صباح اليوم الرابع شاهد القوم على بعد قصر ملك ميثيلا الباهر، والأعلام

والبيارق ترفرف فوق القباب والأبراج. وكانت تلك نهاية الرحلة للقافلة. ولكن فيشفاميترا شاء أن يمضي وراما ولكشمانا إلى هدف آخر، ثم يعود فيلحق بصحبه بعد قضاء هذا الأمر. فكان أن سار بالأميرين إلى معتكف في قلب غابة ساحرة عند أطراف المدينة.

وشاء راما أن يعلم شيئاً عن هذا المعتكف. فأخبره الحكيم فيشفاميترا أن هذا كان معتكفاً يأوي إليه الزاهد جوتاما الذي ذاع صيته بفضل مآثره الروحية. ولكن صادف أن أتت زوجه آهاليا بما أغضبه منها، فأنزل عليها لعنته بأن تغدو رماداً وتختفي ولا تظهر للعيون، ولا يكون لها مأكل سوى الريح، حتى يأتي بعد سنين طويلة، ابن دشاراتا فيخلصها مما هي فيه فتعود إلى الحياة، ويعود هو إليها في نفس اليوم. وقد غادر جوتاما هذا المعتكف منذ ذلك الحين منتجعاً إلى قمة الجبل المقدس كيلاسا في الهيمالايا. ثم دعا الزاهد الحكيم فيشفاميترا راما للدخول.

دخل راما المعتكف فرأى أمامه آهاليا ذات الاعتبار والوقار مستغرقة في رياضة النفس والصلاة، وذلك ما أضفى عليها ألقاً عظيماً حتى عجزت الآلهة عن النظر إلى صاحبته. وبعد أن كانت تنأى عن النظر إذا بها تظهر مع دخول راما الباب فتبصرها جميع العيون واضحة جلية. وانحنى راما ولكشمانا ليلمسا قدميها إجلالاً وتقديراً، وتذكرت عندئذ عبارات جوتاما حين وقعت عيناها على راما فبادرته بطقوس التعبد على نحو ما هو جدير به.

وبينما كانت الأمور تجري على هذا النحو في الغابة كانت تظهر أيضاً لجوتاما في تأملاته، في جبال الهمالايا البعيدة القصية، فبر بقسمه وعاد إلى آهاليا التي انتهت عندئذ أحزانها إلى غير رجعة، وعادت الصلة والوحدة بين الزوجين الهانئين، فعادا إلى حياتهما الروحية واستأنفا ما كانا قد ألفاه من الاستغراق في العبادة والتأمل.

وهكذا كان أن غادر الأميران وبصحبتهما الحكيم الزاهد المعتكف في قلب الغابة، بعد إنجاز تلك المهمة، ضاربين عصا الترحال حتى بلغوا نهر الغانج. وكان لا بد لهؤلاء من عبور

هذا النهر للوصول إلى بلاد الميثيلا. وحاروا في الأمر، إذ لم يكن لديهم ما يقطعون به النهر إلى الضفة الأخرى. ثم لاح لهم نوتي في قارب قديم متداعٍ، فلما اقتربوا منه اندهشوا إذ وجدوه يبتعد عنهم هارباً. فصاح به فيشفاميترا: "أي يا هذا! علام الهرب؟ ألا ترانا مجرد عابري سبيل، ولا نطمع في شيء منك سوى أن تحملنا بقاربك إلى المدينة؟ فهيا عد فوراً، وإلا ساءت عاقبتك." فعاد النوتي متلكئاً، على مضض. فساله راما بلهجة المترفق عما جعله يدبر عنهم.

فأجاب النوتي وبه شيء من الذعر: "وا حسرتاه! إن حملتكم كما تشاؤون ضاعت تجارتي. فلقد علمت من أمركم أنكم قادرون على إبراء الإنسان من اللعنة. وقد رأيتكم بعيني تلمسون حجراً منذ لحظة فإذا بالحجر يختفي، وتظهر امرأة في محله. وقد بددتم عن آهاليا اللعنة التي حلت بها. فإذا صادف أن كان قاربي القديم هذا من الخطاة ومست قدمكم قاعه تلاشى. فكيف لي أن أقوم عندئذ بأود أهلي وعيالي، وأنا الرجل الفقير؟"

ضحك الثلاثة لقول النوتي وما رأوا من اضطرابه، فهدؤوا من روعه، وطمانوه بانه وقاربه في أمان. فلما اطمأنت نفسه، حملهم بقاربه القديم، ممتناً إذ استطاع بلوغ الطرف الآخر من النهر، ولم يتمالك عندئذ من أن يقوم بغسل قدمي راما وهذا ينظر إليه بعين العطوف المحب. ثم ويا لروعة ما حدث! فلقد اختفى ذلك القارب الخشبي القديم وحل محله قارب من الذهب الذي يخطف بريقه الأبصار.

ودع الثلاثة النوتي، الذي عقدت الدهشة لسانه، ثم اتخذوا طريقهم إلى قصر الملك جناكا. ورأوا عندئذ الأبراج العالية والقباب تعلو أسوار المدينة ترفرف فوقها الأعلام الخفاقة. وبدت القصور، مع اقترابهم من أبواب المدينة تتلألأ بحجارتها من المرمر الأبيض في شمس الصباح، والنواقيس والأجراس تدق، وأبواق الصدف تصدح، بينما ازدحمت الشوارع بالناس وهم في أجمل حلة وأروع زينة زاحفين في جموع غفيرة نحو قصر الملك حيث تقام الأضاحي، وكانوا يرون حيثما التفتوا الجياد المطهمة والعربات المزينة والفيلة المجملة بالحلل تزدحم بالشوارع. وكان الحكماء الزهاد يسيرون في مواكب الناس بلا عد أو حصر وقد

جاؤوا لحضور طقوس القربان العظيم، فضلاً عن الذين قدموا من المدن البعيدة. ولم يتمكن فيشفاميترا أن يشق الطريق للأميرين إلا بعد لأي، فسارت قافلتهم إلى المكان الذي أُعدَّ، لهذه المناسبة الجليلة.

وإن هو إلا وقت قصير حتى بلغ نبا وصول الحكيم العظيم مسامع الملك جناكا فاسرع إليه يرحب به يحف به الكهان والحاشية. ولمح الملك الأميرين فاسترعى انتباهه ملامح النبل والوسامة مما يدل على عراقة محتدهما، حتى لقد حسبهما ابناء مخلوقات سماوية.

فاجابه فيشفاميترا أنهما ولدا دشاراتا ملك آيوديا، وروى له خبر قتلهما الشياطين التي كانت لا تنقطع عن الإغارة على معتكفه وإزالتهما الكرب عن آهاليا، وقد اصطحباه ليعاينا القوس الذي منحه له شيفا. فابتسم الملك راضياً قائلاً إن لهما ذلك، ثم اصطحب ضيوفه إلى قصره وأنزلهم فيه ضيوفاً بكرمين، وتركهم لينالوا قسطاً من الراحة والنوم في تلك الليلة.

وفي صبيحة اليوم التالي زار الملك جناكا فيشفاميترا والأميرين الفتيين في جناحهم في القصر ليطمئن على راحتهم. فسأله الحكيم إن كان يسمح لهم أن يروا القوس العظيم الذي ذاع صيته في الآفاق. فهز الملك جناكا رأسه موافقاً، وبدأ يروي لهم قصة هذا القوس: "كان القوس في بداية الأمر في ملك شيفا، ثم انتزعته منه الآلهة حين ثارت ثائرته لحرمانه من حصته باحد القرابين وانتضاه وشد وتره متهيئاً للضرب، فعهدت به الآلهة إلى الملك ديفاراتا، وقد ورثت عنه العرش فآل إلي هذا القوس. وكنت بُعيد ذلك أعمل في فلاحة الحقل وفاء لنذر، فإذا بالأرض تخرج من باطنها طفلة رضيعة، فأسميتها سيتا، واتخذت هذه من لم تخرج من رحم أم وإنما من بطن الأرض ابنة لي، وتعهدتها بالرعاية، كما حفظت القوس الذي دخل في عهدتي، حتى غدت فتاة مكتملة الأنوثة يخطب الملوك ودها وأنا ضنين بها، وقد اشترطت على من يبغي ابنتي زوجاً له أن يبرهن على قوته وباسه بشد القوس وإطلاق سهم منه. وقد بات هذا القصر مقصد الملوك وأبنائهم منذ ذلك الحين، كل ينشد المحاولة، دون أن يقوى أحد منهم على حمل قوس شيفا. وكنت أردهم خائبين حين

أراهم دون هذا الشرط. ولكن ذلك أثار ضيق القاصدين وحفيظتهم إذ حسبوا أن في منعهم من تجربة القوس بخساً لحقهم. فائتلفوا في ما بينهم واجتمعوا على حصار عاصمتي ومقر عرشي. وما زالوا على حصار البلد حتى نفذت المؤن منها، وأصبح الناس في غم شديد. فتوسلت إلى الآلهة، وأنا في هذا الضيق، ليرفعوا عني هذه الشدة. ووجدت الآلهة يومئذ راضين عن مسلكي كل الرضا، فأرسلوا لنجدتي جيشاً عرمرماً، مدججاً بكل سلاح، فارتعدت فرائص المعتدين لهول ما واجههم، مما لا قبل لهم به. فهرب جميع الملوك والأباطرة في كل اتجاه وتشتت شملهم. غير أنني سوف أعرض هذا القوس الرهيب أمام راما، ولكشمانا أيضاً. فإن استطاع راما أن يحمل القوس ويشد وتره كانت ابنتي، من لم تلدها أم، زوجاً لولد دشاراتا".

وللتو أمر الملك جناكا حاشيته بإحضار القوس، فمضوا كما أُمروا وعادوا به محمولاً على رؤوسهم في صندوق ضخم من الحديد، وهم يبتهلون إلى الآلهة. وقال الملك عندئذ مخاطباً فيشفاميترا: "اعلم أيها البراهمي، يا ذا الفضائل والكرامات، أن أسرتي كانت تحيط هذا القوس بضروب القداسات على الدوام، ولطالما وقف الملوك العظام والأبطال الأشاوس دونه عاجزين، وهم في ذروة الشباب والقوة. ولم يفلح في اجتياز هذا الامتحان حتى الجبابرة والشياطين والعفاريت، ولم يتمكن من شد الوتر الجندارفا والراكشا وأفاعي الناغا. فكيف يمكن إذن لمخلوقات ضعيفة من البشر أن تقوى على شد القوس، ناهيك عن وضع سهم فيه، ثم إرساله إلى هدفه ولذلك درجت على رد كل رجل ضعيف، فلا أتيح حمل القوس إلا لمن عُرف بالقوة والشدة من طبقة المحاربين، فلعل بين هؤلاء من يقوى على هذا الامتحان. وإذن فإني أرحب براما وأخيه لكشمانا، فلربما صادف راما الحظ فتمكن من شد القوس وكان له الفوز بابنتي سيتا، فذلك من دواعي سروري وحبوري."

ولما انتهى الملك جناكا من روايته قال للحكيم: "هاك القوس العظيم، أيها البراهمي المبجل! لقد كان في عهدتي منذ أن ورثته عن سلفي، وشهدت بدوري الأبطال الصناديد يجهدون عبثاً في حمله، فلنر الآن هذين الأميرين يتدبران أمره!"

وأشار الحكيم فيشفاميترا عندئذ إلى راما لينظر إلى القوس. وللتو مد راما يديه وحمله كما يحمل المقاتل القوس، وشد الوتر بعد أن ثبت فيه سهماً، فإذا به يرسل ضجيجاً ترددت أصداؤه في أرجاء الأرض فاضطربت واهتزت، كما لم تهتز وتضطرب من قبل، والأمير راما مثابر على الشد حتى انحنى القوس وانكسر نصفين، أمام الملك وحاشيته، الذين استولت عليهم الدهشة وغلب عليهم العجب، لما شاهدوه بأعينهم وسمعوه بآذانهم.

كان الامتحان لم يكتمل حين انكسر القوس، فأنزله راما ووضعه على الأرض. فلم يملك الملك جناكا إلا أن يسلم بفوزه بيد سيتا. وأرسل يدعو والده الملك دشاراتا إلى عاصمته لعقد قران ولده وابنته الأميرة سيتا.

استولى على الملك دشاراتا شعور غامر بالسعادة حين بلغته الأنباء عن مآثر ولديه، وخطوبة راما وابنة الملك جناكا. وشاء أن يستعد للمناسبة السعيدة ويقابل صاحب الدعوة الملكية على نحو ما ينبغي أن يُقابل الملوك، وبما هو جدير به بين كبارهم. فاستدعى إليه العراف وأقرب المقربين إليه، والوزير الأول المؤتمن سومانترا، ووجههم إلى ما ينبغي أن يحملوه معهم في قافلتهم، في ذلك اليوم، قبل أن تسير قافلته، من الهدايا الجديرة بالملوك من الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة، محروسة بالرجال والسلاح. وأمر الملك بمسير جحفل عرمرم من فروع الجيش الأربعة، الخيالة والمركبات والجند المحمولة على الفيلة والمشاة، فضلاً عن أعداد عظيمة من المحفات والعربات وسواها من وسائل النقل المريحة. وأمر كذلك بمرافقة البراهمة فاسيشطا وفامديفا ومركنديا المعمر والحكيم كتيانا، محمولين على المحفات أو بالعربات، في موكبه. وحث قائد القافلة على الإسراع لتلبية دعوة مضيفه الملك الذي كان يستعجل حضوره.

ولقد خرج الملك جناكا لاستقبال ضيفه الملك دشاراتا، حالما علم بمسير موكبه من بلده، فلاقاه في موكب عظيم، عند حدود مملكته وواكبه إلى عاصمته، وأحله في قصره محفوفاً بآيات التكريم.

ولما علم الملك دشاراتا أن للملك جناكا ابنة أخرى تدعى أورميلا، وأخ هو الملك كوشادفاجا، وكان بدوره أباً لابنتين، إحداهما تدعى ماندافي والأخرى شروتكيري، وقد عرفتا بجمالهما الأخاذ، فشاء أن يتزوج أبناؤه الأربعة ببنات الملكين الأربع أيضاً. فكانت سيتا زوجاً لراما، وأورميلا للكشمانا، وماندافي من نصيب بهاراتا وصارت شروتكيري إلى شاتروغنا.

ولما تم الاتفاق على المصاهرة بين بيوت الملوك الثلاثة جلس كاهن القصر فاسيشطا الذي عرف بتبحره في دراسة علم الفلك وأسرار النجوم وأخذ يجري حساباته الدقيقة، فحدد الموعد المناسب الذي يتفق وحركة الأفلاك لإجراء مراسم العرس الملكي، ليكون زفافاً ميموناً ليحيا العرسان في حب ووئام.

انسابت الألحان عذبة من القيثارات والنايات والصناجات والطبول يعزفها أمهر العازفين مع إطلالة فجر يوم العرس الكبير، واستمرت الأفراح حتى علت الشمس براقة كالذهب في كبد السماء.

ونهض الملوك الثلاثة، جرياً على التقليد القديم، فأدوا الصلوات تذكرة بالآباء والأجداد، وشرعوا بنثر العطايا والنذور طلباً للبركة والعمر المديد لأبنائهم وذريتهم من بعدهم وهناء الحياة الزوجية، كذلك كان لطلاب العلم من الفقراء وأهل المعرفة من البراهمة نصيب من هباتهم وعطاءاتهم.

أما الملكتان أُمَّا العرائس فقد كانت تلك، بلا ريب، أعظم المناسبات، فانشغلتا في إعداد مراسم الزفاف. وفي غضون ذلك خرجت جماعة من النساء المبتهجات يحملن "ماء التحبب" في جرار زاهية الألوان، وقد نقلنه من نهر السرايو بأوان من الفضة، لتغتسل به العرائس، وهن يصدحن بالأغاني والأهازيج والأدعية بعرس بهيج وزواج سعيد. وهذا طقس لا تشارك فيه إلا من عرفن بالهناءة في حياتهن الزوجية.

وجاءت وصيفات الأميرات الفتيات وصديقاتهن يقودونهن إلى الحمام ويضمخن

شعورهن اللامعة بأطايب الزيوت الممزوجة بالعطور، ثم دخلت عليهن فتيات يتمايلن طرباً ليصببن عليهن "ماء التحبب"، بينما كانت فتيات أخريات منشغلات بتجفيف شعورهن السوداء المنسدلة على ظهورهن وتعطيرها بأريج المسك وخشب الصندل المتصاعد من أوان فضية. والتفتت الوصيفات بعدئذ إلى دهن جباه العرائس الجميلة بمعجون خشب الصندل العطر الرطب، وانتهين برسم نقطة بلون الدم الأحمر القاني بين الحاجبين، ثم عمدن إلى جدل شعورهن بسلاسل من أزهار الياسمين الأبيض فبدت كالنجوم بين الشعر الناعم الأسود الفاحم، كأنما هو عتمة الليل. وارتدت العرائس بعدئذ أثواب الزفاف ذات اللون القرمزي المنسوج بخيوط الذهب البراق. أما أذرعتهن فقد زينت بالأساور المصنوعة من الذهب والجواهر الثمينة، وزين كل إصبع من أصابع اليدين بخمسة خواتم، وطوق المعصم بالأساور المرصعة بالجواهر الثمينة. وكانت كواحل العرائس قد اكتست بالخلاخيل، وكل منها محلىً بسبع لآلئ لا مثيل لها، وحول العنق عقود من الياسمين. أما القدمان فقد تجملا بخلاخيل الفضة والأجراس الصغيرة الموشاة باللك القرمزي، بينما تتدلى الأقراط الثرية باللؤلؤ من الأذنين الجميلتين وتتأرجح كيفما شاءت لهما صاحبتهما. والوجه استتر بغلالة رقيقة من خيوط الذهب والفضة. وأما قاعات القصر فقد زينت بالورود والأزهار من كل نوع وشكل، وازدحمت بالضيوف العظام الذين قدموا من أقاصي المعمورة لحضور هذا الزفاف المشهود، بينما كانت الموسيقى العذبة تشيع الحبور في النفوس وهي تجري مرسلة بلا انقطاع، وتوزع الحضور بين المآدب العامرة، وكانت اللحظة الميمونة تزداد اقتراباً، والقلوب تهفو إلى الموعد المرتقب.

ولكن وإن كانت الأمور تجري على الأرض وفق هذا الأمل فإن الآلهة في ملكوتها لم تكن في رضا عن هذه الحال. فلو تم لراما أن يقترن بسيتا في اللحظة المناسبة، ولم يكن هناك ما يفصل بينهما في الحياة، فكيف يمكن أن يتم القضاء على الملك الشرير رافانا؟ ذلك أن أمر خلاص العالم من هذا الذي تجسد فيه الشر كان مرهوناً براما وحده. وهكذا خرجت الآلهة بخطة لإنفاذ أمرها، بأن أرسلت القمر في شكل فتاة ذات جمال أخاذ لترقص في حفل

الزفاف الملكي. فظهرت هذه العذراء بجمالها الفتان، فيما الجميع ينتظر اللحظة المباركة، وأخذت تدور راقصة تخلب ألباب الحاضرين، وهم مأخوذون بسحر رقصها، والوقت يجري نهباً تحت أبصارهم.

وهكذا استمرت الحسناء، وهي في حقيقتها القمر وقد تجسد بشراً، ترقص وتفتن العيون وتذهب بالعقول، حتى فاتت اللحظة الموعودة. فلما انتهت الراقصة من أداء رقصها، استعاد الحضور وعيهم، ولم يعد أمام فاسيشطا والكهنة في قصر ملك ميثيلا إلا أن يتداركوا الوقت باستعجال مراسم الزفاف، إنما، ويا للأسف، بعد أن ضاعت اللحظة المناسبة التي حددها الكهنة بعد دراسة حركة النجوم وأبراجها وتوصلوا إلى أنها ستأتي للعرسان بالسعادة الأبدية، فانزلقت في عجلة الزمن، بينما كانت الحسناء تدور راقصة وتسحر الأنظار بخطواتها وانثناءات أعطافها. وكان ما كان وضاعت اللحظة الثمينة، بلا رجاء في استدعائها من جديد.

وهنا نهض كبير الكهنة في ميثيلا وأخذ يفصل في تاريخ سلالة الملك جناكا، فساق نسبه إلى القمر. وبالمقابل اخذ فاسيشطا، كاهن قصر الملك دشاراتا يعدد أمجاد أبناء الشمس في آيوديا وعلو شأوهم. وبعد هذا العرض تم الإجماع على توافق العائلتين المالكتين في عراقة المحتد والتاريخ المجيد، والاتفاق من ثم على المضي في إتمام مراسم الزفاف. وكان مشهداً أخاذاً انحبست له أنفاس الحضور حين بدأت طقوس الزواج، وسار أمراء آيوديا الفتيان جنباً إلى جنب وأميرات ميثيلا الجميلات الساحرات.

وكانت النار المقدسة الشاهد على عهود الزواج، ودار كل أمير من هؤلاء الأمراء الأشاوس ممسكاً بيد عروسه، حول الشعلة المتقدة سبع مرات، ثم تبادلا وراء غلالة من الحرير عقوداً من الأزهار، بينما كانت أصوات الأبواق من الصدف تعلو والأجراس تدق، والحضور يمطرون العرسان بالأزهار والورود، وهم يخفضون رؤوسهم ليتلقوا البركة من الكبار.

ولم يكن هناك في الجمع إلا فيشفاميترا وفاسيشطا من يعلم أن اللحظة التي تحددت بعد

دراسة وتمحيص للزواج قد فاتت قبل بدء الطقوس. أما الآخرون الغافلون عن أحداث المستقبل فقد انهمكوا في أفراح العرس ومباهج الاحتفال.

ويا له من يوم مشهود في تاريخ ميثيلا! كانت الأعلام والبيارق ترفرف خفاقة في الأعالي، والأبواق تصدح مع قرع الطبول، ومصابيح ومشاعل لا عد لها ولا حصر ترسل أضواءها فتنير الليل كأنما هو النهار، والنسمات العليلة تسري عطرة مشحونة، بأريج البخور، فتزداد النفس انتعاشاً. وأطباق الحلوى تدور بين الناس في الطرقات، والطعام وفير يتناول منه الزهاد وأبناء السبيل ما طاب لهم.

وفي صباح اليوم التالي أخذ الزاهد فيشفاميترا دربه إلى الهيمالايا للاعتكاف للتأمل والصلاة. كذلك كان الملك دشاراتا قد تهيأ للعودة إلى مملكته. أما الملك جناكا فقد قدم لكل عروس مئة ألف من الأبقار وسوى ذلك من الفيلة والجياد، فضلاً عن حامية من الجند وصناديق من الذهب والفضة والجواهر الثمينة من كل نوع وصنف، وما لا يحصى عدده من الهدايا الأخرى. كذلك أهدى الملك كل عروس مئة من الوصائف من بنات أهل الشرف والمقام الرفيع، ومثل هذا العدد من الخدم، ثم ودع الملك الجميع وداعاً مؤثراً ملؤه الحب والحنان.

كان الملك قد كاد ينتهي من وداع آخر المغادرين والملك دشاراتا أوشك على مغادرة ميثيلا، حين سمع القوم صوتاً كالرعد المدوي يصم الآذان، ورأوا أسراب الطيور تضرب بأجنحتها وتطلق الأصوات مذعورة، والحيوانات الأخرى تندفع في كل اتجاه، كأنما تفر من خطر داهم. وأخذت الريح تعصف عندئذ عصفاً شديداً، وتهز في طريقها الأشجار السامقة فتضرب بعضها البعض، وشرعت الأرض تهتز مضطربة. والشمس تتوارى في تلك اللحظة ثم ينسدل الظلام ذلك اليوم فتسود العتمة بعد ضياء النهار.

وحل على المكان في تلك اللحظة ظل باراشوراما العملاق، وشاهده الجمع يقف وقد خيم بظله عليهم، وعيناه تقدحان شرراً، وفي إحدى يديه قوس عظيم، وفي الأخرى فاس

ضخم يلوح به من فوق كتفيه، مهاجماً المحاربين النبلاء، مرة بعد أخرى، وهو يستفزهم للنزال، ساعياً للانتقام منهم لمقتل أبيه الحكيم جمداجني على يد أحدهم، ويدعى كرتا فيريا جونا. وكان باراشوراما هذا معروفاً لدى القاصي والداني بشراسة الطبع وسرعة الغضب، وأنه أقسم على قتل كل شاتريا محارب يصادفه في طريقه.

قدحت عينا باراشوراما واتقدتا ثورة حين وقعتا على راما، وخاطبه بصوت ينم عن الغضب العاصف: "وإذن فأنت المغوار العظيم الذي حطم قوس شيفا! هاك قوسي، ولنر إن كنت تقوى على شد وتره. فإن استطعت صارعتك لتثبت جدارتك."

فهلع قلب دشاراتا لهذا القول، وخشي أن يصيب ابنه راما شر من هذا المخلوق المخيف. فأخذ في رجائه أن يدعهم يمضون في طريقهم في سلام، دون أن يفلح معه رجاء. فالتفت باراشوراما إلى راما، وقال: "إن فيشفاكارما إله الحِرَف قد صنع قوسين خارقين لا مثيل لهما بين الأقواس، الأول لشيفا، وقد حطمته، والثاني وهو الذي أحمله قد صنعه للإله فيشنو. فدونك هو إن استطعت شد وتره."

ولم يكن لراما، وهو سليل أسرة محاربة، أن يقبل المهانة من أي كائن مهما كان. فقبل التحدي كما هو جدير به أن يتصدى لكل من يعترض طريقه. فمد ذراعه وحمل القوس الجبار، وشد وتره بيسر ورشاقة وصوّب السهم نحو باراشوراما: "إني لقادر أن أضع هذا في صدرك، ولكني أمسك عن ذلك، فأنت تكبرني سناً، كما أنك ذو علم ومعرفة. ومع ذلك فإني أسألك أين ينبغي أن يمضي هذا السهم؟ إنك تعلم أن المحارب إنما يرفع قوسه لسبب، ويوجه سهمه إلى هدف. وبعد فإن كل ما جهدت لبلوغه في رياضة النفس حري به أن يتداعى برمي هذا السهم... أم لعلي أقطع عليك به طريقك إلى السماء؟"

كان راما يشعر بالقوة والجبروت يتدفقان إلى أعماقه فيما كان يحمل قوس فيشنو بين يديه، بينما كان باراشوراما يشعر بالقوة تنحسر عنه وأعماقه تفرغ، فانكفأ يلتف حول نفسه كالأفعى الجريحة أمام هذا الجسم الصلب الذي وقف يعترضه متحدياً بجرأة وإقدام.

ورد الرجل بصوت واهن بأنه وجد من يقهره أخيراً، ولا ريب لديه أن من يقف أمامه هو فيشنو ذاته، وإلا فلم هذا الضعف الذي أصابه، حين التقط منه القوس؟ ومع ذلك فإنه لم يكن ليشعر بالعار إذ وجد نفسه مهزوماً مدحوراً أمامه. فهذا الرجل ما عاد يرجو بعد الآن سوى العودة إلى موطنه في جبال ماهندرا، ليسلك طريقه إلى السموات، بعدما فقد مكانه على الأرض. فأطلق راما عندئذ سهمه، فاخترق الفضاء بسرعة البرق ليدمر قدرات باراشوراما.

أحنى الرجل رأسه بخضوع وشهد لراما بالشجاعة والإقدام والمنعة في وجه كل من يجرؤ على اعتراضه، ثم مضى إلى مآله.

واستدار الملك دشاراتا بزهو واعتداد وسار بقافلته بعد هذا النصر المؤزر عائداً إلى آيوديا، حيث كان شعبه قد خرج لاستقباله بمظاهر الحفاوة والتكريم، واستقبلت الملكات الثلاث أبناءهن وزوجاتهم الجميلات أحسن استقبال، وباركن زواجهم أجمل مباركة.

وسرعان ما ذاعت أخبار انتصارات راما في البلد، فسُرَّت قلوب الناس، وأقيم في القصر احتفال عظيم بالمناسبة السعيدة، بينما أجرى الملك دشاراتا الصدقات على الفقراء، ووصل أهل الدين والقداسة بالعطايا من أرض وماشية.

السفر الثاني

آيوديا

أحب دشاراتا ابنه البكر، راما، أشد الحب، وشغف به أعظم الشغف، فكان قرة عينه، ومنبع زهوه. ولم يكن هذا بدافع من هوى مما يستولي عادة على الآباء، وإنما لما يتمتع به الفتى من فضائل الحكمة والاعتدال ورجاحة العقل والشجاعة والإقدام وعلو الهمة. ولم تكن تلك الشيم لتحمله على التيه والغرور، بل كانت وسيلته لرد الأذى وتقويم الخطأ. وقد عهد فيه القريب والبعيد لباقة الحديث وحسن العبارة، مع لين العريكة واعتدال الطبع والتواضع، والرأفة مقرونة بالحمية. وإذا نهض فلقضية عادلة، ولم يعرف عنه التراجع، ناهيكم عن التخاذل، في أمر انتدب نفسه له. وما كان ليلجأ للسلاح إلا بعد أن يستنفد كل وسيلة في إقناع الخصم، ولكنه إذا ما احتكم إليه لا يدعه حتى يبلغ النصر. ومع أنه كان قبلة أنظار الناس لتلك الخصال فلم يعرف عنه التكلف؛ وإذا كلف به قومه فذلك لرقة طباعه وسحر شخصيته وعذوبة ابتسامته المشرقة التي لا تفارق وجهه السمح. وكان من يطالع محياه يرى فيه البهجة مجسدة ولذلك استحق اسمه راما "الممتع"، فكان اسماً على مسمى، يطيب لكل من يلقاه النظر إلى طلعته البهية، وتطمئن له نفسه، فيرى فيه الخير وطيب النفس.

وكانت شرعة الخير "الدارما" مظلة السلطة التي يستظل بها آل راغو من ايكشفاكو في حكمهم، فلا يخرجون عن أطرافها في كل ما يأتون، وكأنما هي دائرة مسحورة لا يمكن تجاوز حدودها. ولقد أضفى عليهم هذا الالتزام بالحق مجداً تليداً وأكسبهم في الخلق شهرة واسعة ترددت أصداؤها في أرجاء العالم، وألقاً بين الملوك دونه كل ألق؛ وهم يحرصون على ما كسبوا من هالة المجد وعظمة المكانة أشد الحرص. وكان دشاراتا قد أمعن النظر فوجد في راما خير من يصلح ليخلفه على العرش لما عهده فيه من روح العدل وعمق الفكر والبحث عن الصواب في الأمور، والحلم والرحمة في كل ما يصدر عنه.

وكان الربيع قد أطل يومذاك، وبدا العالم في حلة من الورود والزهور، وأخذت الآمال

تراود قلب الملك الشيخ، واخضوضر غصن الأحلام وزها بالبراعم. وبدت النجوم مواتية لولاية العهد وتتويج ملك جديد. وكان أن أخذ دشاراتا بتلك العلامات، وشاء أن يحصل على التأييد لقراره، فاستدعى إليه الوزراء ورجال الحاشية وملوك المقاطعات، والرؤساء وزعماء المناطق في البلاد. ولما اكتمل جمعهم، أشار بدخولهم، وهو جالس على كرسي الملك بكل أبهة وجلال. وما أن مثلوا أمامه حتى بادرهم بالقول: "لدي خاطر يراودني، وأراني مقبلاً على قرار عظيم، أرجو أن تعينوني عليه. فلقد أقمت على حكم البلاد، كما تعلمون، ستين ألف سنة، وبذلت في ذلك ما وسعني، ولكن الشيب قد غزا مفرقي، والوهن ينال الآن مني، والعمل يثقل عليَّ. وإني وجدت راما قد بلغ مبلغ الرجال. وأنتم أدرى بفضائله، وله أحسن موقع عندكم. ولذلك أراني عازماً على أن أدع له الملك. وهذا رأيي أسالكم أن تعينوني عليه، وتشدوا من أزري في تنفيذه. فهيا قولوا رأيكم الصادق الآن."

وكان رأي القوم بالإجماع: "إن لراما، أيها الملك العظيم، من المزايا والخصال ما لا يحتاج لبيان فهو رجل فذ، لا نظير له على الأرض، والشعب مجمع على حبه. فإن جعلته وريثك رحبنا بقرارك وسُرَّت به قلوبنا. ونعم الرأي ما تقول."

ولقد سُرَّ الملك بما سمع من أركان مملكته وغمرته السعادة لأن رأيه وقع موقعاً حسناً عند أهل المشورة. ولما اطمأن إلى هذا الإجماع، تابع حديثه: "ها قد حل شهر تشيتيرا ببهائه، والغابات غمرتها الزهور، فلننهض بما عزمنا عليه. ولننصب راما منذ الغد ولياً للعهد."
وقابل الجمع ما رسم الملك بالابتهاج والسرور، وبعفوية الطواويس إذ تستقبل الغيوم الممطرة بالرقص. وأثبت دشاراتا من جديد أنه الخبير بأفئدة رعاياه. والتفت الملك إلى وزيره وسائس عربته وقال له: "ليس لنا أن نبدد الوقت الآن، فلننجز هذا الأمر ولننته منه." فاسرع الوزير ليبلغ الأمير راما النبأ السعيد.

لما دخل راما مجلس أبيه نظر إليه الملك، وقد تملكه زهو الأب، وهو يراه يتقدم من كرسي العرش، بخطى هادئة، واثقة، رزينة، إنما بتواضع الابن ايضاً. وإذ اقترب من أبيه الملك،

حياه، محني الرأس، تحية الابن وأحد أفراد الرعية. فأجلسه الملك إلى جانبه على كرسي من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة، وقال له: "أي بني، إن فضائلك قد جعلتك محبوباً من الجميع. فلتكن ولياً للعهد ليسعد شعبنا ويبتهج." ثم أعلن بصوت مهيب وكأنما يريد التأثير في مجلسه، ويبرز أهمية الحدث: "إن مراسم الولاية والتتويج ستكون في الغد." وكان ذلك أداء جليلاً كما هو جدير بالمناسبة؛ وهكذا تلقوا نبأ انتقال السلطة بكثير من الارتياح والسرور، ودون أن يرافق الأمر أي معوقات أو مناورات.

لكن دشاراتا لما اختلى براما، كاشفه بأمور عرضت له، وأثارت في نفسه الشك والقلق، من أحلام تفسد عليه الليل فتؤرقه، وتظهر له عواصف هوجاء عاتية، تندفع وتطوي كل ما يعترض طريقها، وشهب ونيازك تخترق السماء وتنزل فتشيع الدمار في الأرض، وروى له عن النجوم التي رافقت مولده وعادت تظهر في أحلامه مقيدة بكواكب رهيبة. وصارح ابنه بأن ذلك كله إشارات توحي بكارثة محتمة... وقد تكون مرضاً شديداً، أو ربما الموت. وتابع الملك يبث ولده همومه، مؤكداً رغبته في أن يراه متوجاً على العرش في أقرب وقت: "وبعد، فمن ذا الذي يأمن الغد وما يخبئه، فلعلي أجد قواي تخونني فأتراجع عما عزمت؟ إن أمر العقل لغريب، وهذا بهاراتا، أخوك المحب المخلص لك، بلا ريب، قد تجده مع ذلك يطلع في الغد ليفسد مراسم التنصيب. ثمة مخاوف لا وصف لها تعتصر قلبي. فلنسرع في الأمر ولا نتلكأ. والخير في أن يكون تتويجك، يا بني، في الغد."

ولقد شاع النبأ، منذ تلك اللحظة، وانتشر بين الناس كالنار في الهشيم، وأثار الفرح والبهجة، حيثما وصل، وكان فاسيشطا قد أعطى الشارة بالبدء باحتفالات التتويج، فظهرت مظاهر الزينة في كل أنحاء المدينة وعمائرها، من أقواس ومعابد ومذابح وقصور، واكتست البلد حلة قشيبة، لا عهد لها بها من قبل، وأشاع منظر حبال الورود والزهور وماءها وشذاها، رونقاً ونضارة في الجو يوحيان بما هو مقبل في الأيام التالية، كذلك كانت الأبخرة المتصاعدة من خشب الصندل والبخور تعبق فتثير الدوار في رؤوس الناس فيزدادون ابتهاجاً وانتعاشاً لبهجة الاحتفال بالوراثة والتتويج. والناس يتنادون في هذا كله ويجتمعون

في زوايا الشوارع وأطراف الساحات، وهم يخوضون في تنصيب راما؛ وذلك ذروة أمل أهل آيوديا وكاوسالا.

وظهر راما يومئذ راكباً عربته، والناس على جانبي الطريق يحيونه، وهو يرد عليهم التحية، ولما بلغ جناح أمه كاوساليا ليبلغها تلك الأنباء الطيبة، وجدها تنتظره بقلب عامر بالحب وشفتاها تستقبلانه بالدعاء. وكانت تلك لحظة انتصارها وزهوها بولدها وابتهاجها بقرة العين. وكانت سيتا هناك أيضاً حاضرة هذه اللحظة، ولكشمانا وزوجه.

وكانت تلك اللحظة لراما أول مذاق النجاح، والحظوة لدى الجميع أيضاً، وتجربة في ترويض النفس تعامل معها بما عهد فيه من الحكمة. وادرك في تلك اللحظة أنه بحاجة لمن يشاركه النهوض بهذا العبء العظيم، صديق يحالفه ويشد من أزره، وهل له أفضل من لكشمانا صديقاً، وهو صديق الطفولة، وظله، وصورته الناطقة؟ فقال له: "هيا، يا لكشمانا، قف بجانبي في لحظة انتصاري، في لحظة حاجتي. فإن كان لي أن أحكم فنيابة عنك. وإن عشت فلك. أنت صورتي، وذاتي الأخرى." وكان ذلك عهداً على الوفاء، وميثاق أخوة بين أميرين وجدا نفسيهما وسط أشواك المُلك الموعود.

وأعدت الترتيبات لليوم العظيم على أحسن وجه بفضل حنكة فاسيشطا الذي عهد إليه بإعداد الاحتفالات والطقوس؛ وقد نهض الرجل بكل الأعباء على أكمل وجه، دقة وتنظيماً، وإعداداً للمكان وما تفرضه المناسبة من مراعاة التقاليد والأعراف وفروض العقيدة، فلم يغفل عن أمر مهما كان صغيراً ولم يدع شيئاً مما تقتضيه المناسبة ليحيد عما رسم؛ فكان يحيط بكل أمر صغر أم كبر.

كذلك كان لراما وسيتا طقوسهما الخاصة التي يجب عليهما أداؤها عشية التنصيب، ومن ذلك قضاء اليوم في الصيام والصلاة، والنوم على فراش من عشب الكوشا، مما يرمز إلى التقشف والتبتل والتطهر، ويقصد به تلاؤم الفكر مع المهمة الجديدة بوعي وعزيمة غير ما ألفا.

وكان على رب الأسرة أن ينهض باكراً قبل أن ينبلج الفجر، وقد اقترب تنصيبه ولياً للعهد، ليشرف على تزيين الأجنحة المخصصة لسكنه، ويتأمل في أعماقه، وبدا وكأنما استقرت عيناه على أهداف غير منظورة، وهامته العالية تتهيأ لتلقي رداء الملكية الفخم والثقيل.

وبدا قصر راما العالي ذو اللون الأبيض، في ذلك اليوم، وكأنما يبحر في سماء آيوديا الصافية، بينما كانت الساحات الواسعة، الحافلة بالناس الذين أشرقت وجوههم بالأمل، أشبه ببحيرة من أزهار اللوتس التي تتفتح عند لمسة من أشعة الشمس وهي تشرق، وأحاديثهم كزقزقة العصافير في صباح جميل. وفي الخارج كانت حشود من الناس قد تجمعت والفرح يلفها كالعاصفة، في موجة هائلة من السعادة تكاد المدينة لا تقوى على امتلاكها، والجميع يلهج بذكر راما، وقد امتلأت قلوبهم بحب باعث المسرات في الأفئدة.

وبينما القوم منشغلون بنبأ تولية الأمير راما، كانت الأحوال تجري على غير هذا المنوال في جناح الملكة كايكيه الأثيرة عند الملك دشاراتا. فلقد بلغنا من خبر هذه الملكة أنه كانت لديها مربية عجوز تدعى مانثارة، جاءت بها من قصر أبيها يوم تزوج بها الملك دشاراتا. وكانت مانثارة هذه عجوزاً شمطاء حدباء، تبرز من ظهرها كتلة تزيدها قبحاً وبشاعة، ويزيد من قبحها سوء طويتها وخبث طبعها والتواء تفكيرها ولؤمها، وقد نسي الناس اسمها، فكانت تعرف بلقب كونجي، «الحدباء» وكانوا لسوء طباعها وقبح خلقتها يعرضون عنها، ولكن الملكة كانت شغوفة بها شديدة الإيثار لها.

في ذلك اليوم العظيم خرجت كونجي تستطلع سر الجلبة من سطح القصر، فرأت حشود الناس مجتمعة، فتساءلت في خلدها عن سر اجتماعهم والسبب في تنظيف الشوارع ورشها بمنقوع خشب الصندل وتزيينها بأزهار اللوتس. وازداد بها الفضول حين رأت الأعلام خفاقة، والفرق الموسيقية تعزف أحلى الألحان، والناس يتمايلون وهم يصدحون بأجمل الأغاني. ولقد غلب عليها سوء طبعها فضاقت بما رأت وسمعت، وأرادت أن تعرف سر هذا السرور والحبور. وسرعان ما برزت إحدى خادمات القصر، وعلى وجهها علامات

الفرح والسرور، وهي تطلق الضحكات، وتتباهى بسارٍ من الحرير جديد لم تشاهده عليها من قبل.

فبادرتها كونجي بالسؤال: "أتعرفين سبب هذا الكرم الذي تظهره أم راما، كاوساليا، فتنثر الهدايا هنا وهناك، وعهدنا بها بخيلة شحيحة شديدة الضن بالمال؟ ترى ما الذي بدل حالها؟"

فصاحت الخادمة الشابة، بوجه مشرق: "أو لم تدري بالنبأ؟ إن الأمير راما سوف ينصب من الغد ولياً للعهد."

فضاقت كونجي بما سمعت أيما ضيق، واشتد بها البرم، فهرعت إلى كايكيه لتؤلبها على ما رسم الملك فوجدتها في مخدعها، تستريح مستلقية، على الأريكة: "هيا، هيا انهضي! كيف تستريحين هكذا، وأنت تواجهين الخراب؟ فهيا انهضي، فإن لم تتداركي الأمر حل بك الدمار والخراب. فالملك عازم على أن يورث راما العرش من بعده، ولسوف يجعله ولياً للعهد من الغد."

ولكن النبأ الذي حملته كونجي بسوء القصد كان له الوقع الطيب في نفس الملكة كايكيه، فسرت به حتى أنها خلعت قلادتها، وأهدتها لمن حملته إليها. فثارت ثائرة المرأة وأمسكت بالقلادة وطوحت بها في عرض الغرفة، ومضت خارجة كالعاصفة الهوجاء وهي تهدر وتزمجر: "حقاً إنك لامرأة حمقاء تفرحين لخبر الشؤم. فكيف لك أن تري راما يتربع على العرش ملكاً، وفي ذلك كارثة لولدك بهاراتا، ونهايتك إلى العبودية عند كاوساليا؟"

وردت كايكيه: "يا منثارة، إن راما قد نشأ على الفضيلة، والعرش حق له، وهو ابن أبيه البكر. والحق أني أكن له كل الحب، وهو عندي في محل ابني بهاراتا ذاته. وإني لعلى ثقة من أن راما سيرعى إخوته يوم يغدو ملكاً أحسن رعاية، ولسوف يحرص على سعادتهم أشد الحرص، ولذلك لست أرى مبرراً لهذا القلق الذي تبدين."

سحبت كونجي نفساً طويلاً، وأطلقت زفرة من الأعماق. وقالت شاكية نادبة: "أواه!

أواه! أي إنسان وقعت عيناه على امرأة بهذا القدر من الحمق؟ لقد جئتك لأسدي إليك مشورة تنفعك، فإذا بك تعرضين عن الإصغاء. فاعلمي، إذن، أن راما حين يصبح على كرسي الملك سيأتي بأحد أمرين، فإما أن يقصي بهاراتا أو يقضي عليه، ثم لا تنسي أمه كاوساليا. فلا ريب عندي أنها ستجعل منك هدفاً لأحقادها. فهاك الحقيقة الخالصة، وتدبري الأمر بإقصاء راما ونفيه إلى الغابة، وتنصيب بهاراتا ولياً للعهد بدلاً منه."

امتلأ قلب كايكيه رعباً لسماعها هذه الأقوال، وسألتها النصيحة في ما يجب القيام به لإقناع الملك دشاراتا بتولية ابنها بهاراتا. فصاحت كونجي، وقد أصابتها الدهشة: "ما هذا القول؟ أتراك نسيت كل ما جرى؟ أفلا تذكرين انتصار ملكنا للآلهة في حربها مع الشياطين في أحراج دنداكا؟ فقد اصطحبك معه يومئذ، ولما وقع مثخناً بالجراح مغمياً عليه أسعفته وحملته إلى مأمن، ثم قمت بالعناية بجراحه حتى استعاد عافيته. ولقد شاء أن يكافئك بتلبية رغبتين فامتنعت عن الطلب يومئذ، وقلت إن ذلك سيكون فيما بعد. ذلك ما أنبأتني أنت به. وها قد حان وقت الطلب. فليقص راما إلى الغابة أربعة عشر عاماً، وتمني عليه أن يحل ابنك بهاراتا محله على العرش. وهكذا تكون النهاية لمتاعبنا. فهيا اخلعي عنك حليك وإزارك الحريري وارتدي إزاراً من القطن؛ وضعي نقاباً على وجهك واستلقي على الأرض، وتظاهري بالبكاء والغضب. فإذا اقترب منك الملك، أعرضي عنه وتابعي البكاء والنواح؛ ولسوف يشق عليه حالك فيشفق عليك، وهو الذي يكن لك أعظم الحب، ولن تجديه إلا ملبياً لك كل ما تطلبين. ولكن عليك بالحرص. فخذي منه العهد بأن يلبي لك ما تطلبين مهما يكن، ثم عاجليه بالطلب."

وكان أن أخذت كايكيه بنصيحة كونجي، فنزعت عنها جواهرها وطرحت إزارها، ورمت بنفسها على الأرض، مثل أي سوقية، وأخذت في النواح. وكانت على هذه الحال حينما دخل عليها الملك دشاراتا ليزف لها النبأ الطيب عن راما. ولكم كانت صدمته قوية حين رأى زوجه الملكة في هذا الغم الشديد، وضيقه عظيماً لهذا الكرب الذي حل بها. وشرع يسألها حقيقة الأمر، ولكن عبثاً، فكانت تساؤلاته تقع على أذن صماء، وما زال يعالجها

على هذا النحو حتى أعياه السؤال، وضاق بحال زوجه الحبيبة، التي أزرت بنفسها بعدما كانت ذات عز وكمال. فأراد استرضاءها ليغادرها الغم والضيق، فتستعيد صفاءها المعهود ورونقها. فردت عليه بأنها لن تجيب إلا إذا قطع لها العهد بتلبية أي مطلب تسأله إياه مهما كان. فقطع على نفسه العهد كما شاءت وأشفعه بالقسم براما محبوبه الأثير على قلبه.

نهضت كايكيه، عندئذ، ومسحت دموعها، واستوت جالسة، وقالت: "إذن فاشهدي أيتها الآلهة! لقد قطع الملك على نفسه الوعد، وهو ملزم به. فقبل زمن، أيها الملك العظيم أصابتك جروح ثخينة، في المعركة بين الآلهة والشياطين في دنداكا، وكنت تنتصر فيها للآلهة يومذاك، فهرعت لإنقاذك من براثن الموت. فأردت مكافأتي على ذلك بأن سألتني أن أطلب مطلبين، وقطعت على نفسك العهد بتلبيتهما. وقلت لك يومئذ إني لا أسألك الآن شيئاً، ولكن مطلبي سيأتي بعد حين. وها أنا أسألك أن تلبي مطالبي، كما قطعت على نفسك العهد... ومطلبي الأول أن تقصي راما إلى الغابة، ليبقى هناك منفياً أربعة عشر عاماً، يرتدي فيها رداء الزهاد، والثاني أريد لابني بهاراتا أن يتولى العرش من بعدك ولقد أعطيتني عهدك. فإن لم تف بالعهد وتحقق لي هذين المطلبين كان موتي محققاً بلا ريب."

نزلت كلمات كايكيه نزول الصاعقة على الملك، فصمت لحظة حتى استعاد رباطة جاشه، ولكن الغضب استولى عليه، وكان غضباً شديداً. ولم يملك عندئذ سوى أن يصرخ في محدثته: "يا للمرأة الشريرة، الظالمة! اي ذنب أتاه راما بحقك لتقابليه بهذه القسوة؟ افلم يكن باراً بك، حريصاً على مقامك؟ وماذا جناه هذا الفتى ليستحق مني النفي؟" وأردف الملك العجوز نائحاً: "يا لوعتي إن كانت الغابة منفى راما!"

والتفت يرجو كايكيه متضرعاً أن تتخلى عن أمانيها الشريرة، ويعدها بأن يأتيها بكل ما يخطر لها ببال، إن تركت هذه المطامع القاسية. لكن الملكة ظلت تلح على الملك أن يلتزم بوعده، ويلبي لها رغباتها. ثم أخذت بملاطفته والتخفيف عنه وتهدئته: "علام تبكي أيها الملك العظيم، وقد قيل إنك شديد الورع. فماذا سيقول الناس إذا علموا أنك قد تنكرت لوعدك؟ وليس يجدي في الأمر شيئاً الآن، بعد أن أقسمت بأن تنفذ لي رغباتي."

كان ألم الملك عظيماً، وتبدل حاله، فأخذ يبكي حيناً ويصب جام غضبه على كايكيه حيناً آخر، ثم يعود فيسكب الدمع مدراراً حيناً، ويقرعها حيناً، حتى لم يعد يملك حيلة مع هذه المرأة، فأحنى رأسه الذي اشتعل شيباً. وظل على هذه الحال فترة، ثم رفع رأسه وعاود سيرته بالنواح والشكوى والثورة والتنديد بزوجه وعسفها. والملكة لا تنقطع تهدئ من ثورته دون أن تحيد عن مطالبته بالوفاء بالعهد، وقد أصيب الملك بالإغماء مرة بعد مرة، دون أن يتمكن من الحد من غلوائها؛ إذ كان الرجل عاجزاً عن معاندة الأقدار. ولما أدرك في النهاية أن ليس له من مخرج من هذا الموقف الرهيب، قال وقد غلب عليه اليأس: "ما حيلتي ما دمت قد قطعت على نفسي عهداً؛ فليس لي بعد هذا سوى الوفاء به. فافعلي ما شئت، وحسبي أنا أن ألقي نظرة أخرى على راما قبل الرحيل."

كانت الشمس قد توسطت كبد السماء، وحل موعد تنصيب راما ولياً للعهد، والإعداد للمراسم اكتمل. وطلب الحكيم فاسيشطا كاهن الأسرة المالكة من الوزير سومانترا، أن يسرع باستدعاء الملك لبدء الطقوس. فأسرع سومانترا إلى الملك يعلمه بانتظار الجمع حضوره إلى القاعة لافتتاح جلسة تنصيب راما، والوزير لا يدري بالمصيبة التي حلت.

كان حزن الملك عظيماً، فمكث لا ينبس ببنت شفة، ويرسل النظرات بعيداً كأنما هو في شاغل، بعيداً عن مجلسه، بينما وزيره واقف أمامه ويداه مضمومتان إلى صدره، وحاول الملك الكلام، لكن العبارات خانته، فعاد إلى صمته. فأسرعت كايكيه تداري الموقف بالكذب: "قد غلب الفرح على الملك فأمضى ليلته دون أن يغمض له جفن. ولسوف ينام قليلاً الآن. فهيا يا سومانترا، امض واستدع إلينا راما."

كان راما مع سيتا في جناحه من القصر، فأخبره سومانترا برغبة الملك والملكة كايكيه في حضوره إليهما. وللتو هرع راما إلى حيث الملك، وكل من يمر به يقابله بالثناء والتكريم. وفيما هو في طريقه إلى لقاء الملك صادفه لكشمانا، فرافقه إلى لقاء والدهما.

وجد راما ولكشمانا الملك دشاراتا حزيناً، آسياً، والملكة كايكيه إلى جانبه. فأحنى راما

الرأس احتراماً لهما. ورفع دشاراتا راسه ونطق كلمة واحدة، متمتماً بصوت كالهمس: "أي راما!" ثم صمت، ولم يكن هناك ما ينبئ عن حاله سوى الدمع الذي سال على وجهه الحزين المتعب. فالتفت راما إلى كايكيه: "أي امي، ما بال أبي، لم لا يكلمني؟ أتراني أخطأت في أمر، أو ناله مني ضير؟ وإلا فعلام هذا الحزن وهذا السقم؟"

وردت كايكيه: "لا ضير على والدك، وجل ما في الأمر أن الملك عازم على أمر، لولا أنه يخشاك. ولكنه كان قد قطع على نفسه عهداً، لذا عليك أن تؤازره في أمره، ولا تعانده، فذلك إثم لا أرضاه لك."

فقال راما: "ما الذي يحملك، يا أم، على هذا القول. فكلمة الملك قانون مطاع، وما كنت بالذي يعترض على رغبة يبديها."

"إذن فاعلم، يا بني، أن أباك أقسم ذات يوم أن يحقق لي أمنيتين، وقد عرضتهما لتوي له. ورغبتي الأولى أن تذهب إلى الغابات وتمضي هناك أربع عشرة سنة، وعليك حين ترحل أن تتخلى عن كل ما لك، من سلطة ومنصب، وما أقصده هو أن تهجر العالم، وتعيش زاهداً، فتتجرد من أثوابك الفاخرة، وتكتسي بدلاً منها بلحاء الشجر. ورغبت ثانياً أن يحل ابني بهاراتا مكانك على العرش. فلا يراودنك أمل بعد الآن بأن يكون لك العرش. وهذا ما يشق على أبيك قوله، على أنك تدرك بلا ريب أن وعده ملزم له، وعليه الوفاء به."

وسمع راما وكايكيه، عندئذ، زفرة حرى طويلة أطلقها الملك العجوز من لجة الغم الذي استولى على قلبه. أما راما فظل ثابت الجنان، لا يتأثر بما سمع: "لسوف يكون هذا، يا أم. وإني لمطيع أمر أبي في ما يشاء مني. فهيا، ليدع بهاراتا في التو! وأنا مغادر اليوم إلى الغابة. إنما أتساءل لمَ لا يوجه والدي أمره لي بشخصه؟"

ردت كايكيه وقد استولى عليها الفرح: "حسناً، سوف نبعث بأسرع العمال لاستدعاء بهاراتا في الحال. أما والدك فإنه يشعر بالخجل، ويصعب عليه الكلام. ولن يقوى على تناول الطعام والاستحمام حتى تمضي إلى الغابة. ولسوف تحسن صنعاً إن أسرعت

بالرحيل."

التفت راما ومحدثته لقول الملك بصوت متحشرج: "أسفاً! أسفاً!"، وشاهداه يسقط في تلك اللحظة مغشياً عليه. ولقد شق على راما أن يرى والده على هذه الحال من الضيق والغم، ولكن ما كان بوسعه، وهو العاجز الآن سوى أن يطلق زفرة من صدر مثقل بالغم: "أسفي أنه لن يكون لي أن أعنى بوالدي الحبيب." ثم تقدم منه وحمله مترفقاً إلى الأريكة، وغادر الغرفة بخطوات ثقيلة.

كان قلب لكشمانا في أثناء هذا كله، يغلي غضباً لجور كايكيه، أما راما فلم يبد أي اكتراث بالأمر، وجل ما فعل انه نادى أخاه بصوت حزين ليصحبه إلى قصر الملكة كاوساليا. وهناك وجد راما النساء يرتدين أجمل الثياب ويتزين بأحلى الحلي احتفالاً بالمناسبة العظيمة، فتجاوزهن لا يشغل خاطره سوى المصيبة التي نزلت بوالديه.

كان النبأ الخطير قد ذاع قبل أن يصل الرجلان إلى القصر، ورأى راما أهله يذرفون الدموع، وسمع نشيج البكاء يتردد بين الجدران، وهو يقطع واخوه لكشمانا الردهات، وسمع عبارات المستنكرين: "كيف للملك أن يقبل بان ينزل باميرنا الحبيب هذا الشر!"

غير أن الملكة كاوساليا كانت غافلة عما يحدث، إذ كان هناك من حجب خبر المصيبة التي نزلت ولم يكن ثمة من يتوقع حدوثها. فمبلغ علمها حتى تلك الساعة أن ولدها الحبيب جالس على العرش ذلك اليوم. وقد بلغت بها السعادة لهذا الحدث العظيم أنها نثرت الأزهار والورود، وأحرقت البخور في كل أرجاء القصر، ثم ازداد سرورها حين سمعت الأصوات تتعالى بالصلوات إيذاناً بوصول ولدها ولي العهد، والملك المقبل، وكم شعرت برضا النفس، حين وجدته يدخل عليها، وينحني ليلمس قدميها، تكريماً لها وإعلاء لمقامها. ومدت الأم يدها ومست رأسه بحنان، قائلة: "لسوف تكون ولي العهد اليوم. فلك الدعاء بالبركة، ولتحرص على أداء واجبك والتمس الخير فيما تفعل لتفوز بحب الناس وأفئدتهم."

وكان رد راما: "أي أمي، قد جاء زمن الشدة، وأنا راحل إلى الغابة، ولسوف أقيم فيها أربعة عشر عاماً. فقد تنازلت عن العرش وكل ما يتصل بالمُلك، وسيكون لباسي منذ الآن لباس الناسك؛ والمملكة سوف تصير إلى بهاراتا."

أذهل النبأ كاوساليا، فنال منها الحزن أعظم منال وأدمى قلبها. وغدا العالم الذي بدا جميلاً زاهياً قبل لحظة، قاتماً، معتماً، فتهاوت الملكة من شدة التأثر. ولكنها أخذت تستعيد رشدها شيئاً فشيئاً، وضمت عندئذ راما إلى صدرها، وقالت والدموع تترقرق في عينيها: "أي بني، ما كان ليضيرني أن تخسر العرش. ولكني لن أقوى على بعدك عني. ويا لحسرتي! إن مملكة إله الموت ذاته قد لا تحتمل امرأة مثلي يثقل الحزن فؤادها. آه يا راما! إني ماضية معك أينما تذهب ملازمة لك حيثما تحط رحالك."

ولقد كان للحديث بين راما وأمه أشد الوقع على نفس لكشمانا، فترقرقت الدموع في عينيه، واندفع مخاطباً كاوساليا: "لم يُفرض على أخي، يا أم، النفي إلى الغابة؟ لا ريب أن الملك قد شاخ وأصابه الخرف، وإلا كيف أقدم على هذه الحماقة وأصدر هذا الأمر؟ وماذا لو أننا لم نصغ إليه..." والتفت إلى راما بصوت جهوري ينم عن مبلغ غضبه وثورته: "حسبك يا أخي أن تقول كلمتك، ولسوف نرى من يجرؤ على اعتراض حقك الشرعي في العرش. وإذا آن أوان الجد فقسماً أني سأجعل آيوديا أثراً بعد عين، بل وألحق أبانا بها. إنني لن أدع لأحد أن يخدعك، ويحل بهاراتا على العرش مكانك ما دام في جسدي أنفاس تتردد. "وعاد ملتفتاً إلى كاوساليا، مهدئاً خواطرها المضطربة: "لا تجزعي، يا أماه! حسبك أن تنتظري وتري أي عمل سآتي به."

وقالت كاوساليا متضرعة لولدها: "اصغِ، يا راما، لما يقول لكشمانا. ولا تقبل بالرحيل إلى الغابة. فإن فعلت كانت نهايتي. وأنت أدرى يا بني أن من الإثم أن تقتل أمك."

ولقد وقعت كلمات كاوساليا كالنبال على قلب راما: "لا تبكي، يا أماه. فليس من شأني أن أخذل والدي في وعد قطعه على نفسه، وأنت يا أخي لكشمانا، أفتحسبني

أجهل مبلغ ما تكن لي من الحب؟ ولكن ما حيلتي والواجب، فليس لنا إلا أن ننجزه. وما دام والدنا قد قطع على نفسه عهداً، فليس لي إلا أن أمضي إلى الغابة."

والتفت راما إلى كاوساليا، ويداه مضمومتان وقال راجياً: "رجوتك يا أمي ألا تعرقلي رحيلي. وما هذه إلا أربع عشرة سنة سرعان ما تنقضي، وأعود بعدها إليك."

فقالت كاوساليا، وهي تبكي وتنتحب: "وهل الملك عندك، يا ولدي، المرشد الهادي الوحيد؟ أفليس لي أنا أيضاً مكانة المربية؟ وإذن، فكيف لك أن تتركني وحيدة في هذا الأسى دون معين؟"

أجاب راما: "قد بعث بي والدي إلى الغابة ليفي بعهده. وليس لنا إلا أن نأخذ بالحق ونلتزم به. فدعيني أمضي، يا أمي، إلى حيث شاء لي والدي، ولسوف أعود إليك، فلتباركيني ولا تؤخري رحيلي."

وهكذا جهد راما ليخفف من وقع الحدث على كاوساليا ولكشمانا. غير أن كاوساليا ظلت تحاوره أن يترفق بها ويصطحبها معه إلى حيث تنتهي رحلته.

"لا يا أم، إن فعلت تركت الحبل لكايكيه على غاربه لتزيد في مصاب أبي، ولقضي عليه لو رحلت أنت أيضاً. فاطرحي هذا الخاطر عن بالك. وما دام أبي حياً كان مكانك إلى جانبه، تواسينه وتخففين من آلامه. وإنني لا بد عائد في نهاية المطاف."

أخذت الأم تمسح الدموع عن عينيها وتدعو بقلب مفعم بالإيمان ألا ينال ولدها الحبيب أي ضير أو سوء، ثم ضمته إلى صدرها، تعانقه وتمعن النظر في وجهه، ولا تقوى على أن تبعد ناظريها عن محياه الحبيب. فأحنى راما قامته، عندئذ، ولمس قدميها، وغادرها مودعاً إلى سيتا. وكانت سيتا في هذا كله تجهل ما حل بها وبزوجها من نكبة، ولكنها ما أن وقعت عيناها عليه حتى أدركت أن أمراً جللاً قد نزل بهما. فلما علمت أن راما قد فقد مملكته صمتت ولم تأت بكلمة، ولكنها حين سمعت أنه راحل إلى الغابة قابلت النبأ بقولها: "لسوف أصحبك في رحلتك." وصمتت. ولقد حاول راما أن يثنيها عن عزمها،

فحدثها عن الأخطار الرهيبة التي تتربص بمن يدخل الغابة، وشظف العيش هناك، والمرأة معرضة عن الإصغاء. بل رمت بنفسها عليه وطوقت عنقه بذراعيها وأجهشت بالبكاء، حتى أشفق عليها راما في نهاية المطاف: "لا بأس عليك. فلتأتي إن شئت. ولسوف تشاطرينني الحياة على نحو ما تواجهنا. فهيا، ولنقم بتوزيع ما لدينا على الصالحين والفقراء، وأولئك الذين قاموا على خدمتنا. ولسوف نرحل إلى الغابة متى انتهينا من هذا كله."

وكان لكشمانا يقف طوال هذا صامتاً، منتظراً؛ وما أن سمع ما قاله راما لسيتا، حتى تقدم قائلاً: "وأنا راحل معكما، ولسوف أتقدمكما ومعي قوسي وكنانتي؛ فلا قبل لي بالبقاء هنا دونكما." فأجابه راما: "وكيف لك، يا أخي الحبيب، أن ترحل معنا؟ ولمن تترك رعاية والدتينا، كاوساليا وسوميترا؟"

ولكن تلك الكلمات إنما وقعت على أذن صماء. وما كان لكشمانا ليحيد عن قوله ولا أن يدع لراما أن يثنيه عما عزم عليه. وكان الرأي عنده أن الأم كاوساليا امرأة عطوف، ولا ريب بأنها سوف تعنى بأمه سوميترا. وإذن فليس ثمة ما يدعو لقلقه. أما لكشمانا ذاته ففيه كل النفع لراما وسيتا، ليتدبر لهما قطف الثمار من الأشجار لغذائهما. ولقد ألح لكشمانا وزاد في الإلحاح على راما حتى رضي بأن يصطحبه إلى منفاه في الغابة. ومضى الرجل لوداع أهل القصر وجلب السلاح، وقام بتوزيع ممتلكات راما، مثلما شاء، فكان لكل رجل وامرأة نصيب وافر من تلك الثروة ليعيش في بحبوحة ما امتد به العمر. وأوصى راما القوم بالبقاء في القصر إلى أن يعود إليهم في نهاية الفترة.

وصادف أن بلغ مسامع أحد البراهمة ويدعى تريجاتا أن راما يتخلى عن أملاكه وأطيانه، فذهب إليه يسأله أن يهبه شيئاً منها. فقال للبراهمي ضاحكاً: "خذ أيها المبجل هذه العصا وارم بها، ولك عندئذ جميع المواشي في هذه المسافة بينك وحيث تنزل العصا."

ولقد رأى من قوة تريجاتا العجوز عجباً؛ إذ شد رباط خصره، ثم طوّح بالعصا، فإذا بها

تطير وتتجاوز نهر سرايو، فكان له كل ما في تلك البقاع من الماشية مما لا عد له ولا حصر، فأعطاه إياها وزاد على ذلك الكثير سوى ذلك. فلما أتم عطاياه سار ولكشمانا وسيتا لتحية دشاراتا وأداء واجب الوداع له.

كانت أصوات ضيق الناس وتململهم تتعالى وتبلغ مسامع راما، إلا أنه ظل يتابع طريقه، لا يعنيه مما يسمع شيء. وفي نهاية المسير بلغ الرجل قصر أبيه، وإذ صادف في طريقه سومانترا طلب إليه أن يعلن للملك حضوره وصحبه والرغبة في الدخول عليه.

وجد سومانترا الملك جالساً وكأنما أصابه مس من جنون، فاقد الحس، شارداً عما حوله، وأعلن له رغبة راما في لقائه للوداع. فطلب دشاراتا حضور نساء القصر ليشهدن هذا اللقاء بالأمير راما. فتقاطرن إلى القاعة تتقدمهن كاوساليا، وقد خيم عليهن الصمت، وتورمت عيونهن من شدة البكاء. ثم كان أن دخل راما، وإذا بالنساء ينتحبن ويبكين مرَّ البكاء. أما راما فنظر إلى أبيه، وقال: "أسأل الوالد أن يأذن لي بالسفر وسيتا ولكشمانا أيضاً. فقد شاءا أن يصطحباني في هذه الرحلة."

فصاح دشاراتا: "قد فقدت العقل والصواب، فهيا ارمِ بي في السجن، وتولَّ العرش بنفسك! فذلك حق وعدل." وأحس راما، وهو يصغي لأبيه، بقلبه يتدفق حباً وعطفاً؛ فقال مباركاً الملك العجوز: "ليدم ملكك ألف عام. ولسوف أعود بعد أربعة عشر عاماً لألمس قدميك، وأطلب مباركتك."

وساله دشاراتا، راجياً، مستعطفاً: "إذن، فلتمض في هذه الليلة ، بضع ساعات تقضي فيها رغبات لم تتحقق لك." ولكن راما كان قد أشاح منذ تلك اللحظة عما ليس منه أوله؛ مملكة كوسالا وعاصمتها آيوديا وكنوزها ورعاياها. فقال: "ما عدت أرغب بعد الآن في شيء أو أمر، سوى أن تحقق الوعد الذي قطعته لكايكيه. وهذا كله هو الآن في ملك بهاراتا. أما أنا فسوف أمضي في طريقي عن طيب خاطر، واثقاً من أن بهاراتا قادر على النهوض بمسؤولياته. وليس ينبغي لك أن تحزن، فشأن الملك أن يحمي ويخفف من الآلام

ويطيّب الخواطر. فلا يليق بك أن تستسلم للأحزان وأنت في هذا المقام."

كان هذا الحديث أشد مما يطيق سومانترا، السائس الحكيم، فانفجرت الدموع تنسال غزيرة من عينيه، لا يملك أن يحبسها. وساد الحزن الجمع يومئذ، إلا كايكيه، فلم تبد شيئاً من الأسى لنفي راما. والتفت سومانترا وشرع في الهجوم على كايكيه بشدة المقاتل العازم على قتل عدوه: "دعوت السماء أن تنشق الأرض وتبتلعك، ويكون سلوكك منسياً! فما أحسب أن الشجرة المرُّة تحمل ثماراً طيبة! وأنت ثمرة بذرة سيئة. فما كانت أمك، أيضاً، من قبلك لترعى شأن زوجها، بل كانت امرأة عنيدة، صعبة المراس، تغلب عليها النزوة، أنانية لا ترعى زماماً. وقد قيل إن البنت سر أمها. وها أنذا أعلم صحة هذا القول عن يقين!"

وصمت الرجل لحظة، ثم استأنف هجومه، آملاً أن يحملها ما عبر عنه من امتعاض، وما أنزله بها من تنديد وتقريع بكلمة الحق الصادقة، على اللين والتراجع: "لقد دفعت بدشاراتا إلى طريق الجهل والضلال، وأنت شريكه على طريق الحق! ولكن الوقت لم يفت، والأمر بيدك، حتى الآن، لتقويم هذا الخطأ الفادح الذي نزل بأفضل الرجال، ولي عهدنا الشرعي."

ولكن كايكيه لم تتراجع عن غيها، وظل وجهها على حاله من الجمود. وهكذا دابت على التمسك بموقفها، ولم تزح عنه قيد أنملة، ولو اجتمع العالم ضدها. وكان دشاراتا قد استعاد بعض هدوئه، وأخذ بالانشغال للاستعداد لعيش راما بالمنفى: "فليأخذ معه جيشاً، وفوجاً من القناصة والحراس، وليحمل معه ما شاء من خزينة مالي. ولتكن حياته في الغابة كعهده بحياة الملوك، وإن ظل بهاراتا في آيوديا."

فصاحت كايكيه ثائرة: "أتقدم لابني مملكة لا حول لها ولا قوة؟ إن ذلك، يا مولاي، كأس من النبيذ لا طعم له ولا رائحة، وأمر لا أرضاه."

وتدخل راما ليصلح الأمر بين الملك وزوجه: "إن ترك المرء فيلاً فما يجديه أن يحتفظ بزينته؟ حسبي من هذا رداء من لحاء الشجر يستر جسمي." وكانت كايكيه قد أعدت للأمر عدته، فقالت، والرجل لم يكمل كلامه بعد: "هاك ثيابك من لحاء الشجر، وقد

أحضرتها لك لترتديها." فقبلها راما ومعه لكشمانا أيضاً. ثم مدت كايكيه يديها تقدم لسيتا كذلك مثل ذلك الرداء. فحملته المرأة التي لم يمس بشرتها الناعمة سوى الحرير، ولم تعرف خشن القماش وماذا تفعل به. ولكن راما تقدم وأعانها على هذا اللباس المتقشف. وعادت النساء ينتحبن ويجهشن بالبكاء.

وانفجر فاسيشطا غاضباً، بعد أن ظل طوال الوقت صامتاً لا ينبس ببنت شفة، وأخذ ينهال على كايكيه، منددأً، مقرعاً: "قد تجاوزت يا امرأة كل حد! إن لسيتا أن تبقى هنا وتسود في قصر راما. فهذا هو الحق والصواب. وليس هناك ما يحملها على الرحيل." وتابع مهدداً: "إن مضت مع راما فكلنا ذاهب معه. وكذلك بهاراتا وشاتروغنا. أما أنت أيتها القاسية فلك الأرض اليباب لتقيمي الحكم عليها. فمملكة دون راما لا قيمة لها، والمملكة الحق حيث يكون، ولو كانت غابة. وإن حسبت أنك تسدين لولدك بهاراتا خدمة فقد جانبك الصواب، فلن يقبل بهذه الهدية، وهي خواء."

ثم التفت دشاراتا إليها، وقال محتداً: "ما كان عهدي لك أن تجردي سيتا من ردائها، ولا أن تجعليها ترتدي رداء حقيراً كهذا." والتفت إلى سومانترا مخاطباً: "لتذهب سيتا محملة بكل ثمين وعظيم." وأمره أن يحمل راما وزوجه ولكشمانا، حتى أطراف الغابة. فكانت لحظة مؤثرة، حين تقدم راما من أبيه وكفاه مضمومتان إلى بعضهما أمام صدره، راجياً الملك العظيم أن يعنى بأمه التي نال منها الحزن كل منال، ثم قال له مهدئاً: "إن هي إلا أربع عشرة سنة، ولسوف تمضي كالحلم." وودعت سوميترا ولدها لكشمانا مبتهلة داعية له بالفلاح: "قد غدا راما منذ اليوم أباك وسيتا أمك، والغابة آيوديا."

استقلت سيتا العربة بكل أناقة الأميرات وسمو أهل الملك، وفي إثرها راما ولكشمانا يحملان أسلحتهما. وهز سومانترا السوط ملوحاً في الهواء واندفعت العربة تشق الطريق كالعاصفة. وكان أهل المدينة في غضون ذلك يحفون براما وصاحبيه على جانبي الطريق مودعين وهم يذرفون الدمع. وفي مقدمتهم الملك دشاراتا وكاوساليا. وأخذوا يجرون في سباق مع العربة حتى اختفت عن أنظارهم.

وظل المبعدون وسائس العربة يضربون عصا الترحال في الأرض الواسعة، فقطعوا الكثير من البقاع، وعبروا العديد من الأنهار، ثم بلغوا نهر الغانج. وكانت شلالات المياه تبدو أمامهم كجدائل الشعر وهي تصب من الجبال وتحط في دوامات صاخبة كأنما تضج بالضحك. وبدت أمامهم الحقول المكسوة بالأقحوان واللوتس، مشهداً خلاباً مزركشاً بالأبيض والأحمر. ولما حل الظلام أقام هؤلاء مخيمهم هناك لقضاء الليلة؟ وقدم عليهم غوها، ملك النيشادا، للترحيب بهم، وقد سر بهذه الزيارة من راما أيما سرور مما حمله على أن يعرض عليه مملكته ليسود فيها.

وأدرك سومانترا عندئذ أن الوقت قد حان لعودته إلى آيوديا. أما غوها فقد أعد العدة لعبور راما الغانج في قارب متين. وقد نظر سومانترا في الأمر، ووَدَّ لو استطاع البقاء إلى جانب راما، وتوسل إليه أن يبقى معه، طوال منفاه؛ ذلك أن راما كان عنده القوة المحركة، وسومانترا سائس عربته. لكن سومانترا كان لراما صلة الوصل بآيوديا، ملعب طفولته ومرتع شبابه، فلم يشأ أن تنقطع الصلة. ولقد قُدِّر للجماعة أن تعبر الغانج، ثم تبلغ بعدئذ جسراً هو الحد الفاصل بين عالمين؛ أيوديا والغابة. ولكن الأمر كان محسوماً عند راما، فمضى يعبر الجسر، دون أن يلتفت إلى الوراء، وتابع السير لا يتسرب إلى قلبه أي قدر من الحنين والرغبة في العودة.

جهد القوم ما استطاعوا في حمل دشاراتا على العودة إلى القصر، بعدما أدبر راما وصحبه، فما أجدى الجهد ولا أفادت المحاولة. فظل الرجل ثابتاً في مكانه يطيل التحديق بعينين لا تنقطع الدموع عنهما، تلاحقان العربة التي تحمل راما الحبيب وزوجه وأخيه لكشمانا. وظل هكذا حاله حتى غابت العربة عن النظر، فاستدار، مستنداً إلى كتف كاوساليا، خافض الرأس حزناً وألماً، والمرأة تقوده إلى قصره من جديد. وظل الرجل على هذه الحال لا يفارقه الحزن والألم، ولكنه كان شديد الثورة حين اقتربت منه الملكة كايكيه تنشد محادثته، فلم تسمع منه إلا الإشارة بأقسى نبرة: "إياك..." واستمر الملك في طريقه، وكم تعثر بسبب غشاوة عينيه بالدموع، وهو يجر الخطى إلى جناح كاوساليا، ليرمي بنفسه إلى

إحدى الأرائك مغطياً وجهه بكفيه، حزيناً بائساً.

كان الوقت يمر بطيئاً، بطيئاً؛ فكانت الدقائق تمضي كالساعات، والساعة دهراً؛ وكانت الكآبة تغلف قصر الملك، بعد ما كان يضج بالبهجة والفرح، وتشيع في أرجائه المباهج التي تنشرها الموسيقى. ولما وجد الملك نفسه قد غلبته المصيبة الرهيبة، فقد جذوة الحياة في أعماقه. وبات منذ تلك اللحظة من الحزن والألم يعاف الطعام والشراب، حتى بلغه، ذات نهار، نبأ عودة سومانترا من مهمته، فاستغرقته نوبة من النحيب والبكاء، ثم أغمي عليه، وكان أول ما صدر عنه، حين أفاق من الإغماء، أن همس بسؤال: "ماذا سمعت من الجماعة، حين غادرتهم؟"

شعر سومانترا بغصة خانقة، وهو يصغي لسؤال مليكه، والعبرات تغلب عليه فتخرج الكلمات كالحشرجة من حلقه: "قد حملني السيد راما الحريص على شرعة الأخلاق أن أنقل إليكم، مليكه العظيم، أسمى تحياته راجياً منكم البركة والتاييد. وأحر السلام إلى أهل القصر الأفاضل من نساء ورجال، بما يليق بمكانتهم. وقال: "أخبر والدتي كاوساليا عن أحسن أحوالي، وانقل لها مني أجلَّ التقدير والاحترام، راجياً ألا تقصر في واجب، ولتحرص على شؤون دينها والعناية بمذبح القرابين، وانقل عني رجائي أن تعنى بالملك والدي وتضعه موضع الإجلال، كما تجل الآلهة، وإن تبتعد عن الزهو بمكانة أسرتها ومقامها كملكة، وتقوم بواجب رعاية أمهاتي الأخريات، وتولي عنايتها لكايكيه، الأثيرة عند الملك، وكأنها الملك ذاته." ولقد حملني السيد راما، أيها الملك العظيم، رسالة إلى بهاراتا، قال فيها: "ليعلم الأمير أنني في أحسن حال، ورجائي إليه أن يحسن لأمهاته، ويعتمد العدل في معاملتهن. ثم يثابر على طاعة والده الملك. وإن تقدم الملك في السن فيجب ألا يحمله هذا على تولي العرش. فليطع الملك، وليكن عوناً له في تدبير شؤون المملكة." ثم عهد إليَّ، ومقلتاه مغرورقتان بالدموع، أن أرغب نيابة عنه إلى الأمير بهاراتا أن يرعى أمه الحبيبة كما لو أنها والدته ذاتها. وبعد أن قال راما القوي ذو العزم والبأس هذا، بكى مر البكاء. وقد تأثر لكشمانا لهذا المشهد واشتد به الغضب وقال وهو يطلق زفرة من أعماقه:

"أي ذنب أتى به هذا الأمير النبيل ليكون عقابه النفي؟ فلا ريب أن الملك لم يأخذ في اعتباره إن كان يأتي أمراً حسناً أو قبيحاً حين حقق للملكة كايكيه رغبة هوجاء، فبتنا جميعاً في هذا البؤس. فإن كان سبب معاناة راما النفي إرضاء لغباء كايكيه فذلك من الشر لا ريب. وما كنت لأبرر هذا الأمر ولو قضت به الآلهة ذاتها. ولا ريب أن هذا الأمر الذي أتى به الملك دون أن يحيط بآثاره سيأتي له بأشد العذاب. والحق أني لست أرى الملك يحمل عاطفة الأب بين جانبيه. أفترى الناس يقبلون بما رسم الملك للسيد راما، الحريص على الخير والحق، فينتهي بقرار منه إلى إقصائه؟ وكيف له أن يزعم لنفسه حق المُلك، وقد أشاح عن إرادة القوم، فأمر بإبعاد راما المحبوب الفاضل ورمى به إلى حياة المنفى؟ أما جناكي، سيتا، الحكيمة، يا مولاي، فقد وجدتها تقف لا تنبس بكلمة، شاخصة العينين، تحدق في الفراغ، وكأنما تملكتها روح غريبة، ورأيت ابنة جناكا العظيمة، وهي التي لم تعرف البؤس في حياتها، تبكي حزناً وأسى، ولسانها يعجز عن الكلام، ولقد بلغ بها التأثر لمرأى مولاها والدموع تبلل خديه، أن جف حلقها، وغدت تحدّق بي، وهي ترسل من مقلتيها دمعاً لا يكفكف. ذلكم حديث راما حملته إليكم، يا مولاي، مؤيداً من لكشمانا؛ وكان جالساً حينذاك في العربة الملكية، بينما كانت سيتا الزاهدة الصابرة تحدق في وجهي، صامتة لا تنطق بكلمة."

وإذ سمع دشاراتا حديث سومانترا ازداد صدره ضيقاً، وانتابته إغماءة، ولما أفاق منها عاد الماضي يؤرق مضجعه ويزيد من عذابه، وأخذ يتالم ويتأوه في عتمة الليل، وينادي زوجه:
"أي كاوساليا أين انت؟ إني لا أستطيع رؤيتك. فضعي يديك علي لأتبينك بجانبي."

كان الشيخ قد أهرق دمعاً غزيراً في ذلك العهد المتأخر من عمره فذهب ببصره أو كاد، ووجد نفسه حطاماً بعد خسارته راما، وشعر بأن حياته تمضي حثيثاً نحو النهاية، وأن الموت بات قريباً، فهمس قائلاً لكاوساليا: "كنت أعلم أن نهايتي ستكون على هذا النحو... تعالي واجلسي بجانبي، فلعل حديثي يخفف عن قلبي المنهك، ولسوف أصارحك بإثم قديم. حقاً إنه لم يكن مقصوداً، إلا أني أتيت بهذا الإثم ولا مفر لي من تسديد الثمن..."

وأطلق الشيخ زفرة حرى وتابع روايته: "كان ذلك في زمن لم يعد لي منه سوى ذكرى بعيدة من أيام الشباب؛ وكنت يومئذ أهوى الصيد واعتدت الذهاب إلى الغابة. وكانت الشمس في ذلك النهار تسطع براقة، ثم اقترب المساء وحل الظلام، ووجدتني قد أضعت الدرب واضطرني جوادي المنهك للتوقف برهة. ومن بعيد لاح نهر السرايو ومياهه تتلألأ، ثم إذا بي أسمع جلبة وضجيجاً يفسدان هدوء الغابة. وخيل لي أن مصدر هذا الضجيج وتلك الجلبة غزال يريد أن يطفئ ظمأه، فانتقيت سهماً وثبته على القوس وأرسلته نحو مصدر الصوت. ويا لسوء ما فعلت براعتي في الرمي! إذ سرعان ما سمعت من ذلك المصدر صرخة ألم اهتزت لها الغابة الوادعة. فتملكني في تلك اللحظة خوف شديد، فاندفعت أجري بين الأشجار، حتى وقعت على فتى أصاب السهم قلبه. وأحسست بالفزع يجتاح كياني وأنا أنظر إلى هذا الفتى مسجى بجانب النهر ويداه ما تزالان تحضنان جرته. فلما انحنيت فوقه همس قائلاً إنه إنما جاء إلى النهر ليأتي بالماء لوالديه الضريرين، وهما من النساك البراهمة، يعيشان في حرش بالقرب من ذلك المكان. وكان هذان قد أمضيا اليوم صائمين، وبعثا بالفتى، واسمه سندو، كما يعرف باسم شرافانا، ليأتي لهما بالماء من النهر. سمعته يهمس لي وهو يحتضر أن خذني إلى والدي! وحملته بقلب واجف ومضيت به إلى الكوخ الصغير من أوراق الشجر والدوالي حيث ينتظره أبواه الكفيفان. قال الأب بصوت متهدج: "أهذا انت يا سندو؟ أي بني، قد تأخرت، ونالنا القلق عليك. أين هو الماء الذي جئتنا به؟"

أنزلت جثمان الفتى وقد فارقته الحياة، وسجيته برفق على الأرض. ورويت للأبوين الحادثة الفاجعة على ما أسعفني النطق. فندت منهما صرخة رددتها جنبات الغابة، وشعرت في تلك اللحظة بالرعب والقشعريرة تسري في كياني للإثم الذي ارتكبت. وسمعت عندئذ صوتاً أجش يقول، وأنا أخفض رأسي خجلاً من عاري: "إنني لن أعمد إلى تدميرك، جزاء فعلتك، أيها الملك، طالما ان ذلك كان من أثر حماقتك. ولكن كما كنت السبب في شقائي، كذلك لسوف تعاني ذات يوم مثل هذا الألم الذي نالني على يديك. ثم يكون

موتك بعد هذا." قال الناسك هذا، ثم تابع: "والآن اذهب بنا إلى النهر واقم المحرقة لجثمان ولدي. ولسوف نتخلى هناك عن جسدينا، أنا وزوجي أيضاً. فافعل كما أُمرت، وإلا حاق بك شر أعظم." وهكذا أقمت المراسم الأخيرة بجانب مياه النهر الجارية، وسرعان ما التهمت ألسنة اللهب الضارية جسدي الناسك وزوجه وولدهما الحبيب سندو. وشعرت حينذاك بأنني قاتلهم جميعاً. وما برح خاطري منذ ذلك اليوم أني سألقى المصير ذاته في نهاية أمري." قال دشاراتا هذا وأغمض عينيه الإغماضة الأخيرة.

وفي صباح اليوم التالي شاع نبأ وفاة الملك، وحزن الشعب لرحيله أشد الحزن؛ فقد كان ملكاً صالحاً رحيماً بهم، ولم يجدوا طوال حياتهم ما يشكون منه، إلا واقعة راما.

وقع القوم في حيرة، وأخذوا يتداولون في ما بينهم في أمر من يتولى مراسم الجنازة. فقد كان راما ولكشمانا بعيدين في منفاهما، كذلك لم يكن بهاراتا وشاتروغنا قد رجعا بعد من رحلتهما إلى مملكة جوبهاراتا، والد كايكيه. فاشار فاسيشطا يومئذ بتحنيط الملك، وكان أن حنط الجثمان وسجي، بينما كانت البلد حزينة لفقدان مليكها الراحل، وأرسلت الرسل على عجل لاستدعاء بهاراتا.

وفي راجاغريها كان بهاراتا قد أمضى ليلة حافلة بأحلام مزعجة، كان يخشى الكشف عنها. ولقد حاولت حاشيته أن تروح عنه وتبدد ما أصابه من القلق، إلا أن الضيق ظل يلازمه. ولما سأله أحد أصدقائه المقربين عن سبب ضيقه، أسر إليه قائلاً: "لقد رأيت في ما يرى النائم والدي مشعث الشعر، يرتدي أسمالاً بالية، يهوي من أعلى الجبل إلى هاوية سحيقة، وإذا به يحط في حوض من القذارة، وينفجر ضاحكاً كالمجنون. ثم رأيت البحر العظيم قد جفت مياهه، والقمر يهوي من مكانه والأرض تنشق. ثم عاد الملك فظهر في رداء أسود تطوق عنقه عقود من الزهور حمراء اللون، راكباً عربة تجرها الحمير. ورأيت عفريتة رهيبة تبدي له فنون الإغراء وتستدرجه بعيداً. وأحسب أن العربة التي تجرها الحمير إشارة إلى محرقة الموتى. وإني لأفزع من هذا الخاطر. ومع أنني لا أجد سبباً للخوف، ولكني أراني في ضيق من هذا الحلم؛ وأجدني تحت وطأة خوف لا أملك له اسماً، ويجعلني في

همود وضيق أفقداني الهمة والرغبة وأفسدا علي يومي."

وكان بهاراتا ماض في الحديث عن الكابوس الذي أثقل عليه، حين دخل عليه الرسل من آيوديا، يحيونه وقالوا إنهم يحملون الهدايا لخاله وجده، ورسالة تحثه على العودة لأمور خطيرة جدت ولا تحتمل التاخير. فسالهم إن كان الوالد بخير؟ وتابع يمطرهم بسيل من الأسئلة عن حال راما ولكشمانا، وسيتا وسوميترا، ثم إن كانت أمه الطموح اللجوج كايكيه قد حملتهم رسالة إليه؟

ورد الرسل بإجابات مراوغة تطمئنه إلى أحوال من سال عنهم، مؤكدين له بأن الرفاه والسعادة ينتظرانه، وليس له سوى أن يتهيا للعودة في التو واللحظة. وخرج جده وخاله لوداعه وداع المحبين، وحملوه الكثير من الهدايا الثمينة النادرة من فيلة وكلاب صيد مدربة وجلود الأبل والجياد والبغال والذهب. ولكن ذلك كله لم يجد في التخفيف مما كان يثقل قلبه من أثر الكابوس الذي أرق ليله وأفسد عليه يومه، بل زاد من مخاوفه وصول هؤلاء الرسل وإلحاحهم عليه واستعجال عودته إلى آيوديا. وما كان من شان ذلك كله إلا ان يزيد من مخاوفه. فاخذ ينهب الطريق ليبلغ مقصده؛ وكان أن بلغ آيوديا في اليوم السابع. وشعر بهاراتا حينذاك، وهو ما زال على مسافة من العاصمة، أن الأمور لا تجري على ما يرام. ورأى المدينة التي ألفها تضج بالنشاط ساكنة، والحدائق مهجورة، وطرق السفر خالية. كان الألم والحزن قد أثقلا افئدة الناس حين رحل راما إلى منفاه، وها هو ذا مصاب جديد ينزل بهم، وإذا بآيوديا تنتقل من حال إلى حال. فبدت المدينة الجميلة البديعة التي احبها بهاراتا والفها تبدو له عند عودته إليها وأخيه غريبة يخيم عليها الصمت الكئيب، وقد خلت ساحاتها ودروبها من الناس، والمتاجر مغلقة. وأشاع ذلك كله في نفس بهاراتا قشعريرة اهتز لها كيانه. وكان لا يعلم حتى تلك اللحظة ما حمل قومه على استدعائه وأخيه. فظلا يتابعان سيرهما وهما لا يدريان حقيقة ما حدث.

لم يعثر بهاراتا على والده فسعى إلى أمه كايكيه؛ وحين دخل قاعة الجلوس في جناحها، نهضت إليه مرحبة، وشرعت تساله عن أحواله وما صادف في زيارته في أسئلة متصلة أقرب

إلى الثرثرة: "متى غادرت راجاغريها؟ هل والدي بخير؟ وماذا تحدثني عن أخي؟ هيا، أخبرني بكل ما جرى وصادفت في زيارتك!"

أجاب بهاراتا وبه شيء من القلق: "قد غادرت قبل سبعة أيام، وتركت الهدايا لدى الجد، لئلا تعرقل علينا الحركة، إذ أعلمنا الرسل أن ثمة أموراً عاجلة تستدعي عنايتي على وجه الخصوص. فهل تعلمين ما هي هذه الأمور. ثم أين والدي، وعهدي به دائماً بصحبتك؟ أم لعله مع الأم كاوساليا؟ الحق أن عليَّ البحث عنه، لأقدم له احترامي، فقد طال بعادي."

فأخبرته كايكيه عندئذ بالنبأ، وجهدت أن تبدو لهجتها كالمألوف وصاغت عباراتها كأنما تحدث ابنها في أمر من أمور اليوم: "قد رحل كما يرحل البشر، حين يشاء القدر الذي ينتظرنا جميعاً وإلا ماذا عساك تتوقع أن يعيش إلى الأبد؟"

رمى بهاراتا بنفسه على الأرض، مغطياً وجهه بكفيه كالطفل. فأخذت كايكيه بتقريعه: "ليس هذا من أمر ذوي الدم الأزرق النبيل. فهيا تمالك نفسك، يا بني، واثبت كما ينبغي عليك."

ولكن بهاراتا أعارها أذناً صماء عن سماع تضرعاتها: "كم أتوق لوالدي! كان عهدي به يحتضنني بعد غياب، وينفض عني غبار السفر! فهيا خذيني، يا أمي إلى راما أخي وصديقي. وها قد أصبح الآن في مقام الأب." ثم إذا به يلتفت إلى كايكيه فجأة، ويسألها: "وماذا كانت كلمات أبي الأخيرة على فراش الموت؟" فأجابت: "صاح: أي راما، أي سيتا، أي لكشمانا!" ثم قال: "سعيد من سيلقاهم حين يعودون. وكانت هذه هي آخر كلماته." نظر إليها بهاراتا بعينين ثابتتين، وقال ببطء وكأنما يجر الكلمات جراً: "وأين هم؟ ولم قال يعودون؟ أهم في سفر؟"

قالت: "إنهم في منفاهم في الغابة". ومضت تروي له ما جرى، وتابعت تقول: "دعك الآن من الحزن، وتول زمام الأمور. وبادر كما بادرت! عليك أن تمسك بمقاليد الحكم في آيوديا قبل أن يفاجئك أحد بالطعن في حقك بالملك."

ولقد ذهل لما علم بما دبرت أمه لاستبعاد أخيه راما عن العرش، فضاق بها واشتد به الحزن لما آل إليه الأمر بأخويه، راما ولكشمانا، فقال لها أقسى الكلام: "لو أن أخي راما الجليل لم يكن يحمل لك توقيراً، لكنت أنا من يطردك في التو واللحظة. وكيف كان لعقلك، وأنت ابنة ملك، أن يتفتق عن خاطر يبلغ بك هذا الدرك من الخسة والانحطاط؟ ولقد كان أخي باراً بك، فما الذي حملك على أن تأتي بهذه الأفعال المنكرة؟ وا أسفي عليك يا أمي! وا أسفي! لقد قتلت أبي، وأقصيت عني ملاذي الوحيد في الحياة. ومن أجل ماذا؟ لتجعلي مني ملكاً؟ لقد كان جديراً بك أن تعرفي معدني، وأنت من أتيت بي إلى الحياة. فكيف خطر لك ببال أني أقبل بثمرة مؤامرتك الشريرة؟ فاعلمي إذن أنه لم يخطر لي ببال أن أتولى العرش. وها أنت تحيكين المؤامرات وتقصين إلى الغابة الحافلة بالوحوش والأهوال من كانت حياتي تهون في سبيله. فاعلمي بعد أني لن أوافقك السير في مخططاتك الشريرة ما دام في جسدي قلب ينبض. فما من أحد في العوالم الثلاثة جميعها يضارع أخي الكبير راما، وتتوقعين مني أن أنتزع منه ما هو حق له؟ إذن فأنت لا تعلمين شيئاً عني! لقد بددت كل جهودك هباء."

وغطى بهاراتا وجهه بيديه وأخذ يجهش بالبكاء، وقد غلب عليه الحزن الشديد، وراح يقرعها ويعنفها بلا رحمة أو هوادة: "لا تبكي زوجك الذي قتلته بقسوتك. ابكي ابنك، ولدك. إنني ميت بالنسبة لك، وأنت عندي ميتة كذلك. ولسوف أمضي الآن وأعود براما، وأكون عبداً لديه، فهذا مكاني. أما أنت فأولى بك أن تنتزعي حياتك بيدك، قبل أن تجدي نفسك في أسفل درك من الجحيم، جراء شرورك."

قال بهاراتا هذا واندفع خارجاً يبكي عاره من شدة الندم. وفي الطريق التقته كاوساليا، وقالت باكية: "أي بني، لك العرش فتمتع به. لكني رجوتك أن ترسل هذه المرأة المفجوعة إلى راما في منفاه." فانهار بهاراتا، عندئذ، عند قدميها راكعاً، فأدركت ألا ضلع للأمير النبيل بما جرى؛ فانحنت وأنهضته، وعادت تجهش بالبكاء كمن فقدت أهلها وباتت وحيدة في هذا العالم.

وفي اليوم التالي كان هناك ما يشغل بال فاسيشطا، ألا وهو الاهتمام بطقوس رحيل دشاراتا، فذهب يذكر بهاراتا بكياسة ولباقة بواجب الابن في هذه المناسبة. فحمل بهاراتا جثمان والده، كما جرت التقاليد، من الحوض الكبير المليء بالزيت، وسجاه على أريكة واسعة مرصعة بالأحجار الكريمة. وبعد حين سار موكب الجنازة تحف بجثمان الراحل حشود المودعين، وعامة الناس في المقدمة، والأهل ينثرون الذهب ويوزعون العطايا، بينما انشغل البعض بجمع الأعواد والخشب والنباتات النادرة والعطور لتكون وقوداً لنار المحرقة. وأخذ الكهان بعدئذ يقدمون القرابين ويتلون الأدعية الفيدية، بهمس أقرب إلى الصمت، ثم أطفئت النار على نحو ما ترسمه الكتب بصب الماء الطهور. وهكذا عاد دشاراتا بتحلله إلى العناصر الخمسة إلى طبيعته الكونية.

انتهت مراسم الجنازة، وجلس بهاراتا وشاتروغنا يتأملان الأحداث المفجعة التي دارت في الأسابيع القليلة الماضية. قال شاتروغنا لبهاراتا، وقد شردت به الخواطر إلى راما في الغابة البعيدة: "كان بوسع لكشمانا، لو شاء، أن يثير حرباً، ولكنه لم يفعل." وعاد بهاراتا إلى خواطره يبحث عن طريقة ليحمل أخاه على العودة إلى آيوديا. ووجد نفسه يقول: "لا بد من أن يعود راما. ولسوف أعمل على عودته." نظر إليه شاتروغنا ورآه مقطباً، ووجهه يكشف عن الإرهاق بل الإنهاك، تحت وطأة الأحداث التي يبدو أنها سوف تفسد عليه مشاريعه وخططه. وفيما كان الأخوان يخططان ويدبران ويتبادلان الأفكار، إذ بأصوات صخب وقرع على الباب، وجماعة من النسوة يدخلن عليهما وعلامات الخوف على وجوههن، ويحيط بهن رجال الحرس، ويجررن مانثارة في إثرهن، وسمعا بين تلك الأصوات من يقول: "ها كما الشريرة مدبرة المؤامرات! فهي التي حاكت المكيدة من بدايتها إلى نهايتها، وتسببت في موت والدكما ودفع أخيكما إلى المنفى!"

وكان جلياً للناظر أن هذه "الحدباء" أخذت تفيد من البلاء الذي حل بالأسرة؛ فبعد أن كانت ترتدي ما ترتديه مثيلاتها في القصر، بدأت ترفل بالحرير والمنسوجات المطرزة، وتتزين بأغلى المجوهرات مما لا عهد لها به من قبل، فأخذت تظهر بمظهر الأميرات وتكثر من

معجون خشب الصندل، وتستعرض ثراءها المحدث، فاصبحت لها مكانة غير معهودة، وأخذت نساء الحاشية والوصيفات يخشين منها وما لها من نفوذ في القصر.

هب شاتروغنا من مكانه كالنمر وأمسك بخناقها وشرع يهزها هزاً حتى سمعت طقطقة عظامها وتناثرت حليها على الأرض وكأنما هي حبات قمح. وتناولها بالضرب حتى كاد يزهق روحها، فسقطت على الأرض وهي تزعق وتصرخ مستنجدة بمولاتها. فهرعت إليها كايكيه وأخذت ترجو بهاراتا أن يتدخل قبل أن يزهق شاتروغنا روحها في ثورة الغضب.

قال بهاراتا متجهماً: "دعها تمضي وشأنها. فليس من شيم المرء أن يقتل امرأة. وراما سيعرض عنا بلا ريب إن علم بهذه الحادثة. وهذا عين السبب الذي جعلني أبقي على كايكيه." والتفت إلى أمه وحدجها بنظرة ملؤها الاحتقار، وتابع قائلاً: "وإلا كان الموت نصيبها على يدي." فارخى شاتروغنا قبضته عندئذ عن مانثارة، وإن كان واضحاً أن مرجل غضبه ما زال يغلي. ورأت المرأة رفيقاتها يهربن من القاعة مضطربات مذعورات. وما هو إلا بعض الوقت حتى أخذ روعها يهدأ، شيئاً فشيئاً، وصرخاتها تتلاشى، بينما كانت كايكيه تربت على ظهرها وتخفف من آلامها بالعبارات اللطيفة.

***

حينما نفي راما إلى الغابة سار وراءه حشد عظيم من الناس، وكان بعضهم قد بلغ من العمر عتيا، فلا يقوون على حمل أجسامهم الهزيلة؛ إلا أنهم ظلوا مثابرين مع ذلك على السير، يجدون حيناً وتتعثر بهم الخطا أحياناً، حتى أشفق عليهم راما من هذا العناء. فأمر سومانترا بالتوقف، ونزل وسيتا ولكشمانا من العربة، محاولين ثني القوم عن متابعة الطريق، فما وجدوا منهم إلا الإصرار على السير وراءهم. وهكذا اضطر المنفيون للسير بجانب أولئك الشيوخ العاجزين، وما زالوا على سيرهم حتى بلغوا نهر تماسا، والشمس تميل إلى المغيب، وعتمة الليل تتسلل شيئاً فشيئاً، ثم أمضوا الليلة على ضفة النهر. وكان راما أول من نهض، والشمس لما تشرق بعد، وأتباعهم ما زالوا مستغرقين في النوم، وهمس لسومانترا أن

يتهيأ للرحيل مع صحبه في تلك الساعة المبكرة قبل استيقاظ القوم. وهكذا انسل راما ولكشمانا وسيتا بهدوء إلى عربتهم، تاركين القوم للنوم. وبعد مسافة ترجل الركاب عن العربة، وأشاروا على سومانترا بأن يتجه إلى الشمال. ثم يدور بالعربة ويعود؛ وكان راما يقصد بذلك أن تضيع آثارها، فينال القوم اليأس من اللحاق به، فيعودون من حيث أتوا، إلى ديارهم ومنازلهم. وكان أن هجر راما ورفيقاه الطريق الفسيح، وساروا في درب الغابة، بينما اتخذ سومانترا درباً آخر، ثم عادوا وامتطوا العربة حين عادت إليهم من جديد، واندفعت بهم لا تلوي على شيء باتجاه غير ذاك.

أما أولئك الذين خلفهم راما وصحبه عند ضفة النهر فقد استيقظوا من نومهم والشمس في كبد السماء، متعبين منهكين بعد تلك المسيرة الطويلة. ولكم كان ألم أولئك الشيوخ عظيماً حين وجدوا المكان حيث نام صاحبهم خالياً، فأخذوا يلومون أنفسهم لكسلهم واستغراقهم في النوم، وعادوا يتابعون السير محاولين اللحاق براما وصحبه، متتبعين أثر دواليب العربة قدر ما أتاحت لهم عزائمهم. ولكم انتابهم اليأس حين ضاعت آثار العربة بعد طول عناء، فلم يملكوا بعدئذ إلا أن يعودوا أدراجهم إلى آيوديا.

ولقد ظلت العربة في سفرها طوال ذلك اليوم، حتى كان المساء وبلغ أصحابها ضفة الغانج، بالقرب من شرينجيافارا، فلجؤوا إلى شجرة ضخمة ليستريحوا تحت أغصانها.

كان غوها ملك النيشادا صاحب تلك المنطقة. فلما جاء من يبلغه بنزول الأمراء في أرضه أسرع للترحيب بهم، وأظهر الخضوع لراما؛ فعانقه راما عناق الود. وقدم غوها ما حمله معه من طعام طيب وفراش مريح وعلف للجياد، وكل ما خطر بباله أنه يوفر الراحة لراما، أملاً بأن يتمكن من إقناعه بتولي الملك في منطقته. ولقد تأثر راما أشد التأثر لهذا الحب الذي أبداه غوها، فقال له: "أي أخي، قد أسعدني ما بدر منك من عاطفة. ولكن ماذا تراني انتفع بكل هذه الهدايا؟ فلقد هجرت العالم وما فيه. وما عدنا يا صديقي نحتاج شيئاً، إلا أن توفر لنا جياداً وشيئاً من الحشائش الطرية نقتات بها."

ووجد غوها في تلك الكلمة إشارة للصمت، فانقطع عن الإلحاح. وخلد راما وسيتا للنوم والراحة تحت الأشجار، بينما ظل لكشمانا يقظاً لا تغفو له عين. وكان ذلك مدعاة لحزن غوها، وقال له: "نم هنيئاً، أيها الأمير، ولسوف أظل ورجالي يقظين لحراسة أصدقائي وحمايتهم من كل شر."

ورد لكشمانا: "وكيف يمكن أن يغمض لي جفن، وهذا زمن يدعو للأسى يمر به أخي." وأطلق زفرة من أعماقه وتابع قائلاً: "وا حسرتاه! فلن تطول الحياة بوالدي أيضاً ثم تلحق به الأمان كاوساليا وسوميترا." وهكذا دار الحديث بين الرجلين واختلطت عبراتهما ما دام الليل قائماً.

وفي الصباح جاء غوها بقارب وحمل ضيوفه عبر النهر. فعانقه راما وأبدى له كل الشكر لما نال ورفيقاه من جميل الرعاية. وكان غوها يأمل من راما أن يبقى في الجوار قريباً منه ليقوم على خدمة الأمراء المبعدين؛ غير أن راما لم يشأ أن يكون قريباً من الناس والمدن لأن في ذلك نقضاً للعهد الذي أخذه على نفسه، بأن يبتعد عن أولئك الذين عرفوه ومنحوه الحب.

ولقد ألح سومانترا الذي رافق راما وصحبه حتى تلك اللحظة أن يأذن له بالبقاء معه، وذرف لذلك دمعاً. ولكن راما أبى عليه ذلك، قائلاً إن عودته إلى آيوديا واجب لئلا تحسب الملكة كايكيه أنه لم يف بالعهد، ولم يدخل الغابة، وفي ذلك ما يحمل الأب على الحزن والملكة على الضيق. "إذن، فاستعجل العودة يا سومانترا". وكانت تلك كلمات الوداع قالها راما، ومضى متوغلاً ورفيقاه في أعماق الغابة، تتبعه نظرات سومانترا الحزينة، حتى غاب الثلاثة عن عينيه الدامعتين فاستدار وقفل عائداً بقلب مكلوم.

كان راما قد احتمل كل ما مر به بصبر وجلد؛ ولكن ها هو ذا يغلب عليه الحزن والأسى، وقلبه مضنى بالشوق لكاوساليا، ويلح عليه الإحساس بأنه لن يرى دشاراتا بعد اليوم، وإذ به يتحول في لحظة ثائراً... ولكن ذاك الغضب وتلك الثورة أخذا يتلاشيان شيئاً فشيئاً، وهو

يتوغل في مجاهل الغابة الخضراء، ثم طغى عليه شعور بالقلق لم يقو على مقاومته. وقال وهو يطلق آهة حرى: "أي أخي لكشمانا، علام تكلف نفسك هذا الشقاء؟ ولم تتكبد هذا العناء وتشاركني في محنتي؟ وأحسب أنه أجدى أن تعود وترعى الأهل. فمن يدري ما حل بهم الآن؟ فلا بد أن خالتنا زوجة أبينا تسومه العذاب، وكونجي تدس السم له. فإن عدت ومكثت إلى جانبهم استراحت نفسي في حياة المنفى!"

ولكن تلك العبارات كانت تقع على أذن صماء، وما كانت لتجدي شيئاً في إقناع لكشمانا على ترك راما والرحيل. فقد كان أخوه أغلى لديه من الحياة ذاتها. وما كان لأحد، وإن تكن أمه سوميترا، أو زوجه أورميلا، أو شقيقه التوأم شاتروغنا، أن يحمله على البعد عن أخيه الأكبر الحبيب. وأخذ لكشمانا يعمل على تهدئة خواطر راما قدر ما استطاع، وهم يتابعون المسير بلا كلل أو ملل، وإذا أحسوا بالجوع؛ التقط راما قوسه وأصاب غزالاً بسهم؛ ثم أوقدوا النار وجعلوا من الفريسة شواء، أقبل عليه الثلاثة بشهية فإذا فرغوا من الطعام نظفوا الجلد واحتفظوا به ليكون رداء ودرعاً لمن يرتديه في الغابة.

وفي تلك الليلة ظل لكشمانا ساهراً يقوم على الحراسة بينما خلد راما وسيتا للنوم. ثم صادف الثلاثة في مساء اليوم التالي صومعة عند نقطة التقاء مياه الغانج واليامونا؛ وهناك استقبلهما الناسك بهرادفاجا وألح عليهما بالبقاء في ضيافته. ولكن راما أبى البقاء، وسأل الناسك أن يدله على بقعة أكثر عزلة. فأشار الناسك بأن يقصد تلال التشيتراكوتا على بعد عشرين يوجنا، وهي بقعة جميلة هادئة لا يطرقها احد، حافلة بالأشجار المثمرة والزهور والمياه العذبة، والكثير الكثير من الطيور والغزلان.

ودع القوم مضيفهم وجدوا في المسير إلى تلك التلال. ولما بلغوا ضفة اليامونا وقعوا على الكثير من الأخشاب اليابسة فجعلوا منها عَبّارة لتنقلهم عبر النهر. وهكذا قطعوا النهر إلى حيث الغابة النائية. وعند الضفة نزلوا إلى اليابسة ومضوا في رحلتهم، ولكشمانا في المقدمة، تتلوه سيتا فراما في المؤخرة. وظلوا هكذا طوال الرحلة، وعلى طرفي الدرب نبتت أزهار غريبة جميلة لم ير مثيلاً لها من قبل. وكانت سيتا تتساءل مذهولة كلما مرت بزهرة

معينة: "ما هذه؟"، فينحني لكشمانا ويقطف زهرة ويقدمها لها، وكان متأهباً أبداً ليوفر لسيتا وراما كل متعة وراحة. وهكذا ظل القوم يضربون عصا الترحال في تلك البقاع إلى أن بلغوا التلال. فهتفت سيتا والسرور يغلب عليها: "يا لروعة المكان، ويا لجماله! انظرا كيف يخترق النهر الغابة."

وقال راما مسحوراً بالجمال الأخاذ: "لتكن هذه الأرض موطننا!"

أما لكشمانا فلم يضع الوقت في الكلام، فانشغل بنقل الأخشاب والأغصان، وبنى من ذلك كوخاً صغيراً عند ضفة نهر المانداكيني ومياهه النقية الصافية كالفضة. ولكم تغيرت الأحوال فاصبحوا يعيشون الآن في كوخ خشبي صغير سقفه أوراق الشجر والدوالي بعدما كان مقامهم في القاعات الفسيحة من المرمر المزين بالأحجار الكريمة. ولكن ما كان يعوض عن ذلك الرفاه، تلك السعادة الغامرة التي حفلت بها أيامهم والطمأنينة عند النوم.

***

مضت أيام الحداد على الملك دشاراتا الثلاثة عشر. والتفت القوم في قصر الملك إلى شؤون الحكم والإدارة وما ينتظرهم من المهام لتستأنف الحياة العامة مجراها المألوف. وكان من تلك المهام المعلقة تنصيب الملك، لئلا تخلو البلاد من السلطة. وأشار رجال الحاشية والأصدقاء المخلصون على بهاراتا أن يتولى العرش. ولكن الأمير أعرض عن هذه المشورة، وجهد في رفضه قدر ما ألح القوم عليه باستلام زمام الأمور. وكان لا ينقطع عن القول إنه آت بأخيه الأكبر: "فهو صاحب العرش ومالك المملكة، وليس من شاني أن أنتزعهما منه. والمُلك سوف يصير إليه؛ أما أنا فلسوف أنقطع في السنوات الأربع عشرة القادمة للحياة في الغابة."

ولما أيقن الجميع أن بهاراتا ثابت على رأيه ولن يتزحزح عنه، وتأكد لهم عزمه على البحث عن راما ليجلسه على العرش، اتفق أهل المشورة على مرافقته في رحلته. وسرعان ما انتشرت تلك الأخبار السعيدة وسرت كالنار في الهشيم، من كاوساليا وكايكيه وسوميترا،

إلى الوزراء والكهنة والحاشية من الرجال والنساء فالجند والمواطنين، وعمت الفرحة أوساط الناس في المدينة؛ وتهيأ القوم لمرافقة بهاراتا إلى الغابة، فبدا وكأن آيوديا ستخلو من أهلها. وهكذا اندفعت الحشود، وعمت بها الدروب، بعضهم في عربات وبعضهم على ظهور الهجن والأفيال، وآخرون على صهوات الجياد. وخلت المدينة يومئذ من الدواب حتى البغال والحمير، كل ينشد راحلته للسفر والسير في موكب عودة راما. وقد بلغ من حماس العامة لهذه المسيرة أن الفقراء منهم آثروا السير على الأقدام على أن يتخلفوا عن الركب، وكان ذلك موكباً عظيماً قوامه نصف مليون من الجند المحمولين على ظهور الجياد، وتسعة آلاف من الفيلة وستين ألفاً من العربات، وحشد كبير من مختلف الأسلحة وما لا حصر له من المواطنين العاديين. وبعد يومين من المسير المتعب المنهك بلغ الأمير بهاراتا وقومه أرض غوها على ضفة الغانج.

استرعت تلك المسيرة بما رافقها من ضجيج وصخب انتباه ملك النيشادا، فذهب يستطلع الخبر، فشاهد عن بعد نهراً لا ينقطع من البشر والجند، يحملون أعلام ملك آيوديا. فصاح منادياً قومه: "إن هذا على ما يلوح جيش بهاراتا. أفتراه لم يقنع بإرسال أخيه راما الطيب إلى الغابة ويريد الآن أن ينزل الأذى بالأمير المنفي؟ إن كان يريد شراً فلن نسمح له بالعبور." ووجد قومه يرفعون أقواسهم في الهواء ويهتفون مؤيدين: "لن ينال أحد من راما ما دمنا على هذه الأرض. وإننا لكفيلون بأعدائه جميعاً."

نظر غوها في الأمر قليلاً، ثم قال لأتباعه: "عليكم بالروية. فبهاراتا هو الأخ الأصغر لراما، وحق علينا أن نحسن استقباله لتطمئن نفسه، فنعلم عندئذ ما ينويه فهيا أحضروا الحليب والقشدة والزبدة والعسل، وأكثروا من الفاكهة وجوز الهند والموز والمانجو وعصير العنب، وأصناف السمك. واستعدوا لوليمة أكبر إن كان بهاراتا قد قدم لينصب راما ملكاً على آيوديا. أما إذا كان الأمر غير ذلك، فلسوف ينال منا هذا." قال ذلك وهو يرفع قوسه عالياً ويهزه هزاً شديداً، متابعاً كلامه: "ولسوف نحاربه عندئذ ونقضي على الجمع كله!" وهكذا أخذت قبيلة النيشادا بالانتظار، والجميع في يقظة وتأهب، وكلهم عزم على الدفاع

عن صاحبهم راما.

فأتى سومانترا يتقدم قومه محيياً غوها ثم عرض له غرض بهاراتا ومهمته إقناع راما بالعودة إلى آيوديا وتنصيبه على العرش، وسأله أن يرشدهم إلى طريقه. وانتاب غوها شعور بالرضى والحبور، لما سمع، وأشار عندئذ إلى طريق النهر: "إنه هناك مع سيتا ولكشمانا في الأرض البعيدة ".ثم شاء أن يعرض ضيافته على بهاراتا ليستريح من عناء السفر. فوقع ذلك العرض موقعاً حسناً عند الرجل، وأجزل الشكر له، ولكنه اعتذر عن قبول الضيافة حتى يدرك راما وينجز مهمته؛ وسأله بالمقابل أن يساعده في اجتياز تلك الأرض الوعرة ذلك والنهر العريض. ثم سأله متلهفاً أن يخبره بأمرهم، وأين حلوا، وما سمع منهم، وما علم عن أعمالهم وشؤونهم؟

وترقرقت عينا بهاراتا بالدموع وهو يستمع إلى أخبار راما وسيتا ولكشمانا، ثم يرى الشجرة الضخمة التي تحت أغصانها وفي ظلالها انتجع راما وسيتا، بينما كان لكشمانا يقوم بحراستهما دون أن تغمض له عين، إن في الليل وإن في النهار. وعلم من محدثه بمشيئة راما بالنأي عن البشر والانتجاع إلى أبعد مرحلة عن المدن، كما أخبره المحدث عن فشل محاولاته بإقناع راما بقبول الإقامة في ربوعه؛ وقال: "ما كان راما ليرضى بالانتظار، فقد كان متلهفاً للذهاب إلى غابة كثيفة الشجر، ونقلت ثلاثتهم عبر النهر، ورأيتهم بأم العين يدخلون الغابة." وكان غوها يحدث صاحبه بلهجة تنضح أسى وأسفاً، وبهاراتا يصغي منكساً رأسه ألماً وحزناً. ولما حل المساء وقُدِّم العشاء، أعرض بهاراتا عن تناول شيء منه، وبقي على حاله ينتظر مطلع الفجر بقلب يعتصره الألم.

وفي الصباح أطل الأمير من مكانه ورأى النهر يزدحم بأعداد لا حصر لها من القوارب والعبَّارات، ووجد غوها وحشداً من رجاله يهرعون لنقل ذلك الجمع الغفير من الناس الذين لحقوا به من آيوديا والآلاف من الجياد والفيلة. ولما تم عبور ذلك الحشد العظيم من الرجال والدواب ذهب غوها ليودع بهاراتا ويعود إلى ارضه، وسأله أن يتذكر حين يعود براما ان يمر به. وانتهى ذلك اللقاء بالوداع الحار، فشد بهاراتا صاحبه إليه معانقاً، وهو يقول: "أي

صديق راما! لسوف أظل مديناً لك ما حييت، فقد أسديت لي جميلاً لا ينسى." ثم حمله من الهدايا الثمينة الشيء الكثير.

سار بهاراتا بقافلته في تلك الغابة العجيبة، وكان في مسيرته يحرص على رصد كل دليل وإشارة، ثم إذا به يصادف فراشاً ممدوداً في ظل شجرة عملاقة. فلما اقترب منه رأى بريقاً تحت وهج الشمس فانحنى والتقط ما تبين له أنه نثرة من نسيج الحرير وخيوط الذهب علقت بشوكة وصاحبتها تسرع في طريقها. وحدثته نفسه أن القوم لا بد أقاموا في ذلك المكان برهة، ولكن كيف كان بوسعهم احتمال النوم في هذه الأرض المقفرة.

جلس الأمير في تلك البقعة وعاوده البكاء حين ذهب به الفكر إلى ما عاناه أخوه الحبيب وسيتا البريئة ولكشمانا المخلص من المشاق والصعاب. ونهض مجففاً دموعه، ومضى مع بعض الحاشية، تاركاً الجموع بانتظاره، إلى أن بلغ صومعة الناسك بهرادفاجا. وهناك وقف بإجلال أمام ذلك الحكيم الذي حظي بقدرات عجيبة برياضة النفس. وعرفه بنفسه "ابن ملك يبحث عن أخيه راما". وسأله إن كان يملك أن يشير إلى موطنه الآن.

فسأله الناسك: "لم أنت بمفردك أيها الأمير؟ وأي غرض تنشد من راما؟"

وأجاب بهاراتا بتواضع ورجاء: "إنني لست بالذي يحمل ضغينة، ولا بد أنك تعلم حقيقة باطني، وأنت العارف ذو السطوة. لقد خلفت صحبي والجند ورائي خشية أن أكلفك مشقة أنت في غنى عنها، من استضافة هذا العدد الغفير الذي رافقني على هذا الدرب والحق أن آيوديا خرجت كلها في هذه المسيرة حتى خلت من السابلة، وكل يطلب عودة راما إلى مملكته. وها قد بلغ منا التعب مبلغه، وما عادت أقدامنا تقوى على حملنا. فناشدتك أيها الناسك أن ترشدنا إلى مكانه."

وسر الحكيم إذ علم بحقيقة مهمة بهاراتا وطلب إليه أن يأتي بكل من خرج في صحبته لينال ما يستحق من واجب الضيافة. ورد بهاراتا باستحياء: "ولكن كيف ذلك، وأنا لا أرى إلا بضع أكواخ لسكن حواريك، بينما أتباعي كثر يبلغون الآلاف؟"

ابتسم الناسك، وقال: "ليطمئن الأمير فلسوف يتسع المكان قدر ما يشاء. فهيا احضر الجمع كله!"

غادر بهاراتا المكان وملؤه العجب، وقد جلس بهارادفاجا مغمضاً عينيه غارقاً في الصمت أمام المذبح في صومعته، وتخاطر بتركيز قواه الذهنية وفيشفاكارما، المهندس السماوي وسيد الحرفيين، فوجده ماثلاً أمامه. فخاطبه الحكيم قائلاً: "أقم لنا على مساحة ثمانين يوجنا قصوراً فسيحة واسعة لا مثيل لها في الجمال والروعة، ولتفرش الأجنحة بأسرّة من الذهب وسوى ذلك من الرياش والديباج، وبالمعدن الثمين ذاته مرصعاً باللآلئ والحجارة الكريمة. ولتعطر تلك الأجنحة بالعطور، ولتكن مفروشاتها من الحرير النادر الثمين والملابس من خيوط الذهب والفضة وأواني الضيوف من الذهب. ولتكن هناك بحيرات تطفو على مياهها زهرة اللوتس الزرقاء النادرة والتي لا تتفتح إلا في برد الهمالايا، وإلى طرف البحيرات سلالم من الذهب ليتوسل بها من يشاء الاستحمام في النزول والصعود."

ونادى الحكيم بقواه العجيبة الخارقة كل نهر فلبت النداء الأنهار كلها - اليامونا الأزرق، والنارمادا الصافي، والكريشنا والجودافاري والبهيرافي الجبابرة، والسند العذب. كذلك انضم إلى تلك الأنهار الجوماتي العنيف، والكافاري العميق، والسرايو، وابنتها مهانادي، والكاليندي القاتم، والبوشكار والجانداكي الورعان، والغانج المقدس، والكاوشيكي . واندفعت الأنهار جميعها مستجيبة لنداء الحكيم العظيم لتساعده في القيام بواجب الضيافة نحو بهاراتا وقومه الباحثين عن راما.

وبإشارة من الحكيم العظيم أخذت تتدفق في تلك البقعة أنهار من عصير قصب السكر الطازج، عطراً، مثلجاً، والعسل الذي يزيل كل أثر للتعب والحليب والزبدة والسمن الذائب. وليكفل لضيوفه المتعة والراحة التفت الحكيم إلى مجالات اخرى فاستدعى بقدراته، راقصات ذوات جمال خلاب حتى ليحسب الناظر إليهن أنهن أثر من شعاع الشمس. كذلك استدعى المغنين من السماء فأتوا حاملين معهم آلاتهم الموسيقية ليزيدوا من بهجة الاحتفال. وكان بين الحضور كوفيرا إله الثروة، فإذا بالقصور والمنازل تمتلئ بالأواني

والأطباق الذهبية.

وفيما كانت استعدادات الضيافة تجري على قدم وساق أخذت تهب على المكان نسائم لطيفة رطبة من جبل سوميرو لتنعش المتعبين، بينما حمل القمر الرحيق ليبدد ما أصاب القوم من الإنهاك في أثناء مسيرتهم. كذلك قدم آغني إله النار، وفارونا إله الماء، والآلهة النجوم لحضور هذه المناسبة الخارقة. والحق أن إندرا كبير الآلهة وجد قصره مهجوراً، وهو الذي كان دائماً يغص بالحاشية، ولم يستطع أن يحول دون ذهابهم إلى الاحتفال الذي أقيم لبهاراتا وجمعه، في ذلك الموقع الذي شاء بهارادفاجا أن يكون لضيوفه فردوساً أرضياً.

ولقد انتاب الآلهة يومئذ ضيق، إذ وجدت في إخلاص بهاراتا لراما معضلة، فماذا لو أن راما أخذ بالرأي القائل بضرورة العودة إلى عاصمته؟ وكان ذلك عندها أسوأ حل. ذلك أن رافانا الشرير لن يجد عندئذ من يقتله، فما من أحد يملك القدرة على القضاء على ملك لانكا سوى راما الشهم. فإن لم يتم راما مهمته ويقضي على الوحش الكاسر لكان على أهل الخير والصلاح أن يظلوا تحت تهديد هذا الخطر، وليس هناك من منقذ لهم سوى أمير آيوديا الناسك. فتنادت الآلهة وتداولت في الأمر. واستقر الرأي عندها أن تستغل هذه الفترة من الراحة والمتعة، فلعل القوم ينصرفون إلى ملذاتهم ويضربون صفحاً عن المهمة التي أتوا من أجلها.

وللمرء أن يقدر مبلغ العجب الذي أصاب بهاراتا حينما وجد عند عودته ذلك المنتجع المتواضع في الغابة قد تحول فردوساً تذهب بالألباب. أما رجال آيوديا الذين نال منهم التعب والإرهاق فقد وجدوا الصبايا والأبسارا يستقبلنهم أجمل استقبال فيذهبن بآثار العناء، ليحل محلها إحساس بالحيوية والنشاط؛ وزاد من ذلك الإحساس نزولهم إلى الحمامات المعطرة بأحلى العطور ثم تضمخهم بالزيوت العطرة. وكان من هؤلاء من آثر الاستحمام في الأنهار، بينما قصد بعضهم الآخر بحيرات اللوتس. ولم يكن نصيب الفيلة والجياد المنهكة بأقل من نصيب الرجال، إذ تولاها بالعناية سائسون مهرة، فيما كان أصحابها ينعمون بالاستحمام والسباحة. ثم كان أن عالج السائسون تلك الحيوانات بمعجون خشب الصندل

المنعش العَطِر. وكان الجميع يلقون، كبيرهم وصغيرهم، ومهما علت مرتبة المرء أو انخفضت، المعاملة نفسها. وكان لكل منهم أن يختار من ضروب الزينة ما يشاء، فيجلس في المقاعد المذهبة المتناثرة في الحدائق والجنائن، ويتناول الفاكهة والشراب في أوان من الذهب. والطاهيات الحسان، منشغلات، في مطابخهن، بعيداً عن الأنظار، يحضرن أصناف الطعام الشهي الذي أقبل عليه الضيوف بتلذذ وإعجاب... فلم يسبق لأحد منهم أن عرف مثل تلك الأطباق العجيبة، بل لم يكن يتخيل وجودها، حتى في أحلامه مهما جمحت... أرز دقيق ابيض معطر كانه الياسمين، توابل من كل نوع وصنف... كعكة من الزبدة والقشدة، جميلة الشكل حلوة المذاق؛ وأصابع من الحلوى المصنوعة من القشدة والعسل. والضيوف يقبلون على الأكل والشراب كما يطيب لهم، فلا يتوقفون إلا إذا امتلأت بطونهم ، وفي النفس غصة لأنه لم يعد في البطن متسع للمزيد! ثم يلتفتون عندئذ لغسل الأيدي في أحواض ذهبية وماء معطر، فينتجعون بعدئذ للاستراحة على وسائد ناعمة مريحة، وقد يخلد بعضهم للنوم أو يستسلم لغفوة، على أنغام رقيقة يعزفها عازفون من خلف الستائر، وكأنها آتية من عالم آخر. وكانت تلك الليلة من الربيع تردد أغنية طائر الليل فتثير أحلى المشاعر في النفوس تحت القمر الذي كان يحيط العالم باشعته الفضية. وكانت تلك متعة لم يعهد أهل آيوديا مثلها. وسمع من القوم من يردد أنه مقيم في تلك الديار وليغادر من شاء الرحيل. فمن تراه يرضى بأن يترك هذه الجنة على الأرض! ومع ذلك فإن بهاراتا ظل يتجه بخاطره إلى راما، ولم تكن عزيمته قد وهنت ليعود إلى ملكه. وهكذا وجدناه لما أطل الصباح في اليوم التالي يتقدم من الحكيم شاكراً له روعة الضيافة، معبراً عن سعادته لقضاء تلك الليلة في هذه الرياض، ثم يرجوه أن يرشده إلى حيث يقيم راما.

ورد الحكيم بقوله: "قد عرفت الآن قلبك وما فيه. وإني لأعجب لمبلغ إخلاصك وتصميمك. فاطلب ما شئت وإني لمجيب، وعهدي ثابت لا ينال منه شيء. فاطلب!".

وأسرع بهاراتا بالقول: "حسبي إذن ان تقع عيناي على راما من جديد!"

"لسوف يكون لك ذلك. ولكن خبرتي براما تنبئني بأنه لن يقبل العودة بصحبتك. فاذهب إذن إلى جبال التشيتراكوتا، فهو مقيم هناك. امض الآن إلى نهر اليامونا واتجه جنوباً بعد العبور، وهناك على مرحلة تراه مقيماً. والمكان ليس ببعيد."

وهكذا خرج بهاراتا يسعى من جديد، وفي رفقته حاشيته وحشد من الأتباع. وكان هؤلاء يثيرون في مسيرتهم الغبار فيحجب ضوء الشمس، وظلوا على هذا الدرب حتى دخلوا الغابة وهي موطن راما، على نحو ما بلغهم . وأخذوا عندئذ يجدون في المسير فيسابقون الريح، وهم يقتربون من الجبال التي كانت تتجه إليها أبصارهم.

كانت جبال التشيتراكوتا موطن الكثير من النساك، فكانوا يقيمون معتكفاتهم في أعالي تلك الجبال، وينقطعون هناك للتأمل والعبادة، بعيداً عن ضجة الحياة في المعمورة والحواضر. وكان منهم قلة شاؤوا أن يعيشوا وأسرهم، إلا أنهم جميعاً كانوا يمضون الوقت في الدراسة والتأمل وسط الطبيعة الساحرة. وهناك طاب لراما وسيتا ولكشمانا أن يستقروا، واستقبلهم أولئك الزهاد بالترحاب والإكرام. وانشغل راما وسيتا، قبيل ورود بهاراتا، بالتعرف إلى الغابات المحيطة بالجبال، ووجدا غنى الطبيعة منثوراً أمامهما، من أشجار مزهرة وحشائش ناعمة، وتواترت إلى آذانهما أصوات البلابل والعصافير وطنين النحل، وشاهدا وجه الجبل المعتم تتخلله أشرطة بيضاء من مياه الشلالات، كأنها فيلة تجري، فتصب عند المعابد. وبدت لهما عن بعد فلزات المعادن الثمينة، تزين بألوانها الزرقاء والصفراء والبيضاء والحمراء أطراف التلال، ووجدا الضوء في الغسق يخادع البصر فتبدو الصخور الجرداء قصوراً وحدائق؛ وكانت الأعشاب في عتمة الليل تبدو وكأنها أطراف شعلة من النار. وتنأى عن اللمس كأنها أشباح لا قوام لها.

كذلك كان نهر المانداكيني جزءاً من حياة القوم هناك، إذ لطالما شاهد راما وسيتا الزهاد يقفون في مياهه النقية حتى الوسط، رافعين أيديهم في كل فجر نحو الشمس وهي تبزغ، يصعدون ابتهالاتهم بلا انقطاع فبدت الطبيعة لهما وكأنها تعين الإنسان في توجهه إلى الآلهة، وكل الكائنات متوحدة في حياة لا تفترق فيها المخلوقات. وهكذا أخذ راما وسيتا

بالتعرف إلى الغابة وأحوالها، بل وإلى بعضهما البعض، في عالم خاص من الحب المتنامي. فقد كانا ما يزالان في ميعة الصبا بما يسمح لهما بالاستغراق في الحب، وترك مشاعرهما لتنمو وتحيط بهما في عالم من الإعجاب المتبادل والحب والهوى. وغدا راما منذ ذلك الحين مشدوداً إلى جمال زوجه وبهائها، وهي تزداد تالقاً ونضارة وحسناً أصيلاً كالأرض، إنها، في مطلع ربيع الحب. وكان راما يستجيب لها باندفاع الأمير ورجولته، فينحني ليقتطف الأزهار البرية ويزين بها شعرها الأسود الفاحم، ثم يضحك مبتهجاً، حين تحيط عنقه الجميل بأطواق الزهر. فكانا ينسجان بتلك المباهج البسيطة خيوط حب زادت من الوثاق الذي يجمع بينهما. وكان راما في هذا كله شديد الحدب على زوجه حريصاً على حمايتها من كل شر أو ضيق. وصادف أن كانت سيتا تقوم بتجفيف ما لديها من مؤونة قليلة من اللحم، فإذا بغراب يحط عندها ويشرع في مضايقتها ويهم بانتزاع قلادتها، ثم يقترب منها ويضرب بجناحيه وجهها. فاستولى الغضب على راما وضاق ذرعاً بالغراب، فالتقط عشبة حادة الأطراف من الأرض، وتلا عليها بعض الأدعية، فإذا بالعشبة تتحول إلى سلاح حاد يحمل الموت لمن يصيبه، فارسلها في الهواء وشرعت تلاحق الغراب حتى سلم بالهزيمة، وصاح مذعوراً أن يشفق عليه، فهو بلا نصير! فامسك راما عن قتله، ولكنه لما كان قد اختط لنفسه أن يصيب متى رمى، لم يجد محيصاً عن إنجاز الأمر. فقال للغراب إنه سوف يجنبه الموت إن هو تخلى عن جزء من جسمه. فاختار الغراب إحدى عينيه. وذلكم السبب، في عادة الغراب على التحول برأسه وحذره؛ فهو لا يرى إلا بعين واحدة.

انتهت جولة راما وسيتا في أطراف نهر مانداكيني وشاهدت المرأة مباهج المنطقة وسحرت بها، وإذ شاءا أن يستريحا بعد هذا، انتجعا إلى بقعة قريبة، وجلسا يرسلان النظر من حولهما، ومن ذلك المكان على صخرة عالية، راحا يستشرفان الأفق البعيد، ويتناولان طعام الغداء من لحم ظبي اصطاده الزوج. ولاحظ راما، وهو يحادث سيتا في شتى الأمور، زوبعة من الغبار كأنها السحاب، وتبين أنها من وقع أقدام جند بهاراتا، وسمع عندئذ ابواقاً تصدح وكبار الفيلة تنفر من أمامها. فقال راما للكشمانا حين رأى الفيلة تجري هاربة من ضجيج

الجند: "أي لكشمانا، إن الملكة سوميترا لمحظوظة إذ كانت أمك. أتحسب أن هذا الذي يشبه ضجيج الحرب من رعد الغيوم. انظر ها هي ذي قطعان الفيلة التي تسكن الغابة الحافلة بالشجر والبقر الوحشي والغزلان تجري مذعورة! أفترى أن أحد الملوك أو أميراً جاء للصيد في الغابة؟ أم أن وحشاً ضارياً دخل المكان فأثار كل هذا الذعر؟ فاذهب، أي لكشمانا، واستطلع جلية الأمر!"

وبسرعة البرق تسلق لكشمانا شجرة من أشجار السال العالية، وشرع ينظر في كل اتجاه، فرأى جيشاً جراراً من الفيلة والخيل والعربات وجنود المشاة المدربين قادمين من ناحية الشمال. ولقد قدم لكشمانا لراما وصفاً دقيقاً للجحفل الزاحف بما فيه من فيلة وخيل وعربات وأعلام ورايات، وأشار عليه أن "أطفئ النار، أيها الكبير، ولتدخل سيتا الكهف، وانتض سلاحك والتقط قوسك وجعبة سهامك، فالقادم قريب!"

ورد راما: "تبين الرموز على الأعلام والرايات، وجيش من هذا!"

سمع الأمير ما قاله راما، وهو يتميز غضباً ونفسه تجيش بالرغبة في سحق هذا الجحفل الرهيب من الجند المقاتلين وآلات الحرب فقال: "لا ريب بأن هذا بهاراتا جاء لقتلنا، بعد أن ضمن لنفسه العرش، فينفرد بالحكم بلا منازع... اصغ يا أخي. إن الساعة قد حانت، ولا بد من قتله، وليس ذلك من الإثم، فهو البادئ بالظلم. ولسوف تموت كايكيه كمداً حين تعلم أنني اقتلعته عن فيله كما اقتلع الشجرة من جذورها... واليوم سأغرق أراضي التشيتراكوتا بدم أعدائي، ولسوف أرمي بجثثهم للوحوش الضارية والطيور الكاسرة، وأحقق عهدي بأن أقضي على بهاراتا وجيشه بقوسي وسهامي!"

ورد راما، حين رأى الغضب يمتلكه وشهوة الانتقام تغلبه، وأراد تهدئة خاطره: "هدئ من روعك، أي لكشمانا، قد جاءنا بهاراتا المحارب الثقف يتبعه جيش جرار حسن العدة والعتاد ليطمئن على أحوالنا بشخصه، فما قيمة السيف أو الدرع؟ وما نفع المُلك لي، إن كان ثمنه قتل أخي؛ وأنا الذي أخذت على نفسي العهد بالوفاء بنذر أبي! وما كان لي أن

أرضى بكنوز الأرض إن كان ثمنها قتل الأهل والأصدقاء، فذلك كمزج السم بالدسم! ولك مني العهد، أي لكشمانا، ان أظل على طريق الفضيلة لا أحيد عنها، ولا أرضى إلا بالثروة والمتعة اللتين من قسمة الحق، وبغيرها لست بالذي يقبل المُلك ذاته. وإني لأصدقك القول بأن يكون الملك عندي لإعلاء شان إخوتي والأهل ولصالحهم. إيه أيها الأمير الساحر! اعلم أن حيازة الملك ليس بالأمر الذي يشق علي؛ ولكن أي أخي، إن نفسي لتعزف عن المُلك، ولو في الجنان، إن أتاني بغير حق! ولتلتهم النار كل أسباب المتعة عندي إن لم تكن لخيرك أنت وبهاراتا وشاتروغنا! ويلوح لي أن أخي العزيز علم بما أصابنا بعد عودته إلى آيوديا، من ديار خاله، فجاءنا اليوم، وقد غلبه الحزن، وملكت عليه عاطفة الحب، ليستطلع أحوالنا في الغابة. أو لعله قرّع أمه وأسمعها ما لا تطيق سماعه. وإذن فإنه من طبيعة الأمور أن يأتي بهاراتا إلينا ويعمل على إصلاح الحال. فأي ضير نالنا، أي أخي، من بهاراتا؟ إني لا أراه عدواً يبغضنا. فكيف تقول فيه هذا الكلام القاسي؟ والحق ان ما قلت فيه يصدق عليَّ أيضاً. فرويدك يا ابن سوميترا، فهل تحسب أن الأب يقتل ابنه أو الأخ أخاه؟ فإن كنت قد قلت ما قلت بسبب المُلك فإني سأرغب إلى بهاراتا أن يمنحك المملكة، ولا ريب عندي انه محقق هذه الرغبة."

ولقد أسقط في يد لكشمانا حين سمع هذا الحديث، وبلغ به التأثر ما بلغ، وغلب عليه الخجل، فأحنى رأسه، وقال: "يبدو أن ملك الملوك دشاراتا ذاته قد أتانا للاطمئنان على أحوالنا."

فقال راما، يريد أن يخفف خجله: "وأنا أحسب أيضاً أن والدي جاء لرؤيتنا، ولسوف يصطحبنا معه إلى العاصمة، لعلمه بمبلغ ما نعاني في الغابة!"

"وقد يكون أيضاً أن الملك جاء ليصطحب سيتا، وهو يعلم أنها جديرة بان ترفل بالهناء والسعادة! انظر يا أخي هذان جوادان أصيلان، يبدوان في الأفق، قادمان يسابقان الريح! وهذا الفيل الهرم شطرونجايا الذي يحمل والدي المبجل في مقدمة الجيش، لولا أن الوجل يخالجني، إذ لست أرى مظلة مولاي العظيم البيضاء! فهيا انزل عن الشجرة يا لكشمانا!"

وكان بهاراتا في غضون ذلك يوجه جيشه بأن يتوقف عن المسير، ويقيم معسكره بعيداً عن صومعة راما، وألا يأتي بما يزعج القوم هناك. فصدع الجيش بالأمر؛ كذلك تجرد بهاراتا الحصيف من مظاهر الأبهة إرضاء لراما فارتدى لباساً متواضعاً، واتخذ راحلة لا تختلف عن سواها من الدواب، ونزل على مرحلة من الجبل. ومضى سائراً على الأقدام للقاء راما، كما أشار عليه مرشده ومعلمه. والتفت عندئذ إلى أخيه شاتروغنا وأشار إليه بأن يصطحب معه رجاله وبعض الصيادين للبحث عن صومعة راما، ويكلف غوها وألفاً من محاربيه المسلحين بالأقواس والسهام والسيوف بالتفتيش عن راما في أنحاء الغابة، بينما يدخل هو الغابة سيراً ومعه المستشارون والوزراء والبراهمة والأعيان والعامة؛ قائلاً إنه لن يهدأ له بال حتى يقابل راما الطاهر النقي ولكشمانا الشجاع وسيتا المصون. قال هذا وسار نحو الغابة، ومن أعلى شجرة شاهد دخاناً يتصاعد من صومعة على مرحلة من مكانه، فنزل وعاود السير في ذلك الاتجاه، وبصحبته غوها وأخاه شاتروغنا والوزير سومانترا، ونفسه تحدثه بأن راما ينتظره هناك في تلك الصومعة.

كان بهاراتا يجد في السير ليدرك أخاه راما، وفي نفسه غصة لما أصابه وسيتا ولكشمانا من نكبات أدت بهم لعيش هذا الشظف. وما زال الأمير بهاراتا يسير في اتجاه الكوخ الذي تقيم فيه الجماعة حتى بلغ المكان، ورأى راما جالساً وقد عقص شعره عند قمة رأسه، يشع ألقاً وبهاء كأنه شعلة من النور متشحاً برداء من لحاء الشجر يغطيه جلد ظبي أسود، وكتفاه باديان كأكتاف الأسد، وذراعاه طويلان ممدودان، وعيناه كزهرة اللوتس. وأجال بهاراتا النظر فرأى إلى جانب ذي الفضائل ملك الأرض والبحر، وسيد تصاريف الدهر ذاك، لكشمانا وسيتا جالسين على بساط من الحشيش، وكأنهما براهما السرمدي.

ولقد غلب على بهاراتا، إذ رأى هذا المشهد، شعور طاغ بالحزن والأسى ممزوجين بعاطفة الحب، فاندفع نحو راما وهو يختنق بالعبرات، وتهاوى عند قدميه مغشياً عليه من شدة الحزن لما أصابه ولغلبة الفرح للقائه. كذلك اندفع شاتروغنا إلى أخيه بعينين باكيتين، وضم قدمي راما إلى صدره. فأحاطهما راما بذراعيه معانقاً، باكياً. وتقدم سومانترا وغوها من راما

ولكشمانا وبدا وكان الشمس والقمر وكوكب المشتري والزهرة قد اجتمعوا في السماء.

نظر راما ورأى بهاراتا راكعاً على الأرض، في رداء الزهاد، وقد عقص شعره فوق رأسه، ضاماً راحتيه إلى بعضهما، كأنه في رجاء، وبدا كالشمس إذا فقدت بهاءها وهوت على الأرض الخراب. أمسك راما بيدي أخيه، المنهك الضعيف، ونهض به، وهو يتشمم رأسه، معانقاً إياه عناق الحنون العطوف: "أي أخي البريء، أين والدك لتأتي إلى الغابة وحيداً؟ فلو كان حياً لما اتيت بلا حشد ومرافقة! وا أسفاه! ولكم يحزنني اني كدت لا اتبين اخي وهو على هذه الحال من الضعف والهزال، والهموم ظاهرة آثارها عليه. فماذا أتى بك إلى الغابة؟ أي أخي أخبرني كيف حال الملك، أتراه في صحة جيدة، سعيداً؟ أم تراه مات كمداً؟ أخبرني أيها الحبيب وأنت الطفل البريء إن كانت الأحوال في مملكة الخلود تلك على ما يرام؟ اتراك، أيها الصادق المنافح عن الحق، قد أحسنت في خدمة الملك؟ وأخبرني أترى سيد الرجال الصادق، الحريص على الواجب، القائم على القربان العظيم، في صحة جيدة؟ هل ذلك الملك المتبحر في العلم، سيد البراهمة الزهاد، سعيد تمام السعادة؟ وكيف حال الأم كاوساليا ثم حدثني عن الملكة سوميترا الأم لولد مجيد، أتراهما في حال طيبة؟ أتراك، بعد، ترعى رفيقي المتواضع، على ما هو عليه من الخبرة، النبيل العريق المحتد، المجلي في القتال، ولد فاسيشطا؟ هل يُذكرك كاهن الملك، المتضلع في كتب الحكمة المقدسة، الحكيم العطوف، بمواقيت القرابين؟ وأنت، أي أخي، أتراك تقوم على تكريم الآلهة والأم والأب والمعلم المرشد ومن يكبرونك سناً، والأطباء والبراهمة؟ وهل تراك، اي صديقي، تكرم سوداما العارف بعلوم الحرب والحجة بالأدعية التي توجه الأسلحة إلى أهدافها؟ وهل اتخذت مستشاريك من بين أهل الثقة والصبر، وذوي الهمة العالية والأخلاق السامية، ومن الذين يترفعون عن الصغائر؟ واعلم أيها الأمير ان حظوظ الملوك إنما هي في اتصالهم بالراسخين في العلوم الروحية. وهل تراك، بعد، نفضت عنك الغربة في النوم؟ أم أن الأرق يجافي عينيك أحياناً؟ هل تنقطع، في الهزيع الأخير من الليل، للتأمل في الوسائل التي توفر لك الكسب المشروع؟ وهل تنقطع للتفكير في قضايا الساعة وحيداً، ثم تشاور وزراءك في العلن؟ ثم إذا

بلغت قراراً، أتراه يصير إلى علم الملوك الآخرين قبل أن تشرع في تنفيذه؟ أو تراك تقدم على تنفيذ أمرك سريعاً متى بلغت قراراً؟ وهل ترى أصحاب الممالك الصغرى يعلمون بقرارك قبل أن يغدو في موضع التنفيذ أم بعد العمل؟ أتراك تؤثر صحبة أهل العلم والثقافة وتنشد نصيحتهم على معاشرة الكثرة من الحمقى؟

واعلم أنه أجزى أن تقرب العالم الثقف في وقت الشدة. فلن ينال صاحب السلطان جزاء إن أحاط نفسه بعشرة آلاف جاهل، وحسبه عوضاً عنهم وزير راجح العقل، عميق الفكر، منكب على الدراسة، ملم بقوانين الأخلاق والحكم. وهل تراك، أي أخي، تختار للأمور رجالها، فتولي القضايا المصيرية لذي الخلق السامي، ومن هو دونه في القضايا غير ذات الشأن؟ وهل تختار للوزارة أهل القلوب النقية والمعروفين بالنزاهة والهمة العالية ومن كان آباؤهم قد خدموا التاج بإخلاص؟ ثم يا ابن الملكة كايكيه هل في حاشيتك ذو تيه وخيلاء إذا غضب لم يتورع عن توجيه الإهانة إليك ووزرائك؟ واعلم أنه كما أن المرأة تنفر من الرجل الذي يقيم علاقة آثمة بزوج رجل آخر، أو كما يقيم الكهنة العقوبات على من يأتي منكراً وهو يقدم القربان، كذلك يُقابل الملك بالاحتقار حين ينزل بأتباعه الضرائب الفادحة. واعلم أن الملك الذي يمتنع عن إعدام من حملته أحقاده وأطماعه بالسعي والكيد لأهل الفضل، بل وتآمر على حياة الملك، مآله إلى الدمار! فهل في حاشيتك، أي أخي، مثل هذا الشخص؟ وبعد هل عملت على أن تختار لقيادة الجيش محارباً يتقد حيوية ونشاطاً، معقوداً له النصر على أعدائه، حاذقاً في استخدام السلاح، صبوراً على المكارة، مخلصاً لك، مجرباً في ساحات القتال؟ وهل تجزي المبرزين في علوم الحرب، أهل الشجاعة والدهاء الذين امتحنت قدراتهم فاظهروا معدنهم، ولم تقصر عندئذ في تكريمهم؟ وهل تحرص على العدالة في توزيع الغنائم والمكرمات؟ فاعلم، إذن، أن العمال الذين لا ينالون أجورهم في مواعيدها يصيبهم الضيق ويهملون مولاهم. واعلم، بعد، أن العمال الناقمين هم جرثومة الخطر للملك والمملكة.

هل ترى الجند وقادتهم محافظين على ولائهم لك؟ وهل تجدهم يبذلون حياتهم عند

الشدة؟ وهل انتقيت لسفاراتك من هم من مواطني مملكتك من أهل الحدس والبصيرة ويقدرون على معرفة خبايا النفوس، وأصحاب رأي قويم وبيان وحجة في النقاش؟ وهل تستخدم العيون الثلاثة، وكل يجل الآخر، لرصد الخمسة عشر، عنيت الحجاب، والأعوان، وخزنة المال، وقادة الجيش، والشرطة، والمحامين، والقضاة، وحراس الغابات والجبال، والقائمين على توزيع الصدقات، والسجانين، والمشرفين على الأشغال العامة، والكهنة، والمحاسبين، سوى وزرائك وكهنتك وولي عهدك؟ وهل تقوم برصد أعدائك الذين كانوا منفيين ثم عادوا إلى البلد؟ أفتراهم قد أصبحوا الآن لا يضرون بك؟ وهل بين البراهمة عندك من يحمل معتقدات يشوبها الإلحاد؟ واعلم، إذن، أن مثل هؤلاء يظنون بأنفسهم الحكمة، بينما هم في الواقع أهل حماقة وسخف، إلا أنهم مع ذلك قد يضللون سواهم عن طريق الفضيلة، فهم مهرة في استدراج الأرواح إلى السبل السيئة! وهؤلاء لا يتفقهون في الكتب والقوانين الأصيلة التي تحدد المسالك الطيبة وواجبات الإنسان، وإنما تراهم منهمكين أبداً في مجادلات غرضهم منها دحض كتب الحكمة وتصدر مجالس المعرفة الخواء، والخوض في التافه من القضايا.

وهل تراك، يا صديقي، تحرص على صون العاصمة آيوديا، وهي مقر أسلافنا والعظام من أهلنا، والتي صدق فيها الوصف بـ "المنيعة"، بفضل ما لها من أبواب قوية وما حوت من الفيلة والجياد والعربات، وحيث يعيش البراهمة أهل المهمات الروحية، وكذلك المحاربون والتجار والأفذاذ من الرجال الذين يسمون بعقولهم وحواسهم والمنشغلين في مختلف الأعمال؛ هذه المدينة الراقية الحافلة بدور العبادة ومقصد أهل العلم والثقافة؛ هذه المدينة القائمة بعمل أهلها، الغنية بما توفر لها بالكد والتعب من أمن وأمان، والري بالوسائل المصطنعة حين يعز مطر السماء، فأخبرني عن حالها، وهل هي في ازدهار؟ وقل لي، أي أخي، إن كنت مرتاحاً لعمل مربي الماشية في البلاد، وتوفر لهم ما يحتاجون إليه وما يقيهم كل ضير؟ واعلم بعد أن من واجب الملك أن يقوم على حماية رعاياه بأدوات الحق، ويوفر لهم الغذاء! وماذا عن النساء في مملكتك؟ هل توفر لهن الرعاية والأمان أيضاً؟ وهل

تتخذهن مستودعاً لأسرارك؟ وهل تظهر في المجلس ظهر كل يوم أمام قومك؟ وهل يدنو منك عمالك باطمئنان وثقة؟ أم تراهم يتجنبون لقاءك خوفاً منك؟ إذن فاعلم أن كلا الأمرين خطأ، ولن يكون في أي منهما فائدة! وبعد، هل حصونك وقلاعك ذاخرة بالمال والغذاء والسلاح والرجال عدة الحرب، إذا ما دعا الداعي؟ وهل خزائنك تفيض عن الإنفاق؟ وهل تبدد ثروتك على الموسيقيين والراقصات والراقصين بلا طائل؟ وهل هناك في خزينتك ما هو مكرس للأهل والأخوات والبراهمة وعابري السبيل والمحاربين والأصدقاء؟ هل تتعامل وقومك بروح الغل، دون اعتبار للعدل والإنصاف؟ أم تراك تعمل على التحقق من كل ذنب بالاستئناس بآراء المتبحرين في القانون والمعروفين بالنزاهة والاستقامة ثم تصدر حكمك معتمداً على الروية؟ وهل أعوانك أهل عدل، منزهون عن الكذب لا تمتد أيديهم بالسرقة ومشهود لهم بالاستقامة؟ ثم، أيها النبيل، هل لمن ضُبط وهو يسرق وثبت ذنبه أن يفلت من العقاب برشوة الموظفين؟ هل يؤدي القضاة في دولتك واجبهم بالنظر في المنازعات بين الأغنياء والفقراء دون أن يأملوا بكسب شخصي لهم؟ فاعلم، إذن، أيها الأمير من آل راغو، أن دموع المظلومين على يد ملك ظالم لا يحفل بعدل أو ظلم لكفيلة بأن تقضي على ولده وثروته! ثم أتراك ترعى، أيها الأمير، الشيوخ والأطفال والأطباء وتعاملهم بالحسنى وتقضي حاجاتهم وترعى شؤونهم؟ وهل أنت المبادر بالتحية حين تلتقي مرشدك الروحي، أو الشيوخ، والزهاد، والأغراب، وتكرم المقدسات والبراهمة العلماء أهل الثقافة والمتنورين؟ وهل تراك تولي كل أمر ميقاته، فهي ساعة معلومة لأداء الواجب وأخرى لكسب الرزق، أم لعلك تبدد الوقت في العبث والراحة والمتعة؟ وهل توزع الساعات، يا أول الغزاة، أيها العارف بقيمة الزمن، بين أمور الواجب وكسب الثروات والترويح عن النفس كما هو مشروع؟ وهل يدعو لك، أيها الحكيم، أهل العلم والمواطنون، كل يوم لتنال المراد وتكسب الصحة والعافية؟ ثم هل تراك تنأى بنفسك، أي بهاراتا، عن الأربعة عشر محظوراً: الكفر والتبذير، الغضب والشرود، التقاعس، إهمال أهل الحكمة، خمول الهمة، الانهماك في الملذات، طلب رأي المفسدين بدلاً من الحكماء، التردد في العمل، التذبذب في الرأي،

والحيد عن طريق الحق والواجب، والمساواة بين أهل العراقة والأرومة الحسنة وضعاف النسب، والعسف بالبلدان المغلوبة.

ثم هل تدبرت، أيها الملك، عواقب ما أنا ذاكر لك، بالتفكير والتمحيص؟ الصيد والقمار، والنوم في النهار، والانشغال بالتعريض والتشهير بالآخرين، وتقريب من لا يستحق، والانصراف إلى الغناء والرقص، والتسكع هنا وهناك دون هدف؟ وهل قمت بالتحصينات الخمسة، حفر الخنادق، وبناء الأسوار العالية، وزرع الأحراج الكثيفة، وتجريد سواها من الشجر وردم آبارها حتى تستحيل الحياة فيها؟ وهل حزت على أركان النجاح الأربعة: نشر السلام، وحرية التعبير والسلوك، ومعاقبة العدو ونشر اليأس في صفوفه؟ وهل حققت شروط الإدارة السبعة: الملك، الوزراء، الحكومة، خزانة المال، الأرض، الجيش، والأحلاف؟ وهناك من لا ينبغي للملك أن يصادقهم: أصحاب النميمة، وأهل القحة والمتطفلين، والذين يجنحون للأذى ويعتدون على أملاك الآخرين ويعسفون. وهل صنت الأغراض الثمانية التي طلبها واجب: الاستقامة والملك المشروع والمتع السليمة، دراسة أسفار الحكمة "الفيدا" الثلاثة، والمعاهدات، والخدع وأساليب المكر، والغزو، وتوقيت الأمور كما ينبغي، ومحالفة القوي؟ وهل عرفت، أيها الأمير، صنوف المصائب الخمسة التي تنزل من السماء: الحرائق والجفاف وانتشار المرض والمجاعة والوباء؟ وهل أمعنت النظر في ما يأتي به كبار الموظفين واللصوص والأعداء والمقربون من الملك من مصائب وكوارث؟ وهل علمت أنه ليس مما يليق بالملك أن يتباسط مع الأطفال والخرفين وذوي الأمراض والذين لفظهم أهلهم ومجتمعهم، ومن عرف بالانحراف، والجبان، والذي ينزع إلى الإرهاب، والغشاش والمدلس واللص، والشهواني، والذي يفشي الأسرار ويعرضها على الملأ، ويعمل ذماً في البراهمة، ويلجأ لتبرير كل أمر بنسبته إلى الأقدار، والمصاب بالنهم، ومن يجعل شاغله التنقل بين البلدان بلا غرض أو هدف، ويجتذب الأعداء، ولا يؤدي أعماله في مواقيتها، ومن يجانب الصدق والحقيقة، ومن هو في خدمة الأجنبي، ومن يميل للعدوان. وبعد، هل كنت تشاور رعاياك ونساءك ورجال المملكة في أمورك، وتطلب الرأي من الذين أضاعوا ملكهم. وكنت

تحرص على تمييز الصديق من العدو، ومعرفة من هو عدوك، قبل أن تبلغ قراراً؟

ويا أيها الحكيم هل أنت محيط بعدة السفر، وأساليب العقاب، وعقد المعاهدات، عارف بمن هو جدير بالثقة؟ ثم هل درجت، أيها الأمير، على التشاور ومستشاريك جماعة، أو فرادى، وهل كل لقاء عندك خاص؟ وهل أنهيت دراسة كتب الحكمة المقدسة "الفيدا" بتقديم الهدايا المعروفة؟ وهل تقتطع من مالك للصدقات والنذور؟ وهل أتت لك زيجاتك بالعقب؟ وهل تضع ما بلغت من العلم بدراسة الكتب المقدسة في ما تعمل؟ وهل ترى أن أعمال الخير وأداء الواجب والعبادة من أسباب الصيت الحسن وطول العمر؟ وبعد، أيها الأمير،أتراك تتبع طريق السلف وفيها كل السعادة ونحن ناخذ بها؟ ثم أتراك، أي بهاراتا، تمد يديك وتتناول الطعام الشهي من الأطباق بنفسك؟ وأي من أصحابك تقدمهم على نفسك عند تناول الطعام؟ فاعلم، أي أخي، أن الملك العادل العارف بالقوانين هو سيد الأرض ومآله إلى الجنة عند الموت."

ورد بهاراتا بأن روى لراما ما أعقب رحيلهم من الأحداث فحدثه عن الأسى الذي أصاب دشاراتا بعد رحيلهم وموته مكلوماً، وبقاء جثمانه مسجى محنطاً أياماً، وهو أب لأربعة أبناء، إلى أن قام بهاراتا وشاتروغنا بالطقوس الأخيرة... وحدثه، بعد، عن عودته بعد غياب وهو جاهل بالشر الذي وقع على الأسرة... وصوّر له ما أصابه من الحيرة والألم حين أخبرته أمه بما وقع في غيابه من الأحداث، وأنه لا يكن لها الآن سوى الشعور بالاشمئزاز والخجل مما أقدمت عليه. وكان بهاراتا يروي لإخوته تلك الأحداث وهو يجهش بالبكاء حزناً وأسى وندماً، ويسأل أخاه راجياً إياه العودة إلى آيوديا، قائلاً: "عفوك يا أخي فما كان هذا الشر كله إلا بسبب رعونة امرأة، فهيا عد إلى بلدك، فقومك ينادونك متلهفين لعودتك. وهناك الكثير مما ينتظرك، فناشدتك أن تصفح وتعود معنا إلى آيوديا. ومن ذا الذي يتخلى عن كل شيء بسبب حماقة امرأة؟ فهيا عد يا راما، واحكم بالسلطان الذي هو حق لك. ولسوف تجدني رهن إشارتك وطوع أمرك. وإني لأناشدك من جديد راجياً منك العودة!" وكان بهاراتا يذرف في حديثه دمعاً سخياً، لكن راما لم يحر جواباً سوى أن

انهض أخاه وضمه إلى صدره، ثم خاطبه قائلاً: "قد أصبتَ من العلم ما يجعلك تميز بين الصواب والخطا، فعجباً لما أسمع منك. واحذر أن تقرع خالتي وهي عندي بمكانة الأم. ولقد تنازلت عن العرش بمحض إرادتي ليفي أبي بوعد قطعه لها. ولن يكون لي أن أعود إلى آيوديا إلا بعد انقضاء السنوات الأربع عشرة المعدودات." ولكن بهاراتا ظل يعرض عن سماع أخيه ويلح عليه راجياً منه العودة، مضيفاً أنه يختار الغابة منفى له. كذلك كان قول شاتروغنا، وفاسيشطا والحكماء الزهاد الآخرون لا ينفكون يرجونه أن يضرب صفحاً عما مضى ويعود ويتولى الملك في آيوديا.

ولكن راما ظل ثابتاً لا يتزحزح عن موقفه صادقاً مخلصاً لما عاهد نفسه عليه؛ وإطاعة أمر أبيه، وأبى أن يعود فسايره القوم. وكان للحق عنده المقام الأول. فلئن كان يشق عليه ألا يلبي لأخيه بهاراتا مطلباً، ويحمل كل التقدير والتوقير لفاسيشطا والزهاد أهل الحكمة، فإنه كان يشق عليه أكثر أن ينكث بعهده.

وهكذا قال بهاراتا في النهاية: "اعلم يا أخي إني لست أرضى بالجلوس على عرشك، إنما أقبل بالخدمة نيابة عنك، في غيابك. فاعطني حذاءك ليزين عرشك. ولسوف أخدم القوم أربعة عشر عاماً باسمك، فإن لم تعد في نهاية هذه المدة، فلسوف أرمي بنفسي في النار، لأقضي في أتونها، وتكون بذلك نهايتي." قال ذلك وهو يختنق بالعبرات ويغطي وجهه بكفيه؛ ولكن راما أمسك به وضمه إلى صدره بحنان، واختلطت عبراته بعبرات أخيه.

كانت الشمس عندئذ قد توسطت كبد السماء، فتدخل فاسيشطا وكاهن القصر لتهدئة تلك العواطف الجياشة مذكرين بطقس أخير للوالد الراحل، للتعبير عن واجب الاحترام. ومضوا جميعاً إلى ضفة نهر المانداكيني. فأقام الأبناء الطقوس القديمة لتهدأ روح دشاراتا وتسكن في مثواها.

قال فاسيشطا لبهاراتا في اليوم التالي: "قد طال بك المقام بعيداً عن دار الملك فإن زدت قصرت عن واجبك. فقد يجد الأعداء في خلو آيوديا الجميلة من الجند فرصة للانقضاض

عليها. فحتم عليك أن تعود وبأسرع ما يكون. فليس يجديكم أيها الأخوة الأربعة أن تأخذوا بنفي أنفسكم إلى الغابات، وإلا فمن الذي سيرعى بلدكم وقومكم؟"

ولقد كانت قلوب الأخوة تدمي والفراق بينهم وشيك؛ ولكنهم سلموا بصحة منطق فاسيشطا؛ وهكذا أخذ بهاراتا وأخوه شاتروغنا يعدان العدة للرحيل والبعد المرير. وكانت كلمات راما الأخيرة: "أوصيك بامي، فاحرص عليها واعمل على رعايتها." وذهب يقدم له النصيحة في السياسة وإدارة شؤون المملكة، وبهاراتا يولي حديثه كل اهتمام وعناية، مؤكداً لأخيه انه سيأخذ بتوجيهاته حتى عودته، إنما بوصفه نائباً له وحسب. وقد قطع على نفسه العهد بأن يحفظ لآل راغو شأنهم العالي.

رفع بهاراتا حذاء أخيه، وهو إشارة النيابة، تعبيراً عن إجلاله وحبه لأخيه، ثم وضعه باحتفال على مقعد الملك على ظهر الفيل الخاص بالعاهل. وجلس خلفه يذرف الدموع حزناً وألماً، حاملاً بيده المظلة البيضاء ذات الإطار المذهب والتي لا ترفع إلا لحماية ملك البلاد، فوق الحذاء الملكي. وهكذا سار موكبه عائداً إلى آيوديا. ولكن البلد بدا كئيباً حافلاً بالذكريات الأليمة، وفوق ما يطيق بهاراتا، فآثر حينئذ نقل العاصمة إلى نانديغراما القريبة؛ وسرعان ما تحولت هذه القرية المتواضعة إلى مدينة تعج بالسكان.

وأصبح من يدخل قصر الملك يرى على "كرسي الأسد" المصنوع من الذهب، عرش بني الشمس، حذاء راما المتواضع، تخيم فوقه مظلة من الحرير بيضاء كالثلج. وخلف كرسي العرش كان ثمة ستارة من نسيج الحرير وخيوط الذهب والفضة موشاة باللآلئ والأحجار الكريمة البراقة، وعند أرجل الكرسي كان بهاراتا برداء الناسك من لحاء الشجر وجلود حيوانات البرية، يجلس فوق بساط من جلد الغزال؛ ويصرف الأمور، عند حذاء راما وقد أحاطه بما يليق بملك مهيب عظيم. وعهد الناس به أنه بات يعيش منذ ذلك الحين حياة النساك، ويقتصر في طعامه على الفاكهة والتوت، والنوم على الأرض القاسية فوق بساط من جلود الغزلان، عازفاً عن حياة الرفاه، يعد الأيام وهي تمر بطيئة، بانتظار انصرام فترة النفي. أربعة عشر عاماً! ويفكر ما الذي تخبئه الغابة الحافلة بالضواري والعفاريت التي تجوب البرية

بحثاً عن فريسة؟ وما الذي يمكن أن يجنب راما وسيتا ولكشمانا الأذى في هذا العالم القاسي. ونفض بهاراتا عن مخيلته تلك الأفكار، وأخذ بالدعاء أن يجنب أحباءه الشر والأذى، وهم في قلبه مقيمون، وانصرف لتدبير شؤون المملكة المعهودة إليه بكل الحرص، باذلاً في ذلك كل الجهد وما في الوسع.

كان قدوم بهاراتا وجيشه مصدراً لانزعاج الزهاد في جبال التشيتراكوتا، وزاد من ضيقهم أيضاً خشيتهم أن يعاود الراكشا، العفاريت أفعالهم التي كانت تنغص عليهم عيشهم وتعمل في مأواهم تخريباً وفي نيران الطقوس فساداً. ولم يجد هؤلاء بداً من هجر تلك الربوع إلى سواها. وكانت تلك نصيحة أحد كبارهم لراما أيضاً، ليتجنب شر العفريت كارا شقيق رافانا ذي الرؤوس العشرة وملك لانكا الشرير، ولكن راما أبى إلا البقاء والتشبث بالمكان الذي اختار؛ وقد آثر البقاء معه بعض أولئك الزهاد حين وجدوه ثابت الجنان لا يعير ذلك الخطر كبير اهتمام، بل متهيئاً لقتال كارا. وعادت الحياة في الصومعة شيئاً فشيئاً إلى مجراها المألوف.

ولكن فؤاد راما كان في تلك الأيام مثقلاً بالذكريات التي تلح عليه ـ أبوه، أمه، إخوته، آيوديا الحبيبة، قيود لا تنقطع تشده، ولا يملك إلا أن يعمل على الفكاك منها، لترتاح نفسه. ورأى يومئذ أن سبيله إلى تلك الراحة التوغل إلى مكان أبعد في أعماق الغابة، فتغدو الأسرة وآيوديا ورعاياه عندئذ حقاً ماضياً منسياً. وهكذا عاد راما يضرب وسيتا ولكشمانا عصا الترحال، وأخذ الجمع يتوغلون في أعماق غابة دنداكا المظلمة، ولم يتوقفوا في طريقهم إلا قليلاً عند صومعة الزاهدين آتري وآناسويا، وأمضوا المساء في استعادة ذكريات الماضي ـ وقد رموا به وراءهم، وأصبحوا يستعدون لمستقبل قادم يعدون له ويخططون. وبدا المستقبل يومئذ حافلاً بالمخاطر، والشياطين فيه تعربد بلا قيود.

السفر الثالث
الغابة

كان اول ما طالع راما الجبار حين دخل غابة دنداكا المترامية الأرجاء مجموعة من الأكواخ يسكنها الزهاد، يغطيها لحاء الشجر وحشائش الكوشا، وتتوهج بألق روحي ندر أن وقعت على مثله عين إنسان.

وكانت هذه البقعة ملجأً آمناً لكل المخلوقات، وقد حرص أهلها على أن تظل أرضها أبداً ممهدة على أحسن وجه، فوجدت الغزلان لا تنقطع عنها، وأسراب الطيور تحط فيها ثم تحلق في سمائها فتشيع في النفس شعوراً بالراحة والطمانينة، يتخلله شيء من البهجة والانشراح مصدره غناء المغنيات ورقص الراقصات من الحوريات الأبسارا اللاتي دأبن على الانتجاع إلى هذه البقعة من الغابة.

وكان ملجأ الزهاد هذا بأكواخه الرحبة الجميلة، حيث النار المقدسة محاطة بالأدوات الملازمة للطقوس، من الجلود وأعشاب الكوشا والوقود وجرار الماء، والفاكهة وجذور النبات، وتطوقه أشجار الغابة السامقة والمقدسة عند أهلها، والتي تنوء بثمارها الناضجة الشهية، وتتردد حوله ترانيم المنشدين وهم يقرؤون أسفار الحكمة، وهؤلاء شيوخ زهاد منقطعون لرياضة النفس، لا يستر أجسامهم إلا مآزر من لحاء الشجر وجلود الغزلان السوداء، ويقتاتون بثمار الأشجار وجذور نباتات الأرض.

وإذ رأى راما هذا الجمع من الزهاد حمله داع من الأعماق على الاقتراب منهم، فارخى وتر قوسه، ودخل ذلك المكان الجليل. ولقد رحب به هؤلاء الشيوخ أجمل ترحيب، وهو الذي يعرف خبره كبيرهم العارف، كما أحسنوا استقبال لكشمانا وسيتا، وتوجهت يومئذ المخلوقات في الغابة بأنظارها إلى ذلك الفتى الفاضل الوسيم الذي يتالق رفعة وسمواً، كما شدها منظر سيتا ولكشمانا، وكأنهما من أعاجيب الخليقة.

وقد رافق أولئك الحكماء المباركون الذين يشبهون النار المتقدة، راما إلى كوخ سقفه من أوراق الشجر، وقدموا له الضيافة على مألوف عادتهم، والماء ليغسل؛ إن شاء، يديه وقدميه، ثم جلسوا متحلقين حوله مرحبين به، وعرضوا عليه الإقامة بالصومعة وما حوت من أسباب الراحة.

ولما استقر الحال براما، التفت إليه أولئك الزهاد المتبحرون في الحكمة المقدسة بأصولها وفروعها، وخاطبه أحدهم نيابة عن الجميع: "يا سليل آل راغو، إن الملك الذي ينافح عن حقوق قومه وموطنهم، وينتضي السلاح في الدفاع عنهم لجدير بأن ينال المجد والاحترام، إنه المعلم المرشد الذي يحق له ربع مجد إندرا، وأعلى حظوة. وقد حق لنا، ونحن في طاعتك، أن ننال حمايتك، سواء كنت في عاصمة ملكك أم في الغابة، فأنت سيدنا ومولانا، يا سيد العالم! ولما كنا قد قهرنا كل شهوة للانتقام في نفوسنا، وتخلصنا من الغضب، وسيطرنا على حواسنا، فإننا نرجوك، أيها الفاضل، أن تتولى حمايتنا كما تحمي الأم طفلها الرضيع." وبعد ذلك قدموا لراما مصحوباً بلكشمانا، فروض الطاعة، والفاكهة وجذور النباتات والأزهار، وما حوت الغابة والحقول، بينما انشغل الزهاد الآخرون بأداء النذور المقدسة وتكريم المولى كما يقضي التقليد.

صحا راما مع طلوع الفجر، وشكر للزهاد حسن ضيافتهم، واستأذن بالمغادرة، ومضى مع رفيقي دربه لكشمانا وسيتا، إلى الغابة، وتوغلوا في أعماقها، وشاهدوا الحيوانات الضارية تجوب الغابة وتجري بين الأشجار، وحينما وصلوا إلى أحد دروب الغابة، رأوا منظراً أثار دهشتهم، إذ كانت معظم الأشجار مقتلعة ومرمية على الأرض إلى جانب الأعشاب والنباتات المتسلقة، ولم يسمعوا صوت زقزقة العصافير أو الطيور الأخرى التي تبدد وحشة المكان. ولم يتناه إلى أسماعهم سوى أصوات الصراصير تتردد في جنبات الغابة.

استمروا في السير متوغلين في الغابة، وكان لكشمانا يقظاً يتفحص ما تخبئ الأشجار وراءها من أنواع الوحوش الضارية، ثم صادفهم عفريت عملاق كالطود الشامخ يثير صخباً وضجيجاً يصم الآذان، ويطلق زعيقاً كزئير الأسود.

كـان هذا العـفـريـت مـارداً، لم تقع عين على مـثل ضـخـامـتـه أو بشـاعـة منظره، عـيناه محفـورتان في جبينه، وفمه عريض واسع، وبطنه كبيرة ناتئة، وكسا جسـمه بجلد النمر، وآثار الدماء تـناثرت على جسـده، فلا يملك الإنسـان إلا أن يـنفر من قبح شكله. والحق أن منظره كان يثير النفور والقرف، بل الرعب أيضاً. وكان يحمل بيده رمحاً شك فيه ثلاثة أسود، وأربعة نمور، وفهدين، وأربعة غزلان، ورأس فيل هائل مع نابيه، والدهن يسيل منه. واندفع هذا المارد هائجاً، كالزمن المدمر لحظة خراب العالم، حين رأى راما ولكشمانا وسيتا أميرة ميثيلا، وأخذ يرعد فيهتز لصوته العالم ويرتعد، ثم مد ذراعيه وهم بحمل سيتا، وهو يقول: "استعدا، يا من ترتديان لباساً من لحاء الشجر، وتعقصان شعركما، وتتخذان زوجة مشتركة، استعدا، فالموت قريب! فما شأنكما، أيها الزاهدان، حتى تدخلا غابة دنداكا، مسلحين، وتحملان الأقواس والسهام، وفي صحبتكما امرأة؟ فمن أنتما، أيها الشقيان المنحطان البائسان، يا مجلبة العار للحكماء؟ اعلما إني المارد فيرادا وهذا منتجعي، ودأبي الطواف في الغابة المنيعة، مسلحاً باعتي الأسلحة، وأقتات لحم النساك الزهاد. وها قد عزمت على اتخاذ ذات الحسن والجمال زوجاً لي، وشرب دمائكما، بعد مصارعتكما وقتلكما، أيها البائسان الشقيان!"

كان لكلمات المارد الشرير، التي تنضح فظاظة وعجرفة، أشد الوقع على سيتا إبنة جناكا. فشعرت بقشعريرة الخوف تسري في كيانها، واضطربت وأخذت ترتعد كأنها ريشة تعصف بها الريح. وشحب وجهها من شدة الخوف وكاد يغمى عليها حينما حملها المارد.

لما رأى راما سيتا في قبضة المارد التفت إلى لكشمانا، وقال له: "انظر يا صاحبي إلى ابنة جناكا، زوجي ذات الشرف والعفاف، التي نشأت في رغد العيش، يحملها الآن فيرادا بين ذراعيه، ولا تقوى على الفكاك منهما! فوا حسرتاه! لقد تحققت اليوم أمنية كايكيه. فكأنما لم تكتف هذه المرأة التي لا تنقطع عن حبك المؤامرات والمكائد، بأن دبرت لي النفي إلى الغابة وتنصيب ابنها على العرش، منتهزة فرصة غيابي، بالرغم من محبة القوم لي. وها هي ذي اليوم تفرض سيطرتها على أمهاتنا، وستبتهج بهذه المصيبة الجديدة. إن المصيبة الكبرى

عندي أن أجد أحداً سواي يضع يده على سيتا، بل إن هذا لأشد على نفسي من موت مولاي أو خسارة المُلك."

ولما سمع لكشمانا ما قاله راما وجد الدمع يجري على خديه ولا يملك لذلك كبحاً، فقال بصوت كفحيح الأفعى الجريحة، إنما ينبئ عما يعتمل في قلبه من الغضب: "أراك، أي راما، يا حارس الكائنات كلها، أنت يا من له مكانة إندرا، تبكي وكأنما ليس لك من يقف للدفاع عنك؟ إن حربتي سوف تخترق من شدة غضبي فيرادا المارق. ويموت وتشرب الأرض من دمه. وسوف أصب الكراهية التي حملتها لبهاراتا لرغبته في العرش على فيرادا، وكما يرمي إندرا قمة الجبل بصواعقه! سأرميه بهذا السهم بكل ما لدي من عزيمة فيخترق صدره! وأسأل الآلهة أن تفارقه الحياة ويسقط وتطويه الأرض!"

ما إن انتهى لكشمانا من حديثه حتى سمع صوت فيرادا يدوي في أرجاء الغابة فتهتز الأرض والأشجار وكأنما الرعد يقصف بها، وهو يخاطبهما قائلاً: "أخبراني من أنتما، وأين تقصدان؟ هيا أجيباني!"

ورد راما على المارد، بصوت غاضب: "اعلم إذن أننا اثنان من محاربي قبيلة الايكشفاكو، ثابتان على الإيمان، نطوف في الغابة؛ أما وقد علمت ما بلغك منا، فأخبرنا بامرك، ومن تكون وما يحملك على القدوم إلى هذه الغابة."

فقال فيرادا الذي هابه منه قوة الحق في عباراته: "أصغ إلي إذن، أيها الأمير. اعلم أني ولد جافا وستاردا، وأعرف بفيرادا بين المردة في العالم أجمع. ولقد منَّ عليَّ براهما بعد عهد قضيته في رياضة النفس بأن أكسبني المنعة فلا ينالني سلاح على هذه الأرض مهماً كان ماضياً! ولك مني النصح بأن تهجر هذه الجميلة، وتمضي في شانك، ولا تنظر إلى الوراء، فاكفيكما شري وأبقي على حياتكما!"

ورد راما وعيناه تقدحان شرراً لشدة غضبه من وقاحة العفريت الشرير: "إنك لبائس وملعون لخططك الدنيئة؛ ولا ريب عندي أنك تسعى إلى حتفك بظلفك؛ ولسوف يكون

لك ذلك في الساحة، ولن تتأخر ساعتك حين أنازلك."

ثم أطلق راما على المارد سهمين مزينين بالريش ورأسهما من الذهب، فسارا نحو هدفهما بلمح البصر، وإذا بفيرادا يسقط على الأرض مضرجاً بدمائه وهو يطلق فحيحاً كالأفعى. ولم يكن بوسع المارد عندئذ إلا أن يرخي قبضته عن سيتا، ثم ينهض حاملاً رمحه ويندفع كالعاصفة الهوجاء ويرمي بنفسه فوق راما ولكشمانا، مطلقاً صرخة رهيبة اضطربت لها الغابة، رافعاً رمحه كأنما هو راية إندرا، فاغراً فاه، كأنه الموت الزؤام.

وأخذ الأخوان يمطرانه بوابل من السهام النارية، والمارد منتصب أمامهما، أشبه بالزمن، أو الموت أو القدر ذاته، ويجابههما بالضحك ويتلقى تلك السهام بفمه المفتوح فلا تنال منه بفضل المكرمة التي أسبغها عليه براهما. وأسرع فيرادا يستعيد أنفاسه ويلوح برمحه ويندفع نحو الأخوين، فيسدد إليه راما ذو البأس سهمين، فإذا بهما يكسران ذلك الرمح الذي كان كالبرق يخطف الأبصار أو شعلة في عرض السماء، فيتهاوى محطماً ويسقط مثل فأس من الصخر الصلد، والمحاربان يجردان سيفيهما ويندفعان نحو فيرادا ويعملان في جسده ضرباً وتقطيعاً، والمارد ما زال صامداً يتلقى الطعنات، ويرد بقبضتيه ضرباً ولكماً، ويحاول انتزاعهما من موقعيهما، وهما صامدان لا يتزحزحان عن مكانهما قيد أنملة، فحاول أن يرفعهما من الأرض، وأدرك راما نية المارد فقال للكشمانا: "لندع طارق الليل هذا يحملنا كما يشاء، طالما أنه يسير بالاتجاه الذي نقصده أصلاً." وكان للمارد فيرادا ما أراد فحملهما على كتفيه، وهو يصرخ ويزمجر، وسار بهما في أعماق الغابة.

وهناك، في تلك الغابة المزدحمة بالأشجار من كل نوع وصنف، والحافلة سماؤها بالعصافير والطيور الصداحة. والتي تجول في أرجائها الوحوش الضارية والأفاعي المميتة، بدا أشبه بسحابة هائلة تخيم على المكان.

رفعت سيتا ذراعيها، إذ رأت الأخوين، درة آل راغو، يحملهما هذا المارد، وشرعت تصرخ، وقد ذهب بها الفكر كل مذهب، وأخذت تحدث نفسها: "هذا راما بن دشاراتا الصادق الفاضل البريء من كل ذنب يحمله عفريت رهيب، فأبقى أنا إذن فريسة للدببة

والنمور والفهود!"

وحملها الفكر على أن تصيح بالعفريت بأعلى صوتها: "ناشدتك يا أعظم العفاريت أن تطلق سليلي آل راغو وتحملني معك بدلاً منهما!"

فلما سمع راما ولكشمانا قولها ثارت حميتهما وتهيئا لقتل ذلك الشرير، فضرب لكشمانا ذراعه اليسرى، وتولى راما بتر اليمنى، وإذا بالمارد يتهاوى كصخرة هائلة على الأرض، فاقداً الوعي كجبل شاهق أصابته صاعقة. فانقض الأخوان على العفريت وراحا يوسعانه ضرباً ولكماً وركلاً بالأقدام، وهو لا يقوى على النهوض عن الأرض، وإن لم يمت، بالرغم مما ناله من السهام وطعن الرماح والسيوف.

وأدرك راما عندئذ أن العفريت لا يؤخذ بالسلاح، بفضل ما اكتسب من المنعة برياضة النفس، ورأى أن يلقي به في حفرة عظيمة، وأشار على لكشمانا بحفر خندق عريض سحيق يتسع لجثة العملاق. وقال للكشمانا بلهجة الآمر: "هيا عليك بالحفر"، ثم وضع قدمه على عنق العفريت وسمَّره إلى الأرض. وكان أن احتفر لكشمانا حفرة هائلة، كما شاء راما، ودحرج العفريت العملاق ليستقر في قاعها، وصوته يدوي فتهتز له الغابة أيما اهتزاز؛ وعندئذ هدأت نفس راما ولكشمانا، وانقشعت الغمة عن تلك البقعة وعادت إليها السكينة.

ولقد وجد راما نفسه تضيق بالغابة فآثر الانصراف عنها إلى مكان يقيم فيه الناسك الزاهد شارابنجا الذي عرف بامتلاكه قوى خارقة، بفضل دأبه على رياضة النفس، وهو لا يبعد عن ذلك المكان إلا مرحلة من أربع عشرة يوجنا.

وفي الصباح تهيأت الجماعة وشدت الرحال إلى حيث أقام شارابنجا صومعته؛ وما زالوا يتابعون المسير حتى بلغوا مرحلة قريبة من مقصدهم، وإذا بالسماء تنشق فوق رؤوسهم، ورأوا حينئذ عربة لا عهد لهم بمثلها تجرها دواب مجنحة، وإندرا يقودها بكل جلاله، متشحاً بإزار لا أثر للغبار عليه، ثم ينزل بها ويحط حيث كان الحكيم؛ ويضع عند قدميه

قوسه العظيم، ويقول له: "أيها الحكيم الزاهد الصالح أنت العارف بأحوال السماء والأرض وما تحتها، فلا أملك أن أضيف لعلمك شيئاً. ولكن حسبي أن أقول إن ملك العوالم الثلاثة في طريقه إليك، وقد هبط إلى الأرض في شكل إنسي ليستأصل الراكشا. وها أنا أترك هذا القوس في عهدتك لتقدمه لراما. فإذا حضر إليك أعطه إياه." وما إن انتهى حديث إندرا حتى امتطى عربته عائداً إلى السماء.

لقد سُرَّ الزاهد الصالح بمقدم راما وصاحبيه إلى صومعته، واستقبلهم بالترحاب، وبلغ به السرور أنه أراد أن يخلع على راما كل ما اجتمع له من عظيم الفضائل، من حياة مديدة قضاها في رياضة النفس. ولكن راما أبى أن يقبل ما لم يكسبه بعمله، وشكر للحكيم الزاهد منحته، قائلاً إنه يؤثر أن يحوز على فضائله بأفعاله. فقدم له الحكيم الوديعة، قوس إندرا، وقبل راما الهدية، ثم مضى في دربه.

وظل راما يضرب عصا الترحال وسيتا ولكشمانا معه في الغابة الواسعة فلا يتوقفون إلا حيناً للراحة، أو عند النساك الصالحين من الرجال والنساء الذين هجروا العالم وانقطعوا لحياة الروح لا يصرفهم عنها شيء، يأخذون علومهم عن مدارس مختلفة ثم يمضون أوقاتهم في التأمل والقيام بطقوس تقديم القرابين أمام نار المذبح، وهم يرسلون الأدعية والصلوات، إلى أن ابتلي هؤلاء الصالحون بشر مستطير، فأخذت العفاريت الراكشا تداهمهم وتفسد عليهم حياتهم؛ ولذلك رأيتهم يرحبون أشد الترحيب بالأميرين المحاربين، أينما حلا واتجها.

واجتمع الزهاد الذين يسكنون ذلك المكان حول راما وكأن منادياً ناداهم، ويقينهم أنهم أصابوا وتراً قوياً في قلب ذلك الأمير الشاب المتقد حماسة. وشرع راما يتمعن في وجوههم، وقد أثار هذا الجمع الخليط من الزهاد فضوله واهتمامه. وكان ذلك فعلاً جمعاً من كل ملة وطائفة، فمنهم من يتغذى بأشعة القمر وحده، ومنهم من يقوم بعبادته منتصباً وسط النهر، وبعضهم ينام على الأرض في العراء ملتحفاً السماء، وبعضهم الآخر يتوجهون إلى الشمس الملتهبة تلفحهم أشعتها الحارقة، ويعيشون على الماء والهواء وحسب. وكان هناك، بعد، من يأخذون بالصوم أو ينقطعون للصلاة أو يقيمون على قمم الجبال. وكان يجمع بين

هؤلاء على اختلاف مللهم ونحلهم الزهد، وإن اختلفت درجاته، وهو نهجهم في الحياة؛ ومتى بلغ أحدهم درجة من الزهد سعى إلى درجة أعلى، حتى يرتقي بنفسه في سلم كمال الروح ويبلغ مراتبها العليا.

ولقد سبر راما أغوار هؤلاء الزهاد وأدرك ببصيرته ما يجول في خواطرهم، حتى قبل أن تتعالى أصواتهم في طلب الحماية: "مبارك الملك الذي ينهض لإغاثة الملهوف ونجدة الضعيف. حسب الأمير أن يرى ما فعله هؤلاء العفاريت المردة فهم يعيثون فساداً حيثما ذهبوا وأينما حلوا وينزلون الخراب بكل ما تصل إليه أيديهم!"

فأخذ راما يهدئ من روعهم، مؤكداً حمايته لهم، فلا بأس عليهم ولا خوف، طالما أنه ولكشمانا قد انتدبا نفسيهما لهذه المهمة. وبعد قضاء الليل في صومعة سوتكشنا مضى راما لزيارة الزهاد الآخرين في مختلف أرجاء غابة دنداكا، ليدرس أحوالهم ويحيط بظروفهم ويعد العدة للدفاع عنهم متى وقعت الواقعة.

وكانت سيتا قد أمعنت النظر في هذا الأمر وقلبته على كل وجه، وشاءت أن تعرض على راما ما توصلت إليه من الاستنتاج. فبدأت حديثها بما يقتضي الأمر من اللباقة: "أصل المصائب في الحياة ثلاثة شرور؛ الكذب، واشتهاء امرأة رجل آخر، والعنف بلا داع أو سبب. وقد وجدتك يا راما بريئاً من أول سببين، ولكنني ألحظ الآن ما ينبئ بأنك تجنح إلى إلحاق الأذى أو الخراب بمن ليس عدواً لك." قالت ذلك ثم توقفت عن الحديث، إذ أزعجها أن تكون قد أسرفت، فترددت في متابعة الكلام.

فقال لها راما مشجعاً: "ثم...؟" فاستجمعت شجاعتها وتابعت: "قد أتيت إلى الغابة لتنفيذ عهد قطعته على نفسك بأن تعيش حياة الزهاد، فلا يراودنك لذلك التفكير بالتورط في عنف. وبعد، فأنت لست هنا بصفة الملك أو المحارب؛ ومع ذلك فقد قطعت على نفسك عهداً بقتل العفاريت، وليس لك معهم عداوة. والحق أن ما بينهم والزهاد أمر يخص الطرفين ولا علاقة لك به من قريب أو بعيد. وهذا حال في رأيي لا يفضي إلا لشر، ولنا على

هذا شاهد. فاعلم أنه كان في قديم الزمان زاهد من عظماء الزهاد منقطع للعبادة والتأمل فأراد إندرا بدهائه أن يحوله عن قصده بخدعة، وإن كانت بسيطة، لم يدرك ذلك الزاهد ما وراءها. وكان أن جاءه إندرا ذات يوم وأعطاه سيفاً وائتمنه عليه، وطلب منه أن يحرسه بحياته. ولقد أبدى الزاهد الحكيم كل حرص على هذا السيف، فلا يغيب عن ناظريه، ويحمله معه أينما ذهب وحل. وأخذت العلاقة بين الزاهد والسيف تتوطد شيئاً فشيئاً، وإذا بالسيف يزين العنف لهذا الزاهد، فبدأ يسير كالمحاربين، ويرمق الآخرين بنظرات العدوان، وما هو إلا حين حتى كانت الأفكار تتحول إلى أفعال.

خلاصة القول إن الأمر انتهى بالزاهد للخلود في الجحيم لسوء مسلكه. فاعلم يا مولاي أن السلاح يولد العنف، وهو شر. فواجب المحارب أن يحمل السلاح، وهذا مصدر قوته، وأصل شجاعته. أما أنت فلست هنا محارباً واجبه القتال، وإنما زاهد أغراضه غير أغراض الحرب والعنف. وأرى يا مولاي أن سلاحك أخذ يطغى على فكرك، والرأي عندي أن جولتك في الغابة والبحث عن العفاريت أمر يصرفك عن غاياتك. وإذا حدثتك على هذا النحو فللهفتي عليك، وكلماتي تذكرة ولا أقصد بها التقريع!" ثم تابعت قولها بلهجة لا تخلو من الضيق: "فمن ذا الذي يملك في هذا العالم أن يشير عليك في ما هو صواب أو خطأ؟"

وكان راما، في هذا الحديث كله، منصتاً لا يصرفه شيء عن الانتباه لما كانت تقوله، ورد: "الحق ما قلت. إلا أنك نسيت أنني أنا المنقذ. ولئن كنت منفياً فإن المنفى لم يسقط عني واجبي. وهؤلاء الحكماء ليس لهم من ملجأ سواي. ذلك أنهم لا يقدرون على القتال، وإن اكتسبوا برياضة النفس قوى أشد مضاء من أي سلاح. وكل عمل، بل إن كل خاطر يراود أحدهم باللجوء للعنف كفيل بأن يستنفذ طاقته الروحية.

والأمراء المحاربون إنما يحملون السلاح لمنع الأذى. وفي هذه الغابة تجاوز العدوان كل حد منذ عهد بعيد. وما كان لهؤلاء الحكماء في نهاية المطاف إلا طلب النجدة، وحمايتهم واجب وإن لم يسعوا إليها. ثم إني قد قطعت على نفسي العهد أمامهم، وليس لي أن

أنكث بالوعد. وأنت تعلمين معنى الوعد، والوفاء به يتقدم كل واجب، ولو كان يتصل بك أو بلكشمانا. وإني لأكبر فيك اهتمامك بي ومبلغ حبك لي وانشغالك بالحق والحقيقة. ولكني أنا أيضاً مشدود إلى الواجب ولا عتاق لي منه. تلك ضرورات لا محيد عنها، وعليك انت أن تخلصي الإيمان بي."

وكانت تلك المحادثة حدثاً هاماً آخر في حياة راما وسيتا، كزوجين، معاً. فلم تكن الحياة بينهما تفرض على الزوجة أن تطيع زوجها طاعة عمياء في كل أمر، وإنما هي علاقة حوار ونقاش يبنيان طريقاً مشتركاً للسلوك السليم والحياة السليمة في نشدان الحقيقة.

ظل راما وسيتا ولكشمانا يطوفون في غابة دنداكا طوال عشر سنوات، طرقوا فيها كل صومعة، يعيشون بين الزهاد فترات تمتد شهوراً، حتى كان ذات يوم رأى فيه راما أن الوقت قد حان للعودة إلى سوتكشنا. وبعد قضاء بضعة أيام في صحبته شاء أن يقوم بزيارة الزاهد أغاستيا لينال منه الإرشاد والمشورة، وكان يقيم في الغابة إلا أنه لم يلتق به طوال ترحاله في أرجائها. ولقد استحسن سوتكشنا ذلك الرأي، وأشار على راما أن يقصد أخاه في صومعته، جنوب ذلك الموقع، فيدله هذا إلى حيث مقام أغاستيا.

ولم يكن من العسير العثور على صومعة ذلك الزاهد العظيم، والطبيعة من حولها تومئ إلى مقره، حيث أوراق الشجر ترسل ضياءها متلألئة بفضل عناية ساكن المكان، والغزلان تسرح آمنة مطمئنة حوله لا تخشى صحبة البشر. فكان الحيوان والنبات يعتبران كما في نهج أهل الزهد كائنات حية تلقى في ديارهم كل حدب ورعاية وحرص. فإذا دخل المرء تلك الحمى وجد الجو عابقاً بأريج لا مثيل له، فترتاح إليه نفس الطارق المتعب وتجلو عنه همومه بفتنتها.

قال راما محدثاً رفيقيه حين حلا في ذلك الربع: "إنكما لن تجدا في المكان عفاريت تعبث على هواها؛ فلقد قضى عليها أغاستيا بقواه الخارقة، فابتلع العفريت فيتابي، وهو الأشرس، وأحرق أخاه إيلفالا بطرف عينيه. ولما بلغ جبل فينديا من التيه ما جعله يتشامخ

برأسه ليحجب الشمس، سلط عليه أغاستيا قواه الروحية فثبته في مكانه. ولذلك فإنني أتوق لقضاء ما بقي من حياة المنفى بصحبة هذا الزاهد العظيم."

وكان أول ما واجه راما حين دخل على أغاستيا تلك الهالة التي تحيط به، وقد تألقت له بعد استغراق طويل في رياضة النفس، ولقد شعر بالسرور حين التفت إليه الزاهد وقال له إنه كان ينتظر مجيئه ليقدم له أسلحة دونها كل سلاح، إذ تمكنه من امتلاك قدرات لا تضاهى؛ قوس فيشنو من الذهب المرصع بالماس، وجعبتان فيهما من السهام ما لا ينضب، وسيف من الذهب في غمد من الفضة، وقرص براهما الطائر. هذه كلها لك، نسأل واهب القوى أن يشد من أزرك ويمتعك بالنصر المبين." وكان في حديث أغاستيا رنة النبوءة. وتأكد قدر راما عندئذ بأن يكون مدافعاً عن الحق .

ولقد تقبل راما تلك الأسلحة السماوية. كذلك أفاض أغاستيا في مدح سيتا، فقال لراما: "إن معظم النساء مخلوقات تتحكم بهن الأهواء وتقلباتها، إلا زوجك فثابتة مقيمة مخلصة، وشريك حق لزوجها في السراء والضراء على حد سواء."

ولما انتهى أغاستيا من حديثه التفت إلى زواره ليقدم لهم ضيافة الزهاد: ماء لغسيل القدمين وإنعاشهما بعد التعب، ومائدة من نباتات الغابة، وثمارها. وفي نهاية المطاف قال الزاهد أغاستيا لراما: "قد رغبت في أن تقيم معي، ولكني أعلم أنك تتوق إلى بيت تأوي إليه، ولو كان متواضعاً." وأومأ راما برأسه موافقاً، وسأل الزاهد أن يشير عليه بمكان ينال فيه نصيباً من الهدوء ويوفر له العزلة، بين الأشجار وقريباً من جداول المياه. فأشار عليه الحكيم عندئذ بمكان قريب يقع جنوب تلك البقعة، على ضفاف نهر جودافاري، يعرف باسم بنتشفاتي حيث الطبيعة من حوله مدعاة للمسرة لسيتا، فتجد فيه الأشجار المثمرة والزهور وأسراب الطيور والعصافير، وهذا المكان يقع خلف ذلك التل، وارتقاؤه يسير.

وهكذا بدأ راما الرحلة وسيتا ولكشمانا إلى ناحية البنتشفاتي، لتكون فيها ديارهم، ومستقرهم بعد سنوات من التجوال، حتى تأذن سنوات النفي والتشرد بالانتهاء. وفي

الطريق صادفوا طائراً عملاقاً من الكواسر، فحسبه راما وأخوه عفريتاً متخفياً في زي طائر، فمبلغ علمهما أن للعفاريت مثل هذه القدرة على الظهور بأشكال مختلفة، فكانت لهجتهما في مخاطبته فظة، إذ سألوه أن يعرّفهما بنفسه. فأجاب الطائر بصوت تشوبه نبرة من الود والحدب كأنما هو صوت الأب الرؤوف بأولاده: "اعلموا أني جتايو بن آرونا، وأخو غارودا ملك النسور. ولقد عرفت أباكما من قبلكما. وأنا من سلالة البراجباتي، عمالقة الأزمان الغابرة، وانتسب إلى كاشيابا، وهو جدي، ومن هذا النسل نشأت مملكتنا الحيوانات البرية والطيور. وأقرب المخلوقات إلينا هي الأفاعي والحيات، كما أنها ألد أعدائنا. إننا نسلك في السماء دروباً لا يطرقها كائن، فنحلق ونستطلع آفاقاً لا يبلغها نظر الإنسان، إلا أن يكون خارقاً، فعين النسر أو الصقر تبلغ مسافات لا تبلغها عين كائن آخر، فترصد المخفي وتحيط به وتراه جلياً على نحو لا يدركه البشر. ولذلك سأقوم على رعاية سيتا في أثناء غيابكما بكل الحرص والرعاية، حسبي منكم أن تجعلوني في عدادكم ومنكم."

ولقد قبل راما هذا الرابع بين جماعته، فمضوا جميعاً إلى البنتشفاتي، ووقع اختيارهم على بقعة يمر بالقرب منها نهر الجودافاري. وللتو شمر لكشمانا عن ساعد الجد وأخذ بالتعزيق وتمهيد الأرض، ثم شيد كوخاً يتسع لثلاثتهم، وكانت جدرانه من الطين يدعمها إطار من الخيزران يسند السقف الذي كان من الأغصان وأوراق الشجر والأعشاب من مختلف الأنواع والأصناف. ولم يكن ذلك الكوخ بالمنزل الفخم، ولكنه متين يحتمل أحوال الغابة. ولكم تأثر راما يومئذ لدأب أخيه وإخلاصه وحبه وعنايته، وهو يراه منقطعاً لهذا العمل لا يشغله عنه شاغل.

ولما اطمأنت نفس جتايو لاستقرار راما وصحبه، حانت لحظة الوداع بين الطائر العملاق وراما، فقال له: "وداعاً يا راما! ولتهنأ بالعيش هنا في سلام وسعادة. وإذا ما دعاك داع للمعونة فحسبك أن تناديني لتجدني ملبياً النداء." ثم فرد جناحيه وحلق في السماء، وسرعان ما اختفى عن الأنظار.

كان الشتاء قد أعلن بشائره، وغطى الضباب التل والنهر والشجر، وأخذت الرياح تهب

باردة يتخللها ما هو مألوف من ثلج الجبال، بينما اتجهت الشمس جنوباً مخلفة الشمال شاحباً، مثل جبين امرأة خلا من الحمرة المباركة، والفيلة تسرع إلى شرب الماء، وتنفضه عنها على عجل، هاربة من الصقيع. وكان المرء يرى في تلك الأجواء العصافير السابحة تقف ثابتة على ضفة النهر، تعرض عن الماء كما ينفر الجبان من خطر المعركة. كذلك كانت الأشجار قد خلدت إلى النوم، ونفذت طاقتها، واللوتس عاشقة الشمس، انطوت على نفسها، ولم تعد إلى تفتحها وحمرة لونها وتألقها المعهود.

أخذ راما وسيتا ولكشمانا يرقبون الفصل في دورته من الأيام بنهاراتها القصيرة الباردة، التي ليس لها من الدفء إلا نصيب قليل من أشعة الشمس الواهنة، ولياليها الطويلة الباردة، التي ينيرها قمر بارد شحيح النور. وكان يراود خواطرهم في ذلك الجو ذكرى حياتهم في آيوديا وخيال بهاراتا. وكان لكشمانا ما زال على ثورته وضيقه بكايكيه، فيسمع من راما تأنيباً رقيقاً يخفف من غلوائه، فيذكره بأن لكايكيه مكانة الأم، وهي الثانية بين ملكات آيوديا الثلاث، وينكر عليه ذلك الغل الذي يحمله لها. ثم يستذكر بهاراتا وشغفه به وما يكن له من العاطفة، حتى يشعر بنفسه ضعفاً كلما لاح في خاطره. وكانت الحياة تبدو حينذاك بحيرة حافلة بالذكريات تتزاحم فتغدو كموجة من الأسى والأسف.

كان راما جالساً ذات يوم منكباً على قراءة كتب الحكمة، يترنم بما في سطورها من أقوال وإيقاعات موسيقية، وإذا بعفريتة كانت تطوف بالغابة، فتقع عيناها عليه، فتُأسر بجماله، وتُسحر بما يضيء به وجهه من نور، وتشده إليها فتنة الشباب وقوة الرجولة. وكانت هذه شربناخا الأرملة وأخت ملك العفاريت رافانا، وقد اتخذت الغابة موطناً لها وأتباعها، وكان لا بد لها من أن تلتقي براما، وهو مجاور لها في تلك البقاع، فلما رأته جالساً للنظر في الأسفار، رجلاً مكتملاً في زهو الشباب، وجدت نفسها مفتونة لمنظره منكباً على القراءة، مستغرقاً في التفكير، واستهواها منه طلعته المهيبة وبشرته السمراء الداكنة، وعيناه الواسعتان اللتان ترسلان بريقاً خاطفاً يزيدهما سحراً وجمالاً، وشعره المعقوص في جدائل في قمة رأسه.

وكان في ذلك المشهد ما يدعو الناظر للمقارنة، بين راما وشربناخا، وهما مثال التناقض. فكان هو ممشوق القامة نحيلاً، وهي قصيرة بدينة، عيناه واسعتان، نظراته ثابتة هادئة، وعيناها جاحظتان نافرتان، لصوته رنين واضح كجرس حسن الصنعة، بينما لصوتها خشونة وبه جفاف يجرح اذن السامع. ولقد وقعت شربناخا في هوى هذا الزاهد الوسيم الفاتن، وزين لها هواها أن تستحوذ عليه، بالرغم من القبح الذي يسم كيانها كله. ولقد أدركت العفريتة ما هي عليه في القبح، فاخذت تعد لغواية راما؛ فاتخذت للتو شكل حورية فاتنة، بفضل مهارتها في السحر، واقتربت عندئذ من الأخوين، وهي تسير بخطوات المرأة المغناج وتبدي من الفتنة والإغراء ما يذهب بعقول الرجال.

وبادرت شربناخا الاخوين بصوت كرنين الذهب: "لا ريب عندي أنكما من أبناء الملوك متخفيان في زي الزهاد. فما الذي جاء بكما إلى هذه الغابة؟ ولكن هل بلغكما أن هذه الأرض مسكونة بقوم من العفاريت متى علموا بكما إنقضوا عليكما، وضاع أثركما؟" فرحب بها راما وحدثها بخالص النية بقصتهم، وسالها بالمقابل عن حالها، إن كانت من حوريات الأفلاك ذوات الجمال البارع، وما أتى بها إلى هذه العزلة؟ وما حملها على هذه الزيارة؟

وردت شربناخا: "اعلم، إذن، أني كامافالي إبنة الحكيم فيشرافاس بن بولاتسيا، وهو ولد براهما، والأخت غير الشقيقة لصديق شيفا، كوفيرا، الذي لا مثيل له في العوالم الثلاثة، ثراء وكرماً وجوداً، وهو مقيم في الشمال، والشقيقة الصغرى لمن ترتعد لاسمه الآلهة والأباطرة، والذي حاول ذات يوم أن يرفع بيديه جبل كيلاسا وعلى قمته شيفا وزوجه بارفاتي."

فسألها راما مندهشاً: "اتعنين أنك اخت رافانا؟"

وردت بزهو وكبرياء: "إني لشقيقته فعلاً!"

وجهد راما عندئذ ليخفي ما راوده في أمرها من شكوك، وسألها: "إن كنت أخت رافانا

فكيف خرجت بهذا الشكل؟"

وأجابت: "قد ساءتني مسالك أخي وأقاربنا الآخرين ونوازعهم الشيطانية، كما يسوؤني الإثم والقسوة، وأقيم للفضائل والخير أسمى مكان، وشئت لنفسي طريقاً غير طريقهم، فكانت لي هذه الشخصية بعد أن أمضيت عهداً طويلاً في الصلاة."

وعاد راما يسألها: "إذن، فأخبريني، أيتها الحسناء، لم جئت وحيدة، لا تصحبك حاشية، وأنت شقيقة رافانا سيد العوالم الثلاثة؟"

وأجابت الزائرة: "إن نفسي قد عافت أهل الشر، أعني أخي وأضرابه، وسرت مع أهل الخير والصلاح؛ ولذلك قطعت كل صلة باهلي وتراني وحيدة. وقد جئتك الآن بدون صحبة لرؤية طلعتك وطلب العون فهلا نجدتني."

"ما هي حاجتك. فإن كان مطلبك خيِّراً ولائقاً نظرت فيه، وأمددتك بالعون."

"الحق أنه ليس يليق بامرأة ذات أصل ومحتد أن تصرح بمشاعرها، ولكني لا أتردد في مصارحتك بما تشتهيه نفسي، وأنا الضعيفة أمام إله الحب... فهلا أنجدتني؟"

وأدرك راما على التو مرامي المرأة، وعرف ما تخفيه وراء مظهرها، فما هي في حقيقتها إلا امرأة رخيصة لا حياء لديها ولا خجل. فلزم الصمت ولم يرد بكلمة عليها. والتبس على المرأة هذا الصمت، فلم تدر إن كان راما يميل إليها أو يعرض عنها. فتابعت حديثها عل راما يكشف لها عن مكنونات نفسه: "قد كنت أبدد شبابي وجمالي في خدمة الزهاد والحكماء، حتى ظهرت لي. أما وقد وجدتك فإن أنوثتي ستبلغ ما تريد بك ومعك."

وانتاب راما عندئذ شعور بالإشفاق على هذه البائسة، ورأى أن يجهد معها لتنصرف عن تلك الأهواء بالحسنى، دون أن يقسو عليها بعبارة. وكان أن قال لها إن من كان من طبقة المحاربين لا يجوز له أن يتزوج بامرأة مثلها من البراهمة. وردت عليه: "إن كان هذا اعتراضك الوحيد فاعلم أن أمي كانت من الأشورا، ومن كانت من هذه الطائفة حق لها الزواج من كل الطبقات والطوائف."

وظل راما محافظاً على هدوئه أمام هذا القول، ورد باعتراض آخر: "ولكنني من البشر وأنت من الراكشا والزواج بيننا محال."

فلم ينل هذا الجواب من تصميمها: "إذن فاسمح لي بأن أذكرك بأنني لا أود الاستمرار بالانتماء إلى هذه الطائفة، وإنما أسعى إلى صحبة أهل الصلاح والحكمة؛ واعلم، أنت يا من تشبه فيشنو ذاته، أني ما عدت من أهل رافانا، ولا أنا بشقيقته بعد اليوم، وقد أخبرتك بقراري هذا من قبل. فإن كان انتسابي إليه هو اعتراضك الوحيد، فثمة أمل لي، بعد، بأن أنال عندك حظوة."

ولقد ظل راما يراوده شعور بالعطف على هذه المرأة، فقال لها بشيء من اللطف والرقة: "إن من كانت في مثل حالك من العز والمكانة، أختاً لرجال بارزين مثل كوفيرا ورافانا، جديرة بأن تُقدم للزواج على الوجه المناسب؛ فلا ينبغي لك أن تعرضي نفسك للزواج على نحو يبخسك حقك."

"لا حاجة لكبار الأهل، ولا دخل لهم، حين يلتقي اثنان ويتحدان في أعماقهما. تلك هي شرعة الجندارفا. وبعد فإن أخواي يعاديان الزهاد، ولا ينقطعان عن التحرش بهم ومحاربتهم، ولا يردعهما عن ذلك رادع؛ ثم إنك وحيد بلا نصير أو مؤازر وترتدي رداء الزهاد فإذا وقعا عليك لن تفلت من بين أيديهما. أما إذا علما أننا زوجان على شرعة الجندارفا، فسوف تجدهما قد انصاعا لهذا الأمر، ورضيا بك وأحسنا إليك وأغدقا عليك العطايا ونصباك ملكاً على عوالم عديدة... فتمعن في الأمر"

ضحك راما في سره لما سمع، وعلق قائلاً: "أهكذا تثمر صلواتي وقرابيني، أنال النعمة من الراكشا، وأتمتع بسعادة البيت بصحبتك، وكل الأمجاد تلي ذلك؟" لاحظت المرأة الابتسامة، إنما فاتتها لهجة السخرية، وأوشكت أن تقول شيئاً، ثم لاحظت وجود امرأة أخرى في هذا الموقف. كانت سيتا قد خرجت من الكوخ. وصعقت كامافالي لمرآها حين وقعت عيناها عليها، وشرعت تتأملها بدقة، كأنها رؤى من الجمال، فيختلط إعجابها

بحسن المرأة وجمالها بالإحباط لعجزها عن المقارنة بها؛ وتساءلت في خلدها كيف لها أن تأمل بإعجاب راما، وهذه الحورية تنافسها. وقطعت تلك الخواطر بسؤاله، بلهجة آمرة: "ومن تكون هذه؟" ولم تكن سيتا قد بلغت المكان، بعد، إلا أن الق الهالة حولها كان قد سبقها، وبدت كأنما يحيط بها عالم من الضياء؛ ولم تملك كامافالي سوى أن تقف في مكانها فاغرة الفم، لا تقوى على الحراك، من وقع هذا الجمال؛ وظلت تحدق فترة في هذين الزوجين، وكل منهما على روعة جماله يكمل الآخر، حسناً وكمالاً. وما شعرت إلا ونفسها تحدثها بانه إن كان ثمة أنثى كاملة فهي هذه. ولقد نسيت كامافالي لوهلة مشاعر الهيام في نفسها تحت تاثير سحر هذين الزوجين. ولكن ذلك لم يكن إلا انشغالاً عابراً، إذ سرعان ما استعر وجدها براما من جديد. وهيأ لها الظن أن سيتا مثلها صادفت راما في أحد دروب الغابة، واحتالت وفرضت نفسها عليه. وما كان عقلها ليقبل أن هذه ربما تكون زوجه، فلا يعقل أن ترضى زوجة شظف العيش في الغابة. فلا ريب أن الرجل قد ترك زوجه، إن كان زوجاً أصلاً، وراءه في البيت، واتخذ هذه المرأة لتعيش معه في الغابة.

وإذ راودت كامافالي هذه الخواطر واطمأنت إلى سلامة منطقها، قالت لراما بكل جد، تؤلبه عليها: "لا تدع هذه المخلوقة تقترب منك، يا مولاي! ولا يخدعنك مظهرها، فهو خداع كاذب من فعل السحر الأسود. فالحق هو أن هذه من الراكشا العفاريت، فاطردها عنك قبل أن تاتيك بضر. والغابة ملأى بأمثال هذه المحتالة."

كانت كامافالي تقول هذا وكأنما تصف حقيقتها؛ عفريتة جعداء الشعر، أسنانها أشبه بالأنياب، لونها أحمر متقد كألسنة اللهب، ضخمة الجثة، منتفخة البطن، لولوغها بلحم الحيوانات ودمائها. وقد خصها أخوها رافانا بغابة دنداكا تتصرف بها كما تهوى وتشاء، وفي خدمتها جماعة من عتاة العفاريت على رأسهم أشرس العفاريت، كارا. وجعلت شربناخا، وهو اسمها الحقيقي، موطنها الغابات، وفيها كانت تعيث فساداً. ثم كان أن صادفت في تجوالها راما فوقعت في هواه، وعزمت عندئذ على أن تستخدم كل فن للإيقاع به، وبدأت بتقمص شكل صبية مليحة، بتلاوة سلسلة من الترانيم السحرية، وغيرت اسمها

إلى كامافالي. ولكن حين أخذت تؤلب الرجل وتلفق له صورة مشوهة عن سيتا، لم يتمالك نفسه عن الضحك والسخرية منها: "فعلاً! فما من أحد يملك أن يخدعك عن أمره، وأنت على هذا القدر من وضوح السريرة. والحق أن بصيرتك النافذة تدعو للإعجاب، فلا شيء يفلت من ملاحظتك فانظري إلى هذه الساحرة إلى جانبي الآن وحدقي فيها، لتعلم حقيقتها!"

أخذت شربناخا كلام راما على ظاهره، وأخذت تحدق في سيتا بعينين تقدحان شرراً، وتصرخ في وجهها: "هيا ارحلي أيتها اللعينة! فليس لك مكان بيننا لتفسدي علينا خلوتنا، وأنا أحدث حبيبي في شأن خاص. هيا! ارحلي." وكانت فيما هي تتكلم على هذا النحو تكشف في لحظة الغضب عن حقيقتها، فبدت جلية بلا ستار. وشعرت سيتا بالقشعريرة تسري في كيانها، وهي ترى العفريتة في شكلها الرهيب، فاندفعت من شدة خوفها إلى صدر راما لاجئة، تنشد لديه الأمان. ولقد زاد هذا الموقف من غضب شربناخا، فهمت بها تريد شراً.

ورأى راما أن الوقت حان لوضع حد لهذه الزيارة، وخشي أن يقود المزاح إلى ما لا تحمد عقباه، فقال يريد الحيلولة دون ما هو أدهى: "حذار من أن تأتي بأمر فيه ضرر، فهيا امضي في دربك، قبل أن تستلفتي انتباه أخي لكشمانا، فهو غضوب! هيا غادري قبل أن يطل علينا؛ فلست أضمن عندئذ حسن الختام!" فردت قائلة: "كيف لك أن تخاطبني بهذه اللهجة من الاحتقار وتظل على رغبتك وثقتك بهذه الساحرة إلى جانبك، معرضاً عني بينما تتمنى الآلهة، براهما وفيشنو وشيفا وإندرا، بل وإله الحب كاما ذاته، القرب مني؟ فهات تفسيراً لسلوكك الفظ وجلافة طبعك!"

ورأى راما أن الحديث لن يأتي بطائل، فالمرأة قد أقامت منطقها على أضاليل وترهات، يدفعها إلى ذلك العناد والمكابرة؛ وشاء أن يضع حداً لهذا الحديث العقيم، فأشاح عنها وأحاط سيتا بذراعه، واستدار عائداً إلى صومعته بكل مهابة وجلال.

انتـاب شـربناخـا، حين أغلق البـاب في وجـهـهـا، ضيق شـديد حتى كـادت تخـتنق. ثم جهدت لتتمالك نفسها، وأخذت تفكر: "لقد أعرض عني، وذلك أمر لا ريب فيه! وأجزم أنه مغرم بتلك المرأة بما لا ينفع معـه رجاء. والأجدر إذن أن أعود إلى مقري، فلم يعد لي مكان هنا!" وهكذا قفلت الأشورا عائدة إلى وكرها وراء الغابة، ومضت إلى الفراش؛ ولكن نار الهوى كانت تتاجج فيها، فلم تقو على النوم. وبدا أن الغرام الذي خبرته سيتا من قبل قد تمكن من هذه المتوحشة أيضاً، وغلبها على أمرها. وبدأت تضيق بكل أمر وتثور لأدنى سبب، وأخذت تجد في كل حال ما يزيد في قلبها اللوعة والعذاب. فلما كان الليل وأرسل القمر أشعته ليعم العالم من حولها صارت تزأر في وجهه، وخطر ببالها آنذاك أن ترسل الأفعى راهو لتبتلعه؛ ولكم أخذت تنبح حين صارت نسمات الليل العليلة تلامسها؛ وكم من مرة هبت من مكانها تقصد إله الحب لتقضي عليه، جزاء له على ما فعلته سهامه بقلبها فادمته. ولكن ذلك كله لم يجد في أمرها شيئاً، فمضت إلى احد الكهوف في الجبل حيث تسكن الأفاعي وانكفات فيه تعاني خطرفات الجنون. وهناك كانت تتمثل راما واقفاً أمامها، فلا يغيب شبحه عنها حتى يعود من جديد، فيتهيأ لها انها تعانقه وتداعب منكبيه العريضين وصدره الواسع. وكانت تصرخ كلما صحت من أوهامها شاكية مر الشكوى من إعراضه عنها، ونأيه وصده، فتظل نار الحب متاججة تلهب أحشاءها. ولكن حين حل الصباح وجدت العفريتة نفسها أشد هدوءاً، بعدما أنهكها ضنى الليل. وفي هذا الهدوء تفتق عقلها عن خطة جديدة، وأخذت تزن الأمور وتقلبها، ورأت أن مصيرها الموت إن لم تستحوذ على الحبيب راما، فلتبذل محاولة اخرى. فالعائق الوحيد دون لقاء الحبيب هو تلك المرأة، وهو لها إن استطاعت استبعاد غريمتها. هكذا هو منطق الطبيعة! وإذ استقر فكرها على هذا النحو وجدت نفسها مشحونة بطاقة جديدة من الحيوية.

كان ضوء النهار قد خفف إلى حد ما من آلام الحب، فخرجت من كهفها، ومضت إلى غابة بنتشفاتي، وقبعت هناك تتحين فرصتها. ورأت راما يخرج من كوخه نحو الجودافاري للاغتسال وأداء الصلوات. وحدثتها نفسها بأن هذه هي اللحظة المناسبة فإن أضاعتها انتهى

الأمر، وهو عندها قضية حياة أو موت، فإن اختفت غريمتها لم يعد أمامه إلا ان يقبل بها. ومع أنها كادت تندفع لتطرح نفسها عند قدميه حين وقعت عيناها عليه لتعترف له بما تنطوي عليه من الحب، إلا أنها غالبت نفسها، وظلت في مكانها ترصده، ورأت سيتا تخرج من الكوخ وتأخذ في قطف الزهور. وحدثتها نفسها أن هذه فرصة ينبغي ألا تفوتها، واستقر رأيها على أن تلاحق سيتا وتتبع خطواتها كما يتبع الحيوان فريسته؛ حتى إذا حانت الفرصة انقضت عليها خلسة، وجرتها ومن ثم أخفتها عن الأنظار، فلا يجد راما حين يعود سواها محل سيتا في الكوخ. وكانت هذه خطة محكمة، ولكن لم يكن ليخطر ببال صاحبتها أن تكون النتيجة غير ما دبرت. فهي في انشغالها بصورة راما وترصد سيتا لم تلحظ أن هناك من كان يرقب تحركاتها، لكشمانا الذي جرى على عادة الاختفاء فوق الأشجار ورصد المكان من كل اتجاه خشية أن يداهمهم مداهم. وقد أمكن له أن يرى شربناخا قريباً من الكوخ، فتيقظ، ولما لحظ منها متابعتها لسيتا انقض عليها وهي تهم بالإمساك بها، فإذا بها ترى نفسها في قبضته، وهو يجرها ويوسعها ركلاً.

ولقد فاجأ لكشمانا أن تكون هذه امرأة، وقرر عندئذ أن يطلق سراحها، ولكنه شاء أن يعاقبها على فعلتها بما يذكرها أبداً بهذا اللقاء؛ وكان أن جدع أنفها وقطع أذنيها وتركها تجري، وقد استولى عليها الجنون، في كل اتجاه. ولما عاد راما من النهر وجد المرأة على تلك الحال الشنيعة، مشوهة تنزف دماً وتصرخ من هول الألم، تنادي أخويها، أهل الحول والطول، معددة أمجادهما وفتوحاتهما في العوالم الثلاثة، لتنجدتها في لحظة المحنة، والانتقام لأختهما ممن أنزل بها هذا الإذلال، اثنان من البشر العاديين، يرتديان زي الزهاد، ولكنهما مدججان بالسلاح ويأخذان الناس غدراً. ويا له من أمر أن يجرؤ البشر، وهم طعام الفقراء من قومها، على مثل هذا الفعل بأخت رافانا!...

لم يسأل راما عما حدث، وإنما من تكون هذه المضرجة بالدماء؟ ومن أين أتت؟

وردت: "أفلا تعرفني؟ علام هذا التجاهل؟ لقد التقينا ليلة البارحة وأبديت لي كل اهتمام، آه..." كان ذلك صوت الهيام وقد ثار من جديد.

وأدرك راما حقيقة المرأة: "إذن، فانت هي؟" ولم يزد.

قالت وهي على حالها من الألم: "أفلا تراني جميلة؟ لا عجب إن ضاع جمال المرأة، وقد جدع انفها وقُطعت أذناها، فماذا يبقى لها من أثار الجمال؟"

التفت راما إلى لكشمانا يسأله عن جريرتها حتى نالها ما نالها!

"كانت تتربص بابنة جناكا وكادت أن تنال منها، لولا أن اعترضتها، وأفشلت ما كانت تضمره من الشر!"

وأخذت شربناخا تبرر سوء فعلتها: "ذلك من طبيعة الأمور وحق أن أكره من كانت تريد حرماني من صحبة حبيبي. أفلا يشتعل قلب المرأة حين ترى حبيبها ينتزع منها؟"

فرد راما متأنياً: "هيا! امضي قبل أن ينطق لسانك بما هو أسوأ وتسوء العاقبة أكثر! هيا عودي إلى قومك، وإلا ورطت نفسك بما لا قِبل لك به!"

ولكن المرأة لم تشأ إلا أن تبذل محاولة أخيرة لتكسب حب راما: "لم يفت الأوان، بعد، لإصلاح الخطأ. فإن تزوجتنا غفر لك أخي رافانا ما سببت لي من الألم، ولسوف يجزل لك هدية المصاهرة، ويوليك على ممالك عديدة، ويجعلك مقدماً على الكثير من الآلهة. آه! إن الوقت لم يفت، بعد، والفرصة ما تزال متاحة لتصويب الخطأ. ولا تخش إن تجرأ أحد وذكر انفي أو اذني فأخي كفيل به. وما زلت احمل عينين وهما قادرتان على التمتع بالنظر إلى منكبيك العريضين وصدرك الواسع، وكذلك ذراعاي سليمتان ولهما إن تضماك إلي وأن تعانقانك. آه، إني لمتيمة بحبك، فإن رضيت كنت لك خادمة وجعلت كل الراكشا عبيداً لك. آه إن فراقك لمضن، فاشفق، وأنا رهن إشارتك!" كانت تتلوى وتتدحرج على الأرض والدم ينزف منها، ولا شيء يخفف مما تعانيه من عذاب الهوى. ومع ذلك فقد ظلت تتابع الحديث: "اعلم أن أهلي قوم عتاة، ذوو شدة وقسوة. ولسوف تعلم شيئاً من عسفهم حين يبلغهم ما نالني فسيهبون ويعملون قتلاً وتدميراً في كل ما يصادفهم، ولن يوفروا حتى دمك أنت، بل إنهم سوف يقضون على البشرية كلها، فلا يبقى منها إلا الذكرى. أما إن

اتخذتني زوجة فلسوف أتوسط في الأمر، فيبقون عليك وأهلك... فبقاء البشرية أو فناؤها بيدك، وعليك يتوقف الأمر!"

"إنك تسيئين الحديث كلما أفسحت لك المجال. فهيا امضي إلى قومك، وعودي ومعك كل هؤلاء الجبابرة الذين حدثتني عنهم، وأكثر منهم أيضاً. فانا لهم ولسوف أصارعهم واحداً واحداً أو مجتمعين. فهيا، أنت وشأنك! واعلمي الآن أن مهمتي في الحياة هي القضاء على جنس العفاريت الراكشا الأشرار من على سطح الأرض، ولسوف أنجز هذه المهمة وإنني بانتظارك أنت وقومك!"

وظلت شربناخا على دأبها بالرغم من كل ما أصابها على يد لكشمانا، وتجهد في اجتذاب راما إليها، ملمحة إلى أنها قادرة بفضل قواها السحرية على الظهور بمظهر الجميلة من جديد. ورأى راما، إذ بلغت الأمور هذا الحد، أن يكشف لها عن حقيقة أمره وأصله ومحتده، والسبب في قدومه وزوجه سيتا، وأخيه لكشمانا إلى الغابة، وزاد بأن بين لها أن مهمته هي القضاء على طائفة الأشورا، وعرض لها كيف قتل تاتاكا وأهلها.

ولكن هذا الحديث لم يفت، في حقيقة الأمر، في عضد شربناخا، وإنما أوحى لها بفكرة أخرى، فقالت له: "إن كان هذا غرضك، فانت تعلم، أني خير عون لك، وإذا كنت لا تنفر من شكلي وسحنتي، وتزوجتني كشفت لك عن كل الفنون والأسرار من السحر وسواه، وهي سر قوة قومي وجبروتهم... ولكن لا بد لك من أن تقبل بي زوجاً لك... وإن لم تتخل عن رفيقتك الهزيلة، حسبك الا ترى فيَّ إضافة لا تقدر على حملها. أم تراك تجدني عشيرة في شخص امرأة واحدة؟ بلى، لسوف أساعدك بأن أكشف لك عدة أعدائك من الخدع والألاعيب حتى يكون لك النصر عليهم ساحقاً، فكما يقال لا يعرف أقدام الأفعى إلا أفعى أخرى. ولك أن تتخذني، إن لم تستطع أن تتخلى عن زوجك، شريكاً ثالثاً في حربك على الراكشا، وحين يندحر أخي الذي أسر الشمس والقمر ذات يوم ويقضي ربما حملت أخاك لكشمانا أن يتزوجني، فدعني أكون في حاشيتك يوم تعود إلى آيوديا منتصراً، ولا يقلقنك أن يكون في هذه الحاشية يوم تعود شخصاً أجدع الأنف، لأن لدي

القدرة على أن أظهر بالشكل الذي أهوى؛ وإذا ما صدف أن سالك لكشمانا كيف يمكن أن يعيش مع امرأة بلا أنف فقل له إنه يستطيع العيش مع هذه المرأة كما يعيش الرجل مع امرأة بلا خصر، وكانت تريد بهذه العبارة أن تطري قوام سيتا وخصرها النحيل.

ولقد ثارت ثائرة لكشمانا حين سمع تلك العبارات واشتد به الغضب فسأل أخاه أن يأذن له بأن يأتي بأجلها، وإلا ظلت على إلحاحها وأفسدت عليهم عيشهم. فوافقه راما على أن الخلاص منها لا يكون إلا بقتلها. فما كان من شربناخا حين سمعت ما دار بين الأخوين إلا أن نهضت وغادرت على عجل، وهي تقول: "يا لكما من أحمقين أتحسبان أني كنت جادة في ما قلت. فإن كنت قد بقيت بعد ما أصابني فلاتعرف إلى أعماق عقلكما المنحط. وها أنذا أمضي، إنما لأعود قريباً مع كارا، وهو كإله الموت يأساً، وأقوى من العواصف والبراكين والرعود وأمواج البحر العاتية."

كان كارا أخاً غير شقيق لرافانا، وهو عفريت مقاتل شرس يخضع له أربعة عشر قائداً يقومون على رأس جيش عرمرم، مهمته حماية شربناخا وتنفيذ أوامرها. فقصدته بعد عودتها، واقتحمت عليه قصره كالعاصفة، كاشفة له عن جروحها وما نالها من التشويه، وهي تصرخ أن الجناة اثنان من البشر اقتحما مملكتها، وعسفا بها كل هذا العسف.

"اثنان من البشر؟"

"آه، ولدا دشاراتا الرائعان، لهما مظهر الحكماء، لكنهما مدججان بالسلاح، غرضهما القضاء على عشيرتنا، وفي صحبتهما امرأة لا مثيل لجمالها على الأرض. وقد حاولت الإمساك بها، لولا أن اعترضني أحدهما ونالني منه ما ترى."

حدق كارا في المرأة وحاول أن يتبين مقدار ما أصابها من هذين الجانيين، ثم انفجر مزمجراً بصوت كالرعد: "ويل لهما قسماً إني سوف أذيقهما الموت الزؤام. ولكن لا فلسوف أقضي على جميع البشر." ثم هب واقفاً وانطلق ليتدبر أمر هذين الجانيين؛ وسرعان ما انتشر النبأ بأن كارا يعد العدة لشن الحرب على بني البشر. تداعى إليه أربعة عشر من

قادة الجيش يحتجون عليه لتوليه قيادة الحملة بنفسه، قائلين إن هذا القرار إنما يعني الطعن بكفاءاتهم الحربية وشجاعتهم وحسن بلائهم، بينما كان أجدر به أن يعلن ثقته بهم ويترك أمر الحملة لهم؛ وهم من سيتكفل بإنهاء هذا الوضع بلا خوف أو تردد.

وقد وافق كارا القادة على أن يدع لهم أمر هذه المخلوقات التافهة، لئلا تصبح الراكشا أضحوكة الآلهة. وكان توجيهه للجيش أن هيا امضوا واستمتعوا بدمائهم، شرط أن تعودوا ومعكم المرأة في أحسن حال.

وفي الساعة المعينة خرج ذلك الجيش، وعلى رأسه شربناخا وتحت رايتها قادة الحرب العظام، مدججين بالسلاح، يقصدون صومعة راما. وفي لحظة من لحظات تلك المسيرة، توقفت شربناخا وأشارت إلى راما. وصاح القادة: "لا عليك! فلسوف يقع بين أيدينا، وسنكبله عندئذ بالسلاسل والقيود، ثم نطوح به في الهواء فيقع حطاماً، أو لنرمه برماحنا، وينتهي أمره."

فزعقت شربناخا: "بل ليؤت بهذا الرجل حياً، وأنا أتولى أمره."

وقف راما عن بعد يرصد هذا الجيش الغريب، وقال للكشمانا أن يذهب لحماية سيتا، ويلزم جانبها فلا يغادرها. وأخرج قوسه، وتمنطق بسيفه، وأعد نفسه للقتال، وخرج لمقابلة الغزاة غاضباً، ثائراً، كالأسد الهصور. ولقد بدأت المعركة وانتهت سريعاً، وحسمت بسهام راما، فجندلت الجنود، وبددت جموعهم، وأعطبت أسلحتهم، واحتزت الرؤوس؛ وفرت شربناخا بين من فر من ساحة القتال، وذهبت تخبر كارا بالكارثة التي وقعت.

وأطلق كارا النفير وقام بحشد جيش قوي من الراكشا للانتقام من الهزيمة التي لحقت بشربناخا، ومضى من ثم لتطويق كوخ راما؛ واعتقد أن النصر على راما وأخيه محقق. وكانت الخطة تقوم على الزحف وتطويق الكوخ ثم الإطباق عليه ومن فيه، في لحظة معينة، وسط جلبة عظيمة من أصوات الحيوانات والعربات وصراخ الراكشا، وقعقعة السلاح لإيقاع الرعب في قلب الخصم. ولقد استغرقت المعركة وقتاً أطول قليلاً من سابقتها، إلا أن النتيجة

كانت كسابقتها أيضاً.

لقد دحر راما كارا وحلفاءه، بينما كانت شربناخا ترصد المعركة عن بعد، وأدركت مجرى الأحداث؛ فاقتنصت لحظة للاقتراب من جثث القتلة، وقد تناثرت على الأرض، فوقع نظرها على جثة أخيها وسندها كارا، ورأت عندئذ أن الوقت قد حان لتغادر تلك الناحية. فهربت إلى لانكا لتعلم أخاها رافانا بالكارثة.

كانت تلك معركة قصيرة، ولكنها خلفت ضحايا كثيرة، ولم ينج منها إلا من أفلت صدفة؛ وكان من هؤلاء القلة رسول رافانا المدعو أكمبانا، إذ تمكن من الهرب بجلده من تلك المذبحة، والعودة إلى لانكا، ليخبر ملكه، وقد استولى عليه الذهول مما شاهد من القتلى الذين تناثرت جثثهم يومذاك هنا وهناك على أرض القتال. وكان حديث أكمبانا مختصراً، فروى له كيف دمرت جانثانا منتجع العفاريت، وقُضي على العفاريت، وبينهم كارا. واختتم روايته بالقول إنه يعجب لبقائه حياً ليروي له هذه القصة!

وكان رافانا يجلس، في هذا كله، مصغياً لحديث رسوله، بينما عيناه الحمراوان تقدحان شرراً، وأنفاسه تتلاحق، فلما انتهى أكمبانا من روايته، صاح بصوت مجلجل كالرعد: "ومن هذا الذي تجرأ على قومي وأنزل الدمار بجانثانا؟"

أجابه أكمبانا، بصوت عميق مدوٍ كوقع الطبل، وبدا وجهه عندئذ متوهجاً متألقاً كالقمر: "ذاك راما، ولد دشاراثا، رجل عريض المنكبين طويل الذراعين."

قال رافانا، منكراً ما بلغه عن راما: "أكانت الآلهة تؤازره في ما فعل؟"

فاجاب محدثه: "بل كان أخوه الأصغر لكشمانا كل عدته في هذه الحرب، إذ عمل كالريح حين تنقل النار من موضع إلى موضع. كذلك كان شأن لكشمانا يحمل نار راما فينفث فيها من طاقاته حتى قضت على جناثانا. ولم يكن ذلك من أمر الآلهة، وإنما بفعل سهامه التي تحمل رؤوس الأفاعي؛ فهي التي قضت على العفاريت كما تلتهم النار أشجار الغابة."

قال رافانا متوعداً، وهو يكاد يثب من مقعده: "إذن، فإني قاتل الاثنين!"

قال أكمبانا، ناصحاً: "اعرني سمعك أولاً، وحاول أن تختبر قوة راما، قبل أن تقدم على اي أمر. فالرجل قادر على أن يجفف برشقة من سهامه نهراً بكامله، او ان ينقل بحراً من موضعه، أو أن يجعل الأرض تغرق في طوفان، ثم يرفعها من تحت الماء إلى حيث كانت من جديد، كما هو قادر على تدمير العوالم كلها وخلق عوالم أخرى جديدة. ذلك هو مبلغ قدرته، وهذا مدى صيته. وعندي أنك لن تقوى على دحره في معركة، وجهاً لوجه."

كان رافانا يصغي لحديث أكمبانا بعناية شديدة ويحاول تقدير قوة راما. وتابع أكمبانا حديثه، حين أنس من رافانا اهتماماً بنصحه، وقال بلهجة التواطؤ: "هناك في ظني طريق وحيدة، ولا طريق سواها، للخروج من هذا الوضع؛ أن تعزل زوجه سيتا عنه برهة، وهي امرأة بديعة الحسن رائعة الجمال، ذات قوام متناسق، وفي ربيع العمر، ثم أن تعمد بعدئذ إلى اختطافها، ومتى كان لك ذلك وجدت راما لا يقوى على الحياة بعيداً عنها!"

ولقد طابت لرافانا هذه الفكرة، وعزم على تنفيذها دون تأخير، وفي اليوم الثاني، ركب عربته وأسرع إلى العفريت ماريخا بن تاتاكا. كانت عربة رافانا تخلب لب الناظر، وهي تقف منتصبة مرصعة بالماس والياقوت ومزينة باللآلئ، وتجرها ثمانية من الجياد المجنحة. ولما ارتفعت به إلى عنان السماء، أسرع بها يسابق الريح، فقطع البحار الزرقاء والجبال العالية وتجاوز الوديان السحيقة، وما زال في سباقه إلى أن حط في أرض نائية وسط الغابات، حيث يعيش العفريت ماريخا بعد أن اختار حياة الزهد منذ حين. ولقد وجف قلب هذا العفريت حين رأى ملك لانكا ينزل في أرضه، وسارع لتقديم الماء ليغسل رجليه، والفاكهة النادرة، والأطباق التي لا يعرفها إنسان. فاعلن له رافانا رغبته في اختطاف سيتا، ودهش لهذا المطلب، إذ سبق أن قام وأخيه سوباهو باعتراض راما، وكان راما فتى، لما يشتد عوده، بعد، فإذا به يواجه مقاتلاً مغواراً لم يسبق أن واجه مثله أحد من قبل. ولذلك سأل رافانا. بلهجة تشوبها السخرية: "ومن هذا الذي حشا رأسك بهذه الفكرة؟ إن صاحبك هذا عدو لا صديق. وما عرضه إلا أن تنتزع بيديك المجردتين أنياب افعى قاتلة. ثم تختطف سيتا! وهذه

فكرة سخيفة أخرى!"

كان ماريخا لا يصدق أذنيه، وهو يسمع من رافانا خطته، فاستولى عليه الذعر، وبدا كأنما يعيش كابوساً لا حقيقة، فقال: "اصغ إلي جيداً، يا مولاي، إنك الآن أشبه بمن يوقظ أسداً نائماً، العفاريت عنده غزلان وديعة. وإنك في الحقيقة إنما تزج نفسك في خضم بحر من الأخطار لا قبل لك بها. ولسوف تلقى حتفك في نهاية المطاف، ذلك أمر لا ريب فيه. والرأي عندي أن تعود، يا رافانا، إلى قصرك ونسائك. ودعك من الحلم بسيتا فهي لراما، ولراما وحده!"

ولقد جهد ماريخا ما استطاع ليثني رافانا عن عزمه باختطاف سيتا، وكان يرى أن مجرد التفكير في سيتا هو ضرب من الجنون، فكيف باختطافها من زوجها! وحاول تهدئته قائلاً: "تمالك نفسك، أي ملك لانكا، وعد آمناً إلى عاصمة ملكك. وتمتع بنسائك، يا إله المردة، ولتترك راما يتمتع بامرأته، في الغابة." ولما بلغت كلمات ماريخا رافانا ذا الرؤوس العشرة عاد إلى مدينة لانكا ورجع إلى قصره من جديد.

عادت شربناخا إلى موطنها، جزيرة لانكا، حزينة، مهزومة، مكلومة، يعتمل في قلبها الغضب والثورة؛ وما إن وطئت أرضها حتى قصدت أخاها رافانا، ذا الرؤوس العشرة.

وهناك في قاعة الملك وجدته متربعاً على كرسي العرش مجللاً بالعظمة وينضح تيهاً وخيلاء؛ ولا عجب فهو الملك الجبار الذي لم يعرف الهزيمة في حياته قط، بل إن الآلهة كانت ترتعد أمام قوته وجبروته.

أما شربناخا فكانت أخته الوحيدة، وقد أفسدت دلالاً، ولذلك كان أبداً ملجأ لها، كما أصبح الآن أيضاً وهكذا دخلت عليه في صورتها المشوهة الشنيعة، تطلب منه الانتقام لما أصابها.

هاج رافانا وماج، حين رآها على هذه الحال، وسألها عمن فعل بها هذه الفعلة، وتجرأ عليها، وهي أخته؟ فصاحت وفي لهجتها خنة بعد أن جُدع أنفها: "ها أنتذا تبدد الوقت

في الراحة والعبث، بينما ترى ما فعله اثنان، وهما من البشر فحسب، بأختك أنت! وليت الأمر اقتصر على هذا، بل لقد أنهيا حياة كارا ودوشانا أيضاً على الأرض!" وأخذت تروي له عندئذ، وسيل من الدموع لا ينقطع يجري على خديها، حكاية راما ولكشمانا، الأميرين المنفيين من آيوديا، وترحالهما في الغابات، وفي صحبتهما سيتا ذات الجمال الفاتن. وزادت بأن زينت له الزواج بها، "فتكون لك، أي أخي، الزوجة المناسبة." بينما كانت الماكرة تتابع وصف حسن سيتا وجمالها الآسر: "جمال لا نظير له، لم تقع عيونك على مثلها... وجهها صبوح وقدها فتان، زوجة راما هذه، وأمامها يتضاءل جمال كل امرأة على وجه البسيطة. فإذا ملكتها زوجاً، أي أخي، اكتملت لك السعادة وعلا مجدك."

وهكذا أخذت شربناخا تحيك مؤامرة الانتقام وتغري رافانا بالضلال. وما زالت تحدثه هذه الشريرة وتطري جمال سيتا حتى فقد رافانا صوابه وترك عقله يتردى، وأخذ يقلب الرأي في هذا الشر الذي زينته له شربناخا، وأغراه أن يحوز على هذه الحورية الفريدة بين النساء. ولكن كيف له أن يقتنصها من بين يدي راما؟ فذلك أمر عظيم يشق عليه. ثم وجد الأمر هيناً، فما راما وسيتا إلا من بني البشر ولا علم لهما بالسحر؛ وقاده فكره إلى أنه من اليسير عليه اختطاف سيتا الحسناء، إن توسل بالسحر الأسود. وعلى هذا الشر استقر عزم رافانا، ونادى يطلب عربته، وأسرع بها من جديد إلى حيث يعيش العفريت ماريخا. ورأى رافانا، وهو يمر فوق الطرف الآخر من المحيط، صومعة منفردة، وكانت منتجعاً مقدساً قديم العهد، وسط الغابة. وهناك وجد العفريت ماريخا متدثراً بجلد فيل أسود، وقد عقص شعر رأسه. ولما أطل عليه رافانا رحب به وقدم له من ضروب الضيافة والمتعة ما لم يعرف مثله إنسان. وخاطب مليكه حين كان يقدم له طاهر الطعام والماء، وسأله: "هل الأحوال، يا ملك الراكشا، في لانكا على ما يرام؟ وما الذي حملك على العودة إلى هنا بهذه السرعة العظيمة؟" فأجاب رافانا ذو الجبروت وسيد الفصاحة: "إن لك، يا ماريخا، باعاً طويلاً في السحر، ومن القوة والبأس ما يعادل الف فيل، ولذكرك ترتعد الجبابرة. ولقد قطعت البحار والقفار ناشداً عونك في أمر عزمت عليه، وأنت خير من يلبي النداء. إن قلبي، أي ماريخا،

لحزين فقد قتل أخواي كارا ودوشانا، ومعهما أتباعهما، وجدع أنف أختي الوحيدة وقطعت أذناها. وكل ذلك بيد إنسان تافه! أمير منفي من آيوديا يدعى راما! فأي إذلال أعظم من هذا؟ فإن لم أنتقم لما نالني ظل اسمي ملطخاً بالعار أبد الدهر، أنا رافانا وولدي إندراجيت المشهود له بالشجاعة، ومع ذلك تجد هذا الرجل التافه يتجرأ علي! وها أنذا أطلب منك، أي ماريخا، العون. إن لراما زوجة، وهي في صحبته، وبلغني أنها ذات جمال وفضيلة لا نظير لهما في العوالم الثلاثة. وغرضي أن أحرم راما من سيتا، بمعونتك، وبذلك يتحقق لي الانتقام لما نالني وأختي منه."

ولقد كان لحديث رافانا أسوأ الوقع عند ماريخا، وهو الذي أسقطه راما من السماء ذات يوم بسهم من سهامه؛ وانتابه الذعر مما سمع، خاصة وأنه كان قد اختار حياة النسك منذ كان سقوطه يومذاك، وشرع يتفكر في أخطاء الماضي ويتأمل طريق الخلاص من آثار شروره القديمة، وانقطع منذ ذلك الحين لرياضة النفس بالدأب والشدة ليكفر عن آثامه؛ ثم أكسبه الزمن حكمة وفهماً جعلاه اليوم يرجو رافانا أن يعرض عن سلوك هذا الدرب، وذكّره بإخلاص سيتا لزوجها، فإن تنكب هذا الطريق ساءت عاقبته لأن المرأة لا ترضى لنفسها أن تخذل رجلاً مثل راما، وعرض له أن الأمراء في المنفى ليسوا من البشر العاديين. وإذن فإن دون ذلك أهوالاً لا قبل له بها، والأجدى، إذن، أن يعدل عن طريق البغي هذا.

ضاق رافانا وغضب أشد الغضب لما سمع من ماريخا، ومن رؤوسه العشرة برزت عيونه العشرون تقدح شرراً؛ فهذه أول مرة يجرؤ فيها أحد العفاريت على الإعراض عن تنفيذ رغبة له، وهو ملك العفاريت كلهم. واستولى على ماريخا إحساس طاغ بالخوف من عاقبة حديثه، وأدرك أنه تسرع بكلامه، وكان الأجدر به أن يتروى ويبدي الطاعة، بينما أصبح يواجه الآن خطر الموت. وأخذ يحدث نفسه ويعقد المقارنة بين رافانا وراما، ورأى عندئذ أن كليهما عنيف حين يطغى عليه الغضب، لكن الموت على يد راما الصالح أرحم من القتل بيد رافانا الآثم. وإذن فالانصياع لمليكه أفضل.

قال له رافانا الداهية: "اصغ لما أقول، عليك بادئ ذي بدء أن تتخذ شكل غزال ذهبي

فتذهب وترعى الكلأ أمام الكوخ حيث يسكن راما وسيتا ولكشمانا. فإذا وقعت عينا سيتا عليك الحت عليها الرغبة بامتلاك الغزال الذهبي، وسترجو راما عندئذ أن يمسك بك. فيجهد راما إن يوقع بك، إرضاء لسيتا، ولكن عليك أن تعتمد الحيلة وتستدرجه بعيداً إلى أعماق الغابة. ولسوف أتولى أمر سيتا في غيابه، وأحملها إلى لانكا. ولا ريب في انه سيُفجع بغياب سيتا، وينال منه الحزن ويتلاشى ويموت من شدة اللوعة." قال هذا واردف بضحكة تنم عن الشر في نفسه: "وهذه نهاية تليق بإنسان عسف بالكثير من أبناء قومنا."

وأخذ ماريخا بالنواح والبكاء، وهو يرتعد من شدة الفزع: "إن ذلك لن يكون بالمهمة اليسيرة، إذ يبدو أن مولاي قد سها عن لكشمانا، وهو بطل صنديد، وأبداً إلى جانب أخيه في الملمات. وكلاهما ملازم للآخر، وعلى درجة عظيمة من الشجاعة والبأس. فناشدتك، أي سيدي ومولاي، أن تتناسى هذه الرغبة، وهي شر، وإلا قضي عليك، ومعك أخواك كومبكارنا وفيبيشانا، وانتهت مملكتك الجميلة لانكا، وأصبحت أثراً بعد عين. فاصغ لما أقول، وإني لمخلص لك النصح."

ولكن كما ان المريض يعرض عن الدواء، حين يقترب الموت، كذلك كان رافانا يزداد غضباً وعناداً كلما زاد ماريخا في محاولة ثنيه عن عزمه. وحين ألح ماريخا وزاد في مناشدة محدثه، صرخ رافانا: "هذا حديث خائن! إنك لتطنب في مدح التافهين وتبخسني حقي وتقلل من شأن جبروتي! أنا، رافانا، الجبار العتيد الذي لا يقهر، ويرتعد سكان السماء في حضرتي، وإذا بك تجرؤ على أن تجزم بأن هؤلاء، وهم مجرد بشر لا حول لهم ولا قوة، وليس لديهم إلا القليل من العقل، قادرون على مصارعتي؟ لقد سمعت قراري، وقضي الأمر. ولن يثنيني عن أخذ سيتا أمر، ولو تدخل براهما ذاته ومنعني عما عزمت عليه. فهيا، لا تخش بأساً، فإنني لن ادخل في قتال. وتعال معي لأخبرك بتفاصيل الخطة!"

ورد ماريخا، شاكياً، نادباً: "لسوف ينتهي أمرك وقومك، إن اقترفت هذا الإثم، وسأكون أول من يقتله راما، ثم تلحق بي أنت وأهلك جميعاً من بعدك!" ولكن تلك النبوءة إنما وقعت على اذن صماء؛ ولم يجد ماريخا نفسه إلا ورافانا مصطحبه إلى عربته، ويطير به إلى

حيث يعيش الأمراء المنفيون في غابة البنتشفاتي الهادئة.

وهناك صاح به رافانا أن اتخذ هيئة أخرى، فاختفى ماريخا، وحل محله إلى جانب رافانا غزال ذهبي اللون، يلمع جلده الأملس المرقط ببقع حمراء وسوداء ببريق يخطف الأنظار تحت أشعة الشمس، وأظلافه وحدها بيضاء، بينما كان قرناه وكأنهما قدا من المرجان، ولسانه يبرز مندفعاً كالبرق الخاطف حين يمتد ليلتقط العشب من الأرض، وعيناه مصباحان جميلان يضيئان وجهه الصغير الفاتن. وهكذا غدا ماريخا مخلوقاً رائعاً ساحراً، كما شاء له رافانا، كفيلاً بأن يفتن سيتا. أما رافانا فقد وجد لنفسه مخبأ بين أشجار الغابة، بينما كان الغزال المسحور يضيء كل ما حوله بجماله الأخاذ حيثما ذهب، حتى بلغ ذلك الكوخ الصغير على ضفة النهر المتدفق.

كان راما وسيتا جالسين خارج الكوخ يستمتعان بمشهد الطبيعة الأخاذة؛ وفي تلك اللحظة وقعت عينا سيتا على ذلك المخلوق الجميل يرعى العشب أمامها. ولم تتمالك نفسها من أن تصيح: "انظر، يا مولاي! ألست ترى هذا الغزال جميلاً؟ بل هو الجمال بعينه." وتابعت مشيرة إلى الغزال المسحور، كالمأخوذة: "أرجو أن تحضره لي لألاعبه، لقد استهواه قلبي. فهيا آتني به حياً، ولسوف أصطحبه معي إلى آيوديا، وأسعد به. وإذا تعذر عليك اقتناصه حياً فآتني بجلده اللامع كالتبر، إن جلده ليصلح أن يكون سجادة جميلة لنجلس كلانا عليها. رجوتك أن تمسكه وتأتي به! "فالتفت راما عندئذ إلى لكشمانا: "انظر أليس هذا الغزال عجيباً؟ إن سيتا ترغب به." نظر لكشمانا إلى الغزال وتفحصه بعناية، وانتابه بعض القلق. فقد كان عليماً بالعفاريت الأشرار ومكائدهم، وراودته خشية من أن يكون هذا الغزال من أعوانهم، فلطالما احتالت العفاريت على البشر بأن اتخذت أشكالاً غير شكلها الحقيقي. وخطر ببال لكشمانا أن هذا الغزال ذا اللون الذهبي والعينين الساحرتين مخلوق خارق وأجمل من أن يكون غزالاً عادياً.

وقال لراما: "لا ريب أن هذا غزال مسحور من فعل العفاريت الأشرار وسحرهم الأسود؛ وليس من الحكمة أن نطارده أو نمسك به."

ورد راما: "إن كان هذا سحراً حق عليّ أن أقتله. ثم إن سيتا تروم أن تحوز على جلده لتزين به بيتنا في الغابة، ولسوف تناله!"

وحمل راما من ثم قوسه وسهامه واستعد للمطاردة، وقال لأخيه: "أي لكشمانا، احرص على سيتا في غيابي، بينما أقتنص هذا الغزال، إن استطعت، فإن لم ألحق به قتلته وحملت جلده إلى سيتا. فلا تغادر هذا الكوخ لأي أمر. فانتظر هنا واحرس سيتا في غيابي!"

وهكذا مضى راما في إثر الغزال، الذي كان يستدير أو يجري هارباً كلما اقترب منه، وكأنما يغريه على اللحاق به. وظل الغزال الذهبي يقفز حيناً ويقف حيناً، وهو قريب منه حتى كاد أكثر من مرة أن يمسك بقرنيه المرجانيين. ولكن بعد وقت من هذه المطاردة بين القناص وطريدته اختفى ذلك الغزال بين أشجار الغابة، ثم عاد فظهر من جديد وعبر أمامه كالريح. وكان راما يأمل أن يمسك به حياً، إلا أنه أدرك الآن أن طريدته ليس غزالاً كالغزلان التي ألفها. ولم يجد عندئذ مناصاً من أن يرميه بسهم خاص، فاختار واحداً من تلك السهام التي لا تحيد عن هدفها؛ فثبته ثم أرسله فسار إلى مرماه يكاد المرء لا يتبينه لولا ذلك الهسيس الذي رافقه طوال مسيرته إلى أن بلغ قلب الغزال واخترقه. فصدرت عنه عندئذ صرخة ألم رهيبة، وعاد معها إلى صورته القبيحة الأولى، واختفى الغزال الذهبي دون أثر.

ولما شعر ماريخا بالألم وأدرك إصابته وجد أن سبيله إلى الانتقام من راما بأن يتمكن رافانا من تنفيذ خطته الآثمة. وهكذا جهد، والموت يحدق فيه بعينيه الباردتين، فأطلق صرخة بصوت يشبه صوت راما: "النجدة، أي لكشمانا، ! النجدة، أي لكشمانا!" فوجف قلب راما عند سماع هذا الصوت، وأدرك أن العفريت المحتضر يقلد صوته منادياً لكشمانا لغرض. فجذب سهم الموت من قلب ماريخا وأسرع عائداً إلى سيتا، وقلبه يحدثه بأن خطباً جللاً لا ريب واقع.

سرت في بدن سيتا قشعريرة الفزع حين سمعت نداء راما، وصاحت: "أي أخي لكشمانا، هذا راما يستغيث بك! فأسرع إليه. العجل! العجل! فلا بد وأن العفاريت اللعينة

تهاجمه. فاسرع إليه بالنجدة." ولكن لكشمانا الحصيف آثر الحذر لئلا تضلله العفاريت. ورد على سيتا حينذاك قائلاً: "إن ذلك لا يمكن أن يكون صوت راما؛ فلا بد من أن يعود بعد حين حاملاً الغزال الذي تتوقين إليه. ذلك أن لراما قوة لا قبل لأحد بها، ولا يمكن أن يقهره كائن على الأرض، وليس من شيمته أن يطلب المساعدة من أحد. ثم كيف لي أن أدعك وحيدة في هذه الغابة المخيفة؟"

فصرخت سيتا، عندئذ، بلكشمانا، وأسمعته أقسى الكلمات؛ وغدت هذه المرأة الرقيقة العذبة في لحظة موجة عاتية من الغضب والثورة، وأخذت تندب: "وا أسفاه! وا أسفاه! ما هذا الذي أسمعه إلا كلمات يقصد بها خداعي. إن تلك هي خطيئتي، فقد كنت حمقاء إذ توقعت من أخ غير شقيق أن تستنهضه الحمية فينجد أخاه!" وتوقفت لحظة، ثم عادت تصرخ وعيناها تقدحان شرراً: "أيها الجبان! أنت وصمة عار في جبين أهلك! إنك تستمتع بمصاب راما، أليس كذلك؟ وكل ما عرفناه منك كان تكلفاً واصطناعاً! تزعم أنك تنشد مساعدته، بينما تراودك نحوي الشهوة الآثمة. فاعلم، يا لكشمانا، أن حيلك ما عادت تجدي. أتظن أني يمكن أن أرغب بك، وراما ذو البشرة السمراء المشوبة بالزرقة زوجي؟ إنني لأؤثر الموت على هذا. إن البحث عن راما واجب عليك! فهيا امض وابحث عنه، وإلا قتلت نفسي بيدي، إن لم تفعل!"

ولقد كان لتلك العبارات أشد الوقع في نفس لكشمانا، وشعر بقلبه يعتصره الألم، لما سمع، فاطلق زفرة، وقال: "ألا فاشهدي أيتها الأدغال! ألا فاشهدي أيتها الأشجار! اشهدي يا مخلوقات البرية، ويا أيتها الطيور أن سيتا تلومني لأمر لا ذنب لي فيه، وتطلب مني أن أترك المكان، وإني لمطيع لها أمرها. لتشهدوا أن العاقبة ستكون وخيمة، ذلك هو يقيني، ولكني لا أملك حيلة في هذا الأمر!" وقام بعد هذا فرسم حولها دائرة، وقال: "انظري! لن ينالك شر ما دمت داخل هذه الدائرة السحرية. فناشدتك ألا تتجاوزي حدودها حتى أعود إليك." ثم حيا سيتا وغادرها بقلب مثقل، بينما كان رافانا يقبع منتظراً لانتهاز الفرصة والانقضاض على المرأة على حين غفلة.

اقترب رافانا متخفياً في زي زاهد فقير من سيتا الجزعة الحزينة، وقد اغرورقت عيناها بالدموع؛ وبدا للناظر بلحيته البيضاء، ورداثه الأصفر بلون الزعفران وجعبة الطعام تنسدل من كتفه، شيخاً طيباً زاهداً لا يشغله أمر من أمور الدنيا، وليس في قلبه أثر من إثم. ولكن من يمعن النظر كان يرى في عينيه بريقاً ينم عن جشع صاحبهما، حين ينظر إلى سيتا ويتملى جمالها. ولكنه كان يحسن التظاهر بالفقر والاستجداء، فصدقت المرأة دعاواه ورثت لحاله حين شكا لها شدة جوعه، فحملت إليه سيتا صحناً من الفاكهة الطازجة، وهي الطعام الوحيد المتوفر لديها وقدمته مرحبة بالضيف، داعية إياه للدخول وتناول ما توفر حتى يأتي راما المضياف الذي يسره أبداً استقبال الضيوف. وسألته، عندئذ، عن موطنه واسمه، فأجابها إجابة الخبيث الماكر: "اعلمي، يا سيدتي، أني أمضيت حياة صارمة في هذه الأدغال، آخذ نفسي بالشدة لأكون جديراً بالارتقاء إلى مراتب الزهد. وبهذا عُرفت بين النساك؛ فأنا أدعى رافانا، وأخي إله الثروة كوفيرا؛ ويثلج قلبي أن أرى طلعتك البهية، وأتذوق من هذه الفاكهة التي تقدمينها، لولا أن عهد الفقر والسؤال الذي أقسمت عليه يمنعني من دخول البيوت." وانتاب سيتا لهذا الرد شعور بالضيق؛ فهي لا تقوى، حسب وعدها للكشمانا، على الخروج من البيت لتقدم ضيافتها، بينما هناك خارج البيت شيخ من أهل الحظوة يتضور جوعاً، وهو بأمس الحاجة للطعام. ورافانا في هذا كله يقف متلهفاً منتظراً أن تخطو خطوتها خارج البيت: "هيا، أسرعي إلي بالطعام، أي سيدتي الرقيقة؛ فقد تملكني الجوع، وما عاد بوسعي الانتظار"

وأخذت سيتا تمعن النظر في الأمر، وحدثتها نفسها أن راما سوف يتضايق بلا ريب إن مضى هذا الزائر الكريم، ولم تقم بواجب الضيافة نحوه، فذهب وهو على الطوى. فكان أن نسيت بين تلك الخواطر الوعد الذي قطعته للكشمانا، فتخطت، دون وعي، الخط الذي رسمه، وبيدها صحن الفاكهة. وكانت تلك اللحظة التي ينتظرها رافانا، فاندفع وأمسك برسغيها بقبضتيه.

ولقد أخذت سيتا بالمفاجاة، وأخذت تصرخ بالوغد وتنذره وأهله بالفناء. ولكن رافانا لم

يكن بالذي يبالي بتهديد أو وعيد: "أنا يا سيتا ذو الرؤوس العشرة، صاحب لانكا؛ وملك الراكشا العفاريت! أنا من له عشرون ذراعاً وعشرون عيناً وعشرة وجوه. أنا ذو القوة والجبروت، قطعت الغابات كلها في زي الزاهد من أجلك أيتها الجميلة، فاطيعيني وكوني زوجاً لي فتسعدي! فلسوف أنزلك في قصر من الذهب المرصع بالدر والجواهر في أرض لانكا وسط البحر، والتي لا يملك أن يقترب منها إنسان. وأين هذا الكوخ، يا جميلة، من ذاك القصر الذي ينتظرك! هناك ستنالين من نعم العيش ما لم يكن لتحلمي به، من خدم وحشم ووصيفات، فتغدين ملكة تامرين وتنهين. وإن كنت تتوعدينني براما، فاعلمي أن العوالم الثلاثة ترتعد أمامي، فأين صاحبك راما مني، وهو عندي لا يزيد على دودة حقيرة! فهذا إنسان عادي، ضعيفة ملكاته، قصيرة حياته، فلا يستحق سوى السخرية والهزء. أما أنا، رافانا، فلي الحول والقوة، وأنا لا ريب من المخلدين." وكان ملك العفاريت يجري حديثه بلهجة ملؤها التيه والغرور، ويريد بها أن يستميل إليه هذه المرأة الجميلة الفتية الواقفة أمامه.

صاحت سيتا وقد امتلأ قلبها غضباً: "يا لوقاحتك! كيف تجرؤ أيها القبيح، الزنيم، على أن تتحدث أمامي بهذه اللهجة. أما بلغك أمر راما، أشجع الرجال وأكرمهم، وما أنت بالمقارنة معه إلا ضبع وضيع. واعلم، إذن أني سيتا، زوج راما، وابنة جناكا ملك ميثيلا، وكان حماي درة الملوك دشاراتا. ولقد سمعت منك هذا الحديث، وها إني أعدك بأسوأ مصير لوقاحتك وحديثك الآثم."

وللتو نفض رافانا عنه هيئة الشيخ الزاهد، وظهر أمام المرأة بهيئته الحقيقية، مارداً ضخماً مخيفاً، وأخذ يدير رؤوسه العشرة ويصر بأسنانه ضيقاً ونزقاً مما يسمع من عباراتها، ثم مد ذراعيه العشرين وامسك بسيتا، التي كانت ترتجف من الخوف، وحملها على كتفه. وأخذت المرأة تصرخ وتصيح بصوت المبتهلة: "أين أنت، يا راما، أي سيدي ومولاي؟ وأين أنت، أيها الأخ لكشمانا؟ ألا اغفر لي تلك العبارات التي نطقت بها، في لحظة نزق وطيش. ألا انقذاني من هذا الوحش الذي اختطفني. النجدة! النجدة!" ولكن تلك

الصيحة ضاعت في الهواء، بينما كان رافانا يسرع بأسيرته وهي تصارع لتفلت من قبضته، طائراً بمركبته، بعيداً عن الغابة، قبل أن يدركه راما.

وأخذت سيتا تبكي وتجاهد وتصرخ: "أصغ أيتها الآلهة وأخبري راما بأن رافانا قد اختطف سيتا، وانت أيتها الأشجار وعرائش الغابات أخبريه بما شاهدت من محنة سيتا!" وصارت ترمي بحليها وزينتها، واحدة تلو الأخرى، عل راما يقع عليها فتشير إلى مكانها، ورافانا يحاول أن يهدئ من روعها بالكلام المعسول، وهي لا تنقطع تبكي وتنوح نواحاً يقطع نياط القلب، وتنادي تسأل النجدة.

كان الطائر جتايو يغط في نوم عميق، حين كانت الأحداث تدور. ولكن أذنيه التقطتا، وهو في نومه، استغاثة سيتا، فصحا ابن غارودا من غفوته، ونفض عنه النوم؛ ضرب بجناحيه وصفق وأنشب مخالبه وتحسس منقاره، وكأنما لم ينل الهرم من قوته شيئاً، وتهيأ بجسده الضخم، وأسرع محلقاً في السماء، يرصد بعينيه الحاذقتين ما في الفضاء، حتى وقع على سيتا في عربة رافانا، وتبينه إلى جانبها، فانحدر نحوه فارداً جناحيه الهائلين، وأوقف عربة ملك العفاريت؛ وصاح به: "يا للآثم! كيف تجرؤ على اختطاف سيتا؟ ماذا نالك من راما لتجرؤ على هذه الفعلة. فهو لم يطمع ببلدك لانكا الجميلة. أما شربناخا فقد حصدت ما زرعت يداها، فإن جُدع أنفها وقطعت أذناها فلسوء أفعالها. ولكن ها أنت ذا تخطف كنة دشاراتا الصالح. وعهداً لولا أن الهرم نال مني، لكنت قد حطمت رأسك مستودع الإثم وهشمته كما أهشم ثمرة يانعة." ثم ضرب بجناحيه العظيمين العربة وزينتها وأعمل فيها منقاره الحاد فإذا بها تصبح حطاماً. وعاد يحلق بعدئذ وينقض وينشب مخالبه في ظهر رافانا ويمزق لحم بدنه. ولكن رافانا تمكن من الإفلات من جتايو والهبوط فحط على الأرض، وسيتا بين ذراعيه مغشياً عليها، وجرد سيفه البتار وضرب به الطائر الشجاع.

ولكن الصراع استمر بين ملك العفاريت وجتايو بلا هوادة، والطائر العملاق يحاول إطالة أمد المعركة، أملاً بنجدة من راما وإنقاذ سيتا من براثن رافانا. وهكذا ظلت المعركة تدور، حتى أنهك جناحا العجوز، وأخذ نظره يضعف والدماء تسيل على وجهه. وكان رافانا

يجهد بالمناورة لينهك خصمه فيداور ثم ينقض بشراسة، إلى أن حانت لحظة اقترب فيها جتايو وجانب الحذر، فوجه رافانا ضربة إلى جناحيه فاختل توازنه وسقط مضرجاً الأرض السمراء بدمائه الحمراء القانية. وأخذت سيتا تبكيه مر البكاء، حسرة على حاميها الطائر الشجاع، وهي تراه يذوي. وكان ما سمعت من الطائر الشهم: "اثبتي يا سيتا، ولا تبكي، ولك مني أن أصمد حتى أرى راما وأخبره بأمرك!" ورأى الطائر رافانا يهم بسيتا ويحملها بين ذراعيه الداميتين ويحلق بها طائراً بقواه السحرية في أعالي السماء، يسابق الريح، خشية أن يفاجئه راما في أي لحظة.

وظل رافانا يطير على هذا النحو حتى بلغ جبال الريشياموك، فاضطرته قممها العالية للإبطاء. وصادف أن كان ملك القردة سوغريفا وأصدقاءه نالا ونيلا وجوباخا ومعهم هانومن ابن إله الريح، في تلك اللحظة، يتجولون في تلك الأنحاء. وقد بدوا لسيتا حين مرت فوقهم أشبه بطيور ضخمة. وصاحت سيتا حينئذ بسوغريفا عله يسمع نداءها: "اسمعني أيها الملك العظيم! إني سيتا زوج راما، أرمي إليك بمنديلي وحليّ هدية مني إليك. فإن التقيت راما اخبره بان رافانا قد اختطف سيتا." فالتفت هانومن نحو سوغريفا، قائلاً: "أفلا نلقن رافانا درساً؟" ولكن رافانا كان قد سمع تلك العبارة لحظة ان قالها هانومن فأسرع مبتعداً عن الجبال، ثم سرعان ما ضاع أثره في الفضاء الواسع.

وظل ذلك الوحش ذو الرؤوس العشرة يطير نحو الجنوب، وعندما حلق فوق الجبال الشامخة، أخذت سيتا تجهش بالبكاء.

وفي غضون ذلك كان سوبارسا بن سمباتي ملك الكواسر يجوب السماء الواسعة، فبلغت أذنيه صيحات سيتا، فأسرع نحوها، وكان من اليسير عليه أن يقضي على رافانا بفضل ما له من قوة البدن وحدّة المنقار والمخالب، لو كان يعلم أن عمه لقي حتفه على يدي هذا الملك العفريت الغارق في الشر. ولكنه اندفع نحوه، مع ذلك، فاغراً فاه، يريد الانقضاض عليه؛ ولكن النسر الكاسر سرعان ما توقف عن اعتراضه حين وقعت عيناه على سيتا في غشيتها بين ذراعي رافانا. وكان ما حال دون متابعته الهجوم على رافانا ما رآه من

انشغاله بسيتا، وهي مغشي عليها، فابت عليه نفسه أن تكون امرأة ضحية له، لأن قتل المرأة عنده إثم. ورأى رافانا، في تلك اللحظة، أن جهوده لا بد ضائعة إن لم يتدبر أمره مع هذا الخصم الهائل في السماء حيث له اليد الطولى في النزاع. فلجأ إلى المصانعة والدهاء، وتظاهر بالضعف، فعرف بنفسه بانه رافانا من لانكا، مسالم لا شأن له بعداء الآخرين، إنما يشكو ما لحقه من الإهانة من راما، حين جدع أنف أخته الحبيبة وقطع أذنيها، وقد اختطف زوجه جزاء وفاقاً لما أتت به يداه. ومضى في حديثه فاطنب في مدح قوته التي تشهد له بها العوالم الثلاثة، وأقر له بالهزيمة راجياً منه أن يفسح له ملك الكواسر العظيم الطريق ليتابع رحلته إلى لانكا. ولقد وقع حديث رافانا موقعاً حسناً عند سوبارسا، فانسحب وأخلى له الدرب، وسيتا جاهلة بما جرى ويجري، بتأثير من فزعها وهي تنظر إلى مياه البحر الزرقاء تمتد من تحتها بلا بداية أو نهاية. وتساءلت المسكينة في خلدها، وهي ترى هذا المشهد كيف يمكن لراما أن يقطع هذه المسافات ليأتي لإنقاذها؟ وعادت تمزق قلبها الأحزان والذعر الذي انتابها، وفي لحظة اصابها الإغماء من جديد، بينما كان رافانا يزداد حبوراً وتتعاظم سعادته، حين أصبح بلده الحبيب لانكا في مرمى النظر.

بعد أن حلق رافانا وقطع البحار، بلغ أخيراً لانكا. وبرزت عندئذ أمامه المشكلة: أين يودع سيتا؟ وألح عليه الخاطر بان يعمل على قتل راما ولكشمانا، وقد باتا عدوين لدودين له، وتأكد له أنه لن يهدأ لهما بال حتى يكون القضاء عليه. وزاد من مخاوفه حضور الحراس العفاريت الذين يقيمون على حراسة لانكا، وهم يرتعدون جزعاً، وكشفهم عما يراودهم من القلق من احتمال هجوم راما على لانكا، وقد بلغهم عن باسه ومقدرته على إنزال مقتلة بابناء جنسهم الكثير الكثير، فكيف لهم بمواجهته ولكشمانا أيضاً!"

وصاح فيهم رافانا: "عار عليكم يا قوم أن تخشوا مجرد إنسان واحد، وأنتم أربعة عشر! فهيا انصرفوا من أمامي، وليلتفت كل منكم إلى مهمته!" وكان ملك العفاريت ذو الرؤوس العشرة ينتفض غضباً، وهو يتحدث إلى اعوانه، وكاد يعسف بهم من شدة ثورته، فاسرعوا بالخروج، وتهيؤوا لهجر لانكا. أما رافانا فقد ألحت عليه مسالة سيتا وإقامتها. وكان جل

مناه أن تقبل بالعيش في قصره إلى جانب زوجاته الأخريات. وكم حاول إقناعها بالعيش معه في ذلك القصر العظيم الذي لا يضاهيه قصر في العوالم الثلاثة، ولا يقوى كائن على الاقتراب منه إلا بإذنه، فلانكا ذاتها قلعة حصينة تحيط بها البحار من كل جانب، ولا يدخلها أهل السماء، بل ولا أهل مملكة الظلام أيضاً. وكم من بنات هؤلاء هن في خدمته، ويغدون إن رضيت رقيقاً في قصرها. وكان يزيد في عروضه كلما واجهته بالصدود، فيقدم لها خزائنه وكنوزه من الجواهر والأحجار الكريمة، حسبه منها أن ترضى به، حتى يجعلها في أعلى مقام، وعاهدها على أن يكون هو ذاته خادماً مطيعاً لها، في كل أمر، وتكون هي صاحبة الأمر والنهي في لانكا. ولكن تلك العروض لم تكن لتزيد المرأة إلا ممانعة وصداً. وكان قد أسرف ذات مرة في استجداء العطف منها، وهي لا تبدي له إلا الإعراض والنفور، وما وجد حيلة معها إلا أن يخر على ركبتيه ضارعاً أن تنسى بؤسها وضيقها، وتبتسم وتنظر إليه نظرة حانية، فيكون لها قصره وقلبه. فلما لم يأنس منها عطفاً أو ليناً، حملها في نهاية الأمر، إلى غابة بعيدة تنمو فيها أشجار الأشوكا العملاقة ذات الزهور الحمراء كاللهب، وتركها في عهدة مجموعة من إناث الراكشا الرهيبات، اللواتي استقبلنها بابتسامات تكشف عن أسنان كأنياب الضواري واستلمنها بأيد أصابعها كمخالب الكواسر. ولقد حاولن أن يذرعن الخوف والذعر في قلبها ليتحول فؤادها إلى رافانا. ومن بينهن كانت شربناخا المخيفة، التي أضنى الحقد قلبها، وودت لو استطاعت أن تمزق أحشاء سيتا، لولا خوفها من غضب رافانا، فاخذت بين التهديد والوعيد تسومها العذاب.

كانت الكواكب البراقة ترقب من عليائها في السماء كل ما كان يجري باهتمام وقلق. فلما حُملت سيتا إلى غابة أشجار الأشوكا تداعت إلى اجتماع للتداول في المجمع وسيلة للتدخل في هذا الوضع. وكان الرأي عند براهما أن أفضل الخطط مآلها إلى الفشل، إن لم تنل سيتا الغذاء اللازم، لتصمد وتثبت في وجه المحن. فطار ملك السماء إندرا إلى لانكا، وفق هذا الرأي، ليقدم لسيتا صحناً من الفضة فيه من طعام الآلهة.

وسألته سيتا، يحدوها الحذر، كيف لها أن تطمئن إلى أنه إندرا كما يزعم، أفلا يكون

من الراكشا، خاصة، وهو في مملكة العفاريت؟ فتجلى إندرا بهيئته العلوية لحظة لتتيقن الأسيرة من حقيقته، وقال: "لا باس عليك يا سيتا! حسبك أن تتناولي هذا الطعام الرباني، ولن تعرفي بعده الجوع أو العطش. واطمئني! إن راما ولكشمانا في طريقهما إليك. ولسوف تكون خاتمة أحزانك قريبة."

أخذت سيتا الصحن، وتناولت شيئاً منه، ولكن كان في ذلك مشقة كبيرة، فلم تكن لتستطيع أن تبتلع لقمة الطعام من شدة الحزن واختناقها بالعبرات وأخذ إندرا يهدئ من روع المرأة، واعداً بانه سياتيها برحيق رباني كل يوم، لتكتسب قوة وجلداً؛ ثم غادر سيتا حزينة دامعة العينين، لا يخفف من مصابها، سوى ذكرى راما الحية في قلبها.

***

أسرع راما بالعودة إلى كوخه، تاركاً جثة ماريخا في العراء. ولاحظ بشيء من القلق والحذر أفعى تزحف إلى يساره وضبعاً يسير إلى يمينه، وكان اجتماع هذين على هذا النحو إشارة تنبئ بشر قادم؛ فتذكر عندئذ صيحات ماريخا، وتمنى من صميم فؤاده ألا يكون لكشمانا قد خُدع بها، إذ كان على قدر عظيم من النباهة والحكمة تسمحان له بكشف زيف التقليد، وتجعلانه يثبت في مكانه، ولا يدع سيتا وحيدة في الغابة.

وأخذ راما يتضرع إلى الآلهة أن تحفظ سيتا من السوء في ذاك اليوم، ثم أسرع الخطى قاصداً البيت ليطمئن على سلامة زوجه وأخيه لكشمانا. ولكن ما إن قطع مسافة حتى تسمر في مكانه واجفاً؛ فقد رأى على مرحلة منه لكشمانا قادماً عدواً يسابق الريح، ثم ما هي إلا لحظة حتى كان راما نفسه إلى جانبه.

صاح راما يسأل أخاه عما جعله ياتي وحيداً، دون سيتا؟ ثم أين هي الآن، وقد تركها في عهدته؟ وداهمه عندئذ شعور بانه فقدها إلى الأبد! ثم ما الذي دفع به، بعد، ليعرض عن كلماته؟ إن الغابات الحافلة بالعفاريت الضارية الفالتة من عقالها، أفما كان حرياً به أن يأخذ بنصيحة النساك في تلك المرابع والتزام الحذر. فكيف خطر له أن يدع سيتا وحيدة؟ ولقد

جاء ماريخا متخفياً لاستدراج راما بعيداً عنها.

استولى على لكشمانا شعور طاغ بالحزن والأسى، وراح يعرض لراما ما وقع منذ أن غادر الكوخ. فأسرع الأخوان دون مزيد من الكلام إلى كوخهما الصغير عند ضفة نهر الجودافاري. وراح راما يصرخ منادياً سيتا، بصوت مختنق بالعبرات، دون أن يجد من يلبي النداء. وانكفأ راما يبكي، وهو يقول: "أي لكشمانا، كيف لي أن أعيش بعد اليوم دون سيتا إلى جانبي؟" وعاد الأخوان يبحثان عن سيتا مرة بعد مرة في أرجاء الغابة، إنما عبثاً!

قال راما لأخيه: "لعل سيتا مختبئة تمازحنا، ثم تعود فتظهر، ونعود إلى صفونا من جديد! أو لعلها ذهبت لزيارة زوج أحد الزهاد الصالحين؛ أو ربما مضت لتقطف بعض أزهار اللوتس من النهر!" وهكذا كان راما يتأرجح بين اليأس والأمل، ويمضي وأخوه في استقصاء اثرها! وكان لكشمانا لا ينقطع طوال الوقت عن مواساة راما، لئلا يستسلم للحزن والقنوط، فهما لا ريب سيعثران عليها في نهاية المطاف.

واستمر الأخوان في بحثهما عن سيتا، وكانت كل مرحلة تؤدي بهما للتوغل أكثر في الغابة؛ ثم إذا بهما يريان عن بعد طائراً ضخماً ينزف دماً، وجناحاه واقعان على الأرض، لا يقوى على الحراك. ولقد ظن راما أن هذا الطائر من الراكشا، وما اللون القرمزي الذي صبغ منقاره إلا من اثر سيتا حين ابتلعها. فاندفع في ثورة الغضب الذي عصف به يريد تمزيق الطائر، لولا ان حال لكشمانا دونه، فامسك به وهدأ من ثورته، مشيراً إلى أن هذا هو جتايو، صديق ابيهما. والأجدر به أن يتمالك نفسه، فلعله يحمل خبراً عن سيتا. وشاهدا وهما يقتربان من الطائر الجريح حطام عربة واسلحة متناثرة في كل اتجاه على الأرض. فأسرعا عندئذ إلى جتايو الذي كان يسبح في بحيرة من الدماء. وسمعاه يتمتم ويبدي أسفه لأنه عجز عن إنقاذ سيتا، وإن قاتل رافانا وصارعه ولكن عبثاً! وتابع بصوت متحشرج: "ها إن العالم أصبح مظلماً. وكان علي أن أموت قبل حين، ولكني تشبثت بالحياة لأروي لكما ما حدث، وما كان من امر سيتا!"

واندفعت الدموع غزيرة من مقلتي راما وهو يحمل الطائر ويضمه إلى صدره، ويسأله صارخاً: "ومن هو رافانا هذا؟ وما هو بلده، أين يقع؟ وما هيئته؟ ولم يقصدني بهذا الشر؟ وماذا قالت سيتا؟"

وأجابه جتايو بصوت متهدج: "قد أزفت الساعة، أي بني، وما عدت أقوى على الكلام. ولكن اعلم أن رافانا كان يقصد الجنوب، وهو أخ لكوفيرا. وحسبك ما علمت!" وشهق الطائر الشجاع شهقة قوية، ثم تدفق الدم من فمه، وقضى.

وبكى الأخوان جتايو مر البكاء، واستذكرا مآثره والصداقة التي جمعته بأبيهما، ونهضا بعدئذ وقاما بالطقوس كما تجب للصديق العزيز، فسجيا جثة جتايو على منصة وأوقدا النار تحتها، حسب الأصول. فاشتعلت النار وارتفعت السنة اللهب وأتت على جثمان الطائر النبيل، فحمل الأخوان الرماد وألقيا به في النهر، بينما كانت روحه تحلق بجناحيها نحو خالقها.

وأخيراً حل الليل وأرخى سدوله، وعاد الأخوان وقد نال منهما الحزن والأسى إلى كوخهما الخاوي. وعاد راما يذرف الدمع من جديد، مثقل القلب، من فرط الحزن على سيتا، وهي التي كانت سلواه في منفاه، وتخفف من أسقامه، بل من أثر قدره القاسي، بابتسامتها، فيُسعد بجانبها. وكان عهده بها طيبة النفس، رضية، صادقة، جميلة. وها هو ذا يفقدها بحماقته. وتساءل في ذات نفسه عما حمله على تجاهل تحذير لكشمانا من ان يلحق بالغزال؟ وما حفزه على مطاردة ذلك المسحور؟ وأي عذاب تلقاه سيتا الآن في محنتها؟ وهكذا أمضى الليلة مؤرقاً، مسهداً تحت وطأة القلق وذكرى سيتا. فلما أشرقت الشمس في الصباح الباكر حمل سلاحه واتجه صوب الجنوب، ولكشمانا في صحبته، ليبدءا بحثهما عن سيتا الحبيبة.

وهكذا ضرب الأخوان عصا الترحال في تلك الأرض، وقطعا الفيافي والقفار، حتى بلغا بقعة كثيفة بأعشاب الكوشا، فصارت قاتمة كئيبة. ووجدا هناك الأسود والنمور والجاموس

البري يسرحون ويمرحون، وراود الأخوين حينئذ شعور بأن الغابة مسكونة بروح شريرة. وجلسا بعدئذ يستريحان من عناء الرحلة، في فيء إحدى الأشجار، ثم قررا أن يغادرا هذه المتاهة دون تأخير. وبينما هما في هذا الحديث إذا بذراعين هائلتين تمتدان إليهما من مكان مجهول وتمسكان بخصريهما، فأصابهما الذعر من هذه المفاجأة، ثم سمعا صوتاً، رهيباً مجلجلاً يصيح بهما: "ما الذي أتى بكما إلى هذه الغابة؟ ولكن مهما يكن فإني عازم على أن أجعل منكما طعاماً لي، في التو واللحظة!"

وكان المتحدث كابندها العفريت الذي لا مثيل له بين العفاريت، طويلاً ضخماً كأنه جبل شاهق يبلغ عنان السماء، إنما بلا رأس، ومن بطنه الضخم يظهر فم واسع يتسع لما شاء تبرز منه أسنان ناتئة. وكان يسند ذلك البدن الهائل ساقان مكتنزتان قصيرتان، ومن الجسم المخيف كانت تمتد ذراعان لا حدود لطولهما. وكان لا ينقطع يصدر بين الحين والحين ضحكة رهيبة يتردد صداها في أرجاء الغابة كلها.

فقال راما هامساً للكشمانا: "هيا! علينا بيديه، فلنقطعهما، فنتخلص من قبضته." وبسرعة البرق كان الأخوان قد جردا سيفيهما وضربا يدي العملاق الضخمتين اللتين كانتا تمسكان بخصريهما. فصرخ العملاق صرخة هائلة، وصار يتلوى من شدة الألم والغضب، وأخذ يصيح: "من أنتما؟ ومن أي أرض أتيتما؟"

وجاءه الرد: "هذا راما ملك العالم، وأنا أخوه لكشمانا، ولدا الملك دشاراتا، جئنا إلى الغابة منفيين وفاء لوعد قطعه والدنا. ولكن من تكون أنت؟ وإلى أي قوم تنتمي؟"

وبدا أن عقل كابندها بدأ يصفو، وهو يحتضر. وأخذ يستذكر ماضيه شيئاً فشيئاً، وهو يفقد حياته الآن: "اعلما، إذن، أني كنت من الجن، وأدعى كوفير، وقد بلغت من الجمال ما يفوق الوصف وهو ما جعلني مغروراً وقحاً، أسير تيهاً بين أقراني، فأستخف وأهزأ بهم. ولقد تماديت في الغي حتى نسيت موقعي فأخطأت بحق أحد الزهاد، فغضب وأنزل بي لعنته بأن أفقد رأسي وأصبح مثالاً للقباحة، ولا أبرأ من حالي حتى يصيبني سهم من فيشنو

حين ينزل إلى الأرض، في صورة راما. إن شكلي لقبيح ومأكلي قذارة. أما الآن فقد تخلصت من تلك اللعنة. ولعلي أنال البركة إن استطعت أن أعينكما في مسعاكما، فاخبرني، أي راما، ما الذي يحملك على التجوال في هذه الغابات؟ وما هو شاغلك."

رد راما: "قد اختطف رافانا الشرير محبوبتي سيتا، وغرضي أن أخلصها من براثنه. فهلا أرشدتني إلى طريقة لإنقاذها؟" شهق العفريت شهقة قوية، وقال: "إن بصيرتي تضللني، إلا إن حررتني من هذا الجسد الحقير، وعندئذ أستطيع أن أكون معيناً." وكان الدم، وهو يقول هذا، يتدفق من جراحه، وأخذ الموت يغشى عينيه شيئاً فشيئاً.

فقام لكشمانا الشجاع بإيقاد النار، ثم أحرق جثة كابندها الهائلة، فالتهمتها ألسنة اللهب، ومن الرماد انتصب رجل متالق نوراً. قال هذا المنير وهو يرتقي إلى السماوات العُلى: "اعلم أي راما، ولكشمانا، أن هناك في جبال الريشياموك سوغريفا، ولديه هو الخبر اليقين عن سيتا."

باتا ليلتهما في أرض الكوشا، ثم وفي الصباح الباكر غادر الأخوان تلك المنطقة وانطلقا نحو جبال الريشياموك، وصادفا في طريقهما نهر البمبا. وهناك شاهدا ما لا يحصى من الطيور ذات أعراف وذيول زاهية الألوان، والغزلان ترتع وترعى سعيدة في مراعيها، والبجع ينزلق على سطح الماء، والفراشات تطير وتحط وتطوف كسلى في الهواء المعطر بأريج الأزهار. وعاد قلب راما يتوجع من جديد. كان العالم يبدو جميلاً بهياً، ولكن أين هي الغالية سيتا لتكتمل روعته.

ومضى راما ولكشمانا، بعد راحة قصيرة، وتابعا المسير حتى شاهدا عن بعد صومعة لأحد النساك، فقصدا ذلك المكان، وفيه قابلتهما امرأة عجوز، وعلما أنها من حواريي الحكيم الزاهد ماتنجا؛ وقد انقطع هذا عن الاتصال بالعالم واعتكف في خلوته للعبادة والتأمل، وهو الذي كان قبل رحيله عن العالم قد أوصاها بالبقاء في ذلك المكان، لتكون في استقبال الإله فيشنو وأنبأها بأنه سوف يطرق درب الصومعة وينزل فيها بهيئة راما. ولقد

ظلت تلك الزاهدة تقيم طوال تلك السنين بانتظار أن يطل عليها بطلعته المشرقة.

وكانت الزاهدة قد أخذت تعد لاستقبال راما قبل عهد بعيد، وهي صبية بعد، بأن أقامت له بوابة خاصة من أشجار الموز تخيم عليها أوراق شجر عَطِر تبدلها كل يوم لتظل ترسل روائحها الزكية إلى اليوم الذي سيطل فيه هذا الفذ. وقد دأبت على أن تقف كل يوم ترصد بعينيها المنهكتين الآن قدوم راما حتى لاح لها هذا المبارك عن بعد، فوقفت تنتظر إلى جانب أواني الماء لتستقبله بها مع عقود الأزهار والثمار اليانعة التي دأبت على قطفها منذ أن أخذت تخطو على طريق الشيخوخة. وها هو ذا يظهر أمامها، أخيراً، هذا الرجل الذي نشأت على إجلاله منذ أن علمت بوجوده، وهي ما تزال، بعد، في ميعة الصبا! ولقد استقبلت العجوز ضيفيها بأعظم الحفاوة والتكريم، وقدمت لهما الثمار اليانعة كعهد القوم بالضيافة. ثم قادتهما المرأة بعد استراحة من عناء الطريق، وجالت بهما في أرجاء المعتكف، وروت لهما ما حدثها به الناسك الحكيم ونبوءته قبل عهد طويل بقدومهما. وقالت في نهاية المطاف مخاطبة راما: "ها قد تمت، يا سيدي ومولاي، مهمتي، وما عاد لي من مهمة في هذه الحياة. ونعم الخاتمة هذه!" وودعتهما مشيرة إلى جبال الريشياموك.

السفر الرابع

كيشكيندا

بعد مسيرة طويلة صعد فيها راما ولكشمانا الكثير من التلال واجتازا العديد من الوديان، وصلا في النهاية إلى جبال ريشياموك، التي ظهرت أمامهما بقممها الشاهقة ومنحدراتها الشديدة. وسرعان ما تسلقا إحدى هذه القمم، وهناك بلغا ملجأ سوغريفا ملك القردة الهارب وأصدقاءه الأربعة. ولما وقع نظره عليهما صاح برفاقه فزعاً: "انظروا إليهما لا ريب أنهما جاسوسان أرسلهما الملك فالي في إثرنا." فوثب مرافقوه الذين أصابهم الهلع إلى أقرب الأشجار، وهوت بهم أغصانها المثقلة بالثمار والأزهار، فذعرت الحيوانات من شدة وقع الصدمة ونفرت في كل اتجاه. لكن القرد العظيم هانومن، ناداهم، محاولاً تهدئة روعهم: "علام الفزع والجزع، فليس هذا القادم فالي؟ وها إني ماضٍ لاستطلاع حقيقة هذين الرجلين."

فقال الملك سوغريفا: "يلوح لي أنهما من النساك، لولا أنهما يحملان أقواساً وسهاماً، فتراودني الشكوك في أمرهما."

كان هانومن يتمتع بالقدرة على تغيير شكله، فاتخذ صورة ناسك ودنا من الأخوين وسالهما بلطف قائلاً: "من أنتما أيها السيدان؟ لا بد وأنكما من أبناء الملوك! أو لربما كنتما كائنات خارقة يتصل نسبها بالشمس والقمر! أناشدكما أن تخبراني بما حملكما للقدوم إلى هذه الغابة؟ أما أنا، فهانومن، مستشار ملك القردة سوغريفا، أوفدني إليكما، مرحباً بكما، ساعياً إلى صداقتكما."

التفت راما إلى لكشمانا وقال له: " خاطبه يا لكشمانا، واطلب إليه أن يحمل تحياتنا إلى سوغريفا."

قال لكشمانا مخاطباً هانومن: "نحن راما ولكشمانا ابنا الملك دشاراتا العظيم، ونعيش الآن في الغابات تنفيذاً لعهد قطعه والدنا. وقد اختطف رافانا سيتا زوج راما، حين وجدها

وحيدة في كوخنا في الغابة. ولسنا نعلم أين حملها، وما مصيرها. غير أنه بلغنا أننا واجدان العون عند سوغريفا، وها نحن نبحث عنه لعلنا نعثر عليه فيساعدنا في أمرنا."

فأجاب هانومن، وقد بدت عليه علائم السرور: "لسوف يسعد سوغريفا بلقائكما، لولا أنه في كرب عظيم، بعد أن جرده أخوه فالي قبل فترة من الزمن من مملكته واستحوذ على زوجه، ثم نفاه. ولا ريب في أنه يستطيع بمساعدتكما الآن استعادة مملكته وزوجه، وبدوره سوف يعينكما على إنقاذ سيتا لتعود إليكما."

فقال راما: "إذن، هيا بنا إليه، فنحن متلهفان للقائه."

ما أن سمع هانومن قول راما، حتى تخاطر ذهنياً مع سوغريفا، وعرض له ما علم من أمر هذين الرجلين: "لقد صادفنا حظ عظيم أيها الملك، إذ جاءنا ولدا الملك دشاراتا ذي البأس والجبروت، وهما شابان قويان من ذوي العزيمة والبسالة، قدما ليعيناك على استعادة ملكك الضائع. وقد علمت أن رافانا اختطف زوج راما، وهو بحاجة لنجدة منا. فانزع عنك وجه القرد، ولتظهر وسيماً في هيئة البشر عند استقبال هذين الأميرين المتنسكين. إن القدر لطيف بنا حقاً إذ أرسلهما إلينا، فهيا ولتستعد للقائهما واستقبالهما الاستقبال اللائق."

استعاد هانومن شكله الأصلي فعاد قرداً ضخماً، وحمل راما ولكشمانا على كتفيه القويين وسار بهما مجتازاً النهر في طريقه للقاء سوغريفا. وحين وصولهم كان سوغريفا قد اتخذ شكل البشر، وهرع لاستقبال ضيفيه، وقدم لهما الماء العذب ليغسلا أقدامهما الملكية، ومعجون خشب الصندل المنعش والأزهار ذات الروائح العطرية. وحيا الأخوين بكثير من الإجلال والاحترام، ضاماً راحتي كفيه إلى بعضهما، كما يحسن أن تكون التحية، وقال وهو يحني رأسه تواضعاً: "لقد روى لي هانومن ما صادفكما، وما نالكما من رافانا. ولكما مني العهد على أن أبذل لكما كل عون، حتى يستعيد راما زوجه. ولتكن، يا مولاي، رؤوفاً بي فما أنا إلا حيوان من قبيلة القردة، ولست جديراً بأن أكون عبداً لك." لكن راما مد له يده اليمنى، تأكيداً للصداقة التي نشأت بينهما، وبذلك أصبح نداً له.

وعلى إثر ذلك، جلب هانومن الحطب وأوقد النار، وجلس الجميع حول النار المضطرمة، وقطع كل من سوغريفا وراما على نفسه العهد بأن يساعد أحدهما الآخر على استعادة زوجه. وكانت النار المقدسة شاهداً على هذا العهد. ثم جلسا يتجاذبان أطراف الحديث عن مآسيهما وما صادفاه من المتاعب والمحن. وفي أثناء ذلك قال سوغريفا لراما: "لا بد وانها زوجك سيتا، يا صاحبي، من رأينا قبل حين، فقد كنت أقف وأصدقائي على قمة هذا الجبل، ولاحظنا يومذاك جسماً غريباً يطير فوقنا على ارتفاع منخفض. وعرفنا حينئذ أن ذاك كان رافانا، ومعه سيدة ظاهر عليها الكرب. وقد رمت حليها ووشاحها فسقطت كالنجوم من السماء، فاحتفظت بما أسقطت وتلك هي، أتتبينها؟"

وفيما كان راما ينظر إلى هذه الأشياء المألوفة، حلي حبيبته سيتا ووشاحها، وجد نفسه قد استبدت به مشاعر واحاسيس لا يملك مقاومتها من الحزن العميق والغضب الشديد لجريمة رافانا. وانتابته رغبة في أن يجوب العوالم الثلاثة ليعثر على ذلك الشرير الآثم، وأن يقضي على الشياطين، ويستاصل شرورهم! إذ بمقدور قوسه الجبار ونار نباله الخارقة القضاء عليهم جميعاً! وأخذت عيناه تقدحان شرراً من الغضب، فاصبح مظهره رهيباً. ثم هتف: "تهيأ للحرب يا لكشمانا! فلن تهدأ نفسي حتى أتمكن من هذا العدو، ويتم لي القضاء عليه."

ولقد بذل سوغريفا كل جهد ليخفف من غضبه، فهدأت تلك النار التي كانت تضطرم في قلبه، وحل محلها شعور بالإشفاق على محبوبته سيتا في محنتها وما تعانيه من الشقاء. وكان مما قاله له سوغريفا: "الصبر والجلد، يا صاحبي! إن الطريق مسدود أمام رافانا، ولا مهرب أمامه. فلسوف أكون له وقردتي بالمرصاد، أينما ذهب أو اتجه. وسيكون ذبحه وعشيرته على يدي فلا تحزن. فالحزن يأتي بالحزن. وليس بمقدور الحزن أن يهزم الحكماء أبداً، لقد خسرت مملكتي وزوجي الملكة، وما انا إلا حيوان. لكنني لا أدع لعقلي أن ينصرف إلى التفكير في الخسارة. وحري بك، يا صاحبي، الا تتفجع لفقدان زوجك، على نحو ما أرى منك. فلقد اقسمت أمام النار المقدسة، ولسوف أكون عوناً لك على استعادة

زوجك، وإني لحافظ للوعد."

فأجابه راما: "واحسرتاه! لقد غلب عليَّ الحزن حقاً، يا صديقي، لفقدان زوجي، وليس ذلك لشك بعهدك؛ فأنا واثق من أنك ستساعدني في البحث عن سيتا. وسأبذل قصارى جهدي، بدوري، في مساعدتك."

فقال له سوغريفا: "هدئ روعك يا صديقي ولتصغ إلى ما سأقول، فسوف أروي لك القصة بأكملها." ونظر حواليه باحثاً عن مقعد يجلس عليه، فانتزع فرعاً مورقاً من شجرة السال وفرشه على الأرض، وجلس عليه وإلى جانبه راما، بينما اقتطع لكشمانا غصناً من شجرة صندل ليجلس عليه. وأخذ سوغريفا يروي قصته: "ظل فالي يعمل على مضايقتي ومطاردتي، وهو قوي ظالم، حتى أثار الفزع في قلبي، ثم نال من كرامتي بأن انتزع مني مملكتي واختطف زوجي. وكنت يومئذ عاجزاً عن التصدي له، مما حملني على اللجوء إلى هذه الجبال. ولكن القدر كان رحيماً بي، إذ أرسلك إليّ."

فأجابه راما: "لتطمئن نفسك! فلسوف يلقى فالي مصيره المحتوم، وتزول عنك الغمة. والآن قل لي ما الذي دفعكما للشجار وأنتما أخوان، وعلى من يقع اللوم في هذا الشقاق بينكما؟"

رد سوغريفا: "إليك القصة، يا ابن راغو! لقد كنا ولدي الملك أكشايا الوحيدين، ولا ثالث بيننا، ولما انتقل والدنا إلى السماء، ورث أخي الأكبر فالي المملكة. وكان فالي يومئذ مشهوداً له بالشجاعة وطيب المعدن. وكانت الأمور تجري على خير ما يرام، لولا تدخل القدر. إذ جاءنا ذات يوم اثنان من الشياطين، أحدهما دندابي والثاني ماغافي، وهما في هيئة الثيران، وذات ليلة جاء ماغافي وقد تهيأ للشر. فقابله فالي بتهوره وطيشه وأصر على قتاله مستخفاً برأي مستشاريه، وتهيأ للمعركة، وقد تبعته أنا حسب مشيئته، وعلى ضوء القمر قمنا بملاحقة العفريت، لكنه أفلت منا واختفى فجأة في نفق داخل الأرض. فأمرني فالي بحراسة المدخل، ليدخل هو النفق ويقضي على العفريت، بينما أبقى أنا لحراسة

المكان. ولقد توسلت إليه مراراً وتكراراً، الايفعل، ولكن عبثاً! فدخل النفق، ومضى عام كامل منذ ذلك اليوم، ولم يظهر فالي ثانية. ثم سمعت ضجة عظيمة من داخل النفق اهتزت لها الأرض. فحدثتني نفسي أن ذلك لا بد من عمل العفريت، وهو يقوم بقتل فالي، فجزعت أن يخرج من جديد، ويقتلني أنا الآخر، فاسرعت بإغلاق المدخل بصخرة ضخمة، وعند عودتي إلى الوطن أخذت بالبكاء والعويل من شدة المصاب، ثم قمت باداء الطقوس الأخيرة وفقاً لعاداتنا، وكان أن قام الشعب ونصبني ملكاً، خلفاً لأخي.

وفي أحد الأيام عاد فالي من جديد، وكان غضبه عظيماً حين رآني جالساً على عرشه، فوجه لي أقسى العبارات وأهانني أمام الجميع، ثم أخذ يندد بي قائلاً: "لقد ذهبت إلى أعماق الأرض لمحاربة العفريت وأبقيت سوغريفا لحراسة المدخل، إلا أنه أغلق المدخل واستولى على عرشي! وبعد أن قتلت العفريت أخذت أنادي وأنادي، لكن ما من مجيب. فما كان لي في النهاية إلا أن أركل الصخرة لأخرج من أعماق الأرض. فحق لي أن أقتله انتقاماً لما فعل بي." ولقد حاولت أن أشرح له ما حدث، وتوسلت إليه راجياً المغفرة، ولكن هذا كله ضاع هباء، فقد استولى عليه الغضب الشديد فلم يكن أمامي سوى الهرب، فلجأت إلى هذه الغابات طلباً للأمان، وما زلت في هذه الربوع، منذ ذلك الحين."

كان راما ولكشمانا يصغيان لسوغريفا باهتمام شديد. فقال راما في النهاية: "لا شك بأنك يا صديقي في ورطة عظيمة، لكن كيف تجرؤ على البقاء على مرمى حجر من بلدك، وفي متناول يد فالي."

فتابع سوغريفا حديثه قائلاً: "إذن سأروي لك ما جرى في جبال ريشياموك. إذ عندما علم العفريت دندابي بمقتل أخيه دخل غابات العسل التابعة لفالي، وهو في حالة من الغضب والهياج. وكان العسل يحفظ هناك ثم يخزن في أوعية التخمير الملكية. وقد اقتحم الغابة المحظورة وعاث فيها فساداً وعمل على قطع الأشجار وضربها بقرنيه، وسرعان ما أتلف الغابة الجميلة وأفسد العسل الموجود فيها. ولما بلغ الخبر الملك فالي، تأهب وارتدى درعه وأسرع لمواجهة العفريت. وعندما التقاه وجده وقد أسكره العسل فأخذ يخور، وغدت عيناه

حمراوين فقال له: "هيا اذهب! فليس من شأني مقاتلة من فقد وعيه. اذهب للنوم ليزول عنك أثر الخمرة، أيها السكيرا سادعك تستمر في الحياة اليوم، وفي الغد سنرى من الأقوى، فمآلك الموت غداً، ولا يخامرنك شك في ذلك." إلا أن دندابي الذي أعماه الغضب، نهض ونطح فالي، وأسال دمه، فكانت معركة طاحنة. وفي النهاية تمكن فالي من قرني دندابي وأخذ يطوح به في الهواء، ثم قذف به فوقع فوق الصخور، وتحطمت جمجمة ذلك المارد وتبعثرت عظامه هنا وهناك، ثم قذف بالجثة بعيداً بركلة واحدة من قدمه بينما تناثرت دماؤه في أرجاء المكان. وقد صادف أن كان في الجوار الزاهد مونتاغا موني، فأصابه شيء من دماء دندابي، وأفسد عليه تأمله، فغضب لذلك أشد الغضب، وقال لعنته: "لسوف يلقى حتفه من أقدم على هذه الفعلة، إن تجرأ وقدم إلى هذه الجبال." وقد أقلقت هذه اللعنة فالي وتكدر لها كدراً شديداً، فجاء إلى هذا الزاهد، ووقف على مسافة منه، كما يقتضي التواضع، وساله الصفح والمغفرة. فأجابه الحكيم: "إن لعنتي لا تزول، والأجدر بك أن تبقى بعيداً عن هذه الجبال." وهكذا فإنني مدين بهذا الملاذ الآمن إلى لعنة ذلك الزاهد. ولن يجرؤ على القدوم إلى هذا المكان، خوفاً من أن تناله اللعنة."

قال راما: "أما وقد علمت منك بهذا الخبر، يا صاحبي، فاطمئن إلى أنني سآتيك بخبر فالي، وأنه سينال جزاءه." ورد سوغريفا: "يا ابن الشمس، إن لفالي من القوة والبأس ما يفرض الحذر، فإن قصُر سهمك عنه، فلن يهدأ حتى يدركني ويعمل على قتلي."

فرد عليه لكشمانا قائلاً: "أراك تراودك الشكوك في قدرة راما. فاعلم، إذن، أن ليس هناك من يماثله قوة وبأساً، إن بين الآلهة، أو المخلوقات السماوية الأخرى، أو الراكشا. فأي برهان تطلب لتطمئن نفسك؟"

فأخذ سوغريفا يغمغم والدموع تنهمر من عينيه من شدة الخجل: "لقد قذف فالي بعظام دندابي بقدمه ولكن... سأخبرك بأمر آخر. في أحد الأيام راودت رافانا رغبة بغزو العالم. فاصطدم بفالي، وهو يتهيأ لتنفيذ ما عزم عليه. وكان النهار قد انقضى، والملك فالي جالس قريباً من البحر يؤدي صلاة المساء. فانسل رافانا من خلفه، بينما كان فالي مستغرقاً في

صلاته، مغمض العينين. وإذا به يعاجل ملك العفاريت بضربة من ذيله، ثم ينثني ويطوقه به ويرميه في البحر، ويعود فينتشله من بين الأمواج العاتية، وهو ما يزال يطوقه بذيله، يرميه وينتشله مرة بعد مرة، وملك الراكشا في هذا كله يشرب مياه البحر المالح. وظل فالي يذيق ملك لانكا مر العذاب ويشبعه إهانة وتحقيراً حتى أسدل الليل أستاره، فعاد فالي إلى بيته يجر رافانا وراءه. ولما اطمأن إلى أن ملك لانكا قد هزم هزيمة نكراء، وأخذ رافانا يتوسل ويرجوه طالباً العفو والمغفرة، أطلق سراحه وقد لقنه درساً لن ينساه أبداً. هذا هو فالي!..."

وتابع سوغريفا الحديث، وصاحباه يصغيان، وعرض لهما خطته بأن يصلح راما بينه وبين فالي، فإن اتحدت قواهما لم يكن أمامهما ما يعجزان عنه. فلفالي من القوة والبأس ما يجعله قادراً على دحر رافانا بكل يسر وسهولة. فرد راما: "لقد أقسمت، كما تعلم، أمام النار المقدسة أن أقتل فالي وأضعك محله على العرش. ولست بالرجل الذي يطلق الكلام على عواهنه."

نادى لكشمانا سوغريفا وأشار إلى صف من سبع أشجار باسقة: "أترى هذه الأشجار؟ إن شري راما قادر على أن يخترقها جميعاً في آن واحد. أليس هذا كافياً ليطمئن قلبك؟" فأجابه سوغريفا: "إن بإمكان فالي أن يخترقها بأظافره." ثم وجه حديثه إلى راما: "أما أن تصيب الشجرات السبع بسهم واحد فذلك برهان على قدرتك على قهر فالي."

فأجابه راما مبتسماً: "وما الفائدة التي ساجنيها من رمي شجرات كهذه؟" ومضى يبحث بعناية بين السهام، ثم انتقى سهماً ذهبياً، مزيناً بنقوش وألوان، وبأصابع رشيقة ثابتة وضع السهم في قوسه.. وأطلقه، فاخترق الشجرات السبع، ثم حط على الصخور، فإذا به يصدر دوياً هائلاً، ثم غاص في أعماق الأرض، وبعدئذ، ظهر مرة أخرى برشاقة كالبجع، وعاد إلى راما ودخل إلى كنانته. فأخذت القردة تصيح مبتهجة، وقد استولى عليها الذهول. ثم ساروا جميعاً إلى راما، ولمسوا قدميه توقيراً، وقدموا له فروض الطاعة.

وقال سوغريفا: "قد شهدت لك بالقوة والبأس والعزيمة، ولا ريب بأنني مستعيد ملكي بفضلك."

فاجابه راما: "لم لا تسرع فننجز ما عزمنا عليه؟ هيا للقاء فالي، فمتى صرعته اطمأنت نفسك وزالت عنك الغمة."

انطلق السبعة نحو كيشكيندا، وبعد مرحلة من المسير لاح لهم القصر الملكي عن بعد. عندئذ، قال راما لسوغريفا: "عليك الآن أن تتقدم، أما نحن فسنختبئ وراء الأشجار. تقدم ناحية قصر فالي وأطلق صرخة كزئير الأسد. ولسوف يخرج لقتالك، حينذاك سأطلق عليه من جعبتي سهماً يودي به إلى حتفه."

وكان أن تقدم سوغريفا، كما أشار راما، وأطلق صيحة كالزئير تردد صداها في كل مكان؛ ولما سمع فالي الصرخة خرج يستطلع الأمر. وظهر فالي لمن يراه عملاقاً مروعاً. ولما وقعت عيناه على سوغريفا، اطلق صرخة مدوية وهم به يريد قتله. فأخذا يتعاركان والقتال يحتدم بينهما، والأرض تهتز تحت اقدامهما. وقد وقع راما في حيرة شديدة حين رأى الأخوين يلتحمان في هذا الصراع العنيف، صراع الموت، فلم يعد يتبين أيهما هذا وأيهما ذاك، وهما متماثلان في الشكل والزي، ومن عمر واحد. فأمسك عن توجيه سهامه لئلا يخطئ الهدف فيقتل صاحبه، بدلاً من عدوه، وقد التبس عليه أمرهما. وبينما القتال على أشده، باغت فالي سوغريفا بضربة صاعقة، لم يملك معها إلا أن يطلق ساقيه للريح نحو جبل ريشياموك، والدماء تسيل غزيرة من جسده المثخن بالجراح. ووقف فالي يتأمل سوغريفا، وهو يفر نحو الجبل، ولا يملك أن يلحق به، خشية أن تحل عليه لعنة الزاهد، ومع أنه كان من اليسير عليه قتل غريمه لو شاء، إلا أن سوغريفا، بعد، أخوه ولا حيلة له في ذلك. ولكن كيف يجرؤ على تحدي الملك فالي؟ إن ما بدر من أخيه من الوقاحة والصفاقة كان أقوى من أن يحتمل، فتملكه الغضب، وصار ينتفض من شدة ثورته، فيما هو يتجه عائداً إلى بيته.

كان سوغريفا يداوي جراحه بعيداً، في ريشياموك، وقلبه مثقل بالأحزان ومشاعر الهوان. وعندما عاد راما والآخرون برفقته وجدوه جالساً، مطرقاً برأسه، يتذوق مرارة الهزيمة والذل. ثم وجه حديثه إلى راما والدمع ينهمر من عينيه: "كيف تورطت بسؤالك وطلب

مشورتك؟ قد كنت اليوم أقرب إلى التهلكة. إن قتل فالي ليس بالأمر اليسير، وهو الذي عجز عن قتله أعظم الأبطال. فلماذا ذهبت لأجني الذل لنفسي؟ لقد أكدت أنك ستهب لمساعدتي. وكنت أتوقع النجدة منك في كل لحظة، بسهم تطلقه وتريحني. ولكن وا أسفاه! لقد بقيت بلا حراك."

فرد راما، بصوت ينضح ندماً وأسى: "حسبك ما قلت، يا صديقي، ولا تزد! كان الشبه بينكما كبيراً، فالتبس علي الأمر، ولم أستطع أن أتبين أحدكما من الآخر، وخشيت أن أخطئ الهدف، فأصيبك دون فالي، فيكون قتل صديقي على يدي، ويسلم عدونا. لو أن لديك مجرد علامة تتميز بها عنه .ولكن لا تجزع، يا صديقي، وإنني أعاهدك على أن أقتل فالي وأجعلك ملكاً بدلاً منه."

في اليوم التالي جمع لكشمانا باقة من الزهور وجعل منها عقداً طوق به عنق سوغريفا، وقال لراما: "لن تخلط بينهما بعد الآن." ولما كانت الرغبة باسترجاع المُلك تستبد بسوغريفا، فقد وافق على تحدي فالي مرة أخرى. فانطلق السبعة للمرة الثانية باتجاه كيشكيندا، وكان ذلك في لحظة ميمونة، يتقدمهم سوغريفا ثم راما ولكشمانا، وهما يحملان الأقواس والسهام، ومن ورائهم البطل هانومن ونالا والشجاع نيلا والقائد الشهير تارا. وصادفوا في طريقهم عدداً من الحيوانات من ظباء وفيلة وسواها. ثم وصلوا إلى بستان حوى جميع أشجار الفاكهة، فقال راما مستفسراً: "يا لهذه الأشجار الرائعة، ما هذه الأشجار التي تشبه الغيوم في السماء؟" فقال له سوغريفا: "إنها صومعة سبعة من الرجال الأتقياء يدعون سابتاجانا، أمضوا هنا سبعمئة سنة يتعبدون ويتنسكون، ثم انتقلوا إلى السماء. ويقال إن لهذا المكان سحراً، ومن يزوره ينال البركة والحظوة وتتحقق أمانيه." فدخلوه زائرين لينالوا البركات. ثم وجه سوغريفا حديثه إلى راما: "حذار الآن! ولا تتصرف كالبارحة. انجز وعدك، يا صديقي، وساعمل على إنقاذ سيتا. وإنني لصادق في ما أعاهد. فيقيناً إني قاتل رافانا ومنقذ سيتا."

فأجاب راما: "الآن ساكون قادراً على تمييزك بفضل عقد الزهور، الذي تضعه حول

عنقك. وسأقتل فالي وأنقذ روحك. إذ سأسارع إلى إطلاق سهمي حالما أرى فالي. أما تذكر السهم الذي اخترق الشجرات السبع؟ وهذا عهدي لك؛ إني لقاتل فالي اليوم، ولن أتأخر."

كان لكلمات راما أحسن الوقع عند سوغريفا، فأطمأن وهدأت مخاوفه، وانتعشت آماله، فتقدم واثقاً من النصر، وعندما وصل إلى بوابة القصر الملكي، أطلق صرخة مدوية كقصف الرعد، وبدا حينئذ، وكأنه قد حصل على بعض من قوة راما. فبلغت صرخات التحدي التي أطلقها مسامع فالي، فهب لقتاله وهو ينزل به السباب والشتائم، وبدت عيناه وسط وجهه المتوهج تشعان وكأنهما شمسان، وأخذ جسمه الضخم ينتفخ ويتضخم، وكان ذلك بفضل قدراته السحرية التي تمكنه من السيطرة على جسمه، فيتضخم أو يتقلص كيفما شاء. ولو شاء لكان بمقدوره أن يطيل ذيله حتى يبلغ خمسين يوجنا، أو أن يصل إلى السماء. لقد كان عدواً مرعباً. لكن زوجه تارا كانت شديدة القلق عليه، ولأول مرة في حياتها راودها إحساس بالخوف من وقوع شر مؤكد. وأخذت تتوسل إليه أن يعرض عن هذا الأمر: "لا تدع الغضب يتملكك، يا سيدي، واصغ لنصيحتي؛ حذار من التورط في القتال اليوم. وفكر ملياً ما الذي يحمل أخاك على المغامرة اليوم، بعدما خسر معركته البارحة، وعهدنا به أن يخلد للراحة عاماً بكامله بعد قتال يوم، ليستعيد طاقته. لكن ها هو ذا يقبل على التحدي ولم يمض على هزيمته إلا يوم واحد. وإذن، فلا بد أنه استمد قوة من مصدر ما، وذلك أمر لا بد وان يحسب حسابه. إن قلبي ليضطرب والخوف يتملكني، ويراودني إحساس بأنك لن تظفر في معركتك اليوم، إن خضتها. فلقد بلغني أن ولدين للملك من سلالة الشمس يدعى دشاراتا، احدهما راما والآخر لكشمانا، وهما يتبعان طريق الحق والصدق، اتخذا الغابة مسكناً لهما، تنفيذاً لعهد قطعه والدهما الملك. وأحسب أن سوغريفا الماكر قد استدر عطفهما ليعيناه على امر دبره ضدك، من يدري؟ فإذا كان هذا هو الحال فلست أرى فيه ما يبشر بالخير. فدعك من الماضي، أيها الملك، واصفح عن سوغريفا، وفي ذلك خير أعظم. ومهما يكن الأمر فهو أخوك. ويجدر بك الا تصارعه. ولقد بلغني

أن راما تنازل عن مملكته لأخيه من زوج أبيه التي دبرت له أن يعيش في المنفى. فإذا كان بوسعه أن يأتي بهذا العمل الصالح لابن عدوته، فلن يصعب عليك أن تشرك أخاك في الملك."

شرع فالي يواسيها ويهدئ من انفعالاتها: "لا تخشي شيئاً، يا وجه القمر. فلن يضيرني إذا هزم سوغريفا في هذه المعركة. فذلك جزاء وفاق لخذلانه إياي، حين عهدت إليه بحراسة باب النفق ومضيت وراء العفريت في أعماق الأرض؛ لكنه كان خواناً مخادعاً، فأغلق علي المدخل بالأشجار والصخور، والتفت ليغتصب مني عرشي. إن بوسعي أن أقضي عليه اليوم، أما وأنك تناشدينني الصفح عنه، فإني مجيب لك رغبتك، وسأبقي على حياته. وحسبي أن أقيده وآتيك به ذليلاً مدحوراً."

وعادت تارا إلى استعطافه ورجائه مذكرة بأنه لم يغتصب العرش عنوة، ولا فرض نفسه عليه، فقالت: "إن حاشيتك والوزراء هم من أجلسوا سوغريفا على عرشك، وإذن فاللوم إنما يقع على هؤلاء، وليس على سوغريفا. اصغ لما أقول، واصفح عنه، واجتنب قتاله اليوم. فقد بلغني أن سهام راما لا تخطئ أهدافها."

فأخذ فالي يصرخ قائلاً: "علام ترددين الترهات التي تحيط براما، وتحيطينه بهالة من الوهم؟ وماذا يحملني على خشيته؟ وعلام يقاتلني، أنا الذي لم آت بما يؤذيه قط؟ ومع ذلك، فلست أخشاه، طالما أنه شجاع صادق، ويضع الحق فوق كل اعتبار. وفي مسعاه للوصول إلى الحق اتخذ الغابة موطناً له. إن شخصاً كهذا لا يمكن أن يحيد عن قيمة أبداً. كذلك لا أستطيع أن أتراجع عن أمر عزمت عليه فيما يتعلق بسوغريفا، ولو ناصره راما."

ولما انتهى حديثه نهض مغادراً، وودعته تارا بعينين دامعتين، فقد أنبأها قلبها أن فالي سيلقى حتفه، وباتت تنتظر القدر المحتوم. ثم خرج فالي بعد حين، وهو يطلق صيحات الغضب كالزئير، ويتلفت حوله، فلا يرى سوى سوغريفا. وفي لحظة اشتبك الاثنان في عراك مميت. وكان فالي يفوق سوغريفا قوة وبأساً، فسدد لكمة صاعقة إلى صدر سوغريفا

فأخذ الدم يتدفق من فمه، ثم أطبق فالي على عنق سوغريفا وضغط عليه حتى كاد يزهق روحه، لولا أن راما أخرج أسلحته السماوية وسدد سهمه المتقد ناراً، فكان له دوي الرعد، وهو يجري نحو فالي بسرعة البرق، فاصاب قلبه وطرحه أرضاً، ولم يعد يملك إلا الصراخ من شدة الألم. فسارع إليه راما، وأخذ فالي يحدق فيه بعينين تقدحان ناراً. وفيما كان يصر باسنانه حنقاً وغضباً أخذ يصرخ: "لقد حذرتني تارا من المصير الذي سالقاه. كم كنت غبياً، حين حسبت انه لن ينالني منك ضير، أنت سليل راغو، المعروف بالورع والتقوى. فكيف يمكن الا تكون قادراً على التمييز بين الخطأ والصواب؟ وأي مبدأ أو قانون يجيز لك قتلي؟ إن لحمي ودمي لا يصلحان طعاماً، كذلك جلدي لا يصلح للجلوس. وإذن، فاي نفع لك من جثتي. ولم تعمل على قتل قرد بريء مثلي، أنت الذي قيل في مدحك الكثير، وعرفت بطيب النفس والرحمة؟ فاي ذنب جنيت لأُقتل على يديك؟" واندفع فالي يكيل لراما أقسى العبارات: "إن كنت تنشد مساعدة القردة، فلماذا لم تسألني المعونة لإنقاذ سيتا؟ إن بإمكاني ان أجتاز البحار في يوم واحد لاستعيدها لك. ولقد سبق لي أن قيدت رافانا بذيلي وغطسته في مياه المحيط، ولم اطلق سراحه إلا عندما أخذ يتوسل طالباً الرحمة والمغفرة. ولو أنه تجرأ على شن حرب علي لكنت قتلته دون شك. لكنك تحالفت مع سوغريفا الآثم، وتوسلت بالخديعة لقتلي. تباً لك! فهل لك أن تظهر بعد اليوم أمام أبطال الأرض؟ ولو أنك قاتلتني قتال الشجعان وجهاً لوجه، لما كان لك أن تأمل بالفوز علي."

وهكذا مضى فالي يكيل لراما اللوم والتقريع والتعنيف، وجراحه تزيده ألماً وعذاباً، وهو ممدد على الأرض أمام راما. فرد عليه راما: "إذن، فاصغ لما ساقوله، يا فالي، لقد أنزلت بي الكثير من التوبيخ واللوم، وإن شئت لك أن تزيد. والحق أني أشعر بالعار يجللني، فلم يكن جديراً بي ان اقاتلك. لكن سوغريفا قد نذر نفسه لخدمتي، وكان بيننا عهد بالصداقة، واقسمت أمام النار المقدسة ان أكون عوناً له على أعدائه.. فاغفر لي، أيها الشجاع فالي، فما حصل إنما كان مقدراً ولا مفر منه.. والآن اذهب إلى العالم الآخر في الأعالي... عد إلى بيتك في السماء."

فقال فالي: "قد أدركت الآن كل شيء، يا راما! فاعذرني على ما قلت، فهذه العبارات صدرت بسبب ما كنت أعانيه من ألم. فاعمل على رعاية سوغريفا وابني أنغادا، فأنت منذ الآن الأب لكليهما. واعمل كذلك على ألا يصيب زوجي تارا بنت سوشينا أي مكروه من سوغريفا." ثم حياه بضم راحتيه تقديراً وإجلالاً. فطمأنه راما بأنه سينفذ وصيته.

لما سمعت تارا بما أصاب فالي هرعت تبحث عنه وبرفقتها ولدها أنغادا، وفيما كان أفراد الحاشية يعدون للهرب هتفوا بها قائلين: "عودي، أيتها الملكة، إلى القصر، فقد اقتتل الأخوان، وتحقق ما تنبأت به، فالملك فالي يحتضر بعد أن سقط بسهم راما." فوبختهم تارا لجبنهم، ثم اتجهت، غير عابئة بكلماتهم، إلى حيث كان زوجها راقداً يحتضر. وهناك أخذت تندب زوجها بأعلى صوت، وتصيح باكية عليه، بينما رمى أنغادا بنفسه إلى جانب أبيه، وأخذ يبكيه مر البكاء أمام أنظار أهل كيشكيندا الذين كانوا يشاركونهما النشيج والنحيب. حتى أن لكشمانا لم يتمالك نفسه فأخذ الدمع ينهمر من عينيه، بينما حزن عليه سوغريفا وراما حزناً شديداً. عندئذ، أخذت تارا توبخ راما بمرارة: "قد قيل عنك، يا سليل آل راغو، أنك فاضل صادق، فكيف حملتك الفضيلة على قتل زوجي الملك؟ فلو أنك قاتلته قتال الشجعان، لما نلت منه وكيف تفرق بيني وبين زوجي، وأنت تعلم جيداً المعاناة التي يسببها فراق الزوجين؟ وأعجب هل يقتصر عطفك وحنوك على سوغريفا وحده؟ لقد كان زوجي كريماً معك فلم يلعنك، ولكن ها أنا ذا أنزل عليك لعنتي. لسوف يكون لك أن تنقذ سيتا بشجاعتك وبأسك، ولكنها لن تبقى معك طويلاً، ولسوف تحزن عليها، كما جعلت كيشكيندا تحزن على مليكها، يا سيد راما، من المؤكد أنك ستذرف الدمع مدراراً على سيتا مرة أخرى. وسيكون الأسى رفيقك بقية أيام حياتك. ولا تعتقدن أن بإمكانك الخلاص من هذه اللعنة، فكل منا سيجني ما زرعت يداه." ثم أجهشت بالبكاء، فخاطبها فالي هامساً: "حسبك يا غالية، لقد أسمعت راما أقسى الكلام، وهو الآن يشعر بالعار لفعلته. إن رافانا ملك لانكا قد اختطف سيتا، وأنا أموت بسبب الجريمة التي ارتكبها. لقد كان هذا مقدراً علي، فلم تلقين اللوم على راما؟" ثم وجه حديثه إلى

سوغريفا: "يا أخي قد طال القتال بيننا. وهذه هي النتيجة. وليس الخطأ خطأك، لقد كان ذلك مقدراً. فكن الوالد لابني العزيز أنغادا، انظر إليه كيف يبكي في الأرض. إني أقدمه لك." ثم أخذ يصرخ من الألم: "أواه، إنني أحترق، إن سهام راما تحرق جسدي. وسرعان ما ساموت." ثم نزع فالي عن عنقه سلسلة تبهر الأنظار، وقدمها إلى سوغريفا. فأخذت تلمع على عنقه ببريق يخطف الأبصار.

ثم قال فالي: "لير الجميع هذه القلادة، لقد منحها الإله إندرا لابني أنغادا، تعبيراً عن مباركته له، وهي الآن هديتي لك، يا سوغريفا." ثم حدق في وجه أنغادا وقال له وهو يلهث: "أي بني، اعمل على خدمة عمك سوغريفا وعامله باحترام، واحرص على القيام بواجباتك. وتذكر أن أعداء سوغريفا هم أعداؤك، وصديق سوغريفا هو صديقك." وبعد أن انهى كلامه، غادرت روح البطل فالي جسده، فوضع على عربة تتوهج ألقاً، كان الإله إندرا قد أرسلها لتحمله إلى السماء.

كان حزن تارا وأنغادا عظيماً. أما سوغريفا فطغى عليه الندم والأسى لفقدان أخيه، وأخذت كيشكيندا تندب ملكها الراحل. وقدم راما تعازيه إلى سوغريفا وطلب إليه أن يقوم بالطقوس الأخيرة لوداع الملك الراحل بالأسلوب اللائق به. وطلب إلى هانومن أن يقوم بالمراسم اللازمة، فجلب من الخزائن الملكية ثياباً فخمة وجواهر نفيسة والكثير من الذهب والفضة لتوزع على الفقراء. ثم حمل عدد من القردة الأشداء جثة فالي إلى العربة الملكية وساروا بها على طول نهر بامبا. وهناك سجي جثمان الملك على محرقة كبيرة مفروشة بالأزهار، ثم أضرم أصدقاء فالي النار فأخذت جثته تحترق حتى أصبحت رماداً نثر على سطح ماء النهر.

احتشد القرود حول راما، وراح هانومن يخاطبه قائلاً: "قد أصبح سوغريفا ملكنا الآن بفضلك يا سيد راما. ولقد مضى زمن طويل، وأنت تطوف في الغابات. فنرجو أن تقبل ضيافتنا، وتقيم في قصر الملك." لكن راما أجاب قائلاً: "إنه عهد قطعته على نفسي أن أتخذ الغابة مسكناً لي أربعة عشر عاماً، لا أسكن خلالها المدينة." ثم استدار ووجه حديثه

إلى سوغريفا: "خذ زمام الأمور في مملكتك يا سوغريفا واحكم بالعدل. إنني لأشعر بالعار لقتل فالي. فلتقسم على أن تجعل أنغادا ولياً للعهد، وأن تكون عطوفاً على تارا، تستشيرها في كل أمر. لقد قُرُب موسم الأمطار، فلتبق الآن في منزلك، ولتستمتع بامتيازات الملك، فلقد عانيت الكثير وآن لك أن ترتاح قليلاً. ولكن حالما تنقطع الأمطار، فإن العقاب سيطال من يظل قابعاً في بيته.."

عاد سوغريفا ثانية إلى القصر الملكي في كيشكيندا. وفي اللحظة الميمونة، قام الوزراء والحاشية وأهل المملكة بتنصيبه في احتفال رسمي ملكاً على العرش. ثم تولت تارا دهن جسمه بالزيت، وغدت وفقاً لقانون القردة ملكة إلى جانب سوغريفا، وكان سعيداً في هذا كل السعادة. وعين أنغادا ولياً للعهد مثلما أمر راما. وباتت كيشكيندا يومها في سعادة غامرة، بينما أخذت القردة تهتف بصوت عالٍ: "النصر لراما! ليحيا راما!"

كان جبل ماليافان يقع على بعد أربعة أيام عن المدينة، فقرر راما ولكشمانا، يومئذ، البقاء هناك طوال موسم الأمطار. وقد اتخذا أحد الكهوف مقاماً لهما. وكان النسيم يهب عليلاً، عابقاً بأريج الزهور وروائح الثمار، محملاً بالرطوبة من المياه العذبة الرقراقة الصافية. والقمر ينير بضوئه الفضي الليل فيضفي على المكان روعة يزيد منها نسمات الليل العليلة. إلا أن راما لم يكن ليجد في هذا كله شيئاً من المتعة، فكان قلبه يبكي على الدوام لفراق حبيبته سيتا. ولقد جهد لكشمانا في مواساته بقوله: "لا تحزن يا أخي الهمام. فلسوف تنقذ سيتا، وسيكون مصير رافانا الموت. فقر عيناً. فأنا من سيقتل رافانا. وحسبك هذا مني عهداً." يا للأشهر الماطرة كم هي شاقةٌ، وكم كانت أيام المطر أشد من أن تحتمل. ولقد زادت الغيوم والأمطار راما حزناً وكآبة وأثقلت قلبه. وكم تنهد راما، وكم اشتكى: "واحسرتاه! إن الشمس والقمر يختبئان وراء السماء الرمادية... والبرق يلعب بحرية بين الغيوم المحملة بالأمطار. فكيف لي أن أطلب الآن من سوغريفا أن يرسل قومه للبحث عن سيتا؟ يجب أن تتوقف الأمطار حتى تجف الدروب، وعندئذ، يمكن أن يتحقق مبتغاي، ولكن إلى أن يحين ذلك الوقت ما الذي سيحل بسيتا؟ كيف لها أن تعيش وحيدة وسط

أعدائها طوال هذه الأشهر، وقد علقت كل آمالها علي؟ لربما قتلها ذو الرؤوس العشرة في لحظة غضب، أو لعلها تغرق نفسها بالبكاء حتى الموت، وهذا أكثر ما أخشاه. وعندئذ، ما نفع مساعدة أخٍ أو صديق؟ واحسرتاه! لو أنني كنت طيراً لاجتزت البحار لأصل إليها."

انقطعت الأمطار، وحل فصل الربيع البهيج. وهدأ صوت نقيق الضفادع، ولم يعد يسمع للرعد جلجلة في السماء، وجعلت أشعة الشمس الأيام بهيجة. وعاد القمر والنجوم للظهور ثانية، لكن انتظار الأخوين لسوغريفا ليبر بوعده ذهب سدى، وكانت الأيام والليالي تمضي الواحدة تلو الأخرى، بينما ينتظران قدومه وهما في حالة من الكرب والقلق. فقال راما: "اذهب يا لكشمانا إلى سوغريفا في كيشكيندا، واستطلع أمره، وما يدور في ذهنه. وأحسب أنه يمضي الوقت في متعه الجديدة، لقد قتلت فالي اكراماً له، والآن اشعر بالعار لتلك الفعلة. لقد نال القرد عرشه بمسعاي، لكنه نسي وعده لي".

فاجابه لكشمانا وقد بدا عليه الغضب: "بالتأكيد ساذهب إلى سوغريفا، وأرسله إلى عتبات الموت، يبدو أنه يجهل من يتعامل معهم، ولكن سرعان ما سيعلم خطأه حين ألقاه. وسيكفيه عندئذ سهم واحد ليلقى حتفه". لكن راما نبهه الا يقتل الصديق، وأن التهديد سيكون كافياً إذا اقتضت الحاجة إليه.

اتجه لكشمانا إلى كيشكيندا وعيناه تتقدان غضباً وهو يمسك سهماً رهيباً بيده اليسرى وقوساً جباراً باليمنى! ولم يمض وقت طويل حتى بلغ المدينة وسرعان ما وصل إلى قصر الملك. وعند بوابته وجد أنغادا يحيط به عدد من أصدقائه وحاشيته، فارتبك عندما رأى الغضب بادٍ على وجه لكشمانا، وقد سارعت القردة الضخمة لتحية لكشمانا، ثم قفزت من فوق الأسوار هاربة متوجسة شراً مستطيراً. فاخذ لكشمانا يصيح قائلاً: "اصغ إلي يا ابن فالي، بلغ سوغريفا أنني أتيت. لقد كنا نهيم في الغابات بينما كان سوغريفا يلهو ويعربد في قصره. وفيما كنا نندب فراق سيتا، كان هو قابع بين جدران قصره لاهٍ عن مصيبتنا! ولما انتفخ كبراً وخيلاء، تناسى أن راما قتل فالي لأجله، وأعاد له ملكه. الا يراوده الخجل لتقاعسه؟ لقد قطع على نفسه عهداً بان يمد لنا يد العون، وإذا به الآن ينكث بوعده.

ويبدو أنه لا يذكر كيف فر خوفاً من فالي على الرغم من أنه حيوان من عشيرة القردة! لقد شمله راما بعطفه واحتضنه واتخذه صديقاً، وقبل به نداً له، فهل يكون هذا رده على الجميل؟ هيا امض! وأخبره أن لكشمانا أخا راما الذي لا يقهر قد جاء، وهو عازم على إطلاق سهم واحد فيضرم النار في مملكته كلها فتصبح خراباً يباباً."

أخذ أنغادا يتوسل إليه قائلاً: "هدئ روعك، يا سيدي لكشمانا." وراح يرحب به وأسرع في جلب الماء ليغسل له قدميه، ويفرش له السجاد، ويسترضيه ليجلس ويستريح من عناء الرحلة. ثم أسرع أنغادا في الدخول إلى القصر، فوجد سوغريفا في سبات عميق فوق سريره الذهبي وقد أسكره النبيذ. فطلب من بعض القردة أن تصدر أصواتاً عالية لإيقاظه. فكانت ضجة عظيمة وجلبة، وأخيراً فتح سوغريفا عينيه المحمرتين غضباً. وفيما هو يحملق في وجوه حاشيته راح يزأر: "كيف تجرؤون على إقلاق راحتي على هذا النحو؟"

فتقدم أنغادا وحياه ضاماً راحتيه إلى بعضهما وقال: "قد أرسل راما أخاه لكشمانا. إن ابن سوميترا الذي لا يقهر قد حضر والغضب باد عليه، وهو لا ينقطع عن التنديد بنا وتوعدنا. لقد اتخذك راما صديقاً وحصلت منه على كل ما تبغي، ولكن عندما حان الوقت لتهب لمساعدته تتنكر لوعدك له."

فعارضه سوغريفا: "كان راما قد تعهد أن يتخذني صديقاً له، إلا أنه الآن يرسل لكشمانا لإهانتي بلا ذنب اقترفته، إنني لست بالذي يخشى أحداً، طالما كنت بريئاً من الذنب، ثم لم يغضب لكشمانا ويثور هكذا؟ إنني لم أنكر صداقتي لراما، ولكن هل يجب علي أن ألقى حتفي في سبيل هذه الصداقة؟ وهل لنا قبل بمواجهة رافانا، وما نحن سوى قردة وحسب؟ وإن ذهبنا لقتاله فهل ترانا نعود إلى وطننا بعد هذا؟ قل للكشمانا أن يعود، وسنقرر ما الذي سنفعله لاحقاً."

لكن هانومن الحكيم قال: "إن راما قد آزرك وساندك حتى استعدت ملكك، فكيف تتحدث عنه هكذا؟ إن هذا الجنون مطبق! والحق أنك أغرقت نفسك في الملذات ونسيت

راما ومحنته، ولذلك جاءك لكشمانا الغضوب. ولك مني النصيحة، أنا وزيرك الأمين، أقدمها لك بلا خوف أو وجل، إنما ابتغاء مصلحتك وما هو خير لك. فاصغ، وسل راما المغفرة. إن بحاراً تفصلك عن رافانا، أما لكشمانا فهو عند بابك وبيده سهمه القاتل. ولن يفلت أي منا إن لم نتمكن من تهدئة خاطره، وتذكر أنك أقسمت أمام النار المقدسة أن تساند راما. وعلى الصادق أن يقرن القول بالفعل. واعلم أن للحق قدسية، ومن أجل الحق شاء راما العيش في الغابة، عوضاً عن حياة الترف في قصره الملكي. وذلك هو سر السهم الذي قتل به فالي، وهو السبب في أن العرش وصولجان الملك آلا إليك. فاصغ لما أقول، ودع الملذات، وإلا فقدت كل شيء، أيها الملك، بما في ذلك حياتك."

ثاب سوغريفا إلى رشده وبعث في طلب لكشمانا. وسرعان ما وصل لكشمانا إلى الجناح الخاص بالملك. ولدى رؤية القردة الغضب بادٍ على وجهه، سارعت بالارتداد على أعقابها مبتعدة عن طريقه من شدة الخوف.

وقف سوغريفا احتراماً له، فيما وقفت تارا إلى يمينه، وأوما الملكة الثانية إلى يساره، واستقبلوا لشكمانا بالتحية والتكريم اللائقين به، لكن لكشمانا لم يقبل بالجلوس على المقعد الذي عرض عليه، بل زمجر غاضباً وخاطب سوغريفا وعيناه تقدحان شرراً: "لقد أعماك الغرور والتيه، وأسكرتك المتع، حتى تجرأت على الاستهزاء براما فنسيت وعدك له! يا لقسوتك وتحجر قلبك، لم تستفسر ولو مرة واحدة عن أحوالنا، وتوسلت بالمكر والخداع لتستعين براما حتى تبلغ مآربك! فأعاد لك مملكتك وجعلك تحصل على تارا الجميلة، وساعدك في استرداد حبيبتك أوما. يا لك من قرد آثم، قل لم حدت عن طريق الحق؟ إن قتلك ليس بخطيئة. وسأقتلك انت وأتباعك بسهم واحد، وأجعل أنغادا ملكاً بدلاً منك، وبمعونته سوف نستعيد سيتا من جديد."

رمى الملك وزوجتاه بأنفسهم عند قدمي لكشمانا، وشرعوا يتوسلون إليه طالبين المغفرة. وقال سوغريفا باكياً: "اعذرني أيها الأمير، إن العالم كله يعلم أنني صديق راما. فاغفر لي، وهدئ من روعك، وساعمل على إرسال القردة أينما كانوا، إلى كافة أصقاع الدنيا بحثاً عن

سيتا."

لكن غضب لكشمانا الشديد ما كان ليهدأ، فتدخلت تارا وأخذت تلاطفه وتحاول تهدئته، وأجلسته على مقعد من الذهب. وأخيراً هدأ لكشمانا بتأثير حديثها اللطيف، عندئذ، نزع سوغريفا عقد الزهور الذي كان يتقلده، وأتلفه ونثر زهوره على الأرض. وضم راحتي يديه، وقال مخاطباً لكشمانا ومعبراً عن ندمه: "لقد استعدت مملكتي بفضل راما، وإني لمدين له ما حييت، ولسوف يكون الفضل في إنقاذ سيتا لبسالته، ولا شيء سواها، وإن كان لي دور في هذا، فهو دور التابع. لقد سكنت إلى بيتي طوال الوقت وقصرت عن النهوض بما كلفت به، ولكن من يحسن إلى خدمه لا ريب يصفح عن ذنبي، فما أنا سوى قرد قاصر له هفوات وعثرات."

فأجابه لكشمانا: "أصغ، إذن، ياسوغريفا! إن عملت صالحاً وكنت في طاعة راما جزيت خيراً. وتذكر أن النصر أبداً حليف راما. وعليك بطريق الحق، فهذا نهج أخذنا به، ولن نحيد عنه. لقد أغلظت لك القول، ولكن ما حملني على ذلك إلا إشفاقي على راما، وما شاهدت من الحزن الذي يعتصر قلبه. لقد دفعت إلى هذا الموقف دفعاً، وهو ليس مما يليق بي. ويجدر بالمرء الا يتكلم بسوء مع الكرام، فعذراً، يا ملك القردة، ولتطب نفساً. كن صادقاً مخلصاً، ولسوف يأتيك الخير العميم لمساعدتك راما."

نادى سوغريفا هانومن وقال له: "وجه جيشنا إلى كافة أرجاء المملكة، وليبلغ الرسل أوامري بأن يسارع الجميع في الحضور إلينا خلال عشرة أيام، ولن أتغاضى عن أي مقصر، وكل من يتأخر سينال عقابه، أما من يعصي أوامري، فسيكبل بالقيود ويجر إلينا صاغراً."

كان لكلمات الملك أشد الوقع على عشيرة القردة، ونزلت عليهم نزول الصواعق، حتى ارتعدت فرائصهم. وقد استطاع هانومن حشد ثلاثمئة مليون قرد، ومثل أسراب الجراد انتشر هذا الجمع، واجتاحوا الأرض أفواجاً أفواجاً، وكان أن اتجه نيلا ناحية الشرق، ومضى نالا غرباً، أما سمباتي فقد توجه جنوباً، فيما ذهب هانومن الشجاع شمالاً، وكان كل منهم

على رأس جيش مؤلف من عشرة ملايين قرد، يسيرون قفزاً ولا ينقطعون عن الهتاف: "أسرعوا أيها القردة، العجل! العجل! موعدنا في عشرة أيام لا تزيد والموت لمن يتأخر... من شاء الحياة أسرع، وإلا الموت الزؤام."

وهكذا أرسلت حشود القردة من المقاتلين والحراس في كيشكيندا، حتى لم يبق منهم أحد فيها، سوى أنغادا بن فالي فظل في موقعه لحراسة قصر الملك. وبعد عشرة أيام عاد الجنود وبرفقتهم جميع القردة في القبيلة، فضاقت بهم كيشكيندا، وقد أحدثوا جلبة عظيمة، وكانوا جميعاً محملين بالهدايا والأزهار والفاكهة، ولما رآهم سوغريفا بأعدادهم الهائلة وأشكالهم التي تثير الرعب في القلوب، شعر بأن النصر لا ريب حليفه، وتهيأ على الفور للذهاب للقاء صديقه راما. وحمل أربعة من القردة الضخام الأشداء المحفة الملكية، وقال سوغريفا للكشمانا: "أرجوك أن تدخل أولاً، إذ ليس من اللائق أن أتقدمك في الدخول يا مولاي." ثم حملا بالمحفة، فيما راح أربعة من العبيد بالتلويح بالمراوح الملكية المصنوعة من شعر ذيل ثيران الياك، على وقع أنغام الموسيقى، وأصوات الأبواق من أصداف البحر.

تعالى الضجيج حتى بلغ آذان راما، فعلم عندئذ أن سوغريفا أصبح في الجوار. نزل سوغريفا من المحفة وتسلق جبل ماليافان برفقة لكشمانا. ولما مثل سوغريفا بين يدي راما ارتمى على قدميه، ثم وقف وأدى له التحية بضم الراحتين وحنى رأسه إجلالاً له. فعانقه راما عناقاً حاراً وأجلسه بجانبه وسأله عن أحواله، فطمأنه سوغريفا قائلاً: "إنني بخير ما دمت بقربكم، فبفضلكم استعدت مملكتي، وأمكن لي أن أجمع عشائر القردة كلها. وذلك جميل يطوق عنقي، ولرد هذا الجميل جمعت كل قردة الأرض، وقد توافدوا من كل البقاع بانتظار أوامري للتحرك. إنه حشد من مئات الملايين من المقاتلين الأشداء البواسل، لا قبل لأحد على مواجهتهم. جبابرة قادرون على اختراق كل الحدود وجميع المواقع والحصون، في السماء والأرض وما تحتها، في أي مكان توجد فيه سيتا، ليعيدوها إليك، لقد شئت، يا مولاي، أن تدعوني صديقاً. وذلك من كريم طبعك، وحسن شمائلك، وإنني لا أملك أن

أقابل هذا الكرم، وكيف لي ذلك، وما أنا إلا قرد وحسب؟ لكن إلى أن يحين الوقت الذي يكون فيه إنقاذ سيتا لن أعرف معنى النوم أو السكينة، ولك مني العهد بألا أعود إلى كيشكيندا، إلا بعد إعادة سيتا إليك سالمة، ولسوف تعود إليك بفضل بسالتك وحدها، ولن أكون سوى عوناً لك."

سر راما لهذا الحديث، فرفع سوغريفا وضمه إلى صدره بحرارة، وقال له: "من سواك، يا صديقي، سيقف إلى جانبي؟ إن صداقتك لمن العجائب وإني لسعيد بها."

وهكذا كان الحديث يجري بين الصديقين على قمة الجبل، ومن ذلك المكان أخذا يستعرضان ذلك الحشد العظيم الذي جاء به شاتفالي، جيش جرار أثار الغبار في مسيره حتى بلغ عنان السماء.

ثم قدم القائد غافاكشا على رأس جيش عرمرم من خمسين مليوناً من القردة المردة، بعدئذ جاءت القردة ذات العيون الرمادية والزرقاء في جيش من ثلاثين مليوناً، ثم جاء براماتي في مئة مليون قرد، وكان حسبه أن يشير بإصبعه ليكون بإمرته الأعداد الهائلة من القردة ذات البأس والجبروت والتي لا حدود لجرأتها. ومن تلال إنياغوليا قدمت قردة الإتياغول بقيادة بيهانغا، وقد بلغ عددهم مئة مليون، ومن جبال مالايا جاء عشرون مليوناً من القردة الصناديد ذوي الشعر الطويل، أما فيناتا فقد قدم من الشمال على رأس جيش قوامه بليوناً من القردة. بينما جاء سامباتي وحمو سوغريفا سوشينا وابنه على رأس بليون من القردة. كذلك قدم جامبافان ملك الدببة على رأس جيش جرار لا حصر له. ولقد تزاحمت القرود حتى ملأت الجبال والسهول من حولها، ولم يعد يرى في الأفق سوى تلك الحشود الهائلة من القردة كبيرها وصغيرها، والتي كان راما يستعرضها والسعادة بادية على محياه، فالتفت إليه سوغريفا وخاطبه قائلاً: "لقد قدم قادة القردة الجبابرة الذين يعيشون في مملكتي وهم يشعون ألقاً، كما الإله إندرا في فردوسه، يزيدهم قوة ما لهم من القدرة على تقمص أي شكل، فيبدون كالعمالقة حيناً، والشياطين حيناً آخر. لقد قدموا على رأس جيش من القردة الذين عركتهم التجارب في ميادين القتال، مرات ومرات، إن هؤلاء القردة،

يا مولاي راما، لهم القدرة على السير على الأرض وفوق الماء ويسكنون عدداً من الجبال، ويبلغ تعدادهم مئات الملايين، وجميعهم طوع أمرك ورهن إشارتك."

فرد راما معتذراً بانه ليس أهلاً لهذه المهمة، وأن سوغريفا الوحيد القادر على قيادة جيش كهذا. وعلى إثر ذلك وجه سوغريفا أوامره إلى فيناتا بالتحرك شرقاً على رأس جيش من مئة مليون، لاستطلاع تلك البقاع والبحث عن سيتا ومخبأ رافانا في جبالها وغاباتها، وخاطبه قائلاً": اعبر نهر الغانج المقدس والسرايو وكاوشيكي، كذلك ستجد قطعاناً من الماشية ترعى العشب على ضفاف نهر غوماتي فاعبره، واعبر نهر ساراسفاتي، حتى تصل إلى مالايا بلاد الريح الرائعة، ومن ثم إلى كوكاناد، وبعدها بلاد كاشيابا وبانديابا والتي يطلق عليها اسم ماغادها، وعلى الجانب الآخر من نهر براهما بوترا ستجد بلاد البنغال، وفي جبل مندارا ستجد الكيراتاس وهم قوم ذوو أشكال غريبة ياكلون لحوم البشر ويتنقلون في الماء بين الجزر ويطلق عليهم اسم "الرجال النمور" ذلك أن القسم العلوي من أجسامهم مثل النمور والسفلي مثل البشر، وإذا صادف أن سيتا كانت هناك فخذ حذرك وانتبه جيداً. وبعد أن تجتاز جبال ريشيابه ستصادفك بلاد كيراتا، فالتزم الحذر هناك أيضاً، فهي مرتع الآلهة. وإلى الشرق ستجد بحر القشدة، وفيه جبل صغير أبيض يشبه الثلج في بياضه، يدعى جبل الرخام، وعلى قمته يسكن شيطان ناصع البياض بألف غطاء وغطاء متصلة ببعضها البعض، وعلى كل غطاء جوهرة تتلألأ ألقاً وضياء، فتنير بحر القشدة وما حوله. والشيطان هو آنانتا، اللامتناهي، فتقدم منه بالتوقير يغدو النجاح حليفك. وإلى الشرق توجد جبال أبهايا، وهناك ستجد شجرة النخيل التي تحمل ثماراً ذهبية. وكانت هذه منذ أن كان الزمن، وهي مرصعة بالجواهر. فابعث بقردتك ليفتشوا في تلافيف هذه الشجرة علهم يعثرون فيها على سيتا وملك لانكا. وإذا لم تعثروا عليهما هناك، امض إلى جبال كالوداكا. وستجد أن مياه هذه المنطقة داكنة اللون ويعيش فيها ثلاثون مليوناً من الثعابين والأفاعي. وحينما تتثاءب الأفاعي تموت المخلوقات الفانية، لذلك لا يجرؤ الزهاد أو الشياطين المردة على الاقتراب منها. فتش في الأنهار والجداول والجبال والكهوف. وإذا لم تجد رافانا الشرير، تابع طريقك إلى

الجبال الحمراء، وهناك ستصادف نهراً عريضاً جميلاً وصخوراً ضخمة. وإلى الشرق منها ستلتقي بالبحر الأحمر الذي تقبع في أعماق مياهه الحمراء الراكشا الرهيبة. وعلى ضفته ثمة شجرة قطن ذهبية، قائمة هناك منذ الأزل، وهي مليئة بالأشواك، لكنها تحمل ثماراً وأزهاراً ذهبية. ولا يتسلق هذه الشجرة سوى الراكشا الذين يسكنون أعماق هذا البحر، في حين لا يجرؤ على الاقتراب منها حتى الزهاد والحكماء. فإذا لم تقع على سيتا هناك اتجه نحو البحر الشرقي. وكن حذراً في أثناء عبورك مياهه، حتى تصل إلى جبال شروق الشمس المجللة بالذهب. وبوسع الشمس في لحظة واحدة أن تقطع ملايين بل مليارات اليوجنات. وهذا المكان يقصده الرجال الصالحون للتأمل والتعبد. أما البلاد الواقعة شرق جبال شروق الشمس فلم يبلغني شيء عنها. فالمكان مظلم هناك. ولهذا عليك بالعودة حين تبلغ جبال شروق الشمس. وإن الرحلة بأكملها ذهاباً وإياباً تتطلب شهراً واحداً، وهذه مدة مهمتك، فإذا لم ترجع بعد شهر، كان جزاؤك الموت وأهلك أيضاً." وبعد أن أنهى سوغريفا حديثه توجه جيش القردة شرقاً بقيادة فيتانا بحثاً عن سيتا.

اختار سوغريفا بعناية ستة من خيرة القردة وأشجعهم لقيادة الفيالق المتوجهة إلى الجنوب. وكان السبب في هذا الحرص في اختيار القادة معرفته أن تلك البلاد هي موطن رافانا. وكان أن وقع اختياره على كل من جامبافان ملك الدببة، وهانومن الشجاع ابن إله الريح فايو، وتارا، ونالا، ونيلا وعلى رأسهم أنغادا ولي العهد الباسل الذي تخضع له جماعات القردة كلها. وبعد أن التأم جمعهم وقف سوغريفا يعرض لهم وصفاً للبلاد التي سيذهبون إليها: "إن أول ما ستقع عليه أعينكم سلسلة جبال فينديا، وهي سلسلة من ألف جبل، قممها شاهقة مغطاة بالأشجار من كل نوع، وفيها نهر فارمادا الساحر، وهو مسكون بالثعابين والأفاعي الضخمة، ثم تصادفون نهرا غودافاري الجميل وكرشنافيني العظيم، وبعد ذلك تبلغون منطقة ميخالاس وأوتكالا ومدينة داشارنا. كذلك تقصوا أثر سيتا في غابة دنداكا وجبالها وأنهارها وكهوفها، واعبروا نهر غودافاري واتجهوا نحو جبال أيوموكا الغنية بالمعادن الثمينة وقممها البديعة وسهولها المغطاة بالأزهار، وغابات أشجار الصندل. عليكم بالبحث

عن سيتا جيداً في هذه الجبال. وإذا لم تعثروا عليها هناك تابعوا مسيركم وستجدون نهراً مقدساً مياهه عذبة صافية يدعى نهر كافيري وفيه تجدون جماعات من الأبسارا جعلنه مرتعاً للعب واللهو. وفي قمة جبل مالايا ستجدون الناسك الحكيم أغاستيا أعظم النساك وأعلاهم مقاماً، فإن أذن لكم اعبروا نهر تامرا باري الكبير الذي يعج بالتماسيح. وفي هذا النهر ثمة جزر تغمرها غابات من أشجار الصندل، وتتدفق مياه هذا النهر وتجري حتى تصب في البحر، وهي تشبه بتدفقها هذا عروساً شابة ذاهبة للقاء حبيبها. وإذا ما تابعتم المسير ستجدون البوابات الذهبية المرصعة باللؤلؤ والتي تؤدي إلى مدينة بانديا س. ولضمان نجاح مهمتكم امضوا ناحية البحر، وتاكدوا من قدرتكم على عبوره، ففي الجهة المقابلة تقع جزيرة لانكا، معقل الشرير رافانا، وهي جزيرة جميلة بديعة لا يملك أحد الوصول إليها. فابحثوا عن سيتا في هذه الجزيرة. وعليكم ان تعودوا جميّعاً خلال مدة أقصاها شهراً واحداً، ومن يتاخر سيقتل فوراً ومعه أسرته باكملها. اما من يأتينا بنبأ عن سيتا فلسوف يلقى منا التكريم اللائق، ولسوف نظل مدينين له مدى الدهر." ثم وجه حديثه إلى هانومن وقال له: "استمع إلي يا ابن الريح، إذ ان شيئاً ما يخبرني أنك وحدك دون سواك ستتمكن من إنجاز المهمة. فانت لا تخشى ناراً أو ماء، ولك من السرعة ما للريح، وارى أنك واجد سيتا، ومنجز لي وعدي. ولسوف تنال مجداً عظيماً، وأبلغ أنا السعادة برؤية سيتا." ثم استدار نحو راما، وقال له: "أعطه شارة تدل عليك. فالمؤكد أن سيتا تجهل هانومن، ولربما أصابها الذعر إذا رأت قرداً فتنفر منه." فأجاب راما: "هاك خاتمي يا صديقي." فمد هانومن وتلقى أمارة راما لسيتا، ثم حياه مودعاً ومضى.

استدعى سوغريفا سوشينا وسلمه قيادة الجيوش التي تتجه إلى الغرب وأعطاه توجيهاته: "اتجه نحو الغرب وابحث عن سيتا في كل مكان تبلغه، ولسوف تجد في الجهة الغربية سنداهو وأرض المالاي وضفاف نهر كافيري. ثم تصل بعدئذ إلى الأرض الحارة العميقة. وبالقرب من هذا المكان ستجد فسحة من الأرض تغطيها ازهار كيتاكي، وتبلغ مساحتها عدة يوجنات، إلا ان أشواك هذه الأزهار مثل أسنان المنشار، فلتحذرها القردة، ولتسرع

بالخروج من هذه الأرض، فذلك أفضل. بعد ذلك ستصادف غابة النخيل، ولكن حذار أن تأكل من ثمارها، وإلا كان مصير مهمتك الإخفاق. وإلى الغرب ستجد عدداً من القرى والمدن، وبعد أن تجتازها جميعاً ستصل إلى تلال هينغوليا ذات التضاريس العجيبة. وإلى الغرب منها يقع نهر سيندهو وإلى غربه البحر وسلسلة جبال تشاكرافان التي تمتد عدة يوجنات على طول البحر الغربي. وهذه الجبال تنير الأراضي المجاورة لها. وهنا ستجد القرص العجيب، سلاح فيشنو، الذي صنع من عظام الشيطان هايغريفا الذي قتله الإله. فاجعل قردتك تتسلق هذه الجبال للبحث عن سيتا وملك لانكا. وإذا لم تعثر عليهما هناك، امض مسافة خمسين يوجنا حتى تبلغ جبل فاراها. وفي هذا المكان بنى فيشفاكارما منزل إله الماء فارونا، وهو من الذهب الخالص وقد رصع بالجواهر لتبدد الظلام وتضيء المكان. ولكن حذار من الشيطان ناراكا الذي يتجول في الجوار، فشره عظيم بفضل عطف الإله فارونا عليه، وإذا صادف أن قابلتموه فاعلموا أن أحداً منكم لن يفلت من قبضته. فإن فشلتم في العثور على سيتا في هذا المكان، فلتتقدموا حتى جبل سوميرو، وهو من الذهب ومحاط بستين ألف هضبة تتلألأ وتشع ضياء. وعلى قمته توجد شجرة نخيل ذهبية، وهو ملعب الآلهة ومنتجعها الذي ترتاح فيه، ويحفل بمختلف أنواع الزهور والثمار، ولا يضاهيه مكان على الأرض روعة وجمالاً. وهنا تصدح الموسيقى ويرقص الراقصون والآلهة تنظر إليهم من عليائها في السماء. إن سوميرو جبل رائع يثير الدهشة في نفس كل من ينظر إليه، وتبلغ مساحته مئة مليون يوجنا. والشمس تسافر قاطعة سلسلة الجبال كلها في لحظة واحدة، إلا أنها لا تتابع مسيرتها غرباً، لأن الطريق موصد أمامها. إذ يهبط الظلام إلى الغرب من جبل سوميرو، حيث لا حياة هناك. ولست أعلم شيئاً عن تلك الأرض. إن الوصول إلى هذا المكان والعودة منه يستغرقان شهراً كاملاً، وكل من يتاخر في العودة يقتل وأهله." وبعد أن انتهى سوغريفا من خطبته هذه توجه الجيش غرباً.

التفت سوغريفا نحو القائد البطل شتافالي وقال له: "أصغ إلي، أيها القائد الشجاع شتافالي، إنك الزعيم من بين جميع القردة، فقد تصاعد الغبار الذي أثاره جيشك حتى بلغ

عنان السماء. سر شمالاً بأقصى سرعة واصطحب معك جيشك بأكمله وستجد جبال الهيمالايا موطن الثلج والجليد، حيث جاءت إلهة النهر غانجا من هذا المكان، وإلى الشمال أيضاً يقع مقر الإله براهما، ومن هذا المكان جلب باجيراتا نهر الغانج، وكان ملكاً من سلالة الشمس، انقطع للعبادة ورياضة النفس عشرة آلاف سنة أخذ نفسه فيها بالشدة والقسوة، فامتنع طوال هذه المدة عن الطعام والخلود إلى النوم والراحة، عندئذ ظهر له شيفا ليقدم مكرماته، فأنزل الإلهة غانجا من السماء إلى الهيمالايا على شكل نهر الغانج وذلك ليطهر أسلافه ويهب السلام والخلاص لأرواحهم. ابحث جيداً عن سيتا في أرجاء هذه الجبال التي تغمرها الثلوج، وإذا فشلت في العثور عليها، تابع مسيرتك شمالاً حيث ستجد أرضاً يباباً تدخل الرعب إلى القلوب، فليس فيها تلال أو أشجار أو مياه. فلتكن حذراً ولتعبر هذه البلاد بسرعة. وإلى الشمال منها ستجد جبل كيلاسا المقدس الذي يتألف من ألف قمة تشع ضياء من بعيد، وفيه تقع المدينة الجميلة التي يتجول فيها شيفا وبارفاتي. ثم تبلغ بعدئذ مدينة أخرى تثير الدهشة في القلوب وتدعى ألاكا موطن كوفيرا إله الثروة، الذي يستحم في نهر فيما ذي المياه الأرجوانية اللون والذي تنتشر على ضفتيه أشجار الصندل ذات الرائحة الزكية. لربما كان رافانا ذو الرؤوس العشرة قد حمل سيتا إلى هذا المكان. ولهذا ابحث ونقب جيداً، ولا تدع بقعة تفلت من ملاحظتك. فإذا لم تجدها هناك تابع مسيرك شمالاً حتى تصل إلى الجبل ذي القمم الثلاث وستجد القردة الكثير من المتعة في هذا المكان، فالقمة الأولى جميلة جمال القمر، والثانية لها وميض كما المرجان، والثالثة حمراء قانية كالدم.

إن هذه القمم ترتفع إلى علو شاهق حتى لتلامس السماء، فتش المكان جيداً علك تجد سيتا في إحدى هذه القمم. فإذا لم تعثر عليها تابع مسيرك شمالاً وستلقى جزيرة تدعى جامبو وفيها شجرة غريبة اسمها يماثل اسم الجزيرة. وهذه الجزيرة منتجع الآلهة يقصدونها للترفيه عن أنفسهم ولربما تجد سيتا هناك. فإذا لم تجدها تابع ترحالك شمالاً إلى أن تصل إلى بحيرة جميلة تقع على قمة جبل ماندارا يصب فيها نهر الغانج، ويخرج منها نهر

كاوشيكي بمياهه الغزيرة المتدفقة. انتبهوا جميعاً لما أقول وابحثوا عن سيتا وملك لانكا هناك.

وإلى الشمال يقع بحر ماهيشا الذي توجد في أعماقه ثروات لا تقدر بثمن، ويبلغ مئات اليوجنات طولاً وعرضاً، وفيه تقع جبال غروب الشمس بقممها الألف الذهبية التي تنشر ضياءها في كل مكان، وتعلو فوق مياه ذلك البحر، فتملأ فؤاد المرء رهبة وهو يتملى هذا المنظر الرائع. فكن حذراً في بحثك عن سيتا في هذا البحر ولكن فتشه جيداً. وفي جبل ماهيشا يقع موطن شيفا، ورافانا من عبدة شيفا المخلصين. فقم بتفتيش كل قمة فلربما تجد سيتا وملك لانكا هناك، ولكن الشرير يتقن السحر، ولقد غزا السماء والأرض وأعماقها. وأصبح ذا قوة ومنعة فلا يقهر بفضل بركات شيفا وعطاياه، حتى أن النجوم المتلألئة في السماء تنفر من رافانا وجبروته. فإذا لم تجد أثراً لسيتا هناك، امض إلى جبال ترانشاماهيدرا ولسوف يصيبك الذعر من هذا المكان المظلم الموحش، فحذار أن تقربها، بل حسبك النظر من بعيد، فمن يقترب منها نصيبه الموت لا محالة. وإلى الشمال تقع جبال سوماجيري، وستكون سعيداً عندما تصل إلى هناك، فهو موطن النساء السماويات الساحرات. إنك لن تجد سماء أو شمساً أو قمراً أو نجوماً، إلا ما تشع به تلك النساء الآسرات من ضياء يغمر المكان. كذلك ستصادف عدداً من النساك يضربون عصا الترحال في هذه القمم، وهناك نهر يدعى بونيادا ينمو على ضفتيه نبات الخيزران ذو الساق الطويلة. ولتحذرن قبيلة تقيم في تلك الأنحاء، فأهلها مخيفون، ولتنتبه جيداً فهم يقطعون النهر متكئين على أعواد الخيزران. ثم تابع مسيرك شمالاً وستجد قوماً أهل فكاهة وخفة دم، وبوسعك أن تحصل منهم على ما تشاء، وهذه البقعة حافلة بالثمار اليانعة حلوة المذاق، ويجري فيها نهر مياهه حمراء بتأثير بريق الجواهر والدرر، مما هو مستقر في قاعه، وأهل الجوار، رجال ونساء يصنعون منها حلياً يتزينون بها. وتنتشر فيه كذلك أزهار اللوتس الذهبية، وقد بلغت النساء عندهم من التيه والخيلاء لما يتمتعن به من جمال وغنى ما حملهن على الهزء بالإله إندرا، فأنزل بهن لعنته: "لتَمتْنَ في الليل، ولا تتمتعن بالحياة إلا حين ينبلج الصباح."

وبسبب هذه اللعنة فإن جميع النساء هناك أموات طوال الليل، وترتد إليهن الحياة عندما يحل الفجر، ويمضين النهار في الغناء والرقص.

إن العالم متنوع وفيه من كل شكل ولون، فالزم الحذر في الطرق التي تسلكها في أثناء بحثك عن سيتا ورافانا. وإلى الشمال يقع البحر السرمدي، ومن ذلك الموقع تمضي إلى جنوب الجبال الذهبية الشاهقة التي تلامس قممها السماء، وليس للمرء أن يذهب أبعد من تلك الجبال، فهذه الأماكن غير مسكونة، ولم يبلغ علمي شيء عنها. وهذه الرحلة تستغرق شهراً واحداً لا يزيد، ومن يتأخر عن موعده مصيره وأسرته الموت، لقد أخبرتكم بكل ما لدي، فامضوا وابحثوا عن سيتا في كل مكان، حتى تعثروا عليها، لنعيدها إلى راما. لقد أقسمت أمام النار المقدسة على أن أنقذها من محنتها، فلنبحث عنها، بادئ ذي بدء، في الأماكن المألوفة والمتوقعة، ثم نتقدم نحو مدينة لانكا الذهبية."

راحت جميع القردة تصفق فيما زأر شتافالي الشجاع قائلاً: "أيها الملك، ما الحاجة لإرسال جميع القردة؟ إن بإمكاني أن أقتل رافانا وأنقذ سيتا، دون معونة من أحد، فإذا كانت سيتا في أعماق الأرض سأنزل إليها، وإذا كانت في البحر سأجفف ماءه، يا سيد راما ولكشمانا لا تحزنا فمن المؤكد أنني سأنجز المهمة." وكان لهذه الكلمات التي تنم عن الشجاعة الوقع الحسن لدى سوغريفا وأصبح متأكداً من نجاحه، ثم قاد شتافالي جيشه الجرار متجهاً نحو الشمال.

بعد أن توجهت جميع الجيوش للقيام بالمهام التي أوكلت إليها، التفت راما نحو سوغريفا وقال: "اخبرني، يا صديقي، كيف استطعت أن تلم بأحوال هذه البلاد كلها... وهذه الجبال الشاهقة والبحار التي تصل إلى نهاية العالم؟"

أجابه سوغريفا: "عندما هربت فزعاً من غضب فالي، ضربت عصا الترحال في الأرض، وأنا أعلم أن لفالي المقدرة على الوصول إلى أبعد البلدان بقفزة واحدة، فقد كان بوسعه أن يدركني مهما بعدت المسافة بيننا وبذلك تكون نهايتي. فأخذت أهيم على وجه الأرض

وفوقها وفي أعماقها. ولم أكن أقيم في مكان واحد يوماً كاملاً، فكنت تجدني أقطع البحار والمحيطات، وأتنقل بين الجبال والوديان، وأخوض البراري والأراضي الواسعة، لاتقاء شر فالي. وكان لي أن قطعت، برفقة أصدقائي الأربعة، الأرض مئات المرات، وبقينا على هذه الحال حتى أخبرنا هانومن بأمر جبال ريشياموك فاقمنا هناك خانعين ذليلين، حتى آن الأوان واستعدت بفضلك ملكي ومملكتي، وغدوت أنعم بأهلي وقومي من حولي."

وهكذا أخذ الصديقان يخوضان في الحديث، يستذكران أحداث الماضي ويعدان للمستقبل، وأخذت الأيام تكر، حتى لم يبق على الموعد المضروب إلا ايام قلائل، ثم عاد فيناتا من الشرق، وسوشينا من الغرب، وشتافالي من الشمال، واعتذروا قائلين: " لقد خضنا في البلدان والقفار، حيثما بلغ بنا المسير، وبحثنا في الجبال والبحار، لكننا لم نعثر على اي أثر لسيتا."

شعر راما بحزن شديد حين سمع أقوالهم حتى كاد الدمع ينهمر من مآقيه، فطمانه سوغريفا بقوله: "يا مولاي، إن موطن رافانا في الجنوب ولقد أرسلت إلى تلك الجهة خيرة القادة، ومن بينهم هانومن الشجاع الذي يتحلى بقدر كبير من الحكمة، واعتقد انه سينجز المهمة على اكمل وجه، فلا تخشى شيئاً، فهو بلا ريب سيعثر على سيتا." وما زال سوغريفا يلاطفه، حتى هدأ ودخلت الطمانينة إلى قلبه.

أما جيش القردة الذي أرسل إلى الجنوب فقد علمنا أنه لما بلغ سلسلة جبال فينديا. راح الجنود يفتشون عن سيتا في كل مكان وظلوا على هذه الحال، حتى انقضت المهلة، دون ان ينجزوا المهمة المطلوبة، فسرى الذعر بين القادة والجنود، وباتوا في حال مزرية من اليأس والخوف، ولكنهم ظلوا يتابعون المسير ويجوبون المناطق، فإذا بهم يدخلون ذات يوم إحدى الغابات الرهيبة، ولهذه الغابة قصة؛ فيحكى أنه كان يعيش فيها طفل جميل، وأن وحوشها قد قتلوه وهو ما يزال دون العاشرة، وأن الحزن والأسى دفعا والده الناسك كاندو لإنزال لعنته بالغابة، ومنذ ذلك الوقت لم تعد أشجار الغابة تحمل ثماراً، وخلت من الحيوانات والطيور

والحشرات، وبات الصمت والكآبة يخيمان عليها، ولا يملك من يدخلها أن يغالب إحساسه بالخوف والفزع. ولما دخل القرود هذه الغابة فتشوها جيداً إلا أنهم لم يعثروا فيها على أي أثر لسيتا. ثم دخلوا غابة أخرى، واجهوا فيها راكشا رهيباً، ما أن وقعت عيناه عليهم حتى اندفع نحوهم فاغراً فاه مبرزاً فكه المخيف، وكان على وشك أن يفترس عدداً منهم لولا بسالة أنغادا واندفاعه لاعتراض هذا الوحش، فتصارعا طويلاً، دون أمل لأحدهما بالفكاك من قبضة الآخر، ثم استطاع أنغادا أن ينهي الصراع حينما وجه لكمه قوية إلى صدر ذلك الوحش فسقط قتيلاً والدم يتدفق من فمه.

أقام القرود في الغابة بعد مقتل الراكشا، ولكن دون أن يهنؤوا بالمقام. فكانوا يجلسون في ظل الأشجار والحزن يخيم عليهم، وقلوبهم مثقلة بالهم. وفي أحد الأيام، وقف أنغادا مخاطباً جمع القردة: "قد مضى شهر ونيف منذ أن خرجنا للبحث عن سيتا، وها قد انقضت مدة المهمة دون أن نعثر عليها. إن عدنا الآن إلى الوطن فلن يكون لنا أمل في الحياة، ويقيناً أن سوغريفا سيقضي علينا جميعاً." فوافقه الجيش بأكمله وتعالت أصوات الجند: "قد بذلنا كل جهد للعثور على سيتا، ولم ندع غصناً إلا وتفحصناه، ولم نترك زاوية أو بقعة في الغابة إلا ونقبنا فيها. فأين يجب أن نبحث بعد؟"

تابع أنغادا قائلاً: "لقد أقسم عمي على إنقاذ سيتا، وفي سبيلها أرسل أشجع الشجعان إلى أقاصي الأرض. فلنر إن كانت الجيوش الأخرى قد أصابت أكثر مما أصبنا في هذه الحملة؟ ولكن دعونا منهم الآن، إذ يجب أن نخطط حتى نخرج بنتائج طيبة فيها مصلحتنا والرأي عندي أن نفتش الجنوب بأكمله، فلعلنا نوفق، ونعود إلى راما وسوغريفا بنبأ يسران به."

بينما كان أنغادا يتحدث وقعت عيون الجند على كهف سحيق تخرج منه أسراب الطيور، فشرع الجميع يتساءلون كيف يمكن للطيور أن تعيش في مكان لا ماء فيه؟ وكان إلى جانب الكهف شجرة ضخمة فقفز القرود إليها، وراحوا ينظرون من بين أغصانها ويرصدون ذلك الكهف الذي لا تبلغ أعماقه أشعة الشمس أو ضوء القمر. وشرعوا يفكرون

في طريقة لدخول هذا الكهف، فلربما كانت سيتا محتجزة فيه. فاصطفوا وراء بعضهم البعض وكل منهم يمسك بذيل الآخر، وشكلوا صفاً واحداً متماسكاً، ودخلوا النفق المعتم دون أن يراودهم خوف أو وجل. كان المكان غارقاً في ظلام دامس، ولم يتبين أحد منهم طريقه أو موطئ قدمه، فراحوا يعبرونه خطوة خطوة. ولقد تذمر بعضهم، وعلا صوت البعض يدعو للعودة، وأخذ آخرون يتساءلون عن جدوى دخول مكان يمكن أن يكون الموت فيه. لكن أغلبهم كانوا من القائلين بالبقاء ومتابعة البحث عن سيتا، فكانت الغلبة لهذا الرأي.

كان هانومن يقود مسيرتهم، وهم يتعثرون ويتلمسون طريقهم كالعميان. وعادت الأصوات تتعالى: "أخبرنا يا ابن الريح، كم نبعد عن الضوء؟ وكم طول هذا الطريق؟" فأجابهم: "لا تخشوا أمراً، فأنا معكم، فحافظوا على الصف من ورائي." فكان لتلك العبارات فعل السحر بين الجنود، فاشتدت عزائمهم، وقويت قلوبهم، وعادوا يسيرون متماسكين في صف واحد. وكان هانومن الشجاع الجريء يقودهم وسط المخاطر والظلام غير هياب ولا وجل، والجنود يتبعون خطاه دونما خوف، حتى بلغوا بيتاً آيه في الروعة والجمال، مبنياً من الذهب، وتحيط به أسوار من الذهب الخالص، وحوله أشجار ذهبية، وفي وسط بركة البيت طفت أزهار اللوتس الذهبية، وبينها تسبح سمكات ذهبية اللون أيضاً. أخذ القردة يتساءلون وقد استولى عليهم العجب: "أي بلد هذا؟ إن نسيمه معطر يثير الانتعاش! انظروا إلى هذه الأزهار والفاكهة!" وتعالت أصواتهم تطلب الوقوف للراحة، وأخذ بعضهم يشكو الجوع، ويطلب الطعام. وبينما كانوا يتأملون المكان، وقع نظرهم على امرأة لا تبعد عنهم كثيراً، ترتدي ثوباً من جلد الغزال، قاتم اللون. كانت هذه المرأة من الزاهدات المتنسكات، وهبت حياتها للعبادة والصيام، فاندهش القردة للنور الذي كان يشع منها فظلوا يتأملونها لبعض الوقت صامتين، ثم بادرها هانومن مخاطباً: "من أنت؟ ومن هو صاحب هذا الكهف؟" ثم انحنى أمامها وهو يضم راحتيه تحية لها، وكرر السؤال: "لمن هذه الصومعة؟ ومن صاحب هذا البيت المرصع بالجواهر؟ لقد دخلنا كهفاً يلفه الظلام،

منهكين يعضنا الجوع والعطش، ونزلنا إلى أعماق الأرض علنا نعثر على شيء من الطعام والشراب، لكننا ذهلنا حين طالعتنا هذه البدائع، بل كدنا نفقد رشدنا."

ولدى سماعها حديث هانومن، قالت الزاهدة التي نذرت نفسها لخير الكائنات كلها: "إن هذا المكان ملك مايا ذي القدرات العجيبة، وهو الذي شيد هذا البستان الذهبي كله. وقد كان كبير البنائين لدى العمالقة. ولما كان قد وهب نفسه لحياة العبادة والتبتل لمدة ألف عام في الغابات الشاسعة، فإن إله الكون منحه القدرة على الاتقان التام لفنه، والسيطرة المطلقة على المواد المستخدمة فيه. وبعد أن أمضى فترة في الغابة توله بالحورية هيما، عندئذ قضى عليه بوراندرا بقرصه الصاعق. ثم كان أن منح براهما هذه الغابة الرائعة بقصرها إلى هيما. أما أنا فادعى زفايا مبرابه بنت ميروسفاروي، وأقوم على حراسة كهف ريكشا بيلا، مقر إقامة هيما المتمكنة من فني الرقص والغناء، وهي من أعز صديقاتي، وقد عهدت لي برعاية هذه الغابة، أما الآن فاخبروني ما الذي أتى بكم إلى هذا المكان؟ ما الذي جعلكم تقطعون هذه الغابات البعيدة؟ اخبروني كل شيء عنكم."

فاجابها هانومن بأنهم رسل راما، واخبرها قصة الأمير راما وسيتا الجميلة التي اختطفها رافانا واخذها بعيداً، وحدثها عن الحزن الذي أصاب راما لفراقه سيتا، وتجواله في الغابات هائماً على وجهه، وأن القدر قد جمعه مع سوغريفا ملك القردة، وأنهما تعاهدا على الصداقة... ثم روى لها القصة كاملة، وعن بحثهم عن الأميرة، وانقضاء المدة المحددة لعودتهم، وأنهم يخشون العودة... وبعد أن انتهى من حديثه، دعتهم الزاهدة إلى تناول بعض الفاكهة والثمار ليسكتوا جوعهم، فراحوا يتناولون ما لذ وطاب منها، وبعد أن فرغوا من طعامهم سألها هانومن: "بفضلك استطعنا أن نسكت جوعنا، فاخبرينا كيف لنا أن نرد صنيعك هذا؟"

فاجابتهم: "لقد سعدت بلقائكم، ولست بحاجة لاي شيء، وإن استرحتم لما شاهدتم مني، فما ذلك إلا من قبيل أداء الواجب وحسب. غير أني أصارحكم بأن الخروج من هذا المكان ليس بالأمر اليسير، لكنني ساعمل على إخراجكم جميعاً، بقوة السيطرة على النفس

التي أتمتع بها، إنما عليكم ن تغلقوا أعينكم كي تخرجوا أحياء."

فامتثلوا لما طلبت، وبذلك خرجوا جميعاً. عندئذ، ظهر أمامهم بحر الجنوب العميق الغور والجبال الشاهقة. وبعد أن خرجوا من الكهف، أحاطوا بالأمير أنغادا وقدموا له التحية، وشكوا له امرهم قائلين: "لقد نزلنا أعماق الأرض ومع ذلك لم نقع على أثر لسيتا أو ملك لانكا."

فأجاب أنغادا: "أيها القردة، لقد انطلقنا في رحلتنا هذه لنتقصى أثر سيتا، وكان ذلك قبل أكثر من شهر مضى، وأنتم تعلمون بوعيد سوغريفا بأن يقتلنا جميعاً، إذا لم نعد إليه في غصون الشهر. ولست أعلم عن مصير الآخرين، إلا أنني على يقين من أن كارثة تنتظرنا. فمن لم يرحم والدي، لن يرأف بحالي ويوفر حياتي. لقد أقسم راما على النار المقدسة بأن يرعى سوغريفا وحده، وهو الذي نصبه ملكاً على عرش والدي ! فاعلموا إذن، أن عمي قاتلي لا محالة، ولن تأخذه بي شفقة." فاجاب القردة وهم ينتحبون: "من لا يبق على حياتك، لا بد أن تهون عليه حياتنا نحن أيضاً."

فخاطبه القرد تارا المشهور بحكمته: "لتطمئن بالاً أيها الأمير أنغادا فلن نعود لسوغريفا ! وسنلجأ إلى أعماق الأرض لننعم فيها بالسلام، ففيها مكان غني بالذهب يليق بملك، جنة تحفل بالأزهار والثمار والمياه العذبة، فقر عيناً ولا تخشى سوءاً، فليس بمقدور سوغريفا أو راما أو لكشمانا أذيتك. دع عنك الخوف، يا صديقي، ووطد النفس على العيش في سعادة ويمن في أعماق الأرض."

وافق الجميع على ما قاله تارا، لكن هانومن أخذ يتامل ويقدح زناد الفكر، حتى تفتق ذهنه عن خطة يسير بمقتضاها. فقد كان تحت وطاة الإحساس بانه لا يستطيع التخلي عن إنجاز المهمة لراما، ما دام حياً على وجه الأرض، فقال يسأل انغادا: "علام العزم، أيها الأمير، وماذا انتويت للقردة من جماعتنا؟ الحق انك تخطئ بالحديث على هذا النحو ! فلقد أتيت لأمر واحد، ولا شيء سواه، فإذا بك تعرض أمراً آخر، ثم نراك تؤثر السلامة بالهرب، متناسياً

واجبك. إنني لا أتردد في مصارحتك بالحقيقة. هل تملك القردة الفرار معك، وقد تركوا أزواجهم وأبناءهم في كيشكيندا؟ فهل تراهم يتخلون عن أهلهم ليلحقوا بك؟ لك أن تعيش في الغابة وحيداً. ولن تجني عندئذ سوى الصيت السيء. لقد قتل راما أباك بسهم واحد فهل تأمل بالإفلات منه؟ الحق أنك فقدت الصواب، أيها الأمير، إننا نعرف الكثير عن شجاعتك، لكننا نجدك تحدثنا عن الهرب والفرار! أفلا تخجل من نفسك؟ إن فشلنا في مهمتنا بعد أن نفتش الجنوب كله، فإننا سنعود ونضع أنفسنا تحت تصرف سوغريفا وهو ملك عادل، يملك التمييز بين الحق والباطل، وحكمه صواب. ولكن علينا في جميع الأحوال، أن نمتثل لأوامر ملكنا، ونمضي حيث وجهنا. لقد نصبك سوغريفا قائداً لنا، ونحن نلتزم بأمرك، ونخضع لإرادتك، ولا نهاب شيئاً، حين نسير بإمرتك."

غضب أنغادا لما سمع من هانومن، وأرغى وأزبد: "لقد تجرأت علي، ووجهت لي الإهانات أمام الملأ! إن عمي قد أرسلني إلى بقاع كثيرة حافلة بالمخاطر للبحث عن سيتا، وها هو الموت ينتظرني. فلتفكر جيداً، أيها البطل هانومن. إن أفعال سوغريفا لم تكن خيرة قط. أفلا تذكر ما قام به راما؟ لقد قتل والدي على غير وجه حق. فلو أنه قتل على يد خصمه في معركة خاضاها وجهاً لوجه، لعلمنا أيهما أكثر شجاعة. ثم ما الذي منع راما من طلب العون من والدي؟ فلو أنه سعى إليه، لجر رافانا من عنقه، أينما كان، ولما كنا نعاني نحن من أجل سيتا. إننا نعلم حق العلم مبلغ بأس أبي، وقد خبرناه في انتصاره على رافانا. ولولا أن والدي كان رحيماً به لما وجدناه الآن حياً، ورافانا هو الذي اختطف سيتا، وبسبب هذا نعاني الآن مر المعاناة. لقد لجأ راما سليل الملوك إلى الظلم، ولذلك هو يعاني الآن، فاعدل في الحكم يا هانومن الشجاع .ولسوف يحزن راما إن فشلت لكن الموت سيكون من نصيبي أنا. وهذا يقين."

فرد هانومن: "لقد صدقت، ولكن دعونا أولاً نفتش في كل البلدان التي ذكرها الملك، ولنر بعدئذ أي طريق سوف نسلك!"

فاعترض أنغادا واحتج قائلاً: "قل ما تشاء. فإنني أعلم أن الموت آت بالتأكيد. فلن يرحمني راما وسوغريفا. ولتعلم أن أنغادا ميت لا محالة. لقد قتل سوغريفا أخاه الأكبر، وكان بمقام والده، ولن يتوانى عن قتل ابن أخيه كذلك. احمل تحياتي لوالدتي التي أعلم أنها تؤثر الموت بعدي." ثم حيا أنغادا الجميع مودعاً، فالتف القرود حوله وهم يبكون ويرددون: "سنموت معك أيها الأمير، فالموت أهون من أن نفقدك، يا أميرنا، فإن فقدناك أضعنا الطريق." وكان ذلك قرارهم الذي أجمعوا عليه، فمضوا للاغتسال ثم اتجهوا بعدئذ شرقاً، حتى وصلوا إلى مكان مقابل الجبل، فجلسوا وهم يحدقون في الجبل المواجه لهم، وقد استولى عليهم اليأس، وقالوا: "لن نذوق طعاماً أو شراباً، وسنجلس هكذا صائمين حتى يأتينا الموت."

وقد صادف أن كان النسر سامباتي بن غارودا الطائر الشهير، جالساً متربعاً بجسمه الضخم على قمة الجبل. فذهل القرود لمرآه، ودب الخوف في قلوبهم لفرط ضخامته وهول منظره، واعتقدوا أنه سيلتهمهم لا محالة. عندئذ نهض أنغادا، وقال مخاطباً هانومن: "اصغ، يا صاحبي! لقد أتينا في هذه الحملة للبحث عن سيتا، ومن أجلها سوف نموت في بلاد غريبة، كذلك فإن ملك الطيور جتايو مات وهو يدافع عنها." فصاح سامباتي حينئذ، من بعيد: "من الذي يتحدث عن موت جتايو؟ أهكذا أعلم بموت أخي العزيز؟ واحسرتاه! إن الحزن يعتصر قلبي، لكنني عاجز فقد حكم علي القدر باحتراق جناحاي، فلا أملك كما ترون الانتقال إلى الجهة المقابلة."

تداول القردة في الأمر وقالوا: "إنه طائر ماكر يريد استدراجنا ليظفر بنا ويقتلنا. فلا ريب أن الشيخوخة نالت منه، ولم يعد يقوى على الطيران، فيريد أن ينصب لنا فخاً فنقع فيه ونصبح فريسة سهلة له." عندئذ قال هانومن: "إذا كان الموت محققاً فدعوني أتقصى من هذا الطائر العجوز ما يفيدنا من الأخبار."

استحسن القردة هذا الرأي، فمضى هانومن إلى ملك الطيور سامباتي، وحمله وجاء به إلى القردة، فحياه الأمير أنغادا بأن ضم راحتيه وأحنى رأسه إجلالاً وإكباراً وخاطبه قائلاً:

"لقد كان فالي وسوغريفا أخوين، إلا أنهما تشاجرا. كذلك فإن السيد راما انتقل للعيش في الغابة حفاظاً على العهد الذي قطعه والده، وكان برفقته كل من سيتا ولكشمانا، ولكن رافانا اختطف سيتا عندما وجدها وحيدة. وفي أثناء بحث راما ولكشمانا عنها التقيا بسوغريفا، فاقسم راما وسوغريفا أمام النار المقدسة على أن يساعدا بعضهما البعض، وكان أن قتل راما والدي الملك فالي ونصب سوغريفا محله، فقام سوغريفا بتوجيه جميع القردة للبحث عن سيتا، فارسل الحملات العسكرية إلى أركان الأرض الأربعة على أن يعودوا في غضون شهر واحد، وقد انقضت هذه المدة، وغدا مصيرنا الآن في مهب الريح، ها قد أخبرتك بامرنا كله، وساخبرك، بعد، بامر جتايو وما انتهى إليه هذا الطائر العظيم. فاعلم، إذن، انه بينما كان رافانا يبتعد بسيتا التي خطفها، وهي تصرخ مستنجدة، بلغت صيحتها جتايو، القابع في أعالي الجبل يعرض جناحيه لأشعة الشمس طلباً للدفء، إذ كان طاعناً في السن ولا يستطيع أن يحركهما. ومع ذلك، فقد حلق في السماء، ورصد مصدر الاستغاثة، فرأى سيتا محمولة في عربة رافانا التي تبتعد بها، والمرأة تستغيث وتطلب النجدة من راما ولكشمانا ، فحط ذلك النسر العظيم على الأرض، وفرد جناحيه معترضاً العربة، وهو يسمع رافانا مر الكلام تنديداً وتقريعاً لفعلته النكراء، وأتبع كلامه بضربه بجناحيه ونزل بالعربة تحطيماً بمنقاره ومخالبه حتى أصبحت شذراً مذراً. ولكن السنين كانت قد نالت من هذا الطائر العظيم، وأوهنت قواه، ولم يعد يملك أن يصمد أمام أهل الشر أمثال رافانا، الذي تمكن منه بيسر، وأثخنه جراحاً بسهامه وحطم جناحيه، فسقط على الأرض لا يقوى على النهوض، بينما دماؤه تنزف بلا انقطاع، لكنه ظل يقاوم، وكأنما يستمد من تشبثه بالحياة قوة تعينه على ضعفه، حتى قدم راما وأخبره بما جرى، ثم فاضت روحه، فقام راما بطقوس الدفن، وحرره إلى الأبد من دورة الحياة والموت. وها قد أخبرتك بامر جتايو، وأسباب موته، فاخبرنا عن صلتك به."

بعد أن سمع سامباتي قصة موت جتايو، راح ينتحب، ودموعه تجري بلا انقطاع، وهو يندب أخاه ويقول: "واحسرتاه! النذل يقتل أخي ويعيش هانئاً. لكن وا أسفاه! فليس لي

جناحان. والآن إليكم حكايتي أيها القردة؛ كان جتايو أخي الأكبر ووالدنا غارودا، وكنا نتمتع بالقوة والبأس الشديدين. وفي أحد الأيام، حاولنا أن نلمس الشمس لنختبر مبلغ قوتنا، فحلقنا عالياً في السماء حتى بعدنا عن الأرض مسافة تبلغ مئة مليون يوجنا، وتابعنا التحليق والصعود في السماء من الفجر حتى الظهيرة طامحين لبلوغ الشمس، والحرارة تزداد شدة وضراوة. فأصبنا بحروق خطيرة لرعونتنا وتهورنا. وكاد جتايو أن يفقد حياته فظللته بجناحي، لكنهما احترقا، وشاء القدر أن أسقط على هذا الجبل، ومازلت أسكنه حتى اليوم. وكنت قد وقعت بالقرب من جدول يمر في هذا المكان، وتاتي إليه حيوانات كثيرة كالأسود والنمور والثيران والغزلان لتنهل من مائه، إلا أنني كنت شديد الضعف، لا أقوى على صيدها لأتغذى بها. فجلست تحت شجرة تين البنغال بائساً حزيناً. وصادف أن أتى أحد النساك ليغتسل في ماء الجدول فاقترب مني، وكان رجلاً حكيماً مشهوراً ويدعى نيشاكارا، فحييته، ولم أتمكن من التحدث إليه لما اعانيه من الضعف والألم، فراح يتأمل فأحاط بأمري وما يتصل بي وعرف أحوالي الماضية والآتية. ونصحني قائلاً: "تشبث بالحياة، يا ملك الطيور، واصمد، واعلم أنك ستستعيد جناحيك في المستقبل... فلسوف يحكم الملك دشاراتا طويلاً، ثم يبلغ أكبر أبنائه راما سن الرشد. ولسوف يقضي راما ردحاً من الزمن في الغابة إرضاء لوالده، ثم يقوم رافانا باختطاف سيتا زوج راما. وستبحث القردة عنها، وستلقاهم في هذا المكان. ولسوف تستعيد جناحيك حينذاك، وحتى ذلك الوقت سوف تبقى في هذا المكان ما ينوف على مئتين وخمسين عاماً. ثم تكون خاتمة أحزانك، فاحرص على أن يبقى اسم راما في قلبك... لذلك كنت طوال الوقت أعيش مقيماً على ذكر راما ومن أجله."

لكن أنغادا ظل على توجسه منه، فصارحه بحقيقة مشاعره، قائلاً: "إذن، فاعلم أننا في الحقيقة، تراودنا الشكوك في امرك، يا ملك الطيور، فاخبرنا بموطن رافانا، وأين يعيش؟ وما هي المسافة التي يجب ان نقطعها لنصل إليه؟"

فأجاب سامباتي: "إنني من الطيور الكواسر، وفي الماضي كنت أحلق في سماء الجنوب لا

أتعداها وساخبركم بكل ما أعرفه، ولكن حدثوني قبل كل شيء عن راما، فلا أحد سواه يمكنني من استعادة جناحي مرة أخرى." فاخذ هانومن يفصل في أمر راما، وكل ما يعرفه عنه، وما صادفهم في أثناء بحثهم عن سيتا... وفيما كان يتحدث عن راما كان جناحا سامباتي ينموان ويزدادان نمواً وكبراً، مصداقاً لحقيقة راما. ثم خاطبهم قائلاً: "بعد أن خطف رافانا الشرير سيتا وأخذها إلى موطنه، رفعت رأسي من موقعي فرأيت سيتا الجميلة في غابة أشوكا يحيط بها حرس من نساء الراكشا... وإذا شئتم رؤية سيتا عليكم أن تقفزوا فوق المحيط مسافة مئة يوجنا. وليس هذا بالأمر الذي يشق عليكم وأنتم أصحاب قوة وعزم. فما خشيتكم من ركوب المخاطر، ومهمتكم تقتضي منكم عبور البحر؟"

اتجه القردة بأبصارهم إلى الجنوب، لكنهم لم يتمكنوا من رؤية ما يزيد على عشر يوجنات. وراحوا يثابرون على النظر والتحديق إنما عبثاً، فكان ذلك مبعث ضحك ملك الطيور، عندئذ وقف جامبافان الحكيم، وسأل ملك الطيور: "أخبرني، يا سامباتي، كيف لنا نحن القردة أن نقطع مئة يوجنا عبر المحيط؟" فأجاب سامباتي: "اصغ إليَّ إذن! فلقد لاحت لي فكرة رائعة. إن ابني سوبارسا يسكن وأسرتي في جبال الهيمالايا، ولقد دأب على أن يأتي إلي فجر كل يوم، حاملاً الطعام. واتفق أن تأخر ذات يوم عن موعده، فأصابني ضعف من شدة الجوع، وحين جاء أمطرته لوماً وتقريعاً. فاعتذر بأنه إنما تأخر لأمر عرض له، إذ رأى في طريقه، وهو يدبر لي الطعام، امرأة في مركبة رافانا، وقد بدا أسود اللون والمرأة بلون الذهب مثل البرق بين السحب الداكنة، وكانت لا تنقطع تنادي: "مولاي راما، لكشمانا." وابني ذو حمية، وشق عليه أن تستغيث المرأة ولا تجد من ينجدها. ففرد جناحيه ليعترض العربة، وكاد أن يبتلع رافانا، لولا خشيته أن تقتل المرأة في هذه المعمعة. فلما سمعت رواية سوبارسا عرفت أن المرأة هي سيتا زوج راما. وابني آت قريباً، وهو على جانب عظيم من القوة، وبوسعه أن يحملكم على ظهره ويعبر بكم البحر، وبمقدوره أن يقطع بكم ثلاثة أرباع المسافة، وما عليكم سوى أن تقطعوا الربع الأخير، وهذا أمر يسير عليكم. فلا تفزعوا وتجلدوا، فالفرج قريب."

وفيما كان الحديث يجري بين القردة وسامباتي، ظهر لهم سوبارسا العظيم، فاتحاً منقاره يبغي ابتلاع القردة، لولا أنهم التجؤوا إلى حمى سامباتي، وهم في خوف شديد. وقال سامباتي: "ترفق يا بني. فقد أعانني هؤلاء في أمور كثيرة. فهيا احملهم واعبر بهم البحر." فهتف سوبارسا ملبياً أمر أبيه: "هيا أيها القردة، اصعدوا على ظهري جميعاً، ولسوف احملكم حيثما تبغون."

لكن أنغادا خاطب القردة قائلاً: "أيها الشجعان، لنعبر البحر بأنفسنا بحثاً عن سيتا. إننا أبناء آلهة، ولدينا من القوة الكثير فما حاجتنا لسوانا؟" فأجاب سامباتي: "إنني إنما أقوم بما يريده راما. فبفضله أصبح لي جناحان جديدان." وقد كانا جناحين جميلين ممتعين للنظر، وفيما كان القرود ينظرون إلى الجناحين في دهشة وذهول هتفوا: "المجد لراما! سيظل راما في خاطرنا وعقولنا. ولسوف نتمكن من عبور البحر العظيم بقدراتنا. ذلك أمر لا ريب فيه."

ودع ملك الطيور القردة، ثم حلق وابنه في السماء متجهين نحو الشمال. في حين تابع أنغادا والقردة طريقهم إلى الجنوب، والجنود يطلقون صيحات الحرب، حتى وصلوا إلى المحيط الجنوبي الذي امتدت أمامهم مياهه الداكنة حتى بلغت الأفق البعيد، والأمواج تتلاطم وترتفع عالياً. وفي أعماق المحيط كانت تقبع وحوش البحر الرهيبة تتربص بالقادمين، ولقد امتلأت قلوبهم بالخوف، فصاح بهم أنغادا: "اطرحوا عنكم الخوف والحزن ففيهما مقتل الشجعان. وإن استطعنا أن نهزمهما كان النصر حليفنا أينما توجهنا. أما الآن فلتناموا مطمئنين بجانب البحر. وفي الصباح الباكر سوف نقوم بالعبور."

امتثل القردة لأوامر قائدهم. وفي الفجر انتظمت الألوية واستعدت لتلقي الأوامر من الأمير أنغادا وهم يقدمون له التحية بضم الراحتين على نحو ما جرت العادة. ولقد خاطبهم قائلاً: "من الشجاع الذي يعينني على الوفاء بالتزاماتي؟ من ذا الذي يستطيع انتزاع الرحيق المقدس من يدي براهما، أو الصاعقة من إندرا، أو ينتزع من الشمس أشعتها؟ من ذا الذي يقدر على أن يأتي بالنسيم العليل من أشعة القمر، أو يجلب عصا ياما من إله الموت، أو أن يربط فيلاً إلى ساق زهرة اللوتس؟ من ذا الذي يملك الشجاعة لإنجاز هذه المهمة؟ كم

ساكون سعيداً إن وجدت بينكم من ياتيني بنبأ عن سيتا، وبذلك أتمكن من العودة إلى الوطن وأملي النظر بزوجي وولدي."

ران الصمت على جموع القردة ولم ينبس أحدهم ببنت شفة، فعاد الأمير أنغادا يكرر طلبه، لكن الصمت ظل مخيماً، والأمواج تتلاطم وتعلو حتى لتطاول السماء، والقردة يحدقون في المياه الهائجة وقد خيم عليهم الصمت واليأس. فقال لهم أنغادا: "لم هذا الحزن والقنوط؟ من الشجاع بينكم فليتقدم وينال إنعام الملك؟ من البطل الذي سينجز لسوغريفا وعده؟ من الشجاع الذي يملك الجرأة التي تمكنه من مساعدة راما؟ من المقدام الذي سينقذ قومنا وينال المجد بالبحث عن سيتا؟"

لما عجز القردة عن مقاومة كلماته، أخذوا يتقدمون ببطء الواحد تلو الآخر، وكل يعرض له المساعدة التي يستطيع تقديمها لإنجاز المهمة. تقدم الجنرال غايا بن ياما وقال إن بإمكانه أن يقفز مسافة عشر يوجنات، وعرض أخوه غافاغشا أن بإمكانه أن يقفز عشرين يوجنا، أما سورروف فقال: " إن بإمكاني أن أقفز مسافة تزيد على أربعين يوجنا." أما غاندا ماردان فقال: "وأنا أقفز خمسين يوجنا." عندئذ، قال ماهندرا بن سوشينا: "بمقدوري أن أقفز مسافة ستين يوجنا." أما دفيندرا فقال: "سبعون يوجنا هي منتهى استطاعتي." ثم تقدم البطل الصنديد ابن فيشفاكارما فقال: "أستطيع أن أقفز ثمانين يوجنا." وقال تاركا خازن الملك: "بمقدوري أن أعبر مسافة اثنين وتسعين يوجنا." أما جامبافان فضحك وقال: "إن قوة المرء تضعف مع الزمن، ولا أستطيع أن أقفز أكثر من خمس وتسعين يوجنا. ولإنجاز المهمة على المرء أن يقفز خمس يوجنات أخرى، وإني لأشعر بالعار عندما أفكر في هذه المسافة الإضافية." بعدئذ هتف أنغادا الشجاع قائلاً: "إني أستطيع أن أعبر المحيط وحيداً بلا عون. فبقفزة واحدة أبلغ لانكا، لكنني أخشى ألا أتمكن من العودة، وهو أمر محتمل. فقد أسرف والدي في دلالي، ولم يدعني أخبر الكد والتعب. ولهذا السبب أراني جاهلاً بمقدار قوتي، فأنا قادر على عبور المحيط، ولكن إن فشلت في العودة، فإن ذلك سيعيق تنفيذ المهمة التي كلفنا بها راما." فضحك جامبافان عند سماعه هذا وقال: "إنك لشجاع حقاً فعلام

هذا الحديث؟ إن العوالم الثلاثة تعلم مبلغ شجاعة والدك، ويقال إنك تبزه، فبوسعك إذن أن تعبر المحيط وتعود ثانية مئة مرة. ولكن ما دمت قائدنا، فلم تكلف نفسك هذه المشقة؟ إنك جذر جيشنا، ونحن الفروع. فإذا حافظنا على الجذر، سنحصل دوماً على الثمر. وإذا حطمت العاصفة الشجرة، فإنها تفقد أوراقها، لكن الجذر يبقى وتورق الأغصان من جديد. إن القردة جميعهم خدم لديك، ولك أن تتكل عليهم في إنجاز ما تكلفهم به من الأعمال والمهام. فمر، يا ملك القردة، ولسوف يتولى أتباعك تنفيذ المهام." فرد عليه أنغادا: "وما الذي علينا أن نقوم به؟ فليس هناك من يستطيع عبور البحر سواي، لكن في العودة مخاطر كثيرة. ثم لا ريب بأن سوغريفا سيلقانا بالعقاب لتأخرنا، وحياتي الآن في خطر، والموت بات محتماً، فلتشهدوا أيها الأبطال أني سأعبر البحر."

فتعالت صيحات القردة: "يا سيد القردة، لم عبور البحر؟ أنت ملكنا ذو الحكمة والسجايا الحميدة. وقد وجدنا فيك العوض عن والدك الفقيد. فإن فقدناك شق علينا العيش بعدك."

عندئذ قال جامبافان: "حسبكم! فلتعلموا أن هانومن الباسل من سيعبر البحر. فهو مقدم الجند، وقد جرح في الصميم. فما انتظارك يا هانومن، وأنت القوي الجبار؟ وعلام الخداع والمراوغة؟ إنك الوحيد القادر على إنجاز المهمة التي أرسلنا راما من أجلها." وقال أنغادا: "الحق ما قلت أيها الوزير جامبافان. فلا أحد يضارع هانومن قوة." فأحاط القردة ببطلهم، وأخذوا يهتفون بحياته، وراح بعضهم يصافحه، والبعض الآخر يضمه معانقاً بحرارة. وقال جامبافان: "فلتستمعوا، أيها المحاربون، لقصة مولد هانومن؛ منذ زمن بعيد كانت راقصة سماوية من الأبسارا، حلت بها لعنة فيشفاميترا فتحولت إلى قردة، وكانت على قدر عظيم من الجمال، وسكنت جبل مالايا. وصادف أن التقى بها إله الريح فايو، وكان ذلك في فصل الربيع، ومن لقائهما ولد هانومن في ليلة مظلمة غاب عنها ضوء القمر، وراح ينهل من حليب أمه لحظة ولادته. وفي الفجر نهض هانومن عند شروق الشمس ليمسك بها، وهو يعتقد أنها ثمرة ناضجة، بالرغم من أنها تبعد ملايين اليوجنات.

وفي أثناء ذلك كان العفريت راهو في طريقه ليكسف الشمس، لكنه هرب عندما رأى هانومن وأسرع إلى إندرا في السماء، وقال له وهو يلهث: " أيها الملك لقد جاء راهو آخر لابتلاع الشمس." فانتاب إندرا القلق لسماعه هذا النبأ، وقال: " من الذي يجرؤ على ابتلاع الشمس؟" وانطلق على الفور على ظهر فيله الأبيض. ولما وقع نظره على هانومن، انتابه الخوف، وراح يفكر: "إن الفيل الذي أركبه مزركش ومزين بلون قرمزي، فلربما أثار انتباهه، وحسبه الشمس. فابتلعني عوضاً عنها." وهكذا دب الرعب في قلبه وتناسى من يكون، فقذف هانومن بقرصه الصاعق دونما مبرر، فوقع مغشياً عليه وسقط على جبل مالايا، ولم ينكسر له سوى ضلع واحد. والحق أنك أشجع الشجعان، يا هانومن، والجميع متكلون عليك، معتمدون على قوتك وبسالتك، وإنه لسعيد من يحظى بعونك. فامض يا هانومن وآتنا بأنباء سيتا! إن القلق ليعصف بعقولنا، لذلك نرجوك أن تاتي لنا بما يريحنا مما نحن فيه. إن صيتك قد بلغ القاصي والداني، وقوتك مشهود لها في كل البلدان، فأرنا مبلغ شجاعتك وإقدامك، ودع نفس راما تطيب بعودة سيتا."

فقال هانومن: "إذن لسوف أزيدكم عن مولدي، وعندئذ لكم أن تحكموا في أمري. فاعلموا أن فيلاً أبيض اهتاج ذات مرة، في أثناء حج البروفاش الشهير، فانفلت من عقاله وقتل عدداً كبيراً من الأتقياء الصالحين وهم يهمون بالاغتسال في النهر، ثم طارد في أحد الأيام الناسك العظيم بهرادفانجا، ولم ينج منه إلا بالهرب من طريقه. وصادف أن كان والدي في الجوار وشاهد الواقعة، فتقدم ليساعد في دفع الأذى عنه، بأن قفز على ظهر الفيل وفقأ عينيه، واقتلع نابيه، ثم قتله. وشاء الناسك أن يكافئه على مأثرته فوهبه ابناً أراد له أن يكون التوفيق حليفه على الدوام - وكنت أنا هذا الابن - فهذه عدتي وهذا عهدي بأن أزيح عنكم الخوف والقلق، وأرفع أنغادا الصنديد إلى أعلى مراتب الشرف. وإن مئة يوجنا من البحر لا تزيد على قناة بالنسبة لي، وبوسعي عبورها مئات المرات. وها أنا ذا في طريقي إلى لانكا لأقتل عدونا، وأنقذ زوج راما الجميلة من محنتها وحيداً. ولن أسالكم المساعدة، فالمهمة لا تحتاج إلى جهود الجميع، فابقوا هنا سعداء. إنني في طريقي لإنجاز المهمة المعهودة

إلينا مستعيناً بما وهبت من قدرات." قال هانومن هذا ومضى، وسط تهليل القردة وهتافها له، وتمجيدها لشجاعته وإقدامه، وهو المتفرد بالفضائل في العوالم الثلاثة.

السفر الخامس

البشرى

تهيأ هانومن للقيام بالمهمة بقلب مفعم بالسرور. فنهض واقفاً وهتف: "النصر لراما!" ثم التفت إلى الأمير أنغادا وضمه إلى صدره، وانحنى لمن يكبرونه سناً، وعانق رفاقه القردة، وخاطبهم قائلاً: "هيا لنتقدم باتجاه جبل ماهيندرا، فلسوف أقفز من أعلى قمته." وهكذا مضوا في طريقهم، يتقدمهم هانومن، وما زالوا يجدون في المسير حتى وصلوا وجهتهم.

كان لكلمات هانومن وقع حسن عند القردة، وشاؤوا أن يعبروا عن امتنانهم بأن صنعوا له عقداً من الزهور طوقوا به عنقه، فبدا متألقاً بهي الطلعة، حتى أن الكائنات السماوية اجتمعت لتنعم أنظارها به.

ودع هانومن رفاقه، ثم استدار ناحية الشرق وابتهل إلى الآلهة، وتداعت إلى خاطره في تلك اللحظة ذكرى جميع الخالدين العظام، ثم والديه، وهو يبتهل طالباً مباركتهم، وفي النهاية ذكر لكشمانا وسيتا، وانقطع برهة للتأمل في راما، وفي لحظة تجلى شري راما في قلب هانومن، فأخذ يبتهل بصمت لمحبوبه، ملك العالم، صاحب المعجزات. وراح يدعو في خلده: "يحيا السيد راما سليل آل راغو بحر الرحمة وملجأ البؤساء. يا ملك الراغو، وحدك من سرت فيه الشجاعة بامتلاك المعرفة. يا سيدي، إن لم تمد لي يد العون في مهمتي، فستكون الملوم إذا ما فشلت. أسألك أن تحيطني برعايتك وعنايتك."

وفيما كان هانومن يبتهل، تراءى له راما ينظر إليه بعينين حانيتين ثم اختفى. وسرت السعادة والقوة، عندئذ، في قلب ابن إله الريح. ثم فتح عينيه وهتف: "لا خوف بعد الآن، فلقد حظيت بالبركة، وبات البحر العظيم صغيراً الآن، ولأقطعنه لو شئت مليون مرة، ولي من القوة ما يكفي لقتل رافانا والقضاء على أسرته بأكملها، وحمل لانكا من موقعها إلى هذا المكان، ونقل مياه المحيط بكلتا يدي، وإغراق الكون كله."

ولقد اصغت القردة لقول هانومن وسعدت به كثيراً. فعانق أنغادا ثانية وانحنى للكبار

تقديراً وإجلالاً، ثم استدار نحو الجنوب وتضرع إلى شري راما أن يحيطه بعنايته وعطفه.
وتعالى هتاف الجنود كأنما هو صوت واحد: "المجد لراما! اقفز يا هانومن واعبر المحيط بأمان."

وما أن بدأ هانومن يتأمل، وراما في خاطره، حتى أخذ جسمه يتضخم ويزداد حجماً وسط دهشة الجميع، وبدا في لحظة بحجم تلة صغيرة، وأخذت عيناه تشعان كأنهما شمسان توأمان، وصار شعر جسمه ينمو مرسلاً فبدا أشبه بحيات تتدلى من جسده. واهتز جبل مالايا تحت وطأة ثقله، فأسقطت الأشجار أزهارها وأوراقها، وطارت الطيور مذعورة إلى أعالي السماء، وانهارت بعض القمم جارفة معها حيوانات البرية. وفرت الأسود والفيلة إلى غابات أخرى، وهجرت الأفاعي جحورها، وهي تطلق الفحيح. وامتزجت هتافات القردة بأصوات الحيوانات المتوحشة والطيور فغدا الضجيج رهيباً يصم الآذان، بينما جثم البطل الجبار صامتاً، وقد انتصبت أذناه عالياً، ثم وقف واستعد للقفز ثم قفز، فاتحاً ذراعيه يحلق بهما، ويهز ذيله كأنه الأفعى، وهو يرتفع في السماء، والأمواج تحته تتلاطم وتصخب كالوحوش الضارية.

راح هانومن يحلق ويرتفع أعلى فأعلى، فبدت الشمس وكأنها تاج يكلل رأسه، وقدماه مثل زهرتين من اللوتس حمراوين بلون الدم القاني. وكان المخلدون في السماء ينظرون إلى المشهد سعداء بما يرون من بطولاته، فاخذوا يمطرونه بالورود والزهور فتتساقط شلالات على سطح البحر. ولكنهم إذ شاؤوا اختبار شجاعته دعوا أم الأفاعي سوراسا، وطلبوا إليها ان تقطع ما يراودهم من الشك باليقين في أمر ابن الريح وشجاعته، وهو الذي انتدب نفسه لمهمة عسيرة، وهي استطلاع خبر محبوبة راما في لانكا. وسالوها أن تعترض طريقه وتختبر قوته وذكاءه. فتتبين إن كان حقاً أهلاً لهذه المهمة. وللتو تحولت سوراسا إلى راكشا انثى بهيئة تثير الفزع في النفوس. وأخذت بتنفيذ ما طلب منها.

كان هانومن منهمكاً في طيرانه في الفضاء، متكئاً على الريح، والجو من حوله يضج بالطنين والصخب، والقردة تتابعه من الأرض حتى غاب عن النظر. وظل هذا في تحليقه وطيرانه حتى قطع ثلاثة أرباع المسافة، ولم يعد أمامه سوى الربع الأخير ليبلغ لانكا.

فظهرت، عندئذ، سوراسا معترضة طريقه.

كانت الأفعى سوراسا الأعلى مرتبة بين الأفاعي والثعابين، داهية يخشاها أهل السماء، وقاطنو العالم السفلي سواء بسواء، ولكنها في تلك اللحظة اتخذت هيئة عفريتة قبيحة مروعة، واعترضت طريق هانومن، وصاحت به: "أين، أين المقصد، أيها القرد؟ لقد أسعدني لقاؤك، فهيا ادخل فمي، فقد جئتني في الوقت المناسب، فإنني أتضور جوعاً. وهذه إشارة على رضى الآلهة، فهيا تقدم وادخل جوفي، ولا تتلكأ!" فقابلها هانومن بالتحية وقال بخشوع: "رجوتك أن تسمعي ما سأرويه لك عن مهمتي. واعلمي أن سيتا زوج راما بن دشاراتا قد اختطفها رافانا ملك لانكا ذو الرؤوس العشرة، من الغابة حيث يسكن زوجها وفاء لعهد قطعه والده. وأنا في طريقي الآن لأتقصى أخبارها. وهذه مهمة رجوتك ألا تعيقيني عنها. فراما صاحب فضل، وهمه أن يعم الخير العالم، فليس يليق بك، إذن، أن تفسدي عليه أمره. أما إذا كنت تريدين، بعد، التهامي، فدعيني أمضي لشأني، فإذا فرغت من مهمتي عدت إليك لأدخل جوفك عن طيب خاطر، وإني لصادق في ما أقول."

فأجابت سوراسا: "إنني لا أوافق على ذلك، فما من كائن حي يعود بعد لقائي."

فقال هانومن: "هذا قول فظ من قائل شرير. افتحي فاك، ولسوف أدخله." ففغرت سوراسا فاها، فاتسع عشرين يوجنا. فزاد ابن الريح طوله حتى بلغ ثلاثين يوجنا، فزادت سوراسا فتحة فمها إلى الأربعين، فأصبح طول هانومن خمسين، فجعلت فتحة فمها ستين، وتمدد هانومن حتى بلغ سبعين يوجنا، وهكذا ظلا على هذا المنوال، هذه تزيد من فتحة فمها وشدقيها، وهذا يقابلها بتضخيم جسمه، حتى بلغ فتحة فم سوراسا مئة يوجنا، فادرك هانومن عندئذ أن صاحبته ليست من إناث الراكشا. فراح يتأمل لبرهة، وعرف أنها سوراسا، فأسرع بدخول فمها. وما أن دخل حتى أطبقت فكيها، وزمت شفتيها. وبالمقابل قلص البطل المقدام حجمه فأصبح بحجم الإبهام. واندفع خارجاً عبر تجويف أذنها، وقال لها عندئذ: "قد عرفت من تكونين. يا أم الأفاعي، ولك مني التحية. وإن كنت دخلت فمك

فامتثالاً لرغبتك، اما وقد تم ما شئت فإني اغادر الآن. لأبحث في لانكا عن سيتا. وهذه مهمة أوكلها إليَّ راما، وما كان لي أن أنجزها، وأنت تعترضين طريقي، ولو تأخرت لغدت حياتي في خطر، فابتعدي عن طريقي الآن، ولك أن تلتهميني عند عودتي. ولن يضيرني عندئذ، شيء مما تفعلين." وللتو عادت سوراسا إلى هيئتها الحقيقية، وأخلت له الطريق، وودعته أحسن وداع، ومضت عائدة إلى جحرها، وهي تتمنى له النجاح في مسعاه، بعد أن خبرت شجاعته ومقدرته. فتابع هانومن رحلته كالإعصار العاصف، وراما ماثل في خاطره.

سرت الآلهة لما بدا من شجاعة ابن الريح وأطنبت في مديحه. وكان إله البحر متلهفاً لمساعدة هانومن وقد دار في خلده: "إن هانومن ذاهب في خدمة راما. وقد دعيت ساغرا تيمناً باسم أحد أجداده الذي أتى بي إلى الأرض. ويجدر بي أن أعمل لما فيه خيره وسعادته، فسيلحق بي العار إن لم أفعل. ولذلك سأقوم بما في وسعي لمساعدة هانومن على اجتياز مياهي؛ وهو أمر شاق قد لا يقدر عليه دون معونة." ثم استدعى جبل ميناكا وقال له: "أعرني سمعك يا ميناكا، يا ابن الهيمالايا ملك الجبال، لقد رعيتك وأبقيتك طويلاً في مياهي، وقدمت لك الملجأ والمأوى، ووفرت لك الأمان، منذ أن جئت إلي هارباً من إندرا. وحان الوقت لترد الجميل بأن تساعد السيد راما، حفيد الملك ساغرا الذي أدين له بوجودي. وهذا ابن الريح في طريقه لتنفيذ مهمة أرسله فيها راما. فرجائي أن ترتفع فوق المياه، وتقدم له المساعدة، وأنت أهل لذلك، فاستقبل ابن الريح ودعه ينال قسطاً من الراحة فوق قمتك." فأجابه الجبل لما طلب. وارتفع فوق سطح البحر فبدا بلونه الذهبي سامقاً جميلاً مهيباً. لكن القلق استبد بهانومن لمرآه، وراح يفكر: "ما الذي يعترض طريقي؟ هل هو عائق آخر؟" فاتخذ الجبل هيئة البشر وقال له: "لا ضير عليك يا ابن الريح، لقد أرسلني إله المحيطات لأقدم فروض الطاعة لرسول راما، فأرح نفسك قليلاً على قمتي، وتنشق عبير الأزهار، وكل من ثمار أشجاري، واشرب من مياهي العذبة، ولك أن تتابع بعدئذ طريقك إلى لانكا. وما أنا إلا صديق أتى لتحيتك. فلتطمئن وتقر عيناً!"

فسأله هانومن، وهو يحلق في السماء: "أخبرني أيها الجبل لماذا تسكن المحيط؟ وأية

صداقة بيننا؟ وهل التقينا من قبل؟"

فأجابه الجبل بسرور وعاطفة صادقة: "اعلم أنه كان للجبال في سالف الأزمان أجنحة تحلق بها، وتحملها أينما شاءت، ثم جاء زمن أخذت فيه تُسيء السلوك، فتهبط فوق المدن والقرى محدثة فيها الخراب والدمار. فغضب لرعونتها إندرا ملك السماء وقذفها بقرصه الصاعق، فطارت أجنحتها .ولقد شرع يطاردني يريد أن يرميني بقرصه الصاعق، فهربت منه مذعوراً. وما زلت أجد في الهرب حتى صادفت إله الريح فاشفق علي حينما رآني على هذه الحال ودفع بي إلى هذا المكان بنفخة عاصفة منه. ثم تكرم إله البحر فقدم لي الملجأ في مياهه، وهكذا انقذ جناحيَّ. ومنذ ذلك الحين بقيت وسط المحيط. أنا الجبل ميناكا بن الهيمالايا. وأنت ابن صديقي إله الريح فحق علي أن أرد لك الجميل. هيا أرح نفسك عندي، فلك عندي وإله البحر افضل مكانة."

أجاب هانومن: "قد أثلجت صدري بحديثك حتى نسيت ما بي من الجوع والعطش والتعب. وليس أطيب عندي من أن أستمتع بكرمك وأنال قسطاً من الراحة، لولا أني في عجلة من أمري لأصل إلى لانكا. ثم إنني أقسمت أن أقطع مسافة مئة يوجنا فوق المحيط دون مساعدة من أحد، لذا لا يصح أن أستريح في الطريق. إلا أنني سألمسك بإصبعي في طريقي إلى لانكا. فعذراً، ودعني أمضي في طريقي!" فقال له الجبل: "أحسنت القول، فامض موفقاً في طريقك!" فلمسه ابن الريح بإصبعه وانطلق محلقاً في السماء. ولقد سر إندرا لما بدا من كرم ميناكا وقال: "لقد أسعدتنا يا ميناكا، وأدخلت السرور إلى قلب العالم بما أبديت من الكرم لرسول راما. وحق لك أن تطمئن إلى أنه لن يصيبك مكروه."

انطلق هانومن مسرعاً نحو الجنوب. وكان قد قطع مسافة لا بأس بها عندما رأته الراكشا سيميكا. فراحت الماكرة تفكر: "هاهو كائن سمين يحلق في السماء ويعد بوجبة عامرة، فلأمسكنه من ظله." وقد كان ما أرادت، وقبضت على ظل هانومن. عندئذ راح هانومن يفكر: "ما هذا الذي يشل حركتي؟ يبدو أن أحدهم قد أمسك بي، وما عدت أستطيع الحراك." ثم أخذ ينظر حواليه، فإذا بالراكشا تحته، فاغرة فاهها، كأنما هو كهف سحيق

الأغوار، وهي تهم بالتهامه، وبدا جسمها الضخم أسود كظلام الليل. فتذكر تحذير سمباتي وعرف أنها سيميكا الشريرة. فقال في نفسه: "سأزيل هذه الشوكة من طريقي." وأخذ يقلص جسمه الضخم حتى غدا ضئيلاً جداً فدخل فمها. وسرت سيميكا لدخوله فأطبقت فمها.. ثم إذا بها تشعر وكأنها ابتلعت سماً زعافاً يقطع أحشائها. وجلية الأمر أن هانومن دخل قلبها وأخذ يعمل فيه تمزيقاً بأظافره، ثم فتح ثغرة في طرفها خرج منها، تاركاً إياها تلفظ أنفاسها الأخيرة وهي تدور حول نفسها ثم تسقط في الماء جثة هامدة. وكان ذلك مدعاة لابتهاج وحوش البحر بوقوع تلك الفريسة التي ستكون غذاء لها. وذلك جزاء وفاقاً لما أتت به من الخطايا. فلطالما قتلت الكثيرين وتغذت بلحومهم.

تعالى هتاف المخلدين في السماء، وهم يرون مأثرته: "النصر لك يا ابن الريح، ولترعاك الآلهة في السماء. لقد قضيت على الراكشا سيميكا، وأنت تطير مرفرفاً في السماء. وما كان لسواك أن يأتي بمثل هذه المأثرة وحيداً دون مساعدة من أحد. قفزت مسافة مئة يوجنا ثم قتلت العفريتة الشريرة التي نشرت الرعب في هذه المنطقة. ولا ريب عندنا أنك منجز المهمة التي أوكلها إليك راما. وما عهدنا أحداً من قبل يبدي مثل هذه الشجاعة ويتمتع بمثل هذه القوة. فامض ولك بركاتنا، ولسوف يبقى ذكرك يتردد مدى الدهر." وأخذوا عندئذ يمطرون البطل بالزهور والورود، بينما تابع هو طريقه إلى لانكا.

وما زال هانومن يحلق طائراً حتى تراءت له لانكا. وبدا له أن يتخذ شكلاً أصغر حجماً مما هو عليه، لئلا يوقع حجمه الضخم الرهبة في نفوس أهل البلاد. ورأى أنه لو قلص بدنه لجنب نفسه المتاعب وأنجز مهمته في الوقت المناسب. فاستعاد عندئذ حجمه العادي، وهبط فوق قمة جبل تريكوتا، فزلزلت الأرض في جزيرة لانكا لوطأته. نظر هانومن من موقعه في الأعالي فأحاط بمشهد المدينة وكانت هذه المرة الأولى التي يقترب فيها منها، وهي أعجوبة قام على تخطيطها وبنائها مهندس جنان الآلهة فيشفاكارما، ليسكنها إله الثروة كوفيرا، ثم حاز عليها شقيقه العفريت الشرير رافانا ملك لانكا الآن. وبدت لانكا لهانومن مدينة مجللة بالبياض وحجارتها من سبائك الذهب البراق تطرزها بالخضرة أوراق الشجر والزهور،

بل وجد أسوارها من سبائك الذهب أيضاً، وفيما كان يجول بعينيه يستطلع استحكاماتها ومواقع الدفاع، وجد الشياطين العتاة مدججين بأمضى الأسلحة يحرسون أبوابها والمواقع الهامة فيها. وكان هانومن لا ينقطع يتفحص المكان ويدقق في كل ما تقع عليه عيناه ويختزن في ذاكرته كل ملاحظة مهما كانت. فهو بعد كل شيء في أرض العدو رسولاً وجاسوساً، وعليه أن يحيط بكل ما تقع عليه عيناه.

وكان جلياً لهانومن بعد هذا أن لانكا حسنة التحصين والحراسة، فلا يمكن حتى لنسمة الهواء أن تمر دون ملاحظة. وتساءل في خلده عما يمكن لراما أن يفعل لو أنه كان في محله، أو معه الآن؟ ولاح له أنه يستحيل على المرء أن يطالع هذا العدو بمفاجاة أو يداهم دفاعاته في لحظة غفلة أو على حين غرة. ورأى عندئذ أن منعة التحصينات وحسن الحراسة لا يتركان منفذاً لأحد، إنما هناك أربعة وحسب يملكون تفادي الحراس والتسرب إلى داخل المدينة ـ أنغادا وسوغريفا ونيلا وهانومن ذاته.

فقال في سره إن الأجدر به أن يدع أمر الحراسة والحراس في تلك اللحظة ليلتفت إلى مهمته الأدعى للاستعجال، فلا يشغل فكره الآن في تلك الأمور رغم ما هي عليه من الأهمية؛ وليبقى شاغله المهمة التي حملته إلى هذا المكان، وليوليها جل فكره واهتمامه. فمهمة السفير جليلة، فبيده نجاحها أو فشلها. وإذن فلا مجال هنا للخطأ.

كان هانومن قد خطط لتنفيذ مهمته، بأن يقلص جسمه ليصبح حجمه صغيراً لا يزيد على حجم النمس، وينسل من ثم إلى داخل المدينة تحت جناح الظلام. وكان الفجر قد أوشك على الطلوع، فاختبأ عند أطرافها إلى أن حل الليل وتسللت العتمة إلى الداخل، وهناك صادف من لاحظ وجوده، كما توقع، فور اجتيازه الأسوار، إذ اعترضته امرأة شرسة توقع الرهبة في نفوس ناظريها، وصاحت به: "من أنت؟ وما شأنك هنا، أيها القرد التافه؟"

فأجابها متلطفاً موادعاً: "لسوف أجيبك عن كل ما تسألين، ولكن أخبريني من تكونين؟ وعلام كل هذا الغضب؟"

وردت المرأة بغلظة دونها ما سمع منها حتى تلك اللحظة: "أنا لانكا، روح المدينة بشخصها، وحارسها، أفتديها بحياتي، وأأتمر بإمرة رافانا."

ظل هانومن على رباطة جاشه لا يظهر تأثراً عند الإشارة إلى رافانا، وأخذ يعرض لها أمره بجنان ثابت: "إن حكايتي بسيطة؛ فقد جئت لانكا سائحاً لمشاهدة معالمها من قصور، وحدائق، ومتنزهات، وبساتين، لما سمعت عن جمالها الأخاذ بين المدن."

ولكن المرأة ضاقت بحديثه، ونفد صبرها: "يبدو أنك لم تفهم القصد. فالتجوال في هذه المدينة إنما يكون بإذن. وأنا لن أمنحك هذا الإذن."

قابل هانومن حديث المرأة بالعناد والإصرار، قائلاً إنه لن يغادر المدينة إلا بعد أن يقضي فيها سياحته بعد أن قطع المسافات الطويلة ليبلغها، وهنا ثارت ثائرة لانكا، واستبد بها الغضب، وهمت به تريد قتله بيديها. ورد هانومن، وقد نسي نفسه لوهلة، فوجه إليها ضربة بقبضة يده، فذهلت لهذه الضربة وهي تترنح وتهوي على الأرض، وعجبت كيف يمكن لقرد صغير أن يمتلك مثل هذه القوة! وقالت في ذات نفسها: "يا للغرابة إن حجمه لا يزيد على حجم النمس، وله هذه القوة!"

وسرعان ما ندم هانومن على تسرعه. وفي ضرب امرأة ما فيه من الإثم. ولكنه دهش لرد فعلها، إذ أخذت تنظر إليه مستكينة، بدلاً من أن تثير ضجة وتطلق النفير. ونطقت بصوت خفيض كالهمس عبارة غامضة: "قد حلت الساعة!" ثم تابعت: "كان مبدعنا قد تنبأ أن رافانا وشياطينه يؤولون إلى الضعف وتسقط لانكا، يوم يغلب القرد روح لانكا وحاميتها. فناشدتك أن أبقيت عليّ، لأن القوي قادر على الرحمة، ويبديها أحياناً!"

بدا صوتها خفيضاً، وهي تتابع كلامها: "اذهب أينما شئت، وانظر ما حلا لك." وعادت تكرر قولها: "قد حلت الساعة!" وهي تراه يقفز عن السور ويدخل المدينة.

دار القمر هادئاً، رقيقاً، متألقاً بلونه الفضي وانساب انسياب البجعة في السماء المرصعة بالنجوم. وهانومن يتجول في طرقات المدينة، ويمر ببيوت تتعالى منها ضحكات نساء

مغنيات، ثملات، لرجال لا شاغل لهم، على ما يبدو، سوى المتعة.

وشاهد قوماً يقبلون على الشراب منهمكين في عبثهم، أو في مشاجراتهم. وكانت أصواتهم تعلو وأذرعتهم تُلوح في الهواء وهم يتجادلون ثملين، أو يخوضون جدالاً عقيماً. وسمع جماعات من العفاريت تطلق عقيرتها بأغان في مدح رافانا، والموسيقى تختلط بالأناشيد الدينية.

واستمر هانومن في تجواله بين حارات لانكا، مدينة العفاريت، ورآها على حقيقتها مدينة مترفة، يشيع فيها الانحلال، ساهية عن الغد وما يحمل لها. وكان شاغله في تجواله العثور على سيتا، فحمله البحث إلى أقرب الأماكن وكل بقعة لا تخطر ببال. ورأى وهو يمضي في بحثه قصر رافانا عن بعد، بناء عالياً شاهقاً، يتلألأ بلونه الأبيض وأضوائه الأسطورية، ولكنه لم يتوقف عنده، بل استمر في جولته في أنحاء المدينة والريح تصفر في أذنيه وتصدم وجهه كأمواج البحر ذاته. وكانت لانكا جزيرة مفتوحة للرياح، والعواصف أحياناً.

بحث هانومن عن سيتا ونقب في منطقة القصور كلها، ومنها قصور شقيقي رافانا كومبكارنا وفيبيشانا، وولده اندراجيت، ولم يغفل عن أي منطقة أخرى، اعتقد أنها كانت تأوي المرأة ولكن عبثاً. بل كان في بحثه يشرع أذنيه في الريح عله يحمل إليه صوتاً يشي بوجود المخطوفة في مكان ما، فلم تأت له الرياح بأي أثر منها.

وعاد في نهاية المطاف إلى قصر رافانا، فاحس هناك بالتوتر مخيماً على الأجواء. وكانت الأصوات تتردد في ارجاء القصر المنيف، فتعلو حيناً، وتدور همساً حيناً، أو كان الصمت يخيم حيناً، ولا يلبث أن تعلو الأصوات ويغلب من جديد ضجيجها. وكان ذلك الضجيج يصدر عن مزاج رافانا وتقلب أحواله، فتجده يتراوح بين الارتياح والتبرم، الانشراح والسخط، فتسمعه ضاحكاً لحظة، وغاضباً عاصفاً في لحظة تالية، أو مقهقهاً قهقهة شيطانية في لحظات اخرى.

وكان هانومن يجد أينما تلفت أسباب المتعة والبهجة، فرأى الجنائن متداخلة ببعضها

البعض، وجبالاً من الطين مزروعة بالأشجار تريد أن تحاكي الطبيعة وغاباتها، وبحيرات تحفل بأزهار اللوتس ومن حولها أشجار مزينة أغصانها بالبراعم، وفي داخل القصر وجد آيات الفن مرصوفة جنباً إلى جنب ونتاج الحرف اليدوية المتقنة الصنع، ذلك أن صاحب القصر لم يدخر وسعاً ليجعل منه جنة على الأرض للهوه ومتعته، ورأى في داخله عربته الطائرة وقد أفرد لها جناحاً خاصاً أحكم عليه الحراسة، كانت العربة من الخشب المحفور المكسو بالذهب المرصع بالحجارة الكريمة، وتتوزعها المقصورات ولها شرفات وبدت أشبه بالقصر المنيف، مهيئة للانطلاق في السماء في كل لحظة. وكان وقودها الفكر وسائسها العقل وهي أثمن ما لدى رافانا، وقد فاز بها بعد أن قضى عهداً في رياضة النفس، وتحققت له بالإقدام؛ وكانت فوزاً صعب المنال، لذلك أحكم حراستها. نظر هانومن محدقاً في هذه الرؤى الذهبية، المتفتحة كما الربيع، وطيورها المرصعة بالجواهر وأجنحتها المتحركة، وأزهارها وورودها وما يشيع فيها من أريج عطر، فكانت آية من آيات الفن أبدعها فيشفاكارما. وهكذا أخذ يرتقي درج القصر حتى بلغ جناح رافانا الواسع الفسيح.

كان رافانا يتمدد بجسده العملاق فوق سرير مرصع بالجواهر، وكانت بشرته زرقاء داكنة ويرتدي رداء أصفر اللون. ويتزين بالكثير من الحلي ويتجمل بالمساحيق. والنور ينبعث من تيجانه العشرة. وتوزعت في أركان الغرفة الأربعة، أربع فتيات جميلات خلدن إلى النوم ومعهن آلاتهن الموسيقية. وإلى جانب رافانا رقدت فتاة باهرة الجمال، ترفل بالحرير والحلي، هي ماندوداري بنت العفريت مايا. وقد حسب هانومن للوهلة الأولى أنها سيتا، وراح يفكر ملياً: "وهل تقع سيتا في هوى رافانا، وراما زوجها الذي لا مثيل له؟ إن ذلك مستحيل وليس من شيم ابنة جناكا وزوج ابن الملك دشاراتا. والحق أن هذا لا يصدقه العقل."

ولما نظر هانومن إلى رؤوس رافانا العشرة وعيونه العشرين المغمضة انتابه الهلع. فغادر الغرفة مسرعاً ليتابع بحثه في أجنحة القصر الأخرى وراح يفتشها كلها، ولكنه لم يعثر على أي أثر لسيتا. وقد عبر مستودع النبيذ وغرفة الطعام، ولما وصل إلى المطبخ وجد جثثاً لرجال وطيور وحيوانات أخرى.

ذهبت جهود هانومن هباء، ولم يجد البحث شيئاً، فتسلق أسوار لانكا، وأخذ يحدث نفسه: "إن كل ما لدي من مهارة وبسالة مرجعه إيماني براما. لقد سافرت طويلاً وبحثت في كل مكان، لكنني لم أعثر على سيتا. إن ذلك الطائر سامباتي قد سبب لي كارثة: فلقد عبرت المحيط بناء على نصيحته، وتجولت في جميع أرجاء لانكا بحثاً عن سيتا، وضاع ذلك كله سدى. وا أسفاه! لقد انتصف الليل ولم أخلد إلى النوم بعد.. وظني أني لن أغادر لانكا أبداً... ولسوف ينتهي بي الأجل في هذه البلاد." .. وأخذ هانومن في البكاء وهو جالس فوق السور.

كان هانومن مستغرقاً في التفكير يتأمل أحواله، ويجيل النظر في أرجاء المدينة كلها من موقعه المرتفع. فرأى بيوت المدينة مبنية من المعادن الثمينة وزجاج الكريستال، والأسطح مفروشة بريش الطاووس. وأخذ يحدق مذهولاً لروعة المنظر الماثل أمامه. وراح يتحسر ويتساءل: "أين تراني أجد سيتا؟ لقد مضت مدة تزيد على الشهر منذ أن ودعني راما لأمضي في مهمتي. فأي انباء سأحملها إليه؟ وأية عبارات يمكن أن تكون عزاء له؟" ولاح له فيما كان يجيل النظر حرج من أشجار الأشوكا. فأخذ يحدث نفسه: "لأتفقد المكان فلعل الأم سيتا محتجزة هناك." ونهض عندما لاح له هذا الخاطر، وانطلق نحو الغابة، وقد تقلص جسمه بفضل قواه السحرية حتى بات صغيراً ضئيلاً يكاد لا يلحظه الناظر. ووجد عندئذ شجرة باسقة فقفز وجلس على قمتها، ومن موقعه هناك جال بنظره ورأى أنواعاً كثيرة من الأشجار وزهوراً متعددة الألوان، وعدداً من المسارح بناها رافانا ليروح فيها عن نفسه بصحبة الحوريات. ووقع نظره أخيراً على فتاة جميلة تجلس تحت شجرة وارفة ممتدة الأغصان تحيط بها الراكشات الرهيبات، وهن يحملن هراوات وقضباناً حديدية وخناجر وبدا وكأنهن يهددن سجينتهن. فتسلل هانومن ليدنو من الفتاة. فوجدها بارعة الجمال، لولا ما بها من آثار الضعف والوهن مما أفقد شعرها الأسود الفاحم لمعانه، وما عليها من أسمال بالية. ولما اقترب هانومن منها سمع تنهيدة تصعد من ثغرها كلما همست: "راما!" كانت تئن باكية ولا تنقطع تردد: "راما! راما!". وأدرك عندئذ أنها سيتا.

أخـذ هانومن يمعن النظر في المرآة، بينمـا كـان يدور في خلده: "قـد تحـقـقـت نبـوءة سوغـريفا. في سـبيلهـا واجهت القردة الموت... ولأجلها جـدع أنف شـوربناخـا وقطعت أذناها... ومن أجلها قتل ألف وأربعمئة راكشا... لأجلها ضرب جتايو ملك لانكا... لأجلها ذهب كابندها إلى الجنة... وفي سبيلها أرسلت القردة إلى أرض غريبة... وعبرت أنا البحر... وامضيت الليل كله أستقصي كل مكان في لانكا.. وها هي ذي، إذن، سيتا الجميلة حبيبة راما."

حزن هانومن للدموع التي كانت تذرفها سيتا. وأخذ يحدث نفسه: "إن رؤية الحزن على وجهها لأشد مما أطيق، وما عدت أملك إلا ان أقتل جميع الراكشات لأنقذ هذه المرأة من محنتها، أو أقتل."

استيقظ رافانا، وكان القمر بدراً في السماء يبدد بضيائه ظلام الليل، والنسيم عليلاً، وقد سيطر على خـاطره هاجس، وأراد أن يطمئن على حـال سيـتـا في غـابة الأشـوكـا. واستدعى ماندوداري وزوجاته الملكات الأخريات. فاستيقظن، وارتدين ملابسهن، وأحطن به. وقد أمسكت بعضهن بمراوح من ذيل الياك، بينما حملت بعضهن أباريق ماء وأخريات أوعية فيها معجون خشب الصندل ذي الرائحة الزكية وقناديل صغيرة من الذهب. وأسرع رافانا إلى غابة الأشوكا، وهن يحففن به من الجانبين.

قال هانومن في خلده، وهو يرى رافانا يقترب من الغابة، حيث يحتجز سيتا: "قد حضر رافانا، وسـوف أرى كـيف يتـصـرف، وليس من المناسب أن أكـون قريباً من سيـتـا، لئلا تكتـشـف أمري عـيون رافـانا العـشـرون." فـأخـذ هانومن يقلص من حـجـمـه ليتـوارى عن الأنظار، وزاد في الحيطة بأن اختبأ تحت أوراق شجرة ضخمة ثم اتخذ مكانه على غصن قريب، وأخذ يصيخ السمع ليلتقط ما يدور بين رافانا وسيتا من حديث.

انتابت سيتا حين رأت رافانا قشعريرة اهتز لها كيانها وأخذت ترتعد، وشدت إليها الأسمال التي كانت تستر جسدها الهزيل المتداعي. وضمت يداها إلى صدرها ونكست

رأسها. وشرعت عندئذ بالدعاء: "وا راماه، انجدني في محنتي! وا لكشماناه، أين أنت؟ هيا انجداني أيها الأخوان!" وبدا أن خوفها قد بلغ حداً جعلها غير قادرة على أن ترفع رأسها ثانية.

ولئن كانت المحنة قد نالت من المرأة، إلا أن جمالها ما زال أخاذاً. فراح يطيل النظر إليها، وسألها بعد حين: "لماذا تخفضين رأسك يا ابنة جناكا؟ انظري إلي. إني أعرض عليك أن تكوني الملكة الأثيرة، وأن تجلسي إلى جانبي على عرشي الذهبي. لقد سبق لي أن تزوجت عشرة آلاف حورية، فإن قبلت الزواج بي كان لك المقام الأول بينهن، وأغدقت عليك الكنوز، وسأكون رهن أمرك والخادم المطيع لك، أنا الفريد في العوالم الثلاثة، أنا إله الغنى وواهب الثراء. فما خوفك يا سيتا، وأنت هنا في حرز حصين، فحتى الآلهة لا تجرؤ على الاقتراب من لانكا، أم ترى قد نال منك الخوف لأني حملتك إلى هنا قسراً؟ إن القوة والخداع هما قانون الراكشا، وليس في ذلك ما يضير. لكنك، يا ذات الجمال، والعينين السوداوين، والحاجبين كقوس كاما إله الحب، أنت يا من يداك مثل زهر اللوتس، وذراعاك النحيلتان مثل شلال من الزهور، وجسدك لدن كالزبدة، وخصرك نحيل كالعود، إنك لقادرة على امتلاك العالم. لقد بددت نفسك هباء حين تزوجت من راما. فهو لم يأت لك إلا بالأسى. كوني لي، وتمتعي. فثروة راما قليلة وحياته قصيرة. وهو الآن يهيم على وجهه في الغابة حزيناً على ملكه الضائع. أو تعتقدين أنه لا يزال حياً؟ لقد التهمته الراكشا. فما راما إلا إنسان، وهل يكون الإنسان نداً لي؟ إن سهامي لقادرة أن تهز جبل سوميرو، أنا من أذل الآلهة وسواهم من أهل السماء. أنا من هزم العالم بقبضة يده، أنا من قضى على الآلاف. فكيف تعرضين عن مثلي، وتكرسين نفسك لناسك؟ وما راما ولكشمانا إلا اثنان من أهل المكر؛ أما أنت، أيتها الجميلة، فقد ضاعت عنك أشياء وأشياء؛ فإن أصبحت لي فسوف أبذل لك الحب مخلصاً، وأحرص على راحتك. إن خزائني مليئة بالدر والجواهر من جميع الأنواع، وما عليك سوى أن تشيري بإصبعك فتكون لك. وما أنا سوى عبد لديك. إنني أتوسل إليك أيتها الحسناء، وأركع عند قدميك. فدعي عنك الغضب، واستمعي لما

سأقول. لم يسبق لي أبداً أن أحنيت رؤوسي العشرة لأحد من قبل، لكنني أركع الآن عند قدميك، يا محبوبتي."

ثارت سيتا واضطرمت أعماقها غضباً من حديث رافانا، إلا أنها حافظت على رباطة جأشها وأجابته بهدوء: "وفر عليك حديثك. فإنني زوج راما وابنة الملك جناكا، وإذن، فأنا الأدرى بواجبي!" ثم أشاحت بوجهها عن رافانا، قائلة: "إنك لا تدري الفارق بين الخير والشر... وإن موتك لقريب، أيها الوضيع! أو تراك تسعى لقتال من هو أسد جبار؟ الحق أن الموت والدمار سيلحقان بك وبأهلك عما قريب، وليس لك نجاة من سهام راما، ولسوف تلاحقك أينما ذهبت، ولن يبقى منك، أيها الشرير، سوى الرماد. أم لعلك تطمئن للبحر وتحسب أنه حصن لك. إذا كان هذا هو الحال، فاعلم، إذن، أن النار في سهام راما ستزيل هذا البحر عن وجه الأرض. اصغ أيها الشرير، فأمامك أحد الخيارين، إما أن تعيدني إلى شري راما وتكسب وده، وإما أن تمضي كما تشاء ولن تقوم عندئذ لك قائمة. تقول إنك عبدي، إذاً نفذ ما أقول. إن المرء يركع عند أقدام المبجلين، وأنت تركع عند قدمي إلا أنك تتفوه بكلمات مهينة لي. لقد ذهب راما إلى الغابة حفاظاً على العهد الذي قطعه والده. أو تظن أنك قوي لدرجة أن تقع زوج راما في حبائلك؟ إذن، فاعلم أن قلبي ملك لراما. ولست أعرف أحداً سوى راما. أيها الفظ الشرير، لقد انحنى ثمانية آلاف ملك أمام ملك آيوديا الجبار. والسيد راما سليل هذه الأسرة المالكة. إنه سيد العوالم كلها. واعلم يا رافانا، أنني أراه أسداً، أما أنت فلست سوى ابن آوى تافه حقير. ولا تعتقدن أنني أخافك، وأنا أسيرتك، فاعلم أن راما في قلبي دائماً. أم لعلك تأمل أن تعبر البحر أيها العاجز؟ أو تطمح، أيها القزم، أن تلمس القمر؟ أو تكون، يا ابن آوى، طامعاً في لبوة؟ إنك دون ذلك. فكما لا تستطيع الذبابة أن تحمل القرص الصاعق، كذلك أنت، يا رافانا، دون هذا الطموح، وسيتا بعيدة المنال. فأنا لست من النساء العاديات، فتذكر أنني ابنة جناكا. فكما أن القنديل لا يبقى مشتعلاً دون زيت، والأشجار لا تبقى طويلاً على ضفاف الأنهار، وكما أن موت المرء محتم إذا شبت النار في ثيابه، كذلك مصير لانكا إلى الدمار، جزاء ما فيها من

الشرور والظلم، وستلقى أنت أيضاً حتفك على يدي راما. أتعتقد أن أيامك ستظل كلها هانئة؟ لقد أثرت ثعباناً أسود مميتاً. وها هو ذا قادم إليك ليلتهمك. فابشر إن الموت وشيك. دع عنك الأمل في هذه الحياة، وتهيأ لأن الموت قريب."

اخذ رافانا يفكر ملياً في ما قالته سيتا. ثم قال: "لقد أقسمت أن أحتجزك مدة سنة كاملة. وها قد مضت عشرة أشهر، ولم يبق سوى شهران تلقين بعدها مصيرك المحتوم."

فاجابته سيتا: "إن حديثك لقبيح، فانتظر الموت القادم، فقد قدر عليك أن تموت لاجلي. إنك تختلف كثيراً عن راما، اختلاف الحديد عن الذهب، والنهر عن بركة الوحل، والبراهمي عن التشاندالا. فانت هائم في الظلمات أما هو فمجاله النور. إن راما لأسد، وما أنت سوى ابن آوى وكلب أجرب."

نفذ صبر رافانا وأحس بالضيق يغلب عليه. وأخذ يحدق في سيتا وأعينه حمراء قانية من شدة الغضب. فلم يعد يتمالك نفسه وصاح من شدة ثورته: "يا للمرأة المتعجرفة، إنك لن تجدي من ينقذك من بين يدي." ثم أسرع إليها وبيده سيفه المقوس البتار. فرفعت سيتا يديها وصرخت مستغيثة: "هلم يا سيدي راما، أنقذني! وأين أنت، يا أخي لكشمانا؟ إن الموت يعتم على بصيرتي فلا أستطيع رؤيتكما. وأخيراً في هذه الغابة انقلب القدر ضدي. وبما أنك تنشد قتلي، يا ملك لانكا. فإن لي طلباً واحداً. أن تتريث للحظة حتى أستذكر راما فيملأ قلبي عندما أودع هذه الحياة. لعله يصبح زوجي مرة أخرى عندما أولد ثانية. فلا رغبة لي الآن في الحياة. وكان من الممكن أن أنتحر... اقتلني بطعنة واحدة، إنني أرحب بالموت، فربما ألقى راما إن قتلت الآن." وصاح بها رافانا: "دعك من راما، فخيارك إما الاستسلام لي أو الموت." فقالت سيتا: "إنني لا أخشى سيفك، ولا سبيل لأن أتخلى عن السيد راما." ثم احنت رأسها ولم تعد تنطق بكلمة واحدة.

كانت النساء الواقفات خلف رافانا ينظرن إلى سيتا متجهمات الأسارير، إلا ماندوداري التي أخذت تعنف رافانا: "إن ابنة جناكا الجميلة وإن تكن ليست إلا بشراً إلا أنها امرأة

سامية."

ولكن رافانا الطائش الأرعن غدا في تلك اللحظة عبداً يستبد به الهوى، فرمى بسيفه ومد ذراعيه وكاد يمسك بسيتا، لولا أن ماندوداري ردعته وصاحت به مهددة: "تذكر لعنة نالاكوبير، فلسوف تلقى حتفك إن سلكت طريق العنف مع امرأة. واصغ لما أقول، يا من ملكت قلبي، فلتعطني السيدة سيتا."

وهكذا وجد رافانا نفسه عاجزاً عن المضي في غيه، بعدما سمع ما سمع من ماندوداري، ورأى ما رأى من دموع سيتا. فالتفت يصب جام غضبه على العفريتات اللواتي يقمن على حراسة سيتا. فحاولن تهدئة غضبه بتحيته وملاطفته، فما أجداهن ذلك شيئاً، إذ راح يزأر: "علام كلفتكن بمصاحبة سيتا؟ وأي نفع يرجى منكن وقد شهدت فشلكن المخزي." وعمد إلى زيادة عدد الحارسات، وكانت الجديدات منهن، سليطات اللسان، حديثهن بذاءة، وسلوكهن فظاظة، لا يأخذن أحداً بشيء من الرحمة، متنكبات السلاح أبداً، ومنفرات طبعاً وشكلاً. وهمس رافانا في آذانهن: "لتبذلن كل ما لديكن في إقناع سيتا ليل نهار، حتى تلين، وأظهرن لها اللطف والكياسة، لتغير رأيها." ثم قفل عائداً إلى قصره ومعه زوجاته الملكات، تاركاً سيتا في عهدة العفريتات.

ما إن غادر رافانا ذو الرؤوس العشرة، حتى أخذت المحاربات بتعذيب سيتا. وقلن لها: "اصغي جيداً، إنك لن تجدي زوجاً أفضل من رافانا. فراما ليس بالثري، وأجله قصير، أما رافانا فحكمه سيمتد إلى الأبد."

فأجابت سيتا: "حقاً، لن يكون لي زوج سوى راما، قليل الثروة قصير الأجل." فثار غضب الراكشات وأخذن يلوحن بخناجرهن وقضبان الحديد، وهممن بها يردن قتلها، وهن يرغين ويزبدن: "حسبنا ما نعاني بسببها. هيا لنلتهمها، وننهي أمرها." فما وجدت سيتا أمامها سوى أن تغمض عينيها وتنادي شري راما.

كان هانومن في مخبئه شاهداً يرى ويسمع كل ما يدور ويجري ويقول في سره: "لا

خلاص إلا بقتل الراكشات جميعاً، فلا يبقى منهن واحدة. أتراني أخطئ إن قتلت نسوة؟ لا، سأستمع أولاً لما ستقوله الأخريات، ثم أنظر وأتدبر، ففي الوقت متسع."

ثم قالت الراكشا أجموخا: "دعونا نقطعها إرباً إرباً، ولنمزقها شر ممزق، فعلام نقوم بخدمتها، وما نفعها؟ الحق دعونا نقطعها ثم نلتهمها وفي ذلك فائدة ونفع!" وردت شربناخا شقيقة رافانا: "الصواب ما قالت أجموخا، ولنا بعدئذ أن نحتفل ونرقص في بستان نيكمبيلا."

لما سمعت الأميرة سيتا ما دار بين نساء الراكشا من حوار أخذت في البكاء والشكوى: "أن تصبح امرأة من البشر زوجاً لراكشا أمر لا يجوز، ولكم أن تقطعوا جثتي إن شئتم، فلست أحفل بما سيؤول إليه مصيري، لكني لن أحيد عن رأيي مهما يكن."

ثم تابعت سيتا بكاءها ومناجاتها للسيد راما قائلة: "النجدة يا مولاي راما! النجدة يا حماتي كاوساليا! الإهانة تنزل بي من حرس رافانا! فمتى تنجدني يا راما؟ إن دموعي تجري كالنهر، أدعو الآلهة أن تبعث برسول إلى راما يخبره بحالي، فيرسل من يخلصني مما أنا فيه، ويدمر مدينة لانكا بأسلحته وسهامه السماوية."

حاولت الراكشا العجوز تريجاتا أن تهدئ من روع سيتا فقالت لها: " لم لا تستسلمي لرافانا وتصبحي الملكة الأولى؟"

فردت سيتا: "ما الذي تقولينه يا تريجاتا؟ كيف تطلبين مني أن أتخلى عن راما وهو في قلبي دائماً؟ وماذا يعنيني إن كنت الملكة الأولى عند رافانا؟ فأن أكون زوج راما، هو الأهم عندي. إنه مقيم في فكري وخيالي، لا يفارقني، إن في الليل وإن في النهار."

ولما سمعت نساء الراكشا كلمات سيتا، أخذن يتهامسن، وزادهن حديثها خوفاً وهلعاً مما ينتظرهن من رافانا. وكان الوقت يمضي واختبأ القمر خلف السحب، وساد الظلام، وأخذ النعاس يتسرب إلى جفون الحارسات، وسرعان ما استسلمن للنوم. وفي تلك الليلة داهم تريجاتا كابوس مرعب، فاستيقظت فزعة لتجد الأخريات مستيقظات وقد احتشدن

حول سيتا يهددنها، فلم تملك عندئذ إلا أن تصيح بهن: "حسبكن! توقفن! تذكرن أن سيتا زوج راما، ومن يمسها بأذى ميت لا محالة. وقد اقترب عذاب سيتا من نهايته. هلم إلي واسمعن الحلم الذي تراءى لي." فتركن سيتا وتحلقن حولها فقالت: "اقتربن! اقتربن! إن الحلم الذي رأيته قد أثار في نفسي أشد الفزع. فلقد حلمت الليلة أن قرداً صغيراً دخل لانكا. وكان حجمه عند دخوله الجزيرة لا يزيد على عقلة الإصبع، ورأيته يدخل على سيتا ويقدم لها التحية، ثم إذا به يصبح عملاقاً، ويمضي فيتلف بساتين المانجو، ويعمل حرقاً بلانكا، حتى يأتي عليها كلها فيحيلها رماداً. وقد رأيت لانكا تحترق والراكشا يقتلون. كما رأيت السيد راما ولكشمانا وفي أيديهما أقواس وسهام، وقد أفلحا في إنقاذ سيتا، وغادروا جميعاً لانكا بمركبة طائرة. ولن يطول الزمن حتى تقع الكارثة بلانكا." ثم عادت تريجاتا إلى النوم من جديد.

ضحك هانومن في مكمنه لسماع حديث تريجاتا، وقال في نفسه: "لا عليك، إن هو إلا يوم ويتحقق حلمك!" وفيما كانت سيتا تبكي وتنوح وحيدة تحت الأشجار، رأت ساروما تتقدم نحوها. وساروما هذه من الراكشا لكنها ورعة نقية السريرة، ونشأت بينها وبين سيتا علاقة صداقة وود، واعتادت أن تأتي إليها لتواسيها وتخفف من آلامها. فخاطبتها سيتا وهي تنتحب: "قد طال العذاب، يا ساروما العزيزة! فمتى يحين الوقت الذي أرى فيه راما ثانية؟ أتراني مقدر لي أن يصطحبني مرة أخرى إلى آيوديا؟ آه كم أتوق لأكون بجانبه! أين أخي لكشمانا وكوخنا الخشبي الصغير؟ وا حسرتاه! لماذا شاءت الإرادة الإلهية أن أخوض هذه المحنة؟ فإنني لم آت بسوء لأحد. فوا عجبي! إن من الناس من تنزل بهم المآسي مرة بعد مرة، والبعض الآخر يعيشون في نعيم متصل، لا يكدر حياتهم أمر. إنني من راما وهو مني، وكلانا واحد، ولا نقوى على العيش منفصلين، وها هو القدر يبعد راما عني، وكنزي الثمين راما بعيد وراء البحار الآن. فكيف لي أن أنساه؟ وإلام علي أن أعاني العذاب من هاتيك الراكشات؟ الحق أن نفسي تحدثني أحياناً بالفرار، ولكن أين المفر؟ فالبحر يطوق لانكا من كل جهة."

فقالت لها ساروما مواسية: "لا تحزني، يا سيتا! فاجتماع الشمل قريب. وهذا قدر محتوم. وللأمور مواقيتها، وليس للإنسان أن يستبق الزمن. إن القدر شاء أن تكون دموعك مثل قطرات من النار تلهب لانكا الذهبية وتأتي عليها. فحسبك ما ذرفت من الدموع يا سيتا فقد حل الليل، وسيأتي الصباح بما يأتي!" كفكفت سيتا دموعها وتنهدت: "بورك أبواك يا ساروما وبوركت أنت أيضاً." كانت الطيور والحيوانات تبكي لبكاء سيتا التي جلست صامتة مسهدة، رفيقها الحزن وذكريات الماضي.

حين رأى هانومن الحارسات يأوين إلى مضاجعهن، وأصبحت سيتا وحيدة أخيراً، قال محدثاً نفسه: "لقد أزف وقت العمل، لكن كيف لي أن أرسل لها تحياتي؟"

كانت سيتا في تلك اللحظة مستغرقة في تأملاتها وأحزانها، تطلق الزفرات والتنهدات، ولا تنقطع تنادي راما في سرها، والدموع تنهمر من مآقيها. وإذ وجد هانومن السبيل موصداً أمامه قرر أن يتوسل باسم راما، وكان أن سمعت سيتا اسم راما يتردد: "راما! راما! راما!" فدهشت لسماع هذا الاسم، وتساءلت: "من الذي يذكر اسم راما المبارك؟ من الورع المخلص في بلاد لانكا القاسية هذه؟ فاظهر يا من لا أعرف من أين أتيت، فلعلك عرفت راما، اكشف لي عن شخصك يا من أسمعك ولا أراك!"

عندئذ قال هانومن من مخبئه: "علمت أن الملك الجبار دشاراتا، الورع صاحب الجود والكرم، وقبلة أفئدة الخلق، كان له ولد بكر اسمه راما وهو زوج سيتا التي اختطفها رافانا الشرير إلى موطنه. ولتعلمي أن راما ما انقطع يبحث عن سيتا، في كل مكان عله يعثر عليها ويخلصها من عذابها، وقد صادف في تجواله هذا سوغريفا ملك القردة وقام بينهما عهد الصداقة منذ ذلك الحين... فارفعي رأسك، أيتها الأم، وانظري إلى خادمك المطيع!"

وللتو رفعت سيتا رأسها ونظرت إلى الأعلى، فرأت قرداً صغيراً لا يزيد حجمه على راحة الكف، وهو يضم راحتيه إلى بعضهما ويرفعهما إلى رأسه محيياً. فسألته سيتا والدهشة تغلب عليها: "ناشدتك أن تخبرني من تكون؟ فإنني لا أعرفك. آه إن القدر يحاربني. ولا

ريب أن رافانا أرسلك لتخدعني. فهذا الشرير متضلع في السحر. إن الوهن قد نال مني، إذ أمضيت الأشهر العشرة الأخيرة في الصوم. فهل أتيت لتزيد من عذابي؟"

أراد هانومن أن يطمئنها، فنزل عن الشجرة، وانكب على قدميها إجلالاً واحتراماً، وقال: "صدقيني ما أنا إلا قرد وحسب، ولست ساحراً يتنكر بهيئة قرد. بل خادم راما المدين لعطفه وحدبه. فهيا ضعي قدمك فوق رأسي، يا أماه! فأنا ابنك المطيع وأنت في منزلة أمي."

فسألته سيتا: "أصحيح ما أسمع؟ أأنت خادم راما؟ إن الكلام حقاً ليعجزني! فإن كنت رسوله بصدق، فإنني أباركك. ولتمتد الحياة بك أبد الدهر. ولتكن حصيناً لا تمسك النار بأذى، ولا تنال منك الأسلحة، وأسأل شانكاري أن تحميك الآلهة في الحرب وفي تجوالك في الغابات، وأن ترعاك سارسفاتي إلهة المعرفة. ولكن هل قلت لي، أيها القرد، ما اسمك؟ وما جاء بك إلى هذا البلد؟ ومن أرسلك؟ لقد انقطعت عني أخبار راما. ولا بد أن مولاي حزين لفراقي. فإن كنت حقاً تابعه فأخبرني عنه!"

فأجابها قائلاً: "إني أدعى هانومن، ابن إله الريح فايو وخادم راما. وقد عرفت راما تقياً، ورعاً، شجاعاً، قبلة للناظرين لوسامته، فارع الطول، منتصب القامة كشجرة السال، ذراعاه طويلان، وحاجباه جميلان، وأنفه مستقيم. يسير واثق الخطى، لا تفارقه قوسه ونباله، ولا ينقطع يردد اسم حبيبته سيتا." ولقد ازداد حزن سيتا، وهي تصغي لحديث هانومن ووصفه لراما وقالت باكية: "الآن صدقتك، يا بني. إن راما ملجأ الضعفاء ومنقذ الجميع. ومن ذا الذي يستطيع أن يتحدث عن فضائله ويستوعبها؟ ناشدتك أن تحدثني عن حال حبيبي؟ ولكن اخبرني أولاً عن حال أخي لكشمانا، فإنني لم أصغ لنصيحته. وقلت له كلاماً لا يليق به ونحن في غابة بنتشفاتي، فضاق بي، وتركني وحيدة، فوجدني رافانا ولا أحد بجانبي فاختطفني وحملني إلى هذه البلاد."

فقال هانومن: "فلتصغي إلي، إن الغزال الذهبي الذي بدا لك غزالاً جميلاً، لم يكن

سوى راكشا بعثه رافانا يدعى ماريخا. وقد قتله راما بسهمه. وبينما كان رافانا يحملك بعيداً، كنت مع أربعة من أصدقائي واقفين على قمة جبل ريشياموك. فسقطت حليك ومنديلك فالتقطناها، ولما عرضناها على راما ولكشمانا وجدناهما يجهشان بالبكاء حزناً وألماً. فقطع الصديق سوغريفا على نفسه عهداً بأن يعمل على إنقاذك. وكان أن أعاد السيد راما لسوغريفا مملكته، ثم اجتمعت القردة بأمر سوغريفا وانطلقوا للبحث عنك. وحدد لذلك مدة شهر نعود في نهايته، وإلا كانت عاقبتنا الموت... وقد مضى ذلك الشهر.. لقد دخلنا باطن الأرض، وخضنا في عتمتها، حتى حسبنا أننا لن نخرج أحياء... وعلى قمة أحد الجبال التقينا سامباتي بن غارودا، ولدى سماعه اسم راما نبت جناحاه من جديد... وحسب نصيحته عبرت المحيط، وبحثت عنك لانكا كلها. فلا تجزعي، فما أنا عميل لرافانا إنما رسول راما. فصدقي، أيتها الأم سيتا، فما يقوله هانومن هو الصدق، فهو لا يكذب أبداً. إنه عبد راما المخلص، وهو الذي سيأتي إليك بالخلاص مما أنت فيه، ولن يدخر وسعاً حتى يتم إنقاذك من الأسر."

كان هانومن شديد الانفعال، وهو يحدث سيتا، ويبسط لها إخلاصه، ثم سألها أن تحدثه عن حالها، وتروي له أخبارها، وقال لها: "لقد رأيت عينيك اللتين كزهرتي لوتس قد اغرورقتا بالدمع، حين سمعت اسم راما، فمن يكون راما بالنسبة لك؟"

أجابت سيتا: "يا لسوء طالعي، ويا لحظي العاثر. لقد ضاع عمري هباء! أنا التعسة ابنة جناكا، ملك ميثيلا الذهبية، وكنة الملك دشاراتا ذي الحول والصول، زوج راما. وكان صداقي كسر القوس في ميثيلا. وكان زوجي ومولاي أمير آيوديا. وكنت يومئذ أرفل في السعادة والهناء، إلا أن القدر الظالم شاء أن يفرقنا.. وما انقطعت منذ ذلك الحين أبكي بعاده عني. فهل تراني أعود إلى آيوديا ملكة ذات يوم؟ هيا، يا هانومن خذ بيدي إلى راما. وإذا استطعت أن تقتل رافانا وتبعدني عن هذا المكان، فلسوف أصطفيك ابناً لي وأضعك في حجري عندما أصبح ملكة."

فقال هانومن: "ما الذي بوسعي أن أضيفه لأقنعك بما أخبرتك يا سيدتي ؟ آه! انظري،

هذه هي الأمارة التي حملني إياها راما لأقدمها لك يا ابنة جناكا." فمدت يديها متلهفة وأخذت الخاتم. وغمغمت وهي تنظر إليه بعينين غائمتين: "آه، أيها الملك، يا سليل راغو، يا لوفائك إنك ما زلت تحفظ الذكرى." ثم استدارت نحو هانومن وقالت: "لقد أتيتني بخاتم راما، وهو ليس مجرد خاتم، إنه حياتي كلها. فأخبرني أين أخبئه؟ إنه مصنوع من الذهب ولربما رغبت به إحدى الراكشات فسرقته مني. وإذا احتفظت به في قلبي لن أتمكن من رؤيته طوال الوقت... استرح قليلاً، يا ابن الريح، حتى أخاطب الخاتم." وأخذت تحدق في الخاتم طويلاً، ثم قالت بحزن: "إنك، أيها الخاتم، تذكار راما. وأنا ابنة جناكا، أبكي ليل نهار شوقاً إلى راما، عندما وهبني والدي إلى راما لأكون زوجه، أهداك إلى راما، وأقيمت الطقوس المقدسة في تلك المناسبة. وهكذا أصبحت أنت ملكه، وبت منذ تلك اللحظة غريمي. وكان القدر ظالماً قاسياً إذ أبعدني رافانا عن حبيبي، إلا أنك بقيت مع راما، ينظر إليك كلما تذكرني. آه، قد كنت أيها الخاتم رفيق راما، فلم أتيت إلى هنا؟ وكيف هو حاله؟ لقد طال فراقنا، أتراه قلقاً علي؟"

ضم هانومن راحتيه وقال: "لقد أنهك الحزن سليل راغو، وعافت نفسه الطعام والشراب، وهزل بدنه، ويكاد يتلاشى لفراقك، ولا ينفك ينادي باكياً: "سيتا، آه يا سيتا". حتى غدا الخاتم سواراً على إصبعه."

كان القمر بدراً في السماء وراحت سيتا تحدق في الخاتم وتستذكر صورة راما. عندئذ أخذ حجر القمر الذي يرصع الخاتم يلين وبدأ يذوب ويتلاشى. فذهلت سيتا لما رأت وقالت: "إن الخاتم يذوب." ثم عادت تستأنف حديثها مع الخاتم: "كان الحزن والأسى يلازماني منذ ان ولدت، ولن يفارقاني أبداً، ولكن علام تبكي أيها الخاتم؟ إنني أعلم، أن البكاء أبد الدهر مصير كل من يكون بين يدي شري راما. لقد كنا نحن الاثنين بين يديه، ولذلك كان البكاء قدرنا. آمل الا يطلق اسم سيتا على أي فتاة، فكل من ستحمل هذا الاسم مآلها الحزن والعذاب."

ثم ضربت سيتا جبهتها وصرخت: "وا أسفاه! لقد شاء القدر أن تعاني يا سيد قومك

بسبب خادمتك. إيه يا سليل راغو، الحق أني لست أرى نهاية لعذابي. ومنذ يوم بعادي عنك يا سيدي ومولاي لم أتناول طعاماً أو شراباً من الأرض... قد تستطيع ابنة جناكا البقاء على قيد الحياة، بالرغم من أحزانها، وقد تفشل. آه يا هانومن، أخبرني كيف لي أن أخفي خاتم راما، فلا يقع أحد عليه؟"

حاولت سيتا أن تلبس الخاتم في إصبعها، فما استطاعت. فقد بلغ بها الهزال ما جعل الخاتم سواراً على إصبعها النحيل. فبكى هانومن من شدة التأثر لما بلغته المرأة من البؤس.

وقالت سيتا لهانومن: "امض يا ابن الريح وحدث راما عن محنتي؛ أخبره أن الموت لا يبارح خاطري، وما كنت لأتردد، برمي نفسي في البحر، لولا شدة الحراسة من حولي. انظر، هناك تحت شجرة السينسابا، كوخي المتواضع الذي آوي إليه وحيدة كل ليلة، وليس لي سوى ذكر راما ليل نهار أسلو به عن محنتي وعذابي على أيدي زبانية رافانا. وإذا علا صوت نشيجي على فراق راما وجدتهن يضحكن هازئات. فاسرع يا هانومن واخبر راما بأن موتي قريب إن لم يدركني ويخلصني من هذا العذاب!"

رد هانومن: "اطمئني، يا أماه، فليس أمام رافانا من مهرب من العقاب. واعلمي أن آلاف القردة تؤازر راما، وليس عبور البحر بعائق أمامها. واعلمي، بعد، أن لراما عهد الصداقة والموالاة من سوغريفا، وهو يمده بجيش لا ينتهي من القردة اجتمعت له من كل حدب وصوب، قردة لا قبل لقوة بها، ولو شاء هذا الجيش لجفف البحر أمامه. وهو آت ليخلصك من هذه المحنة وهذا الكرب."

قالت سيتا: "لقد قطعت البحر، يا هانومن، لتبلغ هذا المكان. فماذا أقدم لك؟ كل ما لدي خمس ثمرات من المانجو حملتها إلي ساروما، فانتظر لحظة لآتيك بها. ضع واحدة عند قدمي راما، وقدم اثنتين للقردة، وواحدة لأخي لكشمانا مع الكثير من دعواتي، وتبقى واحدة ـ نصفها لسوغريفا، ونصفها الآخر لك. وها قد أخبرتك كيف تقسم هذه الثمرات."

لم يستطع هانومن أن يغالب نفسه ويمنعها عن الضحك، وهو يصغي لحديث سيتا. فقال، وقد عقد ذراعيه: "لا يسكت جوعي إلا وجبة عظيمة، ونصف ثمرة ليست بوجبة. إني أتضور جوعاً. فهل ترد نصف ثمرة عني هذا الجوع، يا ابنة جناكا؟ فلو شئتِ لنهلت مياه البحر كله!"

فراحت سيتا تتحسر قائلة: "وا حسرتاه! لقد خسرت كل شيء بخسارتي راما. ما الذي بإمكاني أن أقدمه لك هنا في بستان الأشوكا هذا، حيث أصوم ليل نهار، وقوتي هو ترداد اسم راما؟ وإن هذا ما يجعلني أحتمل العذاب من رافانا. ولو قدر لي أن أعود إلى آيوديا فلسوف أطعمك، يا ولدي، ما لذ وطاب. فلا تطلب المزيد، يا ابن الريح، حسبك نصف ثمرة تشبعك إن قبلتها أعطية مني، ولن تشعر بالجوع بعد اليوم أبداً. إن الأخبار التي حملتها إلي تستحق عليها حياتي كلها مكافأة، ولكن كيف لي أن أرى راما إن فقدت حياتي، وما كنت لأوثر الحياة إلا لأرى راما. غير أني سأقدم لك هدية أخرى." ورفعت يديها متضرعة، قائلة: "إن كنت طاهرة بالقول والفكر والفعل.. إن كنت أعتبر راما زوجاً لي بالقول والفعل والفكر، فإن كلماتي سوف تصدق. فاعلم يا هانومن، يا طفلي، أني منحتك الخلود!"

قال هانومن راجياً: "يا أمي، امتطي ظهري، ولسوف أحملك إلى السيد راما ولكشمانا، فاخبريني المطية التي ترغبين وسوف تجدينني قد غدوت غزالاً أو طيراً يحملك ويعبر بك الأجواء!" قالت سيتا: "كيف لك أن تحملني هذه المسافة، يا هانومن وحجمك ليس أكبر من كف المرء؟" ولقد وجد هانومن أن لا بد له من إظهار مدى قوته وبأسه، لتطمئن سيتا، بأن يستعيد شكله الحقيقي، فقفز من أعلى الشجرة وحط أمامها، وشرع يتضخم ويكبر حتى صار بحجم تلة، وظهرت مخالبه وأسنانه براقة كالماس، ثم قال لها: "إني لقادر على أن اقلب لانكا عاليها سافلها، بتلالها وغاباتها، سهولها وقصورها، بل إني لقادر على أن أجتث شأفة صاحبها أيضاً! فهيا، أيتها الأميرة، ولا تدعينا نتأخر."

فقالت: "قد عرفت الآن مدى جبروتك وسرعتك وتألقك كلهيب النار، أيها القرد

الجبار. وإلا كيف كان لك أن تبلغ هذه الأرض وراء البحر الفسيح؟ لكن، يا بني، كيف لي أن أرافقك فقد يصيبني الدوار وأنت تسابق الريح فاهوي من فوق ظهرك وأصبح فريسة لوحوش البحر؟ ثم إنني لا أرغب أن يمسني ذكر سوى راما. لقد حملني رافانا بعيداً عنوة وكنت عاجزة عن دفعه، ولم يكن هناك من يدافع عني. أما إذا جاء راما للقضاء على رافانا والمردة وينتشلني من هذا المكان، فذلك أمر فيه خلاصي. أفلا أسرعت وأحضرت يا أعظم القردة حبيبي ولكشمانا ومعهما سوغريفا سيد جموع القردة. لقد عانيت مر العذاب حين أبعدت عن راما أفلا أعدت لي السعادة لأنعم بها من جديد. لقد جهد فيبيشانا شقيق رافانا لتطويعي، وعلمت من زوجه ساروما أنني لن أنال حريتي إلا في معركة. لقد منحني رافانا شهرين لأبلغ قراري، ومضى منهما شهر، وما زال هناك شهر آخر تصبح حياتي بعده في خطر، وستذهب كل استعداداتكم هباء إذا ما مت. ولن تنقذ حياتي إلا إذا أسرعت يا هانومن. ولتقلص حجمك يا ابن الريح كيلا يفتضح أمرك."

قلص هانومن الشجاع حجمه وعاد بحجم راحة اليد. ثم قال لها: "كفكفي دموعك، أيتها المتعبدة، ولا تبكي، حسبك، يا أماه، أن تعطيني أمارة منك لراما، وسأذهب بأقصى سرعة وأعود قبل انتهاء الشهر على رأس الجيوش إلى لانكا."

نزعت سيتا من شعرها لؤلؤة وقدمتها لهانومن الشجاع وهي تقول: "أخبر السيد راما بكل ما عرفت حين تقدم له هذه الجوهرة. وتذكر أن عليكم إنقاذي في غضون شهر من الآن، وإلا ساكون قد فارقت الحياة."

وبعد أن استلم اللؤلؤة وحياها مودعاً. أخذ يفكر: "لقد أتيت بصمت، فهل أعود بصمت كذلك؟ الن تكون هنالك علامة تشير إلى زيارتي لهذا المكان؟ إنني خادم راما، وأستطيع ان اعبر المحيط مرة أخرى، ولكن لم لا افرّج عن قلب سيتا قليلاً بشيء من الدعابة والمرح، وأثير الرعب في قلب رافانا، والفوضى والهلع في لانكا، قبل أن أرحل." ولما بدأ يتنقل فوق أشجار الأشوكا المرصعة بالجواهر، قالت سيتا: "يا بني، لقد تذكرت الآن، فلدي بعض الفاكهة اللذيذة، فتعال لتتناول بعضاً منها قبل ذهابك." فمد هانومن يديه وأخذ

الفاكهة وأدخلها كلها في فمه. كانت لذيذة لدرجة أنه بات يؤثر البقاء، فأخذ يتوسل إليها: "أليس لديك، يا أماه، المزيد من هذه الفاكهة اللذيذة؟ أين تنمو أشجارها؟ ألا يوجد أشجار منها في هذا المكان؟ كم يلذ لي لو تناولت المزيد منها."

راحت سيتا تندب حظها وقالت: "لقد كان قدومك هباء. فلن يصل شري راما أو لكشمانا أي خبر عني. فما أنت سوى قرد، والراكشا كثر، فإن وقعت أعينهم عليك قتلوك لا محالة."

فقال لها مطمئناً: "لا تخشي شيئاً، يا أماه، فسأقضي على جيش الراكشا اليوم. وحسبك الآن أن تدليني على بستان الفاكهة اللذيذة هذه." أشارت سيتا إلى مكانها بصمت، فمضى ابن الريح بصمت كذلك.

لاحظ هانومن أن حديقة أشجار الفاكهة مسورة ومغطاة بالشبك لحمايتها من الطيور. وابتهج لرؤية عدد من الراكشا الأشداء يحرسون الحديقة الثمينة. فزاد من ضآلة حجمه، وانسل إلى الداخل وتسلق إحدى الأشجار، وبدأ بقطف الفاكهة من فوق أحد الأغصان. فلما رآه الحراس ضحكوا كثيراً وعجبوا لضآلته، وقال بعضهم: "هذا قرد صغير لا ضرر منه فلندعه يحرس الفاكهة، ولنسترح قليلاً." فجلسوا تحت الأشجار، ثم سرعان ما استولى عليهم النعاس واستغرقوا في النوم، وكان ابن الريح يلتهم الثمر والزهر، ويتلف أوراق الشجر. فاستيقظوا على أصوات تكسير الأغصان، فنظروا حولهم، وفزعوا لما شاهدوا ما أنزله القرد من أضرار، فالتقط كل منهم قضيباً وهجموا عليه يريدون قتله. فأخذ هانومن يقفز من شجرة لأخرى، ومن غصن لآخر، ومراجل الغضب تغلي في داخله، وشرع يقتلع الأشجار من جذورها ويرمي بها أعداءه، فقتل الكثير منهم. وكان هانومن يقاتل مثل فيل مجنون، فأشبعهم ضرباً وركلاً. والتفت إلى نسائهم فأمسك بعشرين منهن وطرحهن أرضاً وأخذ يعمل فيهن قتلاً، إلا أن بعضهن أفلتن منه، وهربن إلى سيتا يطلبن النجاة، وسألنها وقد تقطعت أنفاسهن: "أصدقينا القول، يا سيتا، ماذا قلت للقرد؟"

فأجابتهن: "سلن القرد." فأسرعن إلى رافانا والخوف يعصف بقلوبهن وهتفن: "قد أتى قرد من مكان مجهول، وأتلف بستان الفاكهة، وقتل العديد منا ولقي أثيرتك سيتا، المباركة، ووجدناها تلوح له بيدها وهو يومئ لها برأسه. ولكننا لا نعلم ما دار بينهما من حوار. فلتسرع بالقبض عليه، وإلا كنا من الخاسرين."

استشاط رافانا غضباً لما سمع وشرع يصرخ: "اقتلوه! اذبحوه! لا تبقوا عليه!" وحين وقع نظره على عبده مورا صاح به: "اذهب واقبض على هذا القرد، وأحضره إلي فوراً." فانصاع مورا لأوامر مولاه، وانطلق في إثر هانومن.

جلس هانومن فوق السور وقد بدا ضخماً هائلاً كالجبل، والراكشا يرمونه بأسلحتهم الفتاكة، لكنه كان يقبض عليها قبل أن تصل إليه. ثم اقتلع أحد الأعمدة ورمى به فوق رأس مورا، فأخذ يتدحرج على الأرض وهو يعاني سكرات الموت. وانثنى هانومن فقبض على عدد من الراكشا وقضى عليهم فوراً. كذلك أمسك برقاب بعضهم الآخر، وأخذ يمرغ وجوههم بالرمال الخشنة، ثم هرب منهم من هرب، وأسرع أحدهم ليطلع رافانا على خبر الهزيمة التي نزلت بحراسه: "هذا خراب عظيم أنزله بالمملكة قرد، ولا طاقة لنا على احتمال المزيد."

فأصدر رافانا أوامره إلى جامبومالي: "امض يا جامبومالي على رأس جيشك، واقبض على هذا القرد، وقيد يديه وقدميه وائتنا به."

فانطلق القائد العظيم على رأس جيش عرمرم من المشاة والفرسان تحملهم الجياد والفيلة، حتى بلغ مقصده، فوجد هانومن جالساً بهدوء. وكانت فاتحة اللقاء بين جامبومالي وهانومن مزاح وهزل، ثم إذا بجامبومالي يمطر هانومن فجأة بالسهام التي أصابت صدره فشرع ينفث الدم من فمه. ورد ابن الريح بهجوم صاعق بشجرة سال كانت بجانبه، إلا أن سهام الراكشا قطعتها إرباً. فلم يأبه هانومن لما حصل، والتقط جلموداً لكن سرعان ما تحطم تحت سهام الراكشا. فأحس هانومن بالضيق ثم حانت منه التفاتة فرأى بعض القضبان الحديدية،

فتناولها وأخذ يرمي بها جامبومالي الجبار فاصابه بمقتل. ولما تحقق له النصر مرة أخرى، عاد إلى الجلوس فوق السور يستمتع بالراحة والهدوء بعد هذه المعركة الضارية. وعاد رسل رافانا، ينتابهم الخوف والجزع، يحملون أخبار الشؤم إلى مليكهم.

استدعى رافانا سبعة من الراكشا الأشداء. ليتصدوا لهذا العدو، فخرجوا للقائه مدججين بالسلاح. ولكنهم لم يعثروا على أحد قريباً من السور أو حوله. وكان سر اختفاء هانومن أنه عاد إلى خدعته القديمة بأن قلص حجمه حتى لم تعد العين قادرة على تحديد مكانه. فاعتقد الراكشا أن عدوهم هرب بجلده، وحاروا ماذا يقولون لملك لانكا. وكادوا يقفلون عائدين، إلا أن هانومن ظهر أمامهم بشكله العملاق، وبادرهم بإلقاء بعض الدعامات التي اقتلعها من أحد البيوت، فوقعت فوقهم وقتلتهم جميعاً.

ومن جديد، عادت الرسل حاملة لرافانا أسوأ الأخبار. عند ذلك استدعى رافانا ولده أكشايا وأمره بالتصدي للقرد، وأهداه الحلي والمجوهرات تشجيعاً له على القيام بالمهمة. فسارع أكشايا على رأس جيش عظيم من الجنود والفرسان والجياد والفيلة إلى حيث سيلقى عدوه، فوجد هانومن جالساً مستنداً بظهره إلى جدار. فصاح الأمير بصوت جهوري غاضب: "هاك أنا أكشايا بن رافانا، أيها القرد، جئتك لتلقى العقاب الذي تستحق، ولا مهرب لك مني." وبإشارة من يده انطلقت آلاف السهام نحو هانومن، فهب ابن الريح من مكانه وحلق في السماء بقفزة واحدة، والسهام تتطاير نحوه، لكنها لا تبلغ باطن قدمه، فاستبد الغضب بأكشايا وأخذ يطلق السهام نحو هانومن بيديه، فأصابته بعضها وحاد أكثرها عن هدفه. راح هانومن يفكر: "إن الأمير على ما يبدو ما زال فتى، لكن لسهامه رؤوساً حارقة!" فقفز عندئذ وحط فوق عربة أكشايا، وبضربة واحدة حطمها فاصبحت ركاماً لا رجاء منها، وسقط عنها سائسوها، وأفلتت الجياد هاربة في كل اتجاه. إلا أن أكشايا حلق في الفضاء. ولما رأى هانومن أن عدوه على وشك الإفلات منه، أمسك بساقيه وأخذ يجره إلى الأسفل، ثم طوح به ورماه أرضاً فتحطمت جمجمته وتناثرت عظامه. وعاد ليجلس بهدوء مسنداً ظهره إلى الحائط مزهواً بانتصاره. وفي ذلك الوقت بلغت رافانا أنباء

مقتل ولده.

كان لموت أكشايا أشد الوقع على رافانا، فأخذ يقدح زناد الفكر، ثم استدعى ابنه الآخر ميغانادا، والذي اشتهر باسم إندراجيت بعدما هزم إندرا ملك السماء. وقال له: "يا بني قد أرسلت أبطالنا الأشاوس لقهر هذا العدو فلم يرجع إلينا أحد منهم. فاذهب واقبض عليه وعد إلينا بعدما تنتهي من أمره." فأجاب إندراجيت: "ليعلم مولاي أني مطيع أمره. ولسوف أمضي وأتولى أمر هذا القرد، ولن يستغرق مني إلا لحظة واحدة. وحين أفرغ منه ستجدني ماثلاً أمامكم منتظراً إنعامكم."

تهيأ إندراجيت للمعركة، ولبس لباس الحرب. وتزين بخواتمه وأساوره، وطوق عنقه بسلسلة ذهبية من سبع لفات، ولف أخرى حول خصره. وارتدى ثيابه الملكية، ووضع على جبينه قطعة من معجون خشب الصندل، وحمل بيده اليسرى ترساً ضخماً. وبإيماءة من يده اليمنى هرع إليه السائسون ومعهم عربة الحرب المصنوعة من الذهب الخالص، والتي تخطف الأبصار بروعة صنعها وجمال مظهرها. وخرج على رأس ثلاثة عشر جيشاً، وعشرة آلاف حصان وعشرين ألف فيل. تصاحبهم الموسيقى العسكرية، وتهتز الأرض تحت وقع أقدامهم. وقبل أن يغادر استدعاه رافانا وقال له: "قد بلغتني أخبار فالي وسوغريفا، وإن هانومن هو أحد أفراد حاشيتهما، فأحسن الاستعداد له، ولا تظنن أن من اليسير قهره." فضحك إندراجيت، مما سمع من أبيه، وقال: "لسوف ترى كم هو سهل القضاء على هانومن هذا." ثم خرج للقاء هانومن فوجده جالساً عند السور فأخذ يستفزه بالسباب والشتائم، ليختبر قوة أعصابه، ويرى من حيله ما يكشف عن ضعفه. صرخ إندراجيت: "أنت يا من تأكل الأوراق والأعشاب، وترتدي المئزر! لماذا تسعى إلى حتفك؟ إذن فاعلم أن سوغريفا قضى أيامه في أعالي الأشجار لا يجرؤ على النزول لمواجهتنا. فهل أتيت أنت لتموت في لانكا."

ضحك هانومن في سره وأجاب: "إننا نأكل الفاكهة والجذور ونعيش كالنساك، وننتقل من شجرة لأخرى. إلا أننا لا نسيء لأحد. فتذكر ذنوبك وما اقترفته يداك من شرور. ومن

الذي يجهل جرائم أبيك رافانا وشروره؟ إن في قصر أبيك عشرة آلاف امرأة، ومع ذلك يختطف امرأة ورعة صالحة. لقد أوغل في الذنوب والخطايا، وقتل العديد من الأبرياء. فهل تراك تعتقد أنه يملك أن يهرب من نهايته المحتومة؟ إن كان هذا ظنك، فاعلم إذن أن وقت العقاب قد حان!"

وهكذا تبادلا الشتائم ثم وضعا الكلام جانباً، واندفعا للقتال. فامسك هانومن بجميع الأسلحة التي صوبت عليه. لقد كان الخصمان يتمتعان بقوة عظيمة وقاتلا قتالاً مريراً. وأخيراً قذف إندراجيت سلاحه السحري الذي يقتنص به أعدائه فأصاب هانومن وأوقعه أرضاً، وقيد يديه وقدميه بالسلاسل الحديدية. وأعمل هانومن الفكر فيما ينبغي عمله ورأى أن من اليسير عليه أن يحطم هذه القيود، إلا أنه آثر ألا يفعل، ليتمكن من لقاء رافانا. وهكذا لم يبد هانومن مقاومة أمام سجانه. وأمر إندراجيت الراكشا أن يسوقوا هانومن ليمثل أمام رافانا. فتظاهر هانومن بأنه لا يرغب في الذهاب، وراح يتكلف المقاومة ويركل الراكشا ركلاً عنيفاً أثار فيهم الفزع. وحاول المئات منهم جره ولكن عبثاً. وفي النهاية قال لهم: "اقرعوا الطبول، فإنني ذاهب للقاء ملككم، ولهذا عليكم أن تحملوني على أكتافكم." فتعاون الآلاف من الراكشا وعلقوه على عمود ضخم وساروا به باتجاه رافانا بينما كان يضحك في سره. إذ وجد أن إثارة ضيق هؤلاء الراكشا أمر مسل جداً. ثم صاح بهم صيحة مدوية ليتوقفوا، فوجم هؤلاء وتوقفوا، فبدأ يزيد من حجمه وثقله حتى عجزت تلك الآلاف من الراكشا عن حمله أو دفعه للحركة، فأثار هذا الخوف في قلوبهم. وسارعوا عندئذ إلى إخبار رافانا أنهم تمكنوا من الإمساك بالقرد الماكر، بعد مشقة عظيمة، إلا أنهم غير قادرين على إدخال جسده الضخم عبر أبواب القصر. فهتف رافانا وقد استبد به الفرح: "فلتحطموا الأبواب، حطموها.. العجل... العجل فإنني متشوق لرؤية طلعة هانومن هذا!"

وهكذا كسرت الأبواب كما أمر الملك، ولم يبق من الأبواب الثمانية إلا باب واحد، ومع ذلك فقد ظل الحراس يعانون الأمرين وهم يحاولون إدخال هانومن العملاق، حتى أشفق

عليهم فانقص من ضخامة بدنه، وسمح لهم باقتياده إلى رافانا.

حدق الملك مذهولاً في هانومن الماثل أمامه، وكانت عيناه تتقدان غضباً، وهو يشع ضياء من الذهب والجواهر الكريمة التي يتحلى بها، وقد بدا رائعاً بنظرته القوية وأسنانه الحادة اللامعة وشفاهه الممتلئة. ويحيط به الأمراء والوزراء، فكان رافانا على عرشه أشبه بالقمر والنجوم تحيط به. عندها استغرق هانومن في التفكير: "يا لهذه الروعة! وهذه القوة وهذا المجد! أي جلال هذا؟ إن هذا لهو الكمال بعينه. لقد كان لهذا الملك أن يغدو حامي ملك إندرا، لكن بقسوته وشروره حمل العالم كله والآلهة والعفاريت على كراهيته، والحق أنه ينطوي على رعونة تجعله يغرق العالم، في لحظة غضب، في البحر!"

ولما وقع نظر رافانا على هانومن، أخذ يفكر: "أو يكون، ناندي المبارك قد جاء إلى هنا، فقد سبق له أن لعنني، بعد أن سخرت منه على جبل كيلاسا؟" ثم قال لكبير مستشاريه براهاستا: "من أين أتى هذا القرد؟ وما الذي حمله على تخريب البستان؟ ولم قتل الراكشا؟ ولأي سبب جاء إلى عاصمتنا، وهاجم أتباعي؟ هذه أسئلة أريد أن يجيب عليها هذا الوغد، فدونك إياه."

والتفت براهاستا إلى هانومن مخاطباً: "أجبنا، أيها القرد، ولا تخشى بأساً! فليس هناك داع للخوف! وقل لنا بصدق، أهو إندرا الذي بعث بك إلى موطن رافانا؟ إن صدقتنا القول، أطلقنا سراحك ومنحناك حريتك. أم لعلك إله المياه فارونا أو إله الموت ياما، وقد غيرت من هيئتك فاتخذت شكل القرد؟ أم ان الإله فيشنو قد حملك إلينا ليقهرنا، هيا اصدقنا القول وإلا قتلناك إن راوغت!"

فأجاب هانومن: "إنني قرد فعلاً كما أبدو، ولست مبعوث أحد ممن ذكرت. وقد أتيت لأنعم بمقابلة ملك الراكشا ولهذا أتلفت البستان، وإن قاتلت الراكشا فلأنجو بحياتي، وسمحت لهم بتقييدي لأحظى بالمثول أمام ملك الراكشا. إنني مناصر لشري راما ورسول الملك سوغريفا وأتحدث باسمه. ومن مصلحتك أن تصغي لما سأقول. لقد صادفت سيتا

وكان بيننا حوار. وبما أنك عارف بالدين وكسبت معرفتك برياضة النفس، فإنك تميز الخير من الشر. ومن الخطأ أن تأخذ بالعنوة زوج رجل آخر. والأحرى بك، إذن، أن تعيد سيتا إلى راما. فهي مثل الطعام المسموم وهو لا ريب قاتلك. إني أعلم أن الآلهة لا تقوى على قتلك ولا الكائنات السماوية أو العفاريت، فقد اكتسبت مكانة عظيمة برياضة النفس. لكن سوغريفا ليس من هؤلاء أو أولئك، وما راما إلا بشر فان. فتفكر في هذا الأمر وتدبر. لقد علمت من أمري ما علمت، وما صنعت ببستان الفاكهة، إذن، فاعلم أنه كان بمقدوري أن أحدث ضرراً أكبر، لكن ذلك من شأن راما وحسب، وهو الذي أقسم على أن ينزل بك الخراب. فلا تعبث مع القدر. وإني لك من الناصحين بأن تجنب لانكا مخاطر الحرب مع راما، فهو ليس بالخصم الذي يستهان به - فحذار أن يأتيك جهلك بعداوته!"

قال هانومن ذلك بصوت هادئ رزين، وعبارات محكمة المنطق عابقة بالحكمة، إلا أنها وقعت على آذان صماء. بل إن اللهجة الحافلة بالثقة التي تحدث بها هانومن أثارت في رافانا الحنق والغضب. فأشار إلى حراسه أن يقتلوه، وأخذ يكرر الأمر: "اقتلوه. اقتلوه!"

لكن أخاه فيبيشانا، اعترض على الأمر بقوله: "لا يليق بملك أن يقتل مبعوثاً إليه، فهو إنما يؤدي واجب الرسالة. وليس لأحد أن يأخذ عليه ما ينطق به، فما الكلمات المشبعة بالغرور التي جرت على لسانه إلا كلمات سيده، وإذن فليس هناك ما يؤخذ عليه. والعقوبة الوحيدة التي يمكن إنزالها به وفقاً للقانون هي حلق شعر الرأس!" وهكذا نجا هانومن من موت محقق، واقتصر رافانا على إصدار أمر بإحراق ذيله، لأن الرأس الحليق لا يعتبر عاراً عند القردة. ولذلك شاء رافانا أن يحرق ذيل هانومن ليكون أضحوكة أهله وأصحابه القردة. فاندفع الراكشا لتنفيذ أوامر مليكهم، وبالمقابل ثار هانومن واستشاط غضباً لهذه المهانة، فمد ذيله حتى أصبح بطول خمسين يوجنا، مما أثار الفزع في قلوب الراكشا، وأدرك رافانا دلالة العمل، إذ لم يكن قد نسي بعد ما عاناه من ذيل فالي، فشرع يصيح: "أمسكوا به! أمسكوا به!" فاجتمع ثلاثة ملايين من الراكشا للإمساك بذيل هانومن، وتم إحضار لفائف لا حصر لها من القماش المغموس بالزبدة والزيت، ولف حول ذيل هانومن وأضرمت فيه النار.

ضحك هانومن عندما رأى ذيله تشتعل فيه النار، وقال لرافانا: "إن النار لن تنال مني، بفضل دعاء سيتا لي. بل سوف ينتهي أمرك لما أقدمت عليه يداك!" فلم يتمالك رافانا نفسه، وشرع يصرخ في جنده: "خذوا هذا القرد الماكر في الحال واعرضوه في شوارع لانكا!"

بدا منظر هانومن غريباً، وهو مقيد وقد التف حبل حول وسطه والنار تشتعل في ذيله. فتجمهر سكان لانكا لرؤية هذا المشهد. وهرعت الحارسات ليخبرن سيتا بوقوع القرد الذي كانت تحادثه في الأسر، وإضرام النار في ذيله. فانتابها الخوف والحزن، وأشعلت النار المقدسة، وضمت راحتيها وأحنت رأسها وأخذت تبتهل: "أيتها النار، إن كنت خالصة الفكر، تقية في أقوالي، مخلصة في أفعالي، فحرري هانومن منك". وفيما كانت تبكي وتصلي وتبتهل، جاءها حديث المخلدين في السماء، وسمعت براهما يقول: "قري عيناً، يا سيتا، ولا تجزعي. فلسوف يحرق هانومن لانكا. وقد أتينا لنرى هذا المشهد المسلي! فعلام الحزن؟" عندئذ كفكفت دموعها، واستعادت هدوءها.

ما أن خرج هانومن من القصر حتى قلص حجمه فأصبح بحجم النمس، بعد أن كان ضخماً كالطود، فأمكنه بذلك أن يتخلص من قيوده، ثم بلمح البصر عاد ذلك القرد العملاق من جديد. فدهش الراكشا من هذه الأعجوبة، وهربوا خوفاً منه. فراح هانومن، بعدئذ، يلتقط كل سلاح يصادفه، من حجارة ورماح وهراوات وقضبان حديدية، ليرمي بها خصومه. وعاد الذعر يدب بين الراكشا. وأخذت إحدى الراكشات تصرخ: "وا حسرتاه! لقد مات زوجي." وصاحت أخرى: "آه يا أخي! آه يا أخي، قد مت!" وثالثة: "وا ولداه، هذا ابني كبير الحراس مات أيضاً!"

وراح رهط من الراكشا يندبون أهلهم وأقرباءهم، ثم أطلقوا أقدامهم للريح طالبين النجاة من الموت المحتم. وكانت تلك الصيحات ترد إلى أذن هانومن، ومشاهد الذعر تعرض أمامه فيضحك وينادي: "أين الهرب، تريثوا فالموت قادم ليحصدكم أجمعين، وأنا ذراعه الطويلة الضاربة!" وهم بهم وتناولهم بذيله المشتعل، فإذا بالنار تشب فيهم. ثم اقتلع شجرة وألقاها

على البقية فقتلت الكثير منهم.

توقف هانومن برهة ونظر حواليه فرأى بيوت لانكا الجميلة، وألح عليه الخاطر أن يشعل النار فيها ويجعلها خراباً. فقفز إلى سطح أحد المنازل وأضرم فيه النار، وسرعان ما امتدت ألسنة اللهب إلى البيت المجاور، ثم الذي يليه، حتى أتت على الحي كله. ثم جاء إله الريح ليساعد ابنه. وكان ذلك ما يطلبه هانومن. فراح يقفز من بيت إلى آخر والريح تعصف في المدينة فتنتشر الحرائق في لانكا، فلا تبقي ولا تذر، حتى طالت النار الراكشا أنفسهم فأخذوا يركضون في كل اتجاه طلباً للنجاة، ومات الآلاف منهم وهم يعانقون أطفالهم، بينما هرب بعضهم لا يلوون على شيء مخلفين أهلهم وراءهم. أما نساء الراكشا فلجأن إلى بحيرات لانكا، وأخفين أنفسهن تحت سطح الماء، فلا يظهر منهن سوى رؤوسهن. فبدت البحيرات ممتلئة بوجوه تشبه زهرة اللوتس. ولما رأى هانومن ذلك المنظر ضربهن بذيله الملتهب، فاحترق شعرهن ووجوههن فانتابهن الذعر وغطسن في البحيرات إلا أنهن عدن فظهرن إلى السطح بعد برهة وهن يكدن يختنقن. فعاود ضربهن بذيله فغرقت الكثيرات وهن يحاولن الفرار، وماتت الكثيرات حرقاً. وهكذا أتت النار على الكثير من عمائر لانكا الجميلة، وارتفعت ألسنة اللهب في السماء، وامتدت في لحظات إلى المدينة بأكملها، وقضت في غضون ذلك على الآلاف من الفيلة والجياد والطيور الأليفة، وفقد طاووس رافانا ذيله الرائع البديع الجمال، وما عاد يستطيع أن يزهو به بعد ذلك اليوم. ولقد أتت النار على قصور الملك، وبيوت العامة كذلك، ولم يبق سوى قصر كومبكارنا وفيبيشانا، إذ نجا قصر فيبيشانا بنعمة براهما، أما قصر كومبكارنا فقد حمته شجرة كبيرة، وكان العملاق كومبكارنا أخو رافانا نائماً في ذلك الوقت وقد نجا لأنه كان مقدراً له أن يموت في المعركة.

كان الصراخ والعويل يسمعان في كل مكان، وقد انتهت لانكا الجميلة. وفي تلك اللحظة تنبه هانومن لأمر سيتا وخشي أن تكون الأحداث قد داهمت سيتا. فراح يقرع نفسه لإهماله: "ما الذي دهاني لألحق بنفسي العار؟ لقد جنيت على حبيبة راما! ولأجلها

عبرت المحيط، وها هي الآن ضحية النار التي أشعلتها. فما الذي حملني على إحراق لانكا؟ وها أنذا خادم راما أقتل زوجه! كيف لابن أن يقتل أمه؟ إن العار سيلازمني إلى الأبد. فلتأكلني وحوش البحر، أو لتلتهمني النار فتحولني إلى رماد جزاء ما أقدمت عليه يداي. فلن أعود إلى الوطن - يجللني العار أمام الأهل." فواساه المخلدون في السماء وأخذوا يهدئون من روعه ويطمئنونه بان سيتا في أمان وسلام، فالنار لم تمسها بأذى. فابتهج هانومن وراح يقفز من بيت لآخر ويتابع إشعال الحرائق. ولما رأت سيتا النار مشتعلة في أرجاء البلد، خامرها الظن بأنها التهمت هانومن أيضاً، فاشتد بها الحزن، وشعرت بضيق شديد، لولا أن ساروما أخبرتها بما بلغها عن أسره، وإحراق ذيله الذي كان سبباً للحريق، إلا أنه نجا من النار. وفي غضون ذلك، ظهر هانومن وذيله ما زال مشتعلاً بالرغم من أنه حاول إطفاء النار المتقدة فيه، فلم يزدها ذلك إلا اشتعالاً حتى بلغ لهيبها عنان السماء. وقدم لسيتا التحية وهو يقول: "يا أماه، أتدرين سر ما حصل؟ ها هي ذي النار تشتعل بذيلي ولا أستطيع إخمادها، فهل تعلمين بوسيلة تساعدني في إطفائها؟" فأشارت عليه أن يدخل ذيله المشتعل في فمه، فقام بذلك وتألم كثيراً واحترق وجهه إلا أن النيران انطفأت.

ذهب هانومن إلى البحر، وقد استولى عليه الأسى، ومال يريد أن يرى صورة وجهه على سطح الماء. ثم قفل عائداً إلى سيتا والحزن بادٍ عليه: "قد أتيت من أجلك يا أماه، وها قد أحرقت وجهي، فإن عدت إلى الوطن، أصبحت عرضة للسخرية من الأهل والأقارب." فواسته سيتا بقولها: "محال يا هانومن أن يختلف أحد عن أبناء جلدته، لذا فمن الآن وصاعداً ستكون وجوههم مثل وجهك المحترق." فقال هانومن: "الوداع إذن، يا أماه." عندها طلبت منه أن يستريح قليلاً بضعة أيام بين أغصان أشجار الأشوكا، ريثما تشفى حروقه، ويستعيد قواه. فاعتذر هانومن قائلاً: "لسوف أمضي الآن وأعود بصحبة شري راما ولكشمانا والملك سوغريفا، ومعهم جيوش القردة، ولسوف يجتازون البحر قفزاً، أما أنا فسأحمل راما ولكشمانا فوق ظهري، فإن تأخرت عن موعدي ضاع كل شيء." فطلبت منه أن يخبرها عن عدد القردة الذين يماثلونه شجاعة. فضحك وطمأنها بقوله: "هناك

العديد ممن هم أكثر بسالة مني، يا أماه، فأنا أصغرهم، ولطاقتي حدود لا تسمح لي إلا بأعمال متواضعة. ولذلك تجدينهم يرسلونني في كل اتجاه. ورغم أنني لا أعتبر من الأبطال فقد قتلت الآلاف من الراكشا. ولسوف ترين عشرين مليوناً من القادة المتمرسين، كما أنك تعلمين بأمر رماح راما ونفاذها! وإني لأصدقك القول بأن نهاية أحزانك قريبة، وقريب هو اليوم الذي يقضي فيه السيد راما على رافانا، ولسوف تثبت لك الأيام صدق قولي، فسيأتي سوغريفا ولكشمانا في ساعة ميمونة، وسيدوّخ السيد راما لانكا كلها. فلا تخشي شيئاً يا ابنة جناكا." ثم انحنى وحياها مودعاً.

انطلق هانومن عائداً في رحلة العودة، مزيناً رأسه بجوهرة سيتا. وكانت الأرض تهتز تحته، وأمواج البحر تتلاطم وتندفع إلى الأعالي. ثم وقف على أحد الجبال وألقى نظرة إلى البحر. وانطلق بعد ذلك قافزاً مرسلاً صرخة مدوية، تحمل كل مشاعره بالسعادة والزهو بالنصر، تردد صداها حتى الشاطئ الشمالي. فاستدعى جامبافان رفاقه وقال لهم: "لقد أنهى هانومن مهمته وهذه صرخات النصر تنبئنا بالنجاح الذي أصابه. ولا ريب عندي في أنه عثر على زوج راما. ولسوف نعلم حقيقة الأمر بعد قليل، فصاحبنا يسابق الريح." وما هي إلا لحظة حتى عبر هانومن البحر ولمح الجبال فاقترب منها وحياها ثم هبط على أعلى القمم. ووجد القردة يهللون ويرحبون به.

توجه هانومن بالتحية، بادئ ذي بدء، إلى الأمير انغادا، ثم التفت إلى جامبافان والقادة الآخرين، وقد استبد به الفرح للقاء رفاقه فهرع إليهم يضمهم ويعانقهم، وكانوا سعداء بعودته فقدموا له الثمار والأزهار. ثم عقد انغادا مجلسه، وفق ما جرت عليه العادة في مثل هذه المناسبات ليستمعوا لرواية هانومن عن مهمته، فوقف جامبافان وطرح عدداً من الأسئلة: "كيف وجدت الأحوال عند رافانا يا هانومن؟ كيف كانت مدينة لانكا الذهبية؟ وكيف عثرت على زوج راما الجميلة؟ كيف كان رافانا يعاملها؟ ما حالها؟ وكيف تبدو؟ كيف استطعت أن تنجو من قبضة الراكشا؟ لقد كنا قلقين عليك، ناشدناك أن تخبرنا بكل ما جرى. ولعلنا نعود الآن، إن كان هناك من أمل في بلوغ غايتنا."

فأجاب هانومن موجهاً حديثه إلى أنغادا: "كانت المسافة بيننا وبين لانكا مئة يوجنا، وقد صادفتني مشاق كثيرة أثناء العبور. وحين دخلت لانكا أخذت أتقصى أحوالها وأدرس مداخلها ومخارجها وأحياءها حتى انتصف الليل، وفي الثلث الأخير من الليل التقيت ابنة جناكا في بستان الأشوكا. وهناك جابهتني مصاعب جمة لكني تغلبت عليها في النهاية. ولكن دعونا نذهب إلى راما، وعندئذ أخبركم بما جرى بالتفصيل."

ابتهج أنغادا لتلك الأخبار الطيبة، وبدا شديد التلهف لشن حملة لإنقاذ سيتا، فخاطبهم قائلاً: "سنتأخر كثيراً إذا انتظرنا حتى نخبر السيد راما. فدعونا ننقذ سيتا أولاً، ثم نذهب إليه. فها قد قفز هانومن وعبر المحيط وحده، فلتتشجعوا أيها القردة، والنصر بمتناولكم!"

فرد جامبافان قائلاً: "إنني لا أوافقك الرأي، مهما زينت لنا الأمر. لقد أقسم الملك على أن ينقذ سيتا، فكيف لنا أن نتولى المهمة نيابة عنه؟ والرأي عندي أن لراما وحده أن يقول ما يجب القيام به. فقد نلقى اللوم والتوبيخ إن وافقناك في ما تذهب إليه. وليس بمقدور القردة أن تقفز عشر يوجنات فما بالك بمئة!"

استشاط أنغادا غضباً وصرخ قائلاً: "أيها العجوز، لقد ابيض شعرك لكن دونما فائدة. وطعنت في السن وترى الآخرين مثلك، وتعرض لنا المشورة كشيخ عجوز فارقه حسن التقدير. تقول إن القردة لا قبل لهم بعبور البحر، إذن حسبك أن تمسك بذيلي لأحملك فوق البحر."

عندها قال هانومن: "رويدك أيها الأمير. فإننا نعلم جميعاً قدرك وبأسك، وأنك فريد بين الأبطال. ثم إننا نعلم جميعاً مكانة جامبافان عندك، فهو الوزير المشير، فلا تستخفن بما يقول!"

ضحك أنغادا، عندئذ، ودوت قهقهته عالياً في أرجاء القاعة، وخاطب هانومن بابتهاج: "الحق ما قلت! فلنعد إذن وجيشنا إلى الوطن، وهناك نتدبر الأمور."

وهكذا تهيأ الجيش للعودة، وبدا وكأنما يغطي بأعداده الغفيرة الأرض والسماء. ولما

اقترب الجنود من الوطن، صادفوا في الطريق غابات العسل العظيمة التي كانت ملكاً لفالي. وكان يقوم بحراستها آلاف القردة. فجذبت رائحة العسل الجنود ورغبوا في تناوله. فاستشاروا جامبافان الذي قال لهم: "سلوا أنغادا الإذن، وحري به أن يأذن لكم، فقد أثلجتم صدره بأنباء سيتا." فذهب إليه هانومن وقال له: "أي ملك القردة، سألتك ان تمن علينا وتلبي لنا رغبة، فتقدم لنا بعضاً من عطاياك."

رد أنغادا: "أيها البطل المقدام، لقد جئتنا بما يسرنا، وحق لك أن تطلب ما تشاء، وعلينا أن نلبي لك ما ترغب به." فطلب هانومن السماح للقردة بتناول العسل. وأجابه أنغادا إلى ما طلب، وقال له: "لك ما تشتهي وترغب من العسل، ولا أحسب أن سوغريفا يمانع في تناولكم العسل."

سر الجميع لهذه المنحة، وتناولوا ما طاب لهم، ففرغت جرار العسل، وأصبح القرود ثملين، فاندفعوا إلى تكسير الأغصان، وشرعوا يتصارعون ويرقصون ويغنون، ويقفزون من مكان لآخر، ثم يعاودون المشاجرات والمصارعات من جديد، حتى غدت الغابة الجميلة خراباً.

اندفع الحراس الغاضبون نحوهم يريدون ردعهم، لكن جيش أنغادا ردوهم على أعقابهم، وأخذ بعض الجنود في مطاردتهم وإهانتهم، حتى إنهم رفعوا من وقع بين أيديهم من شعورهم وطوحوا بهم في الهواء. بل إن بعض الجنود هرعوا إلى أنغادا واشتكوا من الحراس قائلين: "كنا نتناول العسل، كما أذنت لنا، فإذا بهؤلاء القردة يهمون بنا يريدون قتلنا. فما قول أميرنا؟" فثار أنغادا لهذه الإهانة وصاح: "تأهبوا للقتال، استعدوا للنزال! علينا بهم. فمن له قبل بجيش أنغادا؟" فلما رأى الحراس الجنود، فروا من أمامهم مخلفين رئيسهم داديموخا وراءهم ليواجه مصيره. فقال له أنغادا: "اصغ إلي يا داديموخا، لن تجدني نادماً إن قتلتك اليوم. فقد قدمت غابة العسل، وهي إرثي من والدي، هدية لمن جاءني بأنباء سيتا، وذلك أقل ما يمكن أن يكافأ به. ولقد كنت أتكلف العناء وأكابد في سبيل تنفيذ المهمة التي كلفني بها راما، بينما كنت أنت بين أهلك وقومك آمناً مطمئناً تستمتع بغابات

العسل. وها هم أبناء قومي يتقاسمون إرث والدي. فما شأنك وهذا؟ إني حقاً لقادر على قتلك وما كنت لأتردد لولا مكانتك وشيخوختك."

ثار غضب داديموخا لما سمع، واهتز كيانه كما لو أن زلزالاً أصابه، وأخذت شفتاه ترتجفان، فوق ما كان يعاني من الآلام والقروح والجراح التي أصابته على أيدي جنود أنغادا. فهرع إلى سوغريفا يطلب الأمان عنده، وانكب على قدميه وروى له ما حصل وما نزل به من إهانات، فقال: "اعلم أيها الملك أن أنغادا وهانومن قد خربا غابة العسل، التي كان فالي يتولى رعايتها بنفسه، إلا أنها الآن، ويا للأسف، قد أصبحت خراباً." فغضب سوغريفا، لكنه تمالك نفسه، وأطرق برأسه صامتاً. فسأله لكشمانا: "ما الأمر، أيها الملك؟ ولم كان داديموخا يركع عند قدميك، وهو بهذه السن والمكانة؟ وكان الأجدر بك أن تعمل على تهدئة روعه." أجاب سوغريفا: "كان يحدثني بأمر يتعلق بالحملة إلى الجنوب. فقد عاد من أرسلناهم إلى هناك وأتلفوا غابات العسل الجميلة. وضربوا داديموخا حارس الغابة وطردوه منها، فجاء يحدثني في الأمر."

فهتف لكشمانا: "هذا أمر عجيب، فمن هذا القادم من الجنوب؟ من الذي سيروي لنا ما جرى في الجنوب؟"

وقال راما متسائلاً: "هل عاد من أرسلنا هم إلى ذلك القطاع؟ هيا اطلبهم في الحال ليخبرونا بأحوال تلك البلاد وما صادفوه هناك".

قال سوغريفا: "اهدأ يا صديقي! فقد أرسلنا كبار القادة إلى الجنوب، ومنهم الأمير أنغادا ذاته والوزير جامبافان وهانومن الشجاع، وهو نشيط ويقظ في عمله وحكيم وصالح، ولا ريب أنه عثر على ابنة جناكا."

فقال راما: "يا صديقي، إن الكلمات لتعجز عن أن تعبر عما في قلبي من السعادة، بعدما سمعت من حديثك! فهيا استدع أنغادا وهانومن لنعلم منهما أنباء سيتا فيهدأ بالي." فالتفت سوغريفا عندئذ إلى داديموخا قائلاً: "هيا يا داديموخا. لا عليك مما قاله

أنغـادا . وامض بسرعـة حـاملاً رسـالتي، وعـد وبصحـبـتك أنغـادا وهانومن فـالسـيـد راما بانتظارهما."

سر داديموخا لحديث الملك. وبقفزة واحدة كـان أمام أنغادا. وقال له: "يا سيد القردة، قد جئتك بأوامر الملك. فهيا دونك أملاك والدك، فتمتع بها كما يحلو لك، وما أنا سوى خادم، ولم يكن يجدر بي أن أسلك ذلك السلوك الفظ. وحسبك أن تعلم الآن أن راما وسوغريفا ينتظران قدومك إليهما، فلتسرع."

وهكذا ترك أنغادا ذو الصدر الرحب غابة العسل في عـهـدة داديموخا مـرة أخرى، وبدأ مسيره سعيداً للقاء الملك سوغريفا والسيد راما، تحيط به أعداد هائلة من القردة، يتقدمهم هانومن وقد بدا بجسمه الضخم كالطود.

كان راما، في غضون ذلك، يتأرجح بين الأمل والخوف، والأفكار تتجاذبه، ولا ينقطع يتساءل أي أنباء يحملها إليه هؤلاء القوم. ومن بعيد رأى السيد راما هانومن فهتف مخاطباً إياه: "اصدقني القول يا هانومن، هل رأيت سيتا؟" فتقدم منه هانومن وانكب على قدميه ثم حياه وأجابه:" نعم لقد رأيتها في بستان الأشوكا في لانكا، وسأخبرك بكل ما جرى وعلمت يا مولاي..."

وبعد أن أخبره بكل شيء قدم له اللؤلؤة التي أرسلتها إليه سيتا. فطلب منه راما أن يخبره بكل ما قالته سيتا عندما أعطته هذه الجوهرة.

قال هانومن: "يا مولاي، لقد بكت ابنة جناكا وطلبت مني أن أستريح، عندها تحدثت إلى اللؤلؤة وقالت لها انت وأنا شقيقتان. فقد عمل والدي على رعايتنا نحن الاثنتين. وعندما تزوجت من السيد راما، تمت صياغتك لتصبحي خاتماً وقدمت إلى السيد راما هدية. وقد كانت رغبة والدي أن نبقى معاً. ولما كنت اكبر مني سناً، فقد وضعتك في مكانك المناسب فوق رأسي. ولسوف يسر راما لرؤيتك، ولذلك سأرسلك إليه اليوم. وهل يليق بابنة جناكا وزوج راما أن تعاني الأمرين في بلاد الراكشا؟ فهيا امضي إلى راما واخبريه

بما اعاني في لانكا. أنت جوهرة جيء بك من البحار العميقة وراما جوهرة آل راغو. وحق أن تسعدا ببعضكما. أما أنا، فلحظي العاثر، لا أدري كم سيطول بقائي في لانكا؟"

انفجر راما باكياً، ثم قال: "أحسنت يا هانومن، أحسنت. فليس في العوالم الثلاثة من يضاهيك شجاعة وبسالة. وإذن فتكريمك حق علي، فسلني ما تشاء، لولا أني لا أجد ما أقدمه لك سوى نفسي، فهي لك. ولتتقدم مني لأضمك!"

بدأ راما رحلته نحو لانكا في ساعة مباركة من الليل، والنجوم ساطعة تعد بالخير، وكان من المقدر أن تكون نتائج المغامرة حسنة كذلك، وما فتئ راما يعدد طوال الطريق بشائر الخير، وبذلك تكون نهاية رافانا والراكشا قد بدأت.

كانت جحافل السميان منتشرة تملأ الأصقاع، وبدت وكأنها تغطي السماء والأرض، والجنود يتبادلون أطراف الحديث في أثناء سيرهم وفي مقدمتهم راما ولكشمانا حتى بلغوا شاطئ البحر. وهناك أقاموا معسكرهم فوق الرمال وبنوا الأكواخ من الأخشاب والأغصان وأوراق الشجر. وما كادوا يستقروا حتى حمل الجواسيس والأرصاد نبأ وصولهم إلى رافانا.

السفر السادس
الحرب

نظر ملك الراكشا إلى لانكا، ورأى العسف الرهيب الذي أنزله بها هانومن، كان المشهد مهولاً، ووجد أن يعرض الأمر على رعاياه. وخاطب الملك المهيض الجناح قومه، وهو مطرق الرأس، قائلاً: "إن لانكا التي ظلت إلى اليوم منيعة على الأعداء أصبحت خراباً على يد قرد جاء لرؤية سيتا؛ وقد خرب هذا القرد هانومن القصور وعمل قتلاً بكبار الراكشا وجعل عالي المدينة سافلها. تلك هي مأثرة هانومن، وذلك هو إنجازه العظيم! فبماذا تنصحونني؟ وأي طريق ترونها مناسبة لأسلكها؟ فقولوا رأيكم، وليكن أفضلنا هادياً لنا في العمل! ولقد قالت الحكماء إن المشورة الحسنة أساس النصر. ولذلك أردت مشورتكم، أيها البواسل، لأرى رأيكم في أمر راما، وما ينبغي أن نعمل لنتدبر هذا الشر.

إن الرجال معادن، منهم الثمين النادر ومنهم التافه ومنهم من هو بين بين: فالأول من ينشد المشورة من أصحاب الخبرة المتمرسين وأصدقائه الذين يشاركونه الهم والأقارب والمتقدمين عليه ثم يمضي مستعيناً بالآلهة في أمره يبذل فيه جهده وطاقته.

والثاني من لا يقدر الأمور وعواقبها، فلا يرى الحسن والغث في الأمر ويعرض عن الاستعانة بالآلهة ويمضي في أمره بلا تبصر متبعاً هواه، مهملاً ما يقضي به الواجب.

والثالث من سأل المشورة والرأي ونهض بواجبه دون أن يطلب العون ثم تحقق له مسعاه. ذلكم هو العادي المألوف بين الناس.

وكما أن الرجال على نحو ما ذكرت، كذلك فإن الرأي على أنواع، فمن ذلك الرأي الحسن والمضلل والوسط؛ فالرأي الحسن هو ما أنضجه الدرس والتبصر واستند إلى السلطة الروحية والعقل. والوسط هو الذي يتحقق الإجماع عليه بعد مداولات طويلة. أما المضلل فيكون إذا دأب كل طرف في النقاش على التمسك برأيه، مناهضاً الآخرين، فلا يبلغ نتيجة. وصفوة القول إن ما يقوم على التداول والحكمة لا بد أن يفضي إلى النجاح.

ولكم، وكلكم أهل حكمة ورجاحة عقل، ان تشيروا بما ينبغي علينا فعله، ولسوف آخذ بما ترون. واعلموا الآن أن راما يتقدم نحو لانكا على رأس جيش عرمرم من القردة ذوي البأس، وغرضه أن يقضي علينا. ولا ريب عندي أن سليل آل راغو سيعبر البحر بفضل ما له من قوى خارقة، ولسوف يكون في صحبته أخوه الأصغر، وحليفه القرد. واعلموا أن مياه البحر لن تكون عائقاً أمام عزمه وتصميمه، إذ بمقدوره أن يجففها، أو لعله يتوسل بطرق اخرى لعبور البحر. فهل لديكم خطة للتصدي لهجوم راما عليكم بهؤلاء القردة، وحماية المدينة والجيش؟"

ما إن سمع هؤلاء الراكشا الجبابرة ما قاله سيدهم ومولاهم رافانا، حتى تسابقوا يزينون له احتقار العدو والحط من شانه، وقدموا له مشورة تنطوي على التسرع والحماقة، مهونين عليه الانتصار على راما وجيشه. وأخذ كل منهم يستعرض انتصارات رافانا في الماضي على كل من اعترض سبيله، من الآلهة والجبابرة العتاة. وإذن، أي شأن لمخلوق كهذا من مخلوقات العالم ليكون سبباً للقلق، ثم أي شأن لأولئك القردة ليعدوا في الحسبان. وبينوا له أن الدمار الذي الحقه هانومن بالمدينة إنما حصل لأنهم خدعوا به بتأثير الخمرة والاطمئنان إلى قوتهم. وأكدوا لمولاهم أنهم لن يدعوا هذا القرد يطأ غاباتهم مرة أخرى، وقطع كبير قادتهم على نفسه وعداً بأن يتولى القضاء على القردة. وحسب رافانا أن يأمر فيطاع! وقال آخر إنه لن يقبل بأقل من الانتقام للخراب الذي حاق بالمدينة والمهانة التي لحقت بقومه.

كذلك نهض احد جبابرة المردة، وأخذ يهز رمحه الرهيب الذي ما زالت بقايا من اللحم والدم عالقة به، وقال إنه ماض للقضاء على راما ولكشمانا وسوغريفا، فهم الخطر الأعظم، ومن ثم سوف يُتبع بهم هانومن ومعه جيش القردة، بذاك الرمح، ولو التجؤوا إلى السماء أو الجحيم . ثم اقترح على رافانا خطة أخرى بأن يتخذ بعض الراكشا هيئة البشر، ويتطوعوا في جيش رافانا، بزعم أنهم حلفاء أخيه بهاراتا، فيتسربون إلى صفوفه حتى تحين الساعة فينقضون عليه ومن معه. ثم يتولى مطاردة القردة ونصب الكمائن لهم، والقضاء عليهم في نهاية المطاف.

وهكذا تتابع الخطباء، كل يعرض خطة، وكل خطة تزين الحرب والوصول إلى نهايتها المظفرة بسهولة ويسر. وانتهى الأمر بأن نهض أمراء الحرب الجبابرة، وانتضى كل سلاحه، بين سيوف بتارة ورماح قاهرة وسهام تلمع كالبرق في الليلة الظلماء.

فهب عندئذ فيبيشانا، الأخ الأصغر لرافانا، وأخذ يهدئ من ثورة أعصاب القادة المتحفزين للقتال. والتفت بعدئذ إلى أخيه، مخاطباً: "لقد قالت الحكماء، أي أخي، أنه حين يعجز المرء عن بلوغ هدفه بالوسائل الثلاث، وهي استرضاء الخصم والتفاهم معه صلحاً، أو تبادل الهدايا، أو إشاعة الفرقة في صفوفه. يكون الأمر بيد أهل الحرب، وهم يقررون كيف يكون استخدام القوة، فيا أيها الأصدقاء، إن القتال الذي وضع العارفون قوانينه الثابتة بالتجربة يفلح مع من لا يراعون الحصافة عند تعرضهم للهجوم أو الجاحدين بالنعمة، فيستعدون الآلهة عليهم. أما راما فحذر ويعد للنصر، وهو يتمتع بتأييد الآلهة لفضائله، ثم إنه ثابت لا يأخذه الهوى، منيع على الهزيمة؛ ومع ذلك فانتم تتحدثون عن دحره.

ومن منكم خطر له ببال، أو حتى في الخيال، الطريق الذي سلكه هانومن، حين عبر البحر العظيم؟ وإذن، يا طراق الليل، حذار من أن تقللوا من شأن راما! فهل تساءلتم أي ذنب أتاه راما الهمام بحق ملك الراكشا، ليذهب إلى الغابة حيث يعيش ويحرمه من زوجه؟

وإذا كان كارا قد قتل فذلك لأنه تجاوز حدوده، ودخل أرضاً ليست له. وبعد، أليس من العدل أن يهب المرء للدفاع عن نفسه؟ وإننا اليوم إذ نواجه الخطر نعلم أن السبب هو اختطاف ابنة جناكا. والرأي عندي أن نعيدها إلى زوجها بسلام، ونتفادى حرباً لا تبقي ولا تذر. وما الجدوى من استمرار هذا النزاع؟ والحق أنه لا جدوى من الاشتباك وذلك الأمير الفاضل القوي الذي ما كان ليبدأ الحرب لولا أن هناك سبباً دفعه إليها. ولذا ناشدتك، يا مولاي، أن تعيد إليه الميثيلية، لئلا نجده يحاصر المدينة ويدكها بسهامه، والأجدر أن نتدارك الأمر قبل تفاقم الوضع، وقبل أن نرى جيش القردة يجتاح البلد ويجعلها أثراً بعد عين، وتضيع الجهود التي بُذلت في إعمارها لتكون قبلة العيون ومستودع الثروات. إن لانكا إلى زوال ومعها الراكشا الأبطال، إلا إذا تداركت الأمر، وأعدت زوج راما معززة مكرمة.

وها إني أناشدك بالدم الذي يوحدنا بأن تأخذ بنصيحتي، ومصلحتك من وراء القصد. أعد الميثيلية إلى راما وإلا رأيناه يطلق أسلحته ويعمل بنا تدميراً، وهي أسلحة مستحدثة لا خبرة لنا بها ولا نقوى على ردها. فاعد الميثيلية إلى ابن دشاراتا دون تلكؤ، واطرح عنك الكراهية، وهي عدو الإيمان والفضيلة واتخذ الحق طريقاً لك فيزداد لجملك علواً ومجدك سمواً. وخفف من غلوائك فنهنأ بعيشنا مع أولادنا وبين أهلنا. ناشدتك، مرة أخرى، أن تعيد الميثيلية إلى ابن دشاراتا!" وبعد أن قال فيبيشانا هذا، صرف رافانا جميع أفراد الحاشية من المجلس، ودخل جناحه.

وفي الصباح كان فيبيشانا يهم بدخول القصر متهيئاً لجولة جديدة، في ذلك المكان الذي يسكنه ملك الراكشا في قمة أحد الجبال، وكانت تلك منطقة شاسعة يلتجئ إليها العظام، حسنة التنظيم، يسكنها أهل العلم والثقافة، ويقوم على حراستها فرقة من الراكشا المخلصين، وكانت الأبواق من أصداف البحر تنطلق عند دخول قاصدها، فيرى الفتيات الحسان يتجولن في الدروب، وإذا بلغ أبوابها وجدها كلها من الذهب الخالص، والبلد كله مزين أحسن زينة كأنما هو موئل المخلوقات السماوية، أو قصر من قصور ملوك العواصف، أو كنز من الأحجار الكريمة فيخال المرء نفسه في مرابع عشيرة أفاعي الناغا.

ودخل ذلك المارد العملاق قصر أخيه، واخترقه كما تخترق الشمس سحابة، وتناهى إلى أسماعه هتافات بالمجد والنصر لرافانا، من أفواه العلماء المتضلعين في كتب الحكمة المقدسة، ورأى عندئذ الكهنة المتبحرين في الترانيم السحرية "المانترا"، والعارفين بأسرار الحكمة يحملون أواني العصير والسمن المصفى والزهور والأرز المطحون، ويؤدون الطقوس. ثم دخل فيبيشانا مجلس أخيه الملك، فوجده جالساً على عرشه الذهبي، فحياه وقال في حضرته ما يُقال للملوك، ثم اتخذ مكانه كما أشار إليه رافانا بعين حانية. ونهض بعد حين وخاطب ذا الرؤوس العشرة بحضور وزرائه خطاباً رمى به إلى تهدئة خاطره، وبين بذلك معرفته باختيار المكان والزمان المناسبين للحديث، فقال: "قد رأينا، أي قاهر الأعداء، نذر الشر أمامنا منذ أن جاءتنا تلك الميثيلية! ووجدنا النار المقدسة ترسل اللهب مضطرباً والدخان يغطي بريقها؛

وبلغت أنوفنا منها روائح كريهة، حتى بعد أن تصب عليها السوائل، ثم إن ألسنة اللهب لا ترتفع مهما صاحبها من الترانيم والأدعية. ووجدنا المطابخ وأماكن العبادة حيث تُقرأ كتب الحكمة المقدسة تعج بالأفاعي والسحالي، والقرابين يعشش فيها النمل؛ كذلك الفيلة والجياد عازفة عن العليق، ولا تنقطع عن الصراخ والصهيل، بينما الشعر الذي يكسو الحمير والبغال والبقر يقف منتصباً، ولا تنفك عن البكاء، وهي تسلك مسلكاً غريباً لم ينفع فيه دواء الخبراء.

ولقد وجدنا الغربان تتجمع مع بعضها البعض وترسل نعيقها بلا انقطاع فوق أسطحة المعابد، وما زلنا نرى الكواسر تجوب سماء البلاد حزينة كأنها تنذر بشر، وبنات آوى تظهر عند الغروب وتصدر عويلها. كذلك رأينا الوحوش الضارية تجتمع والغزلان عند أبواب المدينة، وتصدر الأصوات المنذرة بالشؤم. وهذه كلها شارات شؤم ونذر تعني ان عليك أن تكفر عن خطيئتك بما يرضي الآلهة بأن تعيد سيتا إلى سليل آل راغو.

ولا تغضبن، أيها الملك العظيم، إن بدر مني ما يثير حفيظتك، إن بالكلمة وإن بالفعل! واعلم أن القاصي والداني من قومك وأهلك وحاشيتك يرى أنك أخطأت السبيل وأنك السبب في هذه المعمعة! ووزراؤك لا يجرؤون على إبداء الرأي خوفاً منك، لكنني لا أرى محيصاً عن إخبارك بما رأيت بعيني وسمعت بأذني. فانظر وتدبر واعمل بما تراه مناسباً!"

ذلكم ما قاله فيبيشانا لأخيه ملك الراكشا بعبارات محكمة في محضر من وزرائه، ورد على ذلك الخطاب المتزن والقائم على المنطق والحافل بالعظة الحميدة من دروس الماضي والدواء الشافي لقضايا الحاضر والمستقبل، بقوله: "لست أرى ما يبرر الخوف بأي حال! ولن يكون لراما أن يسترد الميثيلية قط. وكيف لأخ لكشمانا، ولو كان يحظى بتأييد الآلهة وإندرا على رأسهم، أن يصمد أمامي في ساحة المعركة؟"

قال هذا ذو الرؤوس العشرة، قاهر جموع الآلهة، ثم أشار إلى أخيه فيبيشانا المفوه الصريح، بالانصراف.

وبدا ذلك الملك الظالم مضطرب المنطق بسبب انقياده لأهوائه، وحيداً لإعراضه عن الصديق وخالجه شعور بالإحباط، وهو يعاني من نتائج فعلته. وقد أخذت شهوته تطغى عليه، وازداد انشغاله بسيتا، حتى زين له الفكر أن الوقت بات مناسباً لشن الحرب، وأيده في ذلك وزراؤه، وإن لم يتوفر لهم السبب. وإذ بلغت الأمور عنده هذا المبلغ، ركب عربته الضخمة المدرعة بصفائح الذهب والمرصعة بالدر واللؤلؤ والتي تجرها الجياد المطهمة، وبدا فيها مبدد جمع الآلهة سيد الراكشا العمالقة كالرعد، وهو يقودها إلى مكان الاجتماع.

وكان مقدمو العمالقة العفاريت قد استبقوا ملكهم بالحضور، واتخذوا أماكنهم في قاعة المجلس، وكل يتزيا بزي عجيب مزين بكل أنواع الأحجار الكريمة، ومسلح بسلاحه، حتى بدا المحفل معرضاً لمختلف أنواع الأسلحة، من سيوف ورماح وأقواس.

ودخل رافانا المجلس ترافقه أصوات الأبواق، ومن الخارج يتعالى ضجيج العربات والفيلة وصهيل الجياد ووقع حوافرها على الأرض، وتحف به فرقة من الراكشا العمالقة، يحملون بأيديهم قناديل من الزجاج النقي الشفاف المزين بالذهب، بينما وقف الحاضرون إجلالاً واحتراماً لمليكهم، ويهتفون بالمجد لقاهر الجبابرة، وهو يسير إلى عرشه بخطوات متئدة عبر القاعة التي شيدها المهندس الخارق فيشفاكارما فأتت تحفة لا نظير لها.

افتتح رافانا المجلس، وقال مخاطباً أركان الحكم: "قد بلغنا أن العدو يتأهب لتوجيه ضربة عظيمة إلينا!" ثم صمت حيناً، وأخذ يجيل النظر في مجلسه، والتفت أخيراً إلى القائد العام براهاستا، وخاطبه: "أيها القائد، العارف بفروع سياسة الحرب الأربعة، عليك نشر قواتك على النحو الذي يقتضيه الدفاع عن المدينة!". وما إن انتهى حديث الملك حتى انسحب براهاستا من المجلس، ليوجه أعوانه إلى تنفيذ فحوى أمر الملك، على خير وجه، ثم عاد إلى مجلسه أمام مولاه، وقال له: "ليعلم سيدي ومولاي العظيم أن قواته في المدينة وحولها باتت منتشرة، واتخذت مواقعها حسبما شاء؛ كذلك بثثنا العيون والأرصاد لتستطلع مواقع العدو وترصد تحركاته، وتحكم الطوق حولها وتمنع تسرب أفراده وعملائه إلى أراضينا.

ولقد سرى في نفس الملك شعور بالارتياح مما سمع من قائد جيشه، واطمأن إلى سلامة الوضع، وهو الذي يريد لقومه السعادة والهناء، وقال مخاطباً الجمع: "إن على كل منا أن يأخذ بالصراحة فلا يخفي رأياً، حسناً كان أم سيئاً، حين يتعلق الأمر بالصالح العام. وليكن رأينا موحداً. وقد علمتم من أمري أني أمضي في مهماتي بعد أن أعمل الفكر وأسأل التأييد بالترانيم المقدسة، ولم يكن الفشل من نصيبي في أي مهمة انتدبت نفسي لها. وحري بكم الآن أن تتبعوني في هذا الأمر، كما تتبع آلهة العواصف والقمر والنجوم والأفلاك ولد إندرا، في موكب منتظم لا يتخلله شقاق أو خلاف، فنضمن بذلك لأنفسنا النصرا

"الحق أني كنت أعتزم استدعاءكم، لكنني أرجأت الأمر، بسبب نوم أخي كومبكارنا! أشد المحاربين بأساً، الذي استيقظ لتوه بعد أن نام ستة أشهر. أما الحبيبة زوج راما، ابنة جناكا، فقد أتيت بها من غابة دنداكا التي تغشاها المردة. إن هذه الأميرة المغناج عازفة عن مشاركتي الفراش، وهذا ما يضني الفؤاد؛ امرأة لا مثيل لجمالها في العوالم الثلاثة، ذات خصر نحيل، وأرداف مستديرة حسنة التكوين، ورزانة ووقار كأنها القمر في ليلة من ليالي الخريف. إنها أشبه بتمثال من الذهب أبدعه مايا. راحتا كفيها بلون الورد، وقدماها دقيقان أحسن الخالق تكوينهما، وأظافرها بلون النحاس الأصفر، وصورتها تداعب خيالي فتتغلب عليَّ الشهوة. وهي ذات بهاء وألق مثل لهيب نار القرابين، وتضارع الشمس ألقاً. جميلة المحيا وأنفها الأقنى، آية في الكمال، وعيناها عنوان الجمال. حين أراها أفقد صوابي وأغدو عبداً للحب. إن في هذا الهوى مقتلي، وأصل عذابي السرمدي، أنا الذي ضاع بين الغضب والرضا.

لقد جعلتني هذه الفاتنة ذات العينين الساحرتين، التي يحدوها الأمل بقدوم مولاها راما، أمهلها عاماً تكون لي بعده. وإنني لا أنقطع عن تلبية ما تشاء إكراماً للحظها الفتان، ولكن إذا ما خرجت لأمر ما فإن الهوى يتجدد ويضنيني.

وما يلح على خاطري الآن هو السؤال كيف سيعبر أهل الغابات البحر الفسيح بما يحفل

من وحوش لا عد لها أو حصر، ثم كيف لولدي دشاراتا أن يقطعا هذا الخندق العظيم من ماء البحر؟ إن نتيجة هذه المغامرة أمر يصعب التنبؤ به. فهيا، وليقل كل منكم رأيه! وليس هناك ما يدعو للخشية من مجرد إنسان؛ ومع ذلك تبصروا في الأمر، وليعلن كل منكم ما يراه مناسباً.

لقد خبرتكم في الماضي، يوم دارت الحرب بين الآلهة والراكشا التي تكللت بالنصر بفضل عونكم وتأييدكم، وأرى أنكم ما زلتم اليوم مستعدين لتقديم المؤازرة. واعلموا أن هذين قد بلغا شواطئ البحر، وقد سبقتهم جحافل القردة إليها، وفي مقدمتهم سوغريفا. إنه ليس لنا أن نعيد سيتا، ولكنه شأننا أن نقضي على ولدي دشاراتا. وهذا، إذن، الموضوع الذي علينا أن نشبعه درساً وتمحيصاً لنبلغ النهج السليم في إحباط هجوم الأعداء. وأصدقكم القول إنني لست أعرف من يستطيع أن يهزمنا وإن عبر البحر مع القردة؛ فالنصر بلا جدال لي."

ولقد أثارت كلمات هذا العاشق الولهان وتفاخره حنق أخيه كومبكارنا، الذي كان قد استيقظ من نومه الطويل، فاندفع يندد به في ثورة من الغضب، ويقرعه لهيامه بمن هي زوج سواه تم اختطافها غفلة. وهذا، كما قال: "ليس من شيم الملوك العظام. فالملك ينهض بمسؤوليات، وعليه واجبات. وقد كان الأجدر بك أن ترجع بالمشورة إلينا في هذا الأمر. واعلم أن الرعونة والطيش والعمل بما يخالف القوانين الإلهية مجلبة للندم. فأن يسعى المرء لإنهاء أمر كان يجدر أن يبدأ به، أو أن يبدأ حيث كان يجب أن ينتهي، إنما يكون جاهلاً بالفرق بين الخطأ والصواب، والخير والشر. فإن عرف الخصم مثالب من لا يملك ضبط نفسه، عرف مكامن الضعف فيه. وذكره بأنه كان البادئ في هذا النزال دونما تبصر وشاء حسن حظه ألا يقتله راما، كما السم يقتل آكله! ولكنه تعهد له بأن يقوم بواجبه في الحملة التي عزم عليها رافانا، ولو كان مقابله إندرا أو إله الثروة أخوهما كوفيرا أو حتى إله الأنهار فارونا، لتكون سيتا له في النهاية.

وقام عندئذ أحد القادة العظام في جيش رافانا، بعد إطراقة وتفكير، وأدلى بدلوه، فقال:

"إنه مجنون بلا ريب من دخل الغابة وجنى العسل ولم يتذوقه! وأنت يا مولاي السيد المطاع متّع نفسك بتلك الأميرة، ولتنل وطرك رغماً عن عدوك! ويا ذا الكرم، إن استرضاء العدو وزرع الشقاق في صفوفه وسيلتك لإخضاع العدو؛ على أننا جندك وشيمتنا أن نخضع عدوك بقوة السلاح."

ولما انتهى هذا القائد، ويدعى ماهابرشفا، أثنى عليه رافانا. وأجابه بما يفسر تردده مع سيتا، فحدثه عن واقعة له حين اعترض حورية وأراد اغتصابها فردته وهربت لاجئة إلى كبير الآلهة فأنزل عليه لعنته، ثم قال: "إنني سوف أموت إن حاولت اغتصاب امرأة أخرى، وتتناثر جثتي! وهذه اللعنة هي السبب في أنني لم أقسر سيتا، الأميرة على مشاركتي الفراش. إن غضبي لشديد أشبه بالبحر، وسرعتي كالريح العاصفة، لكن ابن دشاراتا لا يدري حقيقتي، وجهله بي هو الذي حمله على شن الحرب عليَّ. فأي عاقل يوقظ أسداً راقداً في عرينه وهو الذي إن غضب نهض كإله الموت ذاته؟ إنه لم ير سهامي، بعد، تتطاير في ساحة القتال؛ فهي أشبه بالأفاعي، ولسوف يرى قوسي يرسل سهامه كالبرق فتناله من كل الجهات، وألتهم راما بالسرعة التي تلتهم فيها النار الغابة. وإني لسوف أطلق جيشي فيجعل جيشه أثراً بعد عين، ذلكم هو باسي. وإني بمثل هذه القوة قهرت المدينة التي كان يدافع عنها كوفيرا."

أصغى الأمير فيبيشانا إلى رافانا ووجد في حديثه من التيه والخيلاء ما لم تطيقه نفسه، وضاق بما سمع من العبارات الطنانة تنطلق مدوية من فم كومبكارنا. فالتفت إلى الملك وقال: "لم أتيت، أي مليكنا، بالأفعى الرقطاء وأنت تحسبها سيتا؟ إن في صدرها لنابان قاطعان، وما غنجها إلا سم زعاف، وضحكاتها ستارة تخفي وراءها الشر المستطير، وأصابعها الخمسة رؤوس تلك الأفعى. ناشدتك، أي أخي ومولاي، أن تعيد الميثيلية إلى ابن دشاراتا، ولانكا ما تزال سالمة من الأذى، لم تمتحن، بعد، بالقردة المسلحة بالأنياب والمخالب!

والحق أقول ليس هناك ند لراما، لا كومبكارنا ولا ولدك إندراجيت، ولا نيكمبا ولا

كمبها، بقادرين على الصمود أمامه في ساحة المعركة. بل ولن تستطيع حتى أنت أن تنجو من قبضته حين تطبق عليك، ولو آزرتك الشمس وحالفتك ربة العواصف!"

وكان فيبيشانا ينشد في خطابه أن يجنب أخاه رافانا وبلده لانكا ويلات الحرب ومرارة الهزيمة. وسعى عندئذ إلى دحض افتراءات المفترين، وقد أرادوا تأليب رافانا عليه، وتهوين قتال راما. فحذره من الإصغاء للمنافقين الذين يزينون له الحرب فذكّر الملك والمجلس بخبرة راما في القتال، وحذرهم من التورط في أوهام النصر والاعتماد على غرور القوة. ثم التفت إلى أعضاء المجلس، مخاطباً: "أما أنتم، يا أصدقاء هذا الملك الذي غلب عليه هواه، وهو عنيف بطبعه، أرعن لا يتبصر بالأمور ولا يتبين عاقبتها، فتتملقونه كما لو كنتم أعداء له، وإن أدى ذلك إلى فناء الراكشا! والحري بكم حقاً أن تعملوا على إنقاذ هذا الملك وانتشاله من الأفعى ذات الألف رأس، المخيفة المريعة.

والحق أني لا أدري إن كان علينا أن نخشى الآلهة أم المردة، إن كنا سنواجه في ساحة القتال مخلوقات السماء أم الأفاعي الرقطاء، أم الكواسر الرهيبة! ولكن لتعلموا أن الجبابرة العظام ترتعد فرائصها، ومآلها الهزيمة، أمام ابن عشيرة الايكشفاكو، سليل آل راغو.

وها إنني أكرر على مسامعكم الكلمات التي قصدت بها صالح البلد وأهلها والبيت المالك والبلاط! أعود وأكرر القول مخلصاً أن أعيدوا الميثيلية إلى ذاك الأمير! وإنه لمشير بالحق من قدّر قوة خصومه وعرف قدراته وأدرك الوضع ووضع الربح والخسارة في الميزان، ثم قال قوله صريحاً وواضحاً وكما يملي عليه العقل!"

ولكن هذا الحديث المتزن الذي يفيض بالحكمة لم يرق لإندراجيت، بل أثار فيه الضيق، فرد عليه منتقداً: "أي معنى لهذه الكلمات التي نطق بها عمنا الأصغر، وهي حافلة بالذعر؟ الحق أن هذه العبارات التي وردت في خطابه لا تصدر إلا عنه، ومن سواه تراوده مثل هذه الخواطر والأفكار؟ لقد انفرد أخو والدنا الأصغر، دون سواه، بخطاب خلا من كل أثر للشهامة والشجاعة، من النصح بالجلد والصمود والثبات، من الدعوة إلى الإقدام وتأكيد

القوة.

لنسل أنفسنا من هذان الأميران؟ ولدا ملك من البشر، وأي منا كفؤ ليطيح بهما معاً، دون معونة من أحد، بل إن أقل الراكشا شأناً كفيل باستئصال شافتهما واقتلاعهما عن سطح الأرض! فأخبرنا أيها الجبان من أين تستمد هذا الفزع الذي أملى عليك حديثك الذي سمعنا. أفلم يبلغك أني هزمت حامي العوالم الثلاثة، وسيد كائنات السماء ذاته؟ وما زلت به حتى نال الرعب آلهته فتفرق شملها وتبعثرت في كل اتجاه؟ ثم أما علمت أني أنزلت فيل إندرا وهو يطير في السماء، فإذا به مسلوب القوة على الأرض؛ وإذا بنابيه بين يدي؟ ألست أنا الذي بدد بشجاعته وجرأته الجيوش التي نزلت علينا من السماء؟ أنا ذو البأس والشجاعة، أنا الذي تخضع لقوته الكائنات! أفلا أستطيع، إذن، قهر هذين الأميرين، على ما هما عليه من تفاهة الشأن؟"

وقام فيبيشانا عندئذ ليرد على حديث ذلك الفتى المقدام، وقال: "قد زينت لنا أن نصغي لحديثك فإذا بنا نسمع خواطر خلت من كل فائدة! فأنت يا ابن أخي ما زلت فتى وعقلك لم يكتمل بعد؛ ثم إنك، لتزيد في ورطتنا، غير قادر على التمييز بين الهام والعارض من الأمور.

إنك في حقيقتك يا إندراجيت، عدو لرافانا بقناع ابن، وأنت في الواقع تناصره وتأخذ بيده حين يتحدث عن القضاء على سليل آل راغو. والحق أنك بهذا أجدر بالموت، ومعك من خطر بباله إحضارك إلى هذا المجلس وترك الحبل على غاربه لفتى غر يمتلئ تيهاً وصلفاً في مجلس هو للحكماء أهل المشورة والنصيحة! أي إندراجيت، إنك لفتى أرعن متهور خامل الفكر. لقد أفسدت عقلك التفاهة والخفة، فاسمعتنا حديث الأطفال. أما تساءلت في خلدك من يقوى على الصمود امام الصدمة التي تسببها تلك السهام اللامعة التي يطلقها سليل آل راغو في ساحة القتال فتذكرك بعصا براهما حين تهوي، فتقع كالقدر أو سيف ملك الموت؟ وأقولها صراحة من جديد أعيدوا، أي مليكنا، سيتا إلى راما محملة بالتحف واللآلئ والمجوهرات والمنسوجات الثمينة. وهذا ثمن مقبول لقاء راحة الفكر والخاطر!"

قال فيبيشانا كلماته هذه، القائمة على العقل والمنطق، ثم وجد رافانا يرد عليه بعبارات فظة قاسية: "أن يُظهر المرء العداوة الصريحة، أو أن يعيش مع أفعوان، لأفضل من معاشرة من يُظهر الصداقة وهو في حقيقته حليف للعدو. لقد خبرت الأهل حين يشمتون بما يصيب بعضهم من المحن. وهذا أمر معروف، أيها العملاق. فما انقطع الأهل يكيدون لمن كانت له سلطة وطاقة وعلم وتمتع بإخلاص الأصدقاء، وإذا وجدوا لديه الشجاعة والبأس ازدادوا كيداً. وقد علمنا كذلك أن الأهل يسرون حين يجدون أحدهم في ضيق، ورأيناهم أبداً متهيئين لرفع أقواسهم وضرب بعضهم البعض، وفي قلوبهم غل وحقد، والمكر دائماً من شيمهم. وشأن الأهل عظيم وخطير معاً.

والدعاء الذي تتلوه الفيلة في غابة بادما، حين ترى رجالاً وبأيديهم الفخاخ معروف، وها إني أكرره على مسامعكم: "لسنا نخشى الأسلحة الماضية ولا الشراك التي تنصب تفزعنا، إنما نخشى الفيلة أمثالنا حين تطغى عليها القسوة والأنانية!"

إننا لا نعرف شراً كالذي يصدر عن الأقربين. فمن البقر نحصل على الحليب، ومن الأهل ننال المكائد، ومن النساء نزواتهن، ومن البراهمة الزهد. ولا ريب عندي أن حظي منك البغضاء جزاء ما ألقاه من قومي من التعظيم وما نلته من الأمجاد. فامض يا من كنت وصمة عار في جبين قومك .وغادر هذا البلد!"

وقف فيبيشانا يرتعد غضباً لما سمع من رافانا من إهانات وتعريض به، ووقف معه أربعة من الراكشا، وقال وهو يهز رمحه، إنه لا يملك أن يحتمل عباراته الفظة، بعدما أعرض عن سماع النصيحة كما تمليها الحكمة. وبعد أن فكر فيبيشانا ملياً، خاطب رافانا مرة أخرى، وقال له: "أيها الملك العظيم، إنني لست حزيناً لما بدر منك، فكل من أصاب ثراء وحظي بالسلطة ، نال منه الجنون، وكان نهجه هكذا. لذلك فسأودعك مغادراً. إلا أنني آسف لأمر واحد، ألا وهو مصير الراكشا، فلسوف يقضى عليهم وينتهي أمرهم، لا لذنب اقترفوه بل لإثم أنت وحدك المسؤول عنه. ولتتذكر، يا ملك لانكا، أن أخاك الأصغر يغادرك والحزن والأسى يعتصران قلبه. ولكم يحزنني أن أغادر بلدي، لكن العاقل هو من يهجر البيت حين

تشب فيه النيران. لقد صبرت على ما أكره وجالدت فوق طاقتي، لأنك أخي الأكبر وبمثابة والدي، وها إنني مغادرك الآن."

وبعد أن حيا فيبيشانا أخاه رافانا مودعاً، غادر القصر وفي إثره أربعة وزراء. فذهب فيبيشانا أولاً لوداع والدته ونيل مباركتها له. ثم قصد جناح زوجه ساروما وتحدث إليها بلطف، قائلاً: "إني ذاهب، يا عزيزتي، إلى شري راما ومعي أربعة وزراء. فابقي مع ابنة جناكا واقيمي على خدمتها." فطمأنته زوجه المطيعة وودعته. وعندئذ، جمع فيبيشانا أسلحته، وقفز إلى السماء وبرفقته أتباعه الأربعة. وسرعان ما أصبحوا فوق شاطئ البحر. فشاهدتهم القردة وهم يحومون فوقهم، وبدا فيبيشانا للناظر من الأرض عملاقاً رهيباً فهرعوا لجلب الحجارة والصخور وأخذوا يصرخون منادين بقتله وهم يحسبونه رافانا وقد جاءهم متخفياً. فناداهم من السماء: "إنني فيبيشانا، وقد جئت طالباً اللجوء إلى شري راما لأكون في خدمته."

حمل الرسل الأنباء إلى راما والآخرين، فعقدوا اجتماعاً لمناقشة الأمر. وقال سوغريفا مؤيداً من جامبافان: "إنني لا أحبذ استقباله، ولا أرى في ذلك صواباً. إذ سيعمل على تضليلنا والكيد لنا وتعريضنا للخطر." عندئذ قال هانومن: "لقد سبق لفيبيشانا أن أنقذ حياتي. وإذا أقام راما صداقة مع فيبيشانا تيسر له قتل رافانا."

قال راما: "أيها الملك سوغريفا، لا تذهبن بك الظنون هذه المذاهب، فتضل دربك. والحق أنني أجهل أخطائي يا صديقي. ولكنني منك تعلمت عظمة الصداقة. ولا ريب أننا سوف نضل طريقنا إلى العالم الآخر، إن أعرضنا عن تقديم الملجأ لمن يطلبه، ولتصغ إلى هذه الحكاية: في قديم الزمان كان ثمة ملك ورع يدعى سيبي، وقد لجأت إليه حمامة تطلب الأمان، بعد أن تمكنت من مراوغة صقر كان يطاردها وأفلتت منه. فحماها الملك ووفر لها الرعاية. فجاء الصقر وقال للملك: "لماذا تمنع عني طعامي، أيها الملك؟ إن هذا الأمر لا يليق بملك أن يأتي به." فأجابه الملك: "إن هذه الحمامة قد جاءت إلي تطلب الأمان، فقدمته لها. وسأعوض لك ما خسرت بنوع آخر من اللحم." فقال الصقر: "إذا شئت أن تحافظ على

حياتها، فقدم لي لحمك لأقتات به. فإنك تأكل مأكل الملوك، ولا بد أن لحمك شهي طيب المذاق، فإن تناولته تجددت قواي." ولما سمع الملك ذلك أحضر سكيناً حادة قطع بها قطعة من لحمه وقدمها للصقر، بينما سال دمه وتلطخ العرش بآثاره. وأخذ الصقر يلتهم لحم الملك قطعة قطعة حتى أتى عليه، ومات الملك وصعد إلى السماء نتيجة لفضائله. إن المرء يسقط إذا ما منع الملجأ عمن يطلبه. فلماذا نحرم فيبيشانا من هذا الحق؟ حتى رافانا ذاته ما كان ليُرد خائباً."

أصدر راما أوامره باستقبال فيبيشانا، فصدعت القردة بالأمر. وكان الملك سوغريفا أول المستقبلين، وعانقه عندما التقاه، ومضى معه إلى راما. فانكب فيبيشانا على قدمي راما. وقال: "إنني فيبيشانا شقيق رافانا. وقد جئتك لاجئاً إلى حماك." فأجابه راما: "اصغ، اي فيبيشانا، واصدقني القول أهي خدعة من رافانا، أن أرسلك إليّ؟"

فصاح فيبيشانا قائلاً: "إني صادق في طلب اللجوء، ولا غرض لي سوى أن أكون في خدمتك." فصدقه راما وتقبل عرضه هذا. وطلب من قادة القردة أن يجلبوا الماء من البحر، ومسحه به جاعلاً منه ملكاً على لانكا. وطلب سوغريفا من راما أن يستشير فيبيشانا في مسألة عبور البحر العظيم. ولما سأله راما أجاب قائلاً: "إن البحر من عمل أبناء الملك ساغرا، فهم الذين حفروه. وأجدادك يعرفون ساغرا ملك البحار، وسيأتي إليك إن صمت!"

وهكذا وضع راما فراشه على شاطئ البحر، وصام ثلاثة أيام بلياليها. إلا أن ساغرا لم يظهر. فغضب راما وقال للكشمانا: "لسوف ألقن ساغرا درساً. لماذا تنتظر؟ هيا آتني بقوسي، فسأقضي على ساغرا، ولنر من الذي سينقذه. لقد صمت وصليت مدة ثلاثة أيام. لذا سأجفف الماء بسلاح شبكة النار، ثم أقضي على ساغرا!"

سدد راما سهامه الفتاكة إلى البحر، فبدأت المياه تجف، حتى ماتت الأسماك ووحوش البحر. وثقبت السهام المشتعلة قاع البحر، وسقطت على ساغرا، فاستبد به الخوف. وبعد أن أحرقت السهام مظلة الملك الثلجية، عادت إلى جعبة راما. فأسرع ساغرا إلى راما،

وانكب على قدميه، وقال: "علام الغضب، يا مولاي؟ إن هذا البحر من صنع أسلافك. فلماذا تريد القضاء علي؟ فهذا لا يليق بك."

فأجابه راما: "اصغ، أي ملك البحر، لقد صمت ثلاثة أيام بلياليها على شاطئك، حتى أنهكني الصيام. ولتعلم أن رافانا الشرير قد اختطف زوجي سيتا. ومرادي ان أذهب إلى لانكا لأستردها. وهذا لا يكون إلا إذا تمكن القردة من عبور البحر. وقد سعيت إلى لقائك، لكنك ابيت، بالرغم من أنني صمت نذراً لك. ولم أجد عندئذ بداً من أن أصوب سهامي لتسقط في مياهك وتجففها حتى تتمكن القردة من العبور بسلام إلى لانكا."

عندئذ حياه ساغرا بخشوع، وأجابه قائلاً: "إن مياهي عميقة جداً، حتى لتصل إلى أعماق الأرض. ولست أعلم كيف بوسعي أن أشق طريقاً لك، إلا أنني أستطيع ان أقول لك من بوسعه القيام بذلك. بين القردة ثمة قرد يدعى نالا ابن المهندس السماوي فيشفاكارما. وقد رباه الناسك جاهنو منذ أن كان رضيعاً. وهو يتمتع بموهبة غريبة. ذلك ان الصخور تطفو فوق الماء بلمسة من يديه. فاعهد لنالا ببناء جسر يصل إلى لانكا." ثم عاد ساغرا على الفور إلى مقر إقامته.

استدعى راما نالا، وساله: "لماذا لم تخبرني بانك تستطيع بناء الجسور؟" فانحنى نالا، وأجابه: "يا مولاي، لست سوى قرد وضيع، وأخشى أقربائي. فالعديد من أبناء قومنا أبطال صناديد، فكيف أصرح لهم بأنني في حقيقتي بناء؟ ولقد تاتى لي ذلك بفضل براهما، واكتسبت قدرات هائلة ومواهب عظيمة. وأعاهدك ان أبني لك جسراً بطول مئة يوجنا فوق البحر، خلال شهر واحد فقط، حسبك أن تطلب من القردة أن يجلبوا كميات كبيرة من الصخور وجذوع الأشجار."

سر الملك سوغريفا لسماع ما قاله نالا، بينما أخذت القردة تصيح وتهتف داعية لراما بالنصر. حيا نالا شري راما وباشر عمله على الفور. وبجانب الشاطئ كانت هناك غابة، فقام القردة بقطع أشجارها ووضعوها فوق الماء ثم عمدوا إلى رصفها بالصخور والحجارة لتكون

طريقاً ممهدة يسهل الانتقال عليها. وبعد أن جلب القردة الأشجار والحجارة، أنهى نالا مسافة يوجنا واحدة من الجسر في يوم واحد.

كان نالا يجلس فوق طوف في أثناء عملية البناء، ليسرع في إنجاز الجسر، بينما كانت القردة تتولى نقل مواد البناء، وابن الريح يحطم قمم الجبال، ويحملها على كتفه إلى نالا. وهكذا استمر العمل، والقردة في ابتهاج وسرور، وهم يهتفون بالمجد والنصر لراما.

في أحد الأيام وبينما كان نالا منهمكاً في عمله، حمل هانومن العظيم صخرة ضخمة على رأسه، فتلقاها نالا بيده اليسرى، لانشغاله في العمل بيده اليمنى. فكان أن غضب هانومن، واعتقد بنالا الغرور، وأراد أن يلقنه درساً. فاسرع إلى جبل غاندامارادان وصار يركله بقوة حتى انهار الجبل وتفتتت حجارته. ثم ربط بعض الصخور بشعر جسمه، وحمل بيديه قمتين، ووضع الثالثة على رأسه، وربط الرابعة بذيله، ثم طار في الفضاء عائداً إلى موقع العمل.

كان نالا حينئذ منهمكاً في عمله، وإذ بالظلام يحل فجأة، ولم يعد يتبين ما حوله، فرفع رأسه إلى الأعلى، ورأى هانومن مخيماً عليه بظله، وعليه أمارات الغضب. فأصيب نالا بالذعر وفر إلى راما وانكب على قدميه، وروى له ما حدث، راجياً منه العون. فأشفق راما على نالا، وذهب ووقف بالطريق يعترض هانومن. ولما كان هانومن عاجزاً عن تجاوز راما، خوفاً من اعتبار ذلك استهانة به، فلم يجد بداً من النزول إلى الأرض. فسأله راما عن سبب غضبه من نالا. فقال: "يا مولاي، لقد بذلت قصارى جهدي لأنقل أكبر كمية من الحجارة والصخور، ففاجأني نالا بغروره وخيلائه، وشعرت بالإهانة عندما تلقى الحجارة التي جلبتها بيده اليسرى. وقد حملت الآن قمم الجبال هذه لأسحقه بها جزاء ما بدر منه من تيه وغرورا"

فقال راما: "ترفع عن هذه الصغائر، أي هانومن، فقد جرت العادة أن يستعمل المرء يده اليسرى عندما يعمل. فلا تغضب ولا تبتئس! اي هانومن يا بني، ولتنفذ المهمة التي

عهدت بها إليك، بكل عزم ونشاط. ولتعد لصداقتك بنالا الشجاع." ثم أخذ راما بيد نالا ووضعها في يد هانومن، وتعانقا وعاد نالا يستأنف عمله من جديد.

استمر العمل في بناء الجسر، مرحلة بعد مرحلة. وكان الراكشا يرصدون الأمور من المراصد في لانكا، وانتشرت الأخبار حتى عمت البلاد المجاورة. وجاء جيش من السناجب، كانوا قد غطسوا في البحر، ثم تدحرجوا فوق رمال الشاطئ، وبعد أن غطتهم الرمال، قفزوا فوق الجسر وهزوا أنفسهم بشدة فوقه، فامتلأت شقوق الجسر بحبات الرمل المتساقط.

وما إن رأى هانومن ذلك، حتى طرد السناجب غاضباً. فلجؤوا إلى راما يشكون ظلم هانومن، فدعاه إليه وقال له: "لماذا تعرضت للسناجب وأهنتهم؟ إن بناء الجسر عمل يمكن أن تسهم فيه جهود الجميع، كل حسب طاقته وأسلوبه." ولقد أخجل هذا الحديث ابن الريح. والتفت راما إلى السناجب وأخذ يربت عليها بلطف، ومنذ ذلك اليوم أصبحت السناجب تحمل علامة أصابع راما على ظهرها.

ذهب الجميع إلى الجسر، وطلب هانومن إلى القردة أن يحسنوا معاملة السناجب، وأن يولوها انتباههم عند عبور الجسر. واستمر هانومن في نقل الحجارة، وما هي إلا عشرون يوماً حتى كان الفراغ من رصف سبعين يوجنا من الجسر، عندئذ مضى هانومن إلى لانكا وحطم قسماً من أسوارها ونقل حجارتها، فتمكنوا بذلك من بناء عشرين يوجنا أخرى. وهكذا أصبح الجسر بطول تسعين يوجنا فوق أمواج البحر المتلاطمة. وبدأ القردة يدخلون أزواجاً إلى لانكا ويخرجون منها، وهم ينظرون إلى الراكشا بازدراء، هازئين بهم ساخرين منهم.

انتاب نالا شعور غامر بالسعادة. فقد أنهى بناء الجسر قبل انقضاء مهلة الشهر، وامتد الجسر من الشمال إلى الجنوب. وراحت القردة تهتف وقد غمرتها السعادة: "النصر لراما! النصر لراما!" وذهب نالا إلى راما وحياه ولمس قدميه مبجلاً، ثم قال: "لقد اكتمل الجسر، يا مولاي، وهو محكم البناء، وإذا شئت رأيي، فإنني أرشح هانومن ليكون القيم عليه."

سر راما للخبر والرأي معاً، ووضع يده على كتف نالا، وقال له: "ليس لدي ما أكافئك به

الآن، وكل مكافأة تقصر عن إيفائك حقك، غير أنني لن أقصر في تلبية كل ما تطلب عند عودتنا إلى آيوديا."

فأجابه نالا: "إنني لا أطلب سوى مباركتك، فهي لا تقدر بثمن." فكان له ما أراد ومنحه راما بركاته.

ذهب جيش القردة لتفقد الجسر، وعلى رأسهم الملك سوغريفا، وتلاه فيبيشانا والأمير أنغادا. فاعجبوا به كثيراً. وقد بدا وكأن البحر تقلد عقداً من الزهور. فارتفعت أصوات الجنود بالهتاف: "يحيا ابن فيشفاكارما، صاحب هذه التحفة الهندسية." وكانت الكائنات السماوية والعفاريت والأفاعي تنظر إلى الجسر بإعجاب، بينما أمطره المخلدون بالورود.

بدأ راما المسير وبصحبته لكشمانا، ومن ورائهما الملك سوغريفا وفيبيشانا. وإلى يمينهما جامبافان، وهانومن في المقدمة، وقد تبعهم الأمير أنغادا على رأس جيش عرمرم من السميان، وكانت الأرض تهتز تحت وقع أقدامهم، وكأنما أصابها الزلزال، وهم يهتفون: "النصر لراما! النصر لراما!"

ولقد أدرك الراكشا عند سماع تلك الصيحات أنهم قاب قوسين أو أدنى من الكارثة، فهرعوا إلى رافانا ينبئونه بالخبر: "السيد راما قد عبر." وتلفت رافانا حوله فوقعت عيناه على "عين الغضب" وكان مارداً رهيباً تهلع منه القلوب، وأشار إليه بأن يدنو، وأمره بإفناء القردة حرقاً، حتى يصبحوا رماداً.

كشر "عين الغضب" عن أنيابه، حين تلقى أمر الملك، واندفع إلى الجسر بعربة سقفها من الجلد. فصاح فيبيشانا: "أي مولاي، إن عين الغضب قد أتى للقتال، وحذار من عينيه فلهما القدرة على إحراق كل ما تقع عليهما، فيصبح رماداً!"

ورد راما: "ما العمل إذن يا صديقي؟ إن القردة في خطر، فكيف نستطيع إنقاذهم؟" فأجابه فيبيشانا: "ضع مرايا على قوسك، وأطلق تلك المرايا عليه، فإن نظر إلى وجهه مات!"

أخرج راما عندئذ سلاحاً خاصاً، مكنه من إيجاد ملايين المرايا الصغيرة وشرع يوجهها إلى

خصمه الرهيب. وإذ بها تتراصف وتصطف فتشكل ستاراً أمام العربة القادمة، وما إن أصبح في مواجهتها حتى وقعت عيناه اللتان تقدحان شرراً على صورته فتحول إلى رماد. عندئذ، اطلق رفاقه أرجلهم للريح حين رأوا ما أصابه، بينما أخذ القردة يطلقون صيحات النصر، بعدما تحقق لهم الفوز في أول معركة، وكان هتافهم بتمجيد راما يعلو دوماً، طوال ذلك الوقت.

نزل راما أخيراً في لانكا، وطوقت طلائع القردة مدينة الراكشا، قبل ساعتين من طلوع الفجر. وكانت تتردد في تلك الساعة المبكرة هتافات ذلك الجيش العرمرم من الجنود السميان تدعو بالنصر لراما. وفيما كانت وحدات جيش القردة تعبر الجسر وتصل إلى الجزيرة، كان رافانا يفقد اعتداده بنفسه، يوماً بعد يوم، وهو يرى مدينته تحاصر. فاستدعى اثنين من أعوانه يتميزان بالذكاء والمكر الشديدين، وقد اعتراه الاضطراب، وخاطبهم قائلاً: "أي سوخا، أي سارانا، فلتمضيا وتعاينا وضع جيش راما، وتتبينا مبلغ قوته، لقد أقيم جسر من الصخور فوق المحيط. فلتعرفا من قام بهذا العمل الفذ؟ ولتقفا بدقة على ما يدبره فيبيشانا، وكل قائد من قواد الجيش؟ ومن هو الأبرز بينهم؟ ولتستقصيا مدى نفوذ ومهارة مستشاري راما. وأي بطل صنديد سوف يبقى إلى جانب راما؟"

ألقيا التحية على ملكهما وانصرفا لتنفيذ ما أمرهما به. فبدلا هيئتهما واتخذا صورة قردين صغيرين. وتسللا إلى معسكر راما خفية، وأخذا يطوفان في المكان ويلاحظان كل شيء. وشاهدا أعداداً لا حصر لها من قبائل السميان، وأخيراً القرد العظيم هانومن. كان معظم الجنود قد وصلوا إلى لانكا، فيما كان عدد كبير منهم مستمراً في العبور. لقد كان من العسير تعدادهم. ولما كان الجاسوسان يجوبان المكان متمهلين، فقد اكتشف فيبيشانا حقيقتهما. إذ لا يمكن لأحد أن يكتشف سر الراكشا سوى الراكشا أنفسهم. وليبرهن فيبيشانا على إخلاصه وولائه، ترك مركبته الحربية وألقى القبض عليهما. ولما وجد أنهما مجرد خادمين تافهين، سلمهما إلى القردة الذين أوسعوهما ضرباً ولكماً وتنكيلاً. ومن بعيد شاهد سوغريفا الجاسوسين يطلقان ساقيهما للريح هاربين. وسرعان ما لحق بهما حاملاً

شجرة سال اقتلعها من الأرض، واندفع بقوة نحوهما ورماها باتجاههما، لكن الأسهم التي أطلقاها حطمت الشجرة. استمرا يقاتلان طويلاً، لكنهما هزما في النهاية، وقيدت أيديهما وأرجلهما وحُملا إلى راما.

تقدم سوخا وسارنا بالتحية كما يجب عليهما في حضرة ملك. وقد فقدا كل أمل بالبقاء على قيد الحياة. وخاطبا راما قائلين: "لقد أرسلنا رافانا لنعاين جيشكم، وكانت ورطة فلم نحلم بأن هذا ما سيحل بنا. لقد جئنا خفية، وافتضح أمرنا الآن، فلتفعل بنا، يا مولانا، ما تراه مناسباً."

ضحك راما وطمأنهما إلى أنهما سوف يكونان بخير. وكان فيبيشانا يريد ذبحهما، لكن راما قال له مهدئاً: "هدئ نفسك، إن قتل المبعوثين ليس من شيم الملوك. وأي فائدة سنجنيها من قتل هذين الخادمين؟" ثم التفت إليهما قائلاً: "احملا هذه الرسالة إلى رافانا. لقد عبرت المحيط لأحرر زوجي سيتا. فلتسألا مليككما ما قوله في هذا الأمر؟ لقد بلغ مسامعه ما حصل لكارا ودوشانا، وغداً، سوف يلقى المصير ذاته. لقد سرق سيتا مني، ولهذا أقمت الجسر فوق البحر ليكون في متناول يدي. وعندما ينبلج نور الصباح، سوف أبيده وقومه. ولن يفلت رافانا من لعنة سيتا ولا من غضبي. وعهداً عليَّ أن أجعل من لانكا الفتانة هذه التي قام ببنائها معماريون سماويون أثراً بعد عين. وأخبرا ملك لانكا، أن وصمة العار لمحاولته قتل سفيري إليه ستظل تلازمه. إن المحيط لم يصمد أمام قوة هانومن الشجاع، ولسوف يقضي على الجميع. وليعلم أن أتباعي القردة الجبابرة يستطيعون تبديد الغيوم، بل إمساك الشمس أيضاً. لير رافانا الجسر الذي أقيم، وجيوش القردة الذين يطوقون مدينته. لقد أرسلتما لمعاينة الجيش، فلماذا يجب أن تعودوا خلسة؟ أخبرا رافانا بكل ما شاهدتماه وسمعتماه، وبأنني سوف أفصل رؤوسه العشرة عن جسده، وأعطي المملكة والملكة ماندوداري إلى فيبيشانا."

غادر الجاسوسان المعسكر محملين بالهدايا الثمينة. وأسرعا بنقل ما لديهما من معلومات وأخبار. فاقتربا من رافانا، وهما يلهثان، وقال سوخا: "لقد صدعنا بأمرك، يا مولانا،

وتسللنا إلى صفوف جيش القردة، لكن فيبيشانا كشف أمرنا وقبض علينا. وكان يريد ذبحنا لكن صاحب الفضائل، شري راما، أنقذنا. لقد شاهدنا قوس راما الجبار وكنانته الملأى بالسهام. أي مليكنا، إنه عظيم وشجاع وذو بأس، وليس لك إلى قهره سبيل ولو حصلت على معونة الآلهة. والجسر يمتد ما بين الشمال والجنوب بطول مئة يوجنا، وهو مبني من الخشب والصخور والحجارة. وقوات راما تعبر فوقه بأعداد لا نهاية لها لتدخل المعركة. إنهم مخيفون ومثل التلال ضخامة. منهم الأصفر والأسود، وبعضهم بلون الدم الأحمر القاني، وبعضهم شقر مفترسون يناطحون السحاب طولاً. يسيرون في قطعان، وصفوف متراصة، الكتف يلاصق الكتف، وكتائبهم متصلة في أفواج على امتداد البصر. وقد يكون لنا أن نعد قطرات المطر، لكننا لا نستطيع أن نحصي عدد هؤلاء القردة، الذين يأتمرون بإمرة شري راما."

ولما فرغ سوخا، قال سارانا لرافانا: "إذا كنت لا تصدقنا، فتحقق من أقوالنا بنفسك، يا مليكنا، حسبك أن تلقي نظرة من أعلى السور فترى بنفسك مبلغ حشدهم!"

كانت أسوار مدينة لانكا مشيدة من الذهب، وذات علو شاهق، وهناك وقف رافانا ومعه موفداه. وبدت الأرض والمياه مغطاة بقردة من أنواع شتى. لاحظهم رافانا بقلب واجف، ودار في خلده أن عليه أن يخوض حرباً طويلة قد تدوم ألف عام، ومع ذلك، فربما لن يتمكن من التغلب على أعدائه.

رفع سارانا يده اليمنى وأشار قائلاً: "انظر أيها الملك، إن صاحب اللون الأزرق هو القائد نيلا، الذي يسير وراءه سبعون مليون جندي. وهناك غوباخيا ومعه عشرون مليوناً. أما ذو اللون الذهبي فهو سمباتي الذي يفر من وجهه الخصوم، ولديه خمسين مليوناً من العتاة الضواري، قدموا من تلال هينغولا. وأولئك القردة ذوو الألوان الفاتحة جاؤوا من جبل مالايا وبرفقتهم سبعون مليوناً من ذوي الشعر الطويل. ولقد جاء مئة مليون من بلاد سورابها، وأعداد أخرى لا حصر لها من مناطق بعيدة، وجميعهم ذوو بأس وعزم وإقدام.

أترى هذين القردين العظيمين والمخيفين بعيونهما الرمادية، إنهما إخوة زوج الملك سوغريفا، وولدا سوشينا ويأتمر بأمرهما ثمانون مليون جندي. ولدى الوزير جامبافان جند الغوريلات البشعة هذه، ولدى هانومن القرد العظيم ثمانون مليون جندي أيضاً.

هاك، انظر، غوي وغوباخيا، إنهما يرمزان إلى الموت، وكل من الشقيقين على رأس خمسين مليون جندي. وذاك سوشينا، ملك الأطباء، إنه حمو الملك ولديه ثلاثة ملايين بطل ونيف. وهذا هو سوغريفا ملك القردة، المشهود له بالشجاعة في العوالم الثلاثة. إنك تعرف بسالة فالي. وسوغريفا هو شقيقه. وذاك هو ابن فيشفاكارما، نالا الشجاع، الذي بنى الجسر ليدمر لانكا. وهناك، بعد، الأمير أنغادا بن فالي، ولديه عشرون مليوناً. إن أعداد جند راما من الضخامة بحيث لا يمكن إحصاؤها على الإطلاق."

ما أن رأى فيبيشانا رافانا فوق السور، حتى قال لراما: "فلتسرع! أطلق سهمك بسرعة، فرافانا هناك تحت أنظارك." وهم راما بتناول قوسه، وكاد أن يرميه بسهم، لولا أن رافانا توارى عن الأنظار بسرعة. فقال سوخا: "إذا أردت أن تبقى حياً، أيها الملك، فلترجع سيتا فوراً إلى راما. وإلا فإن موتك محقق. فلا أحد يستطيع أن يفلت من سهامه."

انتاب رافانا غضب شديد مما سمع، وصاح بمحدثه: "الا تخشى الموت، إذ تكيل المديح لأعدائي المرة تلو المرة! إن أهل السماء وسكان الفضاء وأولئك الذين يقيمون في باطن الأرض ليخشون بأسي وبطشي. إن العالم كله يرهب جانبي ويقوم على خدمتي. أيها الغبيان، أترياني أحفل بمجرد بشر وقردة؟ إن ملايين السميان الذين شاهدتماهم سوف يصبحون طعاماً لقومنا الراكشا. لا راما ولا لكشمانا بقادر على أن يقف نداً لي، بل إني لقادر على ذبحهما معاً بإشارة مني! فمن يستطيع احتمال غضب الملوك؟ إنكما عبدان في خدمتي، ومع ذلك، أراكما تتحدثان عني باستخفاف وتطنبان في مديح أعدائي الذين جاؤوا لقتالي. اغربا عن وجهي أيها الوغدان، ولا تنطقا بشيء بعد الآن. ولسوف أبقي على حياتكما لما قدمتماه لي من خدمات فيما مضى!" وإذ زأر رافانا وعيونه تقدح الشرر، فر سوخا وسارانا من أمامه خوفاً وجزعاً.

ضم مهادورا الشجاع راحتيه تحية لرافانا، وقال له: "إن هذين الغبيين تنقصهما المعرفة حتى إنهما يجهلان قواعد الحديث ومخاطبة الملوك. فما الذي حمل مولاي على إرسال مثل هذين الجاهلين في هذه المهمة؟"

أرسل رافانا في طلب شاردولا. وقد عرف الراكشا المخيف هذا بالضراوة والدهاء. فمثل بين يديه ومعه أتباعه الخمسة. وقد أغدق عليه الملك ذو الرؤوس العشرة عطاياه، وأمره: "لتتقص، يا شاردولا، أين يبيت جند راما، ومتى يستيقظون؟ إن الملك يعلم أخبار أعدائه وما يدبرونه من خطط بوساطة عيونه! ولتقف على أخبار راما ولكشمانا وما يخططان له. ولتعد بسرعة."

حيا شاردولا وأتباعه مليكهم وانصرفوا لتنفيذ المهمة التي أوكلت إليهم. وشاء سوء طالعهم أن يكتشفهم فيبيشانا بمجرد تغلغلهم في صفوف القردة، فقبض عليهم، ونادى الحرس: "أيها القردة، أين أنتم، انظروا، ها هنا جواسيس رافانا!"

أسرع القردة المخيفون وأمسكوا بهم من شعورهم، وأوسعوهم ضرباً وركلاً ونكلوا بهم تنكيلاً عظيماً. ولما وجدوا أنهم مجرد خدم، عند رافانا، أحجموا عن قتلهم، لكنهم لتأكيد بأسهم عمدوا إلى جر هؤلاء الراكشا إلى راما.

وقف الجواسيس أمام راما، وهم يتنفسون بصعوبة، وخاطبوا راما قائلين: "لقد أرسلنا رافانا لنستطلع أحوال جيشكم، ونخبره عن حجمه، وتعداد قواته، ومواقعها، وانتشارها، وتسليحها." فقال فيبيشانا: "مولاي، لتأمر بذبح هؤلاء الجواسيس." ورد راما: "ليس من شيمي قتل الموفدين. ولكن احملوا هذه الرسالة إلى رافانا: "علام العناء، والاستمرار في إرسال الجواسيس؟ إن شئت أن تعرف مبلغ قوتي، فلسوف تعلم علم اليقين حين أقابلك في ساحة القتال. وسترى، عندئذ، الجيش الذي لا يقهر. أين المفر يا رافانا؟ سوف أمزقك إرباً إرباً، وسأحتفظ بمظلة الملك ليستظل بها فيبيشانا". إن مرادي أن أذبح رافانا وأنصب فيبيشانا ملكاً بدلاً منه." وانصرف الجواسيس، محملين بالهدايا الملكية.

مـا إن وصلوا لانكا، حـتى ذهبـوا لمقـابلـة رافـانا، وهـم مـا زالوا يعـانون من آثار الـضـرب والتنكيل الذي نزل بهم، ولا يقوون على الوقوف منتصبين لينقلوا أخبارهم. وأخذوا يروون ما جرى لهـم بأنفاس متقطعـة: "توجهنا كـمـا أمرتنا لنستطلع قـوة العـدو، لكن فـيـبيـشـانا اكـتـشف أمرنا بعيـد وصولنا، فـتلقـينا الضـرب والأذى من القـردة حـتى أثخنونا بالجراح. ثم اقتادونا، في نهاية الأمر، إلى راما، ولولا عفوه، لبلغك عنا خبر آخر. لقد شاهدنا الجيوش بأم أعيننا، وكانت كما ذكر سوخا وسارانا. أما راما فما عسانا أن نقول عنه؟ إنه رائع جداً، فيخال المرء أنه من غير طينة البشر. رجل ذو مهابة، ويتمتع بجسد حسن التكوين، وهو قـوي البـدن وشـديد العـزيمة، رغم أنه لا يقـتـات إلا الفـاكـهـة وجـذور النبـاتات. إنه وسـيم وشجاع، ولا مثيل له في العوالم الثلاثة. رجل صادق ذو خلق قويم، ويثير الرعب في قلوب أعدائه أينما حل. لكنه رؤوف لا يتعرض للمستضعفين، بل يذل المختالين. وبمقدوره أن يقتل ألفاً من الراكشا بضربة واحدة."

قـال شاردولا: "أيها الملك، لقد ذبح راما كارا ودوشانا وتريشيرا. وألحق بهم أربعة عشر ألفاً من الراكشا الواحـد تلو الآخر، فكيف لك أن تواجهه في المعركـة؟ إن ما يخيـفنا أن نخبرك بكل ما شاهدناه وسمعناه. والرأي عندنا، يا مولانا، أن تفكر ملياً قبل أن تقدم على أي عمل. لقد تحدث سوخا وسارانا بما فيه صالح مولانا. وعهدنا بك، يا سيد لانكا، صاحب حكمة وخبرة وعقل راجح، فلتفعل ما تراه مناسباً."

ضحك رافانا لقول شاردولا وأجزل له الهدايا والعطايا، من حلي ثمينة، وسلاسل وأساور لأعلى الذراع، وخواتم مرصعة بالجوهرات، وأصداف البحر الخمس التي تصدر أنغاماً ملكية.

انتاب ذو الرؤوس العشرة قلق شديد، ووجف قلبه لما سمعه من جواسيسه. فاستدعى وزراءه ومستشاريه وعقد معهم اجتماعاً للتداول في مجريات الأمور، ثم صرفهم جميعاً واستدعى بعد ذلك فيدياجيفا الساحر القوي المعروف في كافة أرجاء لانكا. وقال له: "أي فيدياجيفا، إننا عرفناك ساحراً بارعاً، لا يبزه أحد في لانكا كلها. وكنت قد أحضرت ابنة الملك جناكا أملاً بأن أحظى بالسعادة معها، لولا أنها تعرض عني ولا تحبني. إن ما يدخل

البهجة إلى سيتا هو مجيء زوجها وعودتها إليه. وإن أمنياتي قد تتحقق، إن أطعتني واستخدمت سحرك فتصنع لي قوساً كقوس راما ورأساً كرأسه. فلعلها تقنط حين تراهما وتستسلم لي."

وبأمر من الملك أخذ فيدياجيفا يتمتم بعباراته السحرية؛ ويا للعجب، ظهر أمامه رأس راما المقطوع بكل تفاصيل ملامحه وتقاسيم وجهه، لا يختلف عن الأصل في شيء. كان تكوين أذنيه نفسه، والحلقات المرصعة باللؤلؤ الملكي.. وشفتاه الممتلئتان الجميلتان، وأنفه الشامخ، وجبينه العريض، وجدائل شعره الطويل المعقوص بقطعة قماش أبيض كالثلج. كان الناظر يحسب أن ذاك رأس أمير آيوديا ووجهه، دون أن يراوده الشك في ذلك. ثم ظهر بجانبه قوس عظيم وكأنه نزل من السماء. فسارع فيدياجيفا إلى إحضارهما إلى رافانا. وأخذ ذو الرؤوس العشرة يقهقه وهو يرى رأس راما ماثلاً أمامه. وبدا عليه السرور، وأخذ يغدق على الساحر الهدايا والعطايا مكافأة له على عمله.

طلب رافانا من فيدياجيفا الانتظار، ثم دخل بستان الأشوكا. وهناك أطلق لسانه بالأكاذيب، وزينها لتبدو وكأنها حقائق ليخدع سيتا. وقال لها: "إنك لا تنصتين إلي، وقد عيل صبري من صدك وإعراضك. ولكم انتظرتك. وبودي لو أشطرك إلى نصفين، لكن غضبي يتلاشى أمام جمالك. أتحسبين أن راما فريد لا نظير له؟ فلتصغ جيداً لما سأقوله. لقد علمت من عيوني وأرصادي أن القردة أنهكهم حمل الأخشاب والحجارة، واستغرقوا جميعاً في النوم. فذهبت ليلاً وتسللت دون أن يراني أحد، وعمدت إلى قتل وذبح معظم القردة. فخرج إلي راما يعترض طريقي، فضربته بسيفي المقوس البتار وفصلت رأسه عن جذعه، فخر صريعاً على الأرض. وعاد لكشمانا راجعاً من حيث أتى، والأسى يعتصر قلبه، وبصحبته من بقي حياً من القردة. أما ملك القردة سوغريفا فقد أصيب بجراح بالغة. وهناك اثنان من القردة أحدهما يدعى دافيندرا والآخر ماهيندرا، جعلتهما مقعدين بعدما قطعت أرجلهما. كذلك قطعت يدي رئيسهم هانومن ورجليه أيضاً، ولم يعد يقوى على الحراك. هذا هو نهجي في عقاب القردة. ولتنظري الآن إلى رأس راما المقطوع!" وصاح عندئذ ينادي:

"فيدياجيفا، أين أنت؟ هلم إلي برأس راما لتراه سيتا!"

ما إن وقعت عينا سيتا على وجه راما، حتى أجهشت بالبكاء بصوت عالٍ وهي تتفجع وتندب على نحو يثير الشفقة، وبكته مر البكاء، وهي تقول: "وا حسرتاه! كانت لحظة مشؤومة، أي سيدي ومولاي، حين بزغت شمس هذا النهار، وفقدت حياتك على أرض غريبة، كيف تركك لكشمانا لينجو بنفسه؟ آه! كيف لك أن تأتي بمثل هذا الفعل، يا لكشمانا؟ لا ريب أن أمنا كاوساليا ستقضي حزناً حين يبلغها النبأ. إن الشؤم لا ينفك يلاحقني، والحزن يلازمني منذ أن جئت إلى هذه الحياة دون أب أو أم. ومعك، أي حبيبي راما، جئت إلى الغابة. وبعدما فقدت مملكتك آثرت أن تعيش في الغابات، أما أنا زوجك، فقد اختطفني رافانا، وها قد فقدت حياتك، الآن، وبت أنا أرملة. فلتذهب آمال رافانا هباء. ولسوف أقتل نفسي وألحق بمولاي. فهيا أحضر سيفك، ولتضرب به عنقي أيضاً."

أدار رافانا ظهره ليبتسم، بينما كانت سيتا تبكي، مستغرقة في نوبة من الحزن والأسى. وفجأة، ارتفع ضجيج أصوات عديدة اهتزت لها لانكا، بهتاف: "النصر لراما!"، فأسرع سيد لانكا بالهرب حاملاً معه رأس راما. وجلس على كرسي العرش، ثم استدعى حاشيته ورجال الحكم إلى اجتماع عاجل للتداول في ما استجد من تطورات.

جاءت ساروما إلى سيتا التي عذبها الحزن وأضناها، في بستان الأشوكا. فقالت لها سيتا وهي تنشج: "آه! يا ساروما، إن كنت قد صبرت على هذه الحياة فبسببك. فلتذهبي، يا أختاه، لتتقصي ما يحيكه رافانا من مكائد، وتزوديني بالأخبار الصادقة."

ما إن سمعت ساروما كلام سيتا، حتى تحولت إلى طائر وطارت إلى قصر رافانا. وفي قاعة العرش، وجدته جالساً وحوله الوزراء والحاشية. وسمعته يقول: "أشيروا عليَّ كيف يمكن أن نقضي على جيوش راما؟" فكانت نصيحة وزرائه أن يصمد، وألا يتخلى عن سيتا في تلك المرحلة، وأشاروا عليه بالثبات والقتال حتى النصر المؤزر على راما.

في هذه اللحظة دخلت على المؤتمرين أم رافانا العجوز الواهنة. كان فؤادها ينفطر على

ولدها، والحال الذي آلت إليه البلاد. وأخذت تخاطب الجمع والألم يعتصر قلبها: "إن سيتا ليست كائناً سماوياً، بل هي مجرد إنسان فان. ولقد كانت لك وقائع مشهودة مع ما لا يحصى من الغيد الحسان. فما الذي يجعلك تتوق إلى واحدة من البشر، وأنت من الراكشا؟ والحق، يا ولدي، أني أرى نذر الشر والدمار، ولسوف ترى راما يحصد الأرواح حين يجد الجد. لقد أردت سهامه أربعة عشر ألف من الراكشا، كما صرع كلاً من تريشيرا ودوشانا. أخبرني، أي ولدي، كيف سولت لك نفسك أن تخطف زوجه؟ ناشدتك، يا بني، أن تعيد سيتا إلى راما وتعمل على كسب مودته، وإلا فلست أرى أملاً في دوام ملكك."

حملق رافانا بنيكوشا بعيونه العشرين الحمراء من شدة الغضب. وصرخ بأعلى صوته: "لولا انك والدتي، لكنت قتلتك. فهيا اغربي عن وجهي! فما عدت أطيق النظر إليك!" فابتعدت السيدة العجوز المهانة وهي تجر أذيال الخيبة، وتكاد تتهاوى فلا يسندها سوى عكازها.

حذر مالايفان - وهو من رجال الحاشية المحنكين - رافانا من نذر الشؤم وقال: "لتحرص، يا مولاي، على أن تزن قوتك جيداً، وأن تتناسب أفعالك مع قوتك. أي ملك من ملوك سلالات الشمس والقمر، أفلح في إقامة جسر فوق أمواج البحر المتلاطمة؟ لقد نجح راما في عبور المحيط، رغم أنه من البشر. بعد أن ناصبته العداء ودفعت به إلى معاداتك دفعاً. وكان الأجدر بك ان تكسبه صديقاً. لقد بلغتك أخبار شجاعته وبأسه. إنه صديق الناس الأخيار، والموت الزؤام لجميع الأشرار." وكان رافانا يرمق محدثه بعيونه التي تقدح الشرر والغضب باد عليه، فلم يملك محدثه إلا أن يخلد للصمت.

استدعى ملك لانكا قوات الراكشا وأمرهم بحراسة لانكا، ثم وزع على القادة المهام ليتولى كل منهم قطاعاً محدداً للدفاع عنه. فكلف ماهودرا بحماية القطاع الجنوبي ومعه مئة ألف من الراكشا. أما إندراجيت فوجهه رافانا إلى الغرب ومعه مئة مليون من الراكشا الجبابرة. وأما الجهة الشرقية فقد أنيطت مهمة الدفاع عنها بالقائد براهاسترا وتحت إمرته

ثلاثمئة ألف جندي، وبقي رافانا نفسه في الشمال وبإمرته ضعف عدد الراكشا الذين اتخذوا مواقعهم في المناطق الثلاث الأخرى. وبقي أهالي لانكا في يقظة وخوف لا ينقطعان.

أما ساروما فقد عاينت المشهد واستقصت الأخبار، وقفلت عائدة أدراجها بسرعة، لتخبر سيتا بكل ما رأت وسمعت. وقالت لها: "لقد كذب عليك رافانا. فهو لم يقتل أحداً ولا خاض معمعة. وراما سليم معافى. وقد طلبت نيكوشا من رافانا أن يعيدك إلى راما، وناشدته أن يرأف بك، لكن الشرير لم يعر كلام أمه آذاناً صاغية، بل عمد إلى إقصائها وطردها من مجلسه. وكان هذا مصير مالايفان أيضاً. وإذا ما سألتني الرأي قلت إن رافانا قد حزم أمره، ولن يأخذ بنصيحة ناصح. ولسوف تبقين، أي سيتا، حبيسة، ولن ينقذك من براثنه سوى الحرب. لقد عانيت طويلاً لكن لم يبق سوى القليل. ولسوف تبلغين السعادة بمرأى وجه راما. فلا تبكي، وانبذي المخاوف، فما هي إلا بضعة أيام ويكون اجتماعك بحبيبك."

كفكفت سيتا دموعها عند سماعها كلمات ساروما. واستغرقت في التفكير براما، وتنهدت عميقاً، وهي تهمس: "شري راما!"

تقع لانكا عند سفح جبل سوفيلا العظيم الذي يقيها هجمات الأعداء. لكن راما شاء ان يفيد من هذا الموقع، فصعد الجبل وبصحبته لكشمانا وسوغريفا وفيبيشانا، وقادة آخرون مع جنودهم. وهناك عقد وأركانه مجلس حرب.

كانت مدينة لانكا جاثمة بكل عظمتها أمامهم، ووقفوا عندئذ ينظرون إلى القصور الجميلة المبنية من الذهب والفضة، وتعلوها قباب من الذهب، وتخفق فوقها الأعلام والبيارق. وتبينوا من موقعهم الراية المثلثة التي ترفرف فوق القصر الملكي. ولقد دهش راما لهذا المشهد الأخاذ الذي يوحي بالقوة والثراء، وأخذ يحدث نفسه: "لم أشاهد في حياتي قصراً بهذه الروعة، ولماذا قدر أن يكون رافانا ملك هذه البلاد، مع أن فيبيشانا أجدر منه

بالملك." ثم التفت إلى فيبيشانا وقال له: "إذا كنت سليل آل راغو بحق فلسوف أجعلك سيد لانكا بالتأكيد."

بعدما أمضى راما قسطاً من الليل هناك، نزل ومعه مرافقوه من الجبل. كان الفجر لما يبزغ بعد، حين أطبقت قوات راما على لانكا وأحكمت الطوق حولها. وبإذن من راما وضع سوغريفا عند كل باب من أبواب المدينة الأربعة قوة من الجند تحت إمرة أحد القادة الكبار. وبذلك أصبحت لانكا معزولة يتعذر وصول النجدات إليها، أو الهرب منها.

صاح سوغريفا منادياً نيلا، فإذا بأفواج من القردة تهب إليه ملبية النداء. فأمر نيلا أن يرابط مع جماعة من أفضل القردة عند الباب الشرقي. ووجه مثل هذا الأمر إلى الأمير أنغادا، ليعسكر مع من يشاء من القردة عند الباب الجنوبي. فهرعت القوات التي انتقاها الأمير بكل عناية، إلى موقعها المحدد، وبيد كل قرد مقاتل صخور ضخمة وأشجار مقتلعة من جذورها. واندفعت تلك القوات تثير عاصفة من الغبار، وهي تسرع لاحتلال مواقعها. وسط هدير من وقع الأقدام المنتظمة وصيحات الحماس العالية التي تشي بالقوة والبأس.

وخاطب سوغريفا هانومن قائلاً: "أصغ، أي هانومن الشجاع، إن لك لمقاماً عظيماً عندي. منذ أن كنت طفلاً قفزت لتمسك بالشمس، وها قد قفزت فوق البحر. وكنت في ساحات القتال المقاتل الصنديد الذي لا نظير له. لذلك اعهد إليك بحراسة راما ولكشمانا عند الباب الغربي. فابق هناك لحمايتهما." فاخذ هانومن يقطع المكان جيئة وذهاباً، وأتباعه في إثره، وكانوا جميعاً على جانب عظيم من القوة والضراوة، وعلى أهبة الاستعداد لدخول المعركة. وتقدموا لحراسة الباب الغربي، وهم يصدرون ضجيجاً وجلبة، وأصواتهم تتعالى تطلب الطعان والقتال.

بدا على سوغريفا الضيق وهو يتفقد قوات نيلا في الباب الشرقي فاستدعى كومودا المشهود له بالشجاعة، وطلب منه تعزيز قوات نيلا بقواته التي يبلغ تعدادها مئة ألف، وأن ينضم إلى نيلا عند الباب الشرقي.

كان سوغريفا قد عهد إلى أنغادا بالانتشار في القطاع الجنوبي، لكنه لم يكن مرتاحاً للوضع هناك، فاستدعى ولذا سوشينا وأمرهما بنقل قواتهما، وهي ثمانون مليوناً، إلى الباب الجنوبي لدعم قوات أنغادا. وحملهما المسؤولية إذا ما فر الجنود. وكان أمراً لا يمكن مناقشته، وهل هناك من يستطيع أن يقاوم أمراً أصدره سوغريفا؟ وهكذا مضى القائدان ماهيندرا ودافيندرا ليلتحقا وقواتهما بأنغادا.

ومع أن هانومن كان عند الباب الغربي، فقد سارع سوغريفا إلى إحضار سوشينا وقال له: "أيها الصديق سوشينا، إن لديك ثلاثة ملايين من القردة الصناديد، فسر بهم إلى الباب الغربي لدعم ابن إله الريح. وإذا ما حدث طارئ، ووقع ما لم يكن في الحسبان، وأنت هناك فلسوف أعتبرك مذنباً وأنزل بك العقاب الصارم دون تردد!" وهكذا سار سوشينا والتحق بهانومن، لحماية الباب الغربي.

واتخذ سوغريفا قراراً بأن يتولى بنفسه حماية الباب الشمالي. وكان الجيش قد بنى أكواخاً على شواطئ المحيط. وخشي سوغريفا أن يعمد الجند إلى الفرار حين يشتد القتال، فاتخذ احتياطاته ليقطع عليهم طريق الهرب. فنشر بضعة ملايين من القادة وأمراء الجند ورجال الحاشية والنبلاء والحلفاء في طول المنطقة الشمالية وعرضها ووضع حراساً معروفين باليقظة عند كل بوابة. وواظب على تفقد الأبواب الأربعة. وكلما تبين لعينه الثاقبة موطن ضعف، سارع إلى مضاعفة عدد الجند المقاتلين المدربين المجربين الذين لا يعرف الخوف سبيلاً إلى قلوبهم وبث الشجاعة في نفوسهم. وقد أنيط بهانومن مهمة توفير الدواء لمعالجة المرضى فوق مهامه التي كلف بها. أما الوزير جامبافان فكان عليه أن يقدم المشورة الصائبة، وكان فيبيشانا خفيرهم اليقظ على الدوام.

بعيداً عن العيون عقد أهل السماء اجتماعاً حضره براهما ممتطياً بجعة بيضاء كالثلج. وإندرا ملك السماء على ظهر فيله المسمى ايرافاتا، وإله الماء على دلفينه، وشيفا يمتطي ثوره، وامتطت ربة الحكمة والمعرفة بارفاتي أسدها. وتوافد الآلهة والأرباب الواحد تلو الآخر ومعهم الموسيقيون السماويون والراقصون لمشاهدة المسرحية التي ستمثل على الأرض.

فالتفتت بارفاتي إلى زوجها شيفا موبخة: "لا أستطيع أن أفهم كيف يمكنك ألا تأتي بحركة حيال الورطة التي انتهى إليها نصيرك رافانا. كيف تتوقع أن يقدسك أحد بعد الآن؟"

غضب شيفا لكلامها. ورد عليها بصوت كالرعد: "إنك مثل جميع النساء! لم لا تذهبين لحماية مدينة لانكا الجميلة؟ لقد انقطع رافانا إلى ممارسة رياضة النفس عشرة آلاف سنة، لكنه عجز عن نيل نعمة الخلود، وهو صائر الآن إلى الموت، بسبب ما ارتكبه من آثام. إن فيشنو الحافظ ذاته ولد في دار دشاراتا.. وسمي راما. وأقام جسراً فوق البحر الذي لا يمكن إقامة جسر فوقه. وهو الآن على باب رافانا. كيف يمكن إنقاذ رافانا؟ فلا تسمعيني تقريعاً لا مبرر له، أي بارفاتي، إنه يتجاوز طاقتي أن أنقذ رافانا. فليس ثمة مهرب من القدر. وما هو مكتوب لا راد له!"

وإذ بلغ الشجار بين شيفا وبارفاتي هذا الحد، استدارت الآلهة لتضحك مبتهجة، فقد تأكد لها أن رافانا ملاقٍ حتفه قريباً.

مضت أيام خمسة، دون أن تبدر عن جيوش الراكشا أي محاولة للقيام بهجوم، ولم تتقدم جيوش القردة للقاء أعدائها، فظل الوضع على حاله من الثبات. وسأل راما فيبيشانا: "لماذا لم يتقدم رافانا للقتال؟". فكان رده: "مولاي، لا بد أن الجلبة التي أثارتها قواتنا قد صعقته، فآثر الانتظار، والتشبث بمواقعه، وكسب الوقت للتفكير في الخطوة التالية. ومع ذلك، فقد يكون من المفيد إرسال من يستطلع لنا الموقف."

استدعي هانومن وطلب إليه أن يستطلع ما يقوم به رافانا وقواته من تحركات أو استعدادات للهجوم. لكن جامبافان انتصب قائلاً: "لقد سبق لهانومن الشجاع أن كان في لانكا، وإذا ما ذهب إليها ثانية، فإن ذلك سوف يغضب ذا الرؤوس العشرة، ولسوف يظن بأن مجيء هانومن المرة تلو المرة مرده إلى أنه ليس ثمة بطل آخر في جيش راما. وإن أنغادا في الجنوب، فليكلف بهذه المهمة، وهو أضخم من هانومن، وبإمكانه التحدث بجرأة

أكبر."

تنفيذاً لأوامر راما، ذهب سوشينا على الفور ونقل رسالته إلى أنغادا، وقال له: "أيها الأمير أنغادا، إنها مشيئة شري راما ان تاتي إليه الآن." فسأله أنغادا: "قل لي أأذهب وحيداً، أم برفقة قواتي؟" فاجابه سوشينا: "ليس ثمة ضرورة للجند، حسبك ان تذهب بمفردك لمقابلة شري راما!" فتوجه أنغادا إلى راما، ودخل عليه حيث يجلس وسط حشد من القردة البواسل، ووقف أمامه منتصباً صامتاً، ضاماً راحتيه إلى بعضهما، إجلالاً لمولاه.

خاطبه راما قائلاً: "أي أنغادا الشجاع، نريدك أن تكون موفدنا إلى رافانا فتنقل إليه رأينا الصريح فيه!"

أجاب أنغادا: "إنني ابن فالي، يا مولاي، فكيف تمحضني ثقتك؟"

فقال راما: "لسوف أصدقك القول، يا أنغادا، لقد كنت مجبراً علي قتل فالي، أما أنت فإنني أثق بك كل الثقة. ولم يفارقني هذا اليقين منذ ذلك الحين!" فأجاب أنغادا: "مولاي، إنها لمهمة يسيرة، ولسوف تجدني أنشب أظافري في رؤوس رافانا العشرة! لقد خبرت شجاعة فالي وبسالته، والآن سوف تخبر مبلغ شجاعتي وباسي بنفسك. وسأخترق صفوف الراكشا، لأصل إلى رافانا وأعلمه رأينا في شخصه."

قال سوغريفا: "يا قرة عيني، إن شأنك لعظيم، وشجاعتك تجعلك صنو أبيك. لقد قمت على تنشئتك لفترة طويلة من الزمن. فاظهر الآن للسيد راما مبلغ قوتك. اذهب وجادل رافانا. واجعله يلتمس الرحمة عند قدمي راما الرؤوف الذي سوف ينقذه من موت محقق. وإلا فإن شري راما ولكشمانا سوف يمزقانه وأهله شر ممزق."

كان أنغادا على وشك أن يبدأ رحلته، عندما وقف فيبيشانا وقال: "أخبر أخي، سيد لانكا، ألا ينسى ما ارتكبه من آثام. ولقد صارحته بما كان يجول في خاطري أمام مشهد من حاشيته، وكنت أقصد مصلحته. فكافأني بالطرد والإهانة. كم هو أحمق فيبيشانا! ، لا يدري أن رافانا ملك جبار له وزراء أكفياء أهل للثقة وأكثر دراية منه، ويقدمون له أحسن

المشورة. . . أخبره هذا نيابة عني، يا ابن فالي."

انحنى أنغادا لراما مودعاً، ثم ودع عمه سوغريفا وزعماء القردة الآخرين. فردد القردة جميعاً صيحات النصر. ورأى وهو يغادر راما ولكشمانا ينظران إليه بعيون تطفح بالسعادة. وانطلق أنغادا، متكئاً على الريح، وعبر الفضاء وكأنه شهاب ناري، وسرعان ما وصل إلى قصر رافانا.

جلس الملك ذو الرؤوس العشرة على كرسي العرش بكل أبهة وعظمة، يحيط به أفراد الحاشية وأصدقاؤه، وكانوا جميعاً عمالقة جبابرة وعلى جانب كبير من القوة والبأس. فهناك ماهودارا المنبع على كل سلاح، و"الذي لا يعرف الخوف" ممتطياً فيله، و"ذو العينين الرماديتين" ممتطياً جواده، وابن تريشيرا في مركبته الحربية ذات العجلتين والمرصعة بالماس واللؤلؤ. ودخل الماكران وكأنهما رسولا الموت وبرفقتهما مقاتلان من ذوي البأس والقوة. وكان ولدا كومبكارنا الجباران بين الحضور أيضاً. وهناك بعد "ذو السن القاطع"، وإندراجيت الذي كانت العوالم الثلاثة ترتعد أمامه، وقد انحنى أمام والده الملك الجبار. وكان أولاد دوشانا وكارا وآخرون من أفراد الحاشية والجند البواسل حاضرين كذلك. وكان كومبكارنا الغائب الوحيد عن هذا الجمع إذ كان مستغرقاً في النوم في بيته. وجميعهم غافلون لا يدرون بالكارثة التي حلت بلانكا.

افتتح رافانا المجلس بكلمة أراد بها إثارة حماس أعوانه، وطمأنة الخائفين، فقال: "قد جاء الرجال والقردة لقتلي، راما الطفل الساذج وجماعة القردة، وكلهم جهلة لا يدركون شاني، ولا يحملهم على شن الحرب عليَّ إلا الغفلة والغرور. وها إني أعلن أن من يقتل راما ولكشمانا سينال مني أعظم الهدايا والصلات. فلنر بأسكم وشجاعتكم."

وقف حضور المجلس جميعاً وهم يرددون معاً بصوت مدوٍ: "لنذقهم شيئاً من بأسنا." وصاح المتحدث باسمهم قائلاً: "لمَ نخشى رجالاً وقردة؟ لطالما كنا نتوق إلى تذوق لحم القردة! وها هو ذا طعامنا حضر إلينا، وإذا ما استيقظ كومبكارنا، فإنه وحده كفيل بالتهام

الملايين منهم. وإندراجيت البطل سيقتل الآلاف. ولسوف نقيدهم بالحبال ونحطم أعناقهم ونشرب دماءهم، وبعدئذ نتناول لحومهم. اما هذين الرجلين فلا ريب أن لحمهما لذيذ المذاق، ولسوف نزدرده حتى تمتلئ بطوننا!" وهكذا أخذ الراكشا يتباهون ويتفاخرون، وهم يلوحون بأسلحتهم.

قال رئيسهم لرافانا: "لتمكث هنا، يا مولاي، مع سيتا، ولن يستطيع أحد أن ينتزعها منك طالما نحن موجودون. وبعد، من ذا الذي يخشى القردة؟ إنهم وحوش مرتعهم الغابة، ولسوف نقضي عليهم جميعاً في لحظة واحدة. لكن إذا ما ظهر كبيرهم "مشعل الحرائق" الوغد هذا، فلسوف نكون من الخاسرين. لقد جاء ليلاً وأحرق لانكا، وإننا نخشى عودته، فهو الذي اكتشف مكان سيتا في بستان الأشوكا، ووثق رباط الصداقة بين سوغريفا وراما، واستدرج فيبيشانا بمعسول الكلام. فاحذره، أيها الملك العظيم، إنه الذي يقدم النصح والمشورة التي تنطوي على الشر. وطالما بقي حياً، فلن تستطيع امتلاك زوج راما."

قال رافانا: "أوافقك الرأي فيما تقول، فمنذ لحظة ولادتي لم توجه لي إهانة مؤلمة كهذه من قبل. أمسكوا بـ "مشعل الحرائق" واقتلوه أولاً، ولتتركوا راما ولكشمانا الآن."

ما إن وضعوا الخطط على هذا النحو، حتى ظهر أنغادا الشجاع بين ظهرانيهم، وبدا مرعباً جداً بجسده الضخم، وعينيه اللتين تتوهجان مثل النجوم، ورأسه الذي كاد أن يناطح السحاب. كان حرس الراكشا قد فروا مثلما تفر الجرذان من الأفعى. وفتح أنغادا الأبواب ركلاً برجليه، وبوثبة واحدة أصبح في الداخل. واتخذ من ذيله الذي لفه مقعداً، وجلس فوقه، وأخذ يستطلع المكان حوله، وانتابه الضيق حينما رأى الملك رافانا جالساً على عرشه العالي.

قال الراكشا لأنفسهم: "يا للعظمة! من هذا؟" وأخذ العمالقة يحدقون في أنغادا مشدوهين، صامتين لا يصدر عنهم أي صوت.

كان رافانا من أساطين السحر العظام، داهية، ماكراً، واستطاع بما أوتي من الحيلة أن يجعل

أنغادا يراه في مئات الصور. وفي جميع الجهات كانت هناك الوجوه العشرة والأيدي العشرون نفسها، والعيون العشرون التي تقدح شرراً. وصار كل من كان حاضراً في القاعة صورة عن رافانا، سوى إندراجيت، الذي ما حال دون أن يأخذ صورة أبيه إلا حياؤه. وكان قد خرج لتوه من معبد إلهة الغابة وعلى حاجبيه علامة الرماد التي حملها من مذبح تقديم القرابين لتلك الإلهة، وقد عرف عنه أنه عبدها الخاشع. وعرفه أنغادا حالما وقع نظره عليه. فخاطبه ساخراً: "أخبرني، يا إندراجيت، هل كل هؤلاء الذين أراهم هم آباؤك؟ قل لي أيهم كان مربوطاً بذيل والدي... الذي ظهر في شكل زاهد صالح وخطف زوج راما؟ إنني أبحث عن والدك هذا..."

وعلى هذا النحو تابع أنغادا سرد الوقائع المخزية والخيبات التي لحقت برافانا في الأيام الماضية، حتى ضاق ملك الراكشا بالحديث، ولم يعد بوسعه احتمال المزيد. فأزال عنه السحر وأحنى رأسه خجلاً ثم صاح غاضباً، وهو يحملق بانغادا: "من أنت؟ ومن الذي أرسلك إلينا لتلقى حتفك؟ وما الذي جاء بوحش من وحوش الغابة إلى عقر دار الراكشا؟ أخبرني ما اسمك أيها الوغد، ومن اي بلد اتيت؟ اخبرني ولا تخف، فلن أعمد إلى ذبحك إن أخبرتني بالحقيقة."

رد عليه انغادا مستهزئاً: "آه! لقد أخفتني، وها هي فرائصي ترتعد أمامك فزعاً!" ثم انفجر صارخاً: "الموت لك أيها الآثم! من أنت حتى أخشاك؟ ألا تعلم من أكون؟ هل تذكر ذهابك إلى كيشكيندا لقتال فالي الشجاع؟ تحسس ظهرك فما زال يحمل أثر ذيله. اعلم إذن، أنني أنغادا ولد فالي وخادم راما. إنك تجهل راما، وتخطف سيتا. ولسوف نرى الآن إن كنت تستطيع الحفاظ على مملكتك. ولكن حسبك أن تعلم ان راما قد طوق لانكا، فلمَ البقاء فيها؟ لمَ لا تخرج؟ إن صاحبك هذا ليس إله الشمس ولا إله الماء، بل راما ذاته الذي سعيت إلى منازعته، فحق ان يزول قومك عن ظهر الأرض!"

. زأر رافانا وصاح غاضباً: "ماذا تقول؟ هل يجب عليَّ أن أفر هارباً مذعوراً، لمجرد أن راما قد بلغ لانكا؟ اهذا ما يجول بذهن صديق غوها ذو الأصل الوضيع؟ أتراه يفكر بإنقاذ سيتا،

وعدته في مغامرته قردة الغابة؟ حسبنا أن نعلم كيف طرد من مملكته لنعرف مقدار كفاءته. لماذا يأخذ امرأة معه إلى الغابات؟ ولمَ لا يذبح أخاه ويستعيد مملكته ويبقى في أرضه؟ أما أنت فما شأني بك؟ لقد سمعت مني ما بلغك، فامض وانقله عني؛ قل لراما، أيها القرد، إنه يستطيع أن يستعيد سيتا إن تغلب على رافانا، قل له أن يدمر الجسر بيديه وأن يعيد الصخور إلى حيث كانت.. وأن يعيد زرع الأشجار التي اقتلعها. وعلى فيبيشانا، بعد، أن يتوسل لنيل الرحمة عند قدمي، كذلك لا بد من إنزال عقوبة مناسبة بمن أحرق لانكا. ولا محيص لراما من أن يرمي قوسه وسهامه، ويمرغ أنفه بالتراب تحت قدمي. عندئذ وحسب له أن يأمل بالرحمة مني!"

وعلق أنغادا ساخراً: "حقاً، يا رافانا، هذا ما نتمناه جميعاً، فعندئذ يمكننا العودة إلى بلادنا ونستريح من هذا العناء! وعلي الآن أن أعود وأخبر راما بما بلغني من كلامك. أما "مشعل الحرائق" فاعلم أن عمي قد أقصاه عن موقعه!" ضحك رافانا: "وأي خطأ ارتكب؟" أوضح أنغادا: "لما كان هانومن في طريقه إلى لانكا، كان عمي قد قال له: "اذهب إلى لانكا، يا ابن الريح، وافعل ما آمرك به! مزق رأس كومبكارنا بأظافرك، واقتلع لانكا واقذف بها إلى البحر! وأحضر سيتا ومعها بستان الأشوكا على رأسك. وعد إلينا وأنت تجر رافانا من شعره بيدك اليسرى؛ فلم يفلح في تنفيذ أي من هذه المهام الأربع. وكان الملك سوغريفا قد هم بشطره إلى نصفين، لولا أن حلنا دونه وهانومن، ولم يسمح راما، صديق من لا صديق لهم، لسوغريفا أن يذبح القرد. وأصبح هانومن صنواً للعار، فحلق رأسه وفر خجلاً. ونحن نبحث عنه الآن، علنا نعثر عليه"!

وإذ سمع الراكشا كلام أنغادا نظروا إلى بعضهم فزعين وأخذوا يتمعنون في كلامه ويفكرون: "قد يفعل هذا ما عجز عنه هانومن." وتابع أنغادا: "لكنني أعلم الآن يا رافانا، بصرف النظر عن هذا كله، أن موتك بيد راما بات مؤكداً. فإذا ما أردت أمراً ما قبل موتك، فلتقم بتنفيذه على الفور. ولتضع عليك كل مجوهراتك الملكية، ولتفتح خزائن المال، ولتوزع ثروتك على الفقراء. أما فيلتك وخيولك وعرباتك الحربية، وثيرانك وأبقارك، فلن

تكون ذات نفع لك بعدما تغمض عيونك إلى الأبد. إنك لم تعر كلام فيبيشانا آذاناً صاغية، فلا تعجب إذا أصبحت سهام راما فراش الموت المريح لك. وبالرغم مما اجتمع لك من العلوم والمعارف، أراك غبياً أحمق، تغلق آذانك دون حديث الناصحين. وفاتك أن تعلم أن الإله نفسه قد اتخذ صورة إنسان ليخسف بالأشرار. لقد أسكرتك الثروة وأعمت القوة والسلطة بصيرتك، أيها الآثم، فحق عليك ما سوف ينزل بك من دمار. إن قوة راما لعظيمة، والنصر حليفه على الدوام. وإذا أردت أن تكتب لك الحياة، فلتأت إلى راما طائعاً ذليلاً، وحاملاً إليه سيتا على محمل. عندئذ سوف نتوسل إليه جميعاً راكعين عند قدميه طالبين لك الصفح والمغفرة."

صاح رافانا بغضب: "فليمتلئ فمك بالرماد أيها القرد. ولمَ التماس المغفرة لي؟ فلست بالذي يطلب الرحمة، وليعلم قومك أني ذو بأس شديد، ولن يجد مني راما إلا القتال حتى النهاية!"

قال أنغادا: "الجدل معك عقيم. ولا ريب أنك سائر إلى حتفك. إني إنما أقول هذا، أيها الغبي، لخيرك وصالحك. وإذا ما بقيت حياً، فسوف تزيد في شهرة أبي، ذلك أن الناس سوف يشيرون إليك قائلين: هو ذا الوغد الذي كان مقيداً بذيل فالي."

اختنق رافانا لشدة غضبه وحنقه. وقدحت عيونه شرراً، وقال: "إن قتل الرسل ليس من شيم الملوك. ولذلك وجدتني أحتمل منك غرورك وتبجحاتك الفارغة. لقد قهرت الكائنات السماوية من قبل، والعفاريت، والملوك الجبابرة من البشر، فماذا بوسع راما الإنسان أن يفعل أمام بأسي وجبروتي؟" فأجاب أنغادا: "فلتصمت إذن، أيها المعتوه! إن أسلحة راما التي نزلت عليه من السماء، تثير الهلع في النفوس، وهي متعددة الأشكال والألوان. وفالي الذي تغلب عليك في القتال، قتل على يد راما، فكيف تسول لك نفسك شن الحرب عليه؟ علام تحملق بي؟ إن مدينتك لانكا ليست عندي بأكبر من بيضة عنكبوت. ومع أنني قريب منك، إلا أنني لا أخشاك. انظر إلي." وهنا وقف متخذاً ارتفاعاً أعلى. "انظر إلى قبضتي، إنها كالصاعقة وقادرة على أن تسحقك حتى الموت. لكن هذا أمر يجب أن يترك

لراما القيام به ."

أجال رافانا النظر في كل الجهات من حوله، وقد أخرسه الغضب . فاندفع أربعة من الراكشا نحو أنغادا يريدون ضربه، ولكن كيف لهم ذلك وهو ذو البأس والحيلة؟ إذ فتح ذراعيه وأمسك بهم وشدهم إليه وقفز بهم فوق الأسوار، ثم قذف بهم إلى الأرض فتحطمت جماجمهم وعظامهم . ودار في خلد أنغادا : "عندما عاد هانومن من لانكا قدم لراما اللؤلؤة من سيتا . وقد وجدنا مولانا، منذ ذلك الحين، سعيداً بهانومن أشد السعادة . ولا ريب بأنه سوف يُسر إذا ما حملت إليه تاج رافانا المرصع بالجواهر الثمينة . " ولما راقت الفكرة له وثب على رافانا، فوقعا عن العرش معاً، وأخذا يتصارعان، حتى زلزلت الأرض من وقع جسميهما . وفي لحظة أمسك أنغادا برافانا وقذف به بعيداً، وحمل تاج ملك الراكشا بيده .

بوغتت حاشية رافانا بما حدث، وانتابتهم حالة من الهلع، وأخذت فرائصهم ترتعد بتأثير ذلك المشهد العجيب، وزادهم دهشة أن وجدوا ابن فالي يختفي من أمامهم في لحظة . وبقفزة واحدة أصبح أنغادا بين يدي راما . فاستقبله جيش القردة مهللين ورموه بالورود . انحنى أنغادا وهو يقدم لراما التاج الثمين . وسر راما بعودة أنغادا، وازداد سروراً بالهدية التي حملها إليه، فضمه إلى صدره معانقاً، وقال له : "أخبرني، أي أنغادا، الباسل كيف ألقيت تحيتك على الملك العظيم؟"

ابتهج أنغادا لرؤية راما مسروراً، وسوغريفا سعيداً، ولكشمانا يغمره الفرح الشديد . وأجاب راما وهو يحني رأسه تبجيلاً له : "عملاً بأوامركم، يا مولاي، مضيت سريعاً إلى لانكا، ودخلت ذلك المكان الحصين. ورأيت الدور فيه مبنية من الذهب ومرصعة بالمرجان . وقد بدت لي جميلة بحجارتها البيضاء والحمراء والزرقاء . ودخلت قصر الملك، وشاهدته يعج بالجند المسلحين بسيوف مقوسة وصولجانات حديدية ذات تصميم مذهل، كما رأيت أنواعاً من الجياد لجامها من الذهب وسروجها كذلك، وفيلة ضخمة تنتصب كالتلال . ووجدت الأوز ينساب فوق صفحات مياه البحيرات الرائقة الشفافة كالبلور التي توشيها

أزهار اللوتس الحمراء والبيضاء. وكان النحل يطير متنقلاً من زهرة لأخرى، ويشنف الآذان بطنينه. وكانت الراكشات الجميلات تستحم في ذلك المكان، وهن مزينات بالحلي والمجوهرات، والسلاسل الثمينة، وكلها تحف من أبدع آيات الفن. وفي الحدائق الحافلة بالورود كانت الطواويس تتجول مختالة بجمالها. والعذارى الحسان ينشدن أجمل الأغاني، وجوقات العازفين يرسلون بقيثاراتهم ومزاميرهم أعذب الأنغام، والطيور والعصافير تشدو وتزقزق فتزيد في طرب السامع.

ذهبت إلى الملك رافانا وسط الهتافات والتصفيق، وأنزلت به أشد الإهانات. وكلما تفوه بكلمة كلت له الصاع صاعين، حتى تلظى سيد لانكا من شدة الغضب، وبامر منه اتى أربعة من طراق الليل ليأسروني فما كان مني إلا أن أرديتهم قتلى. أما وقد نال رافانا من المهانة والإذلال ما نال، فقد اسرعت بالعودة طائراً إليكم."

ولقد سر راما أيما سرور لسماع تلك الأنباء من أنغادا، فأكرمه وأجزل له العطاء، فيما كانت القردة تردد صيحات النصر. وقال له راما: "آه! أيها الأمير، كم أنا خجل لأنني قتلت أباك. ولكن دع عنك الحزن والأسى. ولسوف تنال من مراتب الشرف الكثير الكثير. فاذهب الآن وقم على حراسة الباب الجنوبي فقد يهاجمنا ذو الرؤوس العشرة ثأراً لما لحق به على يديك." وللتو وقف أنغادا مستأذناً بالانصراف.

نهض رافانا عن الأرض، ونفض عنه الغبار، وهو محبط مكتئب واهن العزيمة. ثم حملق في ضباطه وأمراء جنده، وقال منذداً: "قرد يخطف تاجي أمامكم، وأنتم وقوف لا تبدون حراكاً. فأي فائدة ترجى منكم؟" فأجاب احد زعماء الراكشا بضعة: "يا سيد لانكا، حتى أنت عانيت القهر على يد ابن فالي. وإذا كان هذا شأنك، فما حيلتنا نحن إذن؟"

خفض الملك رؤوسه العشرة تحت وطأة إحساسه بالذل، ثم استدعى جميع قادة جنده وأمرهم أن يعدوا العدة لخوض الحرب. وقال: "لطالما كانت العوالم الثلاثة ترتعد أمامي، وكان النصر أبداً حليفي، وها هو ذا الآن قرد وضيع يسخر مني! أي إندراجيت، يا بني إنك

كبيرهم جميعاً، فامض وجئني بنبأ قتل راما ولكشمانا، فلن يهدأ لي بال حتى تثأر لشرفي. خذ ما تشاء من فيلة وجياد وجند وتوجه إلى المعركة عند أبواب لانكا الأربعة. والتزم الحرص والدهاء في قتالك. ولتقتل أنغادا أولاً. ثم أتبع به الآخرين."

هرع إندراجيت الباسل، قرة عين أبيه، لارتداء لباس الحرب، فأمطره رافانا بالمكرمات والهدايا الملكية، وقام قادته وضباطه بالاستعداد لدخول الحرب. وجاءت عربة القائد التي سيستقلها إندراجيت، تجرها ثمانية جياد مطهمة تندفع في حركتها كالنار المتقدة، وتنبئ عن مولدها وترعرعها في الجبال، فلا يحد من إقدامها إلا الشكائم المرصعة بالماس في أشداقها. كانت عربة رائعة مصنوعة من الذهب وبمقدورها الاختفاء ساعة يشاء صاحبها. ولقد خصص لهذا القائد الهمام ثمانية ملايين من رماة السهام. وعشرة آلاف فيل وعشرين ألف جواد. واجتمع له خمسة وعشرون ألف جندي من الراكشا مسلحون بالرماح والسيوف للسير في ركابه. وجاء قادتهم بعرباتهم مدججين بمختلف أنواع الأسلحة. دار إندراجيت حول والده الملك ثلاث مرات وحياه بمحبة وتبجيل، قبل أن يستقل عربته ويمضي إلى ما انتدبه له.

انتشرت قوات الراكشا على مساحة تربو على ألفي يوجنا. والأرض تهتز تحت أقدام الجند العمالقة، وهم يسيرون على إيقاع الطبول والأبواق والمزامير والصناجات والقرون الضخمة، التي تعزفها ثلاث فرق من الجيش، وتصدر أصواتاً تدخل الرعب حتى في قلوب أهل السماء. واكفهرت السماء من الغبار الذي كان يثيره هذا الحشد العظيم في أثناء زحفه.

توجهت جيوش الراكشا إلى الباب الشرقي أولاً، وأرسلت وابلاً هائلاً من السهام على العدو الرابض في مواقعه. ورد عليهم القردة بالمقابل بقذفهم بكتل الصخور والجلاميد الثقيلة والأشجار. ولما التحمت قوات الطرفين، اندفع آلاف الراكشا يهجمون على جحافل القردة، ويوجهون لهم الضربات الصاعقة بقبضاتهم القوية. وكانوا جسورين لا يعرف الخوف إلى قلوبهم سبيلاً، وشرسين كالنمور. ودار يومئذ القتال، على أشد ما يكون، وسرعان ما سالت دماء الطرفين كالأنهار. وسقطت أعداد كبيرة من الفيلة والجياد والراكشا

في المعركة فابتهجت القردة لذلك أيما ابتهاج.

بحث إندراجيت عن أنغادا، ولما أخفق في العثور عليه، نادى أتباعه وتقدم بهم نحو الباب الجنوبي. وهناك التقى أنغادا وأخذ يقهقه في وجهه وصاح به: "لقد أهنت والدي، ثم لذت بالفرار كما يفر الجبان الرعديد، فلنر من سينقذك الآن! تباً لك أيها القرد الصفيق، فها أنت ذا تابع تخدم من قتل والدك الملك فالي. وإن موتك محقق اليوم على يدي. ولسوف أحطم عنقك وأنهش لحمك. فلا تأمل بالعودة إلى ديارك. أنا إندراجيت، الكفيل بسحقك اليوم."

أجاب أنغادا: "هذا ضجيج ليس من ورائه إلا اللغو. ولكنك ستنال مني الركل حتى تفارق الحياة. لقد اختطف والدك سيتا متخفياً في زي رجل صالح نذر نفسه لخدمة الآلهة. وهذا لو تدري إثم عظيم، وبسببه لقي والدي مصرعه. ولد سارق لأب سارق! واليوم سيكون ذبحك على يدي، فتهيأ!" وما إن سمع إندراجيت هذا حتى أرسل من قوسه وابلاً من السهام المشتعلة فسقط الآلاف من القردة، وفر الآخرون من ساحة المعركة، تاركين أنغادا وحده. ورد أنغادا برمي صخرة كبيرة باتجاه إندراجيت، وبركلة واحدة من قدمه حطم عربته وقتل سائسها. وما كان من إندراجيت وقد أصابه الهلع إلا أن ارتفع وحلق في الجو مولياً الأدبار. وكان براهما قد وهبه القدرة على أخذ قسط من الراحة في الفضاء، فأفاد من تلك الهبة، وأخذ يراقب المعركة من هناك.

دارت المعركة بين الراكشا والقردة واستمر القتال ضارياً بلا هوادة، دون أن يتحقق لأي من الطرفين نصر حاسم، وظلت القوى، في غضون ذلك، متعادلة دون غلبة أحدهما على الآخر. وتقدم عندئذ الراكشا "الجبار" وأطلق سهامه على سمباتي، فبهت القرد الشجاع من ذلك الهجوم، والتقط شجرة ضخمة اقتلعها من جذورها ولوح بها ثلاث مرات، ثم قذف بها ذلك الراكشا "الجبار" وهو يطلق صيحة قوية، فسحقه حتى الموت. ثم مد ذلك القرد الحانق ذيله والتقط أربعة من الراكشا، فما عادوا يستطيعون الحراك، ووجه إليهم ضربة هائلة بذيله الضخم، ثم رفعهم عالياً وقذف بهم إلى الأرض بعنف، فتحطمت جماجمهم

وعظامهم. وجاء تابان وهو زعيم من زعماء الراكشا على ظهر فيل وصوب رمحه باتجاه نيلا. فوثب القرد العظيم على كتفي الفيل ووجه ضربة قوية إلى هذا الراكشا، وتتالت ضرباته قوية، سريعة، حتى اقتلعت عينا تابان فهوى على الأرض. وكان من بين أبطال الراكشا المقاتل المعروف باسم "الصاعقة" وجاء مستقلاً عربته الحربية، وقاتل القردة قتالاً شديداً، حتى خرج إليه هانومن فجأة، ووثب فوق عربته بجرأة وإقدام، وتمكن منه بأن أمسك به من شعره، وثبته وانهال عليه ضرباً حتى تحطم رأس "الصاعقة".

ثم جاء راكشا آخر مرتدياً لباساً مزيناً بالذهب، وكان قد شرب سبعاً وعشرين إبريقاً من النبيذ. وصاح بأعلى صوته متحدياً، وقتل أعداداً لا عد لها ولا حصر من القردة بفاس مشحوذ ورماح ماضية، كذلك قبض على العديد منهم والتهمهم. فاستشاط القائد نيلا غضباً، واندفع ثائراً ونزع بقوة إحدى عجلات عربة "الصاعقة" المهجورة وقذف بها عدوه، فتدحرج رأسه على الأرض الملطخة بالدماء.

كذلك أبلى سوشينا العجوز وأبناؤه في المعركة أحسن بلاء. ولقد ثارت حميته فنسي في غمرة القتال عمره وعادت إليه همة الشباب من جديد. وكان إذا أمسك بأحد الراكشا ضمه إليه بقوة تكفي لتزهق روحه.

أما لكشمانا الشجاع ولد سوميترا، فكان مشهداً جميلاً أن يرى وهو يقاتل في أتم ألقه، مشرقاً كالشمس، ويحارب برشاقة من الفجر وحتى الغسق مشهراً قوسه العظيم وسهامه التي لا تخطئ. مباركة كانت بسالته ومبارك كان قوسه! ومع حلول الغروب كانت حصيلته سقوط عدة آلاف من الراكشا صرعى سهامه. وكانت النجوم المخلدة تراقب المعركة مذهولة في عليائها. وجرى نهر من الدماء عند قدمي لكشمانا طافت فوق سطحه رغوة قرمزية اللون. وفر موسيقيو الراكشا وقد استبد بهم الذعر، أمام هذا المشهد الدامي، في كل اتجاه.

شاهد إندراجيت من مخبئه أشجع أمراء جنده وأعداداً لا حصر لها من الجند يسقطون صرعى. وأخذ يفكر: "ويلي كيف لي أن أواجه أبي بعد هذا؟ لقد أرسلني وهو يعلق علي

الآمال. فماذا تراني أخبره عن الجند الذين قتلوا. وأراني في وضع سيء في هذه المعركة، ولست أرى الحظ مواتياً لي إن خضت معركة مكشوفة. ولعلي أعوض عن هذه الخسارة بما خصني به الإله شيفا من مكرمة فأقاتل أعدائي، دون أن أكشف عن نفسي." فعمد عندئذ إلى الاختباء خلف الغيوم، وأخذ يحارب من هناك، مستتراً، متخفياً، متوسلاً بملكة السحر. ويقاتل البشر والقردة على الأرض.

صاح منادياً راما ولكشمانا: "لا تأملا بالعودة حيين إلى بلادكما، فلسوف أبعث بكما اليوم إلى مملكة الموت." وشد وتر قوسه الذهبي، وإذ به يصدر صوتاً رهيباً مدوياً اهتزت له أبراج المعابد. ورمى قوسه ثم تلقفه ثلاث مرات قبل أن يسدد سهمه ويرسله نحو هدفه، وصاح منادياً من جديد: "راما لكشمانا ها هو ذا سهمي الخفي، رفيق الموت، فلترداه، إن استطعتما، عن هدفه!" وسقط السهم الملتهب كالصاعقة على راما ولكشمانا.

كان إندراجيت ساحراً بارعاً، يتقن العديد من الخدع، وأخذ يخرج ما في جعبته من الأسلحة المخيفة، وشرع يطلقها في مختلف الاتجاهات فأثخن الأخوين بالجراح والأرض بدمائهما الحمراء القانية. وتواترت الأنباء عما يدور في أرض المعركة، وبلغت سوغريفا الرابض عند الباب الشمالي، حيث كان الهدوء سائداً. فأسرع إلى نجدة صديقيه ومعه القواد وملايين الجنود، تاركاً خفارة الباب لمجموعة من الحراس الأشداء. وسرعان ما وصل وجنده إلى الباب الشرقي، وأعلم القائد نيلا بمجريات الأمور. فجمع نيلا وكومودا أكفأ جندهم وأشدهم ذكاء وانضموا إلى سوغريفا ومضوا جميعاً في طريقهم حتى بلغوا الباب الجنوبي بسرعة البرق. وهناك وجدوا أنغادا يحرس المكان مع ثمانين ألفاً من مقاتليه البواسل. وسرعان ما تناقل المقاتلون الأنباء حتى باتوا جميعاً على معرفة بالخطر المحدق بقادتهم المحبوبين. علم الجميع بالأمر ما عدا فيبيشانا، إذ لم تصله الأنباء لتواجده في موقعه على الجهة الأخرى. وهكذا التقت الجيوش المتمركزة عند الأبواب الأربعة.

واصل إندراجيت رمي راما ولكشمانا بسهامه، تحت ستار من الغيوم. وأخذت القردة

تطوف بالمكان تفتش عن إندراجيت دون أن تقع له على أثر. وقال راما ولكشمانا: "إننا عاجزان عن صده، ولا ريب أنه يخادعنا، خلف الغيوم، ولذلك لا نستطيع تعيين المكان الذي يقاتلنا منه!" وأصابهما عندئذ اليأس وأيقنا بدنو الموت، بعدما نالت منهما سهامه وغطت جسديهما الجراح التي ينزف الدم منها بلا انقطاع.

قال إندراجيت محدثاً نفسه، مستغرباً ثبات الأخوين، وغاضباً لفشله: "لقد رميتهما بسهام كثيرة، لكنهما مع ذلك صامدان لا ينال منهما الموت." ثم أشهر سلاحاً رهيباً هو سهم "الأفعى الملتفة". وكان سهماً ماضياً ارتعدت له فرائص النجوم المخلدة حين رأته من عليائها. سدد سهمه هذا ثم أرسله إلى هدفه، وما إن انطلق السهم حتى كان له دوي الرعد، ثم توزع في شظايا، فكانت ملايين الأفاعي، برؤوس متطاولة وألسنة ترسل لهباً. وانطلقت الأفاعي فجأة واندفعت تلتف حول راما ولكشمانا وتقيد يديهما وقدميهما وعنقيهما. ترنح الشقيقان وسقطا على أرض المعركة مغمى عليهما. وتعالى عويل القردة ونواحها حتى ترددت أصداؤه في طول البلاد وعرضها.

صاح إندراجيت بأعلى صوته محتفياً بالنصر الذي تحقق له، وقفل عائداً إلى لانكا، حيث قرعت الطبول ورشت الشوارع بماء خشب الصندل، وفرشت بالحرير ونثرت فوقها الورود العطرة.

وقف إندراجيت أمام الملك رافانا ضاماً راحتيه تبجيلاً وتعظيماً، وانحنى له ثلاث مرات تعبيراً عن إجلاله وولائه. فسأله رافانا: "ما هي أخبار الحرب؟" عندئذ روى الأمير له ما ناله من الرجال والقردة، وما دفعه إلى اللجوء إلى السماء، وقتاله مع راما ولكشمانا، واستخدامه سلاح الأفعى الملتفة الرهيب، الذي أوقعهما أرضاً. ولن يستطيع أحد في العوالم الثلاثة أن يفك عقد الأفاعي التي أوثقت الشقيقين. وطمأن إندراجيت والده قائلاً: "لا راما ولا لكشمانا بقادر على أن يشكل خطراً عليك بعد اليوم. يا أبت، فلتهنأ بسيتا."

عانق رافانا ولده المظفر وقبله، وقدم له فيلة ضخمة وجياداً سريعة ومالاً وفيراً من خزائنه.

وسلاسل للعنق وأساور لأعلى الذراع مرصعة بأنواع شتى من المجوهرات الثمينة. كما أهداه تعبيراً عن امتنانه "الجوهرة الزرقاء" الجميلة التي لا نظير لها. فانحنى إندراجيت خاشعاً أمام والده الملك، شاكراً له نعمه.

ما إن انصرف إندراجيت، حتى استدعى رافانا تريجاتا، وقال لها: "اذهبي إلى سيتا، وحطمي كبرياءها، خذيها على متن عربتي الطائرة لترى بأم عينها راما ولكشمانا ممددين على أرض المعركة وقد أوثقتهما الأفاعي. عندئذ، سوف تفقد الأمل وتخضع لي خشية وخوفاً." فذهبت إلى سيتا وأخبرتها بأن راما ولكشمانا قد سقطا بسهام إندراجيت وأضافت: "تعالي معي، إذا شئت، لتريهما."

أسرعتا إلى العربة التي طارت بهما إلى ساحة المعركة. وكان بوسعهما أن تريا جسدي راما ولكشمانا على الأرض، وقد كبلتهما الأفاعي. فأجهشت سيتا الجميلة بالبكاء بصوت عالٍ امتزج فيه الرعب والحزن على زوجها الحبيب. وأخذت تعدد فضائله وتتفجع على خسارتها، قائلة: "وا حسرتاه كم أنا قليلة الحظ! لن أتمكن بعد اليوم من أن أنظر إلى وجهك الحبيب ثانية. إن إندراجيت لم يقاتل قتالاً مشروعاً. لقد فقدت حياتك من أجلي." وأمسكت بيدي تريجاتا، وتوسلت إليها أن توقف العربة، وناشدتها قائلة: "أرجوك ساعديني كي أذهب إلى زوجي." ثم جاء صوت من السماء: "إن راما لا يمكن أن يدمر أبداً. ولسوف ينقذك وتعودان إلى آيوديا."

وواستها تريجاتا بقولها: "لا تبك، أي سيتا، ما زال السيد راما ولكشمانا ينعمان بالحياة. ولقد طالت أحزانك، لكنها سوف تنتهي عما قريب." ثم عادت بسيتا إلى بستان الأشوكا. ومن جديد جلست سيتا تحت أشجار الأشوكا وهي محنية الرأس حزناً، وحولها الراكشات الرهيبات اللواتي كن يحرسنها وبأيديهن قضبان من ذهب. وهن يقظات أبداً كيلا يؤخذن على حين غفلة.

التف القردة حول راما ولكشمانا الطريحين على الأرض، وأخذوا ينوحون ويبكون، وقد

حسبوا أنهما ميتين. وأخذ القائد نيلا يتلوى على الأرض حزناً وأسى. فيما كانت القردة الضخمة ذات الشعر الكثيف تبكي مر البكاء من شدة الألم لهذا المصاب، بل هذه الفاجعة. وأخذ سوغريفا ينوح، ولا ينقطع يردد: "أي صاحبي! أي صديقي! كيف أعود إلى كيشكيندا، وقد رحل سيد آل راغو؟ أهون علي أن أحرق المدينة وعرشي الذهبي، وألقي بنفسي في البحر، وتطويني أعماقه، على أن أواجه هذا الموقف!" ثم التفت نحو أتباعه وصاح بهم: "هيا! لننقل الأخوين إلى كيشكيندا، ونرى إن كان بمقدورنا إنقاذهما. فلنفرغ أولاً من معالجتهما حتى تعود إليهما الحياة. ثم نلتفت بعدئذ إلى حربنا مع رافانا، وهي حرب قاسية ضروس. فإذا ما تم لنا قتله وأسرته رجعنا إلى ديارنا معززين بالنصر!"

ومن بعيد تناهت إلى مسامع فيبيشانا أصوات نواح ونحيب، وأخذ يفكر: "ثمة بطل في خطر. يبدو أن سوغريفا وأنغادا يجهشان بالبكاء أيضاً. لا بد أن أمراً خطيراً قد وقع، وإلا لما كانت القردة كلها تبكي. وإذ ذهب به التفكير هذا المذهب، وتوجس شراً، أسرع ليحسم الشك باليقين. ولكن ما إن اقترب من المكان حتى وجد القردة تفر هاربة. فقد كان شبيهاً بابن أخيه فحسبوه إندراجيت.

صاح سوغريفا: "أنغادا، لماذا تهرب القردة وأنت في مقدمة الصف؟" فرد أنغادا: "يا سيد القردة، حين رأى الزعماء فيبيشانا داخلهم شعور بالخوف فولوا الأدبار هاربين ولحقهم البقية." عندئذ صاح سوغريفا بأتباعه: "علام تطيرون؟ لتنزل الصاعقة على رؤوسكم! إن إندراجيت قد أنجز هجومه علينا، وعاد إلى لانكا، فلم الهرب من فيبيشانا؟ إنكم تتشوقون للعودة إلى أسركم ودياركم، ولكن ذلك لن يجديكم نفعاً! فلسوف تدفنون جميعاً أحياء في قبر واحد في مملكة سوغريفا. إذا كنتم تريدون العودة إلى بلادكم، فلتعودوا إلى مواقعكم." وعاد هؤلاء الذين كانوا يفرون وهم يصرون على أسنانهم كمداً وغيظاً.

جاء فيبيشانا إلى راما ورثاه: "باطل هو المُلك، زائل هو المجد، إن لم أرك يا مولاي! كيف لي أن أستمر في العيش؟ ومن أجلك واجهت الموت. وكيف لي أن أظهر الآن بوجهي؟ أن

أرمي بنفسي في البحر لأهون عليَّ من أن أقف هذا الموقف!" ثم أجهش بالبكاء. وإذ سمع راما هذا قال بأناة وبطء شديد، متحاملاً على نفسه: "لقد ضحيت بكل شيء في سبيلي، أي فيبيشانا، يا صديقي لن أستطيع أن أرد لك دينك. أي صديقي سوغريفا، عد بجيوشك، فأنت في حل من وعدك لي. إنني كما ترى أسير الأفاعي، ومآلي إلى الموت. ومن تراه يموت من أجل الموتى؟ إن القدر يعاكسني فماذا بمقدورك أن تفعل أمامه؟ إنك ملك حديث العهد، فعد لتدير شؤون مملكتك. أعد قادتك وجندك، وتوخ الحذر. مالي أراك مقيماً معي، هيا ارحل! ما كان مقدراً قد تحقق. لقد لحق بي العار لقتلي والد أنغادا! فلتبتهج أيها الأمير أنغادا، ولتذهب يا هانومن إلى آيوديا ولتنقل لهم الأخبار. ولتخبر بهاراتا بكل التفاصيل. وسله أن يهتم بصالح شعبنا، وألا يحيد أبداً عن جادة الحق. وبلغ تحياتي إلى الأم كاوساليا. وأخبر الأم كايكيه أنني كنت آمل بزيارتها ثانية لأقدم لها واجب الاحترام، لولا أن الأقدار شاءت غير هذا. ولتنقل تحياتي كذلك للأم سوميترا... لكشمانا أخي الحبيب الذي تخلى عن راحة العيش في القصور ليرافقني إلى الغابة، تقيده الأفاعي معي الآن." وتنهد راما وتابع كلامه: "وما تزال ابنة جناكا حبيسة في بستان الأشوكا، بينما نحن مقيدان وغير قادرين على الحركة."

قال راما هذا ولم يزد. وتحلق القردة ورؤساؤهم حول الشقيقين وأخذوا ينوحون بصوت عالٍ. وانتاب النجوم المخلدون ضيق وقلق شديد. ونادى ملك السماء إله الريح وقال له: "اذهب إلى راما وقل له أن يركز تفكيره على النسر غارودا، فهو وسيلته إلى الحرية ومخلصه." فمضى إله الريح إلى راما وهمس في أذنه: "تذكر غارودا!" فركز راما كل طاقته العقلية على التفكير بغارودا.

وفي جزيرة كوشا النائية، كان غارودا العظيم قد تناول ثعباناً ضخماً. وراح يستدفئ على شاطئ البحر، وإذ به يشعر بمن يناديه. فلفظ الثعبان، وفرد جناحيه وحلق عالياً في الجو. ولما صفق بجناحيه ثارت عاصفة عاتية تداعت تحت وطأتها الأشجار وتحطمت، وولت الأفاعي الضخمة والزواحف الأدبار هاربة مذعورة إلى جحورها. فقد كان النسر غارودا مصدر رعب

لجميع تلك المخلوقات. بسبب دأبه على اصطياد الأفاعي واختطافها والتهامها حالما يقع بصره عليها. وما إن لمحته أفاعي إندراجيت حتى حلت لفافاتها وانزلقت مبتعدة عن ضحيتيها، وسارعت إلى الهرب بعيداً عن مخالب النسر.

لمس الغارودا الشقيقين بجناحيه لمساً رقيقاً، فإذا بهما يتعافيان، وسرعان ما زالت آثار الجراح، وكأنما كانت اللمسة بلسماً، وعادت القوة والحيوية إليهما، فنهضا وجلسا كعهدهما من قبل. وخاطب راما الطائر قائلاً: "أيها الطائر العظيم، من أنت؟ ومن أين أتيت؟ فلقد أنقذتنا من العذاب والموت."

فأجاب: "إنني النسر غارودا. وقد بلغني أنكما في أسر أفاعي إندراجيت، فهرعت لأفك عنكما الأسر. إن قلبي يحمل لكما أعظم الحب. وإنني واثق بأن النصر سيكون حليفكما في المعركة. فوداعاً الآن إلى أن نلتقي من جديد." قال الطائر العظيم هذا وانطلق محلقاً في السماء.

ابتهجت القردة، وأخذت تطلق صيحات الفرح، وهي ترى راما ولكشمانا قد تخلصا من إسارهما واستعادا عافيتهما من جديد. وترددت أصداء تلك الصيحات في كافة أرجاء لانكا، حتى بلغت القاصي والداني.

قال رافانا وهو يسمع تلك الصيحات والهتافات: "لقد مات راما، فعلام تبتهج القردة، وكأنما هي في عيد؟" وفي تلك اللحظة، جاءه حراس من الراكشا وأخبروه بالنبأ، وأن عمل إندراجيت بطُل كله، وزال سحره، فقد فككت الأفاعي سلاسلها عن راما ولكشمانا. وهما الآن حرين معافيين، كما كانا في سابق عهدهما!

صاح رافانا وقد أخذه النبأ على حين غرة: "ماذا؟ إن هذه لكارثة حقاً!" واستدعى دمراكيا وأرسله ليتحقق من النبأ. فركب عربته واندفع بها كالعاصفة يسابق الريح. وكانت تجرها حيوانات رهيبة أشبه بالقردة، إنما بوجوه الأسود والنمور. ويقال في دمراكيا أنه يجمع بين الشجاعة والحكمة، وعلى ما عرف عنه من قوة الملاحظة، وجد في دربه نذر شؤم

عـديدة . . . رأى النسـور تحط على العلم الذي يرفـرف فـوق عـربتـه. ولكنه تجـاهل تلك العلامات، ومضى بعربته بسرعة، يتبعه الملايين من الراكشا المدججين بالسلاح والدروع، وهم يصيحون وتتصاعد من أفواههم نيران الغضب، فكان منظرهم يثير الخوف في من يراهم. وكانت حراسة الباب الغربي مناطة بهانومن. صر الراكشا على أسنانهم وهجموا على الباب وهم يصرخون: "اقتلوا! اقتلوا! اقتلوا!"

انبرى لهم في البداية القردة الفتيان. فتصدى لهم الراكشا بالأقواس والسهام والرماح والهراوات والأسلحة الأخرى، بينما كان القردة يقاتلون بالأشجار والصخور ويهتفون بالنصر لراما، وهم يقتلعون الأشجار ويلقونها على أعدائهم. وكان هتافهم هذا لا ينقطع يتردد على ألسنتهم، لا يشغلهم عن ترداده انهماكهم بقذف الصخور الثقيلة يحطمون بها جماجم الراكشا. وكان بعضهم يقاتل بكلتا يديه، فيما كان بعضهم الآخر يوجه الركلات واللكمات، ويعمل أسنانه وأظافره في تمزيق أنوف الراكشا وآذانهم. وما كان من دمراكيا عندئذ، إلا أن التفت إلى القردة يطاردهم، ويلوح غاضباً بصولجانه الرهيب مهدداً. وفي لحظة جرد سيفه المقوس، فأنزل بهم مقتلة عظيمة، بينما لاذ من نجا منهم بالفرار.

تقدم هانومن للتصدي للعدو، وشرع يستفزه بالسباب والشتائم، وصاح بدمراكيا: "أيها السافل، ما اسمك؟ هيا تعال ونازلني!" ورد عليه دمراكيا: "إن كنت سأشرب دمك، فما حاجتي لدماء أخرى!" وقذفه هانومن بصخرة من جبل عالٍ، فأصاب العربة وحطمها. لكن دمراكيا تفادى الضربة بالقفز من العربة، فنجا من موت محقق، إنما لحين. ولقد ظل يقاتل خصمه بضراوة بهراوته الحديدية الرهيبة. لكنه لم يكن نداً لهانومن إذ سرعان ما طرحه هانومن أرضاً وكسر جمجمته، وما زال ينزل به ضرباً وتحطيماً حتى مزق جسده الهائل إرباً إرباً. وهكذا تم القضاء على دمراكيا الجبار، بين هتاف القردة بالنصر لراما. وأسرع الرسل يحملون إلى رافانا أنباء هذه الهزيمة الجديدة.

كان بين أبطال الراكشا من عرف باسم "الجلمود" لثباته في وجه الأهوال. وهذا ما حمل رافانا على أن يرسل في طلبه. فلما مثل أمامه، قال له يعده بالمجد العظيم: "إن بمقدورك

الفوز بالعوالم الثلاثة في يوم واحد، إن ربطت حبلاً حول عنق راما ولكشمانا وجررتهما وأحضرتهما إلينا، أيها المقاتل العظيم. فهل ثمة من يستطيع منازلتك؟" واسترسل رافانا يغريه ويستميله بمعسول الكلام حتى استجاب له، فأرسله إلى ساحة القتال في عربة عز نظيرها جمالاً وفخامة، تجرها الجياد المطهمة، ومن ورائه جيش جرار من الراكشا المدججين بالسلاح.

ولما تهيأ الراكشا المقدام لمغادرة لانكا، لاحظ ارتجاف يديه وقدميه، وهذا ما لا عهد له به في الماضي. ورأى في ذلك نذير شؤم، لكنه مضى وتابع طريقه بكل زهو وخيلاء. وفجأة انقض نسر على العلم الذي كان يرفرف فوق عربته. فذعرت خيوله وتعثرت وكبت، فالتفت إليها وشرع يعالجها حتى وقفت ثانية، ومضى من ثم فشن هجوماً شديداً على حشود القردة عند الباب الغربي. ودارت معركة ضارية بين الطرفين، وثار الغبار ولف ساحة المعركة حتى حجب الشمس وساد الظلام، فلم يعد بإمكان أحد أن يتبين الصديق من العدو، وراحت الراكشا تقاتل الراكشا، والقردة يقاتلون بعضهم بعضاً بلا تمييز. وسالت الدماء كالنهر الجاري وصبغت الأرض بلون أحمر قان.

ولقد أبلى قادة القردة وأمراء جندهم وأتباعهم بلاء حسناً، لكنهم أجبروا في النهاية على الفرار من أرض المعركة. وتعالت قهقهات "الجلمود" وهو يلوح بقوسه ويتابع مشهد فرار قائد القردة نيلا، ويرى نالا الذي اظهر براعة نادرة في بناء الجسر وقد أصيبت عيناه. لكن سرعان ما ظهر هانومن أمامه، وصاح به منددا: "أين المفر، أيها الوغد؟ أتحسب أنك حققت نصراً حين هزمت أتباعي؟ إن دون ذلك لأهوال. وستلقى الردى على يدي!" ودار القتال بينهما واشتد، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ سقط هانومن مغشياً عليه وقد اخترقت جسده سهام العدو، ثم عاد ونهض من جديد، ورمى خصمه بشجرة سال ضخمة اقتلعها من جذورها بذراعيه الجبارتين. لكنه لم يوفق في هذه الرمية، فقد أصابت سهام خصمه الشجرة وحطمتها وجعلتها شذراً مذراً. ففكر بان ياتي باسلوب جديد مبتكر لا يملك له العدو رداً. فقفز فجأة وحط فوق عربة عدوه. وأمسك القرد العظيم بشعر خصمه وشده

حتى اقتلعه من مكانه ورماه أرضاً فتحطمت عظامه وسحقت جمجمته بتأثير الصدمة. فهتفت القردة: "النصر لراما!" وعاد رسل رافانا إليه وأخبروه بنبأ مقتل "الجلمود".

انتاب رافانا شعور قوي بالقلق لم يستطع أن يدفعه عن خاطره. وأخذ يقدح زناد الفكر، وتحقق أنه يواجه وضعاً دقيقاً حرجاً، وهداه الفكر أن يخرج للعدو بنفسه، إنما بعد أن يختبر فعل "الراعد". وللتو استدعى رافانا هذا الراكشا الجبار، ولما مثل بين يديه، أخذ يحدثه بود ولباقة ليستميله إليه: "إن لك، أيها "الراعد"، باعاً طويلاً في فنون القتال والحرب، وليس هناك في هذا العالم من يعادلك علماً ومعرفة. ولو وقفت والقوس في يدك، ما وجدت من يجرؤ، حتى إندرا ذاته، على مواجهتك. وإن تمكنت ذات يوم من هزيمة ملوك السماء فبمساعدتك. ولقد أرحتك ردحاً من الزمن، وكنت أدخرك لهذا اليوم. فامض مع جنودي واقض على راما ولكشمانا، وهما كما تعلم، عدوان لنا، فعليك بهما!"

حيا "الراعد" رافانا، وأجاب: "إني ذاهب، أيها الملك العظيم، إلى ساحة الحرب كما أمرت. ولسوف آتيك بخبر هذين الرجلين، وسوغريفا، وابن الريح، وجميع قادة القردة كذلك. وليدم عزك، ولتهنأ مع سيتا في قصرك العامر." وانصرف ليجهز نفسه للحرب، وتحرى أن يرتدي اللباس المناسب، ولف مجموعة من التعاويذ حول ذراعيه لترد عنه الشرور وتقيه من الأعداء. ثم ارتدى درعاً، ووضع على رأسه خوذة من الذهب، وحمل جعبة مليئة بالسهام الفتاكة. وحالما جمع أسلحته، ركب عربته التي تقودها الجياد المطهمة وتبعه مليوناً من رماة السهام ومليونين من جنود الراكشا مدججين بأنواع مختلفة من السلاح، على ظهور الخيل والعربات. ورافقتهم فيلة شرسة حسبها أن ترى إيماءة حتى تندفع لتسحق بأقدامها من تصادفه في طريقها.

توجه "الراعد" إلى المعركة ترافقه أصوات الأبواق والصناجات. ولقد واجهته في طريقه نذر شؤم عديدة، إذ مخر شهاب كبد السماء، وأخرجت بنات آوى لهيباً من جوفها وأصدرت عويلاً رهيباً، بينما انهمرت الدموع من أعين الجياد. ومع أن هذه كانت نذراً مؤكدة ولم يفت "الراعد" ملاحظتها. إلا أنه بجسارته وجرأته لم يقم لها عظيم اعتبار، بل

التفت إلى جنده وخاطبهم متفاخراً مزهواً: "لا تعيروا، أيها البواسل، مثل هذه الإشارات اهتمامكم. فقد قيل إن من نذر الشر ما يعقبه خير. فلتروا بأعينكم ما يمكن لنذر الشر هذه أن تقوم به! إنني بذراعي القويتين هاتين لقادر على تدمير جميع الشرور. ولسوف ترون مقدار بأسي حين أقضي على جميع أعداء الملك، وتخترق سهامي أجسام القردة، وترون سوغريفا ومعه جميع أتباعه يقتلون بيدي، أما راما ولكشمانا فسيكون لحمهما طعاماً لي. ولقد وصفت بالراعد، ولكل امرئ من اسمه نصيب، وإن لأسناني القاطعة الماضية صوت كالرعد، ولسوف أقطع لحمهم بأسناني وأسحق عظامهم بأضراسي. فانزعوا عنكم الشعور بالخوف، واتبعوني! ولنتقدم إلى ساحة المعركة ونقضي على أعدائنا سريعاً، فالخير في استعجال الخير. ومتى أنجزنا مهمتنا عدنا إلى ديارنا." وكان الراعد يخطب في جنده وكأنما هو الرعد يدوي في ليلة شتاء مظلمة، ثم سار بالجند بعد هذا وسرعان ما وصلوا إلى الباب الشمالي.

كان سوغريفا قد قبع ينتظر قدوم الأعداء، وأعد لهم عدته من الأشجار التي اقتلعها من جذورها، وكمية هائلة من الصخور والجلاميد. وفجأة انهمرت عليهم سهام جند الراكشا، كما ينهمر المطر... ورد عليهم جيش القردة، ودارت بين هؤلاء وأولئك معركة طويلة ضارية، أبلى فيها سوغريفا بلاء حسناً، وكان يقذف بالأشجار الضخمة فتتحطم فوق رؤوس أعدائه، فقتل وجرح أعداداً كبيرة منهم، وحطم عربة الراعد بلمح البصر. ولقد دافع الراعد عن مواقعه دفاع الأبطال، وقاتل بصولجانه وهراواته، لكن ملك القردة كان أسرع منه، واستطاع أن يباغت الراعد بضربة من صخرة هائلة، أطاحت به فسقط مترنحاً. وتدفق الدم من فمه بغزارة، وعاجله سوغريفا بصخرة أخرى أردته قتيلاً. فولى أتباعه هاربين مذعورين. وذهب سوغريفا يزف البشرى لراما، فأثنى راما عليه وأشاد ببأسه وعزيمته وضمه إلى صدره معانقاً صديقه المغوار.

كان للحدث أشد الوقع على رافانا. فاضطربت نفسه اضطراباً شديداً. فلقد سقط أشجع الشجعان. وبات عليه عندئذ أن يتدبر الخطوة التالية. فتذكر عمه براهاستا، وأرسل في

طلبه، ولما حضر شرع يخاطبه بمعسول الكلام: "أي عماه، إن لك أعلى مكانة وأسمى مقام في لانكا كلها. وأنت عمنا وكبيرنا. ولديك ثلاثة ملايين جندي يأتمرون بامرك. انت وأنا ونيكومبا وكومبكارنا وإندراجيت أكثر قومنا خبرة ودراية بفنون الحرب والقتال. لقد خضت الكثير من المعارك، ولديك خبرة طويلة، وإنك الأقدر بيننا على تفادي الأسوأ. فناشدتك أن تمضي وتأتي إلينا براما ولكشمانا مكبلين بالقيود والأصفاد، وأنت تجرهما بالحبل الملتف حول عنقيهما."

ضحك براهاستا وهو يقول: "لسوف أقضي على راما ولكشمانا هذا اليوم. فلم أرسلت الآخرين وأنا هنا؟ لقد سبق وأخبرتك أنه يجب ألا نتخلى عن سيتا. وأننا سوف نقاتل ولن نستسلم أو نرضخ أبداً. وساخلص الأرض من القردة، وأقضي على راما قضاء مبرماً."

أجاب رافانا: "عماه، إن شجاعتك مشهودة. فلتتقلد حلينا ومجوهراتنا الملكية. وستكون كلها لك إن عدت من المعركة ظافراً."

توجه براهاستا ومعه جنده إلى ساحة المعركة يقودهم أربعة من أبطال الراكشا المشهود لهم بالبأس والشجاعة. وطمأن براهاستا جنده بأن موت راما ولكشمانا محقق. وحومت النسور أسراباً حتى حجبت السماء. وثارت عواصف من الغبار تحت وقع أقدام جيوش براهاستا الجرارة، فحلت العتمة والظلام. وراح الجند يهتفون: "اقتل! اقتل! اقتل!" وهم يتقدمون باتجاه الباب الشرقي. واندفع الراكشا الأربعة رافعين أقواسهم يطلبون القتال. وكان منظرهم رهيباً مما أثار الذعر في القردة فولوا هاربين لدى اقترابهم. ارتفع الصخب والضجيج الذي أثاره هذا الجيش الجرار حتى بلغ الأبواب الثلاثة الأخرى. فهرع ماهيندرا ودافيندرا، ومعهما أنغادا وهانومن ليقدموا العون لنيلا عند الباب الشرقي. وتمكنوا من زعماء الراكشا وجردوهم من أقواسهم وسهامهم وكسروها على ركبهم. وشد أنغادا حزامه وزأر كالأسد، ثم سدد ركلة إلى أحد قواد الراكشا فأرداه قتيلاً في التو واللحظة. وتمكن هانومن من قائد آخر وضمه إلى صدره فمنعه عن الحركة وأسره. وقال هانومن لأسيره بصوت عذب: "لتكن صديقي أيها الراكشا، ولنتقاتل مرة أخرى لنعرف أي منا الأقوى." فقال الراكشا المذعور

متلعثماً: "لست أدري كيف أقاتل صديقاً." وزأر هانومن : "لا تأمل بأن أبقي على حياتك، وأي صداقة يمكن أن تربطني بأحد الراكشا؟ ولسوف أقضي عليك الآن دونما إبطاء!" ثم بادر الراكشا بضربة من قبضته الضخمة فتحطمت جمجمته وانسحقت.

ولما شاهد الثالث رفيقيه يسقطان، اندفع إلى الأمام كالعاصفة، فتصدى له ولدا سوشينا، ماهيندرا ودافيندرا، غاضبين، وقذفا عربته بأشجار السال العملاقة فتحطمت، ولقي راكبها حتفه. فخرج إليهما عندئذ رابع الراكشا العظام ومعه جيش من الرماة وأمطرهما بأسهم قاطعة. ولكن الأخوين تحاملا على جراحهما، ودفعا بكومة هائلة من الصخور والأشجار، وأخذا يرميان بها العدو. واستمر القتال طويلاً وضارياً، لكن مصير القائد الرابع لم يكن ليختلف عن مصير رفاقه الثلاثة الآخرين.

ما إن شاهد براهاستا سقوط القواد الذين وقع اختياره عليهم، حتى خرج للقتال بنفسه. وكان منظره رهيباً لدرجة أن العديد من القردة ولوا الأدبار هاربين لدى اقترابه، لكنه في النهاية مني بالهزيمة على يد نيلا حين دحرج عليه قمة جبل فأرداه قتيلاً على الفور.

انتاب رافانا ضيق شديد حين بلغه نبأ مصرع براهاستا. ولم يتمالك نفسه فصاح: "الموت للبشر والقردة! لقد سقط القادة الذين كانوا درة مملكتي. فمن لي بعدهم، وقد ماتوا؟ إن هذا لأمر عظيم، وسوف أباشر القتال بنفسي، فليلحق بي كل من يستطيع حمل قوس من الراكشا، كبيرهم وصغيرهم." وقام عندئذ بحشد ستة وثلاثين مليوناً من الراكشا، وتهيأ للمعركة. وقدم إليه جميع أقاربه وأصدقائه، وقد زينوا أنفسهم بالحلي والجوهرات، وارتدوا الأثواب البهية، ومسحوا أجسامهم بالزيوت المعطرة.

حمل رافانا أقواسه العشرة المرصعة بأندر الأحجار الكريمة. وكانت أقراطه تلمع كالشمس. كذلك زين سائسه عربته الذهبية بالجوهرات وكانت عجلاتها مرصعة بالماس. وفي مقدمة العربة رفرف علم من الحرير مثبت على حامل مرصع بالجوهرات. واستقل رافانا عربته وهو مجهز بمختلف أنواع الأسلحة من سيوف ورماح وهراوات وصولجانات.. وحالما

شاهده إله الريح وقد نظم جنده في كتائب وأفواج استعداداً للمعركة، أثار من هلعه نسيماً لطيفاً، وحجبت الشمس أشعتها، فوجلت الآلهة في السماء واضطربت. ولقد سار خلف رافانا كل من وجد في نفسه القدرة على حمل القوس، وأخذ الجنود يرددون صيحات الحماس الحربية، على أنغام أوتار أقواسهم. وانتصب رافانا واقفاً في عربته يتفقد قواته.

سال راما: "من هو ذلك المتالق الذي نراه واقفاً متباهياً في عربته؟"

فأجابه فيبيشانا: "إنه صاحب الرؤوس العشرة، قد وصل ساحة القتال، إنه شقيقي رافانا الذي غزا العوالم الثلاثة. لقد كانت الآلهة راضية عن أخينا الأكبر كوفيرا فأهدته عربة من صنع براهما، وهي عربة عجيبة تستطيع ان تبدل شكلها، فغنمها رافانا منه في منازعة كانت بينهما. وها هو ذا أتى بها إلى المعركة. إنها تلمع ببريق مليون حجر كريم. انظر إليها، أي راما، تتلألأ بالأحجار الكريمة. وها هو ذا رافانا وعلى رؤوسه عشرة أحجار كريمة تبهر الناظر بتلألئها."

ضحك راما، وقال: "قد تبينت الآن صاحب الرؤوس العشرة، ويبدو أنه الأنسب ليكون سيد لانكا. لكن لماذا يمتلئ عقله بالأفكار الشريرة؟ وما الذي يحمله على اختطاف زوج سواه؟ لقد اصبح سيد لانكا ببركة براهما، لكنه لا يفهم تصاريف الآلهة، وها أنا ذا هنا الأداة لموته، ولسوف يلقى حتفه وأسرته على يدي."

وسال لكشمانا: "هل هذا هو الملك رافانا؟ ومن هم هؤلاء الذين بصحبته؟" فاشار فيبيشانا: "ذاك هو إندراجيت، إلى يمين الملك، ذو البشرة السمراء كالنحاس، إنه الذي قيدكما بسلاح الأفعى الملتفة."

غضب الملك سوغريفا لدى رؤيته رافانا، ومضى وجاء بصخرة هائلة، وأخذ يطوح بها فوق رأسه، ثم أرسلها مع صيحة مدوية، نحو ملك الراكشا. فرد عليه رافانا غاضباً بعشرة سهام. فأصبحت الصخرة فتاتاً، ثم أطلق سهاماً أخرى متلاحقة، وكلها تستهدف صدر سوغريفا. فتمايل القرد العملاق، وابتعد عن مرمى العدو.

رفع راما الغاضب الثائر قوسه وكاد أن يسدد سهمه، لولا أن اعترضه لكشمانا، متوسلاً إليه: "ابق هنا، يا سيدي، ولسوف تجدني أقضي على ذي الرؤوس العشرة هذا في طرفة عين." فرد عليه راما: "حذار منه! فرافانا محارب مجرب، وقد غزا العوالم الثلاثة. إن في منازلته لجرأة عظيمة." لكن لكشمانا أعرض عن النصيحة. فتدخل هانومن، قائلاً: "قف جانباً، أي لكشمانا، واستمتع بما سوف ترى! فإن استطاع النجاة مني، توليت أنت أمره!" قال هانومن هذا، ثم أصبح فوق عربة رافانا بقفزة واحدة، وانتزع من السائس سوطه.

صاح هانومن يستفز رافانا: "أيها الوغد، لقد تمكنت من الانتصار على العفاريت والصالحين بفضل بركة براهما، لكن هاك قرداً ستكون نهاية أمرك على يديه. انظر إلى رأسي يناطح قمة جبل سوميرو، وقدمي اللتين تشبهان جبل كيلاسا العظيم! وهذان هما ساعداي القويان، وأصابعي كالأفاعي، وأظافري البراقة المخيفة، ولسوف أرسلك إلى حتفك بضربة واحدة." ورد عليه رافانا بضحكة عالية، قائلاً: "هكذا إذن! إنك الآن بين يدي، فأين المفر؟"

ضحك هانومن في ذات نفسه، وقال له: "أنسيت ما نالك مني في الجولة الماضية؟ لقد آلمني مقتل الأمير أكشايا، وهذا الألم نفذ إلى قلبك أنت أيضاً. أليس كذلك؟" وأعقب كلامه بتوجيه صفعة قوية إلى رافانا فلم يتمالك نفسه فترنح وهوى. لكنه سرعان ما استعاد وعيه، فنهض وهو يصيح: "يبدو أنك، أيها القرد، على قدر من القوة، حتى ترنحت بتأثير ضربتك."

ورد هانومن بلهجة الآسف: "وما قيمة شجاعتي، وأنت ما تزال حياً بعدما ضربتك؟ أيها المنحط، لقد ضربتك، أمام الجميع، وأنت في عربتك، أما في هذا ما يكفي من الإهانة؟"

وفي ثورة من الغضب، وجه الملك رافانا لكمة قوية إلى صدر هانومن، فسقط القرد العظيم عن العربة وراح يتلوى من شدة الألم. والتفت رافانا الآن إلى القائد نيلا. لكن سرعان ما نهض هانومن وعاد منتصباً ليعاود القتال من جديد، وصاح قائلاً: "حذار يا

رافانا! أهذا هو مبلغ بسالتك؟ كنت تنازلني فإذا بك الآن تهاجم سواي؟" لكن رافانا لم يعر كلامه اهتماماً، والتفت يمطر نيلا بوابل من سهامه الحادة، فأثخنه بالجراح، واصبح القائد الهمام غارقاً ببحر من دمائه. عندئذ، لم يجد نيلا مخرجاً إلا أن يلجأ إلى الدهاء ومخادعة عدوه. كان قوي البنية ضخماً، لكنه بفضل قواه السحرية تحول إلى نمس صغير، ووثب إلى عربة رافانا. فاستقبله بسهم مباغت، فوثب نيلا وحاد عنه وأمسك بعلم العربة. وما إن رفع رافانا بصره، حتى قفز نيلا وحط على رأسه. فرفع رافانا يديه ليمسك بعدوه، لكن النمس الصغير راوغه من جديد وأصبح فوق تاجه. وكان على رؤوس رافانا العشرة الضخمة تيجان عشرة تتلألأ ببريق أخاذ، فأخذ نيلا يرقص فوقها متنقلاً من تاج إلى آخر كالطائر، مستفزاً الملك رافانا، مستثيراً غضبه، وهو لا ينقطع عن محاولة الإمساك به. بل كاد أن يمسك به في لحظة، لولا أن نيلا أفلت منه بقدراته السحرية. وبلغ الغضب برافانا في النهاية، مبلغه فأخذ يوجه ضرباته إلى تيجانه، وزاد من ضيق سيد لانكا، وقد طغى عليه الهياج، أنه بات يقاتل عدواً لا يراه، وهو الذي لم يستطع أن ينال منه حين كان بادياً له. فازداد نيلا جرأة عليه، وحط على العربة، ثم عاد ليقفز فوق رؤوس رافانا من جديد، ويتابع مضايقته، وفي لحظة غفلة التقط رافانا ظل نيلا فرماه بسهم، وبطل عندئذ السحر وهوى نيلا على الأرض. وشاء حسن حظه أن ينجو بحياته.

تقدم لكشمانا الآن يطلب المنازلة. وهو يصيح: "لنر مبلغ شجاعتك الآن، يا رافانا، فهيا تقدم ونازلني." فرد رافانا مقهقهاً، ساخراً: "هيا طر إلى ديارك وانج بحياتك أيها المتنسك، فلا قبل لك بهذه المعمعة."

كان كلاهما قوياً وشجاعاً، وأبلى أحسن البلاء في مقاتلة خصمه. وأطلق رافانا مئتي سهم، ثم رآها تسقط وتتكسر على يد لكشمانا، فاضطرب لهذا المشهد. وعاد من جديد يطلق السهام متوالية، فبلغت هذه المرة الثلاثمئة، وجميعها تستهدف صدر لكشمانا، فأثخنته بالجراح، وأخذ بصره يضعف، وقبضته ترتخي، وتحامل لكشمانا على نفسه وجهد أشد الجهد حتى أمكن له أن يصوب سهماً بعد عناء ويطلقه، وإذ بقوس رافانا يسقط من

بين يديه ويتحطم. وأخذت القردة تضحك. وبسرعة البرق التقط رافانا قوساً آخر وأمطر لكشمانا بوابل من سهامه. نقر لكشمانا وتر قوسه غاضباً وشطر جميع خيول عربة رافانا إلى نصفين، ثم حطم رأس سائسها. وفي السماء كان المخلدون يضحكون.

وما هي إلا لحظة حتى وصلت عربة أخرى، فوثب إليها رافانا وتابع القتال. ودارت بينهما معركة ضارية وقاسية. وكل منهما يقاتل بكل ما أوتي من بأس ومهارة ودهاء. وأنارت القذائف النارية التي ما انقطع المتحاربان يتراشقان بها السماء. فكان مشهداً يثير الرعب في النفوس، وكان لأصواتها دوي شديد تهلع له القلوب. وراح الطرفان يتبادلان قذف أسلحتهما فتلمع وتبرق ثم تأتي على كل ما تقع عليه. وبدا النهار معتماً أمام لمعان القذائف المتطايرة. وبرقت سهام لكشمانا كالنجوم حين طارت لتدمر أسلحة رافانا. واصابت إحدى القذائف صدر رافانا فتذكر رمحه السحري فامسك به وأخذ يتمتم ببضع كلمات سحرية، وقذفه نحو لكشمانا، وهو يصرخ صرخة مدوية تهلع لها القلوب. وسرى الرعب، عندئذ، في الأرض والسماء والعالم السفلي. وأطلق لكشمانا سهامه على الرمح لكنها تكسرت حين لامسته. وبسرعة العاصفة صدم الرمح لكشمانا الشجاع وطرحه أرضاً فاقداً الوعي. ثم ارتد عائداً إلى يد رافانا. وبكلتا يديه امسك رافانا بلكشمانا الفاقد الوعي وحاول أن يسحبه إلى داخل عربته ليحمله معه إلى لانكا. لكن جسد لكشمانا أصبح ثقيلاً جداً، فعجز ذو الرؤوس العشرة عن حمله. وتساءل رافانا في خلده: "كيف يمكن للناسك الماكر أن يكون ثقيلاً إلى هذا الحد؟ لقد رفعت ماندارا في جبال الهيمالايا، فهل يكون هذا الإنسان التافه أثقل من جبل؟ ها أنا ذا القادر على حمل جبل كيلاسا بيدي اليسرى وحدها، أعجز الآن بقوتي وجبروتي عن تحريك لكشمانا. إن هذا لإهانة حقاً يندى لها الجبين عاراً!"

وقف هانومن متخفياً، يتحين الفرص لمباغتة رافانا، ولما لاحت له الفرصة اندفع موجهاً إلى رافانا ضربة مدوية أدارت رأسه فهوى في عربته، ثم وثب فجأة وولى هارباً. فرفع هانومن لكشمانا بيديه. ذلك أن لكشمانا الذي كان ثقيلاً جداً لا يمكن تحريكه بيد العدو، أصبح

خفيفاً كالقطن حين لامسته الأيدي المحبة، ومضى به إلى راما. وبصلاة صامتة أعاد راما لكشمانا إلى الحياة ثانية.

عاد رافانا في عربته إلى ساحة المعركة وتهيأ راما لمواجهته، وقد حمل القوس بيده، استعداداً لدخول المعركة، فاعترضه هانومن وأخذ يناشده: "كيف تقاتل وأنت راجل؟ بينما رافانا يقاتل راكباً عربته، ويستمر في القتال دون كلل أو ملل. فامتط ظهري، يا سيد آل راغو، ولسوف أمكنك من رافانا حتى تقضي عليه!" وكان أن علا راما ظهر هانومن الذي اندفع نحو رافانا لا يلوي على شيء.

صاح راما برافانا: "سوف أنتقم الآن لما كان منك وما سببته لي من معاناة. وسأقطع رؤوسك العشرة المزينة بالحلي كلها، ولن يستطيع أحد أن ينقذك من بين يدي!" فصمت رافانا ولم ينبس ببنت شفة، فقد أثار حفيظته أن يجد هانومن قريباً منه. وتذكر مقتل الأمير أكشايا، وإحراق مدينة لانكا الجميلة على يد هذا القرد. وأثارت هذه الذكريات في نفسه مشاعر المرارة والتصميم على ألا يدعه يفلت من بين يديه، حتى يقضي عليه. واعتقد أنه سيتمكن منه وهو يحمل راما على ظهره. ومد رافانا يده وسحب من جعبته السهام وبدأ يطلقها على هانومن. فتأجج الغضب في قلبه وبدأ جسمه يتضخم فاصبح عرضه عشرة يوجنات، وطوله ثلاثين يوجنا. أما ذيله فاخذ يزداد طولاً حتى بلغ خمسين يوجنا. ورفع ذيله حتى كاد أن يلامس السماء. وشعر رافانا بالرهبة لرؤيته الذيل، وخشي أن يلتف حوله، وقد تذكر كيف كان مقيداً بإحكام بذيل الملك فالي.

أطلق رافانا سهامه ذات الرؤوس المشتعلة، لكن راما ردها جميعها. ثم قذف راما أحد أسلحته السماوية نحو صدر رافانا فأغمي عليه. لكنه سرعان ما استعاد وعيه. فصاح راما: "إن سهامي قد أفقدتك الوعي. وليس من شيمي قتل العاجز المريض. ولذلك سوف أبقي عليك اليوم. فأنا سيد آل راغو، وليس من شيمي أن أقتل العدو في اليوم الأول للحرب. ثم إن المعركة تصبح منتهية إذا ما قضيت عليك الآن. وإن لك الكثير من الأصدقاء والأقرباء، وعدداً لا يحصى من الأبناء والأحفاد، وهؤلاء سينجون من الموت. وهذا ما لا أسمح به. إذ

يجب أن يفنوا جميعاً. ولسوف تكون أنت آخر من أقتله. وأنصب فيبيشانا على عرشك."

قال راما هذا على مسمع من الجميع. ورفع عالياً سلاحاً على شكل قرص، فبدا ساطعاً يخطف الأبصار، وهو يطير إلى هدفه، مضيئاً ساحة المعركة، وبصوته الهادر تهاوت التيجان العشرة التي تجلل رؤوس رافانا العشرة الرهيبة وأصبحت حطاماً على الأرض. وأمر ملك الراكشا سائس عربته بالعودة إلى لانكا بأقصى سرعة. وأخذت القردة تصيح عندئذ: "أمسكوه! أمسكوا به!" وهو يولي الأدبار فراراً من ساحة القتال.

لما وصل رافانا إلى لانكا، جلس على عرشه، مطرقاً برأسه، محدثاً نفسه بما جرى، مستذكراً هروبه المشين من ساحة المعركة: "لقد أدركت الآن الشرك الذي حاكته لي الآلهة... وما كان نانديي قد قاله منذ زمن بعيد على وشك أن يتحقق. وعلى جبل كيلاسا، كان نانديي يحرس بوابات شيفا ودورغا. فتوسلت إليه يومذاك أن يأذن لي بالدخول، لكنه رفض. فسخرت من وجهه القبيح فرد علي غاضباً وأنزل بي لعنته: "إنني خادم شيفا أيها الراكشا الشرير فكيف لك أن تسخر مني؟ هل يبدو وجهي كالقرد؟ وما المضحك فيه؟ اعلم، إذن، أن هذا الوجه سيحمل إليك الدمار ولشعبك الخراب!"... ولقد عكفت على رياضة النفس، وكفرت عما ارتكبته من خطايا وأقمت صلوات عديدة لأرضي براهما وأنال نعمة الخلود، لكنه أمسك عني هذه النعمة. وكان الوعد الوحيد الذي قطعه لي "إنك ستكون نداً للكائنات السماوية، ولن تخشاهم، بل سيكون بمقدورك أن تقهرهم جميعاً.." ولم أكن أرهب البشر والقردة، فهم عندي طعام للالتهام، فكيف لي أن أعلم بأنه ما من سبيل إلى قهرهم؟ كذلك قال لي براهما: "إذا ما قطعت رؤوسك، فلن تموت. ذلك أن رؤوساً أخرى سوف تحل محلها. إنك في مأمن من الكائنات السماوية والعفاريت، أما بني البشر والقردة فسوف يقضون عليك وعلى جميع أهلك." إن نبوءة براهما لا بد أن تتحقق! لقد لحق بي العار وتم إذلالي. وها أنذا أحترق من سهام أطلقها مجرد إنسان! وإذا ما حاقت بي الهزيمة، أنا الملك، فما الرجاء لغيري؟"

أخذ رافانا يقلب الأمور على مختلف وجوهها ويحاول تدبر الخطوة التالية التي يجب

القيام بها... ثم تذكر في تلك اللحظة شقيقه الأصغر كومبكارنا العملاق، الذي دأب على النوم شهوراً ستة ثم يستيقظ يوماً واحداً في السنة. وها قد مضت خمسة أشهر، ولم يبق سوى شهر واحد ليستيقظ. لكن إذا ما ضاعت لانكا الآن، فما الذي بإمكان كومبكارنا أن يفعله فيما بعد؟ وقرر رافانا إيقاظ أخيه من سباته لينقذ مملكته مهما تكلف بعدئذ!

صاح رافانا برجال حاشيته وجنده قائلاً: "اذهبوا، وأيقظوا كومبكارنا ولا تالوا جهداً في إيقاظه. لكن التمسوا الحذر، وإلا قام وأزهق أرواحكم!" فهرع أعوانه إلى تنفيذ الأمر! فمضوا إلى دار كومبكارنا بسرعة ومعهم قطعان من العجول والأيائل والأغنام والماعز ودنان خمر لا عد لها ولا حصر وسلالاً من الأزهار العطرة.

وفي قصر ذهبي منيف، قبابه من الذهب، وترفرف فوقها أعلام من الحرير، كان كومبكارنا يرقد، على سرير مرصع بالجواهر. ولقد بلغ طول غرفته ثلاثين يوجنا وعرضها عشر يوجنات. ولها أربعة أبواب ضخمة ونوافذ كثيرة. كان كومبكارنا مستغرقاً في نومه، وتتصاعد أنفاسه كالريح الهوجاء. وما إن بلغ الراكشا الباب، حتى وجدوا أنفسهم يندفعون بعنف إلى داخل الغرفة وخارجها حسب تردد أنفاسه. حتى أن بعضهم أصبح داخل أنفه في أثناء شهيق العملاق النائم.

تداول الراكشا في الأمر، ثم تدبروا بكثير من الحذر والمكر أن يتسللوا إلى الداخل من زاوية مناسبة. وتمطى كومبكارنا وتثاءب فكان فمه مثل كهف مرعب. ثم عاد رسل رافانا يتساءلون كيف السبيل إلى إيقاظه؟ فقام المئات من الراكشا بقرع المئات من الطبول بجانبه. وصبوا أباريق من ماء خشب الصندل على صدره، ولكن عبثاً؛ فما كان من شأن البرودة إلا أن تزيده استغراقاً في النوم. كذلك لم يجد النفخ في آلاف المحارات قرب أذنيه، فظل يواصل شخيره الذي كان يزداد ارتفاعاً. وكانت أصوات الصفير المدوي المنبعث من المحارات، والجلبة التي يحدثها شخيره تتداخل ببعضها البعض، فتحدث ضجيجاً قوياً أوقع الرعب في نفوس سكان لانكا. ثم لجأ القوم إلى حيلة جديدة بأن أقحموا في أنفه قطعاناً من الماشية، فما أجدى ذلك، ولم تقو البهائم على البقاء هناك دقيقة واحدة، إذ سرعان ما

قذف بهم هواء الزفير في كل اتجاه. وإذ أخفقت جميع محاولاتهم لإيقاظ النائم، سارعوا لإبلاغ رافانا بفشلهم. لكنه أعادهم على الفور ليستأنفوا العمل على إيقاظه، وأوصاهم بضربه إلى أن يستيقظ. وكان أن أحاطوا به من كل طرف، وشرعوا يضربون شقيق ملكهم، وأخذوا يرمون على صدره الأشجار والصخور. واستخدم العديد منهم الهراوات والرماح وأسنانهم وأظافرهم. لكن كومبكارنا ظل على حاله لا يؤثر فيه شيء، واستمر في نومه، متقلباً على فراشه.

قال أعوان رافانا، وقد نال منهم اليأس: "عبثاً نحاول إيقاظه. فلنجلب دنان الخمر واللحوم المطهية عله يصحو حين تبلغ روائح الطعام والشراب أنفه!" وكان هذا ما حصل، ويا للعجب! فلقد فتح النائم عينيه وتثاءب بصوت عال يوقع الرهبة بالشمس والقمر، وأخذ العملاق يقلب النظر في كل ما حوله، ثم جلس منتصباً في فراشه، وصرخ غاضباً: "لم هذا الإيقاظ المبكر؟"

أسرع الراكشا إلى رافانا وقالوا له وهم يلهثون: "إليك البشرى، أي ملك لانكا، فقد استيقظ كومبكارنا!" فقال لهم: "أخبروه أني أود أن أراه، فليحضر إلي." وحمل الرسل رغبة الملك، فهب كومبكارنا من فراشه وغسل عينيه من أثر النوم. ووضعت أمامه أكوام من الطعام لفطوره وشرب دناناً من النبيذ وتناول كميات كبيرة من اللحوم، وقال: "إني أعلم، لماذا أيقظتموني. لا بد أنه ذلك الوغد إندرا قد هاجمنا من جديد. ألا يخجل من نفسه، لقد مني بالهزيمة مرات عديدة، ومع ذلك يتجرأ ويعود إلينا؟ سوف يلقى حتفه بيدي هاتين، وسأبتلعه بلقمة واحدة!" قال أحد الراكشا وهو يضم راحتيه بالتحية: "ناشدتك أن تترفق بإندرا، يا سيدي، فالبشر والقردة هم الذين سببوا الكارثة. فقد استطاع راما بمعونة ملك القردة سوغريفا، أن يجمع قبائل القردة في جيوش جرارة. وبنى جسراً فوق البحر، فعبروه ووصلت جحافلهم إلى لانكا وهم يطوقونها الآن فهل تحتمل لانكا هذا الإذلال، وأنت منا وبيننا؟ وحسبك أن تعلم أن البشر والقردة ينشرون الدمار والخراب الآن. وملك لانكا ورعاياه يتطلعون إليك لتثأر لهم. ولهذا يرغب الملك في رؤيتك."

قال كومبكارنا: "دعوني أكسب المعركة أولاً، ثم أقابل أخي ذا الرؤوس العشرة." ومضى يستعد للمسير إلى ساحة القتال. فقال له أحد المستشارين: "كيف تتوجه إلى ساحة المعركة دون أن يأذن لك الملك؟ وكيف لنا أن نقاتل دون أمر منه؟" فأجاب كومبكارنا: "إنني ما زلت جائعاً، فدعوني أكمل طعامي قبل أن أذهب." فسارع الراكشا إلى إعداد المائدة الملكية العامرة. وتوالت عندئذ الأطباق التي تحتوي على مختلف أنواع الطعام بكميات كبيرة، وأسرع المارد بالتهامها كلها .

ما إن أتم العملاق تناول طعامه حتى قام وتوجه إلى المعركة، وقد فاق جسده الضخم أسوار المدينة ارتفاعاً. وأوشكت القردة، حينما رأته، أن تستدير على أعقابها وتهرب مذعورة، لولا أن تدخل فيبيشانا وأخذ يطمئنها ويهدئ من روعها.

سأل راما فيبيشانا: "أين كان هذا البطل العظيم طوال هذه المدة؟ لا ريب بأنه بطل صنديد، ومقاتل لا يقهر، ولا أمل لنا بالحياة بعد أن تدور المعركة. ومن الحماقة أني أتيت بالقردة إلى هنا!" فرد فيبيشانا: "إنه شقيقي الأصغر كومبكارنا. إن الملك رافانا يقاتل متوسلاً بنعمة براهما، أما كومبكارنا فيقاتل مستخدماً هراوته، معتمداً على بسالته وحسب. إنه يستطيع أن يغزو العوالم الثلاثة في دقيقة واحدة. لقد التهم النسوة اللواتي كن يسهرن على صحة أمه لحظة ولادتها له. وافترس العديد من الحوريات، وأتى على الحكماء والصالحين. وحين استثار غضب إندرا رماه بصاعقته فابتلعها، ثم اقتلع نابي الفيل الأبيض الذي كان يمتطيه إندرا. ووقع إندرا على الأرض مغشياً عليه، وما نجا من الموت إلا لأنه من المخلدين!

لقد كفّرنا نحن الأخوة الثلاثة عن ذنوبنا وأقمنا الصلوات سنوات عديدة، حتى أنعم علينا براهما العظيم بنعمه. فقال لرافانا إنه سوف يقهر العوالم الثلاثة، ثم تكون نهايته على يد البشر والقردة. ثم باركني ومنع عني الموت. ولما أوشك على أن يبارك كومبكارنا، استبد الضيق بالآلهة فعقدوا اجتماعاً سريعاً، وأرسلوا إلهة الخطابة سارسفاتي فتسللت إلى كومبكارنا وتلبسته. ولما سأله براهما: "أي كومبكارنا، ما هي النعمة التي ترغب في

الحصول عليها؟" أجاب: "لا أريد سوى نعمة النوم" فقال براهما: "لك ما تريد، وليكن النوم العميق نصيبك ليلاً ونهاراً!" فبكى رافانا عند قدمي براهما وتوسل إليه أن يتراجع عن هذه المنة. فقال براهما: "لسوف يستيقظ كومبكارنا يوماً واحداً بعد ستة أشهر من النوم. وستكون له قوة خارقة، وشهية مذهلة. ولكن حينما يوقظ في غير أوانه سوف يلقى حتفه." ولما غادر براهما، رقد كومبكارنا، فحملته ورافانا على كتفينا وجئنا به إلى الدار. ولتعلم، أي مولاي، أنه استيقظ اليوم في غير موعده. ولسوف يلقى حتفه على يديك." ولما سمع راما ولكشمانا ذلك اطمأنت نفسيهما وشعرا بالراحة. فيما كان كومبكارنا يمضي في طريقه إلى رافانا.

هب رافانا عن عرشه وقد غمرته السعادة لرؤيته كومبكارنا، وتعانق الأخوان عناقاً حاراً. ولمس كومبكارنا قدم أخيه الملك إجلالاً وإكراماً، ثم جلس على العرش المرصع بالجواهر بجانب شقيقه الملك. فسأله كومبكارنا: "من هذا الذي تخشاه؟ حسبك أن تأمرني فارسله إلى عالم الموتى. فهدئ من روعك، أي أخي، ولتطمئن نفسك وأنا إلى جانبك. فكم من مرة قهرت فيها ملك الموت، وإندرا ملك السماء؟ سوف أجفف لك البحر حتى يصبح أرضاً يباباً، وأبتلع النار وأمزق الأرض برمحي. ولسوف أسحق الشمس والقمر بين أسناني وأجتث العالم وأرمي به في مياه البحار والأنهار، وأحفظ المظلة الملكية فوق رأسك لتحكم العوالم الثلاثة. ما هذه الحرب التي تخوضها مع قردة وبشر؟"

فأجابه رافانا: "إن البشر والقردة يحاصروننا الآن ويشنون علينا حرباً شرسة لا هوادة فيها، ولقد قتلوا مجموعة من قادة الراكشا العظام. ولتعلم أن الخطر محدق بنا، وهذا ما حملنا على إيقاظك."

فقال كومبكارنا: "أي أخي، يا ذا الرؤوس العشرة، قد رويت لي حكاية عجيبة خارقة، ومن العجب أن يكون راما ولكشمانا رجلين عاديين. وإلا كيف استطاع راما أن يقيم جسراً على البحر العظيم، وأن يوحد بين القردة المتوحشة برباط الحب؟ لا بد أنه الإله فيشنو مجسداً في شكل إنسان!"

قال رافانا متعجباً: "لماذا، إذن، يطوف مشرداً في الغابة بلباس ناسك؟ لا، الحق أنه إنسان ماكر، مولع بتدبير المكائد. لقد ذهب بعقل فيبيشانا المشهود له بالحكمة والعدل، فعارضني وذهب لينضم إلى عصبة راما.المخادع هذا. إنني قهرت العوالم الثلاثة بقوة ذراعي. وإذا ما أعدت له سيتا الآن، فلسوف أغدو سخرية الآلهة. فليضحك الآخرون ما شاؤوا، لكنني لا أحتمل أن يهزأ بي إندرا، فيقول، إن ملك لانكا جدير بالازدراء! لا، هذا ما لن يكون. إن اعتمادنا عليك لتنقذ لانكا من البشر والقردة. فكن جديراً بهذه المهمة!"

رد كومبكارنا هازئاً، مستخفاً: "أي مجلس حرب هذا الذي عقدته؟ لماذا لم يتم تسيير جيوشنا لتهاجمهم، وهم ما زالوا في عرض البحر، ولم يطؤوا أرضنا بعد؟ فما كان لهم عندئذ أن يقيموا هذا الجسر ويعبروا البحر. إنك قابع في قصرك وتحسب نفسك ذا قوة وجبروت. فها هي ذي لانكا، مملكتنا الزاهية مطوقة بالقردة المتوحشة! إن سوغريفا لا يقل شجاعة عن فالي. لقد ربح المعركة على الأقل ونال المملكة والملكة تارا. والحق، أنه وقردته يفوقونك ذكاء وحصافة، وأين أنت منهما؟"

وما إن أنهى كومبكارنا كلامه حتى احتقنت وجوه رافانا العشرة غضباً وأخذ يحدق بعيونه العشرين التي تقدح شرراً، وهاج وماج وهو يتوعد: "إنك نائم على الدوام، بينما أنا أغزو الأرض والعالم السفلي والسماء. ولكن لا راد لمشيئة القدر. إنك تتحدث وكأنك أخي الأكبر لا الأصغر، وتحاول علناً أمام الجميع أن تعلمني أصول الحكم! لقد شططت في القول. ولسوف يكون لي معك حساب عسير. ولكن الواجب يفرض علينا القضاء على العدو أولاً. ثم نلتفت إلى الأمور الأخرى."

أجاب كومبكارنا: "لا تقل المزيد يا أخي، فالخطر الذي يتهددنا هو ما دفعني إلى هذا الحديث الذي سمعت، وما كنت أقصد إلا صالحك. فلا تخش شيئاً، وإني كفيل بأعدائنا وحماية بلدنا. ولسوف أقدم لك رأس راما هدية. احتفظ بسيتا واهنأ بها! إنما دعني أولاً أحرر لانكا من البشر والقردة، واقضي على سوغريفا وهانومن، ثم أتولى أخانا فيبيشانا، وقد بات الآن عدواً لنا!"

نزل رافانا عن عرشه ليجهز شقيقه للمعركة. وأسرع الراكشا المبتهجون ليقدموا له يد العون. ووضع رافانا على رأس كومبكارنا خوذة مرصعة باللؤلؤ، وخواتم مرصعة بالجواهر بدت لضخامتها أشبه بدولاب الخزّاف. وعلى عنقه قلادة من الذهب، وأقراط مرصعة بالجوهرات في أذنيه. ولما انتهت الاستعدادات وتمت المراسم المعتادة. انحنى كومبكارنا للملك وخرج إلى ساحة القتال، ومضى في طريقه والأرض تهتز تحت قدميه، وعلت أمواج البحر وتلاطمت، وارتعدت الآلهة في السماء. ومن بعيد، لمحت القردة عملاقاً ضخماً يتقدم فارتعدت فرائصها خوفاً. وزمجر كومبكارنا في وجه القردة. فرمت القردة الصغيرة منها والكبيرة، أسلحتها من أشجار وصخور وفرت مبتعدة عن ساحة القتال في حالة من الذعر والهلع. شأنهم في ذلك شأن شتافالي وأتباعه من قردة هينغوليا، وقردة جبل مالايا، وذوي الشعور الطويلة، والشقيقين غويا وغوباخيا وأتباعهما، وجامبافان وجماعته من الدببة، فقد ولوا الادبار جميعاً خوفاً من هذا المارد الجبار الذي لم يسبق لهم أن شاهدوا بمثل ضخامته.

نظر أنغادا إلى الجيوش المتقهقرة بعيون تقدح شرراً لشدة غضبه، وصاح: "لماذا تهربون؟ اصمدوا وابقوا في مواقعكم، وإني كفيل بهذا الراكشا، إنها ضربة واحدة ولن تقوم له بعدها قائمة. لا حيلة لنا مع الحياة والموت. لكن الموت في ساحة القتال يجلب المجد والشرف لصاحبه. إن الحروب التي خضتموها في الماضي وانتصرتم فيها لا تساوي شيئاً، فامتحانكم هو اليوم، فإن تكلل مسعاكم بالنصر ذاع صيتكم، وأصبحت العوالم الثلاثة تخشى بأسكم. إنكم مباركون من السماء ولديكم قوة الآلهة، فلم تهربون هكذا؟ وتجعلون من أنفسكم أضحوكة للعالم."

كان لتلك الكلمات أشد الوقع بين القردة، وسرعان ما عادت للتجمع والاحتشاد من جديد. وهكذا عادت جيوش ابن فالي إلى ساحة المعركة. وأخذت القردة تثب وتهوي على كومبكارنا بالأشجار والصخور. فعمد المارد الغاضب إلى طعن عدد كبير منهم برمحه. فسقط الكثير من القردة الأشاوس صرعى. فقد راح كومبكارنا يحصد القردة حصداً، والأشجار والصخور تتساقط عن جسده الضخم كالريش. كان كومبكارنا رهيباً في غضبه،

وبكلتا يديه قبض على القردة وابتلعها.

تراجع جيش القردة وقد أصيب بالذعر، ولم يكن هناك من يستطيع منازلة كومبكارنا. وانتزع القائد نيلا، وهو في حالة من الغضب والحنق، شجرة سال ضخمة من جذورها، وقذفه بها لكنها تكسرت حالما وقعت عليه. إلا أن ذلك لم ينل من عزيمة نيلا، فاستجمع شجاعته وتابع القتال ومعه أربعة آخرون. وبذلوا قصارى جهدهم لكن جهودهم كلها ذهبت سدى، حتى عندما ألقوا على صدره قضباناً معدنية ثقيلة، وبدا أن المارد منيع على الأذى. حملق كومبكارنا بهم غاضباً والرمح بيده، وصاح: "انتظروا!" ثم مد ذراعيه حول أعدائه وطوقهم بها وضمهم إليه بقوة فتدفق الدم من أفواههم، وتهاووا على الأرض فاقدين الوعي، فركلهم بقدميه بعيداً عن طريقه.

وما إن رأت بقية القردة قادتها وهم يصرعون هكذا، حتى أخذت تصيح: "علينا به! لنقتله، لنسترح من شره!" وأخذوا يطوقونه من كل جانب، ووثب بعضهم على كتفيه، وبعضهم الآخر على رأسه، وراحوا يوسعونه ضرباً بقبضاتهم. لكن من بمقدوره أن ينال منه؟ إذ التفت إليهم وعاد يطوقهم من جديد، ودفع بهم إلى فمه، وصار يلوكهم، ودماؤهم تسيل من شفتيه. لقد أمسك بالآلاف من القردة الذين صاروا الآن داخل فمه الكبير كالمغارة، والذي امتلأ بهم وفاض حتى صارت القردة تخرج زاحفة إلى الخارج من أنفه وأذنيه عبر سراديبها الواسعة.

وثب كومبكارنا على أنغادا وأوقعه أرضاً بضربة من صولجانه، وكان هذا أيضاً مصير ما لا يحصى من القردة، ومن بينهم شتافالي الذي سقط على الأرض وهو يتلوى من الألم، بينما قفز هانومن كالسهم في الجو، وأخذ يرمي كومبكارنا بالصخور والأشجار من الأعلى. فكانت تقع على الأرض محدثة دوياً هائلاً، واستطاع أن يهشم صولجان كومبكارنا، الذي لما فقد سلاحه وثب عالياً وأمسك بهانومن ووجه ضربة قوية إلى صدره، فوقع على الأرض وراح يتلوى من شدة الألم. وما أن رأت القردة هذا المشهد حتى انخلع قلبها وولت الأدبار هاربة.

كان كومبكارنا يلتهم القردة ويطحن عظامها، فلا يفلت منه قرد كبير أو صغير. عندما ظهر سوغريفا أمامه حاملاً بيديه شجرة ضخمة، وصرخ به: "هياً تعال ونازلني، ولسوف أرميك وأخسف بك الأرض ولن تجد من ينقذك." فرد عليه كومبكارنا: "إنني حفيد براهما، أيها التافه. ولكن لنر مبلغ قوتك وبأسك!"

قذف سوغريفا الشجرة إلى صدر كومبكارنا. ولكنها تكسرت بمجرد ملامستها للمارد. فقال كومبكارنا ساخراً، مستهزئاً: "يا للعار! يا للعار! أخبرني كيف ستحكم كيشكيندا؟ إنني أعتبر الملك فالي بطلاً. لكن كيف تأمل أنت أن تحافظ على مملكتك؟"

حمل الفان من الراكشا صولجاناً ضخماً بدلاً من الذي تهشم. فرفعه كومبكارنا بيد واحدة كالريشة. لكن ذلك المشهد لم يثبط من همة سوغريفا. فوثب وانتزعه منه، ثم قذف به بعنف إلى الأرض، فاهتزت وزلزلت من شدة وقعه وهول دويه. وأمسك سوغريفا بكومبكارنا وهم به يريد قتله، وما زالا يتصارعان حتى فقد سوغريفا وعيه فقبض عليه كومبكارنا وحمله فوق كتفه وقفل عائداً إلى لانكا، يريد تقديم أسيره هدية إلى رافانا.

ضجت المدينة بالفرح، واصطف أهلها على الجانبين يهللون لكومبكارنا وهو يمر في شوارعها. وخرجت النساء يومئذ يتزاحمن لرؤية بطلهن وأسيره، وهن يضحكن لمشهد سوغريفا وحالته المزرية. أما القردة فكانوا في حداد، وأخذوا يبكون وينتحبون، وأيديهم على رؤوسهم تعبيراً عن حزنهم لفداحة الخسارة. وقال قائدهم هانومن: "اليوم سيكون مقتل كومبكارنا على يدي، وأنا كفيل بإنقاذ الملك!" ومضى لا يلوي على شيء لينجز المهمة التي انتدب نفسه لها.

شرع جامبافان يناديه: "عد! عد! لسوف يظل الملك يتذكر، ما دام حياً، أن إنقاذه كان على يد خادم لديه. ولسوف يلازمه هذا الصيت إلى الأبد. أما علمت أن العمل السيء يعمر أكثر من العمل الجيد. فلماذا تخرج للقتال؟ إن لسوغريفا حكمة الملوك، وهو ذو قوة وبأس، ولا ريب أنه لن يعدم وسيلة للإفلات من كومبكارنا!" أصغى هانومن إلى كلمات

جامبافان بانتباه وبعد أن تدبر معانيها بفكره، توقف وعاد إلى موقعه أمام باب المدينة.
استعاد سوغريفا وعيه، وكان ما يزال محمولاً بين ذراعي كومبكارنا. ووجد نفسه محاطاً بالراكشا، وما من أحد من القردة حوله. كانوا في غرفة فخمة الرياش تصدح فيها الألحان العذبة التي يرقص على أنغامها الراقصون والراقصات. راح سوغريفا الملك ذو الجبروت يفكر ويقلب الأمور على كافة أوجهها... لإيجاد وسيلة تكفل له النجاة. وفجأة مد يداه إلى أذني كومبكارنا وشدهما بعنف حتى اقتلعهما، وجدع أنفه بأسنانه، وبأظافر قدميه مزق لحم آسره. فتدفقت الدماء من جسد كومبكارنا نهراً متصلاً، ورمى أسيره بعيداً وهو يزعق ويتلوى من الألم. وقبض ملك القردة الشجاع على أذني المارد بيديه بإحكام، وحمل الأنف في فمه، ووثب بعيداً ليعود إلى قومه. وأسرع حين وصل إلى راما وقدم له أذني كومبكارنا وأنفه.

انتاب كومبكارنا شعور قوي بالخجل، وأصبحت الحياة لا تطاق بدون أنفه وأذنيه. وأخذ يحدث نفسه متحسراً: "إن قوتي وبسالتي لم تجد نفعاً، إذ جدع القرد سوغريفا أنفي." وزاد من ضيقه وبرمه أنه عندما عاد إلى ساحة القتال راحت القردة تضحك لرؤيته مجدوع الأنف مقطوع الأذنين. فما كان منه إلا أن أمسك ببعضهم وألقى بهم في غياهب فمه لكن اتساع مجاري أنفه وأذنيه باتت تتيح للقردة الهرب، فأخذت تقفز بعيداً إلى بر الأمان.

كان منظر كومبكارنا في السابق مخيفاً يثير الرهبة في نفوس الناظرين إليه. أما الآن وقد فقد أذنيه وأنفه فإنه ازداد قبحاً وإثارة لذعر القردة حين يحملق فيها متجهماً أو غاضباً. وصار كبار القادة يولون الأدبار عند ظهوره، وهرب آخرون وهم يصرخون: "جاء الأجدع! جاء الأجدع!" حتى بلغوا لكشمانا.

تقدم لكشمانا والقوس بيده. فضحك كومبكارنا حين رآه، وقال ساخراً: "ومن يريد نزالك أنت؟ هيا! ناد أخاك راما!" فصاح راما: "ها أنذا، أيها الوغد. لقد تذكرت الموت أخيراً! استخدم كل ما لديك من قوة، واقذف بكل ما لديك من أسلحة. وبعد أن أذبحك سوف أقطع رؤوس رافانا العشرة واحتفظ بالمظلة الملكية لفيبيشانا."

زأر كومبكارنا ضاحكاً وهو يقول: "أتحسب أنك عائد إلى بلدك؟" وفتح فمه الرهيب يحاول ابتلاع خصمه وعيناه تقدحان شرراً، ولما لم يتمكن من ذلك شد حزامه وخاطب راما: "إنني لست طري العود مثل كارا أو دوشانا أو كابندها. إن لي قوة الصاعقة. أنا كومبكارنا، الصنديد بطل الأبطال. ابق في كنانتك الآن هذه السهام التي قاتلت بها أولئك الأبطال. وهات ما لديك من سهام أكثر مضاء ودعني أمتحن بأسك."

أجاب راما: "دعك من الغرور يا كومبكارنا! فمن ذا الذي يستطيع الصمود أمام سهامي؟ ولسوف تراها تشيع الدمار والفناء حيثما تقع. ولكنني لن أحتاج إلا لسهم واحد لأرسل بك إلى عالم الأموات!"

ضحك كومبكارنا قائلاً: "أرى أنك ترغب بالعيش في أرض الموتى. انظر إلى جسمي الذي يضاهي الجبل ضخامة. ولتعلم أن لا الآلهة ذاتها، ولا الجندارفا، تقوى على الإمساك بي. إنما أخبرني كم عدد الأسلحة التي تتقن استخدامها؟" فاطلق راما السهم الذي كان قد أطلقه على الملك فالي من قبل، فطار بسرعة البرق وانغرز كالشوكة في جسد كومبكارنا. فسخر منه المارد وهو يلوح بصولجانه الضخم: "يا للعار! لقد وفاك أخي حقك عندما اختطف زوجك!"

طارت السهام من قوس راما متلاحقة. وألقى كومبكارنا أسلحته واندفع ليهاجم راما، وأخذ يقاتل أعزل كالفيل الهائج، وما استطاع كبار قادة القردة تطويقه، بل لم يقووا على الصمود أمام ركلاته القوية الساحقة. ثم التقط صولجانه الضخم من جديد، وراح يطاردهم وهم يولون الأدبار هلعاً. فناداهم لكشمانا: "أصغوا إليَّ! إن صاحبنا قد جن بسبب رائحة الدم. فعليكم بكتفيه، اصعدوا فوقهما واخسفوا به الأرض بثقلكم. فمتى وقع سهل عليكم قتله!"

كان لكلمات لكشمانا فعل السحر في القردة، فاستعادوا شجاعتهم. وأخذ الكثير من عمالقتهم وصغارهم، من كل نوع ولون، يثبون على كتفي المارد ويتارجحون جيئة وذهاباً

مثل الخفافيش تهب من شجرة تمر الهند، ويشدون شعره بقوة، وينشبون أظافرهم في لحمه ويغرزون أنيابهم في وجهه. وأخذ المارد يقاوم مهاجميه، فيمسك بهم ويرميهم بعيداً. وعلى هذا النحو طرح عنه غويا وغوباخيا وغاندامارداان ورمى بهم إلى الأرض بقوة فتدفق الدم من أفواههم، وأغمي عليهم. وانتاب أنغادا وهانومن، عندئذ، خوف شديد ووجدا أن الاقتراب من هذا المارد مجازفة لا يقدر عليها إلا من زهد بالحياة.

ثبت راما سهماً خاصاً في قوسه يدعى سلاح براهما، أهدته إياه الكائنات السماوية البراقة. ثم سدده فانطلق بسرعة مثيراً ضجة هائلة، وأطاح بيد كومبكارنا اليمنى. وكانت أشبه بتلة صغيرة، وقتلت العديد من القردة حينما سقطت على الأرض فوقهم. وانتزع كومبكارنا بيده اليسرى شجرة سال ضخمة واندفع بها بقوة نحو راما. وانطلق، عندئذ، سهم آخر محدثاً أزيزاً يصم الآذان فقطع تلك اليد اليسرى أيضاً. ففتح المارد فمه الرهيب واندفع نحو راما يريد أن يلتهمه. فأخذ راما يعمل بأسلحته السماوية تقطيعاً وبتراً في رجلي المارد. ومع ذلك صمد العملاق، بل التقط صولجانه عن الأرض بفمه وراح يضرب به القردة يمنة ويسرى. فحطم راما الصولجان بتسع من سهامه، ثم ثبت سهماً جديداً في قوسه، وأطلقه، فكان له صوت كالرعد ولمعان كالبرق، وطار حتى حقق مهمته القاتلة وأطاح برأس كومبكارنا. فالتقط هانومن الرأس الملطخ بالدم من الأرض ورمى به في البحر. فسقط كالجبل، محدثاً رذاذاً هائلاً، وأوقع الخوف والرهبة في جميع المخلوقات التي تعيش في البحر.

ابتهجت الآلهة في السماء وعم الفرح بينها، وكان أشدهم امتناناً ملكهم إندرا. وقالت القردة: "لقد أنقذنا راما، ومهمتنا الآن قتل بقية أعدائنا." وولى جيش الراكشا الأدبار منسحبين من ساحة المعركة.

كان رافانا جالساً على عرشه مستغرقاً في أفكاره: "لقد ذهب أخي كومبكارنا إلى المعركة. ولسوف يكون النصر حليفه، ويعود إلينا سريعاً. إذن، يجب ألا أكون قلقاً. وحينما يصل الرسول حاملاً أنباء النصر، سيلقى مني ما يثلج قلبه، من صلات وعطايا

وهدايا وإنعامات، ولسوف ازين المدينة إظهاراً لفرحنا وسعادتنا، وأذهب بنفسي لأرحب به. وقبل أن ينحني لي، سوف أضمه إلى صدري وأعانقه. وسينزع ثوب المعركة، ويرتدي أفخر الثياب، ونجلس على العرش معاً، متباسطين مع الأصدقاء والأتباع، وسأقيم المآدب والولائم الفاخرة تكريماً له واحتفاء به..." وهكذا كان رافانا يفكر على هذا النحو وهو مفعم بالأمل.

ومع مرور الوقت، دون أن يبلغ رافانا أي نبأ عن أخيه، بدأ يتوجس شراً، ويحدث نفسه: "لقد مضى على رحيل أخي فترة طويلة، فلمَ لم يأت رسول منه حتى الآن؟ ولمَ لم تبلغني أنباء عن الحرب ومسارها؟ إنني لا أدري ما إذا كنا قد هزمنا العدو أم أن الحرب ما زالت تدور؟ وإذا كنا الظافرين فيها، فلماذا يضطرب قلبي، إذن؟ وعندئذ طرق سمعه ضجة آتية من السماء، فنظر إلى الأعلى، وتساءل في خلده: "هذه الآلهة تهلل بصيحات النصر، ولم نعهدها تصيح وتهتف؟ فأي جديد يا ترى جد في الأمر؟ إن الشكوك تعصف بعقلي، فمن ياتيني بحقيقة ما يجري في ساحة المعركة؟"

كان رافانا غارقاً في لجة التفكير وظل يخمن ويحدس، حتى ظهر الرسول. فبادره بالسؤال: "ارو لي ما لديك من أنباء سارة عن الحرب!" فصمت الرسول ولم يجد جواباً، وقد تملكه الخوف، ولما كرر رافانا السؤال راح الرسول يبكي بصوت عالٍ وهو يصيح: "أي مليكنا العظيم، ما هي الأنباء السارة التي يمكن أن أحملها من ساحة القتال؟ لقد سقط أخوك الأصغر قتيلاً... بعدما صرع العديد من القردة والدببة، لكنه خر صريعاً في النهاية بسهم من راما، وصعد إلى السماء."

كان للخبر وقع الصاعقة على الملك ذي الرؤوس العشرة، فأطار صوابه، وجعله يقع مغشياً عليه. فتداعى رجال الحاشية لإنعاشه. ثم اعانوه على الجلوس على عرشه من جديد. وارتدت المدينة كلها أثواب الحداد على مصرع كومبكارنا، واخذ رافانا يندب أخاه بصوت عالٍ وينوح ويبكي، ولا ينقطع عن لوم نفسه على المصيبة التي لحقت باخيه: "وا حسرتاه! لماذا أيقظت أخي من نومه في غير أوانه؟ سوف تصبح حجرته فارغة الآن إلى الأبد! لن

يكون هناك بطل آخر يعادله في لانكا الذهبية! كان كومبكارنا أخي وعدتي وعماد قوتي. ولن تخشى الآلهة أمراً بعد هذا اليوم، ولسوف تنام قريرة العين. أين أنت يا أخي؟ فلتعد إلينا لننطلق سوية إلى المعركة مرة أخرى. وا حسرتاه! وا حسرتاه! ما الذي فعلته، آه أيها القدر القاسي؟ لقد سلبتني أخي العزيز على قلبي! ماذا عساي أن أفعل؟ إلى أين أذهب؟ تباً لحياتي هذه لماذا لا تغادر جسدي؟ آه! يا أخي، ها أنت ذا تفقد حياتك على يد مجرد إنسان فانٍ، بعد أن غزوت ممالك الآلهة والشياطين وجميع الكائنات السماوية." وأجهش رافانا بالبكاء، ثم تابع قائلاً: "لقد قصرت الصواعق عنك فكيف يمكن لسهم راما أن ينفذ إلى قلبك؟ كيف لي أن أتصدى بعد الآن لإندرا وسواه من الآلهة والعفاريت؟ بدونك يا أخي، لن يخشاني أحد. حتى القردة أصبحت تملؤني فزعاً ورهبة. وما إن رحلت حتى غمرت البهجة الآلهة في السماء. ولعلهم يسخرون مني الآن ويصفقون لي. لقد تحدث ماريخا وكان ينشد صالحي، وكذلك أنت وفيبيشانا أخي الحكيم الصادق النزيه الذي أسأت معاملته وأقصيته. إنني أعاقب الآن على تلك الخطيئة التي ارتكبتها بأن أهان على أيدي البشر والقردة. أما وقد رحلت، فما نفع ثروتي وقوتي وسيتا... وما الذي سأجنيه إن ظفرت في الحرب بعد هذا؟ فليخترقني سهم من سهام راما، فما عدت أستطيب الحياة بعد الآن!"

اشتد حزن أبناء رافانا لرؤية أبيهم يذرف الدمع وقد أضناه الأسى والندم. فتقدم تريشيرا وقال: "أيها الملك العظيم، إن الاستسلام للحزن ليس من شيم الشجعان، حتى ولو كان على بطل الأبطال أخوكم الأصغر كومبكارنا الذي لا نظير له. لقد أمضيت عهداً في التكفير عن خطاياك والعبادة والتضرع إلى براهما لتنال منه نعمة الخلود فأبى، لكنه منحك مختلف أنواع الأسلحة الماضية. فيما منح فيبيشانا نعمة الخلود لفضائله، وأصبح بفضل براهما ينعم بالمعرفة والعلم ويحيط بكل المعارف والمذاهب. ولقد تحدث إليك بحكمة لما فيه مصلحتك وما عرف عنه من استقامة وعدل.

لا تدع اليأس يدخل إلى قلبك. لقد غزوت العوالم الثلاثة بشجاعتك، وتغلبت على

أخيك الأكبر إله الثروة كوفيرا. وانتزعت منه عربته الطائرة ومدينة لانكا. وزف العفريت الكبير مايا، ملك العالم السفلي ابنته إليك تأكيداً لولائه لك. أما فاسوكي ملك الأفاعي الذي ترتعد منه العوالم الثلاثة، فإنه يبتعد طائراً حالما تقترب منه. كما ألحقت الخزي والعار بالآلهة إندرا وياما وفارونا. إن من اليسير غزو من هم مجرد بشر. ولسوف أقتل راما ولكشمانا ابتغاء مرضاتك، علك تجد في ذلك السلوان."

سر رافانا بكلمات ولده وشجاعته، وبدا الغضب واضحاً على ثلاثة من أخوته كانوا يتوقون إلى الانضمام إلى حملة أخيهم، وكان مشهوداً لهؤلاء الأربعة بالبأس والبراعة. ولقد أجزل لهم الملك العطاء، وخرجوا بلباس الحرب من سراويل قصيرة ودروع ذهبية وخوذ مرصعة بالجواهر. ودهنت أجسامهم بالعطور ومعجون خشب الصندل. وعقدت لهم أكاليل الزهر، وزينت أعناقهم بقلادات مرصعة بالأحجار الكريمة النادرة، وآذانهم بأقراط من المجوهرات البراقة، وسواعدهم ومعاصمهم بأساور عريضة من الذهب. وإذن، فقد كان أبناء رافانا الأربعة يرتدون ما يعادل ثروات أربع ممالك مجتمعة. وبدوا في غاية الوسامة. وانضم إليهم، بعد، اثنان من أبناء رافانا الكثيرين. وكان هؤلاء الفتيان الستة من خيرة المحاربين الأشداء. وراحوا يدورون ثلاث مرات حول أبيهم الملك، ثم غادروه بعد أن حيوه مودعين.

سار الفتية إلى وجهتهم، وفي مقدمتهم ماهودرا، ممتطياً فيلاً بلون اللازورد، أزرق صافٍ كالسماء. من فصيلة الفيل السماوي إيرافاتا الذي يمتطيه إندرا. وامتطى اثنان من الأخوة جوادين سريعين يسابقان الريح، واستقل آخر عربته المتلألئة المرصعة باللؤلؤ والماس والأحجار الكريمة الأخرى. وانتصب فيها يلوح برمحه مختالاً مزهواً.

ما إن بلغ مسامع الأمهات أن أبناءهن في سبيلهم للانطلاق إلى ساحة القتال، حتى أجهشن بالبكاء، وأخذن يصرخن قائلات: "لا تحطموا قلوبنا، أما علمتم أن الحرب تنشر الموت على الجميع، بل لقد سقط فيها صريعاً بطل مثل كومبكارنا. فدعوا عنكم السلاح... إن الحياة لعزيزة غالية. أصغوا إلى كلمات أمهاتكم... اسعدوا في مدينتكم مع عرائسكم، ولمّا يمض على زواجكم إلا القليل. أعيدوا ابنة جناكا الجميلة إلى السيد راما.

وليحملها أربعة منكم إليه في المحفة الملكية. وإذا ما غضب الملك لذلك، فالجؤوا إلى جبل كيلاسا، حيث عمكم كوفيرا."

ثارت ثائرة الأبناء من حديث أمهاتهم، وخاطبوهن بقسوة قائلين: "لو أن سواكن قال هذا لكان لنا معه شأن آخر، وأي شأن! لكن ما حيلتنا وأنتن أمهاتنا! إننا سادة الأرض، وسليلو قوم أشداء. فلماذا نخشى البشر ونرضى الذل والهوان وخدمة من كان والدنا قد قهرهم وطردهم؟ إن والدنا ذا البأس والجبروت حاكم العوالم الثلاثة، ثم يقال لنا أن نختبئ ولا نتورط في قتال! عجباً! ولتعلمن، أي أمهاتنا، أن مثوانا فردوس السماء إن قتلنا في المعركة. فعدن إلى منازلكن ولا تحزن لأمر. وحسبنا نحن أن نقضي على راما ولكشمانا، ونلتهم القردة فنكسب الحرب."

بعد أن فاه أولاد رافانا بهذه العبارات التي تنضح تيهاً. مضوا في طريقهم مع جيوش الراكشا، ولم يعد يتبينهم أحد وسط تلك الحشود وزوابع الغبار. وأخذوا يصيحون: "اقتلوهم! اقتلوهم!" وهم يهاجمون جيوش القردة وغدت الأرض بلون قرمزي من الدماء التي سالت.

انضم هانومن وقادة آخرون إلى القردة وأخذوا يقاتلون بالأشجار والصخور مقابل هراوات وسهام أعدائهم. كانت المعركة طويلة، وأبلى فيها الراكشا بلاء حسناً. لكن خمسة من أبناء رافانا راحوا يتساقطون الواحد تلو الآخر، فقرع القردة المبتهجون أجراس النصر.

لما شاهد أتيكاي سقوط أخوته الخمسة، ثار غاضباً واندفع إلى قلب المعركة. وكان لابن رافانا هذا بحجمه الهائل هيئة تثير الرهبة في نفوس الناظرين. وقد ركب عربة مرصعة بالماس والياقوت والزمرد تجرها الجياد المطهمة. وخوذته تخطف الأبصار. وكان غضوباً لا ينثني ينقر وتر قوسه فيغمى على القردة حين تسمع صوته الرهيب. ولقد ارتعدت فرائص الدببة والقرود حين راح يخاطبهم من عربته بصوت كقصف الرعد: "طيروا أيها القردة الأغبياء، وابتعدوا عن ساحة القتال. إنني أدعى أتيكاي وشهرتي طبقت العوالم الثلاثة، وإنني هنا

للقتال. ولن أدع بشراً أو قردة على سطح البسيطة! فهيا أخبروني واصدقوني القول عما يحملكم على الموت؟ إني لا أبغي سوى مصلحتكم. فهيا انجوا بأنفسكم." ثم أخذ يزأر كالأسد مرة بعد مرة، وفر بعضهم إلى الجسر، بينما لجأ غيرهم إلى الغابة، وركض معظمهم نحو راما يلوذون به وهم يصيحون مذعورين: "عاد كومبكارنا! عاد كومبكارنا!"

شده راما حين وقعت عيناه على هذا المقاتل الذي يثير منظره الرعب. وهو يقف بخيلاء في عربته المليئة بالأسلحة. وفوقها الأعلام التي رسمت عليها رؤوس بشرية ويتدلى من طرفي المارد سيفان بتاران مقوسان، ويمسك بيده اليسرى قوساً جباراً. فقال راما لفيبيشانا: "أخبرني أيها الصديق من هذا؟"

اجاب فيبيشانا: "إنه ابن رافانا، يا مولاي، ويدعى أتيكاي، وهو صنو أبيه قوة وبأساً، وذكي حكيم، ومتبحر في جميع المعارف والمعتقدات وعلوم الأولين، ومقاتل لا مثيل له في جيش رافانا، فيقاتل على ظهر الفيلة والجياد، كما يستطيع القتال بالعربة أو راجلاً. إنه بارع في استعمال الهراوة والصولجان والسيف المقوس ولا يبارى في استخدام القوس. وهو عماد قوة لانكا وستبقى آمنة لا تعرف الخوف ما دام أتيكاي حياً. ولتعلم أنه تمكن برياضة النفس والصوم لسنوات طويلة أن يقهر الآلهة والعفاريت والكائنات السماوية، وأن يحوز على رضى براهما فقدم له تلك العربة الجميلة والكثير من صنوف الأسلحة ودرعاً منيعاً، وجعله منيعاً على الموت بيد عفريت أو إله أو أية كائنات سماوية. واعلم بعد أنه أكبر المحاربين في لانكا، والأقوى بين الأمراء جميعاً. فاعد العدة له وإلا قضى على القردة والدببة بحزمة من سهامه. فاقض عليه فوراً، يا مولاي!"

وما إن انهى فيبيشانا حديثه، حتى ظهر أمامهما أتيكاي بكل جبروته، وخاطب فيبيشيانا قائلاً: "إنك تخدم الإله ليل نهار، وتدخل البهجة إلى فؤاده. يا عماه! فمن له مثل حظك؟ إن جل ما أطمح إليه أن يرمقني بنظرة عطف!" ثم مضى بعربته قرب راما وقال له: "يا صديق العالم، لماذا لا تقربني إليك؟ أتضرع إليك أن تمنحني مكاناً عند قدميك."

ظل راما على صمته وقد غلبت عليه الدهشة، ثم قال: "إنك وعمك فيبيشانا أكثر من في لانكا استقامة، ولسوف أعهد بالمملكة إليكما بعد أن أقضي على رافانا." فأجاب أتيكاي: "لا حاجة لي بالمملكة، ولسوف أترك جسدي في ساحة المعركة، إنما أخبرني من سأنازل؟ إني لن أصارع القردة فهم وحوش، لا دراية لهم بفنون الحرب. وليس لديهم من الأسلحة سوى الأشجار والصخور. ولو شئت لذبحتهم جميعاً. وسوغريفا لا يزيد عندي عن طائر اللقلق، أما لكشمانا فشاب غر لا مهارة لديه ولا علم!" ثم ضم راحتيه، وقال بلهجة الرجاء: "أي سيدي راما، لكم أتمنى أن أنازلك، فحقق لي هذه الأمنية."

تقدم لكشمانا، وقد شد وتر قوسه وهم بإطلاق سهمه. فسأله أتيكاي: "كم معركة خضت؟ وما هو عمرك؟ أمن اللائق أن تتقدم لمنازلة من تخشاه الآلهة ذاتها؟" فنقر لكشمانا وتر قوسه غاضباً. فاستغرب أتيكاي هذه الحركة وقال له: "أي سيدي لكشمانا، إنك ما زلت شاباً في مقتبل العمر، فماذا تعرف عن الحرب؟"

صاح لكشمانا: "إنك تتحدث دون روية أو فهم. فمن رأى أو سمع بأن النصر في المعارك للشيوخ والعجائز وحدهم؟ اهرب إن استطعت! وإذا لم أتمكن من قتلك اليوم حق أن يقال إني أرعن مغرور!" فأجابه أتيكاي: "إذن فليكن لك ما تريد. ولنتصارع كل حسب قدرته ومهارته. وليكن الحكمان شري راما والعم فيبيشانا." فوافق لكشمانا على هذا.

دارت المعركة بينهما شديدة ضارية. رمى أتيكاي سهماً ملتهباً، فصده لكشمانا بسلاح كان هدية من إله الماء. فأتبعه أتيكاي بمئتي سهم اعترضها لكشمانا كلها وحطمها. وبصوت كالرعد اخترق سهم الفيل الهواء، فرد عليه لكشمانا بسهم الأسد. فرمى أتيكاي سهم الجبل فأطلق لكشمانا سهم الرياح الذي قذف سهم الجبل إلى السماء. وهكذا كانت الأسلحة المخيفة التي توقع الرهبة في النفوس، تتطاير بين الجهتين حتى أظلمت السماء. وتصادمت أسلحة خفيفة سرية لا تدركها العين فأثارت ضجيجاً وصخباً. ورفع لكشمانا ذراعيه وقذف بسلاح جبار حصد الجياد التي تقود عربة أتيكاي، وفصل سلاح آخر رأس سائس العربة عن عنقه. فأخذ أتيكاي يقاتل راجلاً. لكن سرعان ما جاءته عربة جديدة

على الفور، فوثب إليها وواصل إطلاق سهامه. إلا أن لكشمانا صدها كلها بيسر وسهولة. فأخذت الآلهة تصفق وتهتف مبتهجة: "أحسنت! أحسنت!"

قذف لكشمانا بسلاح بتار حاسم لا راد له، لكنه، مع ذلك، ارتد عن أتيكاي، دون أن يصيبه بأذى. فهمس إله الريح في أذن لكشمانا: "إن ابن رافانا هذا محصن بدرع منيع، فلا يسهل قتله. فعليك بالسلاح الذي أهداك إياه براهما. فهو الذي سيقضي عليه قضاء مبرماً!" فأخذ لكشمانا بالنصيحة، ورفع سلاحه العجيب وتمتم بعبارات سحرية، ثم أطلقه فطار رأس أتيكاي عن كتفيه، وتدحرج على أرض المعركة وهو يهمس: "راما! راما!" فاغرورقت عينا فيبيشانا بالدموع وقال: "مرحباً، يا ابن قبيلة الراكشا! إن رأسك المقطوع يردد اسم راما. والحق أن العالم لم يعرف إخلاصاً كهذا من قبل!"

انفرط عقد جيوش الراكشا وتشتت صفوفهم، وزأرت القردة هاتفة: "النصر لراما! النصر لراما!" وحملت الرسل أنباء مصرع أتيكاي إلى ملك لانكا، وقال الرسول حزيناً: "أيها الملك العظيم، لقد لقي خمسة من أبنائك الستة مصرعهم على يد القردة. أما ولدك أتيكاي فقتل بيد لكشمانا." فوقعت تلك الأنباء على رافانا وقوع الصاعقة، واستولى عليه الذهول فصمت حيناً ثم سأل من أخبره: "ماذا قلت؟" وعاد الرسول يكرر الخبر على مسامعه، فأغمي عليه، وبعد حين أخذ يئن ويتنهد، وانهمرت الدموع غزيرة من عيونه العشرين. وصرخ بأعلى صوته: "وا حسرتاه! وا حسرتاه! أين أنتم يا أبنائي؟ إن النفس لا تقوى على احتمال هذا المصاب الجديد. لقد أخذ نظري يضعف، أما جسدي فيتلظى احتراقاً، وقلبي انتزع من مكانه... آه! يا أعزائي، ترى هل سيقدر لي أن أضمكم إلى صدري ثانية؟ من الذي سينهض للدفاع عني؟ من الذي سينتقم لي من أعدائي؟ من سيحيي أصدقائي والشيوخ؟ آه! يا أبنائي منذ رحيلكم ما عدت أرى للحياة جدوى! والأجدر بي أن أغرق نفسي في البحر! وأسفي الوحيد أن يبقى راما دون أن يهزم..."

استمر رافانا يتفجع، على هذا النحو، في نوبة من الحزن الشديد انتابته. وأجهش أفراد الحاشية بالبكاء معه. كانت فاجعة دونها كل الفواجع. ولا يجدي فيها العزاء. وأخيراً

كفكف إندراجيت دموعه، ودنا من والده وقال مزهواً: "لماذا ترسل الآخرين إلى المعركة وأنا موجود؟ فلتأمر وأنا طوع بنانك، وسوف أقضي على راما ولكشمانا. امنحني بركاتك فأقضي على جميع القردة وأنغادا وسوغريفا وهانومن. ولسوف يكون من السهل قتل كل من نالا ونيلا وإغراق جامبافان في مياه المحيط. وبصولجاني هذا سوف أهشم رأس ذلك العجوز سوشينا، وأرسل جميع القردة ذوي الشعر الطويل إلى حتفهم. وسأذبح عدو لانكا عمي فيبيشانا، وجميع أولئك الأوغاد الذين تجرؤوا على اقتحام لانكا، ولن أسمح لأي منهم بالعودة إلى بلاده سالماً."

ابتهج رافانا حين سمع ما قاله إندراجيت، وقام إليه يعانقه وهو يقول: "أي ولدي سوف تكون لانكا من نصيبك. فأنقذنا من الكارثة بقتلك البشر والقردة. ولتدمر أعداءنا، يا ولدي!" فتهيأ الأمير للحرب وتزين بالهدايا النفيسة التي قدمها له والده الملك من أساور وخواتم وأقراط وقلادات ذهبية مرصعة بالجواهر النادرة.

صاح إندراجيت بسائس عربته: "تهيأ للحرب!" وسرعان ما كانت العربة جاهزة بانتظاره. واحتشدت الجيوش المرافقة لإندراجيت وهي على أهبة الاستعداد للانطلاق، ترافقها ثلاث فرق موسيقية بآلاتها المتنوعة من ناي وطبل وبوق ومزمار وأجراس تحدث ضجيجاً وصخباً حتى العوالم الثلاثة لم تستطع احتماله. وقبل أن ينطلق إندراجيت على رأس الجيش خطرت بباله أمه ماندوداري فنزل عن عربته، ودخل ليلقي عليها تحية الوداع، وجيشه الجرار بانتظاره عند باب القصر.

كان كل شيء في القصر مصنوعاً من الذهب وفي غاية الروعة والجمال، وينير كافة أرجائه ثلاثمئة الف قنديل يشتعل فيها زيت معطر. دخل إندراجيت إلى جناح والدته الملكة ماندوداري فوجدها تصلي عند مذبح شيفا وبارفاتي تدعو لقومها بالنصر في الحرب، وحولها عشرة آلاف من الأميرات والنبيلات وزوجات الأعيان. وكان إندراجيت يبدو رائعاً بلباس الحرب، فانبهرت النساء به وتحلقن حوله. وانحنى أمام والدته، فنهضت وهرعت إليه فرحة وأمسكت بيديه وراحت تغمر رأسه بالقبلات. وقالت له: "إنني محظوظة حقاً، إذ

أنعمت الآلهة علي بولد مثلك، وبسببك أحتل مكانة الملكة الأولى. غير أنني سأصارحك بأن والدك ارتكب إثماً عظيماً حين اختطف امرأة رجل آخر، وإني لحزينة لذلك. فأرجو أن تعيد سيتا إلى راما وتنشر السلام والوئام، وإلا ضاعت لانكا.

لقد جاء الملك بسيتا زوج راما عنوة! وفي المجلس وأمام الجميع طرد عمك فيبيشانا الصريح النزيه. فلماذا يرسل الآخرين الآن ليخوضوا حرباً هو وحده المسؤول عنها. لن أدعك تذهب، يا بني، لقتال هؤلاء البشر والقردة. إن شري راما ليس رجلاً فانياً، بل إنه من أهل القداسة. وأولئك الذين يمضون لقتاله لا يعودون أبداً. فليعد الملك سيتا إلى زوجها، وليصغ إلى مشورتنا. ولتذهب لتعلن أنه لن تكون ثمة حرب أخرى منذ اليوم."

حاول إندراجيت أن يهدئ من روع أمه ويطمئنها، فقال لها: "إن والدي ملك جبار لا يقهر، وإن كنت تنعمين بجميع أسباب الترف فبفضله، فكيف تتحدثين عنه بسوء وتنالين منه أمام كل هؤلاء النساء؟ إنها لخطيئة عظيمة أن تشوه امرأة سمعة زوجها، ويجب ألا تلومي والدي لما قام به. وراما هذا من بني البشر وبه غرور وتيه، وهو ظالم فقد قتل كارا ودوشانا، وأخوه جدع أنف عمتي شربناخا وقطع أذنيها. وبات منذ ذلك الحين عدواً لنا، فهل نكافئه على ما فعل؟ الحق أن والدي أحسن صنعاً باختطافه زوج راما."

وما إن فرغ إندراجيت من كلامه، حتى أحاطت به عشرون ألف أرملة وقد شبكن أيديهن ورحن ينتحبن: "آه! أيها الأمير، إننا نبكي أزواجنا. فقلوبنا تحطمت حزناً. فلتمض إلى الحرب وليكن النصر لك. لقد سقط كبار المحاربين من قبل. وإن سقطت لانكا فبسبب شربناخا. لماذا حاولت أن تأسر راما؟ إن معاناتنا كلها بسببها!" فتأثر إندراجيت مما سمع، وطغى عليه إحساس بالإشفاق عليهن، فلم يملك إلا أن يواسيهن بالقول: "لا تبكين، أيتها النسوة، لقد رحل أزواجكن إلى السماء. ولسوف أنتقم لكن بقتل راما ولكشمانا، عسى أن يخفف ذلك من آلامكن وأحزانكن!"

وعادت والدته ماندوداري تتوسل إليه قائلة: "لتبق في قصرك، يا بني، ولتهنأ بالعيش مع

عرائسك الحوريات." فأجابها إندراجيت ضاحكاً: "لقد أمرني والدي أن أذهب إلى الحرب فكيف أبقى في القصر؟ إن جندي ينتظرونني، وعار علي أن أتخلف عنهم. وقبل أن أنطلق إلى ميدان الحرب يجب علي أن أقوم بطقس صعب لأنال بركة الراعي الصالح الذي يقوم على رعايتي. يجب ألا ألمس امرأة الآن، ولذلك لا أستطيع لقاء زوجاتي. فوداعاً يا أماه، يجب أن أسرع لتأدية الطقس." وانحنى إندراجيت أمام قدمي أمه وغادر.

في أعماق الغابة، جلس إندراجيت للصلاة أمام مذبح تشتعل فيه النار وتراكض آلاف الراكشا جيئة وذهاباً لتوفير متطلبات الطقس، من حرير، وأزهار حمراء، ومعجون خشب الصندل، وأباريق مليئة بالزبدة السائلة والكثير من الأرز، لتبقى ألسنة اللهب متصاعدة من المذبح، وقطعان من الماعز السوداء لتقديمها قرابين. وأحاط بالمذبح الكهنة. وتعالت ألسنة اللهب بلون الذهب، وازدادت اضطراماً بما ألقي فوقها من الأرز والحليب وخثارة اللبن والزبدة والعسل. ثم ظهر إله النار آغني متألقاً، جميلاً. فتضرع إليه إندراجيت، وقد ضم راحتيه إجلالاً، أن يكون النصر حليفه هذا اليوم. فأجابه: "ليكن لك ذلك!" وانحنى إندراجيت، ثم عاد أدراجه إلى جنده والفرحة تغمر قلبه.

قاد إندراجيت جنوده متجهاً إلى الباب الشرقي. وكان نيلا يتولى الحراسة عند هذا الباب ومعه قواته. وما إن اقترب إندراجيت ومعه أتباعه المخيفون، حتى انفرط عقد جيش القردة وولوا الأدبار في جميع الاتجاهات. وضحك إندراجيت عندئذ مقهقهاً وهو يشاهد هذا المنظر من عربته. فوثب نيلا فجأة، وقد استبد به الغضب، وصار إلى جانبه. وزعق قائلاً: "أيها الوغد، لا تأملن أن تعود إلى أهلك حياً. لقد نال سوغريفا مملكته بفضل السيد راما، ولسوف يقتل رافانا لتكون لانكا لفيبيشانا. وإذا كنت تحب الحياة، فهيا أسرع وأصدقاؤك بالخروج من لانكا، وإلا حاق بكم الخراب مع من يبقى فيها!"

صرخ إندراجيت: "أيها المتشرد، كنت تهنأ بالعيش في الغابة، فما الذي أتى بك إلينا لتفقد حياتك؟ إنك غر ولا معرفة لك بالسلاح. حسبك مني سهم واحد ليوردك موارد التهلكة. لقد زين الخيال لمولاك راما أنه انتصر في الحرب بقتله بضعة آلاف من الراكشا.

وكان سيلقى حتفه على يدي حين قيدته بالأفعى الملتفة، لولا أن أنجده النسر الغارودا ففك أسره!"

واصل نيلا، وقد امتقع وجهه حنقاً وغضباً، توبيخه والسخرية منه، متحدياً خصمه أن يأتي بما تطاله يداه. فأمطره إندراجيت الغاضب بوابل من الشتائم، ثم ارتفع فجأة كالنجم واختفى بين الغيوم عن أنظار أعدائه، ومن موقعه الخفي شن حربه الرهيبة. فراح يطلق سهامه هنا وهناك حتى طالت كل مكان، ويقذف أسلحته السرية على جيش القردة العزل. وانهمرت من الغيوم سهام خفيفة رؤوسها من النار ورماح ومسامير ضخمة وسيوف وسكاكين، لتجرح وتقتل حيثما وقعت. فكانت القردة تتهاوى تحت وطأة ضرباتها وتسقط على الأرض تتلوى من الألم، إن أفلتت من الموت. وحاول بعضهم الاختباء في رمال الشاطئ، بينما ولى بعضهم الآخر الأدبار مبتعدين، وهم يصبون لعناتهم على ملكهم لما حل بهم من مصائب. وراحوا ينتحبون قائلين: "كنا سعداء أيام الملك فالي. كان يعاملنا مثلما يعامل الأب أبناءه. لكن سوغريفا هذا، ما إن حصل على المملكة حتى جرنا إلى لانكا. لماذا يجب علينا أن نتبع راما وسوغريفا؟ ولا عداوة بيننا وبين إندراجيت!" ضحك إندراجيت بصوت عالٍ وواصل إمطارهم بسهامه ذات الرؤوس الملتهبة. وسقط الآلاف من القردة قتلى عند الباب الشرقي وجرى الدم أنهاراً.

زأر إندراجيت الظافر كالأسد ومضى إلى الباب الجنوبي. وصاح: "من هو القرد الشجاع الذي يحمي الباب الجنوبي؟ فليتقدم للنزال!"

خرج أنغادا وماهيندرا ودافيندرا وبقية المحاربين يتحدون إندراجيت: "إننا لن نذوق الطعام أو النوم إلى أن ينزل الخراب برافانا وأسرته كلها. ولسوف نقتلك أولاً ثم والدك، ونهدم لانكا على رؤوس سكانها. وننتزع المظلة الملكية لنقدمها لفيبيشانا!" فقذفهم إندراجيت بوابل من السباب والشتائم، وصرخ فيهم: "إذا بقيتم أحياء اليوم، فلتنصبوا فيبيشانا ملكاً." وما إن قال هذا حتى اختبأ من جديد بين الغيوم وبدأ حربه القذرة. كانت سهامه السحرية رهيبة فتاكة لا تخطئ هدفها، وتنهمر من السماء كالمطر فسقط ثمانون ألفاً

من القردة ومعهم قادتهم مضرجين بالدماء عند الباب الجنوبي.

وكالأسد الهصور مضى إندراجيت إلى الباب الشمالي، وصاح: "من الحارس هنا؟ هيا تقدم أيها الوغد!" وكانت القردة ذات العيون الرمادية هي التي تقوم على الحراسة عنده. فأجابت: "إليك قردة لا حصر لها، لا تعرف النوم أبداً. يقظة تتشوق إليك، بل إن الملك سوغريفا ذاته بانتظارك. وسنبقى دون طعام أو نوم حتى نقتل كل راكشا في لانكا. ولسوف نبدأ بك أولاً، ثم والدك، وعندئذ نحتفظ بالمظلة الملكية لفيبيشانا." فرد عليهم بسيل من الشتائم المقذعة، وعيناه تقدحان شرراً لشدة غضبه. وصاح بهم: "إذا عشتم اليوم، فلكم أن تنصبوا فيبيشانا ملكاً." ثم اختفى بين الغيوم، كما فعل أمام البابين الشرقي والجنوبي، وشرع يشن عليهم حربه الظالمة. وكان جيش القردة على الأرض عاجزاً أمام الأسلحة الرهيبة التي أخذت تنهمر عليهم من السماء. وسرعان ما سقط على الأرض سوغريفا وقادته الشجعان وأعداد لا حصر لها من القردة مضرجين بدمائهم.

مضى إندراجيت وهو يتخفى بالغيوم إلى الباب الغربي وصرخ بصوت كزئير الأسد: "من الذي يحرس الباب الغربي؟ هيا تقدم لتنازلني!" فأجابه هانومن: "ثمة أعداد لا حصر لها من القادة وأمراء الجند الشجعان الأقوياء يحرسون هذا الباب، سوشينا عم الملك ووالد زوجه ومعه الملايين من القردة ذوي البأس، وشري راما ولكشمانا وأنا هانومن. إننا لا نأكل ولا ننام بل سنبقى يقظين ليل نهار إلى أن نقتل ملك لانكا. ولسوف نقتلك أولاً يا إندراجيت، ووالدك ثانياً، ونحتفظ بالمظلة الملكية لفيبيشانا."

اتقد إندراجيت غضباً وراح يمطر هانومن بالشتائم والسباب، ثم صاح براما: "أنا إندراجيت، متى عرفت اسمي علمت شأني. أنا من يشهد له العالم بالبأس. فاعلم، أي راما، أنكم لن تفلتوا مني، ولسوف ينالكم مني عسف عظيم." قال إندراجيت هذا واختفى بين الغيوم، وأخذ يرمي راما ومن معه بسهامه النارية النافذة التي تخترق كل ما تقع عليه. وحاول الأخوان راما ولكشمانا، أن يردا على عدوهما، بالرغم مما أصابهما من جراح. لكن القذائف والسهام كانت تنهال عليهما بلا انقطاع من كل حدب وصوب. فلا تدع

لهما مجالاً للرد المناسب. وهكذا أصبحا هدفاً لتلك الأسلحة السحرية التي أصابتهما بجراح بليغة، فوقعا مغشياً عليهما، وإلى جانبهما كان يرقد جيش القردة الأموات منهم والذين يحتضرون.

عاد إندراجيت المتغطرس إلى لانكا، بعدما تحققت له الغلبة على أعدائه. فزينت الشوارع بحبال من الزهور، ورشت بماء خشب الصندل، ورفرفت الأعلام الحريرية خفاقة فوق كل بيت من بيوت لانكا، وطاف الموسيقيون في الشوارع يعزفون الألحان البهيجة. ولما وصل إندراجيت إلى القصر، انحنى البطل المظفر أمام والده الملك وزف له البشرى بالنصر، قائلاً: "إن الذين شنوا الحرب علينا قد قضوا نحبهم. فراما وجيوشه كلها، ولكشمانا وهانومن المقدام، وأعداد لا حصر لها من القردة، وسوغريفا وأنغادا والقائد نيلا والدب جامبافان، جميعهم سقطوا وجثثهم ممددة بجانب البحر. وتمت استعادة الأبواب الأربعة التي طال بقاؤها في أيدي القردة. لم يعد أي من أعدائنا حياً، الآن. ولن يخيف القرد سوغريفا قومنا بعد الآن، كذلك صار أولئك الذين أحرقوا بيوتنا إلى الموت."

قبل رافانا ولده وباركه وأغدق عليه إنعاماته الملكية. فمنحه خوذة مرصعة بالجواهر وأساور مرصعة بالجواهر النادرة لتزين أعلى ذراعيه ورسغيه، وغير ذلك من الهدايا الثمينة. ولقد أفرغ خزائنه من الثروات التي تحتويها وأعطاها كلها لولده إندراجيت باستثناء عرشه.

دخل إندراجيت القصر، مكللاً بالمجد، فاستقبل فيه بالتهليل والهتاف. وكانت نساء البيت المالك السعيدات، منشغلات بحفل الاستقبال العظيم الذي أقيم لتكريم البطل المغوار.

سقط راما ولكشمانا صريعين ومعهم جميع أتباعهم. ولم يبق حياً سوى فيبيشانا وهانومن اللذان أنعم عليهما براهما بالخلود. وراحا يتنقلان والمشعل بأيديهما، من جثة إلى أخرى، ويقلبان أجساد الجرحى والقتلى بحثاً عن جامبافان. وصادفا الملك سوغريفا ممدداً جثة هامدة ومعه جنوده المئة ألف، والقائد نيلا ما زال يحمل شجرة بيديه الجبارتين، وأنغادا

ممدداً عند الباب الجنوبي وقد غطت السهام جسده. وحينما شاهدا جثتي راما ولكشمانا عند الباب الغربي غلب عليهما البكاء، وحاولا إعادتهما إلى الحياة، لكن دون جدوى. وكان إلى جانبهما الوزير جامبافان، وقد أثخنته الجراح ولا يقوى على فتح عينيه، وصدره يؤلمه ويكاد لا يتنفس إلا بصعوبة. فقال له فيبيشانا: "نرجوك أن تنهض وتشير علينا، فأنت ذو القوة والحكمة، ومن سواك نسأل النصح في الشدائد؟" قال جامبافان: "إن جسدي قد اخترقه ألف سهم، وكلَّ بصري، ولا أقوى على التنفس. لا بد أنك فيبيشانا الصالح النزيه. فحاول أن تعثر على ابن الريح. لتعملا معاً على إحياء قومنا!" فأجابه فيبيشانا: "قد كنت على ذكاء عظيم، يا جامبافان، لكن لا بد أن سهام إندراجيت قد عطلت قدراتك. إن شري راما ولكشمانا وسوغريفا ملك القردة قد لقوا مصرعهم. فما نصيحتك لنا، حسبنا منك النصيحة في وقت الشدة!"

رد جامبافان: "لقد فقدت دهائي، أحضر لي هانومن، فلا حاجة لنا بسواه! ابحث عنه وجده، فهو منقذنا!" فقال فيبيشانا: "افتح عينيك، إن هانومن أمامك هنا." لمس هانومن قدم جامبافان احتراماً. فقال له بهدوء وتمهل: "لقد سقط شري راما ولكشمانا والقردة، لكنهم سوف يعودون للحياة إذا أحضرت لهم الدواء. فلتركب الريح، ولتجعل نفسك غير مرئي، ولتطير إلى جبال الهيمالايا العالية، ثم إلى جبل الأعشاب الشافية. وهناك سوف تصادف أربعة نباتات تحمل أربعة أنواع من الأدوية. ولن تغيب عنك فهي تضيء في الظلام. اجلب هذه النباتات ذات الخصائص العجيبة التي تمكن من شفاء الجراح، وجبر العظام، وإعادة الموتى إلى الحياة. لكن تذكر أن عليك أن تأتي بها قبل طلوع الفجر.

ودع هانومن جامبافان واستعد لرحلته. فرفع ذيله عالياً، ومد أذنيه، وارتفع في الفضاء، متوسداً الريح، وانطلق بسرعة البرق محدثاً ضجة كبيرة. وبدت الأرض من ذلك الارتفاع صغيرة، طار فوق الأنهار والبحيرات والغابات، وقطع البوادي والقفار، واجتاز جبال الهيمالايا وخلف وراءه جبل كيلاسا المكلل بالثلوج، ووصل إلى جبل الأعشاب. ولكن أين هي النباتات الشافية؟ وراح يبحث في الجبل كله دون جدوى. قال في نفسه ممتعضاً:

"أربعة أنواع! إنني لم أقع على واحد منها! لقدْ ضاع الجهد، وكان سفراً بلا طائل، حين أخذت بنصيحة الدب. فلا ريب أن العقل بدأ يجافي العجوز جامبافان، بعد أن أصابته تلك السهام!" لكن هانومن الذكي الحكيم، عاد يقدح زناد فكره، ورأى أن جامبافان على ما عرف عنه من مقدرة في الوزارة وذكاء وتقدير للأمور، لا يمكن أن يكون مضللاً، وإذا كان قد أشار إلى هذا الجبل فلا بد أن الدواء فيه، ولا بد أن الجبل الماكر هو الذي يخفيه. لقد أحسن إندرا صنعاً حين قص جناحيه. ثم خاطب الجبل، قائلاً: "أتحسبني مجرد وحش من وحوش الغابة، أيها الجبل، فتهزأ مني في ملمتي؟ إذن فانتظر لأقتلعك من جذورك، وأرمي بك في البحر، عقاباً لسخريتك. إنني رسول سوغريفا وخادم راما، وتتجرأ على السخرية مني!" وصر بأسنانه، وحملق غاضباً، واستأنف يقول: "إن أنت إلا صخرة صغيرة، أيها الوغد، فمن وصفك بالجبل؟" وراح يهزه بكل ما أوتي من قوة وعزيمة. فأخذ يتأرجح ويترنح وأخذت الحيوانات المذعورة تجري فتتعثر وتصطدم ببعضها البعض، وتهاوت الأشجار، وانقطع الحكماء عن متابعة تأملاتهم في الغابة، والأشباح والأرواح الشريرة التي كانت تختبئ هناك ولت هاربة على عجل. وراحت المخلوقات في تلك الأنحاء تردد: "هذه هي نهاية العالم!"

سرى القلق إلى جبل الأعشاب فسارع إلى هانومن متخذاً هيئة حكيم عجوز وأخذ يخاطبه بمعسول الكلام: "من تكون يا أشجع الشجعان، ولماذا تهز هذا الجبل؟" فقال هانومن: "إنا ابن الريح، ورسول سوغريفا وخادم شري راما، وإنني في حملة راما على رافانا الماكر ذي الرؤوس العشرة الذي اختطف زوجه سيتا عنوة. وقد أقام راما جسراً على المحيط ليصل إلى لانكا ويخوض مع القردة بقيادة سوغريفا حرباً ضد رافانا والراكشا. وما زالت الحرب دائرة حتى سقط راما وأخوه وجميع القردة بسهام إندراجيت القاتلة. فجئت إلى الجبل بتوجيه من جامبافان لأحصل على الدواء. لكن الجبل المحتال يعاندني، ولسوف أبذل قصارى جهدي لأعود بالدواء، ولو اضطررت لاقتلاع الجبل وحمله فوق المحيط إلى لانكا." فقال الحكيم: "اهدأ، يا ابن الريح، وسوف أدلك على مكان هذه الأعشاب الشافية." وقاده

إلى حيث تنمو تلك النباتات، فجمع منها هانومن الأنواع الأربعة التي أمر بإحضارها، ثم رفع ذيله ومد أذنيه وقفز في الفضاء.

كان الظلام ما يزال مخيماً حين حط هانومن في لانكا، ومعه الأعشاب الشافية. وراح يتجول عند أبواب المدينة الأربعة، ويعالج من سقطوا جرحى أو قتلى. فكان يعمد إلى سحق نبات "جبر العظام" ويضعه تحت أنوف الذين تكسرت عظامهم فتعود كما كانت سليمة معافاة. وكذلك كان فعل النبات "الشافي" بالنسبة للجرحى. وأعاد النبات "المحيي" للموتى الحياة. أما "المقوي" فمنح الصحة والقوة لمن وهنت قواهم وأصابهم الضعف في المعركة. وفتح راما ولكشمانا عيونهما واستويا في جلستهما، وكأنما استيقظا من نوم عميق. وقام سوغريفا وأنغادا ونالا ونيلا وبقية جيش القردة من مرقدهم أصحاء أقوياء. وذهبوا إلى هانومن يقدمون له التحية والشكر لفضله في إعادتهم إلى الحياة.

قال له راما: "أي هانومن، إنك لجدير بالمكافأة والتقدير. فكيف عسانا نكافئك؟ فمهما بذلنا سنكون مقصرين، وسيبقى جميلك يطوق أعناقنا مدى الدهر." ثم ضم هانومن إلى صدره معانقاً. وتابع قائلاً: "إن إخلاصك لعظيم، يا هانومن، وذكرك سيظل ملازماً لاسمي، وسيثني الجميع على هانومن الذي أعادهم إلى الحياة. لقد ضاع نصر إندراجيت وذهب سدى."

صاح القردة بصوت كهدير البحر: "النصر لراما!" وخالج رافانا في لانكا إحساس بكارثة وشيكة الوقوع. فقال: "من الذي يستطيع أن يرد القدر وتصاريفه. إن الكارثة محققة ولا ريب، ولسوف ينزل البشر والقردة الدمار بلانكا. لقد هلك شري راما ولكشمانا والجيوش التي معهما، لكن قبل أن ينقضي الليل عادوا إلى الحياة جميعاً. بينما لا أستطيع أن أعيد أياً من جنودي إلى الحياة. أي نوع من الأعداء هؤلاء، فما بلغنا أن من يموت يعود إلى الحياة ثانية؟ ولا عرفنا في لانكا محاربين مثل راما ولكشمانا. إن مدينتنا الذهبية خالية من الأبطال. وإذن فمن العبث أن نشن حرباً بعد هذا. سوف نغلق أبوابنا ولن ندع أحداً يدخل مدينتنا. إن الحياة كنز ثمين. هيا أيها الحراس! أغلقوا أبواب المدينة!"

سارع الراكشا إلى إغلاق الأبواب الذهبية الأربعة لمدينتهم، وأحكموا إيصادها. ومرت خمسة أيام، وبقيت الأبواب، كما شاء الحاكم، مغلقة. وضحك سوغريفا وهو ينادي قومه: "لقد حبس رافانا نفسه في الداخل. هل يعتقد هذا الوغد أنه انتصر في الحرب؟" ثم انتقل إلى الباب الغربي. فوجد راما ومعه لكشمانا على الشاطئ يحيط بهما القردة. ووقف أمامهما هانومن وجامبافان وفيبيشانا ضامين راحاتهم ومتأهبين لتنفيذ ما يصدر إليهم من أوامر. فانضم إليهم سوغريفا وهو ينحني إجلالاً أمام راما ولكشمانا.

سأل راما: "ما المكيدة التي يدبرها ملك لانكا؟ لقد أقفل الأبواب الأربعة طوال هذه الأيام الخمسة، وأوقف الحرب. فما الذي حمله على هذا، يا صديقي سوغريفا؟" فأجاب سوغريفا: "مولاي، بلغنا أن رافانا لم يعمد إلى إغلاق الأبواب إلا لأنه قلق. ويخامره الإحساس بوقوع كارثة وشيكة." قال راما مخاطباً جامبافان: "لتشر علينا، أيها العزيز، فيما يجب أن نقوم به." فرد جامبافان: "أي مولاي، الرأي عندي أن ترسل القردة فيشعلون النار في كل بيت من بيوت لانكا."

نهض سوغريفا، عندئذ، وأرسل في طلب كبار القادة للمثول أمامه، ثم كلفهم بالمهام التي عليهم القيام بها في لانكا. ولما بلغوا الأسوار وثبوا إلى داخل المدينة، وأثاروا فوضى شديدة فيها. وأخذوا يحاكون نساء الراكشا، كما تملي عليهم طبيعة التخابث والعبث فيهم، فيقلدون حركاتهن، ويكشرون عن أنيابهم لتخويفهن، بل يمدون أيديهم للعبث بملابسهن. فولين الأدبار مذعورات، وخلفن ثيابهن وراءهن، بينما كان القردة يقهقهون. وراح جماعات منهم يركلون ويصفعون أهالي لانكا، ويدخلون غرف المؤونة ويريقون السمن، ويكسرون جرار الزيت الزكي الرائحة، ويكدسون أكواماً من القماش، ويفرون بعيداً. وبحلول المساء كانوا قد أشعلوا آلاف المشاعل، وراحوا يقفزون على أسطح المنازل ويضرمون النار فيها. وفر الراكشا مذعورين من بيوتهم وقد اختلط الحابل بالنابل، وقفزوا إلى البحيرات ولم يعد يظهر سوى رؤوسهم خارج الماء. فلاحقهم هانومن الذي كان يراقب الأحداث وبيده مشعل متوهج وأحرق وجوههم. وهلك الكثير من الراكشا صغيرهم

وكبيرهم بالنار، كما أصيب العديد منهم بحروق شديدة. والتهمت النار أعداداً لا حصر لها من المنازل، والدور الجميلة، وأقفاص الطيور المدللة، والببغاوات والطواويس وطيور الكركي، وآلاف الجياد والفيلة وقطعان من الحيوانات الأخرى. فكانت ألسنة اللهب تلتهم كل ما يصادفها. قال أنغادا: "هيا، يا ابن الريح، لنبق نحن الأربعة عند الأبواب الأربعة وبأيدينا المشاعل، لنحرق أولئك الراكشا الذين يريدون الهرب من المدينة." فوافقه هانومن الرأي، وقام الأربعة بتنفيذ ما اقترحه أنغادا.

صرخ رافانا: "لا أستطيع أن أحتمل هذه الإهانة. وما من جدوى من حبس أنفسنا في بيوتنا التي احترقت. ولا سبيل لنا إلا القتال لننقذ أنفسنا." ثم أرسل في طلب كومبا ونيكومبا ولدي كومبكارنا. فجاءا وانحنيا له احتراماً وإجلالاً. قال رافانا: "انظرا إلى الحال الذي صارت إليه لانكا. إن بسالتكما أيها الشقيقان لا تضاهى، فأنتما من قهر العوالم الثلاثة. ولقد حالفني النصر من قبل بقوة ساعدي والدكما. وإنني لأشعر بالحزن عليه حزناً لا يفارقني وأسكب عليه دمعاً لا يجف. لقد أصبحت لانكا خالية موحشة بعد أن فقدت كومبكارنا، ولا مهرب من هؤلاء البشر والقردة. وحين كنا نقاتل إندرا أنقذنا والدكما، وها نحن نعتمد عليكما الآن، لتنقذانا من البشر والقردة. هيا عليكما بأعداء والدكما. وردا ما له عليكما من دين. وعندئذ يحق لكما أن توصفا بأنكما بارين عظيمين."

مضى ولدا كومبكارنا إلى الحرب، كما أمر الملك، مستقلين عربتهما وفي إثرهما جنودهما تحملهم الفيلة والجياد. وأسرعا إلى الباب الغربي وهما يصيحان: "اقتلوهم! اقتلوهم!" ولقد أبلى هذان المحاربان في تلك المعركة أحسن بلاء، وأبديا كل ضروب الشجاعة والبأس. لكنهما سرعان ما أدركا أن قهر أعدائهم ليس بالمهمة اليسيرة، حينما شاهدا قادتهم يسقطون الواحد تلو الآخر، تحت وابل من الأشجار والصخور تنهال عليهم. ووجد الراكشا أن الأسلحة عاجزة عن دفع أذى الأعداد التي لا حصر لها من القردة الذين كانوا يتواثبون فوق عرباتهم وقبل أن ينتبهوا، ينشب القردة أظافرهم في وجوههم. وكان القردة يدعونهم للنزال فرادى، بطلاً لبطل، ويقاتلونهم مثل الفيلة الهائجة. وكان الراكشا

إذا تلقوا ضربة وقعوا على الأرض، ثم تلقى عليهم الصخور الضخمة لتسحقهم حتى الموت.

فر جند الراكشا وقد تملكهم الهلع إلى ولدي كومبكارنا. بينما كانت صيحات القردة وهتافاتهم بالنصر لراما تملأ الفضاء. ولقد غلب على كومبا المقدام الغضب لطغيان القردة على الراكشا، فاندفع إلى الأمام مدججاً بالسلاح وبعزيمة لا تلين، يرافقه جند أقوياء، فأخذ القردة يفرون من أمامه حالما تقع أنظارهم على هيئته المريعة. وهب أنغادا وماهيندرا ودافيندرا لملاقاة العدو، وأظهر كل منهم شجاعته في المواجهة، لولا أن أشجارهم وصخورهم تحطمت بسهامه النارية. لكنهم واصلوا القتال بالرغم مما أصابهم من الجراح إلى أن منيوا بالهزيمة. فأسلحة كومبا كانت دقيقة لا تخطئ هدفها. وتمدد القردة الثلاثة الأبطال على الأرض مغمى عليهم. وانهمرت الصخور والأشجار على كومبا لكن أسلحته كانت تحولها إلى فتات.

انتابت سوغريفا نوبة من الغضب الشديد، فوثب على عدوه ودارت بينهما معركة رهيبة. وكانا يقاتلان كالأسود... ثم وثب سوغريفا على عربة كومبا، وبيديه انتزع أنياب الفيل الذي كان يجرها، وأخذ يهاجم بها كومبا، فأصيب في أثناء المعركة بالجراح ووهنت قواه، فأسرع سوغريفا ورمى به أرضاً محطماً جمجمته. وحين شاهد نيكومبا أخاه يسقط صريعاً مضرجاً بالدماء، رفع صولجانه الجبار وسدده نحو سوغريفا، وهو يزأر غضباً، فأسرع سوغريفا مولياً الأدبار خوفاً من ثورة غضب غريمه. فوثب هانومن إلى الأمام غاضباً وتحدى نيكومبا، قائلاً: "كيف تجرؤ على قتال مليكنا وخادمه حاضر؟ إن كنت شجاعاً فنازلني، ولنر من الذي سيسقط صريعاً منا؟"

صاح نيكومبا: "يا "مشعل الحرائق" غدراً! إذا ما وصلت إليك، فإنني لا أرغب في قتل أحد سواك." وهكذا أخذا يتبادلان السباب والشتائم ويستفز أحدهما الآخر. ثم اشتبكا في العراك فاندفع نيكومبا وبيده صولجانه فهوى به على رأس هانومن، لكن صلابة رأسه حطمت الصولجان. فضحك هانومن وقال: "لقد انتهى أمر صولجانك." فأجابه نيكومبا:

"لنر الآن إن كنت تحتمل قبضتي." ووجه إلى قلب هانومن ضربة قوية من قبضته، فأغمي عليه من قوتها، فحمله نيكومبا من الأرض، وقفل عائداً إلى لانكا ليقدمه إلى رافانا. وخرجت نساء الراكشا إلى الطرقات حتى غصت بهن لرؤية هذا المشهد، ودوت في المدينة الهتافات بحياة نيكومبا، وقال الجميع: "أحسنت صنعاً! لقد قبض والدك من قبلك على سوغريفا، وها أنت ذا تأسر "مشعل الحرائق". حقاً إن الولد سر أبيه! وها قد وقع هذا الآثم في شر أعماله، لقد عبر البحر العظيم ليحرق مدينتنا، فوقع أسيراً بيديك!"

لكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما استعاد هانومن وعيه، وهو بين ذراعي نيكومبا. فأخذ يفكر ملياً في ما يجب عليه عمله، وفي لحظة أنشب أظافره وأسنانه في لحم سجانه وانتزع أذنيه. فراح نيكومبا يصرخ مولولاً: "إليك عني! إليك عني!" ثم أمسك بأسيره يريد أن يطوح به، لكن هانومن لم يتركه، وأخذ يلف شعره الطويل على يده، ويشده بقوة ويهز رأسه هزاً عنيفاً حتى اقتلع رأسه من بين كتفيه. ثم وثب وهو يزأر كالأسد واندفع بسرعة الريح مغادراً لانكا وطار حتى وصل أمام راما، فانحنى له ورمى بين يديه برأس نيكومبا.

حمل الرسل إلى رافانا نبأ مقتل ولدي كومبكارنا، فأخذ يذرف الدمع من عيونه العشرين لتلك الخسارة الأليمة. ثم أرسل في طلب قائد الراكشا العظيم موكاراكيا، ابن أخيه الراحل كارا. فجاء ملبياً دعوة الملك. فربت رافانا على رأسه بحنان، وقال: "إنك، يا ابن أخي، لقائد عظيم. فهيا! عليك بالدفاع عن لانكا، وإنقاذها من البشر والقردة. ولترد دين أبيك، وتنال المجد! إن والدتك تمضي الليل والنهار تسكب الدمع حزناً وأسى، مما تكبدته من راما. وقد حملني هذا على اختطاف زوجه سيتا. فدونك راما ولكشمانا، اقتلهما، لتعيد السعادة إلى أمك!" فأجابه: "لتقر عيناً، أيها الملك، لسوف تراني أنزل الدمار بأعدائك، ويكون لك النصر عليهم." فقال رافانا، وقد اطمأن باله: "لقد عرفناك شجاعاً، أي موكاراكيا، وها أنت ذا تؤكد لي شجاعتك. ولكم أثلج قلبي أن أسمع كلماتك هذه." ثم ألبس ابن أخيه لباس الحرب، وصدحت الأبواق، وعزف الموسيقيون الألحان الحماسية إعلاناً للاستعداد للحملة الجديدة.

قال موكاراكيا متبجحاً: "عهداً أيها الملك أنه في هذه المعركة التي سأخوضها مع البشر والقردة لن يفلت مني أحد من هؤلاء. ولسوف أؤدي الطقوس استرضاء لروح والدي الصريع بدم راما ولكشمانا وسوغريفا وفيبيشانا." فاسعد هذا الكلام الراكشا كثيراً. وعلت الأصوات بالثناء على موكاراكيا وشجاعته وبأسه وحكمته وأنه لا مثيل له في لانكا كلها.

راح موكاراكيا يعمل الفكر في ما ينتظره، ويتأمل: "إن هذه المعركة التي سأخوضها مع البشر والقردة خطيرة. وسقط في مثلها كومبكارنا وأتيكاي. فالقتال مع راما يعني الموت. ولكن لا مخرج من هذا البلاء. وما بلغنا عن راما أنه رجل طيب السريرة ورع. وهذه خصال حسنةً. وهكذا تفتق عقل هذا الماكر عن خطة خبيثة يقابل بها راما. وقد علم أن راما يقدس الأبقار وينهى عن قتلها. فامر بإحضار آلاف منها، وتخلى عن فيلته وجياده وأحاط نفسه عوضاً عنها بالأبقار والثيران. وجلل عربته بجلودها، واتخذها درعاً له. وأمر جنده أن يحذوا حذوه. وحمل بيده قوسه الجبار وسار على وقع الطبول وأنغام المزامير والقرب، وقاد جيوشه إلى المعركة، فاخذ جند الراكشا ينقرون على أوتار أقواسهم فتعالت منها ضجة تصم الآذان، وراحوا يهتفون: "اقتلوهم! اقتلوهم!" وهم يزحفون نحو الباب الغربي. وتردد في كل مكان أن موكاراكيا قد جاء محارباً، وانتفض القردة ووثبوا عالياً وهم يهتفون: "النصر لراما!"

اندفع ابن كارا بعربته، وهو يرغي ويزبد غضباً، مبادراً بالهجوم، فخرج إليه هانومن الذي أفزعه أن يرى قطعان البقر تسد الطريق، والعربة الحربية التي تحمل عدوه تجرها الثيران أيضاً. وأن عليه أن يقتل هذه الحيوانات البريئة قبل أن تصل يداه إلى خصمه. وذلك إثم عظيم، أليست البقرة هي التي تغذي الإنسان بحليبها وتمده بالحياة في طفولته، بل لسنوات طويلة بعد ذلك؟ ووجد هانومن نفسه في حيرة لا يدري كيف يتدبر الأمر.

أمطر موكاراكيا جيش القردة بوابل من السهام وأردى الآلاف منهم قتلى. وجند الراكشا خلفه يهتفون: "اقتلوهم! اقتلوهم!" وأخذ نالا ونيلا وسوشينا وهانومن وسوغريفا وسواهم من القادة يرمون الأشجار والصخور من أيديهم ويولون الأدبار هاربين. ولما رأى موكاراكيا

القردة تفر من ساحة المعركة، قاد عربته أمام راما وصاح: "تقدم وقاتل! لقد قتلت والدي في غابات دنداكا ولسوف تنال الآن الجزاء الذي تستحقه. وها هو ذا، أخيراً، خصم والدي أمامي، ولأرسلنك إليه الآن، وأفصلن رأسك عن جسدك بسهامي القاطعة، وأجعلن لحمك طعاماً لبنات آوى والكلاب." ثم رفع قوسه وراح يمطر راما بسهامه.

كان راما يخشى في بداية الأمر أن يدافع عن نفسه، فالأبقار كانت في كل مكان، وأينما اتجهت أنظاره كان يجدها، وأفزعه عندئذ أن يقتلها، إن استخدم سلاحه...

ثم لمع في ذهنه ما ذكره بهدية إله الريح. فقذف بذلك السلاح الرهيب باتجاه عدوه، فهبت رياح عاتية عاصفة... كانت قوة إله الريح وسلطانه تكمن في هذا السلاح العجيب. كانت العاصفة قوية حتى أنها جرفت أمامها قطعان البقر وحملتها بعيداً، وجردت عربة موكاراكيا من تلك الجلود التي تجللها. وتعالت هتافات القردة: "النصر لراما!" وعاد الحماس يدب فيهم من جديد. فاستأنفوا القتال، وأقام مجموعة منهم طوقاً حول موكاراكيا، وأخذوا يرمونه بالأشجار والصخور. لكن هذا الراكشا المخادع لم يعدم حيلة معهم، فصوب عليهم أسلحته التي بعثرتهم. ثم اندلعت معركة ضارية بينه وبين راما. ولم يجد راما مناصاً من أن يطرح جانباً أسلحته العادية، ويرمي في الميدان بالأسلحة السحرية. وفي النهاية، وبعد معركة دامت ساعات عديدة، سقط سلاح ناري من راما على خصمه فقضى عليه.

حمل الرسل وقد أثقلتهم الأحزان نبأ نهاية موكاراكيا إلى ملك لانكا. وما إن تلقى رافانا أنباء هذه الهزيمة الجديدة حتى أجهش بالبكاء مكلوماً حزيناً فحاول أفراد الحاشية مواساته، لكن المحاولة لم تجد، وظل الملك مقيماً على الحزن يتآكله الأسى. وعاد يتساءل في خلده عمن بوسعه الآن أن يرسله إلى الميدان لقتال هؤلاء البشر والقردة. فقد رحل خيرة أبناء لانكا وأشجعهم. فمن هناك ليذهب لقتل راما ولكشمانا وذلك القرد سوغريفا؟ وأشار عليه وزراؤه أن يرسل تاروني سن. وجاء هذا حين بلغه أمر الملك، ووقف أمامه وانحنى محيياً صاحب العرش. وانتابه شعور بالفخر والزهو حين ضمه الملك إلى صدره واستقبله بالزهور والحلوى. وازداد زهواً حين سمع الملك يلجأ إليه، قائلاً: "إن لانكا أمانة أعهد بها

إليك، أي تاروني، ولست أكتمك بأنني لم أكن أتوقع مثل هذه الكارثة. ولقد قدم لي والدك الصالح فيبيشانا الكثير من المشورة الحسنة، ونصحني بالهدنة، لكنني أعرضت عن النصيحة بسبب من الكبرياء وجنونه، ففقدت رشدي وأقصيت أخي النزيه عن البلاط. فتركني لينضم إلى راما الذي يحب، وراما يعني الموت لنا. إنه هو الذي أتى بالدمار إلى لانكا بما قدمه من نصائح إلى أعدائنا. صحيح أنك ابنه، لكنك لست على شاكلته. لقد عرفتك منذ زمن طويل. وولاؤك لي مؤكد لا ريب فيه. فإن أنقذت قومنا كان لك كل ما في مملكتنا من ثروات. ولا يكون ذلك إلا بالقضاء على أعدائنا وخصومنا."

ضم تاروني راحتيه وقال: "إنك ملك الراكشا، وتعلم أن كتب الحكمة توصي بتبجيل الوالدين. وإنني لست بالذي يقول في أبيه قولاً سيئاً." فرد رافانا: "إنك ابن بار حقاً، إنما أسالك أن تنقذنا من هؤلاء البشر والقردة. وإنني أعلم أن النصر لا بد حليفك. فهل هناك من يضارعك بأساً وشجاعة وتدبيراً في العوالم الثلاثة كلها؟ وأنت سيد فنون الحرب وصاحب العقل الراجح. فلتقيد عدوينا راما ولكشمانا بالأغلال ولتأت بهما." فرد تاروني: "لسوف أبذل قصارى جهدي لأحقق أمر الملك." فقبله الملك وضمه إلى صدره، وقد غمرته السعادة، وطوق عنقه بقلادة مرصعة بالجواهر النادرة التي تخلب الألباب، وأهداه الأساور الذهبية، ودرعاً وخوذة، وجهز له عربة حربية تخفق الأعلام فوقها، وتكدست فيها كافة أنواع الأسلحة.

صاح تاروني برجاله، قائلاً: "ارتدوا لباس الحرب وجهزوا أنفسكم." ثم أسرع إلى والدته ساروما وقال لها: "أي أمي! لقد جئتك مودعاً." ولمس قدميها وهو ينحني أمامها، وتابع كلامه: "إنني ذاهب إلى الحرب كما أمر الملك. ولسوف تتطهر نفسي بمشاهدة شري راما ورؤية والدي ثانية فاسمحي لي يا أماه بالذهاب إلى المعركة."

جفلت ساروما مما سمعت من ولدها، وأخذت تذرف الدموع وهي تقول: "ماذا تقول يا بني؟ إن قلبي ليرتجف. حذار من قتال أولئك البشر والقردة. فلنرحل، إذن، عن لانكا ونقصد مكاناً آخر. وليبق رافانا هنا في مملكته. إن الكل يعلم أن والدك الصالح اضطر إلى

مغادرة هذا المكان الشرير، وانحاز إلى راما. فلتذهب إلى راما يا ولدي فهو مقدس. لقد ولد الإله فيشنو في بيت دشاراتا لينزل الخراب بالراكشا. وكان والدك يعلم هذا، وهو ما حمله على اللجوء إليه. وإنك فاضل وعلى خلق، فما يحملك على الذهاب إلى الحرب؟"

أجاب تاروني: "لقد بلغني أن فيشنو، الحافظ، تجسد على الأرض على هيئة راما. لكنني عزمت، مع ذلك، على الذهاب إلى الحرب. وإذا ما لقيت حتفي على يدي راما، فإنني سوف أذهب إلى الفردوس. وقد جاء في كتب الحكمة، أن الروح خالدة ولا يستطيع أحد أن يمسها. فلمَ أخشى الموت؟ وقد علمني والدي الحكيم أن مآل الجسد إلى الفناء. وما هو إلا أداة نحس بها جميع الأشياء العارضة الزائلة. وإذا ما أبقى راما على حياتي، فسوف تجدينني أنحني عند قدميك من جديد. أما إذا شاء لي القدر الموت فلا سبيل لأحد أن ينقذني، حين تنقضي حياتي على الأرض."

• كانت ساروما ذات ذكاء وفطنة وشجاعة، فآثرت أن تحبس دموعها. فودعها تاروني، وغادر وبرفقته حشد غفير من الاتباع المدججين بالسلاح، بعضهم يمتطي الجياد أو الفيلة، وبعضهم الآخر يركب العربات ويحمل الرماح، وساروا على إيقاع الموسيقى العسكرية التي تبث فيهم الحماس. وكان تاروني يتقدم الجميع غير هياب، وقد برز على أطراف عربته اسم راما، وعلى أعلامه وراياته كذلك. وزحف البطل، حاملاً القوس بيده، إلى الباب الغربي ومعه جنده الذين راحوا يرددون: "اقتلوهم! اقتلوهم!" واندفع القردة إلى الأمام ومعهم الأشجار والصخور، فقابلهم جيش تاروني بالأقواس والسهام. كانت المعركة ضارية واشتد فيها القتال واستعر حتى ضاق بها القردة، فأخذوا بالفرار من المعركة.

التفت راما إلى فيبشيانا، وقال له: "أخبرني، يا صديقي، من هذا القادم إلى الحرب؟" فأجابه: "آه! يا مولاي، إنه واحد تربى على مائدة رافانا، وأحد أقربائه، وابن أخيه. وهو صالح وذو باس وشجاعة." وكان تاروني يتساءل وهو يقود عربته: "أين أنت أيها الملك راما؟ وكم سيطول الوقت حتى أرى والدي؟ وهل راما بعيد عنا؟"

اندفع نيلا الجسور إلى الأمام بقوة واعترض طريقه، وبادره بصوت كزئير الأسد: "إلى أين أنت ذاهب الآن؟ أتحسب أنك ستذهب بعيداً؟ الحق أنك أخطأت الطريق، وحق عليك العقاب! ولسوف أطيح برأسك بضربة واحدة."

فرد عليه تاروني: "ابتعد عن طريقي، ودعني أذهب لأرى راما ولكشمانا." فصاح به نيلا متوعداً: "سوف أسحقك بهذه الصخرة، فكيف سترى راما ولكشمانا؟" وأخذ القردة يضحكون وهم يرون اسم راما مكتوباً على كافة جوانب عربة تاروني وأعلامه وراياته. وقالوا ساخرين: "إن هؤلاء الراكشا الأشرار، أصحاب خبث ومكر. وقد أصبحوا فجأة من المؤمنين المخلصين، ويسعون مع ذلك للحرب. كان موكاراكيا الماكر يحسب بأنه سيحقق النصر بتسيير البقر والثيران في المقدمة واستخدام جلودها درعاً له. ولكن كم شعر بالغباء حينما جرفت كلها بسلاح الريح. انظروا إلى الرؤوس المقطوعة لأولئك الراكشا الممددين هناك. إنكم أكثر منا مكراً، أيها الأشرار، لكنكم لن تستطيعوا خداعنا بالتظاهر بالإيمان الكاذب والورع الزائف!"

اقتلع نيلا شجرة وحاول أن يهوي بها على رأس تاروني، لكنه قابل الهجوم بالضحك وأمسك بذراعه ورده عنه. فأطلق نيلا صرخة غضب مدوية، وعمد إلى انتزاع صخرة هائلة وقذف بها خصمه، لكنها تحطمت على رمح تاروني. ثم أطلق تاروني سهامه وأصاب نيلا فأخذ الدم يتدفق من فم البطل الجسور ووقع مغشياً عليه. ولما رأى هانومن ذلك، اندفع غاضباً ووثب على العربة وانتزع سوط سائسها. فوجه إليه تاروني الغاضب ضربة فسقط يتلوى من شدة الألم. فراح هانومن يصرخ: "اقتلوه! اقتلوه!" وهو يستعيد وعيه وينهض من جديد. وعاد القتال يدور داخل العربة، فامسك تاروني بذراع هانومن وطرحه أرضاً. فلما شاهد القردة ذلك المشهد لم يجرؤ أي منهم على التقدم. ونهض هانومن من جديد، وهاجم خصمه بشجرة وصخرة لكن تاروني ردها بسهامه. فراح هانومن يوجه ضرباته خبط عشواء فقتلت جميع الجياد بضرباته، لكن السائس شد على العربة جياداً غيرها، وأسرع مبتعداً بالعربة. وتقدم الآن كل من أنغادا وماهيندرا ودافيندرا وسواهم لمواجهته. ولقد أبلى

تاروني بلاء حسناً، وسقط الآلاف تحت ضربات رمحه وصولجانه وسهامه الملتهبة. لكن جيش الراكشا اندحر على أيدي القردة وسقط الكثير من الفيلة والجياد والعربات وسائسوها قتلى. وتراكمت الجثث فوق بعضها البعض وكأنها تلال وهي غارقة في برك من الدماء. وقتل من الراكشا أعداد لا حصر لها. وقد اجتمع عند الباب الغربي جميع القردة الذين كانوا يحرسون الأبواب الأخرى. وكانت معركة ضارية وطويلة. وفي النهاية سقط الملك سوغريفا ووهنت عزيمة بقية مرافقيه، ورفعوا أذيالهم وولوا الأدبار طلباً للنجاة بأنفسهم، ولم يتخلف عنهم سوى سوشينا وهانومن وأنغادا، الذين أثروا البقاء للعناية بملكهم الصريع.

اندفع ابن فيبيشانا بعربته، لا يمنعه عائق، حتى اعترضه راما وبيده قوسه ومعه لكشمانا، وجامبافان إلى يمينهما، وفيبيشانا إلى يسارهما. حيا تاروني والده، ثم ضم راحتيه ورفعهما إلى جبهته وانحنى أمام راما ولكشمانا. قال فيبيشانا: "انظر شري راما، إن هذا الراكشا يحييك ".فرد راما: "إن هذا الراكشا يحارب مع أعدائنا فلم يحيينا؟" فأجب فيبيشانا: "لأنه وفي مخلص لك، يا مولاي، ومحبتك تغمر قلبه. فإذا خرج لقتالك فلأن الملك أمره بذلك." فقال راما: "بما أنك تعرف عنه الإخلاص، فإنني أباركه، ولتتحقق رغبته."

قال لكشمانا مستغرباً: "ماذا تقول، يا راما! إن الراكشا يريدون النصر لرافانا." فأجابه راما: "إنك لا تعلم يا لكشمانا أن أهل الصلاح لا يقصدون مكسباً دنيوياً أو رغبة أنانية." وما إن قال راما هذا، حتى تقدم تاروني، ونقر وتر قوسه وزأر كالأسد الهصور. وقال متحدياً:" رويدك أتحسب أنك عائد إلى موطنك سالماً؟ إن دون ذلك لأهوالا!" فارتجفت شفتا لكشمانا غضباً، واطلق سهامه الرهيبة نحو تاروني، لكنها تكسرت عنده. واستمر لكشمانا يقذف خصمه بسهامه. استدعى تاروني راما في قلبه، وصمد حتى دمر أسلحة الخصم كلها وبقي هو سالماً. حتى "سهم الثعبان" سلاح لكشمانا الذي تخرج منه آلاف الثعابين، أصبح عاجزاً أمام سلاح تاروني "سهم الغارودا". ثم أخرج "سهم الضباب" فأثار ضباباً كثيفاً ضاع فيه الراكشا وأخذوا يذبحون بعضهم بعضاً. لكن "السهم المضيء" الذي أطلقه تاروني بدد الظلام، ثم أطلق لكشمانا، غاضباً، سهماً سحرياً استدعى آلاف الجند

غير المرئيين، فأنزلوا بالراكشا مقتلة عظيمة وذبحوهم حتى آخرهم، دون أن يقوى تاروني على إنقاذهم. فهاجم لكشمانا وهو يزأر غاضباً ووجه إليه ضربة بصولجانه، فسقط لكشمانا عندئذ على أرض المعركة. صاح تاروني المنتصر: "أين أنت يا راما، أيها الناسك الزائف؟ إن حياتك لن تطول. سوف أرسلك قريباً إلى عتبات الموت."

وقف راما ومعه قوسه الجبار أمام تاروني. فنظر الراكشا الشجاع وأطال النظر... وأخيراً طرح عنه أسلحته وارتمى عند قدمي راما، وقال وهو يضم يديه: "أي مولاي، أنقذني مما أنا فيه يا منقذ العالم وملاذه، يا صديق من ليس له صديق، أيها الملك الرؤوف أشفق علي. لقد ولدت في جسد الراكشا الحقير هذا لأذبح على يديك. فإن قطعت رأسي بسيفك، نلت الرحمة وكان مثواي الفردوس بلا ريب." وراح راما يذرف الدمع لدى سماعه كلمات تاروني. وقال: "أي صديقي فيبيشانا، لقد علمت الآن ان لدي في لانكا من يحبني حباً جماً. كيف بإمكاني أن أرميه بأسلحتي؟" ثم ألقى قوسه وسهامه، وتابع قائلاً: "كيف لي ان اعيش بعد ان أذبح محباً مخلصاً كهذا؟ لقد اقيم الجسر على البحر هباء. وجميع المعارك التي خضتها كانت بلا جدوى، ولن تنقذ سيتا. لا حاجة لي بسيتا ومملكتي، كيف أغرس سهامي في صدر من هو مخلص لي؟ إنني أقدر المخلصين لي، وأكن لهم من المحبة ما اكنه لوالدي. إنهم حياتي. فكيف أجرح واحداً منهم؟"

جلس راما صامتاً، عازفاً عن الحرب. فقال تاروني محدثاً نفسه: "إن راما بقلبه الرحيم يعرض عن القتال، فكيف لي إذن ان اتخلص من جسم الراكشا هذا؟ وليس أمامي لإنقاذ نفسي إلا القتال." ثم رفع قوسه وصاح: "أصغ يا راما، ما قلت هذه الكلمات المعسولة إلا لأختبرك. كيف تظن أنني عازف عن القتال؟ بل إني لقاتلك الآن، وشجاعتي يعرفها القاصي والداني!" وأخذ يهزأ منه ويعرض به: "لقد انتزع منك بهاراتا مملكتك واقصاك عن بلدك. ولسوف اقضي عليك وعلى لكشمانا ثم أجلس سيتا بجوار رافانا على عرشه."

وبرز عندئذ لكشمانا، وقد تماثل إلى الشفاء، وهو يهتز غضباً وسارع إلى الهجوم عليه وهو يصرخ: "أيها المارد الشرير إني قاتلك حالاً، فتهيأ لموتك!" ففكر تاروني والحزن يعتصر

قلبه: "إنني أرغب في أن أموت بيد راما". وأدرك فيبيشانا أفكار ولده، فخاطب راما مستعطفاً: "مولاي، إن هذا المحارب مرهوب الجانب في لانكا. وجدير أن يكون مقتله على يديك. لقد جرح لكشمانا قبل قليل، فلم تأذن له بالقتال ثانية؟ والأحرى أن تعفيه من القتال الآن!" عندئذ رفع راما قوسه وأطلق سهامه النارية. وردها تاروني بسهامه التي حطمتها. وعاد راما يطلق سهامه بصورة متلاحقة، وخصمه يردها عن نفسه، فينهال عليه راما بأسلحة حادة تشبه نصف القمر وما زال يرميه بها حتى سقط جواد تاروني وانهارت عربته. ونزل تاروني وأخذ يقاتل راجلاً، واكفهرت السماء من جراء تلك الأسلحة المتطايرة، ونال التعب من راما، وشحب وجهه، ولم يعد يستطيع تحريك ذراعيه إلا بصعوبة. فلاحظ تاروني ذلك وابتهج، وفكر أن راما لا بد مستخدم الآن "سلاح براهما" الحاسم. فقال محدثاً نفسه: "أيتها المملكة، أيها العرش، أيها الأحبة، لا رغبة لي الآن إلا أن القى حتفي على يديه واقيم معه في الفايكونثا!"

أدرك فيبيشانا مقصد تاروني، فالتفت إلى راما، وقال له: " أتوسل إليك يا مولاي، إن هذا الراكشا لن يقتل إلا بسلاح براهما. فارمه بهذا السلاح الذي تكرم براهما بمنحك إياه." فسدد راما هذا السلاح الرهيب وأطلقه... فتألق وشع بنور ساطع، وهدر بصوت كقصف الرعد، وشق الفضاء ليصل إلى هدفه... ضم تاروني يديه إجلالاً لراما... "مرحباً بالموت الآن، آه يا مولاي، بعد أن التقيت بك. فهل لي أن أقوم على خدمتك في العالم الآخر؟" هكذا كان يفكر تاروني المخلص حين اخترقه السلاح السماوي الخارق، وأخذ رأسه المقطوع يتمتم: "راما ! راما !" وهتفت القردة: "النصر لراما!"

وأخذ فيبيشانا ينوح، وهوى على الأرض، والدموع تبلل وجهه وهو يقول: "وا حسرتاه! وا حسرتاه!" فأسرع إليه راما وسأله وهو يحمله بين ذراعيه: "لماذا تبكي يا صديقي فيبيشانا؟ ماذا حدث؟" فرد عليه: "مولاي، إن تاروني سن الصريع هو ولدي الحبيب." فصاح راما وقد أصابه الحزن وتأنيب الضمير: "لماذا لم تخبرني بذلك؟ لو كنت أعلم لما قاتلته!" وصار كلاهما يبكي على تاروني، وامتزجت دموع لكشمانا والقردة بدموع راما

وفيبيشانا. وتفجع الشجاع هانومن وأنغادا وسوشينا وجامبافان كلهم على تاروني سن.

قال راما: "أي صديقي فيبيشانا، ما عهدت قلبك بهذه القسوة. فأنت الذي نصحتني بـ"سلاح براهما"، فكان مصرع ولدك به، فلم كانت، إذن، هذه النصيحة، وأنت تعلم أن من سيقتل هو ابنك؟ لماذا تبكي الآن؟ لماذا تذرف دموعاً لا طائل منها؟ دع عنك الحزن وهدئ روعك!" فقال فيبيشانا: "ناشدتك يا مولاي، ألا تظن أنني أتفجع على ولدي. لقد تحرر بموته على يديك من هيئة الراكشا. وصار الآن في طريقه إلى الفردوس. ولو استطعت أن أطرح عني جسدي هذا، لاستطعت أنا أيضاً أن ألحق به. وإن كنت تراني الآن باكياً فلأنه فرض علي أن أحتمل آلاماً لا نهاية لها في هذا العالم، ذلك سر بكائي ونحيبي!" فواساه راما بقوله: "لا تحزن، أي فيبيشانا، إن الموت والحياة عند الحكيم سيان. وما دمت مقيماً على هذه الأرض، فلسوف أمنحك ودي." عندئذ مسح فيبيشانا دموعه.

وحمل الرسل إلى رافانا نبأ مصرع تاروني: "آه يا ملك لانكا، إن تاروني سن قد سقط قتيلاً في ميدان المعركة اليوم!"

وقع رافانا عن عرشه مغشياً عليه، حين بلغه نبأ مصرع تاروني. ولما استعاد وعيه بمساعدة أفراد حاشيته وراح يتفجع عليه وينوح، قائلاً: "إيه يا تاروني، إن نساء الراكشا يبكينك في كل بيت من بيوت لانكا. لتبك ساروما ولدها." ثم فكر بمن يستطيع أن يرسله إلى المعركة الآن.

كان رافانا في الماضي البعيد قد شغف بحورية من حوريات السماء، اسمها تشيترانغادا. فأنزلها من السماء وتزوج بها. وأنجبت له هذه الحورية ولداً أسماه فيراباهو. ولقد باركه براهما، فنشأ طيباً صالحاً وانقطع للعبادة والصوم. فأنعم عليه براهما بأن أهداه فيلاً يضاهي فيل إندرا ايرافاتا. وقال له: "إنك بمساعدة هذا الفيل سوف تغزو العوالم الثلاثة. وستعيش ما دام هذا الفيل حياً، فإذا مات ستموت أنت أيضاً. وسوف تنذر نفسك للإله فيشنو، فلتحرص على طاعته دوماً. اذهب إلى بيتك الآن، وعندما يدركك الأجل سوف تصعد إلى

الفايكونثا بنعمتي عليك!"

نشأ فيراباهو وترعرع في مملكة جده لأمه، وقام بزيارة أبيه ذات يوم، فلم يستطع والده أن يتعرف عليه لغيابه عنه فترة طويلة. فقال فيراباهو: "هل نسيتني يا أبي؟ إنني ولدك فيراباهو، وأمي الحورية تشيترانغادا. ولتعلم يا أبت أن براهما قد أنعم علي لانقطاعي إلى العبادة والصوم والتكفير عن الذنوب، بأن أهداني هذا الفيل الذي يضارع ايرافاتا، وبه أستطيع أن أغزو العوالم الثلاثة في معركة لا تستغرق أكثر من يوم واحد."

ضم رافانا ولده إلى صدره معانقاً وتوسل إليه ان يبقى في لانكا. وقال له: "لتبق في لانكا، ولك من الامتيازات ما لإندراجيت سواء بسواء." فناشد فيراباهو والده أن يسمح له بالبقاء في مملكة جده، واعداً إياه أن يأتي إليه عندما يحتاجه. ثم حيا والده وغادر إلى مملكة جده.

وصلت أنباء الحرب في لانكا إلى فيراباهو في السماء البعيدة. وكان ابن رافانا الصالح هذا يصل الليل بالنهار منقطعاً للتأمل في فيشنو. وأدرك عندئذ أن الوقت قد حان الآن ليملي ناظريه بالإله في شكله البشري. فامتطى فيله، ورفع يديه محيياً براهما، وغادر مملكة جده إلى لانكا. وفي طريقه شاهد جسراً من الأشجار والصخور فوق المحيط. وحين وصل إلى مملكة أبيه، وجد الفوضى تعم البلاد. وغابت الموسيقى التي كانت تصدح في بيوت لانكا وقصورها، وافتقد الاحتفالات التي كانت تسم حياة القوم فاصبحت نسياً منسياً فكأنها من عهود مضت. ولم يعد يسمع سوى الضجيج المنبعث من حشود القردة، ونواح نساء الراكشا ونحيبهن حزناً على الموتى والخراب الذي شاع. ووقعت عيناه على مشهد مروع. فقد كانت النسور والجوارح وبنات آوى تفترس جثث الموتى وتنهش لحم المحتضرين من كلا الجيشين. ورأى أن النار قد أتت على معظم القصور الجميلة في لانكا وأحالتها هياكل خالية، لا تذكر بما كان لها من مجد.

سرت في فيراباهو القشعريرة لرؤية هذا المشهد وهو ما زال على ظهر فيله محلقاً في

السماء. وتفحص الأبواب الثلاثة وأخيراً مر بالباب الغربي فرأى راما ولكشمانا وإلى جانبهما عمه فيبيشانا، وقد أحاط بهم العديد من الدببة الضخمة والقردة. فحياهم جميعاً. وما إن نظر إلى راما، حتى أيقن بأن الراكشا فانون لا محالة. وعندما وصل إلى القصر الملكي، ودخل قاعة العرش، لم يجد ملك لانكا جالساً كعهده على عرشه، بل جالساً على الأرض ومن حوله أفراد الحاشية، والدموع تتدفق من عيونه العشرين تفجعاً على مصرع تاروني سن. ولما رأى رافانا ولده فيراباهو نهض واقفاً وعانقه، ثم جلس وإياه على العرش المرصع بالجوهرات الثمينة النادرة. وقال له: "أي فيراباهو، لقد شاهدت بأم عينك الخراب الذي نزل بلانكا. ومع أنني غزوت السماء والأرض والعالم السفلي، أجدني الآن مهدداً بالخطر من البشر والقردة." فسأله فيراباهو: "قل لي يا أبت، لمَ تخوض هذه الحرب مع البشر والقردة." فأجابه رافانا: "أي ولدي، للملك دشاراتا صاحب آيوديا ولد يدعى راما. ولقد استولى أخوه على مملكته ونفاه. ومضى راما ومعه زوجه سيتا وأخ أصغر له يدعى لكشمانا وأقاموا متنسكين في غابة بنتشفاتي. وكانت أختي شربناخا قد قصدت تلك الغابة لتقطف الأزهار، فصادفها لكشمانا هناك وجدع أنفها وقطع أذنيها. وعقاباً على ما اقترفته يداه، حملت زوج راما الجميلة إلى لانكا، وهي الآن في مملكتي. فجاء راما وقردته وحاصروا لانكا. ولقد سقط كومبكارنا وأبطال آخرون قتلى في الحرب التي تلت. ولم يبق سواك يستطيع أن يحارب هؤلاء الأعداء." فأجاب فيراباهو: "لا تخش شيئاً أيها الملك، فسوف أقضي على راما ولكشمانا من أجلك. وإنك لتعلم علم اليقين أن إندرا وبقية الآلهة يرتعدون بمجرد النظر إلي. فلتامر ولسوف أمضي فوراً إلى القتال!"

سر رافانا من فيراباهو وأهداه ملابس فاخرة للحرب. وفي غضون ذلك، كان نبأ وصول فيراباهو قد بلغ والدته. فهرعت إليه لتستقبله بأحضانها وأخذت تنوح قائلة: "لماذا الحرب، ياولدي؟، لقد سقط الكثير من الأبطال وفقدت لانكا الذهبية هذه جميع أبطالها. وإذا ما ذهبت إلى الحرب، فسوف أموت." فانحنى فيراباهو أمام أمه وقال مبتسماً: "من سيحافظ على المملكة إن لم اذهب إلى الحرب؟ الأحرى أن تمنحيني مباركتك من صميم قلبك، أي

أمي، فأنت الفضل والنعمى. وإذا قدر لي أن أسقط في المعركة، فإن الفايكونثا ستكون من نصيبي." وهدأ من روع أمه، ثم انطلق فوق فيله الأبيض بنقاء الثلج.

مضى إلى ساحة القتال، يرافقه جيش من الراكشا الذين تبدو عليهم أمارات البأس والوسامة. وكان يفكر باستمرار: "كيف لي أن ألقى راما؟" وبرز له أنغادا، وهم به وهو يطلق زئيراً كالأسد. ثم ظهر نالا ونيلا وماهيندرا ودافيندرا وسوشينا ومعهم آلاف الأتباع من القردة واصطدموا بجيش الراكشا وبدأت المعركة بين الطرفين. واستمر فيراباهو يحطم الصخور التي كانت تنهال عليه، وراح يرمي أنغادا بسهامه فسقط والدم يتدفق من فمه. وما إن شاهد هانومن ذلك حتى اندفع واقتلع شجرة ضخمة وهوى بها على رأس الفيل. لكن ويا للدهشة، تحطمت على رأسه ولم تمسه بأذى. ورد فيراباهو غاضباً بوابل من سهامه، فاصاب هانومن وأثخنه بالجراح. ثم تقدم لمواجهته نالا ونيلا وبقية القادة الواحد تلو الآخر، لكنه دحرهم جميعاً. ففر القردة إلى راما ولاذوا به وهم يصيحون: "أنقذنا، يا مولانا، إن الموت ذاته قد نزل علينا ليحاربنا. وفقدنا قادتنا الأشاوس جميعاً." فأسرع راما ولكشمانا يتبعهما القردة لملاقاة الراكشا.

سأل راما فيبيشانا: "أخبرني، أيها الصديق، من هذا المحارب المدجج بالسلاح الذي يمتطي هذا الفيل الرهيب؟" فرد فيبيشانا: "إنه فيراباهو بن رافانا. وقد اجتمع له الصلاح والتقوى والشدة في الحرب. وهذا الفيل هدية من براهما، وحياة فيراباهو متصلة بحياة فيله. وفيراباهو يضارع إندراجيت في الشجاعة والبأس، فإذا شئت له الموت يجب أن يلقى مصرعه مع فيله. وبعد ذلك يكون فناء رافانا." فقال راما: "فلتعلم، يا صديقي، أنني أعتمد على حسن مشورتك في كل أمر، ومن لي سواك من معين!"

صاح فيراباهو: "أي راما! أي لكشمانا! أيكما سينازلني الآن؟" فأجاب راما: "إن النزال اليوم سيكون بيني وبينك، وسأصرعك، فتراجعوا إلى الوراء أيها الصناديد، والقتال سيكون بيني وبينه حسب القواعد!" فتقدم فيراباهو على فيله وقوسه بيده، وعلى رأسه خوذة مرصعة بالجواهر، وحدق في راما وشعر بالسعادة فقد رأى الحبيب فيشنو متجلياً أمامه في

هيئة رجل.. بشعره الأسود، وجبينه العريض، وصدره العامر. وقف راما ذو العينين البراقتين والقامة الفارعة، ومعه قوسه بشكله الذي يخلب الألباب. ولما أيقن فيراباهو أن هذا هو حبيبه... طرح قوسه جانباً ونزل عن فيله وارتمى على الأرض عند قدمي راما، وضم كفيه إجلالاً، وحياه المرة تلو المرة وهو يتمتم بترنيمة التمجيد الخاصة به... "إني أحييك يا راما الصادق الصالح. يا زينة الرجال، أيها الباسل الجبار. يا من ولدت لخلاص هذا العالم. يا موئل الحكمة والصلاح. إنني أحملك في قلبي، أيها الحكيم الفاضل، وإنني لسعيد بلقائك، أي مولاي، لقد جئت لتخلص الأرض من الراكشا. وأنا راكشا وضيع، وأنت وحدك القادر على منحي الخلاص من أحزاني وآثامي. فلتقض علي بسلاح فيشنو الذي بيديك، وتخلصني من هذه الحياة الفانية." فالقى راما بسلاحه وقد طغت عليه المفاجأة، وقال: "إنني لا أستطيع أن أقتلك. فلتذهب سيتا ومملكتي. ولسوف أعود إلى الغابة من جديد، وأعهد بلانكا إليك." فرد فيراباهو: "آه يا مولاي، أية مملكة تساوي المملكة التي تعلم أنها تعادل الكون كله. وتريد لي أن أقنع بلانكا الصغيرة. لا ما كنت لأقنع بهذه المملكة المتواضعة!" وفكر فيراباهو بأنه لن ينقذه سوى أن يلقى مصرعه بيد راما، وعندئذ سوف يمضي إلى الفايكونثا التي يطمح إليها الحكماء. وقال محدثاً نفسه: "يجب أن أسلك مسلك الراكشا كي أنال أمنيتي." ثم التقط قوسه الجبار ووثب ممتطياً فيله. وصاح متحدياً راما: "أيها الناسك الزائف، أتحسب نفسك قديسي الراعي، حينما توجهت إليك بالدعاء. إن هذا ما كان إلا دعابة. ولسوف أثأر لما أصاب والدي من أحزان!"

تفجر غضب راما، وبدا عندئذ كالموت الأسود. فضحك ابن رافانا وهو يسدد سهامه ويطلقها باتجاهه. واشتد القتال بينهما، ودوى السلاح الناري كقصف الرعد واندلعت نيرانه أمام راما، فدمره بسلاحه المائي. وغسلت الدماء راما بعدما أصابته عشرة سهام قاطعة. وحاول فيراباهو أن يحطم قوس راما الجبار، لكن سلاحه ارتد عنه عاجزاً. وبدوره حاول راما أن يكسر قوس فيراباهو فلم يفلح. وصاح فيراباهو: "إنك لن تستطيع تحطيم هذا القوس يا ملك الراغو، إنه قوس سحري لا يكسر." فقذفه راما بالقرص شبه الدائري فأصبح

حطاماً.

قال فيراباهو محدثاً نفسه: "اليوم سأتحرر من هذا الجسد بفضل سهام راما." وبقلب تغمره البهجة مكث ينتظر موته. وقذف فيراباهو بأسلحة مميتة على راما، فحطمها كلها بسلاح سماوي. وصاح راما: "إنك محارب عظيم، يا فيراباهو. وأخشى أن تقتل سهامك جنودي." فاجابه فيراباهو: "صبراً، فسوف أنال ثاري لكل ما أصابني منك."

صوب لكشمانا سهامه على فيراباهو، وقد أغضبته كلماته هذه. لكنه قابلها بسهم ملتهب رهيب وردها عنه دون أن تصيبه بأذى. فاسرع لكشمانا وعاجله بخمسة سهام أصابت صدر فيراباهو، وزلزلت كيانه. فاشتد غضبه واطلق ثمانية سهام على لكشمانا فتدفق الدم من فمه وهو يترنح ثم يسقط على الأرض. ولقد نهض ثانية وقاتل بضراوة. وهجم فيراباهو على لكشمانا وهم بقتله بفأس، فوثب لكشمانا متفادياً الفأس، وأطلق راما الذي اعتراه القلق، ثلاثة سهام حطمت الفأس وجعلته شظايا. وصاح فيراباهو بصوت عالٍ: "قد كنتما شاهدين، يا جامبافان، ويا عمي فيبيشانا، على ما حدث. وشهدتم، أيها الجنود، الواقعة وأنتم تعلمون أن قواعد الحرب تنص على الا يتدخل في نزال بين اثنين طرف ثالث." والتفت إلى راما، وقال مستنكراً: "لماذا صددت فاسي، حين رميت به لكشمانا. وذلك خرق للقواعد والأصول."

احس راما بالخجل، وعاد القتال يحتدم بينهما، واكفهرت السماء من الأسلحة التي كانا يتقاذفانها. وانطلقت عشرة سهام من قوس راما، واصابت صدر فيراباهو وأغرقته بالدماء. فوقع فوق فيله، فوثب الفيل حاملاً فيراباهو نحو السماء. وقال لكشمانا لراما: "أي راما، ناشدتك ان تقذف فيراباهو بسلاح براهما فتقضي عليه." وأجاب راما: "إنه بطل عظيم، صالح وفاضل شجاع، وإن يكن من الراكشا، ولا أستطيع أن أنال منه في معركة بما يخالف الحق." وحينما استعاد فيراباهو وعيه، نادى بصوت يشي بسعادته: "إنني أعلم مبلغ باسك، أي راما، فابرز لنتصارع من جديد".

غضب سوغريفا لهذا التحدي، وقال لراما: "مولاي، قد بلغني، أن حياة فيراباهو مرتبطة بحياة فيله. وإذا ما قضي على الفيل مات فيراباهو معه. فلتقتل الفيل، ثم تلحق به صاحبه." وأسرع سوغريفا والتقط صخرة وقذف بها الفيل، بما أوتي من قوة. لكن الفيل أمسكها بخرطومه. فما كان من سوغريفا، وقد أحس بالخزي، إلا أن اقتلع شجرة سال ضخمة كانت أغصانها تحجب الشمس، وأمسك بها بكلتا يديه ثم هوى بها على رأس الفيل. لكن الشجرة تحطمت، ولف الفيل خرطومه حول سوغريفا وطوح به ورماه على الأرض بعنف. فأخذ يتلوى من الألم والدم يتدفق من فمه، ولما شاهدت القردة ذلك ولت الأدبار ومعها ملكها الجريح. والتفتت إليه تعنى به وتداوي جراحه حتى شفي.

نادى فيراباهو راما وقال: "لقد اجتمع اثنان منكم عليّ وهذا ليس من الإنصاف، إنه يستحق ما حل به. لقد كنا نتقاتل نحن الاثنين، فلماذا تدخل هذا القرد بيننا؟ إن ذلك الوحش القادم من الغابة، قد بالغ في جرأته فحمل عليه فيلي." أطلق راما سهامه على خصمه، فرد عليه بأسلحة فتاكة أوقعت راما مغشياً عليه وسط الميدان، مما أقلق القردة. فتقدم فيبيشانا سريعاً والتقط قوس راما وسهامه، وأطلقها الواحد تلو الآخر على فيراباهو. فعجب لذلك وتساءل في خلده عمن يقوم بهذا، وراما عاجز عن القتال. ولاح له فيبيشانا فصاح مبتهجاً: "أحسنت صنعاً يا عماه! يا خيرة الراكشا وأشجعهم، لقد تخليت عن كل شيء لتنتصر لقضية راما. فلك مني التحية. ولتباركني لأنال ما يتمناه قلبي." فأجاب فيبيشانا: "إنك لمحظوظ، يا ولدي، ولا يخامرني شك بطيب معدنك."

كان راما قد استعاد وعيه، حين انتهى حديث فيبيشانا وفيراباهو، وكانت جولة أخرى بينهما استخدم فيها فيراباهو أسلحة فتاكة رهيبة، بدت سهام راما عاجزة أمامها. وعندئذ أشار إندرا لإله الريح أن ينصح راما باستخدام السلاح الذي أعطاه إياه الحكيم شاربنجا. وهكذا مضى إله الريح بصمت وهمس بنصيحته في أذن راما، فأخذ بها. وأحضر السلاح فوراً، وقذف خصمه به، بعد أن همس ببعض الكلمات السحرية. ولقد هدرت القذيفة كالعاصفة ولمعت كالبرق وبلمح البصر أصابت فيل فيراباهو، فسقط على الأرض ميتاً.

فوثب عنه فيراباهو وراح يحارب راجلاً، لكن أسلحته الفتاكة أصبحت الآن عاجزة عن الفتك كما كانت من قبل.

توجه فيراباهو إلى راما وهو يضم يديه إجلالاً: "إنني أعلم يا راما أنك منقذنا، فلتصبني، إذن، بسلاح فيشنو وتقضي على جسدي الفاني." فحزن راما لسماعه تلك الكلمات، ولكنه تذكر أن عليه قتل فيراباهو إن شاء أن يقتل رافانا، فموت هذا مرهون بذاك. وإذن فلا بد مما ليس منه بد، مهما كان ذلك مؤلماً. ورفع راما سلاح فيشنو، فأحدث صوتاً قوياً كالرعد وتصاعدت منه ألسنة اللهب مضيئة ساحة المعركة، وتدحرج رأس فيراباهو وعليه خوذته على الأرض، وسمعت تمتمة: "راما! راما! " التقط فيبيشانا الرأس ووضعه عند قدمي راما. ورأى راما ولكشمانا وهانومن وفيبيشانا دون سواهم روح فيراباهو التي تحررت من جسده تصعد إلى الفايكونثا في هالة من النور. وتعانق راما ولكشمانا فرحين بالنصر الذي تحقق وهتف القردة بأعلى صوت: "النصر لراما!" صاح جيش القردة: "قد أنقذتنا يا راما، أما بقية جند الراكشا فنحن كفيلون بهم." ضحك راما والتفت إلى فيبشيانا قائلاً: "هل هناك المزيد من أمثال هذا البطل؟" أجاب فيبيشانا: "أي مولاي، لم يعد هناك أبطال سوى رافانا وولده إندراجيت."

حمل الرسل أنباء سقوط فيراباهو إلى رافانا. ولما لم يكن قادراً على احتمال المزيد من الأحزان، فقد سقط مغشياً عليه حينما وصله النبأ. وعندما استعاد وعيه راح يتفجع وينوح باكياً: "لسوف يأتي البشر والقردة بنهايتنا، لقد أرسلت إلى المعركة أفضل ما لدي من المحاربين، فسقطوا جميعاً الواحد تلو الآخر، ولم يقدر لأي منهم العودة. كانت الآلهة تخشى أن تدخل لانكا، والآن أصبحنا أذلاء مهانين على يد أولئك البشر والقردة." وعلا صوت رافانا بالبكاء حتى ترددت أصداؤه في القصر.

كان رافانا يتألم لخسارته على هذا النحو، حينما ظهر إندراجيت. فترقرقت عيناه بالدموع، لرؤية والده الملك على هذه الحال. وقال له: "أبتاه، أخشى أنه لا مناص لنا من هذه الحرب. ولن يفيدنا أن نختبئ ونتوارى، فلسوف تلحق بنا النار إلى بيوتنا. وسواء

كتبت لي الحياة أم قدر لي أن أموت. فلسوف أمضي مرة أخرى وأقاتل البشر والقردة. إذا ما أمرتني بذلك."

رد رافانا: "نعم، فلا مناص لنا من أن نستمر في الحرب، يجب عليك يا ولدي إندراجيت أن تذهب إلى الميدان وتقاتل من جديد. لقد أرسلت العديد من المحاربين العظام معلقاً عليهم الآمال العريضة، فكنت الوحيد الذي عاد ظافراً. واستطعت أن توقع راما ولكشمانا في الأسر بسلاحك الأفعى الملتفة. وكانت الأمور تجري على ما يرام لو لم يهرع الغارودا لإنقاذهم. وكان أن تغلبت بسهامك على راما ولكشمانا وجيش القردة، لكنهم بعثوا من جديد إذ حاباهم الحظ بمساعدة هانومن. لن يستطيع أحد الإفلات منك هذه المرة. فاذهب وهاجمهم مرة أخرى ولا تبق على أحد منهم."

لدى سماع إندراجيت عبارات أبيه، أخذ يمعن التفكير فيها، ويقلب الأمور، ثم ضم راحتيه إلى بعضهما وقال: "لقد صرعت راما ولكشمانا المرة تلو المرة. فمن سمع بعودة الموتى إلى الحياة من جديد؟ إن هذا لأمر عجيب. كيف لي أن أقضي على أعداء كهؤلاء؟"

نصحه رافانا قائلاً: "عليك بابن الريح أولاً، فهو الذي أنقذهم من الموت المحتوم. فإن مات لم يجدوا من يهرع إلى نجدتهم. فإذا ما قتلته أولاً، لن يكون ثمة من يحضر لهم البلسم."

وكعهده دوماً في إطاعة أبيه، حشد إندراجيت قواته وأعدهم للحرب. وكان ذلك جيشاً جراراً. وتذكر أمه ماندوداري، وهو يتهيأ للمسير. وأخذ يحدث نفسه: "إذا ما ذهبت الآن لتحيتها ووداعها، فلا ريب بأنها ستحاول أن تثنيني عن المضي إلى الميدان، وأنا إنما ذاهب إلى المعركة بأمر من والدي. وإذن، فلسوف ألتقي بها حين أعود مظفراً، فأشرح لها الأمر وأبدي العذر، فترضى!" وهكذا كان أن حيا أمه في خاطره، ومضى من ثم في دربه.

انطلق الأمير إندراجيت إلى الغابة حيث أدى طقسه السحري، بينما ذهب أتباعه للبحث عن لوازم الطقس من أزهار وأقمشة وسوائل وماشية... وهناك أمام المذبح أخذ إندراجيت يتلو التراتيم فيما كان يوقد النار المقدسة، ويغذيها بدقيق الأرز، ويصب السمن السائل

فوقها، ويقدم لها قرابينه من الماعز وينثر الزهور الحمراء القانية، وقد تحلق حوله الكهنة وهم يتمتمون بكلمات سحرية، وتصاعدت ألسنة اللهب، ثم امتدت إلى الجنوب وبرز إله النار العملاق أمام إندراجيت، وأظهر غضبه معرضاً عن قبول قرابينه وساله: "لماذا تصلي؟ وعلام هذا الدأب على عبادتي؟ وكم من النعم عليَّ أن أنزلها عليك؟"

توسل إليه إندراجيت قائلاً: "إنما أسالك أن تيسر لي أن أقضي على راما وجيوشه، وأبعث بهم إلى أبواب الموت. هذه منة أسالك أن تتفضل عليَّ بها، ولا شيء سواها!"

فاجابه إله النار: "إن ما تطلبه مني لمستحيل... كيف بإمكانك أن تقتل راما وهو الإله فيشنو! فقد اتخذ هيئة البشر ليقضي على رافانا وأسرته كلها وانت تسال أمراً لا قدرة لي على القيام به. ولن تراني بعد الآن في طقوسك. إن كان هذا ما يشغلك." ثم اختفى من أمام إندراجيت.

استولى الفزع على إندراجيت. واستقل عربته ثم حلق عالياً في السماء وسرعان ما بلغ الباب الغربي حيث كان راما ولكشمانا. وأمطر جيش القردة الذي كان تحته بوابل من السهام. وصرخ الأخوان: "الحذر! إنه إندراجيت!" وقالت القرود: "أي ملك آل راغو، إننا هدف لسهام إندراجيت، ولا نستطيع تفاديها. دونك الراكشا، اقض عليهم جميعاً بسلاح براهما."

قال راما: "أي لكشمانا، أي ذنب اقترفوا لأقضي عليهم جميعاً؟ إن نساءهم بريئات من الإثم. فلم يُقتل الأبرياء؟"

وفوق الغيوم، كان ثمة بريق يخطف الأبصار هو خوذة إندراجيت. صاح لكشمانا: "ذاك هو إندراجيت يشن حربه من وراء الغيوم. فارمه بسلاحك." لكن راما هز برأسه معرضاً، وأجاب أخاه: "إن الآلهة في السماء تراقبنا، ولربما اصبت أحدها."

ولما سمع إندراجيت هذا، أدرك أن أمره افتضح، فانسحب هارباً. أخذ إندراجيت يعيد النظر ويراجع خططه. وتحقق له أن وضع خطة حربية مهما كانت فذة تقصر عن الغرض، ولا

بد أن تحبط. فتوسل عندئذ بالمكر والخداع.

وزين له الفكر أن يصنع صورة لسيتا وأن يقوم بذبح سيتا الوهمية هذه أمام راما، ولا ريب بأنه سيموت حزناً وأسى، حين يتيقن من موت زوجه، ويلحق به لكشمانا أيضاً، ويولي سوغريفا الأدبار، حين يرى عجزه عن مواجهة الكارثة. وبذلك يكون له الفوز، دون أن يخوض أية معركة. وهكذا صنع صورة مماثلة لسيتا، وأخذ يتمتم ببعض العبارات السحرية، وإذا بالحياة تدب فيها.

قال للصورة: "أصغي إليّ، أنت ابنة جناكا وراما زوجك ولكشمانا أخوه وحموك دشاراتا. واختطفك رافانا. وعليك حين أحملك إلى عربتي أن تنادي: "راما! راما! وان تبكي وتنتحبي."

أجلس إندراجيت سيتا الوهمية في عربته، وخرج بالعربة إلى راما وجمعه، حتى بلغ الباب الغربي. وهناك وقف وشرع يضربها بسوطه مرة بعد مرة، وأخذت سيتا الوهمية بالبكاء والنحيب، فأثارت شفقة الناظر والسامع. وأمسك إندراجيت الآن بشعرها ورفع سيفه. وكان هانومن أول من رأى سيتا الوهمية، فتقدم مسرعاً وعيناه تفيضان دمعاً، وأمسك بشجرة وصخرة وهم بإندراجيت يريد قتله. لكن الشجرة والصخرة ظلتا عالقتين بيده.

صاح هانومن: "أيها الآثم! إن مثواك الجحيم لقتلك امرأة. فلئن قتلت سيتا فإني قاتلك لا محالة!" أجاب إندراجيت: "أيها القرد الشرير، ما أدراك بالخير والشر؟ فماذا يضيرني إن مات خصمي راما حزناً وكمداً حين أذبح زوجه، إن هذا ليس عندي بالإثم. حسبي أن يلحق به لكشمانا بعد هذا، ثم يكون لي شأن مع سوغريفا وبقية أتباعه، ولسوف أعمل فيهم تمزيقاً وتمثيلاً، ليكونوا بذلك عبرة لمن يعتبر!"

اندفع القردة نحوه كالصاعقة يريدون قتله وانتزاع سيتا منه، لكنها لم تكن مهمة سهلة. فقد كان إندراجيت أشبه بالموت ذاته حين وقف أمام مهاجميه. وراحت سيتا الوهمية،

تتفجع على المصير الذي ينتظرها وتصيح: "وا حسرتاه! وا حسرتاه! أين أنت يا مولاي راما، وأنت، يا أخي لكشمانا؟ أتمنى أن أراكما ولو مرة واحدة قبل ذبحي! أين أنت يا أبتِ جناكا؟ وا حسرتي، إذا كانت نهاية حياتي في لانكا، وأن ألقى مصرعي على يد الراكشا! أنجدني! أي راما، أغثني! إليَّ أي هانومن، يا ابن الريح!"

رفع إندراجيت سيفه مصطنعاً الغضب، ونزل به على سيتا الوهمية وشطرها إلى نصفين. وراح القردة، وقد أصابهم الهلع، ينتحبون ويصرخون مشفقين على من توهموا أنها سيتا وهم يهمون بالهرب.

صاح هانومن: "اثبتوا واصمدوا أيها القردة البواسل! إن إندراجيت يرقص فرحاً بعد أن ذبح سيتا فيجب أن يمرغ رأسه في التراب. وإلا فلن يشفى لنا غليل!"

وثب القردة وعادوا أدراجهم إلى مواقعهم. وانطلق الجند وقد استعادوا قوتهم وعزيمتهم يهاجمون جيش الراكشا بالشجار والصخور. فسقط الكثير من زعماء الراكشا وأتباعهم على أرض المعركة، فيما أسرع إندراجيت عائداً إلى لانكا.

دعا هانومن أتباعه وقال لهم بحزن: "قد قتلت سيتا، فعلام القتال الآن؟ لنذهب إلى شري راما ونخبره بما جرى، ولنرى ما يقول."

قال راما: "لقد أبلى هانومن بلاء حسناً. إننا نسمع صياحهم. فما هي أخبارهم؟ وما هو حالهم؟ امض، أي جامبافان، أنت وجندك وقدم المؤازرة لجيش هانومن!"

غادر جامبافان المكان على الفور، وفيما هو في طريقه صادف هانومن. قال هانومن: "لماذا يجب علينا أن نواصل القتال؟ وأي غاية يمكن أن يحقق القتال، بعدما صرعت سيتا؟ الرأي عندي أن نخبر السيد راما بما حدث. ونسأله الرأي، بعدما غابت سيتا الآن!"

ذهب أميرا الحرب إلى راما يتبعهما الجيشان. وجاء هانومن وهو يذرف دموعه، وأخبر راما بما حل بسيتا. فوقع راما مغشياً عليه، حين سمع ما قاله هانومن. وأخذ القردة يرشون وجهه بالماء المعطر، ليسترد وعيه. وما زالوا يعالجونه حتى استعاد وعيه وجلس صامتاً لا يأتي

بحراك. وأخذ لكشمانا بالنواح، وقال له مواسياً: "أي مولاي، إنك ذو فضيلة وعدل وباس. ولقد حملتك رغبتك في الخير على نبذ مُلكك والعيش حياة النساك في الغابة. فعلام تحزن هكذا من أجل زوجك، كما يحزن العامة حين يفقدون الزوج؟ ولو أنك احتفظت بعرشك، لما زينت لذي الرؤوس العشرة الشرير نفسه أن يطمع بسيتا. إنك الملوم في كل ما جرى لك. إن الوالدين والأصدقاء لا يعيشون طويلاً. والزوج والولد زائفون، وهم كما يقال، مسافرون معنا على درب الحياة. إن العالم الذي نعيش فيه وهم يا أخي. ونحن كالدمى المتحركة تقذف بنا الحياة وأحداثها إلى الأعلى والأسفل. والحكيم لا يلبس ثوب الحداد أبداً. ويتذكر العظماء أن عليهم اجتياز بحر المشاكل. إنك سيد هذا العالم، فماذا يعنيك من أمر زوج؟ أو أب؟ أو أخ؟ إنك حياتنا وكل شيء آخر سراب. والحق أن عليك معرفة إن كانت سيتا قد قتلت حقاً؟ إن هذا الحزن على زوجك لا يليق بك."

صاح راما: "أي مواساة بإمكانك ان تقدمها لي يا لكشمانا؟ فلا يمكن للمرء ان ينسى زوجه. وإن الكلمات لتعجز عن وصف حزني عليها! ولا يستطيع الأصدقاء والأقرباء ان يواسوا المرء حين يفقد زوجه. ثمة نساء لا عد لهن ولا حصر في هذا العالم، ولكن حين تموت الزوج الفاضلة يستولي على الزوج شعور بانه مات معها. والحكيم من نأى عن الحزن على زوجه. لقد نسيت خسارة مملكتي وأبي، لكنني لا أستطيع نسيان خسارة سيتا. إن الحياة لا تطاق بدونها. فكيف لا اعتبر نفسي مسؤولاً عن موتها؟"

ظهر الآن فيبيشانا بعد غياب، وأفزعه ما رأى من علامات الحزن والأسى على محياه، وسأل من حوله: "ما الخبر؟ وعلام ارى راما حاداً والقردة يفيضون دمعاً؟"

قال راما منتحباً: "أي صديقي، قد قتل ابن رافانا سيتا اليوم. وذهبت جهودنا كلها سدى. وعبثاً كان الجسر الذي أقمناه فوق البحر. وبعد كل هذه السنوات فقدت سيتا الأعز لدي. عندما جالت سيتا معي في الغابات، لم أكن أحتمل أن تلمس الأشواك قدمها الغالية؛ وكنت أنظر إلى وجهها الجميل آلاف المرات... حبيبتي سيتا ذات اللون الذهبي، وابنة الملك... لقد أخفقت في النهوض بواجب الزوج... ما الذي حملني على مطاردة

ذلك الغزال المسحور؟ لا ريب أن حبيبتي قد عانت الكثير على يدي إندراجيت. عد إلى آيوديا، يا عزيزي لكشمانا، ولسوف أقتل نفسي طالما أنني فقدت سيتا!"

قال فيبيشانا: "لا تبك يا راما، من الذي رأى سيتا تقتل؟" فأجاب راما: "إنه ابن الريح." فقال فيبيشانا: "إن قدراته العقلية لا يعتد بها. فمن يجرؤ على ذبح السيدة سيتا؟ مولاي إنها ذات جمال خلاب. ومن أجلها حلت بلانكا الكارثة، وبالرغم من هذه المعاناة لم يعدها رافانا إليك، إن عيون رافانا كلها على سيتا، وهي محتجزة لديه تحت حراسة مشددة في بستان الأشوكا حيث يقوم عشرة آلاف حارس بحراستها. فكيف استطاع إندراجيت الحصول على إذن بالدخول عليها؟ إنه لم يذبح سوى صورة وهمية لها، وبها خدع هانومن. وإذا لم تصدقني فبإمكان هانومن أن يذهب إلى بستان الأشوكا ويرى بأم عينه أن سيتا ما زالت هناك."

أراحت كلمات فيبيشانا سامعيه، ووثب هانومن إلى بستان الأشوكا وهناك وجد سيتا حية ترزق. فعاد فرحاً مبتهجاً ليخبر راما بما تحقق منه بنفسه وقال: "إن سيتا سالمة في بستان الأشوكا، وما رأيت إنما كان صورة زين لنا السحر الاعتقاد أنها حقيقية، وهي التي قتلها أمامنا!"

عانق راما فيبيشانا فيما صاح القردة: "النصر لراما!" ثم التفت راما نحو فيبيشانا وسأله: "أي صديقي فيبيشانا، كيف لنا أن نقضي على إندراجيت؟" فرد عليه فيبيشانا: "إن دون ذلك، يا مولاي، لأهوال. وقد علمنا من أمر هذا الشرير أنه يدين بالأسرار، ويمارس الطقوس السحرية في المذبح في لانكا. وبلغنا كذلك أنه لا يخرج إلى الحرب، إلا إذا أتم طقوسه السحرية وقدم القرابين تزلفاً للنار المقدسة. ومتى كان ذلك، خرج للقتال بكل بأس وجبروت، ولا يملك أحد في العوالم الثلاثة أن يقهره، ولا يمكن أن يقتل إلا بيد من يقطع عليه طقوسه."

قال راما: "إنني لا أفهم، فأخبرني، يا صديقي، كيف السبيل إلى القضاء على

إندراجيت؟" فأجاب فيبيشانا: "إذن، فاصغ لما أنا محدثك به: كان ذلك بحضورنا أنا ورافانا وما من شاهد سوانا، حين أكرم براهما إندراجيت وأسبغ عليه نعمته، لدأبه على الصلاة ومجاهدة النفس. فقال له براهما يومذاك: "ما الذي ترغب فيه؟" فرد إندراجيت: "أريد أن أكون خالداً." فأجاب براهما: "إن هذا المطلب ينذر بالشؤم. فاطلب سوى ذلك." فأجاب إندراجيت: "إذن فليمنحني مولاي أن يحالفني الظفر في كل معركة وموقعة، بعد أن أنهي طقوس تقديم القرابين للنار المقدسة... وأن يكون لي أيضاً أن أقاتل أعدائي من خلف الغيوم دون أن يروني وبذلك أخضع العالم.."

وأجابه براهما: "لك ذلك. وسوف تقاتل مختبئاً خلف الغيوم ولن يتمكن أحد منك إذا ما انطلقت في اليوم الذي تنهي فيه هذا الطقس. لكنك سوف تموت في اليوم الذي يقطع فيه طقسك، وعلى يدي من يقوم بذلك... وهذا وعد ناجز ولا تبديل له."

أردف فيبيشانا قائلاً لراما: "إنني أعلم كيف ندبر لمصرع إندراجيت. دع لكشمانا يأتي معي، يا مولاي، إن هذا الراكشا الشرير قد عاد إلى لانكا ليكمل طقسه بعد أن ذبح سيتا الوهمية. ولسوف نصطحب معنا جيش القردة وأقطع على إندراجيت طقسه وأنزل الدمار به. فلتستعد وترسل لكشمانا معي." قال راما: "اسمع، أي صديقي، كيف باستطاعة لكشمانا أن يواجه خطراً كهذا؟ إن إندراجيت عفريت شرير، ولانكا حافلة بالأخطار. وما لكشمانا إلا مجرد فتى غر يسهل إنهاكه. ولقد هزل جسمه منذ أن دأب على تناول الفاكهة وجعلها غذاءه الوحيد، واحتمل بدنه الكثير، وأحسب أن قواه قد خارت فكيف له أن ينازل إندراجيت القوي المسلح بالسحر؟"

فقال فيبيشانا: "مولاي علام القلق؟ إن للكشمانا من القوة ما يعادل مئة من أمثال إندراجيت، ثم إن القردة سيكونون إلى جانبه يؤازرونه، وإني لخبير بقوة لكشمانا، وعندي أنه قادر على أن يصرع إندراجيت في لحظة. فلما قذف رافانا لكشمانا برمحه وسقط على الأرض مغشياً عليه، لم يستطع رافانا رغم ما له من قوة عظيمة أن يزحزحه من مكانه... فلترسل لكشمانا الشجاع معي. لقد سقط جميع المحاربين في لانكا، ولم يبق سوى

إندراجيت. ولا يمكن أن يقتل رافانا قبله. وإن من الصعب لشخص واحد أن يقتل الاثنين. فيجب أن توزع المهمة بينكما أنت ولكشمانا، وبعد أن يتم القضاء على إندراجيت، يسهل التغلب على رافانا. ولسوف تكون المهمة بسيطة كاجتياز بركة ماء بعد عبور البحر. فلتمدني بثمانية قرود بالإضافة إلى لكشمانا. ونحن كفيلون بإنجاز المهمة."

تاهب نالا ونيلا وماهيندرا ودافيندرا وسمباتي وغوي وغانداماردان وهانومن للانطلاق في هذه الحملة وأوصى راما فيبيشانا قائلاً: "قد أودعت لكشمانا في رعايتك، فاحرص عليه وتوله بعنايتك!" ثم التفت إلى أخيه وقال: "هذا فيبيشانا كبيرك في كل الأمور فاطعه في كل ما يشير عليك به." وبعد أن انحنوا جميعاً عند قدمي راما، لحق القرود بفيبيشانا الذي سار في المقدمة وتبعه هانومن ولكشمانا.

ومضى هذا الجمع في مسيرهم خفافاً لا يلوون على شيء، حتى بلغوا أبواب لانكا. وحطموا الباب ودخلوا لانكا. ووجدوا الحراس الراكشا في خفارتهم وهم متأهبون لكل طارئ، والأقواس في أيديهم. ففاجأهم هانومن بصخرة ضخمة. ولما وجدوا "مشعل الحرائق" أمامهم ثانية، ارتبكوا أشد الارتباك. فاندفع القردة وأحكموا الطوق حولهم. وأخذ لكشمانا يرميهم بسهامه، والقردة يرمونهم بصخورهم وأشجارهم. فراح الراكشا يولون الأدبار أمامهم.

قفز هانومن إلى حيث كان إندراجيت الذي غضب لرؤيته. ثم وثب فوق المذبح حيث كانت النار المقدسة تشتعل، فأخمدها ثم شرع يبعثر الزهور والفاكهة والقرابين، ففقد المكان طهارته. واكفهر وجه إندراجيت غضباً، واخذ يقذف هانومن بأسلحته، فما كان منه إلا أن قفز وامسك بها كلها .وصاح هانومن: "أيها الوغد، لقد حاربت في الخفاء ردحاً طويلاً، وها نحن الآن وجهاً لوجه، فاستعد لرحلتك إلى مملكة الموت. لقد نجوت حتى الآن لانني من البهائم ولا أحسن استعمال السلاح. فلتطرح أسلحتك جانباً ولنتصارع. ولسوف تجد أنني أقضي عليك بضربة واحدة."

قال فيبيشانا: "مولاي لكشمانا! انظر، هاك إندراجيت على وشك أن يوجه ضربة إلى هانومن. وها هو ذا ينتصب عملاقاً، وكأنه سحابة سوداء، تحت شجرة تين البنغال تلك، ويوشك أن يضع قربانه الآن فوق النار أمام المذبح لينال بركة إله النار. عليك به، واضربه الآن بسلاح فيشنو." وقف لكشمانا وإندراجيت وجهاً لوجه. وقال لكشمانا: "أصغ إلي، يا إندراجيت، إني قاتلك اليوم بلا ريب." لكن إندراجيت تجاهل لكشمانا، والتفت إلى فيبيشانا، قائلاً: "إننا ننتمي إلى قوم واحد، يا عماه، ويقال إنك من الصالحين. وأنت شقيق والدي، ولقد قمت على خدمتك مثلما أخدم والدي. والمرء يعيش مع أهله وأصدقائه، ولكنك تركت أهلك لتناصر البشر والقردة، ولم تدع أحداً منا على قيد الحياة ليستمر شعبنا. لقد أنزلت بنا الخراب والدمار، وأفنيت الكثير منا، ولم تأخذك فينا رحمة أو شفقة، وها أنت ذا تكشف للأعداء ضعفي ومقتلي. إنك لحسود يا عماه، ولا تحتمل أن يمتلك غيرك زوجاً جميلة. ناشدتك الآن، يا عماه، أن تأخذ القردة وترحل لأكمل طقسي."

قال فيبيشانا: "إنك مخطئ، إن أفعالي مشهودة، وإن كنت من الراكشا، إلا أنني لا أطمع في من هي زوج لسواي. إن لوالدك أربعة آلاف زوجة ومع ذلك يسلب زوج غيره، وهي امرأة فاضلة، ولا تمكنه من نفسها، ومع ذلك لا يدعها تذهب! إن آثام أبيك لا حدود لها، فقد تنازع مع الجميع في العوالم الثلاثة. فإلى متى ندعه يسترسل في خطاياه وآثامه؟ إن النصر حالفك طويلاً بمباركة إله النار، ولكنه لن يمنحك بركاته بعد الآن. وموتك قريب، وسيكون مصرعك على يد لكشمانا!" وصاح لكشمانا: "أيها الراكشا الشرير، ما جئت إلى لانكا إلا لأقتلك."

أخذ القردة الثمانية يهدرون، ويتحفزون، ثم يقفزون إلى عربة إندراجيت ويقلبونها ومعها سائسها. فوثب إندراجيت إلى الأمام، وثبت لكشمانا سهامه في قوسه. وكان كلاهما مجلياً في قتاله وبراعتهما متساوية، فاستولى الرعب على إندراجيت فانسل هارباً. ونادى أتباعه طالباً منهم الصمود، وقال لهم: "إنني أناشدكم أيها الراكشا البواسل، أن تثبتوا ريثما أعود بعربة أخرى. فلا تخشوا بأساً، واصمدوا، فإن هي إلا هنيهة وأعود إليكم

بعربة فيها النصر لنا!" وانسل دون أن يراه أحد وجهز عربة سحرية، شد عليها جياداً سريعة تسابق الريح، وارتدى درعاً وخوذة رائعة، وعاد إلى ساحة المعركة من جديد وبيده قوس عظيم.

قال لكشمانا: "إنه لساحر، فهو يبدو الآن في شكل مختلف عما عرفناه!" فأجاب فيبيشانا: "اصمدوا ولا تقلقوا، أيها المقاتلون، فالنصر آت! وأنتم، بلا ريب، لقاتلون إندراجيت الشرير هذا. ولكن احذروا أن تدعوه يفلت منكم إلى الغيوم، فهذا موقعه المريح، ولسوف يتمكن، عندئذ، منكم. إنه محارب مغوار لا تنقطع وسائله. فها هو ذا يتوسل بالسحر فيذهب إلى لانكا ويعود منها بهذه العربة السحرية. دعوه يقترب أكثر، فنحاصره ثم نقضي عليه. وإذا ما شاء أن يحلق طائراً إلى السماء، فسيجد هانومن له بالمرصاد خلف الغيوم. إن نيلا ابن إله النار عارف بالسحر، ويستطيع أن يجعل نفسه خفياً، ويمضي تحت الأرض ويحرس العالم السفلي."

وكان فيبيشانا يعرف طرق لانكا كلها، مداخلها ومخارجها، فمضى وأحكم حصارها وقبع ينتظر. وحلق هانومن في السماء وهو يمسك صخرة بيده، فيما كان لكشمانا يقف حارساً على الأرض بانتظار عدوه وأسلحته جاهزة. ولما كان إندراجيت يجهل خطط فيبيشانا، ووجد نفسه مطوقاً بالقردة، وواجهه لكشمانا وأمطره بوابل من سهامه، فقد صعد بعربته إلى السماء، ليكسر طوق الحصار حوله. ولما رأى السائس هانومن، انعطف بالعربة بسرعة إلى الجنوب. لكن هانومن وثب على العربة، وحطم سواري الأعلام ومزق الرايات. وبضربة واحدة حطم العربة شر محطم. استعجل إندراجيت عندئذ بالفرار بعيداً في الفضاء، لكن هانومن أمسك برجليه. وبعد صراع، وقعا معاً على الأرض، وجثم هانومن على صدر إندراجيت وضغط على حلقه. وصاح: "أسرعوا أيها القردة، لنتآزر ونقتل إندراجيت معاً." فاندفع القردة نحوه، لكن إندراجيت الغاضب وثب إلى أعلى وأمطرهم بوابل من سهامه، ولما عجزوا عن احتمالها، فقد ولوا الأدبار هاربين. وأراد إندراجيت أن يفر إلى لانكا، لكن فيبيشانا أحكم إغلاق الأبواب.

صاح فيبيشانا: "إلى أين سوف تذهب الآن، عجل يا لكشمانا، واقض على هذا الشرير." تقدم لكشمانا وواجه إندراجيت، ونشبت بينهما معركة ضارية، وأصبح الجو المحيط بهما مثقلاً بالسهام التي تبادلاها. ثم انتقلا إلى الأسلحة الأكثر رهبة. وكان للسيوف والرماح والهراوات والصولجانات والفؤوس والسهام الرهيبة مثل "سن الأسد" و "سن الرعد" ضجة عظيمة. وحولت الأسلحة السحرية النهار ليلاً، وراحا يتصارعان في الظلام. ولقد شعر لكشمانا بالإرهاق وأنهكته المعركة. فاذن براهما من لإندرا أن يعينه على هذا الأمر، فقدم إندرا للكشمانا "سلاح براهما".

وصاح لكشمانا: "أيها السلاح، لقد صنعك الإله العظيم براهما بنفسه. فإن كان فيشنو قد ولد على الأرض في شكل راما حقاً، فلسوف تنزل الدمار بإندراجيت وتجعل رأسه يتدحرج على الأرض. ولتنم الآلهة قريرة العين منذ الآن فصاعداً." ولما رفع سلاحه الرهيب استولى الهلع على إندراجيت، فقذف بسلاحه غاضباً مهتاجاً، لكنه ضل هدفه... إلا أن رأس إندراجيت سقط وتدحرج على أرض المعركة. وسارع القردة إلى مهاجمة الراكشا، الذين ما إن رأوا المشهد حتى دب فيهم الذعر وارتدوا على أعقابهم. فراح القردة يهتفون: "النصر لراما!" وأخذوا يتقاذفون بأقدامهم رأس إندراجيت بخوذته البراقة وقرطيه المرصعين بالجواهر والأحجار الكريمة والمتدليين من أذنيه. وقد فعلوا به وهم يمرحون ويلعبون ما لم يكونوا ليجرؤوا عليه في حياته.

انتاب راما قلق شديد، بعدما ذهب لكشمانا في مهمته للقتال في لانكا. وكان أشد ما يخشاه أن يتمكن إندراجيت من القضاء عليه بسحره... أو إذا لم يحالف لكشمانا النجاح... وأخذ راما المثقل بالهموم والشجون يراقب الطريق، وما انقطع يترقب عودته في كل لحظة. وفجأة شاهد لكشمانا وهو عائد يجر خطاه مستنداً إلى هانومن وفيبيشانا، ويحمل بيده اليسرى قوسه وباليمنى سهامه.

قال فيبيشانا: "أي مولاي، ها هو ذا لكشمانا يعود ظافراً بعدما دحر إندراجيت وأرداه قتيلاً!" فشعر راما بسعادة غامرة، لعودة أخيه الحبيب، وقابله لكشمانا بالانحناء ولمس قدمه

إجلالاً، وأخذ يروي له ما جرى معه، والقردة يدورون حوله ويرقصون ابتهاجاً وحبوراً. فعانقه راما وقبله وربت على رأسه، ثم قبل قوسه وسهامه، وهو يثني عليه ويقرظه بأنه لا مثيل له بين الأبطال. فرد عليه لكشمانا بأن من يحظى بمباركته قادر على قهر آلاف من أمثال إندراجيت. وفي السماء كانت الآلهة تبتهج وتحتفل بخلاصها من إندراجيت.

أخذ راما يقلب الأمور مفكراً: "أما وقد مات إندراجيت فإن من اليسير الآن القضاء على رافانا. وبعد ذلك أستعيد سيتا." ثم لاحظ أن لكشمانا كان مثخناً بالجراح ويحتاج إلى العلاج، فنادى: "إلينا بالطبيب سوشينا، ليداوي جراح لكشمانا." وجاء سوشينا ومعه أدويته وراح ينزع السهام الواحد تلو الآخر من جسد لكشمانا. ويدهن جراحه بالمراهم المسكنة والشافية. فتعافى رويداً رويداً، وسرعان ما عاد إلى سابق عهده من القوة والحيوية. وقال راما وهو يربت على رأس سوشينا: "أي سوشينا، إن الزمان لم يجد بطبيب مثلك قط. ولطالما لجأنا إليك وكنت تعيدنا إلى الحياة سالمين المرة تلو المرة. ولذلك سوف يظل ذكرك خالداً تتداوله المخلوقات في العوالم الثلاثة!" فانحنى أمام قدمي راما شاكراً له هذا القول.

سقط إندراجيت عند الفجر، وانتصف النهار، ومع ذلك لم يجرؤ أحد من الراكشا على إخبار رافانا بالحدث الفاجع. ثم عقدوا مجلساً استمر وقتاً طويلاً، وأخيراً أرسلوا إلى الملك رسولاً يخبره بالفاجعة، فضم راحتيه، وقال بحزن: "أي ملك الراكشا، قد فرغت لانكا أخيراً من أبطالها بعدما تغلب لكشمانا على إندراجيت."

سقط رافانا عن عرشه مغشياً عليه من هول النبأ، ووقع على الأرض لا يدري بما يدور حوله. وتحلق أفراد حاشيته وأصدقاؤه حوله يريدون إسعافه وإنعاشه وإعادته إلى وعيه متكبدين في ذلك مشقة وأيما مشقة. ولما استعاد وعيه أخذ ينوح وينتحب بصوت عالٍ، وهو يقول: "آه! يا ولدي، آه! يا إندراجيت، يا خيرة الراكشا، يا من ليس لك نظير في العوالم الثلاثة كلها، يا قاهر الأعداء، حتى إندرا ملك السماء ترتعد فرائصه خوفاً منك. وا حسرتاه! يا ولدي، أن تلقى مصرعك على أيدي بشر وقردة... تلك أعظم المصائب... إن فيبيشانا الآثم هو الملوم، لا ريب، في ذلك كله. وإذا ما كتبت لي الحياة فسيكون أول ما

أفعله قتل فيبيشانا. وا حسرتاه! إلى أين رحلت يا ولدي؟"

استلقى الملك على الأرض مثقل القلب والفكر، يجلله الحزن، وأخذ يمرغ رؤوسه العشرة في التراب، والدموع تفيض من عيونه العشرين. ولما بلغت أنباء مصرع إندراجيت مسامع الملكة ماندوداري أجهشت بالبكاء وراحت تنتحب لفقدانها ولدها. واستلقت على الأرض وقد حلت شعرها، وأخذت تندب خسارتها، وتطلق آهات التحسر، وتذرف الدموع، ولا تنقطع تردد: "أواه! يا ولدي أواه! لقد حملتك شيفا إلى ذراعي ، جزاء إخلاصي وتعبدي. وأمضيت ردحاً من الزمن في سعادة وهناء. أما الآن فالحزن العظيم هو قدري. وبما أنك غادرت الحياة، فإن حياتي غدت عبثاً وبلا جدوى. إن والدك حرم راما من زوجه الجميلة الفاضلة ولن يعقب هذا الإثم إلا الموت والكارثة."

أغضبت دموع ماندوداري رافانا. وصاح بها: "لسوف أقتل سيتا اليوم." وجرد سيفه المقوس من غمده وهرع إلى سيتا ليقضي عليها، فلحقت به الملكة ماندوداري مذعورة والخوف على زوجها يغلب عليها، لئلا تزيد آثامه، ذلك أن قتل امرأة كان إثماً عظيماً، ومآل مرتكبه الجحيم إلى الأبد. وأخذت تهدئ من غضبه وتسترضيه قائلة: "إنك عظيم وحكيم، يا ملك الراكشا، وأنت ابن فيسرافاس الورع، ومن كان هذا أباه لا يقتل امرأة. فهذه أشنع الجرائم. انظر إلى الدمار الذي حل بمدينة لانكا. فلا تسع إلى الكارثة بقتلك امرأة!" ثم أمسكت بيد رافانا وحملته على أن يتبعها إلى القصر.

كان ألم رافانا شديداً، وقد حل به حزن لا تنفع معه سلوى، ولا يجلوه عزاء. هكذا كان حاله حين استلقى في فراشه، وهكذا كان حاله لما جلس على العرش. ولم يجد السلوى أو العزاء لدى زوجاته الأربعة عشر ألفاً، ولم يرفع نظره إليهن قط. وكان نحيب نساء الراكشا وعويلهن يتردد في جميع أنحاء لانكا، ويقطع نياط القلب ويصم الآذان. وأخيراً نهض رافانا وارتدى لباس الحرب، ووضع فوق جسده الأسمر الداكن كغيمة في سماء متلبدة درعاً أبيض. وعلى رؤوسه العشرة وضع عشر خوذ وسط كل منها تتلألأ جوهرة باهرة لا تقدر بثمن، ومن آذانه العشرين تدلى عشرون قرطاً ذهبياً. وكان مسلحاً بترسانة من الأسلحة

ومزيناً بالحلي والمجوهرات، وتفوح منه روائح العطور، فانبهرت الأنظار بمرآه.

حين خرج حاملاً القوس بيده والغضب يزيده تألقاً وبهاء، حاولت الملكة ماندوداري أن تثنيه عن عزمه على الذهاب إلى المعركة، وتحمله على البقاء في لانكا. فقالت له: "إن الخراب قد نزل بشعبك، أيها الملك، لا لذنب اقترفه، وإنما بسبب ما ارتكبته أنت من آثام. فاعد سيتا إلى زوجها، وابق في بلدك آمناً مطمئناً!" لكن كلمات الزوجة وقعت على آذان صماء، فلم يعرها الملك أي اهتمام، حتى أنه لم ينظر إليها. فالمريض المحتضر لا يأبه بالدواء ويعرض عنه ولو كان فيه الشفاء. وما نفع الدواء حين يدنو الأجل.

ودعت الملكة ماندوداري زوجها رافانا وهي تفيض دمعاً. وكان قلبها ينبئها بمصيره المحتوم. وقفلت بعدئذ عائدة إلى القصر والحزن يستولي عليها، وتتبعها وصيفاتها وحاشية القصر من النبيلات.

أحضر السائس العربة الذهبية فاستقلها رافانا مزهواً، وصاح: "ليتبعني كل من يجد في نفسه القدرة على حمل السلاح كبيراً كان أم صغيراً! لقد سقط إندراجيت أشجع الشجعان، ولم يعد هناك من أستطيع أن أرسل به إلى ساحة المعركة. وها أنذا أخرج إلى الحرب بنفسي، فليتبعني من يشاء!"

ارتدى المئات بل الآلاف من الراكشا لباسهم الحربي وساروا إلى رافانا يلبون النداء. ووقف رافانا وهو يحمل القوس بيده في عربته، وأمر السائس أن يتوجه بالعربة إلى الباب الغربي، لملاقاة راما ولكشمانا هناك. فامتثل السائس للأمر وحفز الجياد لتنطلق بسرعة وتسابق الريح. وفر القردة من أمامه فزعين من اللقاء.

زج القائد غانداماردان بقواته ليوقف زحف الراكشا، لكنه أجبر على التراجع تحت وابل من السهام النارية. وجاء نيلا وكومودا، فنزل عليهما ثلاثون سهماً، فتوقف زحفهما. وتلقى جامبافان تسعة سهام، وكل من غوي وغوباخيا عشرة. واخترق هانومن الجسور، مئتا سهم ناري، وسقط أنغادا وقد اخترق جسده ثمانون سهماً، وتلقى سوشينا خمسين.

وارتمى على أرض المعركة أعداد لا حصر لها من القردة.

قال رافانا لسائسه: "لا حاجة لنا بقتال البهائم؛ قدنا إلى حيث راما ولكشمانا." ولما حلقت العربة بسرعة البرق، ورنين أجراسها يتردد في كل مكان، فزع القردة وولوا الأدبار هاربين كأسراب الطيور. وحطت العربة أمام راما... وقف رافانا ينظر، ولا ينقطع عن النظر إلى راما الذي ظهر مهيباً، شديد الوطأة، طويل القامة،عريض المنكبين، شامخاً بأنفه الجميل، وجبهته العريضة، وعينيه اللتين تشعان نبلاً ونباهة. واستمر رافانا يحدق وينظر.. نظر إلى ذراعيه المفتولين، ويديه القويتين اللتين كانتا تحملان القوس العظيم البديع، والكنانة التي لا تنضب منها السهام السماوية.

أجل كان هذا هو راما الجسور والمقدس. قال رافانا يحدث نفسه: "إنني واثق الآن من أن الإله فيشنو قد ولد في شخص راما. وإذا كان مصرعي على يديه، فلن يضيرني الموت، لأن مثواي عندئذ سيكون الفايكونثا ! فعلام الحزن؟ ولمَ الأسف؟" وتقدم نحو راما، رافعاً قوسه عالياً.

إن ما يكتبه القدر لا يمنعه الحذر. وهكذا نشب القتال ضارياً بين راما ورافانا. وقذف رافانا بمئة سهم، لكن راما دمرها كلها بعشرين. ثم انتقى رافانا أكثر سهامه مضاء وراح يمطر راما بها، فوقع راما مغشياً عليه. تقدم لكشمانا، عندئذ، وأخذ يطلق أسلحته السماوية، وكانت قوية مدمرة أصابت رأس سائس العربة، فتدحرج على الأرض وتحطمت العربة وتناثرت أجزاؤها وتبعثرت. وقتل فيبيشانا بصولجانه الجياد الثمانية. وحملق ذو الرؤوس العشرة بفيبيشانا غاضباً... وصاح رافعاً رمحاً رهيباً: "فيبيشانا، أيها الآثم، اخرج، ويلك! لسوف أصرعك اليوم، ولن يقوى كائن على إنقاذك مني." وانطلق الرمح يصدر صفيراً حاداً...

صاح فيبيشانا: "النجدة، يا مولاي لكشمانا، النجدة! أنقذني!" فاعترض لكشمانا الرمح بسلاحه ورده عن فيبيشانا. حملق رافانا بعيونه العشرين وقد طغى عليه الغضب

والسخط؛ ثم تناول رمحاً آخر وأطلقه، فانطلق يصحبه صوت كقصف الرعد نحو فيبيشانا. فأوقف لكشمانا هذا الرمح أيضاً بسلاحه السماوي.

قطب رافانا في وجه لكشمانا. ثم تذكر "الرمح الجبار" الذي كان قد أعطاه إياه العفريت مايا. وصاح وقد احمرت عيونه من الغضب: "لنر مبلغ قوتك أيها الرجل الشرير. لقد كنت مقداماً وأنقذت فيبيشانا... فمن سينقذك الآن؟" وقذف رافانا رمحه الجبار، فانطلق في مهمته المميتة حاداً لامعاً وله صوت كفحيح الأفعى. وانتاب الآلهة والمخلدون في السماء القلق والكرب. كان "الرمح الجبار" هذا أخا الموت... ومن يصيبه يلقى مصرعه لا محالة... وشاهد راما وهو يستعيد وعيه الرمح الجبار وراح يصرخ وقد اغرورقت عيناه بالدموع: "أيها الرمح الجبار، ناشدتك ألا تؤذي لكشمانا، أتوسل إليك. أبق على حياة أخي. عد أيها الرمح إلى رافانا. إنك الموت ذاته حقاً. فدع لكشمانا. ولتسقط على صدري."

ورد الرمح: "علام تستعطفني؟ اعلم إذن أني لا أستطيع أن أقتل أحداً سوى لكشمانا. إنني أقوم بتنفيذ أمر من أقيم على محبته وأخلص له، وأداب على خدمته، وأسعى إلى ما فيه صالحه. ولقد أصاب الرمح لكشمانا بقوة عظيمة، واخترقه، ولم يبق ظاهراً منه سوى المقبض. ومما أقلق بال راما، أن القردة ولوا الأدبار هاربين لما رأوا لكشمانا يسقط. وكان يلح على خاطره السؤال كيف له أن ينقذ لكشمانا؟

عاد القردة حين شاهدوا زعماءهم يتقدمون. وأمسك سوغريفا بقبضة الرمح وحاول سحبه فلم يتزحزح قيد أنملة. كذلك جهد نالا ونيلا والزعماء الآخرون لانتزاعه فما أفلحت جهودهم، وظل الرمح مغروساً في صدر لكشمانا. كذلك لم تجد محاولات هانومن. ولم يجرؤ أحد منهم على أن يشد بقوة مخافة أن تغادر الحياة جسد لكشمانا مع الرمح. عندئذ سلم راما قوسه إلى سوغريفا، وانتزع الرمح بقوة من صدر لكشمانا، وأخذ يحطمه ثم رمى بحطامه من حوله. وأحاط القردة بلكشمانا. وأمطرهم رافانا، وقد امتلأ غضباً، بوابل من سهامه.

صاح راما: "أتحسب أنك نلت النصر بسقوط لكشمانا. إذن، فلتعلم أني قاتلك لا محالة، وإلا فما الهدف من بناء الجسر وعبور البحر؟ ولأي هدف عانيت الكثير؟ ومن أجل من يذوي قلبي حزناً؟ سوف أهزمك، يا سارق الزوجات. إن الألم مقيم في قلبي منذ أن سلبتني حبيبتي سيتا. وسأقتلك اليوم وأسكن ألمي." ثم التفت إلى القردة وقال لهم: "اذهبوا جميعاً! واصعدوا إلى قمة ذلك الجبل، وشاهدوا كيف أقتل رافانا."

عاد القردة لحراسة لكشمانا وقد اطمأنت قلوبهم بكلمات راما. وكان الحزن الذي أصاب راما على لكشمانا قد زاده قوة فوق قوته، وهو يواجه رافانا وجيشه. وفي القتال الضاري الذي نشب عمل راما قتلاً وفتكاً بآلاف الراكشا ومزقهم شر ممزق. واختار أكثر أسلحته قوة ومضاء وقذف بها العدو، وأثخن رافانا بالجراح، فأمر سائس عربته بالابتعاد عن ساحة القتال. وهكذا ولى الملك ذو الرؤوس العشرة الأدبار خوفاً وهلعاً، والقردة في إثره تصيح: "الحقوا به! أمسكوه!"

إن كلمات راما حق ولا يمكن إلا أن تكون صادقة. ورافانا سيلقى حتفه اليوم. لكن راما ترك رافانا يبتعد عن ساحة المعركة، وأسرع إلى أخيه. وبكى وهو يحمل لكشمانا بين ذراعيه. وراح يفكر بقلب مثقل بالحزن: "لماذا قاتل لكشمانا رافانا؟ لم يكن هناك أخ مثله بين الأخوة. ولقد ضحيت به." ثم خاطبه قائلاً: "أي لكشمانا، يا من ضحيت بحياتك من أجلي، كيف لي أن أواجه الأم سوميترا بعد الآن؟ إنك كل ما لديها من ثروة. لن يكون بمقدوري العودة إلى آيوديا... إنني لا أريد المملكة، ولا أريد سيتا... ولسوف ألوم نفسي إلى الأبد. وا حسرتاه! يا أخي، لهذه الكارثة الرهيبة..."

التفت راما إلى سوشينا وقال له: "إن لكشمانا البطل قد وقع صريعاً برمح رافانا. وهو يتلوى من الألم، وإن لكشمانا عندي أعز من الحياة ذاتها. وأجدني خائر العزيمة، عازفاً عن القتال. وأراني أتساءل عن جدوى الحياة أو الأولاد، إذا كان أخي ذو البسالة والبأس، والذي يحمل جسمه العلامات المباركة، سيتحلل إلى العناصر الخمسة. إن قواي لتخور وقوسي ينزلق من يدي، وسهامي تحيد عن مرماها، وعيناي تغشاهما الدموع، وأطرافي خاملة،

وإنني لن أستطيع مواجهة الأهل إن مات لكشمانا".

سعى سوشينا ليخفف عن راما ويهدئ من روعه، فأشار إلى علامات الحياة في جسد لكشمانا، من احمرار البشرة ونبضات القلب... واستمرار التنفس... ودفء الجسد... وإذن فهو ما زال حياً. والتفت بعدئذ إلى هانومن وطلب إليه أن يأتي بأعشاب معينة من قمة الجبل المنسوب إلى الحكيم ماهودايا ليعالج بها لكشمانا.

امتثل هانومن لطلب سوشينا، فذهب إلى قمة الجبل، فلم يتبين تلك الأعشاب التي طلبها الطبيب بين النباتات التي تحفل بها قمة الجبل، فشرع يهز رأس الجبل العالي حتى لانت القمة وأصبحت بين يديه فحملها بما فيها من أزهار ونباتات وعاد بها إلى حيث يرقد لكشمانا. ولما وضع هانومن قمة الجبل بما حوت من النباتات اعتذر لسوشينا عن هذا، بانه ليس خبيراً ليتمكن من تحديد النباتات المطلوبة. فأحضر جميع النباتات ليختار منها ما يشاء. فأخذ سوشينا الخبير يفرز منها ما يحتاجه ثم سحقها ووضعها تحت أنف لكشمانا، فإذا بجسده تسري فيه القوة من جديد، وينهض سليماً معافى، بين هتاف القردة وتهليلها للمعجزة التي تمت على يد سوشينا الخبير.

ضم راما، مبدد الأعداء، لكشمانا إلى صدره قريباً من قلبه، وعيناه مغرورقتان بالدموع، وقال لابن سوميترا: "أي بطلنا، لقد شاء لنا حسن الطالع أن نراك تقوم من بين الموتى! والحق أنني منذ افتقدتك، أصبحت لا أجد للحياة طعماً، بل فقدت اهتمامي بسيتا، ولم يعد للنصر أي مغزى، وأخذت أتساءل عن سبب يحملني على الحياة إن كنت قد عدت إلى العناصر الخمسة."

أجاب لكشمانا بصوت مرتعش مضطرم بالعاطفة: "الحق أنه ليس من شيمك، وأنت الأمين على العهود، أن تنطق بمثل هذه العبارات التي تشي بالوهن! إن الذين يخلصون القول لا ينكثون بالعهد، وأفعالهم هي التي تشهد على صدق عهودهم! ويجدر بك، أيها البطل الهمام، ألا تدع لليأس سبيلاً إلى قلبك ولو كان بسببي. أرجوك أن تبر بوعدك،

وتقتل رافانا اليوم. وأن تحرص على ألا تدع لعدوك حين يقترب من حماك أن يبْقى على قيد الحياة، بل اقتله، وليكن مثله مثل الفيل العظيم حين يقع بين أنياب الأسد الغاضب. ولكم أتوق لأن أرى هذا الحقير يزول عن ظهر الأرض قبل مغيب الشمس. وإذا كنت تسعى لقتل رافانا، وتود تحقيق واجبك، وتحرص على استعادة الأميرة، فافعل ما أنا مشير عليك به دون تأخير أو إبطاء."

لما سمع سليل آل راغو، ومبدد جحافل الأعداء، كلمات لكشمانا، التقط قوسه، وسار في مقدمة جيشه، وأطلق وابلاً من سهامه الجبارة فنزلت كالمطر على رافانا وجيشه. فأسرع رافانا للقاء أعدائه. ممسكاً قوساً جباراً كان قد غزا به العوالم الثلاثة، ومستقلاً عربته الرائعة التي تجرها ثمانية جياد.

كان رافانا يقاتل راكباً في عربته، أما راما فقد كان يحارب راجلاً. وارتعدت الآلهة في عليائها من شدة القتال، ومن عزم رافانا ومثابرته وإصراره على القتال، ومالت لأن تقدم أقصى الدعم لراما. فطلبوا من إندرا، ملك السماء أن يرسل عربته الخاصة ليستخدمها راما وحملوها بأسلحة براهما الفتاكة. ولما ظهرت العربة في معسكر سليل ايكشفاكو، ذهل الأمير لروعتها وبهائها، وراح يتساءل من أين أتت؟ فأجابه سائس العربة: "مولاي، إنني أدعى ماتالي. وأنعم علي ملك السماء إندرا بأن جعلني سائس عربته. وقد عهد إلي براهما وشيفا بإحضار العربة إليك لتفيد منها في قتالك مع رافانا ملك لانكا. وهذه العربة لا مثيل لها فتحلق في السماء وتسابق الريح وتتخطى العقبات كلها، وتقطع الجبال والبحار. ولسوف تساعدك، بعد، على الانتصار في معركتك معه."

راح راما يفكر بصوت عالٍ، إذ قال: "قد تكون هذه العربة وهماً من صنع الراكشا. وقد تكون مصيدة لي، فإنني لا أدري كيف أراها." فحاول ماتالي إقناعه ليزيل شكوكه. إلا أن راما ظل متردداً، ونظر إلى هانومن ولكشمانا وسألهما: "ما قولكما في هذه العربة؟" فكان ردهما: "إننا نرى أنها عربة إندرا، وليست وهماً من صنع الراكشا." فأحكم راما رباط سيفه، وحمل جعبتي سهامه على ظهره، ورفع قوسه، وصعد إلى العربة.

كانت أصوات قرع الطبول تملأ أرض المعركة، وقد امتزجت بهدير العربات التي تسابق الريح، فيسمع لها ضجيج يصم الآذان. وكان رافانا قد تعرف على عربة إندرا، وأحس بقواه تخور وتنحط. وراح يتأوه ويتحسر، قائلاً: "وا اسفاه! أين أنت يا إندراجيت، وأين أنت يا أخي كومبكارنا؟ فبعد ان ظل الآلهة عوناً لي طوال ردح من الزمن، هاهم الآن ينقلبون علي ويعينون أعدائي، وتبلغ بهم الجرأة أن يرسلوا لهم العربة أمام ناظري."

أخذ رافانا يحدق في السماء بعيون غاضبة، ثم خاطب إندرا قائلاً: "إنك تساعد القوي، أليس كذلك؟ ولكن صبراً إن انتصرتْ وبقيت حياً، فساعمل على قتلك!" وبعد أن لجم رافانا غضبه، سار بعربته إلى راما، ورماه بثلاثة آلاف سهم بشكل الأفعى. فلما رأى راما تلك السهام بلغ به الغضب مبلغاً عظيماً، وتذكر سهم الأفعى الملتفة... فاخذ يتمتم بكلمات سحرية، والقى سهم الطائر فتحول السهم إلى نسر الغارودا وصعد إلى الفضاء ثم انقض وابتلع الأفاعي.

استبد الغضب الشديد برافانا، حين وجد أن أسلحته لا تجدي نفعاً. فوجه سهامه الآن إلى جياد إندرا، فارغت وأزبدت من الألم. ثم رفع هراوته السحرية ورمى بها باتجاه راما، وهو يصيح: "والآن انج بنفسك إن استطعت!" وقد انفجرت الهراوة وأصبحت كتلة من النار، وهي تمضي في طيرانها نحو هدفها. ولما وجد سائس العربة أن أسلحة راما عاجزة عن التصدي لتلك التي يوجهها رافانا، قال لراما: "لقد أرسل إندرا إليك رمحاً خارقاً لا راد له. فعليك به، يا مولاي، ودمر هراوة رافانا."

قذف راما بالرمح الخارق، ويا له من مشهد! مضى الرمح في الفضاء واعترض هراوة رافانا السحرية. فغضب ملك لانكا لذلك اشد الغضب، فاختار للرد سهاماً خاصة أطلقها باتجاه راما فاصابته لكنه غالب جراحه وألمه، وأطلق سهامه بالمقابل فاصابت رافانا وأثخنته بالجراح. لقد كانا خصمين متكافئين، فدارت الحرب سجالاً بينهما.

صاح راما بغضب: "قد قيل فيك أيها الملك، إنك عظيم! فكيف تختطف امرأة رجل

آخر دون أن ينتابك الخجل؟ فلو أنك حاولت انتزاعها مني، وهي إلى جانبي، للقيت مصير كارا ودوشانا لكنك اختطفتها في غيابي. وها نحن الآن نلتقي وجهاً لوجه! فتهيأ للرحيل إلى دار الموت. لقد زينت رؤوسك العشرة بحلي جميلة، إلا أنها سوف تتدحرج حتى تستقر بجانب البحر." وأحس راما بعزيمته تتجدد، فانتقى ما يناسب من السهام الجديدة، وصار يرمي بها عدوه.

كان رافانا يتفحص ما حوله، ويجيل النظر في ما يحيط به. حينما انهالت عليه سهام راما من كل جانب، فسقط في عربته مغشياً عليه. فلما رآه سائس العربة غائباً عن الوعي، أسرع بالانسحاب بالعربة، وغادر أرض المعركة. إلا أن رافانا سرعان ما استعاد وعيه بعد أن قطعا مسافة مبتعدين عن أرض المعركة، فراح يوبخ السائس وقال له غاضباً: "من قال لك ان تغادر ساحة القتال؟ كنت أحارب عدوي، إلا أنك مضيت بالعربة بعيداً عندما رأيتني أفقد قواي! أتعتقد أنني جبان رعديد؟ أو تجرؤ على أن تكون المبادر وتنسحب من أرض المعركة، لا بد أنك تلقيت من العدو رشوة لتبعدني عن المعركة. فهيا ارجع بي إلى الساحة قبل أن يرحل راما ويلحق بي العار، فأوصم بالجبن للانهزام أمام الخطر!"

ضم السائس الخائف راحتيه وقال: "يا ملك الراكشا لا تغضب! لقد ابتعدت عن ساحة القتال حين رأيتك مغشياً عليك. وذلك واجب السائس عندما يرى المحارب داخل العربة في خطر. واتهامك لي ظلم، ولا يحق لك، أيها الملك، أن تلومني أو توبخني إن عملت بما يملي علي الواجب. إذ كنت أحمي اسمك وسمعتك. فالتعب كان قد نال منك، والخيول متعبة وترشح عرقاً. فتقهقرت لأكسب الوقت فلتثق بي."

لما سمع رافانا حديث السائس هدأت نفسه، وأراد أن يطيب خاطره، فأغدق عليه الهدايا والمنح، وسأله مترفقاً أن يعود أدراجه إلى ساحة المعركة. فشد السائس لجام الخيول، واستدار بالعربة مسرعاً باتجاه ميدان القتال.

كان الحكيم الصالح أغاستيا يشهد مع الآلهة المعركة بين راما ورافانا. ولما شاهد راما

منهكاً وقد وقف في أرض المعركة وهو مستغرق في التفكير، ورافانا في مواجهته، اقترب الحكيم من راما وقال له: "أي راما، أيها المقاتل المغوار، عليك أن تردد ترنيمة الشمس فهي وحدها بقدسيتها القادرة على إخضاع أعدائك. ولسوف تجد النصر حليفك إن رددتها ثلاث مرات! لقد حانت الساعة التي ستنتصر فيها على رافانا." ثم قفل عائداً من حيث أتى.

أزالت هذه الكلمات الغمة عن صدر راما، وأحس بالسعادة تغمره والنشاط يسري في بدنه، فقام بترديد ترنيمة الشمس ثلاث مرات كما أوصاه الحكيم. ثم غسل فمه ثلاث مرات كذلك وبذلك أصبح طاهراً ثم حمل قوسه. وشعر بالابتهاج حين رأى رافانا، فبرز لقتاله مستجمعاً قواه وعازماً على قتله.

في غضون ذلك، ظهر لخصمه العديد من نذر الشؤم، فقد انقطع قوس رافانا فجأة، واهتزت الجبال، وقصفت الرعود، وانهمر الدمع من أعين الجياد، وراحت الفيلة تسير بخطى واهنة. ولاحظ رافانا نذر الشؤم هذه فتباطأ للحظة، ثم قال في خلده: "إنما هذه مظاهر لا شأن لي بها، فما راما إلا إنسان لا أهمية له."

دار القتال بين الخصمين واشتدت ضراوته، حتى أذهل القوات على الجانبين، وأفزع المتحاربين. وعلا غبار المعركة وخيم على الساحة وحجب ضياء الشمس فغدت الدنيا ظلام. ولم يعد بمقدور ملك الراكشا أن يتبين شيئاً أمامه. إلا أن ذلك لم يثنه عن عزمه، بل زاده إصراراً على متابعة القتال. فراح يمطر راما بوابل من السهام، ورد عليه راما سهماً بسهم. وطال أمد المعركة دون حسم. وأدرك رافانا، عندئذ، ضرورة تغيير خططه، فامر سائس عربته أن يحلق بها في السماء. ومن هناك شرع في مهاجمة جيش القردة، فأنزل بهم مقتلة عظيمة. فأمر راما سائس عربة إندرا ماتالي أن يصعد بالعربة إلى السماء. وأن يلحق برافانا دونما إبطاء، لإنقاذ الجنود الذين يتعرضون لهجوم رافانا.

وهناك في الفضاء أخذ الخصمان يلاحقان بعضهما البعض، ويقطعان الفضاء بسرعة

فائقة، وسهام رافانا تتساقط على الأرض وكأنها المطر؛ وبدا ملك الراكشا عازماً على إفناء العالم. لولا أن سهام راما كانت تعترض أسلحته وتحيلها إلى حطام، أو تجعلها تحيد عن هدفها. وقد انتاب الآلهة، التي كانت تتابعهما، الذعر والخوف، حينما أصابت سهام رافانا خيول راما، وجرحت ماتالي وأفقدته الوعي. فتوقف راما للحظة حزيناً ولا يدري ماذا عليه أن يتخذ من خطوات بعد ذلك. لكن سرعان ما استعاد ماتالي وعيه، فابتهج راما لذلك وتابع هجومه. وفي تلك اللحظة شوهد الغارودا يحوم في المكان فاستبشرت الآلهة بنصر قريب.

بعد أن دار راما ورافانا حول العالم عدة دورات بعربتيهما، عادا إلى لانكا ليتابعا القتال في سمائها. واخترقت سهام راما درع رافانا وجعلته يجفل، بالرغم من أنه كان لا يؤخذ في قتال ومحصن من أي شعور بالألم؛ فكانت تلك علامة خير تبشر بنصر قريب لراما.

قام رافانا بتغيير خطته، فلم يعد يكتفي بإطلاق السهام بل لجأ إلى قواه الخارقة وتوسل بها في تطويق عدوه بالوهم. بعدما امتنع عليه الانتصار عليه بالسهام، التي أدرك أنها لن تجديه نفعاً مع هذا الإنسان، الذي صمد أمام محاولاته كلها، بالرغم من ازدراء رافانا له واعتقاده بسهولة القضاء عليه.

أرسل رافانا سلاحاً أهداه إياه شيفا ويدعى "داندا"، ويتميز بملاحقة العدو وسحقه. فلما اقترب من راما ذهلت الآلهة حين رأته يحيد عن هدفه بسهام راما. فغضب رافانا وثار، وحدث نفسه: "إن كل هذه الأسلحة غير مجدية. والأجدر أن آخذ هذه الحرب بالجد والاهتمام الذي تستحقه." فاطلق عندئذ أخطر سلاح لديه، وهو سلاح سماوي يمتلك قوة تجعله فتاكاً مدمراً. فساد الذعر في الساحة وحاول راما أن يتصدى له بسهامه، إلا أنها فشلت في تحقيق مهمتها. ولما أدرك عجز سهامه، انتابه الخوف حينما أصبح سلاح رافانا قاب قوسين أو أدنى، فراح يردد مقاطع معينة من التراتيم السحرية، فتهاوى سلاح ملك لانكا وسقط دون أن يؤذي راما، مما أدهش رافانا الذي كان واثقاً من قرب نهاية راما. فراح يتأمل ويحاول أن يعرف حقيقة خصمه. فبالرغم من أنه يبدو من البشر إلا أنه ليس من

البشر. وقال في نفسه: "إنني لن أتوقف عن القتال حتى أنزل به الهزيمة، وأقتله أو أحمله أسيراً."

أرسل رافانا سلاحاً من الأفاعي التي تنفث اللهب ووجهه نحو راما، فانتشرت أعداد لا حصر لها من الأفاعي الضخمة ذات العيون الحمراء واتجهت للإطباق على ضحيتها. فجابهها راما بسلاح من النسور التي التهمت تلك الأفاعي وقضت عليها قضاء مبرماً.

استبد الغضب برافانا حين رأى سلاحه الجديد يقصر عن غايته. ووصل إلى حافة الجنون لشدة غضبه فعاد يمطر راما بوابل من السهام، ولكن عبثاً مهما حاول. فاستولى عليه شعور بالإحباط، وأخذت عزيمته تخور لما أدرك أن كل ما عرفه من فنون القتال وما امتلكه من أسلحة لن يجديه نفعاً. أما راما فقد قويت عزيمته وارتفعت معنوياته، فعاد يستأنف القتال. واصطدم العدوان اللدودان، فأرسل راما سهماً أفعوانياً فقطع أحد رؤوس رافانا فسقط على الأرض وتدحرج. لكن ظهر له رأس جديد يماثل السابق. فأطلق سهماً قطع رأساً آخر فخرج على الفور بدلاً منه؛ وهكذا ظل راما يقطع رؤوس رافانا ويخرج بدلاً منها حتى بلغت المئة. ولقد استوقف هذا الأمر راما الخبير في شؤون القتال والأسلحة، فقال محدثاً نفسه: "بهذه الأسلحة قتلت ماريخا وكارا وفيرادا وفالي ملك القردة، وأخضعت ملك البحار. إلا أنها لا تجدي نفعاً مع رافانا."

مضت سبعة أيام بلياليها والقتال دائر لا يتوقف، ولم ينل المتحاربان قسطاً من الراحة، وهما يتقارعان ليلاً نهاراً دون أن تقل حيويتهما ونشاطهما. فيما كانت الآلهة والجندارفا والياكشا والراكشا والقردة يتابعون القتال بانتباه وقد غلب عليهم العجب والدهشة.

قال ماتالي لراما: "أي مولاي، إنك لا تدرك بعد مبلغ قوتك، وهي من الخوارق والعجائب. لقد حانت ساعة رافانا. فدونك سهم براهما "القاذف" وعاجله به!" فسحب راما هذا السهم من جعبته، وكان سهماً رهيباً لا مثيل له، يمضي إلى هدفه ولا يحيد عنه أبداً. وله جناحان يهتزان في الريح ورأس يخرج منه اللهب وكأنه الشمس، ويماثل جبل

ميرو حجماً، ويصدر فحيحاً كالأفعى. ومهمة هذا السلاح الذي يبعث الذعر في العالم، القضاء على الراكشا، وتبديد الخوف عن سلالة الإيكشفاكو، وقد ملأ قلب راما سروراً وابتهاجاً. ولما وضع ذلك السهم في قوسه وشده إليه، ذعرت جميع الكائنات وهلعت القلوب وزلزلت الأرض، ثم أطلقه فكان مثل قرص إندرا واخترق صدر رافانا ومزقه شر ممزق. فسقط قوس الملك وسهامه من يده، وهوى الملك ذاته على الأرض مفارقاً الحياة.

لما رأى جنود الراكشا ملكهم ملقى على الأرض، أصابهم الهلع وفروا في جميع الاتجاهات، بينما كان القردة يطلقون صيحات النصر، ويهجمون على الراكشا ويرمونهم بالأشجار والصخور. فتراجع الراكشا وانسحبوا عائدين إلى لانكا وهم يبكون موت مولاهم. في حين كان القردة يهتفون فرحين لانتصار راما وهزيمة رافانا، والسماء تردد صدى أصوات الطبول التي تقرعها الآلهة، والسماء تمطر الأرض أزهاراً حتى غطت الزهور عربة راما.

كان راما المبارك بقتله كبير الراكشا قد حقق لسوغريفا وأنغادا وفيبيشانا آمالهم. وعم السلام، وغدا الجو صافياً وتوقفت الأرض عن الاهتزاز، وأصبح الهواء عليلاً لطيفاً، وأخذت نجمة الصباح تشع بكل بهاء. فتقدم سوغريفا وفيبيشانا وأنغادا ولكشمانا نحو ذلك البطل الذي لا مثيل له، وقدموا له فروض الطاعة والولاء معلنين له الخضوع.

عاد القردة إلى راما بعدما ولوا الأدبار هاربين من جحيم المعركة، وتحلقوا حول جثة رافانا يدفعهم الفضول للتعرف إليه ومعاينة هيئته. وأبعد هانومن العربة واحتجزها. بينما كان أنغادا ينتزع الهراوة، ونيلا يجرد الميت من الأقراط المرصعة بالجواهر، ونالا يخلع الأساور عن زنوده وسواعده. وتهافت القردة يريدون انتزاع الجواهر من الخوذ وشدوا شعره وأخذوا يتصارعون فيما بينهم على افضل المواقع التي تيسر لهم رؤيته بصورة أفضل.

قال راما: "افسحوا لي الطريق، أيها القردة! دعوني ألقي نظرة على رافانا." ومضى يرافقه لكشمانا وسوغريفا وفيبيشانا إلى حيث كان رافانا. ولما رأى الجثة الضخمة لملك الراكشا

المختال ممددة على الأرض، ثارت فيه مشاعر الشفقة. وقال بصوت خفيض: "وا حسرتاه! وا حسرتاه!" عندئذ انهار فيبيشانا وراح ينوح بصوت عالٍ ويضم رافانا ويبكي بكاءً مريراً، وهو يقول: "وا حسرتاه، أي أخي! يا قاهر العوالم الثلاثة، إن قوتك وباسك جعلك شديد الزهو والخيلاء، فرفضت الاعتراف براما، وأتيت عملاً طائشاً حين سلبته زوجه سيتا. وبذلك حكمت على نفسك وأهلك بالهلاك. ولكم توسلت عند قدميك أن تعيدها له لكنك لم تصغ إلي وصممت على الموت ورفضت التخلي عنها. لقد مت بسبب ما اقترفته من الآثام وسيبقى لي الصيت السيء..."

أحزن نواح فيبيشانا راما، فقال له: "كفكف دموعك، ولا تبك، أي فيبيشانا الصالح. لقد قهر رافانا العالم وتمتع بكل ما فيه، ومضى الآن إلى السماء."

وصلت أنباء مصرع رافانا إلى القصر وهرعت السيدات الجميلات إلى ساحة المعركة بأقدام حافية. وأحاطت أربعة عشر ألف امرأة برافانا إحاطة النجوم بالقمر وهن يبكين، ورمين بأنفسهن على الأرض ومرغن جباههن بالتراب. وأجهشت ماندوداري بالبكاء عند أقدام زوجها، وهي تقول: "كيف لي أن أحيا بعد رحيلك؟ ما الذي حملك على الإتيان بسيتا، تلك الأفعى السوداء إلينا؟ إن مدينتنا لانكا الذهبية خاوية على عروشها الآن، بعد أن دمرها راما ولكشمانا. لقد أتت سيتا بكل هذا الدمار، وتسببت أختك شربناخا بموتك، فهي التي أشارت عليك باختطاف سيتا! فوا حسرتاه! أن يموت أشجع الشجعان، وقاهر العوالم الثلاثة، في حرب مع بشر وقردة... ولم يفدك ثراؤك العريض... كيف بمقدوري أن أعيش بدون زوجي وأولادي؟" وهكذا كانت الملكة الجميلة تتفجع وهي تمرغ نفسها في التراب.

قال فيبيشانا مواسياً: "كفاك تفجعاً، أيتها الملكة ماندوداري! ولتدخلي القصر، وإنك تعلمين حق العلم أن هذا كله من تدبير القدر. ولكم توسلت إليه أن يعيد سيتا، فرد علي بالإهانة علناً، وعلى مرآى الجميع، في البلاط. وأنت تعلمين كل ما جرى!"

ما إن سمعت ماندوداري هذا، حتى أجهشت بالبكاء من جديد. وصاحت: "أريد أن

أرى الذي قتل الملك، راما القدسي لا الفاني!" واندفعت الملكة تجري في ثوب ارتدته على عجل، وشعرها مشعث إلى حيث كان راما يجلس وحوله القردة، ورمت بنفسها عند قدميه.

رثى راما لحالها، فباركها دون أن يعلم من تكون. وتمتم قائلاً: "لتبقي زوجاً إلى الأبد." فصاحت وهي تضم راحتيها: "ما هذا الذي تقوله يا مولاي؟ لماذا باركتني على هذا النحو؟ قد تتوقف الشمس عن الشروق، والقمر عن الطلوع، وتختفي الأرض والبحار، لكن كلماتك لا يمكن أن تخيب أبداً. إنني ماندوداري زوج رافانا وابنة العفريت مايا. وإندراجيت الذي كانت الآلهة تخشاه ولدي. فكيف لي أن أظل زوجاً إلى الأبد وزوجي قد مات عني؟ لماذا تقول هذا بعد أن قتلت زوجي؟"

انتاب راما كبير آل راغو شعور بالخجل وهو يصغي لكلمات ماندوداري الأرمل والأم الثكلى. فقال لها: " أيتها الملكة ماندوداري، اذهبي إلى قصرك ولا تحزني! لقد تطهر زوجك من جميع آثامه ومضى إلى فردوس فيشنو. وأصدقك القول بأن نار محرقته لن تمسك، لذلك سوف تبقين زوجاً إلى الأبد." فوجدت ماندوداري في كلماته هذه العزاء، فانحنت مستأذنة وعادت إلى القصر.

التفت راما إلى فيبيشانا، قائلاً: "إن قلبي لحزين على مقتل رافانا؛ وعهداً بأنني لن أحمل هذا القوس ثانية، بعد الآن. فلا تحزن، أي فيبيشانا، فرافانا مات لما اقترفه من آثام. وهذا ما جنته يداه. فلا تبك، يا صديقي! ويجب عليك أن تشعل النار في محرقته، فما من أحد سواك جدير بأن يقيم له الطقوس الأخيرة." وهكذا، بناء على أوامر راما، جاء القوم بالحلي والجوهرات والثياب المزركشة الفاخرة من خزائن الثياب، مع أحمال من خشب الصندل للمحرقة، وحضر الآلاف من جند الراكشا لرفع جثمان رافانا، إلى المنصب فوق المحرقة فما استطاعوا تحريك جثمان العملاق. فجاء هانومن الجبار وحمل رافانا بين ذراعيه وأخذه ناحية البحر. وهناك غسل الجثمان ودلكه بمعجون خشب الصندل المعطر، وألبسه رداء فاخراً. ثم وضع حول عنقه الخيط الدال على مرتبته الدينية السامية، وحمله بعناية وسجاه على المحرقة

فـوق النار وهو يبكي وينـوح. . . وسرعـان مـا ارتـفـعـت ألسنة اللهب وتصاعـدت أعـمـدة الدخان إلى السماء. . . وهكذا انعتقت روح رافانا من إسار الجسد، وارتفعت إلى فردوس فيشنو.

كان راما ولكشمانا جالسين، حينما جاء سائس عربة إندرا ليستأذن بالانصراف. فقال له راما: "بـلغ ملك السماء تحياتي، وأخبره بأن عدوه رافانا قد قتل." فانحنى السائس محيياً وغادر. وجاء سوغريفا، فاستقبله راما مرحباً، وضمه إلى صدره معانقاً، وقال له: "أي سوغريفا، إنك نعم الصديق. وأنت سندي وعمادي، ومعك أستطيع إخضاع العالم! وبمساندتك أمكنني أن أعبر البحر العظيم، وأتغلب على رافانا. لكن ما زال عليّ الوفاء بديني لفيبيشانا!"

انشغل هانومن وانغادا وبقية القردة بمراسيم تنصيب الملك، تنفيذاً لتعليمات راما. وأعلن في طول البلاد وعرضها أن فيبيشانا سوف ينصب ملكاً، وابتهج سكان لانكا، وراحوا يغنون فرحين. وفي غمرة الاستعداد لهذا الحدث العظيم، أخذ الراكشا والقردة بالعمل معاً في حمل الذهب، وأصناف المجوهرات والعطور والمياه المقدسة من مواضعها. وحفلت لانكا بالموسيقى والرقص، وكانت الآلاف من الطبول والمزامير والأجراس والصناجات. . وعدة مئات من الآلات الوترية، تصدر موسيقى صاخبة لتزيد في بهجة القردة، وهم يرددون: "النصر لراما!" بينما كان راما يمسح جسم فيبيشانا بالزيت بنفسه، والملكة ماندوداري تصب فوق رأسه المياه المقدسة. ثم نصبت المظلة الملكية المصنوعة من الذهب لتظلل فيبيشانا حين تنصيبه ملكاً على لانكا. وقال راما لفيبيشانا: "لتطب نفسك ولتكف عن القلق على ماندوداري! فلسوف تصبح ملكتك. فجرياً على العادة، تنتقل زوج الملك الراحل إلى الملك الجديد. ولذلك فإنني أقدم لك، الملكة ماندوداري!"

عقد راما اجتماعاً ضم الأصدقاء والحاشية، وأرسل هانومن ليأتي بسيتا، فانطلق مسرعاً، وقد استقبله الراكشا بالتحية والإجلال. وتساءلوا في خلدهم متوجسين عما وراء هذه الزيارة المفاجئة، ومن سيكون الضحية هذه المرة؟ ولما وصل هانومن إلى بستان الأشوكا

انحنى إجلالاً وتبجيلاً أمام سيتا، ثم روى لها الأحداث وما جرى... وقال: "لقد أوفدني إليك راما بالبشرى، فقد عانيت الكثير على يد الراكشا الأشرار، وجاءك الفرج بعد الشدة... سقط رافانا الآثم وقضي على أهله، وأصبحت الآن حرة طليقة!"

ابتهجت سيتا لسماعها كلمات هانومن، لكنها لم تتفوه بكلمة، فساوره شيء من القلق وسألها: "ما الخطب، يا أماه، أراك صامتة، فما الذي يشغل بالك فلا تبدين رداً، ولا تظهرين فرحاً لهذه الأخبار؟" فقالت: "ليس لدي من الثروة ما هو جدير بأن يقدم لك على هذه البشرى! ولو كان بوسعي أن اقدم لك مملكة لكنت مع ذلك مقصرة عن مكافاتك!"

ورد هانومن: "لا حاجة لي بمملكة أو ثروة، أي أماه، حسبك أن تباركيني! وإذا ما كنت حقاً تودين مكافاتي، يا مولاتي سيتا، فليس لي سوى أمنية واحدة... أن تأذني لي بقتل جميع الراكشات القبيحات اللواتي يقمن على حراسة بستان الأشوكا، وكن قد تجرأن على تعذيبك أمامي. وأسرفن في إنزال الإهانات التي لا تعد ولا تحصى بك. فامنحيني هذا الشرف، يا أماه، لأخلصك منهن إلى الأبد."

ولما سمعت الحارسات كلام هانومن، هرعن إلى سيتا وترامين على قدميها يناشدنها الرأفة، والنجدة من هانومن الذي يريد قتلهن. فقالت سيتا: "علام تبغي قتل النساء، وتجلب لنفسك العار، أي هانومن، وأنت ذو الرأي الحكيم! إن كل ما عانيته من حزن وأسى كان مقدراً لي. وإذا كن قد عسفن بي فما ذلك إلا بأمر من رافانا. أما وقد صرع وأهله فستجدهن يقمن على خدمتي وراحتي. ولسوف يروين لشري راما كل ما عانيت حين أمثل عند قدميه لأقدم له فروض الطاعة والولاء."

عاد هانومن وقص على راما ما جرى في سفارته، ووصف له سيتا التي خاضوا من أجلها تلك الحرب الطاحنة المدمرة، وقد أضحت هزيلة شاحبة ليس لها من شكلها القديم إلا الأثر... لما لاقته من عذاب على أيدي اللواتي كن يحرسنها، ومع ذلك فإن راما لم يكن ليبرح فكرها وقلبها.

فكر راما ملياً فيمن يحضر سيتا، فلم يجد من هو أصلح من فيبيشانا لهذه المهمة، فارسل ملك لانكا الجديد ليأتي بها. توجه فيبيشانا إلى حيث سيتا وانحنى أمامها وقال لها: "أتوسل إليك، يا أماه، أن ترافقيني فقد أرسلني شري راما لآخذك إليه." ثم وضع المحمل الذهبي المرصع بالجواهر أمامها. وتابع كلامه: "يا ابنة جناكا، لتستحمي، ولترتدي هذا الثوب وتتقلدي هذه المجوهرات، وهذا المحمل بانتظارك لتستقليه، لتصلي إلى مجلس شري راما. لقد قتل رافانا، وهذه خاتمة أحزانك!" فتنهدت سيتا، وقالت: "أين بإمكاني أن أستحم وأرتدي هذه الثياب في بستان الأشوكا؟" فسارعت ساروما الجميلة زوج فيبيشانا إلى اقتيادها إلى دارها. وهناك قامت على خدمة سيتا وصيفات، دهنها بالزيوت العطرية، وعجن مسحوق الأرز ودلكن جسدها به ليصبح ملمسه ناعماً، ثم سكبن فوق رأسها ماء معطراً من جرار مرصعة بالجواهر، وجففن جسدها الجميل بالمناشف الحريرية. وألبسنها ثياباً فاخرة وزينها بالحلي والمجوهرات النادرة، وضفرن شعرها بالأحجار الكريمة، ولففن جدائله حول رأسها الجميل، وكحلن عينيها، وتوهجت نقطة حمراء وسط جبينها، وزين عنقها بقلادة رائعة من اللؤلؤ. فازدادت جمالاً فوق جمال.

استقلت سيتا المحمل والسعادة تغمرها للقاء حبيبها راما. وسارع الراكشا إلى رش الطرقات بماء خشب الصندل المعطر، وفرشوا الطريق التي سوف يسلكها موكب سيتا بالحرير الجميل، وزينوا جانبي الطريق بالأزهار العطرية النادرة. واحتشد القردة ليحظوا برؤية سيتا، وراحوا يتدافعون ويتشاجرون لاحتلال أفضل موقع لرؤيتها. وهرعت نساء الراكشا اللواتي كن يبكين موتاهن لمشاهدة سيتا. وكم من عجوز تعثرت في طريقها ووقعت في سعيها لحضور هذا المهرجان. وكانت النساء يخرجن إلى الشوارع بعيون تفيض دمعاً من شدة التأثر بالحدث العظيم.

حيت ماندوداري سيتا بعينين دامعتين، وخاطبتها قائلة: "لقد فقدت مولاي بسببك. وبعدما نزل الخراب بالمدينة من أجلك، أراك تمضين مرحة لتحية راما. وإني ألعنك وأدعو أن تنقلب سعادتك غماً وأسى. إن ملك آل راغو سوف ينظر إليك بعينين مسمومتين. وإن

كنت زوجة فاضلة ومخلصة لزوجي، حقت عليك لعنتي." ثم استدارت على أعقابها ومضت في دربها، بينما سارع فيبيشانا إلى حمل سيتا بعيداً.

مضت سيتا في طريقها للقاء راما، وكانت حيثما تمر تجد نساء الراكشا يجهشن بالبكاء والدموع تجري على خدودهن ولا تنقطع. وصاحت بها النساء: "إنك ذاهبة والسعادة تملؤك للقاء راما أما نحن فقد فقدنا أزواجنا... وأولادنا. ولسوف تفتقدين منذ الآن العطف في عيني راما... وهذه كلمات حق لا بد أن تتحقق." ثم قفلن عائدات إلى بيوتهن.

واصل موكب سيتا السير... ولما بلغ المحمل المجلل بالحرير قلعة لانكا، توقف الحمالون لعدم تمكنهم من الاستمرار في السير، ذلك أن القردة كانوا يحتشدون بأعداد كبيرة ويتقاتلون فيما بينهم ليروا سيتا في محملها. فما كان من فيبيشانا الذي يتولى قيادة المركب إلا أن تناول سوطاً وراح يضرب القردة. وسالت الدماء غزيرة، وهو يضرب عن يمينه ويسراه حتى افسح الطريق أمام المحفل... ولم يبلغ مقصده حيث يجلس راما إلا بشق الأنفس.

كان راما جالساً وعلى يمينه سوغريفا وعن يساره لكشمانا، وبقربه جامبافان. ولما شاهد راما جموع القردة تجلد بالسياط، غضب وقال لفيبيشانا: "إن زوج الملك أم رعاياها. والأبناء يرغبون في رؤية أمهم، فما الضرر في ذلك؟ إنني لا أفهم لماذا قمت بإسدال الستائر على المحمل وحجب سيتا عن الأنظار؟ ولماذا تعمد إلى ضرب القردة على هذا النحو؟ فلتنزع هذه الستائر، ولترم سوطك، دونهم سيتا ليروها جميعاً دون أن يمنعهم احد. ولينظر الجميع إليها، تلك التي خضنا الحروب من أجل إنقاذها. فالفاضلة تصون فضيلتها بلا ريب في جميع الظروف."

وحده هانومن كان يعلم ما حمل راما على هذا القول. لقد كان راما ينوي أن يختبر سيتا... ارتعد فيبيشانا وجلاً أمام غضب راما، فرفع الستائر عن المحمل... وترجلت سيتا... ودهشوا جميعاً لرؤية قدها النحيل الجميل. وكانت شفتاها مثل حبتي رمان

يانعتين... والكلمات تعجز عن وصف جمالها... تقدمت وانحنت لراما وحيت فيبيشانا بمودة. وانحنى لكشمانا أمام قدميها.

نظر راما إلى سيتا بمزيج من السعادة والكآبة. كان يعلم جيداً مدى إخلاصها، وما تكن له من حب. لكنه بقلب مكتئب لم يكن بمقدوره إلا أن يلحظ ويدرك ما يراود أتباعه من خواطر وأفكار، فالشك كان قد تسرب إلى قلوبهم... وراحوا يتساءلون ترى هل كانت زوج سيدهم المحبوب التي من أجلها خاضوا حرباً ضروس، جديرة حقاً بما بذلوا من جهد وتعب وتضحيات؟ أتراها ظلت على إخلاصها لشري راما طوال مدة سجنها الطويل، أم أن رافانا أفلح في الفوز بمحبتها؟ وكان عليه أن يبرهن لأتباعه الذين عانوا الكثير من أجل سيتا، أنها ما زالت زوجه الصادقة الوفية... وكيف له أن يأتيهم بالبرهان؟ ولاح لخاطره أن ينكرها... واعتصر الألم قلبه... فتلك قسوة ما بعدها قسوة، وظلم ما بعده ظلم، هذا الذي وجد نفسه مكرهاً عليه... لكنه لم يجد طريقة أخرى...

قال لسيتا بلهجة صارمة: "طوال عشرة شهور كنت وحيدة في أرض الغربة، ولا أحد يدري ما كنت تفعلين بين الراكشا. وإنني أتردد في إعادتك إلينا. فأنا سليل الشمس وابن الملك دشاراتا، ولست بحاجة إلى امرأة مثلك. انظري، ذاك هو سوغريفا ملك القردة، ولك أن تذهبي إليه إذا شئت، أو إلى فيبيشانا سيد لانكا، أو بمقدورك العودة إلى الوطن لتقيمي مع بهاراتا وشاتروغنا. فلك أن تقيمي حيث ترغبين. لم البكاء وذرف الدموع أمامي؟ لو أنك بقيت في موطن الراكشا، للازمني الصيت السيء. لكن ذلك طوي بعد ما قضيت على رافانا ومن معه وحررتك منهم. وها أنا الآن أودعك."

كان لكلمات راما أشد الوقع على سيتا. كانت عبارات قاسية، رهيبة، فلم تتمالك نفسها، وأجهشت بالبكاء. وران الصمت على جموع المحتشدين... ثم كفكفت دموعها وقالت بهدوء: "إنني أنتمي إلى الملك جناكا. وكان الملك دشاراتا حماي والد زوجي. إنك سيدي والخبير بي وبحالي. فكيف تسومني هذا العذاب؟ كنت ألهو في طفولتي مع الأطفال، لكن يدي لم تمس صبياً قط. وهنا فقط واجهت التحرش من رافانا الآثم. لماذا

تعتبرني امرأة منحطة؟ لماذا لم تنكرني حين أرسلت هانومن؟ لو أنك فعلت لتجرعت السم الزعاف أو دخلت النار وأحرقت نفسي. لقد تجشمت قوات القردة الكثير من العناء والمخاطر في إقامة جسر فوق البحر وخوض المعارك، وكابدت انت الكثير في هذه الحرب. وبعد هذا كله تنكرني! إنني أتحدر من سلالة من الحكماء، وأتيت إلى سلالة الشمس. أيكون هذا مصيري؟ لقد ذهبت حياتي سدى! إني لست براقصة لتجعل مني هدية تقدمها إلى الآخرين. إنك أنزلت الإهانة بي على مرأى من الناس جميعاً ومسمعهم. أي لكشمانا، أرجو أن تقدم لي هذا المعروف. أضرم النار ولسوف يتوقف كل ما لحق بسمعتي من تشويه."

نظر لكشمانا إلى راما مندهشاً، مضطرباً. فقال راما: "أضرم النار! فنحن بغنى عن سيتا! لتحترق في النار وينمحي عارها." فأحضر القردة جذوع أشجار الصندل... وأضرم لكشمانا النار... فتوهجت.. وتصاعدت ألسنة اللهب... دارت سيتا حول راما سبع مرات في مراسم وداعه وهي تنحني أمامه... ودارت حول النار ثلاث مرات... ثم ألقت حفنة من الذهب في النار، وابتهلت إليها بهدوء ضامة راحتيها: "أيتها النار، قد خبرت آثام البشر وفضائلهم طويلاً... فإن كنت زوجاً مخلصة وفاضلة بجسدي وتفكيري وكلامي، فإن لهيبك لن يمسني!" ثم دخلت النار المضطرمة، وسط صيحات الحشود ونحيبها.

سكبت أباريق السمن السائل فوق النار... وهدرت النار وارتفعت ألسنتها... وشاهد راما سيتا داخل النار... ثم لم يعد يراها. وانهمرت الدموع من عينيه. وبدا العالم خاوياً. وكان الحزن والأسى يعتصران فؤاده.

صاح بكرب: "أي أخي لكشمانا، ما العمل الآن؟ ماذا حل بسيتا؟ لا أريد أن أحكم في آيوديا. اخرجي من النار يا ابنة جناكا. إنني لا أستطيع الحياة بدونك. تعالي يا أعز الناس، تعالي لأرى وجهك الجميل ثانية. كنت أجوب الغابات طوال أربعة عشر سنة، لكني لم أشعر بأي حزن لأنك كنت سلواي. وا حسرتاه! وا حسرتاه! إن كل ما في الأرض بدون سيتا لا طعم له ولا معنى!"

ولقد بكى المخلدون في السماء لحزن راما وصرخوا من شدة الألم: "كفكف دموعك! ولا تبك، فلسوف تستعيد حبيبتك سيتا." وتهاوى راما فاقداً الوعي من شدة الحزن، وسارعت الآلهة لمواساته. فقال براهما: "إن سيتا لا يمكن أن تموت بالنار. ولسوف تستعيدها! فلا تخش بأساً! وعلام البكاء وهذا المسلك، وكأني بك رجلاً من العامة؟ إنك سيد العالم وسيتا هي رفيقتك لكشمي." فتنهد راما وقال: "لقد ولدت إنساناً ويجب أن أتصرف كذلك."

حاول إندرا ملك السماء أن يذكر راما بماضيه المجيد... "لما غادرت الفايكونثا، ولدت على الأرض لتقضي على رافانا. أي مولاي، من ذا الذي يستطيع أن يسبر أغوار عقلك، وأنت القوي القادر؟ فلمَ تتصرف مثل أي إنسان فان؟"

لكن راما لم يجد في تلك الأحاديث عزاء له، ولم تخفف من عذابه. وأخذ يصرخ متألماً مقرعاً نفسه، منادياً لا ينقطع نداؤه: "أي سيتا! آه يا حبيبتي سيتا!" فاستدعى براهما إله النار آغني وقال له: "أسرع وأعد سيتا إلى راما." فدخل آغني النار وفقاً لمشيئة براهما، ورفع سيتا من بين ألسنة اللهب وأخرجها من النار، دون أن تمسها. وبقي رداؤها الحريري كما كان، والأزهار الخمس التي تزين شعرها نضرة كعهدها من قبل. وأصابت الدهشة الجميع.. ووقفت سيتا ضامة راحتيها أمام راما.

قال إله النار: "إنني الشاهد على الأعمال الصالحة والشريرة، ولا يخفى علي شيء. ولا يستطيع أحد أن يخدعني. وأرى أن سيتا لم تقترف أي إثم، وإنني واثق من براءتها... أي راما، إنني أفاخر اليوم بأنني لمست امرأة فاضلة. فلا تثقل قلب سيتا بالأحزان، فإن أنزلت لعنتها بمملكتك، فلسوف تندثر لا محالة." ثم وضع يد سيتا في يد راما وقفل عائداً إلى موطنه.

قال براهما: "أي راما، إنك بأفعالك قد أنقذت المخلدين في الأفلاك من الأفول. فهيا عد إلى رعاياك في آيوديا فهم بانتظارك. اذهب إلى وطنك وقم على حكم مملكتك. إن بهاراتا وشاتروغنا يتطلعان إلى عودتك بقلبين مفعمين بالشوق."

وكان إندرا سعيداً بالقضاء على أعدائه من الراكشا فبارك القردة وقال لهم: "هيا امضوا في سبيلكم ودعوا راما وسيتا يعيشان في سلام بعد طول العناء." ثم قال لراما: "استرح، أي راما، فنحن عائدون إلى السماء." ثم استدار إندرا وصحبه من الآلهة ومضوا إلى موطنهم.

انصرف فيبيشانا ليجهز جناحاً ذهبياً رائع التصميم والبناء، وكساه بالحرير، ووضع تحت مظلة من الحرير وخيوط الذهب والفضة سريراً مرصعاً بالجواهر ومفروشاً بالحرير. وتناثرت في أرجاء القاعة الأزهار لتشيع روائحها العطرية الراحة والطمأنينة في النفس، وأنيرت بالمصابيح الذهبية التي تشتعل فيها الزيوت العطرية فأضاءت المكان بأنوارها.

قاد فيبيشانا راما وسيتا إلى تلك القاعة، وأغلق عليهما الباب، ثم وقف يحرس المكان بنفسه من تطفل المتطفلين.

وجلس راما وسيتا معاً على السرير المرصع بالجواهر والأحجار الكريمة، وراحا يسترجعان ذكريات تاريخهما بما فيه من آلام وفواجع.

قال راما: "أي سيتا، يا أعز الناس، قد كنت أكاد أقارب الموت حزناً عليك، حين افترقنا. فأنت الغالية، بل حياتي ذاتها. وبدونك أرى العوالم الثلاثة خاوية، وغيابك جعلني غارقاً في ظلام. وكان حتى لطنين النحل بل ولزقزقة العصافير وقع قاس، مؤلم كسم الأفعى. ولكني تشبثت بالحياة مقيماً على الأمل وحسب... الأمل بأن أستعيد سيتا بعد أن أعبر البحر العظيم..." وأخذ الزوجان يحدثان بعضهما في ما كابدا طوال الشهور القاسية من الفراق... ثم تلاشت أحزانهما وقد غرقا في عناق المحبين.

مضى الليل وأشرقت الشمس. وجاء القردة عندئذ، الواحد تلو الآخر، حتى اجتمع منهم حشد كبير، يسعون إلى لقاء راما. فدخل عليه الملك فيبيشانا ملتمساً الحديث معه، وقال له: "أي شبل آل راغو، قد أمضيت عهداً في الترحال في طول الأرض وعرضها، وعرفت شظف العيش وأشده قسوة. فلتنفض عنك أثر هذا العناء، فقد جئتك بالوصيفات يحملن

إليك المراهم العطرة ليدلكن بها جسمك قبل الاستحمام. وفي قصري ألف من الغيد الحسان، فاسمح لي بأن أدخلهن عليك، لتستريح بين أيديهن!"

قال راما: "أي ملك الراكشا، إني لست بحاجة لامرأة تخدمني، مهما بلغت من الحسن والجمال. ولو اجتمعت بنات المخلدين في الأفلاك كلهن في هذه القاعة لما وجدت منهن من تضارع سيتاي روعة. بل لست أود النظر إلى امرأة أخرى، ناهيك عن لمسها. إن كل المتع التي يعرفها الملوك متاحة لأخي بهاراتا، ولكنه حزين، لأني أبداً في خاطره. ولذلك تراني عازفاً عن حسن الملبس وأطايب الحياة، ولن أقربها حتى أضم بهاراتا إلى صدري. ولقد أمضيت أربعة عشر عاماً مطوفاً في الغابات، في الكد والتعب، وقطعت فيها الأنهار وعبرت البحار. وحسبي الآن منك أن ترشدني إلى الطريق لأصل بلدي بأسرع ما يمكن للمرء أن يصل!"

رد فيبيشانا قائلاً: "أي مولاي، حسبك ما عانيت. وحري بك ألا تكلف نفسك أكثر مما فعلت. فهاك عربة كوفيرا الطائرة لتحملك إلى بلدك في يوم واحد. إنما أرغب منك أمراً الآن، هو أن تقضي بيننا في ربوع لانكا، بضعة أيام تنفض عنك عناء التعب. ولسوف تجدني وكل جندك نقوم على خدمتك. فمتع نفسك بمباهج لانكا، ثم تغادرنا، متى شئت، إلى بلدك."

وأجاب راما: "قد سرني ما لقيت لديك من حسن الضيافة، وكنت أود أن يطول مقامي بينكم لولا أني لا أملك أن أرجئ سفري. وحسبي منك أن تعتني بقردتي الأحباء الذين قاموا على خدمتي مخلصين في البذل والتضحية، لا يهابون الموت في اقتحام ساحات الوغى، وتوفر لهم الطيوب وأسباب المتعة، فنعوض لهم ما فاتهم وهم يخوضون المعارك. فببذل هؤلاء القردة وتضحياتهم غدوت أنت ملكاً على لانكا. فاحرص عليهم، أي فيبيشانا، ووفهم حقهم من الرعاية والاهتمام!"

ولما سمع فيبيشانا قول راما أخذ به وأمر بتجهيز الحمامات بالماء المعطر للقردة، وهناك

كانت الجواري الحسان يتولين العناية بهم ويقمن على تلبية كل حاجاتهم، وهم في سعادة وحبور. ولما فرغ القردة من الاستحمام جاءت خادمات القصر بالمناشف والشراشف الفاخرة وعقود الأزهار البديعة العطرة. ولم يدخروا وسعاً في إكرامهم بتقديم أطايب الطعام في لانكا، فكانت تقدم لهم أصنافه، وهي عديدة لا تحصى، في أطباق من الذهب، من زبدة الحليب الملفوفة في الماء المحلى والخبز المجفف اللذيذ المعجون بالسكر، والنباتات المضمخة بالتوابل الحارة التي كان بعضهم لا يقوى على تذوقها وبعضهم يلفظها، وقد دمعت عيناه من مذاقها الحاد، لكن أكثرهم كان يقبل على ما يقدم له فلا يبقي منه شيئاً. ولقد شربوا يومئذ الماء من أوان من الذهب، وتذوقوا أوراق النباتات العطرة في أطباق مرصعة بالجواهر. ثم انتقلوا للاستراحة على أسرة مرصعة بالأحجار الكريمة، وكل منهم تقوم على خدمته اثنتان من الحسان، اللواتي كان رافانا انتزعهن من بيوتهن في الأمصار البعيدة وأصبحن يعملن الآن في خدمة أسياد جدد. ولقد استراح القردة يومئذ وطاب لهم النوم حين حل الليل وتمنوا البقاء في تلك الديار، لو استطاعوا! ..ولكن تلك الأماني سرعان ما تلاشت حين اصطبغ المشرق بحمرة الورد وعلت الشمس في سمائها.

وذهب القردة في جمع عظيم إلى راما وتحلقوا حوله، وخاطبه كبيرهم: "نناشد الآلهة أن تجعلنا في خدمة من كان مثلك. ولقد أمضينا ليلة هانئة، وتمتعنا بما أغدقه علينا الملك فيبيشانا من الكرم. فتكرم علينا بشهرين آخرين نقضيهما في المتعة هنا، في لانكا، ثم نصطحب معنا الحسناوات حين نعود إلى موطننا."

ضحك راما، والتفت إلى فيبيشانا، قائلاً: "ما قولك في أن ندخل السرور إلى قلوب هؤلاء القردة ونزوجهم بتلك الحسان. فلتتذكر أنه بفضلهم وطيب معدنهم غدوت أنت ملكاً على لانكا!"

ولقد صدع فيبيشانا المفضال بأمر راما، وكان زواج القردة والحوريات الحسان، وكانت هدايا الملك عديدة وثمينة من حلي ومجوهرات ولآلئ وثياب فاخرة. ولكن أشد ما فرح به القردة كان زواجهم بتلك الحسان.

وأخيراً سأل القردة راما الإذن بالعودة إلى موطنهم. وجيء بالعربة الطائرة، عربة فسيحة الأرجاء، ذات حجرات ومقصورات، تشدها صفوف من البجع، سريعة تقطع آلاف اليوجنات في غمضة عين. وجلست سيتا في مكانها من العربة إلى جانب زوجها، وقد سترت وجهها بستارة من الحرير. ومن مكانه وقف راما مخاطباً الجند الذين تحلقوا حول العربة: "إن خضعت لانكا التي لا تقهر فإنما كان ذلك بفضل فيبيشانا وحكمته، وسوغريفا وبسالته، والقردة وإخلاصهم. وحق القادة في الميدان أن ينالوا الثناء لما أبدوا من قوة الشكيمة والدأب في القتال. أما نصيبي في تلك الحرب فقد نهض به هانومن. فعودوا إلى أهلكم ومواطنكم الآن، فقد أديتم الواجب!" ثم ودع الراكشا، حلفاء اليوم، وقال القردة بعيون دامعة: "ها أنت ذا تفارقنا، ولكن عزاءنا في عودتنا إلى أوطاننا. وأملنا، نحن الذين لم يشهدوا مثل مجدك وظفرك، أن نراك، أي راما، متوجاً على عرشك... ولسوف نسر حين نرى اجتماع الأخوة الأربعة.

ورد راما: "من لم يشأ منكم العودة إلى وطنه فليصطحبني إلى آيوديا، ففي العربة فسحة تتسع لمن شاء الركوب!"

وتدافع الراكشا والقردة وعرائسهم معاً يريدون الركوب، وبات القردة الذين كان العهد بهم القفز بين الأشجار، ومن غصن إلى غصن، في غير تلك الحال، أزواجاً لعرائس بارعات الجمال! وتبعهم فيبيشانا بعدئذ في موكب ضم ثلاثة ملايين من الراكشا العمالقة. فكان عدد القردة والراكشا مجتمعين ستة وعشرين مليوناً. وهكذا غادر راما وحبيبته سيتا لانكا يتبعهما هذا الحشد العظيم من الأتباع.

حلقت العربة الطائرة "بوشباكا" في السماء بسرعة الريح. وفي إحدى غرفها المزينة بالستائر الحريرية جلس راما وسيتا. وأخذ يحدثها عن الحرب مشيراً إلى المواقع التي دارت فيها المعارك. وقال لها: "انظري، إن الأرض ما زالت مخضبة بدماء القردة والراكشا. وهنا سقط كومبكارنا وإندراجيت، وهناك سقطت أنا ولكشمانا مقيدين بسلاسل من الأفاعي التي التفت حولنا، حتى أتى الغارودا فحررنا من أغلالها. وهنا سقط لكشمانا بطعنة من

رمح رافانا، فأتاه هانومن بالدواء حسب تعليمات سوشينا. وهنا سقط رافانا عدو العوالم الثلاثة اللدود. وهنا بكت الملكة ماندوداري. انظري، أي سيتا، إلى أمواج البحر كم هي مضطربة، هائجة! ومن أجلك يا سيتا بنيت هذا الجسر الذي يرتفع فوق المحيط."

لما وصلت العربة الطائرة فوق مدينة كيشكيندا عاصمة القردة، قالت سيتا: "أيها الأمير إنني أرغب في أن أدخل العاصمة آيوديا ومعي الملكة تارا زوج سوغريفا، بالإضافة إلى زوجات جميع قادة القردة." فأمر راما العربة بالتوقف والنزول في المدينة. وطلب من سوغريفا أن يدعو جميع المحاربين وزوجاتهم إلى الذهاب معهم إلى مدينة آيوديا الجميلة. فذهب سوغريفا على الفور، ومعه عدد من الوزراء إلى القصر الملكي في كيشكيندا، ودخل الجناح الخاص بالملكة تارا، وطلب إليها الإسراع في جمع نساء القردة المحاربين، فالجميع سيغادر إلى مدينة آيوديا لزيارة زوجات الملك دشاراتا.

وهكذا ارتدت نساء القردة أجمل ما لديهن، وتزين بأحلى الحلي للقاء الأميرة سيتا وصعدن العربة الطائرة. ثم تابعت العربة طريقها، تشق عنان السماء. وجلس راما بجانب سيتا على أرجوحة ذهبية وهما يمران بالمشاهد من تحتهما فتطويها العربة بغمضة عين، فيما كان لكشمانا يقف بالباب حارساً لهما.

مر الزوجان في رحلتهما هذه بالعديد من الأماكن المألوفة لديهما، والتي أثارت فيهما ذكريات مؤلمة عن معاناتهما السابقة... وفجأة هتف راما قائلاً: "انظري! انظري يا سيتا، إلى ما وراء هذه الأشجار لا بد وأنها سرينغافا حيث يعيش صديقي غوها!.. وانظري، تلك هي نانديغراما، وسط صفوف الأشجار هذه، حيث يحكم أخي بهاراتا الشجاع.

أثار ذكر نانديغراما، مشاعر القردة فأخذوا ينظرون إلى الأسفل، ويهتفون فرحين: "أي مولانا، أو نصل إلى الوطن اليوم؟" فقال راما: "سنتأخر قليلاً، فهنا صومعة الناسك بهرادفاجا، وزيارة هذا الناسك العظيم واجب لا أملك أن أرجئه!"

توقفت العربة أمام الصومعة. وترجل منها راما ثم دخل الصومعة، وانحنى أمام هذا التقي

الورع، وقال: "لقد أمضيت زمناً طويلاً في الغابة، ولم يبلغني أي نبأ عن أحوال الأهل! فأخبرني عن حال بهاراتا ومملكته، وأمي وزوجات والدي." فضمه الرجل الصالح إلى صدره وعانقه، وقال: "طب نفساً، فكل شيء على ما يرام. أما بهاراتا فهو يحكم المملكة بنهج يثير الإعجاب. فقد هجر حياة الرفاه والمتعة، ويحيا كالنساك، زاهداً معرضاً عن فاخر الثياب والعطور، متقشفاً مكتفياً بالقليل من الطعام والشراب. لكنه كسا عرشك المرصع بالجواهر بالحرير، ووضع عليه حذاءك. وهو مقيم على الحكم بالعدل أمام كرسي العرش ومعه فاسيشطا ونارادا. وبعد انقضاء يوم العمل، ينحني أمام العرش ويسأل الإذن بالانصراف، ثم يخلد إلى النوم. لقد حضرت إلى زيارتي، أي راما، وإنني لسعيد برؤياك. فإنك عانيت الكثير، وأجهدت نفسك بالعمل، وآن لك أن تنال قسطاً من الراحة. فلتكن ضيفي الليلة لأحظى بصحبتك!"

فأجابه راما: "طاعتك واجب، أيها الحكيم الصالح، ولسوف أمضي الليلة بصحبتك، وأغادر في الغد. هناك الكثير من اشجار الفاكهة بجوار صومعتك، والقردة تغرم بالفاكهة ذات العصير والعسل. وبالرغم من أننا لسنا في موسم القطاف، فقد يكون ثمة ثمر على هذه الأشجار، وتصبح الأشجار الجافة غضة مثمرة، وتمتلئ خلايا النحل بالعسل. وعندما نعود إلى آيوديا أرجو أن يجد من معي من القردة الفاكهة بكميات وفيرة." فأنعم عليه الحكيم العظيم بتحقيق كل ما تمناه.

جلس الناسك العظيم أمام المذبح وراح يتأمل مستذكراً فيشفاكارما. فظهر أمامه، وشيد له المنازل وشق الطرقات وحفر البحيرات الكبيرة، وأضاف إليها سلالم تؤدي إلى المياه الباردة، وقاعات للراقصين والراقصات. وأخذ الشباب الوسيمون والفتيات الجميلات يتوافدون قادمين من الفردوس. كانت قوى هذا الرجل الصالح عظيمة لدرجة أن الأنهار كلها، ومنها الغانج واليامونا أتت تتراكض تلبية لدعوة الحكيم.

وعاد الناسك للتأمل مرة أخرى... فنزل إليه المخلدون ليطهوا لضيوفه مختلف أصناف الطعام والحلوى، فأقبل الجند على الطعام والشراب حتى أتخموا. وفي أثناء ذلك كانت

الفتيات الجميلات غير المرئيات يقدمن الطعام والشراب ويعتنين بخدمة الضيوف. وبعد أن انتهى القردة من الطعام والشراب غسلوا أيديهم ووجوههم ثم ناموا في أسرة ذهبية، على أنغام العازفين وغناء المغنين السماويين، فباتوا تلك الليلة في أهنأ حال، ثم صحوا في الفجر وهم في غاية الرضا، ويشكرون لراما عنايته بهم وحرصه على سعادتهم.

استدعى راما هانومن وقال له: "اذهب إلى نانديغراما وأخبر بهاراتا بكل ما جرى ولا تمسك في الحديث، وإذا انتهيت من مهمتك لديه، امض إلى مدينة سرينغافا واحمل تحياتي إلى صديقي غوها هناك." وللتو صعد هانومن إلى السماء، وبدأ رحلته قاصداً نانديغراما. وأخذ يفكر: "كيف سأبدو أمام غوها، ابن البراري والغابات؟ فإن رآني على هيئتي الحقيقية، قرداً، فقد يجنح إلى العنف... وإذن لأقابله على هيئة البشر." وهكذا كان واتخذ هيئة البشر. وما إن هبط في سرينغافا حتى أصبح رجلاً، وتوجه نحو الأكواخ المسقوفة بالقش التي يسكنها صيادو الطيور. وكان غوها جالساً أمام بيته تحيط به الزهور والورود، وحول عنقه يتدلى عقد من الزهور البرية.

لما اقترب هانومن خاطب غوها قائلاً: "أي غوها! قد أرسلني شري راما لأنقل لك تحياته ورغبته بلقائك. فهيا بنا إليه، إن شئت!" فسر غوها لسماع أخبار راما، وغمرته السعادة، وسأله بصوت مفعم بالحب والحنان: "كم يبعد عنا السيد راما ولكشمانا والسيدة سيتا؟" فقال هانومن: "لقد كان بالأمس في صومعة الحكيم بهرادفاجا، وستلقاه في طريق العودة، فاسرع لنقابله!"

انتشر الخبر ووصل إلى جميع أفراد قبيلة نيشادا، فراح أتباع غوها يدقون الطبول ويغنون ويرقصون احتفاء بالنبأ، ولا ينقطعون يرددون: "إن السيد راما عائد إلى الوطن". وقد رفعوا شعرهم وربطوه فوق قمة رؤوسهم، وشدوا أحزمتهم، وحملوا رماحهم وتروسهم ورفعوها بابتهاج. وكان الجميع يشارك في الرقص ثم انضمت إليهم نساء القبيلة. وخاطبهم غوها قائلاً: "اعلموا، أيها الأتباع، نساء ورجالاً، أننا ذاهبون للقاء صديقي شري راما. فاملؤوا سلالكم بالفاكهة والسمك واللوتس."

وهكذا سار سبعة ملايين من أتباع غوها وهم يحملون تروسهم ورماحهم. وكانوا جميعاً طوال القامة اقوياء، وانتشروا من أول الطريق حتى نهايته وكلهم يحملون الهدايا إلى راما. وما إن وقعت عينا راما على طلائعهم حتى أشار للقردة أن يتنحوا جانباً لإفساح الطريق لهم. ورحب بغوها وسأله عن أحواله وأخباره. وقد تلعثم غوها وهو يقول: "أي راما، لقد عدت بأمان." ولما كان راما يعلم طيبة قلب غوها، فإنه تقبل حبه وإخلاصه غاضاً الطرف عن كلامه الفظ، وضمه إلى صدره.

استعاد هانومن هيئته الأصلية وصعد إلى السماء. وقطع في طيرانه العديد من الأنهار والبحار، حتى تراءت له أخيراً مدينة نانديغراما خلف أشجار السال الضخمة. ولاحظ من ذلك الارتفاع، أسوار المدينة العالية. وكان الباب الرئيس للمدينة حسن البناء والصنعة، وعليه ثمانية آلاف من النبلاء والأعيان يقومون على حراسته، ومن ورائه برزت قصور عامرة ذات أعمدة سامقة تناطح السحاب، ورأى كذلك أعداداً كثيرة من الفيلة والجياد... ونزل إلى الأرض ودخل القصر فشاهد عرشاً مرصعاً بالجواهر ومكسياً بالحرير وفوقه صندلان خشبيان... وعند قوائمه جلس بهاراتا في لباس النساك، وكان منصرفاً إلى تدبير أمور الدولة يساعده في ذلك فاسيشطا ونارادا. ولاحظ هانومن على وجه بهاراتا علائم الحزن والمعاناة، فابتهج لذلك ليقينه أن الأخبار التي يحملها ستقابل بكل ترحيب. فانحنى أمام بهاراتا وقال: "إنني هانومن خادم السيد راما، وأحمل إليكم أطيب الأخبار."

كاد بهاراتا يغمى عليه من شدة الفرح، ونهض مسرعاً وعيناه تدمعان وضم موفد أخيه، وأخبره القرد العملاق بأنباء معركة لانكا التي خاضها راما وقتل فيها رافانا، وإنقاذ سيتا، وعودته أخيراً إلى الوطن على رأس جيوشه المظفرة. فأنعم بهاراتا على هانومن بثلاثة آلاف بقرة من أفضل السلالات، وألفي شجرة مثمرة وثمانية ملايين قطعة ذهبية، وقلائد من اللؤلؤ والمرجان وأحد عشر ألفاً من الجواري الحسان. فضحك هانومن وقال له: "إنني حيوان، فما نفع أولئك الفتيات؟ ولن أستطيع أن أحمل معي إلا ما فيه نفع لراما." فضمه بهاراتا إلى صدره مرة أخرى.

قال بهاراتا لهانومن: "لقد سمعت ما أدهشني، إنك لست حيواناً، بل أنت عندي في مصاف الآلهة فاخبرني، أيها البطل، كيف تمكنت القردة من مساعدة راما؟ ومن هم قادة جيشه؟ وما الذي قاموا به؟ لأحسن إكرامهم حين يأتون إلينا." فروى له هانومن كل ما جرى بالتفصيل، وطلب منه أن يأتي وحاشيته وأصدقاؤه للتحية والترحيب براما، وأن يسرع بالخروج ليكون في استقباله في طريق عودته.

التفت بهاراتا إلى شاتروغنا وقال له: "أي أخي، ها قد اقتربت نهاية الأحزان، والأيام السعيدة حلت أخيراً. وها هو ذا راما عائد بعد غيابه سنوات طوال. فلتهتم بأن يتم غسل التماثيل الرخامية في الطريق بالمياه المعطرة. وأن تعزف الموسيقا في المعابد، ويحرق البخور، وتقدم الفاكهة والزهور عند المذابح، ولتضاء جميع المصابيح، ولتحرق أغصان خشب الصندل في الهواء الطلق. ولتحرص على نظافة الطرق والدروب، ولتغرس شجرة أمام كل بيت. ولترتفع الأعلام وأطواق الزهور فوق البيوت، ولتقام المظلات الحريرية لتتمكن النساء من التجمع تحتها لرؤية راما."

قام شاتروغنا بتنفيذ كل ما طلبه بهاراتا، وغدت نانديغراما أشبه بالفردوس. وانطلق بهاراتا وقلبه مفعم بالسعادة، ويحف به كبار قادة الجيش والوزراء، وحمل صندل راما في موكب ملكي وفوقه المظلة الذهبية، وعلى الطرفين كان الخدم في أزيائهم الزاهية يلوحون بمراوح من شعر ذنب الياك الأبيض، وكان أهل آيوديا يحملون أعلام محبوبهم راما، وقد خرجوا جميعاً لاستقباله منذ الصباح الباكر وملء قلوبهم السعادة والسرور بهذا الحدث.

أما نارادا وفاسيشطا فقد انضما إلى موكب كهنة البيت المالك. وكانت الملكة كاوساليا تركب المحمل المغطى بالحرير وترافقها سبعمئة سيدة من العائلة المالكة. وهرع الناس بشتى فئاتهم وتقدموا ليزيدوا في الموكب نساء ورجالاً وصبايا طرحن عنهن الخجل، كما خرج الأعمى والعاجز والطفل والطاعن في السن والنساك... وتركت الطيور أعشاشها، وجاءت وحوش الغابة والحشرات وجميع مخلوقات الأرض والسماء جميعهم أتوا لرؤية راما. وكانت الأرواح والأشباح تتابع المشهد خفية عن الأنظار.

كان الحشد عظيماً، حتى أن بهاراتا لم يستطع أن يتقدم أكثر مما سار. فسأل هانومن وقال له: "آه يا هانومن، ماذا يمكننا أن نفعل؟" فطمأنه هانومن: "لا تقلق، يا سيدي، ولتصغ إلى أصوات القردة تأتي من ضفاف نهر جوماتي. وانظر إلى الثمار والأزهار على تلك الأشجار اليابسة، إنها هدية الناسك بهرادفاجا. وها هي ذي العربة تتألق في السماء، إنها من صنع براهما وتحملها بجعات جبارة، وهي عربة مدهشة، إذ تحمل جند راما، وملك لانكا الجديد فيبيشانا ومعه ثلاثة ملايين من الراكشا العمالقة. وجميعهم في إحدى زوايا هذه العربة. انظر إليها، كيف أنها تغطي السماء وتضاهي الشمس في ضيائها."

وبينما كان هذا الحديث يجري بين هانومن وبهاراتا حطت العربة على الأرض، وأضنى بهاراتا أن يرى راما نحيلاً منهكاً. واندفع لاستقبال أخيه القادم. ولكنه لم يتمالك نفسه من شدة لهفته فتعثر ووقع، فانحنى راما وحمله إلى العربة. وهكذا وبعد أربع عشرة سنة تعانقا والسعادة تغمرهما. وانحنى بهاراتا أمام راما وسيتا التي باركته. ولما كان بهاراتا هو الأكبر فلم ينحن للكشمانا، ولكنهما تعانقا بمحبة وفرح. وبذلك التام شمل الأخوة الأربعة مرة اخرى وسط ابتهاج عظيم وسعادة غامرة. فأمطرتهم الآلهة بالورود.

انحنى راما لفاسيشطا والكهنة الآخرين. وحيا أمه وسوميترا بمحبة وتبجيل، وقد كانتا ضعيفتين وواهنتين من معاناتهما لفراق ولديهما. وترجل سيتا ولكشمانا بعدئذ من العربة وانحنيا لمن هم أكبر منهما سناً. وضمت الملكتان سيتا إليهما وأعينهما تذرف الدموع. وباركتا الأخوة. وقال راما لسوميترا: "أي أماه، هاك حبيبك لكشمانا، فقد قدمته لي عندما ذهبت إلى الغابة. إنه أخي الغالي، وحشاشة فؤادي. فله من الفضائل ما أعجز عن تعداده، وكان لنا نعم المعين في حياتنا في الغابة. والآن أعيده لك، بعد أن رجعت إلى الوطن." فقالت سوميترا: "أي راما، ما الذي يحملك على هذا القول؟ فلكشمانا ليس لي وإنما هو لك. ولكن أخبرني ما هذه الندبة التي على صدره؟" فروى لها ما أصابه في المعركة.

وضع بهاراتا الصندل أمام راما وقال له: "أي مولاي، إنني قد لزمت هذا الصندل، واحنى

رعايانا رؤوسهم أمامه، وها إني وفيت بالعهد، فلتلبسه ثانية!" وهكذا انتعل راما الصندل ودخل مملكته بقلب هانئ. ثم قال راما للعربة الطائرة: "إنني تاركك الآن فعودي إلى كوفيرا وكوني رهن مشيئته!" فرحلت هذه العربة الرائعة ووجهتها الشمال، حتى حطت في فردوس كوفيرا إله الثروة، وهكذا عادت البوشباكا، التي انتزعها رافانا ذات يوم، إلى صاحبها، بأمر من راما، وبأقصى سرعة.

كان الجميع في مرح غامر لعودة راما. ووصل النبأ السعيد إلى مسامع الملكة كايكيه فتلقته بفؤاد يحترق وعينين دامعتين، وقالت في خلدها: "أي حياة هذه إن لم يأتني راما ويناديني "أماه" كما كان عهدي به دائماً، فالموت أهون علي إن لم أسمع هذا النداء!" وجلست مطرقة برأسها وفي يدها شيء من السم.

لما علم راما بذلك، حزن كثيراً، وأسرع إليها حيث كانت جالسة يلفها الحزن والأسى، وعليها مظاهر الذل والهوان. فحياها وانحنى أمامها، وخاطبها كالابن وهو يضم راحتيه إجلالاً وإكباراً، وقال لها: "أي أماه، لقد عدت إلى الوطن أخيراً بعد اربعة عشر عاماً. جابهت فيها الكثير من المخاطر والصعاب وشظف العيش في الغابة. ولكني تمكنت من التغلب على كافة المخاطر والصعاب بفضل مباركتك لي."

شعرت كايكيه بالخجل الشديد حينما سمعت كلمات راما. وقالت: "لماذا جعلتني هدفاً للوم؟ وقد ذهبت إلى الغابات لتعين الآلهة على التخلص من أعدائهم، أنت الذي ولدت لهذه الغاية. أي بني، لقد تطهرت سلالة الشمس بما فعلت، وقهرت أعداء المخلدين في الأفلاك، فنالوا على يديك المراد. وإذن، فإنه قدري أن يلازمني الصيت السيء إلى الأبد! أي راما الغالي، لطالما آثرتك على بهاراتا. لكن القدر الماكر جعلني أقول فيك أسوأ الكلام... ووقعت في أحابيل المكر بسبب كوني زوج أبيك..."

أطرق راما برأسه وقال: "أي أماه، لم يكن ذلك خطأي، بل كان مقدراً أن يحدث. ولكني تمكنت من قتل رافانا ذي الرؤوس العشرة بفضل مباركتك لي. وأصبحت صديقاً

لسوغريفا، الذي ساعدني على تخطي الصعاب والمخاطر.. ونجحت في عبور البحر، وعلمت مدى إخلاص لكشمانا، ومبلغ محبة سيتا، وعرفت الحقائق الكبرى، ومصادر الخطأ والصواب، والفارق بين الخير والشر. وكان ذلك كله أي أماه، بفضلك." فكان لكلمات راما هذه أعظم الوقع على كايكيه، وعظم عليها الإحساس بالذنب، وشعرت بالخزي والعار يجللانها.

رغب راما في عقد مجلس له. فجاء الناس، وتقاطرت الجموع من كل حدب وصوب لحضور هذا المجلس، فكان حشداً عظيماً اضطر معه أن يكون موقعه خارج القصر، فكان لكل من حضر مقعد. واجتمع في ذلك المجلس القادة وكبار المحاربين فقدمهم راما إلى بهاراتا ليتعرف إليهم: "انظر، هاك الملك سوغريفا، ابن الشمس، والأمير ولي العهد أنغادا بن فالي، الذي منحه عمه سوغريفا جميع السلطات. وهؤلاء هم غوي وغوباخيا وغانداماردان وولدا سوشينا ماهيندرا ودافيندرا ، والقائدان نالا ونيلا، وهذان هما سوشينا والوزير جامبافان اللذان ليس لهما في الطب والمشورة مضارع. وانظر ذاك هو هانومن الشهم الذي تمكنت بفضل تضحياته من قتل ذي الرؤوس العشرة. إن اللسان ليعجز عن تعداد فضائله. فهو الذي أنقذ سيتا، وكان الخبير في كل مهمة، وله عندي أرفع مكانة. ثم هذا صديقنا فيبيشانا الذي وفر لي المشورة في القضاء على رافانا..."

وهكذا استعرض راما الجميع، كما عرض أمام رعاياه فضائلهم ومزاياهم، وكان الراكشا والقردة يحيطون بالكثير من فنون السحر، فلما لمحوا إشارة من راما تحولوا فوراً إلى هيئة البشر. ووقف بهاراتا عندئذ، يخطب فيهم: "لتشهدوا جميعاً على أنني إنما حكمت بأمر من شري راما." ثم استدار نحو راما وانحنى محيياً إياه، وقال: "ها أنذا أعيد لك مملكتك وأطلب منك أن تجلس على عرشك، وهو حقك الشرعي. إن الحفاظ على هذه المملكة العظيمة لأمر يفوق قدراتي. فهي بحاجة إلى شجاعة الأسد. وهل يستطيع الضعيف أن يحمل العبء عن القوي؟ إن من يحكم هذه المملكة عليه أن يكون بطلاً فذاً. وإنني منذ اليوم أعفي نفسي من كل مسؤولية من مسؤوليات الحكم. وأدعو أن يدوم حكمك إلى

الأبد."

ابتسم راما لما سمعه من بهاراتا وفتح ذراعيه وضمه إلى صدره، وقال له: "أي أخي، لقد أسرتني بحديثك. ولسوف تطبق شهرتك الآفاق لإيثارك سواك على نفسك!"

تمت استشارة النجوم، ووقع الاختيار على يوم ميمون لتنصيب راما على العرش. فزين الأخوة شعرهم وشذبوه بعد أن طال واسترسل. ثم استحموا بالمياه المعطرة، وارتدوا الملابس الفاخرة، ونبذوا تلك التي من لحاء الأشجار التي ظلوا يرتدونها زمناً طويلاً.

بقي يوم واحد على تتويج راما في آيوديا، وقد توافد الجميع على عاصمة ملكه محمولين على الفيلة والجياد، وكل يسعى إلى راما ينشد رؤيته ونيل البركة برؤيته. وجاء سومانترا بالعربة، فاستقلها الأخوة الأربعة، وهم في أبهى حلة، وسط هتافات النصر. كان بهاراتا ممسكاً بلجام الأحصنة ولكشمانا يلوح بالمروحة الفخمة من ذيل حيوان الياك، بينما كان شاتروغنا يحرك المروحة أمام راما. والناس على جانبي الطريق يحدقون في راما ويهتفون مظهرين الإعجاب والمحبة: "لقد أنعمت علينا الآلهة، بان جعلت علينا ملكاً هو راما. وإننا نبتهل أن يدوم حكمه إلى الأبد!"

وبدا الناس في غاية السرور لرؤيته. وافتتنت النساء بجمال وجهه وقامته المديدة وبنيته القوية. لكن قلبه كان مولعاً بسيتا وحدها، ولا يرى من النساء سواها، وكن يحسدنها لهذا الحب! ولما دخل راما مدينة آيوديا، طلب من بهاراتا أن يؤمن السكن للجيوش. فقدم للقادة الدور الفخمة، والقصور الجميلة المزينة بأفخر الرياش والمرصعة بالجواهر لسوغريفا وفيبيشانا وأنغادا وهانومن. وأقام معسكرات لقوات الراكشا والقردة على طول نهري السند والسرايو تتوفر فيها كل أسباب الراحة والرفاه، حيث استمتع القردة بصحبة عرائسهن الحوريات.

ذهب بهاراتا إلى سوغريفا في قصره زائراً، وقال له: "غداً سيظهر في السماء النجم بونارفاسو، وبذلك يكون شهر تشيترا قد اكتمل، وسيحمل راما صولجان الملك. وعلينا أن نعد لحفل التتويج منذ اليوم. وإنني أستطيع أن أتدبر أمر التحضيرات كلها، عدا جلب الماء

من البحار الأربعة، وقد جلبت معي أربعة أباريق مرصعة بالجواهر لتملأ بمياه البحار الأربعة. كذلك أحضرت سبعمئة إبريق صغير من الذهب ليملأ كل إبريق بمياه أحد أنهار الأرض السبعمئة، ويجب أن تكون المياه موجودة في الغد لتنثر فوق راما في طقس التتويج." فأشار سوغريفا لقواته فهرع القردة وأمسكوا بالأباريق، ثم هتف بهم قائلاً: "عليكم أن تأتونا بمياه البحار والأنهار نفسها، ولا تخدعوني، فتحضروا مياه الأقنية بدلاً منها." فانطلق القردة لتنفيذ الأوامر. وراح البراهمة يعدون لحفل التتويج، وفاسيشطا ونارادا يلهجان بالترانيم المقدسة، وصيحات النصر لراما تتردد في كافة أرجاء المدينة. وكان ذلك اليوم، كما تقضي الأعراف، يوم صوم وعبادة ومجاهدة للنفس يتم فيه قضاء الليل في الصيام والعبادة، وفي صباح اليوم التالي يتم التتويج وسط الطقوس المقدسة. وقد أمضى الجميع في القصر ليلتهم يقظين لم يغمض لهم جفن. وتجاذب راما وسيتا أطراف الحديث واستعادا ذكريات الماضي وما مر بهما من أحداث بحلوها ومرها.

كان الفجر قد انبلج فقفز القرد العملاق نيلا كشعلة النار، وفي لحظة وصل إلى بحر المشرق الذي يبعد عن آيوديا مئة يوجنا وملأ الإبريق من مائه، ثم راح يبحث في الجوار عن علامة تدل على سفره، فوجد شجرة صندل فكسر أحد أغصانها وغطى بها فوهة الإبريق، وعاد إلى سوغريفا ووضع الإناء بجانبه. فتأثر جامبافان بما رأى من نيلا واقتدى به فقفز باتجاه بحر المغرب وملأ الإبريق بمائه وغطاه بغصن من شجر الأرز وحمله إلى سوغريفا.

واتجه نالا إلى بحر الجنوب حيث كان موضع الجسر الذي أقامه هناك. فلما رآه إله البحر مرة أخرى وجد في ذلك نذيراً بالخطر فاضطرب وتجهم، فضحك نالا وطمأنه، قائلاً: "من ذا الذي يجرؤ على أن يبني جسراً فوق مياهك؟ والحق أني ما كنت لأستطيع ذلك لولا أنني كنت في خدمة راما. وهو اليوم سيتوج ملكاً على آيوديا، وقد حضرت لأجلب الماء لهذه المناسبة." فاطمأن إله البحر، ثم ملأ نالا الإبريق وأغلق فوهته بغصن من شجرة صندل وقفل عائداً ليضعه بجانب سوغريفا.

ولم يكن هناك من يستطيع الذهاب إلى بحر الشمال سوى هانومن فانطلق إلى السماء،

ووصل إلى هدفه بأسرع من الريح وملأ الإبريق وغطى فوهته بأوراق الصندل وقدمه إلى سوغريفا. وهكذا أحضر الماء من البحار الأربعة قبل انقضاء ساعة واحدة من النهار. بينما أحضر كبار القادة الأباريق السبعمئة ممتلئة بمياه الأنهار المقدسة.

جلس راما وسيتا على العرش المسمى "كرسي الأسد"، وكان مصنوعاً من الذهب ومرصعاً بالجواهر، ويرتفع فوق أربعة أسود من الذهب. ووقف وراء راما أقوى ملكين في الأرض وفي العالم السفلي، وهما يحملان المظلة الملكية. وكان قد وفد إلى آيوديا جميع ملوك الأرض ليشهدوا الاحتفال .كما تدفق الناس من جهات الأرض الأربع، ومن العالم السفلي، والسماء. وهكذا امتزجت العوالم الثلاثة في عالم واحد في آيوديا. وكان المكان يحفل بضجيج الجنود وصخبهم، وأنغام العازفين وتصفيق الناس.

كان الملوك يلوحون لراما بمراوح من ذيل ثور الياك، ووقف الأخوة الثلاثة أمامه يقظين. ثم اعتذر بهاراتا للحضور، وطلب إلى حوريات السماء أن يحيين الحفل، ثم قدم عقد زهر اللوتس المصنوع من الذهب والمرصع بالجوهرات وطوق به عنق راما، فسطع وتلألأ.

وقدم له إندرا المزيد من الحلي، وأرسل له كوفيرا إله الثروة عقداً مشغولاً من حجارة تحول كل ما تلمسه إلى ذهب، وأنواع أخرى من المجوهرات الثمينة. وهكذا توج راما ملكاً على آيوديا، وقد حمل هدايا الآلهة من القلائد والحلي. وكان المخلدون في الأفلاك ينظرون إلى حفل التتويج. وفي لحظة ميمونة، عند نهاية شهر تشيترا، عندما ظهرت نجمة بونارفاسو في كبد السماء، وضع صولجان الملك بين يدي راما، ورفعت المظلة الملكية فوقه. ونزلت الحوريات الحسان من السماء، وظهرن أمام راما في أجمل الأزياء، وبأيديهن وريقات غضة من العشب وأرزاً ذهبياً غير مقشور وقدمن له هذه الهدية تعبيراً عن أمانيهن بالسعادة والرخاء، وهتفن بحياة راما بطل آل راغو. ورتل مغنون قدموا من السماء تراتيل في تمجيده، ورقص الراقصون على أصوات الموسيقى والغناء. وعمت السعادة آيوديا، ووزعت الهدايا الثمينة على الجميع كل حسب مكانته، وتقاطر الناس بالملايين ونالوا كل ما يحتاجون إليه من أراض وقرى وذهب....

كان راما يرتدي عقداً من الأزهار الذهبية يشع مثل الشمس... فخلعه وقلد به عنق سوغريفا. وأهدى أنغادا الثياب والحلي الرائعة. وقدم له ملايين الجنود ليكونوا طوع أمره.

نزعت سيتا عن جيدها عقداً من اللؤلؤ الثمين كان راما قد أهداها إياه. وعند رؤيته حبس الناس أنفاسهم وحدقوا به مشدوهين. وراح كبار القادة يفكرون: "من الذي ستخلع عليه هذا العقد." ونظرت إلى راما والعقد في يديها. ولما كان يعلم بما يجول في ذهنها. قال لها: "لتقدمي هديتك هذه لمن تشائين! قدميها لمن بحث عنك حين كنت مفقودة... وأعادني إلى الحياة حين فقدتها.. فأدركت سيتا من يعني بذلك، ونظرت إلى هانومن وقدمت له العقد... فاندفع نحوها لتقلده إياه، فشع على عنقه، وانحنى عند قدميها. فدعت له بالصحة وأن يكون محصناً من الأمراض ويظل سليماً معافى، وتمنت له دوام العيش، قوي البنيان ماضي العزيمة ما دامت الشمس تشرق، والقمر يطل على العالم، واسم راما يتردد في الأرض، وبذلك بات هانومن خالداً.

توافد الحكماء الصالحون من معتكفاتهم، لرؤية راما وتهنئته. فنزل عن عرشه لتحيتهم، وأمر بتقديم الماء لهم ليغسلوا أقدامهم، وقدم لهم الزهور. واستفسر عن صحة ضيوفه المكرمين وأحوالهم. فبارك النساك الزوجين ثم قالوا: "لتطمئن يا راما، إننا في أحسن حال، لكن أخبرنا أولاً عن حالك وحال لكشمانا والسيدة سيتا. فمن حسن حظكم أن تمكنتم من النجاة والظفر في الحرب والعودة سالمين. ذلك أن الراكشا قد ازدادوا تيهاً وعسفاً وأصابهم الغرور بعد أن باركهم براهما. وكانوا سادة السحر، وقلة هم من تمكنوا من النجاة من سحرهم. إن جبروت إندراجيت معروف في العوالم الثلاثة. وهو أعتاهم فقد دحر إندرا ملك السماء وأتى به إلى لانكا مكبلاً بالقيود فاضطر براهما أن يتدخل لديه لإطلاق سراح إندرا. كما أن لك الفضل بأن قضيت على رافانا الرهيب وقادة الراكشا العتاة الجبابرة، فأنقذت بذلك المخلدين في الأفلاك. إن دهشتنا قوية إذ علمنا بهذه الإنجازات الجبارة. فنرجو أن تخبرنا كيف حاربت في لانكا."

قال راما: "أيها الصالحون، لقد خضنا أنا ولكشمانا حرباً طويلة وطاحنة. وقتلنا عدداً لا

حصر له من الراكشا ذوي البأس. وتمكنت من قتل كومبكارنا ورافانا، أما لكشمانا فقد قتل أتيكاي وإندراجيت."

وقد أقيمت المآدب ودعا راما جميع الناس لتناول الطعام مع ضيوفه من الملوك والقواد والجند. واهتم الأخوة براحة الجميع وتوفير مختلف أنواع الطعام والشراب والحلوى للجميع دون تمييز، فأخذ الناس يلهجون بالثناء والدعاء بالنصر والمجد لراما.

جلس راما على العرش وأجلس ملك لانكا الجديد فيبيشانا بجانبه وقال له متلطفاً: "أنت منذ اليوم فصاعداً أخ لي. وقد كنا قبل هذه اللحظة أربعة أخوة، ونحن اليوم خمسة. ولسوف نقوم بتدبير شؤون المملكة معاً حتى تعود إلى لانكا!" ثم قصد خزائنه ووزع الهدايا الثمينة على القردة والراكشا. فشكروا له عطاءه هذا.

كان الحنين إلى المرابع قد غلب على سوغريفا وفيبيشانا. فاشتد بهما الشوق للعودة إلى بلادهما فسألا راما الإذن لهما بالمغادرة، فأذن لهما بذلك وإن أحزنه الفراق. وقد ذهب معهما جميع القردة والراكشا، وبينما كانوا يغادرون آيوديا راحوا يهتفون: "كيف لنا أن ننسى فضائل راما؟ فهل يأذن الدهر بأن نعود ونملي العين بطلعته البهية؟"

ودع راما ذو القدرة، القردة والراكشا، والتفت ليفرغ لأخوته والعيش الهانئ وإياهم، وهذا غايته ومراده. وذات يوم، وسيد آل راغو العظيم على هذه الحال من السعادة والطمأنينة، تناهى إلى سمعه صوت عذب يخاطبه من السماء؛ وكان محدثه العربة بوشباكا من فردوس كوفيرا، تخبره بأن الكريم كوفيرا أمرها بالعودة إلى راما. لأنه فاز بها حين صرع ملك الراكشا رافانا واستأصل شأفته، فحق له أن تكون البوشباكا تحت أمره لتحمله في جولة حول العالم. ورد راما بالامتنان لهدية كوفيرا العظيمة. وقدم للبجعات اللواتي تحملنها أفضل المآكل والزهور ثم أطلقها، على أن تعود إليه متى أراد ذلك.

كان بهاراتا قد شهد ما دار بين راما والعربة، فضم راحتيه إجلالاً وإكباراً لأخيه، بهجة آل راغو، وأخذ ينوه بالسلام الذي عم المملكة منذ أن تولى راما مقاليد الأمور، وما يتمتع به

الجميع من سعادة وهناء، والوئام الذي ساد في جميع أنحاء المملكة. وولادة الأمهات بيسر وخلو المملكة من الأمراض، وكل ذلك بفضله. وإذن فلا عجب إن كان الجميع يدعون بدوام العيش في ظله. فافتر ثغر راما عن ابتسامة رضى لما سمع من بهاراتا، والتفت بعدها إلى تصريف شؤون البلاد والعباد.

السفر السابع
الخاتمة

ودع راما الملوك الذين اجتمعوا للاحتفال بتتويجه، وقد تجاوز عددهم الثلاثمئة، ورافقهم إلى أوطانهم كل من بهاراتا ولكشمانا وشاتروغنا. وكان الحديث يدور بينهم، في تلك الأثناء، عن الحرب التي لم يشهدوها، والفرص التي ضاعت عليهم ليخدموا فيها راما. وقد عاد الأمراء إلى آيوديا محملين بالهدايا. ومضى شهر آخر، كان فيه فيبيشانا والقردة ينعمون بكرم الضيافة، قبل أن يودعهم راما، ويقدم نصائحه لفيبيشانا قائلاً: "فلتحكم بالعدل، ولتجعله دائماً نصب عينيك. فإن حدت عن الحق حلت بك الكوارث. وليكن الود والمحبة، أبداً شاغلك."

وعبر هانومن عن ولائه بكلمات مؤثرة: "لسوف أظل حياً ما دامت حكايتك تروى، إن مآثرك ترياق يبدد عني الخوف والقلق، فلتكن الروح التي تبعث الحياة في كياني." فعانقه راما عناقاً رقيقاً، حانياً، وقال له مطمئناً: "وذلك ما سوف يكون. إن قصتي ستظل تتردد على ألسنة البشر، وكذلك اسمك. ولسوف تبقى في قلبي الذكرى الجميلة، لما فعلته من أجلي." ثم نزع عقداً ثميناً من عنقه وقلد به عنق هانومن. وكان وداعاً مؤثراً ذرف فيه القوم دموعاً سخية. فقد كانوا جميعاً رفاقاً في حرب ضروس دارت في ظروف استثنائية، جمعت بينهم ووثقت روابطهم بعرى الحب الدائم والولاء والإخلاص والوفاء.

عاودت الحياة مسارها المألوف في البلاط والمدينة. وسعد راما بملكه وإخوته وأمهاته وزوجه الجميلة. وكان عهده حافلاً بالحوادث السعيدة، ولم يعرف الناس فيه البؤس والشقاء. فلم يصب أحد في مملكته بمرض، ولا مات رضيع أو شاب، ولم تترمل أي امرأة، وخلت المملكة في ذلك العهد من الجريمة، ولم يعرف عن حامل أنها أجهضت. وكانت الريح تهب لطيفة حانية، كالنسيم العليل، والأمطار تهطل غزيرة فتروي الأرض، فصارت

الأشجار تزهر وتثمر، كما لا عهد للناس بها من قبل. وكان الناس يومئذ يعيشون في رضى، منصرفين إلى أعمالهم يتدبرون شؤونهم ومصائرهم، وانتهت بينهم الغيرة والحسد والعداوة.

رانت السعادة على راما وانصرف لأداء واجباته، كما ينبغي على الملك، فيما كانت سيتا تعتني بأمورها وتدبير شؤون القصر ورعاية الأسرة. وكان راما شديد الاهتمام بوظائف الدولة، يسعى، أبداً، إلى المشورة الحسنة من مصادرها. أما سيتا فكانت إذا ما فرغت من تدبير شؤون المنزل والأسرة، انقطعت للصلاة والعبادة، وإذا انتهت من ذلك كله، تزينت لزوجها وأمضت معه بضع ساعات من السعادة الزوجية.

كانت حدائق القصر هي المكان الأثير إلى قلبيهما. ففيها البحيرات التي تطفو على سطحها أزهار اللوتس والبنفسج فتدخل البهجة إلى قلبيهما، وطنين النحل يجعلهما في حالة من السكينة والهدوء. والأشجار المزهرة والعرائش الخضراء تظللهما وتحيطهما بعالم من الحب والنشوة. ويقدم لهما نبيذ العسل ويأكلان أطيب الطعام في هناء، بين أنغام الموسيقيين ورقصات الراقصين والراقصات.

وفي أحد الأيام راح راما يتمعن في سيتا معجباً مفتوناً، وقد ازدادت جمالاً بعد أن حملت. وقد أرادها أن تكون كأساً يطفح بالسعادة، وقال لها يومئذ: "أي سيتا، إنك تحملين ولدنا، فهل لك رغبة في مكان نقصده لتروحي عن نفسك؟" فابتسمت وقالت: "وددت لو زرت النساك على الضفة الأخرى من الغانج، فأقضي يوماً في صوامعهم وأنال بركتهم." فسحر راما لبساطة نفس زوجه وتواضعها وعمق إيمانها، وقال لها: "إن هذا، أيتها الحبيبة، أمر يسير. فتهيئي للرحلة من الغد." قال هذا وغادرها لينضم إلى جماعة من رفاقه والحاشية والمهرجين. وكانت تلك الجماعة تنزع إلى المرح والترويح عن النفس، يتبادل فيها الجميع المزاح، والكل حريص على تسلية الملك ورواية الحكايات المضحكة له. وكان راما على مالوف عادته يقظاً وواعياً لواجباته، فلم يدع المناسبة تفوت دون أن يفيد منها، فسأل أحد المهرجين بلهجة الجد: "أخبرني يا بهادرا، ما الذي يدور بين الناس في المدينة والريف

عني وعن أخوتي وعن سيتا؟ وعن حكمي؟ فالملوك دوماً هدف للنقد. ومن المفيد أن أعلم آراء الناس والرعية في هذه الشؤون، فلا يفوتني شيء من أفكارهم ونوازعهم."

فأجابه بهادرا: "الناس جميعهم ينعمون بالخير، يا مولاي، ويحمدون لك غزوك للانكا ويثنون على هزيمتك لرافانا. وفي كل مرة يذكر فيها عبورك المحيط يزدادون دهشة، ويتحدثون كذلك عن حياتك وسيتا..."

كان راما سريع الانتباه لأدنى تردد. فسأل محدثه: "علام ترددت؟ هيا، أخبرني بكل ما يقال، حسناً كان أم سيئاً، ولا ضير عليك. فهكذا يعلم الملوك بضرورات الأزمان ومقتضياتها." فقال بهادرا: "قد سألتني، يا مولاي، وأنا مجيبك. إنهم يتساءلون أية متعة تقدمها لك سيتا، وقد جلست في حضن رافانا عندما اختطفها وحملها بعيداً بالقوة. كذلك يتساءلون كيف احتملت فكرة بقائها في قصر رافانا وهو من الراكشا!"

قال راما وقد شحذ انتباهه: "هيا تابع، ولا تخش بأساً!" فقال بهادرا وقد دهش لتهوره: "يا مولاي، إنهم يقولون هذا ويزيدون. وهم يخشون من أنك قد وضعت سابقة خطيرة. ومن شأن ذلك أن تضل النساء، ويتهاون الرجال في معالجتهم للأمور، فما يفعله الملك اليوم، يغدو عند الرعية مثلاً في الغد. ذلك هو حديثهم."

فسأل راما المجتمعين: "أحقاً ما قال؟" فأطرقوا رؤوسهم، وأجابوه بصوت واحد باحترام وإجلال: "أي نعم، يا مولانا. إن الرجل صادق في ما نقل!"

جلس راما مستغرقاً في التفكير، محاولاً مغالبة الجرح الذي أصابه، لكن وجهه كان يفضح ما يشعر به من الألم. لقد كان واثقاً من براءة سيتا من الإثم، وهي التي كانت قد اجتازت محنة النار في لانكا. لكن أهل آيوديا كانوا يشككون في توافق وضعها الماضي مع أعراف المجتمع. ولقد أساءوا الحكم عليها، لكن صوت الشعب يجب أن يسمع. وكانوا على حق في ما ذهبوا إليه. إن الملك يستهل العرف، وبه تحتذي الرعية، فالملك هو، إذن، القدوة لقومه. كانت تلك ضرورة أساسية، وما عدا ذلك أمر ثانوي.

تجلد راما وكبت عواطفه المضطربة، وبعث يطلب الحراس وأصدر أوامره: "أسرعوا واطلبوا من لكشمانا الحضور، وليأت معه بهاراتا وشاتروغنا. فهناك أمور عاجلة تتعلق بالدولة، ولا يمكن تأجيلها." فجاء الأخوة في الحال، وشاهدوا الاضطراب الذي يعتريه عندما نظر إليهم، فلقد كانت عيناه تدمعان من الأسى. وضمهم إلى صدره وكأنه يستمد الطمأنينة من دفئهم وقال لهم: "إنكم ثروتي، وحياتي، وعماد قوتي. وإني لأحكم من أجلكم." ودأب على حديثه هذا، وهم صامتون ينتظرون أن يعرض عليهم سبب دعوته لهم، ويتساءلون في خلدهم عما يحمله على هذا الحديث، حتى قال:" أي أخوتي، عليكم باليقظة، واصغوا لما تقوله الرعية في سيتا!"

كان يتحدث حديثاً متصلاً والعبارات تجري على لسانه بلا انقطاع، والحقيقة المرة تصرخ في وجوههم، بينما استمر يبسط لهم أمره: "كنت قد تأكدت في الماضي من طهارتها اضطراراً، وإن كنت واثقاً من براءتها من الإثم. ومع أنها ابنة جناكا، فقد أخضعتها لامتحان النار، وقد اجتازته! وها هي المشكلة تطل بقرنها من جديد. إن سمعة سيتا الطاهرة، وسمعتي كحاكم صالح هما موضع شك، ولست أجد حلاً لهذا الأمر، إلا بالفراق بيننا!" كان راما يتحدث حديث الملك العادل، ولا يصدر عن صلف وجبروت. وكان الأمراء يصغون إلى هذا الكلام صامتين، عاجزين أمام قسوة المأساة.

التفت راما إلى أخيه لكشمانا، معينه في المصائب والشدائد طوال السنوات التي قضياها في المنفى، وقال له: "لتذهب بها بعيداً، إلى مكان قصي وراء حدود المملكة." وكان لكشمانا يتمنى، لو استطاع، أن يلغي أمر الملك والتفاصيل القاسية التي تلته. "اتركها قريباً من صومعة الناسك فالميكي بجانب الغانج. وهذا أمر انتهى وحسم ولا عودة عنه، ولسوف يسوؤني أن أسمع معارضة له فنفذه."

فغر الأخوة أفواههم دهشة ورهبة، وعجبوا للأساليب الغريبة والقاسية التي لجأ إليها الحاكم العادل في إنفاذ حكمه. وفيما هم فيه من الاستغراب والعجب، التفت راما إلى لكشمانا من جديد، وقال له بصوت تخنقه العبرات: "قالت لي البارحة إنها تتوق إلى زيارة

تلك الأماكن المقدسة، فاذهب بها إليها!"

في اليوم التالي طلب لكشمانا من سومانترا أن يشد أسرع الجياد إلى العربة الملكية. ويجهزها بمقعد فخم وثير، فالملكة ترغب في الذهاب إلى الغابة اليوم." ثم ذهب إلى سيتا وقال لها: "أترغبين في زيارة النساك بالقرب من الغانج؟ سأرافقك إلى المكان بنفسي. فالعربة بانتظارك."

استعدت سيتا للرحلة، وحملت معها الكثير من الملابس الثمينة والحلي، وأسرت إليه في الطريق بأنها سوف توزعها على نساء النساك. وبدت يومئذ مشرقة مبتهجة للزيارة المنتظرة للصومعة، تراودها أجمل الأفكار والخواطر عما ينتظرها في نهاية الرحلة، إلا أن نذر الشؤم بدأت تلوح في الأفق، فأقلقتها وحملتها على التساؤل إن كانت الأحوال على ما يرام في البلاط. فطمأنها لكشمانا بأن كل شيء على ما يرام، وجلس في مقعده وقلبه مثقل بالهم، وهو يفكر كيف سيكون الفراق.

وفي الليل توقفوا عند نهر غوماتي، ثم تابعوا رحلتهم في اليوم التالي. وعندما وصلوا إلى ضفة الغانج توقفت العربة وترجل الراكبان منها، وبدت مقلتا لكشمانا مغرورقتان بالدموع وعجبت سيتا مما رأت، وأثار حيرتها، ولم تتمالك نفسها، فسألته: "أتبكي لأنك لا تقدر على فراق راما ليومين؟ إن هذا تصرف جدير بطفل، لا برجل. وأنا مثلك متشوقة للعودة، يا لكشمانا. إن بقاءنا لن يطول، ولسوف نعود بعد أن نلتقي بالزهاد. فهيا، تمالك نفسك فلن يطول مقامنا هنا!"

استقلا قارباً ليعبرا به إلى الضفة الأخرى من النهر. وفي غضون ذلك كان سومانترا قد ترجل من العربة وفك الجياد للمبيت، وهو ينتظرهما ليعود بهما بعد انتهاء الزيارة. ولما وصلا الضفة المقابلة، كان لكشمانا قد فقد القدرة على تمالك نفسه، وما عاد بوسعه أن يخفي الغم الذي أصابه منذ أن علم بالنبأ. فحياها ثم تهاوى بجسمه الضخم باكياً وقال: "إن الموت وحده يمكن أن ينقذني من الافتراء المميت. ولا ريب بأن العالم سيدينني لقيامي

بهـذه المهـمـة، ولكن الآلهـة تعلم، أني بريء من هذا الفـعـل الزنيـم." شـعـرت سـيـتـا بالخطر وراحت تفكر: "إنه يتحدث عن قدر أسوأ من الموت، وعن البراءة والذنب! فماذا يعني؟" ثم قالت له بصوت عال: "لست أفهم ما تقول يا لكشمانا. إنك تتحدث بلغة الألغاز وتبدو قلقاً مضطرباً. فعلام هذا القلق والكرب؟" فأجابها: "ماذا أقول؟ فقد اختار الناس أن يحطموا قلب راما مرة أخرى. فهم يشككون في طهارتك، ويلومونه لأنه أعادك إليه. وهو مرغم الآن على إبعادك عنه. وقد أمرني أن أتركك في هذا المكان بعيداً عن آيوديا، بعيداً عنه." استمعت سيتا إليه صامتة مندهشة، فيما وقف لكشمانا مطرقاً رأسه،غير قادر على الحركة. ثم تابع حديثه: "لقد كان الناسك فالميكي صديقاً لأبينا دشاراتا. ولسوف تكونين عنده بخير وأمان. وليكن فكرك متجهاً إلى راما دوماً، ولتكوني مؤمنة به واثقة منه، ولسوف تنالين النعمة والبركة."

أصيبت سيتا بالدوار، ولم تستطع أن تتمالك نفسها، وتستجمع قواها، إلا بعد حين، لترد على لكشمانا باكية: "لا بد أن جسمي كتلة من المصائب. ولا ريب بأنه إنما وجد ليحزن. فهل قدر لي أن أعيش وحيدة وقد هجرني وتخلى عني وأدانني دون مبرر شخص رحيم مثل راما؟" ثم طغى اليأس على لهجتها حينما قالت: "ولا أستطيع، بعد، أن أنهي حياتي بيدي، لأن في ذلك القضاء على سلالة الملك، وأنا أحمل بذرة آل ايكشفاكو!"

كانت رسالتها لراما تمزق القلب: "أخبر راما بأنني أحبه، وأني طاهرة وبريئة من الإثم، وشرفي لم يثلم. وهو يعلم ذلك، إلا أنه اختار أن يضحي بي إرضاء لرعيته. ولقد كان بوسعي أن أتجنب هذا المصير. إلا أنني سوف أحتمل هذا القدر، لأني زوجة مطيعة. فالزوج رب الأسرة وهو المعلم والمشرع. وليس للزوجة إلا أن تنصاع له." وكان في حديثها ما ينم عن الكبرياء والعنفوان، ورسالة بلغت مقصدها، حين قالت لمحدثها: "كرر عباراتي لراما، وكن شاهداً على أنني جئت إلى هنا وأنا حامل ولن يتأخر موعد الولادة." وكان وخز العبارة واضحاً أيضاً، وكأنها قصدت أن تقول أن تلك على الأقل حقيقة واضحة ماثلة للعيان لا تحتمل الشك كالأقاويل وحديث الترهات. ولم يكن بوسع لكشمانا سوى أن يقول:

"كيف توجهين لي هذا الكلام؟ وأنت تعلمين أن نظري لم يرتفع فوق قدميك!" ثم غادرها وهو لا ينقطع عن الالتفاف إلى الوراء حيث ترك سيتا تجهش بالبكاء بصوت عالٍ، ولا تملك أن تنقطع عنه.

لم يمض إلا بعض الوقت، حتى صادفها بعض الفتيان من أتباع فالميكي. فهرعوا إلى الحكيم الزاهد، ليخبروه عن امرأة في الجوار يلوح عليها أنها تنتمي إلى أهل اليسار، أو لعلها زوج أحد كبار قومها، لكنها تبكي مر البكاء. كان فالميكي يحيط بكل أمر وحدث، وقد تأتت له هذه القدرة على الكشف بعد عهد قضاه في التامل ورياضة النفس. فذهب إليها في الحال، وقال لها: "لا تبكي يا سيدتي. فإنني أعلم من تكونين، وسبب حلولك هنا. وأعلم كذلك ألا جناح عليك. وليكن هذا اليقين عوناً لك وسلواناً في هذه الشدة."

كان لحديث الحكيم أحسن الوقع في نفس سيتا، فهدأ روعها، وانقطعت عن البكاء، وأخذ فالميكي يخفف بحديثه المعسول من مصابها، وطمأنها إلى أنها ستجد مقاماً مريحاً، في تلك البقعة بين المتنسكات في الجوار. ثم مضى بها إلى هؤلاء النسوة، وهو يتقدمها قليلاً في المسير. ولما بلغا المكان قابلته الزاهدات بأطيب تحية، وسألنه إن كان يبغي أمراً فيؤدين الواجب، وعهدن به أنه منقطع للنظر في أسفار الحكمة، والعبادة ورياضة النفس، وقلما يطرق هذا الدرب. فقام فالميكي بتقديم سيتا إليهن، ثم عهد بها إليهن ليقمن على رعايتها قائلاً: "إنها زوج ابن الملك دشاراتا. وقد هجرها، على الرغم من براءتها. وإنها بحاجة إلى كل الرعاية والعطف الذي بإمكاننا أن نقدمه لها، وهي جديرة به. وإني لأشهد على ذلك. فعليكن معاملتها بكل تقدير وإجلال." ولقد أحسن فالميكي صنعاً. إذ وضع سيتا بين أياد أمينة.

في طريق العودة، أخذ سومانترا يواسي لكشمانا: "لقد قدر على راما أن يعاني ويحزن، وقد تنبأ له البعض بالانفصال عمن يحب. وحق على المرء، أي لكشمانا، أن يرضخ للقدر. ويجب أن تتقبل قدرك، وأن تصبر عليه."

وشرع سومانترا يروي للكشمانا نبوءة الزاهد؛ فقال: "كان ذلك في قديم الزمان، حين جاء حكيم من عظماء الحكماء يدعى دورفاس وحل ضيفاً على فاسيشطا، وأمضى في صومعته موسم الأمطار. فجاء مولاك العظيم دشاراتا يبغي رؤية كاهن أسرته، فإذا به أمام الزاهد دورفاس بكل بهائه وألقه، جالساً بجانب فاسيشطا. فاستقبلاه أحسن استقبال. فسأل دشاراتا هذا الزاهد أن ينبئه كم ستدوم سلالته؟ وكم سيعمر راما، وأخوته، وأولادهم؟ وما مصير قومه؟ فقال له الحكيم إن ولده راما سيعاني وزر صراع دار في قديم الزمان، ولعنة أحد الزهاد. وتفصيل ذلك أن المردة لجؤوا إبان النزاع الذي احتدم بينهم وبين الديفا أشباه الآلهة إلى زوج بريغو بن مانو، فأجارتهم وعاشوا في حماها. فساء ذلك كبير الآلهة وأثار غضبه فرماها بقرصه فاحتز عنقها. فثار بريغو لمقتل زوجه وأنزل لعنته بفيشنو بأن يمضي سنوات عديدة بعيداً عن زوجه. لكن بريغو ندم بعد ذلك وأخذ يسلك مسالك الندامة ويتوسل إليه أن ينسى هذه اللعنة. فقال له هذا الإله: "لخير العوالم كلها، سأتقبل لعنتك." وهكذا أصابت اللعنة فيشنو في قديم الزمان، يا ملك الملوك، فنزل إلى الأرض، ليكون ولدك راما، الذي يحمل وزر اللعنة التي صدرت عن بريغو. وليقوم بالقضاء على رافانا، ويخلص العوالم من شروره. ولسوف يحكم آيوديا ردحاً طويلاً من الزمن، ويعيش اتباعه في رغد وسعادة، طوال أحد عشر ألف سنة، ثم يرتقي إلى مملكة براهما. ولسوف تحكم ذريته ممالك كثيرة من ولدين تنجبهما سيتا. ثم صمت الحكيم، فحياهما دشاراتا مودعاً وقفل عائداً إلى مقر حكمه آيوديا."

ولقد كان لحصافة سومانترا ونضج رأيه أبعد الأثر في نفس لكشمانا، إذ يسر عليه الرضوخ أمام أساليب القدر القاسي والمحتوم.

وصل لكشمانا إلى آيوديا بعد أن أمضى ليلة على ضفاف نهر كيشيني. وكان قلقاً، حائراً، مضطرباً تتقاذفه الخواطر والهواجس، وهو يفكر: "من السهل علي أن أنحني أمام راما وألمس قدمه، ولكن ما الذي ساقول له حين ألقاه؟" ثم دخل القصر، ووجد أخاه متألقاً على العرش. فاقترب منه بكل وقار، وقد لاحظ لكشمانا أن راما كان غائب الذهن عما حوله،

وعيناه تدمعان، فحياه وقال له بنبرة حزينة: "لقد امتثلت لأوامرك وتركت ابنة جناكا على ضفة الغانج بالقرب من صومعة فالميكي. وعدت الآن لألمس قدميك، واضع نفسي رهن أمرك. إن الحزن لن يجدي نفعاً، أيها الأسد بين الرجال. فالزمن له وسائله مثل كالا السوداء. وإنك تتمتع بالذكاء وتعلم جيداً أحوال العالم، فلم تشعر بالندم؟ وكل شيء ينمو يتلاشى، وكل ما يرتفع يسقط، ونحن نلتقي لنفترق، ونولد لنموت. وأن ينفصل المرء عن ابنه أو زوجه أو أحد أقربائه، أو أن يخسر ثروته، امور لا يمكن الفرار منها، فتجلد واثبت. فلديك القدرة لتسيطر على نفسك، والقوة لتسيطر على عقلك. فأنت سيد العوالم، أفيصعب عليك أن تسيطر على أحزانك؟ فإن أصبحت فريسة للأحزان، تطايرت الشائعات من جديد. وما تراك تعتقد أن قومك سيظنون بك، إن وجدوك على هذه الحال؟ فابعد عنك الضعف، يا أخي، وليكن إيمانك قوياً."

أصغى راما إلى أخيه لكشمانا ذي العقل الراجح وأجابه: "إنك لعلى حق، أي أخي لكشمانا! وإني لسعيد إذ نفذت أمري. إن حديثك كان البلسم الشافي لجراحي. ولسوف أطرح عني الأحزان، وأسعى لراحة القلب وطمأنينة العقل."

وهكذا سكن فؤاد راما، وعاد ينهمك في شؤون الحكم، ويولي كل اهتمامه لرفاه قومه وسؤدد مملكته، باذلاً في ذلك عقله وقلبه وروحه. وبات القوم يعهدون راما يصرف شؤون الدولة والناس وهو جالس على العرش وحاشيته من حوله، ولكشمانا واقف بالباب، حاملاً بيده العصا الذهبية، يرحب بمن أراد الدخول، فلا يحال دون احد والملك. وكان الزهاد يأتون إليه من معتكفاتهم في الغابات، ويفد إليه القرويون من أقصى البقاع، يسالونه القضاء في أمورهم، وهم راضون سعداء بحكمه، وألسنتهم تلهج بالثناء عليه، ولا ينفكون يرددون: "ليس بين الملوك من يضارع راما في العناية بقومه والحرص على رفاههم وسعادتهم."

وفي ظهيرة أحد الأيام وجد الناس في دروب المدينة كلباً أبيض اللون، أحمر العينين، منهكاً يتضور جوعاً، أعرج يسير على ثلاثة أرجل، وفي رأسه جرح عميق ينزف بغزارة.

وحينما وصل إلى قصر الملك حيا الكلب لكشمانا، وعيناه تذرفان الدموع. فقال له لكشمانا: "أيها الكلب، لم أتيت إلى هنا؟" فأجابه الكلب: "أي مولاي لكشمانا، إذا سمح لي شري راما بالدخول ولم يسخر مني، فإني أرغب في أن أعرض عليه أمري وأشكو له مصابي." فمضى لكشمانا إلى راما وحياه وقال له: "بالباب كلب ينتظر الإذن ليمثل بين يديك، فإن شئت أدخلته!"

طلب راما أن يمثل الكلب أمامه في الحال. وهكذا قدم الكلب وانحنى أمام راما تبجيلاً، وقال بعض الكلمات في مديح الملك النبيل: "لقد غدا جسدي الهزيل هذا مباركاً عندما نظرت إليك، يا مولاي." وسأله راما عن سبب هذا الإطناب في المديح، وسبب حضوره. فانفجر الكلب، عندئذ، باكياً. وقال: "إذن فليستمع مولاي لقصتي. لقد أقدم أحد النساك على ضربي ضرباً مبرحاً، ظلماً دون ذنب، ولشدة ما نالني من ألم واستياء صمت ثلاثة أيام ثم حضرت إليك لتنصفني. فأرسل في طلب الناسك وسله سبب ضربه لي!" فقال راما: "قد بلغتني شكواك، فارسلوا في طلب الناسك لننظر في أمره جميعاً!"

ونزولاً عند أوامر راما، ذهب رسول برفقة الكلب إلى الناسك، فحيا الرجل الصالح وأتى به إلى البلاط، ليمثل بين يدي راما. فبادره راما بالسؤال: "أي ذنب اقترفه الكلب لتعسف به على نحو ما نرى؟ وكيف لك وأنت الناسك المتعبد أن تأتي بمثل هذا الظلم وهذه القسوة؟ أي نوع من الرجال الصالحين أنت، حتى يمتلئ قلبك هكذا بالحقد والكراهية؟"

فكان جوابه: "إذن، فليصغ الملك لقصتي! بينما كنت عائداً من ضفة النهر بعد التأمل والصوم... وفي طريقي لطلب الصدقات، وكان الجوع قد نال مني، إذا بي أصادف هذا الكلب متمدداً في عرض الطريق، نائماً وإحدى عينيه مفتوحة. وقد رفض أن يفسح لي الطريق، فغضبت لمعاندته وضربت رأسه بالمقرعة. وهذه هي القصة كما أرويها لك، فانظر في العقاب الذي تراه مناسباً." فالتفت راما، عندئذ، إلى أعضاء مجلسه، وقال: "قد سمعتم الرواية من الطرفين، فأخبروني أيهما يقع عليه الذنب ويستحق العقاب؟" فأجابوه: "إننا نرى أن الطريق ملك الملك، والغرض منه أن يستخدمه الناس، مهما تكن مرتبة من

يطرقه. وإذا كان أحد المارة في عجلة من أمره، فعليه بالجانب الآخر من الطريق، يسير فيه كما يشاء.. وإذن، فالناسك هو المذنب في هذا التجاوز، بشهادته." فقال راما: "قد سمعت أيها الكلب الحكم، فأي عقاب تراه ينصفك من الناسك؟" فأجاب الكلب: "أعط الناسك مملكة كالينغا!" فوافق القضاة وهم يضحكون لذلك العقاب! وهكذا ألبس الناسك ملابس الملوك، وقدم له فيل ليحمله. وقد ضحك الناس لرؤية الناسك برأسه الحليق تظلله المظلة الملكية، وهو يمضي في طريقه إلى كالينغا مختالاً سعيداً! وبعدئذ قال أفراد الحاشية لراما: "لقد جلب الناسك ليعاقب، فإذا به يكافأ بعرش كالينغا!" فأجابهم راما: "قد كان ذلك بطلب من الكلب، وهو أدرى بالسبب فسلوه!" فلما سألوا الكلب أجاب: "كنت في حياتي السابقة ملك كالينغا. وكنت في كل يوم أنصرف لعبادة تمثال شيفا الأزرق، والذي يختص به الملوك وحدهم. ثم أنزل هذا المعبود القاسي لعنته بأن يتحول كل ملك من ملوك كالينغا إلى كلب عند مماته! إن الناس يعتقدون أن الناسك بات من المنعمين، لولا أن ما حصل عليه ليس بنعمة. فإنه الآن يواجه الخطر، فكل من يصبح ملكاً على كالينغا لا بد وأن يتحول إلى كلب، وهذه لعنة لا مهرب منها، ولا بد من أن تتحقق يوم يموت الملك."

أنهى الكلب حديثه وحيا راما مودعاً وغادر البلاط، ورحل إلى بنارس المقدسة وأخذ في الصيام حتى أدركه الموت. ولما كان قد تطهر برؤيته لراما، فقد صعدت روحه إلى السماء مباشرة.

كان راما يسوس مملكته بالحكمة، والناس يعيشون في ظله في أمن ورفاه، أحراراً سعداء. وبينما كان في أحد الأيام ينظر في أحوال دولته، دخلت عليه جماعة من الزهاد، أتوا إليه حاملين همومهم ومتاعبهم، وقالوا: "إننا مقيمون على الضفة الأخرى من نهر اليامونا، حيث يرتع عفريت يدعى لافانا، يفسد علينا حياتنا، ولا قبل لنا بمقاومته، ويتسلح بسلاح فتاك هو رمح مثلث الشعب، كان الإله شيفا قد قدمه لوالده، وما انقطعت الفوضى تضرب أطنابها منذ أن حل هذا العفريت بيننا، وهو لا ينثني يتحرش بنا، حتى أنه قتل الكثيرين منا."

عرض بهاراتا أن يذهب لقتاله، لكن شاتروغنا طالب بنيل هذا الشرف: "قد سبق لبهاراتا أن قام بخدمتك. وهذا شرف لم يتح لي حتى اليوم. فدعني أذهب لقتاله، فهذه هي فرصتي."

فقال راما: "حسن، وفي هذه الحالة يجب أن تستعد لتحكم المنطقة حالما تتخلص من العفريت. ولذا ينبغي أن يقام لك حفل تتويج هنا، قبل ذهابك." فاعترض شاتروغنا، وقال إنه سعيد في موقعه في خدمة راما، وألا مطمع لديه سوى ذلك. لكن راما أصر على موقفه. فقد شعر أن الوقت قد حان ليشق أخوته طريقهم، وأن يكون لكل منهم مجال من العمل يختص به. وقال له: "رافقتك السلامة، وبادر لافانا في أثناء ذهابه للصيد. فقد ألف أن يدع رمحه حين يخرج للصيد. ولن تتمكن من قتله إلا حين يكون بدونه."

انطلق شاتروغنا على رأس جيش جرار، وقد حمله راما نصائحه: "احرص على إرضاء جندك. وأجزل لهم العطاء، واعمل على راحتهم، واكسبهم إلى جانبك بالحديث الطيب، واصطحب معك فرقة من الراقصين والموسيقيين لتسليتهم." وكانت تلك أول عملية يقوم بها شاتروغنا بمفرده، فاستمع لأخيه بكثير من الانتباه وهو يقول له: "احرص حين تبلغ غابة مادوفانا حيث يعيش لافانا، على أن تدخلها وحيداً مسلحاً واطلبه للنزال. إن هذه الحملة ستستغرق أشهر الصيف كلها وبعضاً من فصل الأمطار. فاذهب الآن ولا تتأخر ولا تتلكأ فلتمض في رعاية الآلهة."

استمر ذلك الجيش العرمرم في المسير، شهراً من الزمن، ولم يتوقف إلا عند صومعة فالميكي. وهناك أقام شاتروغنا وجيشه معسكرهم على مبعدة من ذلك المكان. ولقد آثر أن يطرق باب ذلك الحكيم الزاهد وحيداً، بلا مرافق، وسأله أن يقضي الليلة عنده.

في تلك الليلة، ولدت سيتا توأمين. وسرعان ما علم فالميكي بالنبأ، فذهب إليها في الحال ليباركها وليهنئها بالولادة، حاملاً بيده حزمة من أعشاب الكوشا ليطرد الشر والعفاريت الذين يحومون حول الأطفال عند الولادة. وأمر النسوة أن يمررن أوراق الكوشا

فوق الابن الأكبر، وسماه كوشا. وبورك الطفل الثاني بساق الكوشا فسمي لافا نسبة إليها.

ولما سمع شاتروغنا بالأنباء السارة تأثر تأثراً كبيراً. واقترب من الكوخ وهمس يبارك الطفلين، متمنياً السعادة لسيتا. وكان يسمع تراتيل راما، وقبوله بالاسمين. لقد كان أخاً وعماً فخوراً. وقف فترة طويلة في العراء في تلك الليلة تحت سيل المطر، يبدد الهدوء بالتفكير في راما، الذي يبعد عنه مسافات طويلة، محروماً من أبسط متع الحياة، وهي أبوته لأطفاله.

وفي الصباح غادر شاتروغنا المكان، وبعد سبعة أيام وصل ضفاف اليامونا. وأبلغه الناسك شيفاتا نبأ هزيمة ماندهاتا، من سلالة آل ايكشفاكو، على يد العفريت لافانا، ووصف له الطريق التي سلكها الملك وجيوشه: "لقد كانت مذبحة مروعة، كان فيها رمح لافانا بشعبه الثلاث يحصد الأرواح حصداً. فإذا شئت قتاله فانتظر حتى الغد، فاستول على الرمح، حين يخرج العفريت للبحث عن الطعام. ولتطمئن نفسك، فالنصر حليفك لا محالة."

وعند الفجر عبر شاتروغنا نهر اليامونا، ووقف مستعداً للقتال، مسلحاً بقوسه أمام بوابة مدينة مادورا، لاعتراض لافانا عند عودته، وقد أكل وشبع، وتخدرت حواسه.

وفي الظهيرة، كان ذلك العفريت الآثم قد عاد من صيده، وفي ركابه ما لا يحصى من فرائسه من المخلوقات؛ وما أن وقع نظره على شاتروغنا عند بوابة المدينة، حتى بادره بالسؤال: "من أين أتيت بهذا السلاح، يا هذا؟ وأي جدوى لك منه؟ أما علمت أنني متى ثار غضبي، يا أتفه مَنْ حمل السلاح، التهمت الآلاف من أمثالك ومعهم أسلحتهم! إن الموت لا ريب هو الذي أتى بك ودفعك إلى طريقي. وقد جئت في الوقت المناسب، يا عرة الرجال، لترمي بنفسك بين شدقي من شدة حماقتك!"

كان العفريت يقول هذا، ضاحكاً مقهقهاً، وشاتروغنا الأبي الشجاع في ضيق وثورة، وأطرافه تتلهف للقتال. ولكنه سرعان ما كبح جماح غضبه، وقال للعفريت: "أنا شاتروغنا ابن دشاراتا وأخو راما الحكيم. وإن شئت الحق فإن لي من اسمي نصيب، فليس عبثاً أن

سميت هكذا، مبدد الأعداء! ولسوف تكون لي معك جولة واحدة لا ثاني لها، اتم فيها مهمتي بقتلك. على أرضك، فاحذر يا عدو الخليقة، فلن أدعك حياً بعد هذا!"

ولقد ضاق العفريت بما سمع من شاتروغنا، ورد على الأمير، بقوله: "قد ساقك حسن الطالع إليَّ، أيها السقيم. فقد قتل راما خالي، رافانا، بسبب امرأة، وبت بلا أهل منذ ذلك اليوم. وما كان لك أن تبدي هذا التيه والغرور، إلا لتقاعسي عن الانتقام. فاعلم أني قاتلك اليوم، يا أحقر الرجال؛ ولسوف أزيحك ومعك من وُلد ومن ستلده أمه، كما يزاح القش من الدرب. ولقد قبلت منك التحدي! حسبك أن تنتظرني لحظة لآتي بسلاحي!"

ورد عليه شاتروغنا في التو: "أتتذرع بذريعة تفلت بها مني؟ أما علمت أن من كان له نصيب من الحصافة لا يدع خصمه يمضي طليقاً، طالما كان المبادر بالعدوان! ولهو مغفل ساء سبيله من ترك عدوه يفلت من قبضته! فهيا انظر نظرة الوداع إلى العالم فإني مرسلك إلى ملك الموت بسلاحي، يا عدو العوالم الثلاثة وآل راغو!"

انتابت لافانا ثورة هوجاء، وأرغى وأزبد، وضرب كفاً بكف، وصاح صيحة مجلجلة: "إذن، فاثبت في مكانك!" وراح يوجه الضربات المتلاحقة إلى شاتروغنا وللتو رد عليه شاتروغنا قائلاً إنه سوف يذيقه الموت الزؤام. وما كان من لافانا إلا أن اقتلع شجرة ضخمة من جذورها ورمى بها صدر خصمه، فإذا بها تتحطم؛ وعاد العفريت فاقتلع عدة أشجار ورمى بها عدوه دفعة واحدة، فاعترضتها سهام شاتروغنا الواحدة تلو الأخرى، ووجه مثلها إلى العفريت، فما أجدت نفعاً، فظل ثابتاً في موقعه لا يتزحزح عنه. ثم ضرب لافانا خصمه بشجرة فإذا به يسقط فاقد الوعي. وتعالت عندئذ صيحة عظيمة أطلقها الحكماء العظام والمخلدون وأهل السماء والعالم السفلي.

ولقد خال لافانا أن خصمه قد مات بتلك الضربة، فانصرف عنه ليجمع طعامه المتناثر على الأرض، حتى أنه لم يكلف نفسه مشقة التقاط رمحه الرهيب. أفلم يمت ذلك العدو، فعلام، إذن، العناء.

ولكن سرعان ما استعاد شاتروغنا وعيه، وبلمح البصر التقط سلاحه، وعاد إلى مكانه عند بوابة المدينة بين تهليل الحكماء؛ وانتقى عندئذ سهماً من تلك السهام الخارقة التي لا تخطئ هدفها، فأضاءت ببريقها الفضاء من حولها، وأرعدت من شدة قوتها.

أطلق سليل آل راغو، زئيراً كالأسد الهصور، وعاد يتأهب للقتال من جديد، وهو يجدح خصمه لافانا بنظرات يتطاير منها الشرر، شد وتر قوسه وأطلق السهم نحو العدو الكاسر؛ فاخترقه، ثم عاد إلى صاحبه، بهجة آل ايكشفاكو، بينما تهاوى العفريت لافانا كجبل أصابته صاعقة.

ابتهجت الآلهة وباركت شاتروغنا، ثم دخل المدينة واعتلى العرش، وقد حكم المدينة مدة اثنتا عشرة سنة، أحسن فيها الحكم وزاد من الازدهار الاقتصادي للبلاد. لكن أفكاره كانت تتجه دائماً إلى أخيه راما وآيوديا، حتى قرر زيارة مرتع طفولته وصباه وإعادة الصلة مع أهلها.

انطلق شاتروغنا إلى آيوديا وكان يصحبه في هذه الرحلة جماعة صغيرة من الجند والخدم، وقد توقف في طريقه للمرة الثانية عند صومعة فالميكي. فهنأه الناسك الحكيم الذي شاهد القتال الذي دار بينه وبين لافانا من السماء. وأظهر محبته له بأن مس بأنفه رأس شاتروغنا. وما أن أخذ الجمع قسطاً من الراحة، وتناولوا شيئاً من الطعام، حتى راحت فرقة الموسيقيين تعزف الألحان الجميلة من ضروب الآلات، والمغنون يصدحون بالأغاني العذبة في سكون ليل الغابة. واستمعوا، عندئذ، إلى قصة راما ومآثره. فبكى شاتروغنا إذ أحس بالماضي يتجدد وأصغى صحبه وقد أصابهم الذهول، ورؤوسهم مطرقة إجلالاً. وسرعان ما ثار فضولهم. ولجؤوا إلى ملكهم وقد أصابتهم الحيرة والدهشة: "يا مولانا، سل فالميكي أعظم النساك، إن كان هذا وهماً أم حقيقة؟" فقال لهم شاتروغنا: "إن مثله لا يسأل! ففي هذا المكان تحدث المعجزات كل يوم. وحسبكم ما علمتم وخبرتم."

أمضى شاتروغنا ليلته مؤرقاً مسهداً. فقد زادت تلك القصيدة من شعوره بألم الخسارة

والفراق. وفي الفجر الباكر سار نحو آيوديا، وعندما وصلها اتجه فوراً إلى القصر الملكي، ومثل أمام أخيه راما. وما أن متع ناظريه بطلعته البهية حتى قال: "ها قد مضت اثنتا عشرة سنة وأنا بعيد عنك، وأشعر كأنني شبل ابعد عن أمه. فدعني أعود إلى حماك." فضمه راما إلى صدره، ثم قرعه تقريعاً لطيفاً مترفقاً، إذ قال له: "إنك ملك، والملوك لا يتخلون عن ممالكهم ليذهبوا إلى بلاد غريبة. نعم، إن آيوديا قد أصبحت الآن بلداً غريباً عنك. ولكن لك أن تقوم بزيارتي بين الحين والآخر، إنما عليك أن تعود عند انتهاء الزيارة. فلديك مسؤوليات تجاه رعاياك تستدعي اهتمامك." فانحنى شاتروغنا وقد سلم بقدره المحتوم، ذلك أن راما كان محقاً في ما قال. وبعد نهاية الأسبوع السعيد، رحل شاتروغنا عن آيوديا، ورافقه لكشمانا وبهاراتا إلى الحدود. وهكذا اجتمع شمل الأخوة الأربعة، واستعادوا ذكرى الأيام الخوالي والحب الأخوي الذي يربطهم.

في أحد الأيام، وقف أحد البراهمة عند بوابة القصر في آيوديا حاملاً جثة طفل بين يديه، وهو يبكيه، ويذرف الدمع عليه بلا انقطاع، ويصيح نادباً: "آه، يا ولدي! آه، يا ولدي! أي جرم اقترفته في حياتي السابقة لأستحق هذا المصاب بابني الوحيد، وهو ما زال طفلاً، لما يبلغ الرابعة عشر من عمره بعد. آه يا ولدي الحبيب! إن فارقتنا اليوم فسنلحق بك أنا وأمك في القريب العاجل. إن أتيت ذنباً فإني ما عدت أذكره، فما كذبت في حياتي، وما كنت سبباً في أذية إنسان أو حيوان قط، لا ولم يسبق لي أن سمعت بوفاة أحد قبل أوانه. أن يتوفى طفل في عهد راما الميمون. إذن، فلا بد أن الذنب يقع على راما. أعد لي، أي راما، ولدي الذي فقدت، وإلا انتحرت وزوجي أمام بوابة قصرك، ولسوف تدان لقتلك براهمياً! وإذا ما استطعت ان تكون سعيداً بعد ذلك، فلتكن سعيداً، ولتعش طويلاً، ولتسعد مع أخوتك! لكن اعلم أننا لن نكون في أمان. وليعلم الناس أن الأطفال فقدوا نعمة الأمان في مملكة راما، الذي يلقب نفسه بالمهاتما، من آل ايكشفاكو! ولا تحدث مثل هذه الأمور الشائنة، إلا إذا قصر الملك في أداء واجباته، فتزدهر الجريمة، وياتي الموت قبل الأوان، وتعم الفوضى."

استدعى راما مستشاريه الثمانية البراهمة، وهم ماركانديا، ومودغاليا، وفامادیفا، وكاشيابا، وكاتيايانا، وجابالي، وجوتاما، ونارادا. وحياهم وطلب منهم الجلوس. وبعد أن ارتاح المستشارون الذين يشعون ألقاً برياضة النفس، بسط لهم الاتهامات التي أطلقها البراهمي عند بوابة القصر. ولقد شعر نارادا بالاضطراب الذي يعتري قلب راما، وعرض عليه هذه النصيحة الجليلة: "أيها الملك، فلتستمع إلى سبب وفاة الطفل قبل الأوان، ولك أن تقوم بعدئذ بما تراه صواباً. ففي الزمن الغابر، في ذلك العهد الذي يسمى كريتايوغا "العصر الذهبي"، كانت مجاهدة النفس حكراً على البراهمة، فلم يقم بها من ليس منهم، وبمجاهدة النفس توصلوا إلى الاتحاد بالروح الكونية "براهمان". وفي تلك الحقبة عمر الناس طويلاً، وشاعت الحكمة فالكل كانوا حكماء.

وقد تلا ذلك العهد حقبة التريتايوغا "العصر الفضي"، وفيه مارس الشاتريا المحاربون مجاهدة النفس، جنباً إلى جنب مع البراهمة، وكان هؤلاء الشاتريا يتمتعون بالعزم والشجاعة والبطولة. وفي ذلك العهد تأسست الطبقات الأربع فكان البراهمة والشاتريا يمارسون مجاهدة النفس، ويتولى التجار والصناع "الفيشيا" الأعمال التجارية، ويقوم الفلاخون "الشودرا" على خدمة الطبقات الثلاث. وكان الناس من مختلف الطبقات يحافظون على الدارما.

أما في عصرنا الحالي دفابارايوغا، فقد ازداد الضلال وتكاثر الشذوذ واصبح الفيشيا يأخذون برياضة النفس. وصار الناس من الطبقات الثلاث يتوسلون بمجاهدة النفس لبلوغ الدارما. لكن ذلك، أيها الملك، محرم على طبقة الشودرا.

ومن الممكن في الكالي يوغا "عصر الظلام" الآتي أن يأخذ الشودرا بمجاهدة النفس. أما أن يقوموا به في الوقت الحاضر فإن ذلك جرم عظيم. إذن، فالسبب في موت الطفل أن في مملكتك رجل من الشودرا، يقترف هذا الجرم ويسلك مسالك مجاهدة النفس. إن الضلال، في المدينة أو القرية، يجلب للمملكة الخراب، والملك الذي يقصر عن عقاب الآثم مآله إلى الجحيم، ذلك أمر لا ريب فيه. فاعثر على هذا الآثم، أيها الملك العظيم، وتقص السيئات

والجرائم. واعمل على توطيد الدراما، ولتجعل رعاياك يعيشون طويلاً، ولتعد الحياة لذلك الطفل."

سر راما من حديث نارادا، ثم قال لأخيه لكشمانا: "أي أخي العزيز، اذهب إلى بوابة القصر وانصح البراهمي أن يمسح ابنه بالزيت، وأن يحرص على ألا تتعرض الجثة للتفسخ." واستدعى العربة الطائرة بوشباكا، وغادر تاركاً المملكة في عهدة لكشمانا وبهاراتا. وقصد في أول الأمر المناطق الغربية من المملكة، ثم شمال منطقة الهيمالايا، فلم يجد فيهما أي أثر للجريمة. ثم طوف فوق المنطقة الشرقية، ولاحظ صفاء شعبها ونبله. وأخيراً بحث في المناطق الجنوبية، بالقرب من جبل شيفالا، عند بحيرة كبيرة، وهناك وجد رجلاً صالحاً واقفاً على رأسه منهمكاً في مجاهدة النفس. فاقترب منه، وقال له: "إنني معجب بما تقوم به من عبادة، وبمثابرتك على تنفيذ عهودك! فأخبرني أيها الرجل الرائع، من أي طبقة انت؟ إنني راما بن دشاراتا وبي فضول لأن أعلم نواياك؟ وما هو هدفك؟ وهل ترغب في الجنة، أم بأمر آخر؟ ولم كل هذه المجاهدة؟ وما الذي تريد أن تجنيه ويراه الآخرون مستحيلاً؟ اصدقني القول، فلعلك تفلح، أيها الرجل الصالح! هل أنت براهمي؟ أم أنك من الشاتريا الجبابرة؟ أم أنك من الطبقة الثالثة الفيشيا؟ هل انت من الشودرا؟" فأجابه الرجل وهو لا يزال واقفاً على رأسه: "اعلم أيها الملك راما الذي طبقت شهرته العوالم الثلاثة، أني ولدت في طبقة الشودرا. وأخذت برياضة النفس، علّي أن أصبح على شاكلة الآلهة. ولست بالذي يكذب حين أقول، أي راما، إني أنشد دخول عالم الآلهة. وإنني من الشودرا واسمي شامبوخا."

ولم يكن الرجل قد أنهى حديثه بعد، عندما جرد راما سيفه البتار وقطع رأس شامبوخا. ولقد استحسنت الآلهة، وأتباع إله النار آغني هذا العمل، وامتدحوه كثيراً. وأمطره إله الريح فايو بالزهور المعطرة. وقالت الآلهة السعيدة لراما الصادق: "لقد حققت، أيها الرجل المقدس! ذو العقل الراجح! غايات الآلهة. حين منعت، يا مبدد الأعداء، يا سليل آل راغو، هذا الشودرا من دخول الجنة."

ولما سمع راما كلمات الآلهة تلك، حيا كبيرهم إندرا وقال له: "إن كنت حقاً مسروراً مني، فلتعد الحياة لابن البراهمي. وهذه المكرمة الوحيدة التي أطلبها. فما مات هذا الطفل إلا بذنبي. فأعد إليه الحياة! فعهدي لأبيه أن أعيد إليه الحياة لتتمجد الآلهة! سألتكم أن تحققوا هذا الوعد الذي قطعته!" فأجابه إندرا مبتهجاً، مما زاد في سعادة راما: "اطمئن يا راما، فقد عادت الحياة للطفل، واجتمع بأهله من جديد! إذ عادت له الحياة في اللحظة التي وقع فيها رأس الشودرا على الأرض. فامض يا راما، وليكن النجاح حليفك دوماً!"

أخذ راما يقلب في خاطره فكرة تقديم قربان الملك "الراجاسويا"، تعبيراً به عن رسوخ سلطته. واستشار في ذلك لكشمانا وبهاراتا، مرجع الرأي لديه. فبسط بهاراتا رأيه بحرية وقال: "أنت دعامة العالم، وحامي الكون، ونصير الكائنات كلها. ولذلك لست أرى صواباً في تقديمك قربان الملك. لأن ذلك سيعني خراب العديد من الممالك، وموت أعداد هائلة من المحاربين الشجعان. وإثارة الكثير من العنف وإراقة الدماء. ولن يعد ذلك من مآثرك." وكان أن عدل راما عن رأيه، فقد كان بهاراتا مجادلاً بارعاً، وقادراً على الإقناع والدفاع عن رأيه بقوة. وقال له: "أعتقد أنك أصبت فيما قلت! فعقلك راجح على الرغم من صغر سنك، أي بهاراتا." عندئذ قال لكشمانا: "إن قربان الحصان "أشفاميدا" يجلب الحب والرفقة وينقي الروح. وهناك سابقة إلهية تدل على آثاره الحسنة، إذ لجأ إندرا نفسه إلى هذا القربان، يوم أراد أن يتطهر من إثم القتل." فوقع هذا الرأي موقعاً حسناً عند راما. وعهد إلى لكشمانا بمهمة الإشراف على هذه المهمة، وأوعز إليه أن يدعو الزهاد والمتمكنين من أداء الطقوس وخاصة طقس قربان الحصان، وهم فاسيشطا وفاماديفا، وجابالي، وكاشيابا. وطلب منه ألا يضن بشيء في هذه المناسبة. وأرسلت الدعوات إلى سوغريفا ملك القردة، وفيبيشانا ملك الراكشا والأعيان من المملكتين، فضلاً عن أهل العلم والثقافة والزهاد وملوك الجوار. وأصدر تعليماته بأن يكون موقع تقديم القربان على ضفاف نهر غوماتي في غابة نيميشا.

تم شراء كميات هائلة من المؤن ذات الجودة العالية من رز وسمسم وعدس وملح وزيوت

للطهي. كما جلبت الزيوت العطرية والبخور وخشب الصندل. وحشدت أعداد غفيرة من الطهاة والخدم، والراقصين والراقصات والموسيقيين والممثلين والمهرجين، للترفيه عن الضيوف وتسليتهم. ونصبت الخيام الخاصة والسرادقات لإقامة الزوار من الملوك والنبلاء وعائلاتهم وحاشيتهم وركزت عليها شاراتهم وأعلامهم.

عندما تم الانتهاء من تهيئة الموقع والمذبح، وصل راما على رأس جيشه. وقد سر كثيراً بهذه الاستعدادات، وأعطى شارة البدء للمهرجان. ووسط المراسم الاحتفالية، ومظاهر الفخامة والأبهة، أطلق راما الحصان الأسود الذي توخى أهل الخبرة الحرص الشديد في اختياره ليكون موافقاً لما نصت عليه أسفار الحكمة. وكان لكشمانا يومئذ على رأس جماعة من الكهنة والجنود، يقوم بمتابعة الحصان أينما ذهب واتجه، ويراقب حركاته، متيقظاً لإحباط أي محاولة لتحدي سلطة راما. وقد جرى القوم على أن يطلقوا الحصان مدة عام يجول فيها كيفما شاء، ثم يعود إلى مكان انطلاقه، إلا إذا كان أسيراً، وفي ذلك إشارة إلى إعلان الحرب.

وهكذا سارت الأمور، والطقوس قائمة والاحتفالات مستمرة على قدم وساق، والصدقات تجري، والذهب والفضة والجواهر تبذل بلا حساب. وبينما كان هذا الاحتفال الرائع يجري، أطل حواريو الزاهد الصالح فالميكي فجاة، فأعجبهم ما رأوا، وابتنوا لأنفسهم أكواخاً بالقرب من المكان. واحتشدت في بستان فالميكي أعداد هائلة من العربات التي تجرها الثيران محملة بألوان الفاكهة وجذور النباتات. ولما استقر بهم المقام قال الحكيم العظيم لمريديه كوشا ولافا: "اذهبا وانشدا ملحمة الرامايانا، وجودا في الإنشاد، عند معتكفات النساك، وبيوت البراهمة، وفي الطرقات، وقصور الأمراء، واحرصا على إنشاد تلك الملحمة عند بوابة سرادق راما، حيث يقدم القربان. وإليكما هذه الثمار الطيبة التي تنمو في الجبال، لتأكلا منها قبل البدء بالغناء، كيلا تشعرا باي تعب أو إرهاق، فستحفظ لكما هذه الثمار صفاء صوتيكما. وإذا ما أشار عليكما راما بالغناء أمام الزهاد في مجلسه، فامتثلا لأمره. ولتقوما في كل مرة بإنشاد عشرين مقطعاً، مما كنت قد لقنتكما إياه. وإياكما ان تطمعا في اي

مكافأة! فما نفع الذهب للزهاد الذين يقتاتون الفاكهة وجذور النباتات، وإذا سالكما راما عن معلمكما، فأجيباه بأنكما من مريدي الناسك العظيم فالميكي! ثم أنشدا نشيدكما دون تردد أو وجل، بمرافقة الآلات الوترية، بعد أن تضبطا أوتارها، فتخرج من الأنغام ما لم تسمعه أذن من قبل، ولتنشدا القصيدة من بدايتها، ولتظهرا الكثير من الاحترام للملك الذي هو وفقاً للدارما أبو الكائنات كلها. ولتبدءا الإنشاد مصطحبين الآلات الوترية منذ فجر الغد، ببهجة وحبور، ولتحرصا على جمال الصوت والأداء."

وبعد أن أنهى الزاهد فالميكي بن باستراس، ذو المحتد الرفيع والصيت الذائع، كلامه لاذ بالصمت المطبق. ولما تلقى ولدا سيتا هذه الاوامر أجاباه بكل تواضع: "سنبذل قصارى جهدنا!" وانصرفا إلى شؤونهما. وفي فجر اليوم التالي، بدأ الناسكان الفتيان بالإنشاد، بعد أن اغتسلا وأشعلا النار المقدسة.

أصغى راما إلى القصيدة التي ألفها فالميكي، والتي لم تسمع أذن مثلها من قبل، وهي تنشد على أنغام الآلات الوترية بإيقاعاتها المنتظمة المتوازنة، فاعجب بها كثيراً. وفي أثناء العرض استدعى راما كبار الزهاد، والملوك الضيوف، والعارفين من مواطنيه، والمتفقهين في تاريخ خلق العالم والآلهة "البورانا"، والبراهمة المتضلعين بالنحو والموسيقى، والخبراء في شؤون الفن والتنجيم والعارفين في أصول الإنشاد، والمختصين بالمنطق والمتبحرين في كتب الحكمة، وأصول الدين، وبعد أن اجتمعوا أشار لكوشا ولافا بالجلوس. وبدأ الصبيان بالإنشاد، فبعثا السعادة والبهجة في قلوب الحاضرين الذين أرادوا سماع المزيد من هذه الموسيقى السماوية.

وفيما كان الزهاد والملوك مشدودين إلى المغنيين، راحوا يحدقون فيهما ويطيلون النظر إليهما، ولاحظ بعضهم مبلغ شبههما براما، وقالوا لبعضهم البعض: "إنهما يشبهان شري راما كثيراً، حتى لكأنهما صورة لكوكب واحد. ولو أن شعرهما ليس بالمتلبد ولا يرتديان ملابس الزهاد، لما كان ليخطر للناظر إلا أنهما من آل راغو."

وهكذا دار الحديث بين الناس في المدينة والريف، بينما كان كوشا ولافا قد أنهيا النشيد الأول حسبما أشار عليهما فالميكي. وبعد أن قدما الأناشيد العشرين الأولى كان المساء قد حل، وعندئذ، قال راما لأخيه: "صل هذين المنشدين بثمانين ألف قطعة ذهبية في الحال، ولتقدم لهما ما شاءا من الهدايا والعطايا." فصدع لكشمانا بأمر راما، إلا أنهما أعرضا عن قبول الهدية، وقالا بدهشة: "وما جدوى هذا لنا؟ إن القمح والفاكهة وجذور النباتات تكفي الزهاد أمثالنا، فأي شأن لنا بالذهب والفضة في الغابة؟"

أثارت هذه الكلمات دهشة الحضور واشتد بهم الفضول. ولما كان راما يرغب في معرفة أصل القصيدة، فقد سألهما عن مبلغ طولها، وصاحبها وبلده. فأجاباه: "إن صاحبها فالميكي المبارك، وهو من حضور هذا المهرجان، وهذه القصيدة تتألف من أربعة وعشرين ألف بيت وخمسمئة مقطع في ستة أسفار وخاتمة، ذلكم هو عمل معلمنا الحكيم، وقد حرص على أن يسجل في ملحمته كل أفعالك والظروف التي أحاطت بك، فهو يروي حياتك كلها بتقلباتها. وإن شئت، أيها الملك، أنشدناها لك في أوقات فراغك وراحتك."

ظل راما يستمع إلى تلك الملحمة الرائعة منقطعاً لها، أياماً بطولها، محاطاً بالنساك والملوك والقردة. وبعد أن انتهى كوشا ولافا من الغناء أدرك أنهما ولدا سيتا. وفكر ملياً، ثم استدعى إليه الموثوقين من رسله المعروفين بورعهم وحميد أخلاقهم، وفي ذلك الاجتماع حدثهم عن تلك الأميرة قائلاً: "امضوا إلى ذلك الرجل المبارك وقولوا له إذا كانت عفيفة طاهرة، وسلوكها لا غبار عليه، فلها إن شاءت، برضى ذلك الحكيم العظيم، أن تثبت وفاءها! وعودوا إليّ عندئذ بالخبر. ولتقسم ابنة جناكا على طهارتها أمامي غداً في الفجر في هذا المجلس أمام الجميع!"

وعلى الفور توجه الرسل إلى ذلك الزاهد العظيم الذي كان يشع تألقاً وانحنوا له تواضعاً، وأخبروه بما قال راما. فأجابهم: "ليكن له ذلك!" ودعا لهم باليمن والبركة. فعاد رسل الملك حاملين معهم جواب الزاهد، ونقلوه إلى راما بكل أمانة. عندئذ خاطب جمع الملوك والنساك والفرح يعمر قلبه قائلاً: "أيها المباركون، وأتباعكم، ويا أيها الملوك. ومن معكم

من الأصحاب، وإلى كل من يشاء، فلتحضروا في الغد ولتكونوا شهوداً على قسم سيتا!"

وكان لحديث راما أحسن الوقع عند الحضور فأثنوا عليه وقالوا له: "إن أمراً كهذا لا يصدر عن شخص سواك أيها الملك." ثم أعلن راما موعد الحدث صباح الغد، وعلى هذا انصرف القوم من المجلس. وفي الصباح، ذهب سليل آل راغو إلى المذبح، ووجد النساك قد ساروا إليه في حشد عظيم، وبهم فضول ليشهدوا الحدث الكبير. كذلك قدم الراكشا الجبابرة، والقردة الشجعان، والملوك وأمراء الحرب المقاتلين، والتجار وآلاف الناس من الطبقات الدنيا. كما جاء البراهمة من مختلف الأصقاع، وهكذا تلاقت هذه الجموع لحضور قسم سيتا، وقد وقفوا صامتين دونما حراك وكان على رؤوسهم الطير، أو أصبحوا كالحجارة الصماء.

تقدم فالميكي وفي إثره سيتا، وقد أطرقت رأسها، وأطبقت راحتيها، والعبرات تخنقها وهي مستغرقة في التفكير في راما. عندئذ راحت صيحات الحزن تتعالى، تعاطفاً مع هذه الأميرة التعيسة ذات الحظ العاثر، بينما راح البعض يصيح: "المجد والنصر لراما!" والبعض الآخر: "المجد والنصر لسيتا!" وآخرون يحيون الاثنان معاً. وبينما كان الناسك فالميكي يتقدم بين هذه الحشود المصطفة مصطحباً سيتا. قال مخاطباً راما: "هذا أنا فالميكي يا ابن دشاراتا، وهذه هي سيتا الطاهرة، والتي تركت عند صومعتي مهجورة، متهمة افتراء بسمعتها وشرفها. ولسوف تثبت سيتا براءتها اليوم، وما عليك سوى أن تشير بيدك. واعلم أن هذين الطفلين هما ابنا سيتا وولداك أيضاً، وإني لصادق في ما قلت، وأنا المشهود له بالصدق، ولم يسبق لي أن قلت كلمة كاذبة في حياتي قط. وإذا كانت سيتا آثمة فحرام علي أن أنال ثمار تنسكي طوال الحقب الماضية. ولقد ثبتت لي براءتها بعد أن أخذت أتامل تحت شلالات الغابة، مستخدماً حواسي الخمس وعقلي. وستقدم تلك السيدة الطاهرة العفيفة البرهان على إخلاصها ووفائها لزوجها."

بعد أن استمع راما إلى حديث الناسك العظيم فالميكي، ورأى الأميرة الجميلة، وحيا الناسك مبجلاً له، أجابه أمام الملأ: "ليكن أيها البراهمي الورع ما ترى. وإني لموافقك في ما

قلت من رأي حصيف. والحق أن سيتا قد برهنت في الماضي على عفتها في لانكا أمام الآلهة، فأعدتها يومئذ إلى قصري. لكن الناس في آيوديا كانوا يشددون النكير عليها، فاقصيتها. وهكذا ترى أيها البراهمي، أني هجرتها امتثالاً لرأي الرعية، وإن كنت واثقاً من براءتها. فذلك عذري! وها إني أقر بأن كوشا ولافا ولداي! وبودي أن أصالح سيتا أمام جميع الحاضرين."

ولما بلغ الآلهة ما انتوى راما، حضروا وعلى رأسهم براهما، وبصحبته أبناء الإلهة أديتي والحكيم الأشهر كاشيابا، والكواكب الاثني عشر، والثمانية المخلدون، وأولاد فيشفا ابنة براهما، والماروت أصحاب العواصف، والحكماء العظام، وأمراء عشائر الناغا، وأهل السماء. ليشهدوا امتحان سيتا العفيفة. وعند ذلك كرر راما حديثه، وأكد أبوته لكوشا ولافا، ومحبته الصادقة لسيتا وثقته ببراءتها.

كان لشهادة راما أكبر الأثر في نفوس الحضور، وفي تلك اللحظة أرسل إليه إله الريح فايو نسمات عليلة نعم بها الناس إشارة إلى مباركته. ونظرت سيتا إلى ذاك الحشد من الحضور، وكانت ترتدي إزار النساك الأصفر، وخفضت رأسها وغضت بصرها، وحيت راما، ثم قالت: "أيتها الإلهة مادهافي العظيمة، يا ربة الأرض، أضرع إليك أن تتقبليني إن كنت مخلصة لزوجي الحبيب راما، ولم أفكر في خيانته قط. يا إلهة الأرض استقبليني فأنا لم أحب رجلاً سوى زوجي راما، وهو وحده من سلمته قلبي." وبينما كانت سيتا تتحدث على هذا النحو، وقعت المعجزة، فقد انشقت الأرض عن عرش باهر رائع محمول على رؤوس أفاعي الكوبرا الجبابرة، تتلألأ أجسامها ببريق الجواهر والدرر. وكانت إلهة الأرض مادهافي تتربع على العرش، فمدت يدها إلى سيتا وضمتها إلى صدرها، وأجلستها بجانبها. عندئذ راحت السماء تمطر أزهاراً بلا انقطاع. والآلهة تصدر صيحات الاستحسان وتعلن طهارة سيتا.

ولما رأت الآلهة في السماء سيتا تنزل إلى الأرض، اطمأنت قلوبها، وراحت تكيل لها المديح. أما في موقع القربان فقد انتابت الدهشة الحضور أجمعين. وفي العوالم الثلاثة كان

هتاف الكائنات كلها، الأحياء منهم والأموات، والحكماء العظام وكبار الناغا يعلو معبراً عن فرحهم بهذا الحدث العظيم. وفي تلك اللحظة سرت رعشة اهتز لها العالم كله. عندئذ راح الزهاد والقردة يهتفون في حضرة راما استحساناً للمعجزة التي كانوا شهوداً عليها. غير أن راما كان شديد الحزن لضياع سيتا. فلم يتمالك نفسه من الألم والأسى، فاتكأ على عصا وجدها عند المذبح، والدمع ينهمر من عينيه وقد أطرق برأسه، وراح يتنهد مراراً وتكراراً، وبات فريسة للثورة والغضب وقال: "عندما رأيت سيتا تختفي أمامي، عانت روحي الألم كما لم يعرف أحد الألم من قبل. ففي الماضي، عندما كانت في لانكا، في الجانب الآخر من البحر الواسع تمكنت من استعادتها، فكيف لي أن أستردها من الأرض. فيا إلهة الأرض، ناشدتك أن تعيدي إليّ سيتا، وإلا صببت جام غضبي عليك، وهو شديد، وأنت أعلم بقوتي وجبروتي. إنك حماتي والدة سيتا، إذ أن جناكا كان قد أخرجها من باطنك. وإذن فإما أن تعيديها لي أو تفسحي لي لأدخل إلى أعماقك وأجتمع بها، في العالم السفلي أو الفردوس. فرجوتك أيتها الإلهة أن تعيدي لي سيتا فقد اضطربت أحوالي، وغدوت شقياً بسببها. فإن لم تعيديها إلي، دمرت الجبال وأحرقت الغابات، وجعلت الماء يفيض في الأرض حتى يعم الطوفان."

كان راما يتحدث على هذا النحو وهو حزين ويتقد غضباً، فتوجه إليه لفيف من الآلهة يتقدمهم براهما، وخاطبه قائلاً: "لا تحزن، أي راما، ولتتذكرن محتدك الرفيع وطبيعتك، أيها المنتصر على أعدائك! وانت أعلم بأن ليس هناك من يسمو عليك أو يعلو على مرتبتك! وتذكر أنك فيشنو، أيها البطل الصنديد الذي لا يقهر! إن الأميرة الطاهرة العفيفة سيتا، والتي كانت في الماضي تخلص لك الإخلاص كله ولا يزال هذا حالها، وقد وصلت إلى العالم السفلي حيث أفاعي الناغا، بفضل تنسكها وتأملها فيك. ولسوف تجتمع بها ثانية في السماء. ولتستمع إلى هذه القصيدة التي ستتلى عليك وسط هذا الجمع، فهذه القصيدة هي أعظم الملاحم وأجملها. وقصيدة فالميكي هذه تروي قصة حياتك كلها منذ لحظة ولادتك. وقد حوت كل ما عرض لك في حياتك وما سوف يعرض من خير و شر. إن

ذلك الشاعر العظيم مخلص لك إخلاصاً تاماً. ولقد سبق لي أن استمعت إلى هذه الملحمة بصحبة الآلهة، وهي تتألق بجمالها وصدقها وروعتها. فيا أعظم الرجال، أيها الملك الفاضل، أصغ إلى خاتمة الرامايانا، وليس لأحد سواك أن يسمعها."

بعد ذلك عاد براهما كبير الآلهة إلى السماء وبرفقته أترابه من الآلهة. وبقي كبار الزهاد ليستمعوا إلى الخاتمة كما أمر براهما. فقال راما لفالميكي: "أيها الرجل المبارك، وددت لو أسمعتنا خاتمة ملحمة الرامايانا، وعرفتنا بما سيحصل لي في المستقبل. فلتتلوها علي في الغد." وبعد أن صرف الحضور، استبقى كوشا ولافا وذهب معهما إلى كوخ فالميكي، وهناك أمضى الليلة وهو يشكو سوء حاله لفراقه سيتا. ولما بزغ الفجر، استدعى راما كبار الزهاد وطلب إلى ولديه أن ينشدا له خاتمة الملحمة بلا وجل. فبدءا بالغناء بعد أن جلس النساك العظام.

لما عادت سيتا إلى باطن الأرض بعد أن أثبتت طهارتها، وانتهت طقوس قربان الحصان. حزن راما كثيراً لفراقها حتى أن العالم غدا في نظره صحراء قاحلة. فودع الملوك والدببة والقردة والراكشا والحكماء العظام، بعد أن أغدق عليهم الهدايا الثمينة. وعاد إلى آيوديا، وسيتا مقيمة في خاطره دوماً، ولم يتخذ من بعدها زوجة أخرى، وكان في كل قربان يقدمه، يقيم لها تمثالاً من الذهب، ويجلسه في مكانها. وعلى مدى عشرة آلاف سنة قدم أعداداً هائلة من القرابين المختلفة، ووزع مقادير كبيرة من الذهب، والكثير من الصدقات.

ولقد تربع راما على عرشه عهداً طويلاً، وهو منكب على واجباته، وتطيعه الدببة والقرود والراكشا، ويمثل أمامه الملوك لإظهار ولائهم. وكان إله المطر بارجانيا يرسل المطر في مواسمه غزيراً وفيراً، وكانت السماء صافية، والناس ملتزمون بالقانون معرضون عن المعاصي والآثام، سعداء قانعين بحياتهم وكدهم في الريف والمدينة. ولم يعرف عن أحد أنه قضى قبل أوانه، وخلت البلاد من المرض. وكانت الرعية يومذاك في بحبوحة من العيش على مدى السنين، حتى كان موت والدته العجوز، وأبناؤها وأحفادها يحيطون بها، ثم لحقت بها سوميترا وكايكيه. وقد ذهبن جميعاً إلى السماء بفضل مآثرهن وانهماكهن في عمل الخير، ولما

صعدن إلى السماء اجتمعن بدشاراتا ثانية، وهناك كان الحساب فجنين ثمار أعمالهن. وداب راما منذ ذلك الحين على أن يقدم للبراهمة والزهاد الهدايا والعطايا في ذكرى والدته، ويقيم احتفالات التأبين في ذلك الموعد، فيصل فيها الحكماء، وينقطع لضروب خارقة من رياضة النفس تكريماً لذكرى السلف.

ولقد نشأ منذ ذلك الحين جيل جديد في آل راغو، وكان على الآباء أن يتدبروا أمر المستقبل لأبنائهم. فقد كان ولدا بهاراتا، تاكشا وبوشكالا، قد بلغا مبلغ الشباب وباتا مهيئين للنهوض بما يقع عليهما من المسؤولية. فلما بعث يوداجيتا، شقيق كايكيه بخبر عن مملكة من جزر البحر، أهلها من المخلدين. وجه راما أخاه بهاراتا بالزحف مع أبنائه الفتيان والاستيلاء على تلك الجزيرة. وانتهت تلك الحملة بالظفر، فنصب تاكشا على عرش تاكشاشيلا وبوشكالا على بشكالافاتا، وكانت من الحواضر المشهورة. وقد استغرقت تلك الحملة خمس سنوات.

وجاء بعد ذلك دور ولدي لكشمانا، أنغادا وتشاندراكيتو. وطلب راما إلى أخيه أن يبحث عن أرض طيبة هادئة لا تخشى خطراً من جوار أو ثورة من رعاياها. وكان أن اختص، بعون من بهاراتا وراما، كل منهما بحاضرة حصينة، فتولى أنغادا أنغاديا وتشاندراكيتو تشاندراكيتا. فلما أنجز لكشمانا مهمته قفل عائداً إلى آيوديا. أما بهاراتا فقد مكث عاماً مع تشاندراكيتو حتى رسخ حكمه، فعاد أدراجه أيضاً إلى موطنه الأصلي. ولقد ظل بهاراتا ولكشمانا يقومان على خدمة راما طوال عهده. وكان هؤلاء الأخوة الثلاثة قبلة الأنظار كألسنة اللهب التي تشع ألقاً ومجداً وخيراً.

وهكذا مضت آلاف السنين بسعادة، قام فيها الملك راما بتنفيذ واجباته كلها في كل ناحية ومجال، متوسلاً في ذلك بالطقوس القدسية. واستمر راما في هذا النهج لا يتحول عنه وقومه في سعة من العيش، ثم أتى يوم حضر فيه الموت ووقف بباب القصر، بهيئة ناسك وقال للحراس: "إني رسول أحد الحكماء العظام، وقد أتيت لأرى راما في أمر خطير." فأسرع لكشمانا يعلن لراما عن وصول هذا الناسك قائلاً: "أيها الملك العظيم،

بالباب ناسك يشع ضياء من شدة التقوى، يطلب مقابلتك. " فسمح له راما بالدخول. وأدخل لكشمانا ذلك الناسك الذي تحيط به هالة من النور، فاقترب من راما ودعا له بالسعادة. وبعد أن حياه راما قدم له الماء والحليب وعشبة الكوشا والأرز وعشبة الدورفا وخشب الصندل والزهور، وما ألف تقديمه للضيوف. ورحب بالناسك وأجلسه على كرسي من الذهب الخالص، وسأله عن الرسالة التي يحملها. فقال الناسك: "الواجب أن أنقل إليك الرسالة أيها الملك، في سرية تامة، فلا يدخل علينا أحد، فإن قطع خلوتنا أحد ساءت العاقبة، إذ عليك أن تقتل ذلك الشخص، أياً كان. فمولاي يطلب السرية التامة." فقال له راما: "ليكن ما تريد." ثم قال للكشمانا: "اصرف الحارس، وقف أنت على الباب حاجباً، واحرص على ألا يدخل على مجلسنا أحد." ثم التفت إلى الناسك وقال له: "والآن تحدث، فلسوف أحفظ حديثك في قلبي!"

راقب الزائر لكشمانا وهو يغادر، ثم استدار نحو راما وقال له: "اعلم، أيها الملك، أني أدعى الزمن، أو الموت، أو ما شئت من الأسماء، وأحمل إليك رسالة من براهما، يقول فيها: "قد تمت مهمتك، أي راما، على الأرض، وتحقق لك ما شئت وأردت، وحق عليك أن تعود إلى هيئتك الأولى، وأزف الوقت لتعود نارايانا الماء، فيشنو، المتكئ وسط البحر العظيم على أنانتا الأفعى الملتفة على ذيل اللانهاية، وهي العالم. فلقد خلقتني وأنت على تلك الهيئة، أنا براهما، على زهرة اللوتس، وقد انبعثت من سرتك، وأنت يومئذ، مضطجع في غفوة الخلق، وأوليتني مهمة خلق العالم. إن عهدك على الأرض انقضى، ودام لك الحكم أحد عشر ألف سنة، فحق عليك الرجوع. إلا أن لك أن تتجاهل هذه الرسالة، إن شئت وتظل على الأرض ردحاً من الزمن."

وبعد أن سمع راما كلمات براهما تلك التي نقلها إله الموت ابتسم وأجاب مدمر العالم، قائلاً: "إني لسعيد لحديث كبير الآلهة، وكذلك لزيارتك لنا. ولقد أتيت إلى الأرض لخير العالم، وهو مبرر وجودي. أما وأن مهمتي انتهت، فقد سرني أن تأتي إلي مذكراً، ولسوف تجدني أغادر هذا العالم دونما إبطاء."

وبينما كان هذا الحوار يجري بين راما ورسول براهما، أتى الناسك المبارك دورفاس لمقابلة راما، ووقف أمام بوابة القصر وقال للكشمانا: "أدخلني على الفور لامثل بين يدي راما، لأمر عاجل!" فانحنى له لكشمانا وقال: "ما الأمر؟ ذلك أن راما مشغول في هذه اللحظة أيها البراهمي، فعليك بالصبر، ولتنتظر قليلاً، ثم تدخل عليه."

عندما سمع ذلك الناسك العظيم هذا الجواب، ثار وغضب، وقال: "أعلم راما بحضوري على الفور، يا لكشمانا، وإلا حلت لعنتي على المملكة وعليك والمدينة وراما وأهل هذا البيت كلهم، فما عاد لي صبر، أي لكشمانا، على الجوع أكثر مما صبرت!" فلما سمع لكشمانا تلك العبارات التي نطق بها الناسك، أخذ يفكر في مراميها. وحدث نفسه: "من الأفضل أن ينتهي أمري على أن ينال المدينة وراما والأهل أي مكروه، فكيف بالدمار!"

وهكذا دخل لكشمانا على راما وأخبره بأمر الزاهد. فاستأذن راما من رسول براهما، وأسرع لاستقبال ابن آتري. وحياه ورحب به وساله عما يستطيع أن يقدم له من خدمات. فاجابه الزاهد العظيم: "أصغ لما أنا مخبرك، أي راما الفاضل، ففي هذا اليوم أكون قد أنهيت صيام ألف سنة. وبي من الجوع ما لا يوصف، فإلي بالطعام، ولتسرع." فقدم له العديد من أطباق الطعام الشهي التي جهزت لأجله. فراح الزاهد يتناولها وهو يثني على طعمها اللذيذ، ثم عاد إلى صومعته.

ما إن انصرف الناسك، حتى تذكر راما كلمات الموت في اجتماعهما المشؤوم، فاطرق رأسه وقلبه يعتصره الألم، وهو عاجز عن الكلام. ثم راح يعمل الفكر عله يجد مخرجاً من العهد الذي قطعه للموت، فلم يجد ذلك المخرج فقال في نفسه: "قد انتهى الأمر ولا مخرج!" ثم استمر على صمته .ولما رآه لكشمانا حزيناً هكذا، وكانه القمر في خسوفه، قال له بنبرة ضاحكة ملؤها العاطفة: "لا تحزن لاجلي، أيها المحارب المقدام، فقد كان ذلك مقدراً وله أسبابه منذ القدم! فلتقتلني دونما إبطاء، ولتبر بوعدك! فمن ينكث بوعده مآله إلى الجحيم. فإن كنت تكن لي عاطفة وتحترمني وتجد بي فضيلة ما، فانجز وعدك وحقق كلمتك والقانون بان تقتلني!"

اضطربت نفس راما أشد الاضطراب لحديث لكشمانا، فاستدعى وزراءه ومستشاريه، وأخبرهم بما حصل، والعهد الذي قطعه أمام الموت، فلزموا الصمت، إلا فاسيشطا فكان الوحيد الذي أدلى برأي في الأمر، فقال: "الظن عندي، أيها الأمير، أن الفراق عن لكشمانا أمر خطير، وهو بالنسبة لك فاجعة دونها كل فاجعة. وإنني أرى أن تهجره، فلا قبل لك بمواجهة الموت. وعليك أن تفي بعهدك، فإن لم تحفظ العهود انتهت العوالم الثلاثة لا محالة، ومعها كل المخلوقات الحية والميتة سواء بسواء، وكذلك الآلهة، والحكماء! ولذلك فمن أجل بقاء الكون عليك أن تنفي لكشمانا!"

ولما سمع راما هذا الحديث الذي ينسجم مع الواجب والحق، ووجد الجميع مجمعين عليه، قال مخاطباً لكشمانا: "حكمت عليك، أي لكشمانا، بالنفي، صوناً للحق، فالموت والنفي عند الشرفاء سيان." فاسرع لكشمانا إلى مغادرة المكان والتوجه إلى منفاه دامع العينين مشتت التفكير دون أن يتوقف ببيته. ولما وصل إلى ضفاف السرايو، اغتسل ثم ضم راحتيه، وأغلق حواسه دون العالم وجلس مستغرقاً في التأمل، وأوقف تنفسه في الوقت نفسه، فاخذت الآلهة والأبسارا وكبار الزهاد يمطرونه بالزهور، وغدا لكشمانا الجبار شفافاً لا تراه عيون البشر، ثم حمله إندرا إلى العالم السماوي روحاً وجسداً. وسرت الآلهة لرؤية الربع من فيشنو يدخل الفردوس. فاستقبلوه أحسن استقبال.

بات راما منذ أن أرسل لكشمانا إلى منفاه، نهباً للاحزان والكآبة، فانصرف عن شؤون الحكم والإدارة، وصارح الكهنة والوزراء لديه والرعية بعزمه على تولية بهاراتا المخلص لواجباته ملكاً على آيوديا، ثم الانصراف إلى الغابة. وسألهم ألا يضيعوا الوقت، وأن يقوموا بكل التحضيرات اللازمة، وأخبرهم بانه سوف يمضي في اليوم ذاته في الطريق الذي سلكه لكشمانا. وما إن أنهى راما حديثه حتى أطرق الجميع، وقد خارت قواهم ووهنت عزائمهم. أما بهاراتا فقد رفض التاج قائلاً: "إنني لا أرغب في ملك بدونك، ولو كان في الفردوس! فلتنصب ولديك ملكين فتخص أحدهما بأرض الشمال والآخر بأرض الجنوب. ولترسل إلى شاتروغنا دون إبطاء من يعلمه بمغادرتنا هذه الحياة."

لما سمع فاسيشطا كلمات بهاراتا. ورأى المواطنين وقد نال منهم الحزن، تقدم للحديث فقال: "أيها الملك المحبوب راما، أترى هؤلاء الناس وهم راكعون على الأرض، فلتستفسر منهم عن سبب حزنهم، ولتسالهم عما يرغبون به، فحق لهم أن تجيب أمانيهم." عندئذ طلب منهم راما الوقوف، وقال لهم: "ماذا تطلبون مني؟" فقالوا جميعاً: "إن كنت ستتركنا، فلتدعنا نذهب معك أينما تشاء، فإن كنت تحبنا نحن رعاياك فلا تهجرنا، ولتدعنا نتبعك في طريقك القويم وزوجاتنا وأولادنا، أياً كان ذلك المكان، سواء كان صومعة نائية أو نهراً أو محيطاً. هذه هي أمنيتنا، فبهجة الحياة، أي أميرنا، أن نكون في صحبتك."

وادرك راما عندئذ مدى ما يكن له شعبه من المحبة، فقال لهم: "ليكن لكم ما تريدون." وانصرف من ثم إلى متابعة أعمال ذلك اليوم. فعهد لولده كوشا بجنوب مملكة كوسالا، ونصب لافا ملكاً على شمال المملكة. ثم أجلسهما في حضنه، وتوجهما في آيوديا، وقدم لهما آلاف العربات وأعداداً لا حصر لها من الفيلة وعشرة آلاف حصان. وبعد أن أهداهما الجواهر والكنوز، وزودهما برجال أصحاء أقوياء ليقوموا على العناية بهما، أرسل كلاً منهما إلى عاصمة مملكته.

ثم بعث راما برسل إلى أخيه شاتروغنا، فأسرع هؤلاء إلى مادورا كالبرق دون توقف، ووصلوا إلى المدينة بعد ثلاثة أيام، وأعلموا شاتروغنا بما حدث، من نفي لكشمانا بسبب العهد الذي قطعه راما، وتنصيب ولديه، وقرار رعاياه باللحاق به. ووصفوا له جمال المدينة التي كان راما قد أمر ببنائها لكوشا وسماها كوشافاتي، وتقع عند سفوح جبال فينديا الشاهقة، وعن مدينة شرافاستي البديعة عاصمة مملكة الملك لافا، وحدثوه عن التدابير التي يقوم بها راما وبهاراتا ليأخذا أهالي آيوديا كلهم معهما إلى الفردوس. ثم طلبوا منه الإسراع للحاق براما.

لما سمع شاتروغنا هذه الأخبار الرهيبة عن فناء الأسرة بأكملها، دعا رعاياه وكاهنه كانشانا، ليخبرهم بقراره بهجر الحياة ليكون إلى جانب أخوته. ثم قام بتنصيب ولديه

ملكين، ووزع عليهما ثروته بالعدل والقسطاس، وعين ابنه سوباهو على عرش مادورا، اما ابنه شاتروغاتين فكانت له فيديشا. وبعد إتمام المراسم غادر سليل آل راغو عاصمته متوجهاً إلى آيوديا بعربته وحيداً بلا مرافق. ولما وصل آيوديا رأى راما الشهم يشع ضياء مرتدياً رداء من الحرير ويحف به الزهاد المخلدون. فقدم التحية للجميع، ثم التفت إلى راما قائلاً: "قد أتيتك، أيها الملك، بعد أن عهدت بالملك إلى ولديَّ، واعلم بعد، أني عزمت على اللحاق بك! فلا تعارضني أو تتجاهلني." فلما وجده مصراً على قراره هذا، قال له: "ليكن ما تريد."

توافد إلى آيوديا جميع القردة الذين بمقدورهم تغيير هيئتهم وعلى رأسهم سوغريفا، كما جاء الدببة والراكشا من شتى البقاع توحدهم الرغبة بمشاهدة راما، وكان عندئذ واقفاً رافعاً رأسه نحو السماء. واجتمع المخلدون وكبار الزهاد والجندارفا، ومعهم أبناؤهم، عندما سمعوا بعزم راما على المغادرة، وقالوا له: "قد أتيناك، أيها الأمير، لنسير في ركابك، فان تغادر دوننا، هو حكمك علينا بالموت."

انحنى سوغريفا القوي أمام راما، إجلالاً وتكريماً، وقال: "أيها الأمير، لقد نصبت انغادا ملكاً بدلاً مني، وأتيت لمرافقتك." فسمح له راما بذلك. ثم وجه راما حديثه إلى فيبيشانا، قائلاً: "أي ملك الراكشا العظيم، إن لانكا ملك لك فالزمها ما دام شعبك على ظهر هذه الأرض، واستمر القمر والشمس في الطلوع، وما دام لي ذكر في الأرض، تلك هي مشيئتي فعليك إطاعة أمري أيها الصديق! ولتحكم شعبك بالعدل." فانصاع له فيبيشانا. ثم وجه حديثه إلى هانومن، وقال له: "لسوف تستمر أنت في العيش. تلك إرادتي، وإياك ان تخالفني. وستظل سعيداً، أي أعظم القردة، ما دامت هذه القصة تروى وكلماتها تتردد." ورد هانومن مسلماً بإرادة راما: "ما دام تاريخك يروى ويتناقله الناس ويدور في العالم، أي راما، فإنني سوف أظل على الأرض وفق مشيئتك." ثم التفت إلى ملك الدببة جامبافان، وقال له: "لسوف تظل مقيماً على هذه الأرض حتى يأتي العصر الأسود "الكالي يوغا"." فأجاب بالطاعة والامتثال. ثم التفت إلى البقية، وقال لهم: "من شاء منكم أن يتبعني إلى

الغابة، فليفعل."

قال راما، وقد بدأ الفجر يطل، مخاطباً معلمه: "ليوقد أهل الولادتين النار لتهب وترتفع ألسنتها، وليقام المذبح للتضحية، وأنت، يا مولاي، لتسر في المقدمة في هذه الرحلة الكبرى."

وهكذا تولى فاسيشطا، ذو المهابة والإجلال، طقوس الرحلة العظيمة، الموت، كما يعرفها أهل العلم، ولم يغفل منها شيئاً، ومضى راما، من ثم، وقد ارتدى رداء من أفخم انواع الحرير، وذكر اسم براهما، وأخذ يتمتم بعدئذ بالعبارات السحرية، كما تذكرها أسفار الحكمة المقدسة، حاملاً بكلتا يديه، بعضاً من عشبة الكوشا، وسار نحو نهر السرايو، وكان يتوقف في طريقه بين الحين والآخر، محاذياً، بصمت، درباً وعراً لم ينل اي نصيب من التمهيد. وقد خرج يومئذ من قصره، كالشمس تحيط به هالة من نور، تحف به عن يمينه لكشمي، ذات البركات، وعن يساره مادهافي، إلهة الأرض، وفي إثره حشد من سهامه وقوسه الخارق والأسلحة الأخرى كلها في أشكال بشرية، تلحق بهم أسفار الحكمة المقدسة، ممثلة بالبراهمة، ودعاء الإلهة جياتري، زوج براهما وأم أسفار الحكمة الأربعة، وراعية العالم، والعبارتان المقدستان "أوم" و "فاشات"؛ وجميعها تلحق براما في سلسلة متصلة، ومن حلقاتها الحكماء وآلهة الأرض تصحبه كلها إلى الفردوس المفتوحة أبوابها لاستقبال القادم.

وكان في ذلك الموكب ايضاً نساء القصر والوصيفات، والعجائز والأطفال والخدم، والخصيان والوصفاء. كذلك ضم الموكب بهاراتا الوفي وزوجاته ومعه شاتروغنا، تتقدمهم شعلة النار المقدسة. وسار في الموكب، بعد، الحكماء العظام كافة حاملين الأدوات المستخدمة في الطقوس المقدسة، تلحق بهم زوجاتهم وأولادهم، والوزراء وجماعات الخدم بهداياهم، ومن بعدهم الأقارب واتباعهم، يتبعون مبتهجين خطوات مولاهم، وقد لحق بهم أهل البلد الأصحاء السعداء وانضم إليهم الطيور والوحوش والأصدقاء، وقد تطهروا من الإثم، وسط هتاف القردة بعد ما اغتسلوا وتطهروا ونالوا نصيبهم من الطعام.

وبين هؤلاء جميعاً لم يكن المرء ليقع على امرئ تبدو عليه علائم التعاسة أو المهانة، أو حتى الحزن. وكانوا ينضمون إلى موكب الجنازة، ليلقوا نظرة الوداع على راما، وهو يغادرهم، فيتخذون مواقعهم بهدوء وسكينة، يستوي في ذلك الدببة والقردة، العفاريت والرعية، يعمر قلوبهم جميعاً محبة راما، ويتبعون الموكب بهدوء ورصانة. ولم يتخلف عن المشاركة في هذه المسيرة حتى أصغر الكائنات في المدينة، فقد سارت في تلك الرحلة كافة المخلوقات الحية منها والميتة. وبدت آيوديا يومئذ خالية على عروشها.

سار الموكب مسافة ثلاثة أرباع يوجنا، ورأى فخر آل راغو عندئذ مياه السرايو المقدسة تجري متدفقة نحو الغرب، فاستمر في السير حتى وصل مخاضة جوبراتاراكا، والرعية تحف به على الجانبين. وفي تلك اللحظة التي يتهيأ فيها سليل عشيرة الشمس للارتقاء إلى السماء، ظهر براهما، ملك الآلهة، تحيط به الآلهة والحكماء العظام مزينين بالجواهر، وهم جلوس في عرباتهم الطائرة، في مشهد يخلب الألباب من الروعة المعجزة ويشع تألقاً وزهواً لا مثيل لهما مصدره تلك الكائنات السماوية ذات الأعاجيب، وكان الجو لطيفاً رائقاً معطراً بنسمات مشحونة بأريج الزهور، فيما كانت الآلهة تمطر الموكب بموجة إثر موجة من الورود والزهور والرياحين. وألقى مولى العالم براهما، يومئذ كلمة على وقع أنغام الموسيقى ورقص الحوريات. فيما كان راما يدخل في مياه السرايو: "تمجدت، أي فيشنو! تمجدت، أي سليل آل راغو! فادخل الآن، أنت وأخوتك من لهم صفات تذكّر بالآلهة العظام، مستقرك الأخير. وعد إلى قوامك الأصيل، إن شئت، أيها المحارب ذو الذراع الطويلة! ولتسكن مملكة فيشنو أو الأثير البراق، أيها الجبار! أنت أُسُّ العالم وإن كان هناك من لا يراك إلا بعين الوهم الواسعة. أيها الكائن العظيم، المنيع، من لا يحيط به الزمن. ادخل جسمك الحقيقي إن شئت الآن!"

حزم راما أمره، حين سمع كلمات براهما ودخل الفايكونثا، بجسده وبصحبته أخوه الأصغر وكان في استقباله المخلدون وأحفاد الآلهة والمخلوقات المجنحة التي تسكن ما بين السماء والأرض، والماروت، أرباب العواصف، يتقدمهم إندرا وآغني، وفرق الريشي،

الحكماء، والجندارفا أصحاب الموسيقى والأبسارا الحوريات الراقصات، وغارودا، ملك الطيور الكواسر، والناغا، أفاعي الكوبرا، والياكشا، والدايتيا العمالقة، والدانافا المردة والراكشا، وكان مجيئه جل ما يتمنون، ليبرئهم من ذنوبهم.

وقال فيشنو ذو الألق والنور عندئذ لملك العالم: "أسألك أن تمنح كل تابع من أتباعي فردوساً يليق به، فهؤلاء المخلصون لي جديرون بذلك حقاً ، يشهد على هذا تضحيتهم بالحياة من أجلي!"

هكذا تكلم فيشنو، وأجابه براهما، مرشد العوالم: "إن المجتمعين هنا كلهم مآلهم إلى ما هو امتداد لمملكتي، حيث تنزل القردة والدببة حين تهجر أبدانها! وهناك سوف يكون مستقر كل الكائنات التي تتوجه إليك بالعبادة، حيث جمعت كل الممتع. ولقد رجعت كل الدببة والقردة ذات الخصال السامية إلى عوالم الآلهة التي خرجت منها، أما سوغريفا فقد ولج قرص الشمس!"

كانت القردة والدببة تتقاطر على مخاضة جوبراتاراكا، في شكلها الأول، على مشهد من الآلهة كلها. وكانت تلك مناسبة ليبرأ فيها من الإثم كل من اغتسل بماء السرايو وأسلم حياته بسعادة وحبور. أما من كان على هيئة الحيوان ودخل الماء فقد ارتفع إلى السماء الثالثة بجسم متألق يشع بهاء. وكان نصيب المخلوقات، العاقلة وغير العاقلة دخول نطاق الآلهة. ورجع الإله فيشنو إلى مملكته، كما كان روح العوالم الثلاثة وما فيها.

تلكم هي الملحمة العظيمة المسماة الرامايانا التي وضعها فالميكي وتحظى بالتقديس من براهما ذاته.

المعجـم

ـ أ ـ

ابسارا :

(السابحات) حوريات في مملكة إندرا. من أشهرهن أورفاشي وميناكا ورامبها. عرفن بملازمتهن للجندارفا، ومسايرتهن لكل من يسعى إليهن، واشتهرن بالرقص والغناء.

اتمن :

النفس، كما في الشهيق، مبدأ الحياة، الروح في الإنسان الفرد.

آجا :

ابن راغو ملك سلالة الشمس، اختارته الأميرة أندوماتي ليكون زوجها في طقس انتقاء الزوج. وماتت بعد أن أنجبت له دشاراتا ملك كوسالا والد راما.

ادارما :

نقيض الدراما، ويعني الضلال والظلم والشر والرذيلة، وهو ابن كبير الآلهة براهما، ويدعى مدمر المخلوقات جميعها.

اديتي :

أم الأديتيا السبعة. وهي ابنة داكشا (ابن براهما) وفي بعض الروايات هي زوج فيشنو.

اديتيا :

مجموعة من الآلهة يرأسهم فارونا إله الماء. كان عددهم في الأصل سبعة، ويمثلون الفضاء الرحب والقوة. ثم ازداد عددهم فاصبحوا ثمانية، وفيما بعد بلغ عددهم اثني عشر إلهاً يرمزون إلى الأبراج الفلكية. وتعرضت أسماؤهم للتغيير وأبرزهم؛ إندرا وفيشنو وفارونا وميترا ورودرا وتفاشتري. وهم المخلدون في الأفلاك.

أرثا:

الثـروة، الثـراء، الكسب، النجـاح. وهي أولى الغـايات الأربع وفـقـاً لقـانون الأخـلاق الهنـدوسيـة، والثـلاث الأخـريات هي الدارمـا (الحق)، والكـامـا (اللـذة والمتـعـة) والموكـشـا (الخلاص والانعتاق من إسار الحواس أو المادة).

أشفاميدا:

"قربان الحصـان" طقس فيـدي يتـم فيـه تقـديم جـواد قرباناً عـنـد تتويج الملك أو الامبـراطور ليـؤكـد سلطتـه المطلقـة. ويقـوم هذا الطقس عـلى إطلاق جـواد أسـود اللون في احـتـفـالات خاصـة، ليـجـري طوال عام كـامل ويتبـعه الملك أو من يختاره، فإذا دخل مملكة أخرى كان على صاحبها إما الخضوع أو القتـال. وإذا كان الانتصار لصاحب الجواد عاد إلى مملكته مظفراً وفي ركابه الملوك الذين أخضعهـم، وأقام الاحتفالات ونحر الجواد وقـدمه قرباناً للآلهة. وهو من طقوس الخصب أيضاً.

أشفين:

توأمان من الآلهة الفيدية يوصفان بالجمال والقوة والذكاء.

أشورا:

خصوم الآلهة (العفاريت)، وينسب إليهم الإلهام والإبداع. وهم شعب غريب من غير الفيديين أو الآريين.

أشوكا:

شجرة مقدسة عند الهندوس والبوذيين. ولد بوذا تحت إحدى أشجارها. وهي ذات حجم متوسط وتحمل أزهاراً حمراء جميلة، تتفتح ما بين كانون الثاني «يناير» وشباط «فبراير». لحاؤها مر المذاق، إلا أن له خصائص طبية في معالجة عسر الهضم والقرحة والنزيف الداخلي والاضطرابات النسائية.

اغاستيا:

مهاريشي من كبار الحكماء، تبوأ مكانة مرموقة لوضعه العديد من الترانيم في الريغ فيدا. رعى سيتا وراما ولكشمانا في أثناء وجودهم في الغابة. قيل إنه ولد في جرة. ويعرف ببشرته الداكنة. وله مرتبة القداسة في جنوب الهند.

اغني:

إله النار، ويصور على أنه ذهبي اللون، وله أربعة أذرع، ويحمل فأساً ومشعلاً وملعقة ومروحة. وفي بعض الأحيان يصور حاملاً سبحة ورمحاً ملتهباً، ويتشح بالسواد، ويركب كبشاً، وعربته عجلاتها الرياح السبعة، وتجرها جياد حمراء. ولديه سبعة ألسنة يلعق بها نوعاً من الزبدة يقدم في القرابين ،ويعتبر أصل المعرفة والكشف الروحي، كما أنه مصدر الإشعاع والتألق.

أكاشا (الأثير):

يقول علم الكونيات الهندوسي بوجود خمس حواس، وخمس قوى فاعلة توازي العناصر الخمسة في الطبيعة (الأثير [أكاشا]، الهواء، النار، الماء، التراب). والتي هي مجال العمل للحواس. وأدوات الحواس: الأذن والجلد والعين واللسان والأنف. وقواها الصوت واليدان والقدمان والأعضاء التناسلية وفتحة الشرج.

أكامبانا:

من الراكشا وكان رسول الملك رافانا، وأقنعه باختطاف سيتا، ءقتل على يد هانومن.

أمارفاتي:

(أرض الخلود) عاصمة مملكة إندرا، وتقع في السماء بالقرب من جبل ميرو الأسطوري. وتعرف باسم ديفابورا (مدينة الآلهة).

أماريتا:

شراب الخلود، من زبد مياه البحر، صنعه فيشنو لتستعيد الآلهة حيويتها بعدما فقدتها بسبب لعنة الحكيم دورفاس.

أنانتا:

الأفعى اللامتناهية التي تحمل الإله فيشنو (الحافظ)، وتصور بألف رأس.

أنجانا:

حورية من الأبسارا، والدة هانومن حملت به إثر اتصالها بإله الريح فايو.

إندرا:

إله السماء. وتذهب الأسطورة إلى أن لعنة جوتاما جعلت جسده يتغطى بالبثور التي لها شكل المهبل فعرف باسم سايوني (المهبلي)، ثم تحولت إلى عيون فعرف باسم سهسراكشا (ذو الألف عين). وهو من الآلهة الفيدية، وإله البرق والرعد والمطر، وكبير الآلهة في الفردوس. ويوصف بأنه ذو لون ذهبي وله أربعة أذرع. وسلاحه الصاعقة، ومن ألقابه بوراندارا "مدمر المدن".

إندراجيت:

ابن رافانا ملك الراكشا. واسمه الأصلي ميغانادا، ويوصف بالمعرفة الفائقة في السحر وقدرته على الاختفاء عن الأنظار بين الغيوم ليقاتل الأعداء من هناك. وفي أحد الحروب مع الآلهة أسر إندرا وجاء به إلى لانكا ولم يخلصه منه سوى الإله براهما، الذي أطلق عليه لقب إندراجيت أي "قاهر إندرا".

أنغادا:

ابن الملك فالي، ملك القردة، الذي قتله راما ونصب أخاه سوغريفا بدلاً منه، ونصب

أنغادا ولياً للعهد في مملكة كيشكيندا. وانضم إلى راما ولكشمانا في حربهما وملك الراكشا رافانا.

أنغادا:

ابن لكشمانا، وتولى الملك في أنغاديا.

أهاليا:

زوج الناسك جوتاما، وقد عاقبها زوجها للعلاقة الجنسية التي أقامتها مع الإله إندرا، الذي لعنه الناسك فغطت جسمه البثور التي على شكل مهبل المرأة وعددها ألف، وتحولت فيما بعد إلى عيون. وفي أسطورة أخرى أمر جوتاما ابنه شيراكاري بأن يقتل أهاليا. وفي الرامايانا أعادها راما إلى حالتها الطبيعية بعد أن تحولت إلى حجر بسبب لعنة زوجها.

أوبانيشاد:

(العقيدة السرانية أو الجوانية) مجموعة من الأسفار الفلسفية الهندوسية، وضعت بين القرن العاشر والخامس ق.م، وتتناول مسائل أصل الكون، وحقيقة الإنسان وعلاقة أتمن (النفس أو الروح) ببراهمن (الإله).

أوم:

(أ – و – م) الكلمة المقدسة عند الهندوس في كافة الأدعية والتراتيل والطقوس، ولها تفسيرات كثيرة. إحداها أنها تعني الثالوث في الديانة الهندوسية أ– فيشنو، و– شيفا، م– براهما. كما تعني حالات الوعي، الحلم، النوم العميق، السكون العميق، بعد النيرفانا (الكشف الروحي - استنارة العقل). وتعزى إليها قوى سحرية.

إيرافاتا:

فيل خرج من مخيض مياه البحر اختص به إندرا، وهو حارس جهة الشرق.

ايكشفاكو:

حفيد الشمس فيفاسفاتا مؤسس سلالة الشمس التي حكمت مملكة كوسالا وعاصمتها آيوديا عند بداية العصر الثاني تريتايوغا.

آيوديا:

وتعني المدينة المنيعة التي لا تؤخذ حرباً. وهي عاصمة مملكة كوسالا، وملكها دشاراتا والد راما. والأرجح أنها مدينة أوده اليوم. وهي إحدى المدن المقدسة السبع عند الهندوس.

- ب -

باجيراتا:

ابن ديليبا من سلالة الملك ساغرا أحد أسلاف راما. استطاع بفضل دأبه على العبادة ومجاهدة النفس وإرضاء الآلهة أن يتمكن من إنزال غانجا من السماء لتكون نهر الغانج ليطهر به رفات أبناء ساغرا البالغ عددهم ستين ألفاً.

باجيراتي:

أحد أسماء نهر الغانج نسبة إلى باجيراتا.

بالا واتيبالا:

القوة والقوة العظمى وهما من الترانيم المقدسة والممارسات التي تمنح القوة والجلد، كان الحكيم فيشفاميترا قد لقنهما لراما ولكشمانا في شبابهما. وتتعلق بالجلد والصبر وعلوم الحرب وفنون القتال.

بانديت:

لقب يطلق على الرجل المتفقه في الهندوسية وهو من ألقاب الشرف.

براجباتي:

"رب المخلوقات" وهذا الاسم يطلق على إندرا في الفيدا. في حين يطلق على براهما في شرعة مانو. كما يطلق على أبناء براهما الحكماء العشرة أبناء العقل الذين انحدرت منهم الإنسانية: مالايشي، أتري، انجيراس، بولاسيتا، بولاها، تراتو، فاسيشطا، براتشيتاس (أو دكشا)، بريغو، نارادا. وبعضهم يجعلهم سبعة بينما في المهابهاراتا عددهم واحد وعشرون.

براهما:

الإله الخالق ولد من البويضة الكونية الأولى. يستغرق خلقه يوماً واحداً ويعرف باسمه ويدوم 2160 مليون سنة، يتحلل بعدها ويبعث من جديد. ويوصف بأنه أحمر البشرة ويحمل خمسة رؤوس (غالباً ما يصور بأربعة، بعدما أحرق شيفا الرأس الخامس انتقاماً لإهانته له)، كما يصور بأربعة أذرع يحمل بها سيفاً وملعقة وسبحة (أو قوساً) وأسفار الفيدا. زوجه إلهة المعرفة سارسفاتي، ووسيلته في التنقل البجعة ويعرف بعدة ألقاب ذو الوجوه الأربعة (تسامورخا)، وراكب البجعة (همسافهانا)، ورب المخلوقات (براجباتي)، والشاعر الأول (أدي-كافي)، وهذا لقب فالميكي أيضاً.

براهمن:

الروح الكونية، المنزهة عن الصفات، العقل المطلق.

براهمي:

أحد رجال الدين الهندوسي. وقد رسم المشرع مانو حياة البراهمي في أربع مراحل:

1- التنسك (براهما تشاريا)، وملازمة أحد المرشدين (غورو) تستمر 12سنة.

2- الواجب العائلي (غريهاستيا)، أن يتزوج ويتولى الطقوس الدينية.

3- الاعتكاف في الغابة (فانا براستا) يلجأ إلى الغابة ويهجر الحواضر، للانقطاع إلى رياضة

النفس، واكتساب المهارات. وذلك حينما يبلغ الخمسين من عمره أو يشيب شعره.

4- الزهد (سانياسا) آخر المراحل في حياة رجل الدين، حيث يتحرر من الالتزامات والواجبات، ومن جميع الرغبات الجسدية، وينصرف كلياً إلى العبادة ويتسول طعامه، بهدف الوصول إلى الانعتاق والتحرر من أسر الجسد (موكشا).

بنتشفاتي:

غابة تقع على ضفة نهر غودفاري حيث أمضى راما معظم سنوات حياة المنفى. وسميت ناسيك (الأنف) لأن لكشمانا جدع انف شربناخا أخت رافانا في تلك الغابة.

بهادرا كالي:

إلهة الزمن وأحد أسماء الإلهة كالي (السوداء) زوج شيفا. ذات بشرة سوداء، وقبيحة الوجه وملامحها رهيبة، ومغطاة بالدماء، وتلتف حولها الأفاعي، وتتدلى منها الجماجم ورؤوس البشر.

بهاراتا:

ابن الملك دشاراتا من زوجه كايكيه التي طلبت من الملك أن ينفي راما ويعين ابنها ولياً للعهد بدلاً منه. وبعد موت الملك دشاراتا طلب بهاراتا من أخيه راما العودة ليتولى الحكم لكنه رفض أن يعود قبل أن تنتهي فترة النفي. فقام بتسيير شؤون المملكة حتى عودة أخيه مدة أربعة عشر عاماً.

بهرادفاجا:

زاهد كان يعيش بالقرب من مدينة آيوديا. واستضاف راما وسيتا في معتكفه. وهو ابن بريهاسباتي مرشد الآلهة، ووالد درونا مدرب أبطال ملحمة المهابهاراتا.

بورانا:

(تواريخ الأولين)، مجموعة من الأساطير والقصص والحكايات تروي حياة ومآثر

الشخصيات المقدسة عند الهندوس. وتتألف كل بورانا (تاريخ) من خمسة اقسام:

1- خلق العالم، 2- فناء العالم وإعادة خلقه، 3- سلالات الآلهة وأبناء براهما، 4- قصة حياة الأولين وعهودهم، 5- تاريخ السلالات المالكة الشمسية والقمرية.

ويبلغ تعدادها ثمانية عشر بورانا تتفرع عنها ثمانية عشر بورانا فرعية، أو "أوبابورانا".

بوشباكا:

العربة الطائرة التي أهداها براهما إلى كوفيرا إله الثروة والأخ الأكبر لرافانا. استولى عليها رافانا بعد أن هزم كوفيرا. وانتقلت إلى راما بعد انتصاره على رافانا، فعاد مع سيتا وبصحبته جنوده وضيوفه إلى آيوديا على متنها، ثم أعادها إلى كوفيرا الذي سمح له أن يستخدمها متى يشاء.

- ت -

تاباسيا:

رياضة النفس أو مجاهدة النفس، والتطهر من الأدران والآثام عن طريق ضبط النفس وترويضها، وأخذها بالشدة والتقشف، والتكفير عن الآثام، والسيطرة البدنية والذهنية لبلوغ غاية أو هدف روحي.

تاتاكا:

من العفاريت ابنة سوندا وام ماريخا. استولت على الغابة الواقعة بجانب نهر السرايو وروعت سكانها. فقتلها راما ولكشمانا وفقاً لإرشادات فيشفاميترا.

تارا:

زوج ملك القردة فالي ووالدة أنغادا، اصبحت بعد مقتل فالي زوجاً لسوغريفا.

تريباتاغا:

من أسماء نهر الغانج ويعني الذي يسلك طرقاً ثلاثة.

تريجاتا:

إحدى نساء الراكشا، كانت تحرس سيتا في بستان الأشوكا في لانكا ودافعت عنها وحمتها من إيذاء الحارسات الأخريات.

تريكوتا:

جبل له ثلاث قمم بنيت لانكا على قمته الوسطى.

تشيترا:

الشهر الأول في التقويم القمري ويطابق برج الحمل من 15آذار/مارس إلى 14 نيسان/أبريل.

تماسا:

نهر يجري غرب السرايو ويصب في الغانج. وهو النهر الذي كان فالميكي يعيش في صومعة بقربه عندما وضع الرامايانا.

-ج-

جامباڤان:

ملك الدببة، حكيم عجوز، وزير الملك سوغريفا، شارك في معركة لانكا.

جاهنافي:

اسم من أسماء الغانج، نسبة إلى الناسك جاهنو.

جاهنو:

ناسك قام بابتلاع نهر الغانج ثم أخرجه من أذنه.

جايا:

الإلهة التي تبتكر الأسلحة وتقدمها لأتباعها المخلصين. وهي حفيدة براهما من ولده داكشا.

جتايو:

ابن الغارودا، وهو زعيم النسور وكان حارساً لسيتا وقتله رافانا لمحاولته إنقاذها.

جناكا:

ملك فيديا ووالد سيتا ومن أسمائه شيرادفاجا (من رايته المحراث) لأن سيتا ولدت من الأرض المحروثة. وينتمي إلى سلالة القمر.

جناكي:

اسم لسيتا ويعني ابنة جناكا.

جندارفا:

مغنون وراقصون سماويون يعرفون بالتهتك والإقبال على شرب السوما واللهو مع الأبسارا. ويقيمون في مدينة فيشامبانا السماوية. ولهم تأثير خاص على النساء.

جوتاما:

زوج أهاليا الذي لعن إندرا لإغوائه زوجه.

- د -

دارما:

(دري: الثابت، الوطيد) والدارما هي الشرعة التي تنظم السلوك والقانون الأخلاقي.

وللدارما مستويات عديدة منها الدارما الكونية التي تربط أجزاء الكون ببعضها البعض، ويمكن أن تكون الدارما شخصية وسياسية واجتماعية. وتتجلى الدارما في الثبات والاستقامة والاستقرار والعدل ونقاء السريرة والغيرية والقيام بالواجب. وبراهما هو مصدر الدارما، كما انه والد أدارما (نقيض الدارما) الضلال والشر والظلم والرذيلة.

داكشا:

ابن براهما ورئيس البراجباتي. وإحدى الروايات تقول إنه أديتي.

دشاراتا:

(العربات العشر) والد راما، ملك آيوديا، ابن آجا من سلالة الايكشفاكو.

دشاغريفا:

(ذو الأعناق العشر) من أسماء رافانا ملك لانكا.

دنداكا:

غابة واسعة جنوب غرب الهند بين نهري غودافاري ونارمادا، وجنوب نهر اليامونا. يسكنها النساك وترودها العفاريت. وجال فيها راما وسيتا ولكشمانا في أثناء سنوات النفي في الغابة.

دورفاس:

ناسك ذائع الصيت يوصف بسرعة الغضب وشراسة الطبع.

دوشانا:

أحد أخوة رافانا وكان قائد جيش كارا. وقتله راما.

ديتي:

ابنة داكشا، أحد أبناء براهما وزوج الحكيم كاشيابا وأم العفاريت المردة (الدايتيا).

ديفاتارا:

أحد أسلاف الملك جناكا. وورث عنه قوس شيفا العظيم، الذي حطمه راما فيما بعد. وفاز بسيتا بتحقيقه هذه المعجزة.

ديفي:

الإلهة أو مهاديفي الإلهة العظيمة زوج الإله شيفا، وابنة هيمفات الهيمالايا. توصف بازدواج الصفات: الرقة والجمال من ناحية، والشراسة والقسوة من ناحية أخرى. وتظهر في حالة الرقة في شكل أوما (النور) وبارفاتي (الجبلية) وغاوري (الصفراء) وجاغاتماتا (أم العالم)، أما في ثورتها فهي دورغا (العصية) وكالي وشياما (السوداء) وتشاندي وتشانديكا (ذات البأس) وبهيرافي (الرهيبة).

ديفي:

لقب يستخدم في الهند ويلي الاسم الأول للمرأة المتزوجة.

-ر-

راجاسويا:

(قربان الملك) قربان عظيم يقام عند تنصيب أحد الملوك وهو ديني في طبيعته، إلا أن له من الناحية العملية مغزى سياسياً، إذ أنه يعني أن صاحبه يريد فرض إرادته على الممالك المجاورة ليصبح ملك الملوك مما قد يؤدي إلى قيام حروب ومعارك كثيرة.

راغافان:

من أسماء راما نسبة إلى جده راغو.

راغو:

أحد أسلاف راما، وإليه ينسب آل راغو.

رافانا:

ملك الراكشا الذي أصبح ملكاً على لانكا بعد أن طرد أخاه كوفيرا إله الثروة. وهو ابن فيسرافاس وأمه نيكوشا ابنة الراكشا سومالي. واستطاع رافانا عن طريق رياضة النفس وانقطاعه لعبادة براهما أن يكتسب القوة والمنعة ويصبح حصيناً منيعاً على الآلهة. إلا أنه كان مقدراً عليه أن يموت بسبب امرأة. وله عشرة رؤوس فسمي (داشانا وداشاكانثا) وله عشرون ذراعاً وعيناه نحاسيتان وأسنانه ناصعة البياض. وعرف بالشر والعسف مما أغضب الآلهة. وكان شديد الغرور والتيه لا يخشى أي كائن من الكائنات. وقد نزل فيشنو من السماء بهيئة راما ليقضي عليه.

راكشا أو راكشاسا:

أرواح شريرة إلا أنهم ليسوا جميعاً أشراراً بالقدر نفسه إذ يختلفون عن بعضهم البعض درجات. وقد خلقهم براهما ليحرسوا الماء عند بدء الخليقة، واسمهم مستمد من راكش (يحمي). وبإمكانهم تغيير هيئتهم حسب مشيئتهم. ويعتقد أن هذا الاسم أطلق على بعض القبائل الدرافيدية من ذوي البشرة الداكنة الذين يسكنون جنوب الهند. وأخضعهم الآريون حكام الشمال.

راما (راما تشاندرا):

راما وجه القمر، الابن البكر للملك دشاراتا، وهو ملك من سلالة الشمس التي تحكم آيوديا. وراما هو التجلي السابع للإله فيشنو، وظهر في نهاية العصر الثاني التريتايوغا.

رامبها:

من الأبسارا وتعتبر المثل الأعلى للجمال الأنثوي في الهند. وكان إندرا قد أمرها أن تعمل على إغواء فيشفاميترا، فلعنها وتحولت إلى حجر لمدة ألف عام. ولجمالها الخارق افتتن بها رافانا حين رآها على جبل كيلاسا، فاغتصبها رغم ممانعتها وإعلامه بأنها زوج نالا-كوفيرا ابن أخيه الأكبر كوفيرا.

راهو:

من المردة الشياطين الدايتيا، كان له أربعة أذرع وينتهي طرفه السفلي بذيل. وعندما قامت الآلهة بصنع شراب الخلود (أمريتا) تنكر واندس بينهم وشرب بعضاً منه. لكن الشمس والقمر أعلما فيشنو بأمره فقطع رأسه وأذرعه. ولما كان قد كفل لنفسه الخلود بشربه الأمريتا، فقد وضع جسده في فلك النجوم، وكان أن قسمه فيشنو إلى قسمين الأول أصبح راهو رأس التنين والسفلي أصبح كيتو ذيل التنين. وكان يميل إلى الأذى فإذا ما غضب صب جام غضبه على الشمس والقمر، وحين يقوم بابتلاعهما يتسبب بالكسوف والخسوف.

ريشي:

قديس هندوسي أو شاعر ملهم. ومهاريشي يعني قديس أو حكيم عظيم.

ريشياموك:

جبل التجأ إليه ملك القردة سوغريفا هرباً من أخيه فالي، وهناك التقاه راما وعقدا التحالف والصداقة بينهما فوق هذا الجبل.

- س -

سارسفاتي:

تعني (سائل، نهر) وهي إلهة المعرفة والخطابة وزوج الإله براهما. وإلهة النهر، وينسب إليها نهر كبير في شمال الهند. وهي أصل اللغة السنسكريتية. وترتدي لباساً أبيض وتجلس على زهرة اللوتس، وتصور بذراعين وأحياناً بثمانية. وتحمل قيثارة الفينا وكتاباً وسبحة ومهماز فيل وقوساً في بعض الأحيان وصولجاناً ورمحاً وقرصاً ومحارة وجرساً ومحراثاً.

ساغرا:

ملك آيوديا من سلالة الشمس، تزوج بسوماتي بنة كاشيابا، وكيشيني. وكانتا لا

تنجبان فكرمهما الريشي أورفا بمنة الإنجاب فولدت كيشيني ولداً واحداً أما سوماتي فانجبت ستين ألفاً. وأمر أبناءه أن يحفروا قناة إلى باتالا لاستعادة حصان قربان الأشفاميدا، ولما كان ساغرا يعني البحر العظيم فإنه يستخدم أحياناً للإشارة إلى نهر الغانج.

ساروما:

زوج فيبيشانا. وكانت تعتني بسيتا في أثناء وجودها في لانكا.

سرايو:

نهر تقوم على ضفته مدينة آيوديا واسمه الحالي نهر غورغا في ولاية اوتابراديش.

سمباتي:

نسر هو ابن الغارودا والأخ الأصغر لجتايو الذي قتله رافانا. وقد أرشد هانومن إلى مكان سيتا في بستان الآشوكا في لانكا.

سمباتي:

أحد قادة القردة الذي اشتركوا في القتال في لانكا.

سوراسا:

أم الناغا أو أفاعي البحار، ابتلعت هانومن في طريقه إلى لانكا لكنه احتال عليها بأن قلص حجمه وخرج من أذنها.

سوشينا:

أحد زعماء القردة. ووالد الملكة تارا، والطبيب الحاذق في جيش راما في حربه في لانكا.

سوغريفا:

تعني (العنق الجميل) ملك القردة الذي ساعد راما على استعادة سيتا. وحارب مع قواته في لانكا.

سوما:

شراب يشبه الحليب يستخلص من نبات متعرش، ويتناولونه بعد التخمير في الطقوس الهندوسية. كما أنه اسم القمر كذلك.

سومانترا:

كبير الوزراء وسائس عربة الملك دشاراتا.

سوميترا:

زوج الملك دشاراتا الثانية وأم لكشمانا وشاتروغنا.

سيتا:

تعني (الأخدود) وهي إلهة الخصب والزراعة في كتب الحكمة، الفيدا. وفي الرامايانا هي ابنة جناكا وزوج راما. وقد خرجت من الأرض حين كان جناكا يحرثها. ولها أسماء عديدة منها جناكي والفيديهية والميثيلية وإنديرا. وتعتبر إحدى تجليات الإلهة لكشمي حين اتخذت هيئة البشر.

- ش -

شابري:

متنسكة عجوز من الطبقات الدنيا، كان راما قد زارها، فاكتسبت بذلك التكريم بين الناس.

شاتريا:

الطبقة الثانية في المجتمع الهندوسي. وتضم المحاربين والحكام والأمراء والملوك.

شاتروغنا:

ابن الملك دشاراتا من زوجه سوميترا وتوأم لكشمانا.

شاتروغنا:

فيل راما .

شتانانغا:

ابن جوتاما وأهاليا . وهو كاهن عائلة الملك جناكا .

شربناخا:

أخت رافانا التي أحبت راما وأرادت وصاله لكنه صدها، وقام لكشمانا بجدع أنفها وقطع أذنيها، فحرضت أخاها على اختطاف سيتا، وكان ذلك سبب الحرب التي انتهت بمصرع رافانا وخراب لانكا .

شري:

1- زوج الإله فيشنو وإلهة الحظ السعيد .

2- لقب يعادل كلمة السيد ويتضمن معنى القداسة .

شودرا:

الطبقة الرابعة والأخيرة في المجتمع الهندوسي . كما أنها تعتبر أدنى الطبقات، ويقوم أفرادها بخدمة الطبقات الثلاث الأعلى (البراهمة والشاتريا والفيشيا) . وتتألف من العمال والفلاحين .

شيفا:

الإله المدمر أو المبيد في الثالوث الهندوسي، الذي يتالف من براهما الخالق وفيشنو الحافظ وشيفا المدمر . كما يعرف بأسماء أخرى: أغورا (الرهيب)، تشاندرا راشخرا (القمر المتلألئ)، ماهيشا (الإله الكبير)، ترايمباكا (إله الزمن)، كابلا مالين (صاحب طوق الجماجم).

غارودا:

ملك الطيور الأسطوري له جسد ورأس إنسان ومنقار ومخالب عقاب أبيض الوجه وأحمر الجناحين، وهو ابن الريشي كاشيابا من زوجه فيناتا، وكانت أمه قد وضعت بيضة ضخمة خرج منها غارودا بعد خمسمئة سنة. وله ولدان هما جتايو وسمباتي.

غانج:

(يلفظ غانجا، مؤنث) نهر مقدس في الهند، في الأسطورة أنه نبع من إصبع قدم فيشنو. وكان من أنهار الفردوس، وجلبه باجيراتا إلى الأرض مما أغضب الغانج. ولكي ينقذ شيفا الأرض من صدمة سقوطه عمد إلى رفعه على حاجبيه وأوقف جريانه بشعره المجدول، ولذلك عرف شيفا باسم غانجادهارا (رافع نهر الغانج) وينزل الغانج في سبعة فروع. ولقد أثار الغانج غضب الناسك جاهنو فشرب ماءه ثم سمح له أن يخرج من أذنه. وبذلك اكتسب الغانج اسم جاهنافي. والهندوس يعتبرون الغانج من الآلهة فهو الإلهة غانجا الابنة البكر لهيمفات جبل الهيمالايا، وأخت أوما زوج شيفا.

غودفاري:

نهر بالقرب من غابة دنداكا، ويدعى كذلك باسم غودا (واهب البقر) لأن الزاهد جوتاما اعتاد أن يستخدم ماءه ليحيي البقر الميت. ويعتقد الهنود أن ماءه يشفي من الجذام.

غوها:

ملك قبيلة النيشادا التي تعيش بالقرب من مملكة كوسالا. وهو صديق لراما. وساعد راما وسيتا ولكشمانا في عبور الغانج في أثناء نفيهم في الغابة.

فارناسي:

مدينة بنارس اليوم أعظم المدن المقدسة عند الهندوس، وكانت تعرف قديماً باسم كاشي.

فارونا:

أقدم الآلهة الفيدية، خالق السماء والأرض، وإله الماء في الميثولوجيا الهندوسية المتأخرة.

فاسو:

الآلهة التي تمثل الظواهر الطبيعية وهي آبا (الماء)، روفا (نجم القطب)، سوما (القمر)، دارا (الأرض)، أنيلا (الرمح)، أنالا (النار)، برابهاسا (الفجر)، بهاراتيوشا (النور).

فاسيشطا:

كاهن عائلة الملك دشاراتا ومستشاره، وهو أحد الحكماء السبعة العظام (المهاريشي) وأحد البراجباتي العشرة، والأخ غير الشقيق لأغاستيا.

فاشات:

كلمة مقدسة وترتبط بالقوة.

فالي:

ملك القردة الذي قتله راما ونصب سوغريفا بدلاً منه.

فالميكي:

ناسك حكيم وشاعر مؤلف الرامايانا، استضاف سيتا في معتكفه في تشيتراكوتا وهناك أنجبت ولديها كوشا ولافا، فأشرف على تعليمهما ورعايتهما.

فايو:

إله الريح ويوصف عادة برجل ذو بنية قوية وطبع لطيف، يركب غزالاً ويحمل قوساً وسهاماً. وهو صديق الإله إندرا وله عربة ذهبية يجرها الف حصان. وفي الرامايانا هو والد القرد هانومن.

فيبيشانا:

(المخيف) الأخ الأصغر لرافانا، وكان براهما قد منحه الخلود لفضائله ومقدرته على ضبط النفس حتى في أسوأ الظروف. انحاز إلى راما في حربه مع رافانا لأنه كان يعتقد أن الحق إلى جانب راما. ونصبه راما ملكاً على لانكا بعد هزيمة رافانا.

فيدا:

أسفار الحكمة، أقدم الكتب المقدسة عند الهندوس وتتالف من أربع مجموعات من الأناشيد والترانيم. وتقول الأسطورة أن براهما نقلها شفاهة إلى بعض النساك. وينسب جمعها إلى الحكيم فياسا، الأسطوري، صاحب ملحمة المهابهاراتا. وهذه المجموعات هي (ريغ، ياجور، ساما، أتارفا) وكل فيدا (مجموعة) تتالف من قسمين مانترا (شعر) وبراهمانا (نثر). ولكن ياجور فيدا تضم قسماً يدعى الياجور الأسود وهو مجموعة من الأدعية واللعنات السرانية مجهولة الأصل.

فيديا:

المملكة التي يحكمها الملك جناكا وعاصمتها ميثيلا.

فيدياجيفا:

ساحر من الراكشا استخدمه رافانا ليشكل صورة وهمية لرأس راما المقطوع ليفقد سيتا الأمل بأن ينقذها راما.

فيسرافاس:

ابن بولاستيا ووالد كوفيرا ورافانا وكومبكارنا وفيبيشانا وشربناخا. . .

فيشفاكارما:

مهندس العالم والآلهة. ورد وصفه في قصيدتين في الريغ - فيدا على أنه يمتلك عيناً ووجهاً وذراعاً وقدماً في كل جهة، ويهب الآلهة أسماءهم ويصنع لهم أسلحتهم. وقد بنى مدينة لانكا لكوفيرا. وهو والد نالا الذي بنى الجسر لتعبر عليه قوات راما إلى لانكا.

فيشفاميترا:

معلم راما ولكشمانا، كان في شبابه من طبقة المحاربين (الشاتريا) إلا أنه استطاع ان يرتفع إلى مرتبة النساك البراهمة.

فيشنو:

(الحافظ) أحد الثالوث المقدس عند الهندوس وله ألف اسم أشهرها أنانتسياتا (النائم على الأفعى اللا متناهية) ونارايانا (مجرى الماء). ويصور عادة بصورة شاب له أربعة أذرع ويحمل محارة وقرصاً وقوساً وزهرة لوتس وهراوة، ولونه أزرق داكن. وفي بعض الأحيان يصور جالساً وبجانبه زوجه لكشمي (إلهة الحظ)، أو نائماً على الأفعى اللامتناهية. وله عربة يجرها غارودا.

فيشيا:

المرتبة الثالثة في المجتمع الهندوسي وتضم الباعة والتجار.

فينا:

قيثارة هندية من خشب البامبو لها أربعة أوتار ومرنان في كل طرف ولوحة مفاتيح طويلة وبعض أجزائها متحرك.

- ك -

كارما:

عقيدة الهندوس في الولادة والتقمص، وتعتمد على مبدأ السبب والنتيجة؛ فأعمال الإنسان هي التي تحكم مصيره. فإذا التزم بالواجب تحرر من دورة الحياة والموت وبلغ الموكشا. أما إذا ارتكب الشر انتقلت روحه إلى جسد آخر لتكرر دورة الحياة والموت وهكذا دواليك.

كافيا:

(قصيدة) غالباً ما تكون طويلة منها ملحمتا الرامايانا والمهابهاراتا.

كالا:

(الأسود) أحد ألقاب إله الموت ياما. وقد ورد في سفر أثارفا فيدا أنه (انتزع العوالم وعانقها فهو الأب والابن ولا غالب له). ويعرف بهذا الاسم أيضاً شيفا زوج الإلهة كالي السوداء.

كالي:

(السوداء) هي إلهة الزمن في أسفار الفيدا، وتسمى كذلك السوداء أو ذات اللسان الرهيب بين الألسنة السبعة التي تطلق اللهب لتذيب قرابين الزبدة وتلعقها. أما في الأساطير المتأخرة فهي زوج شيفا التي تبارك عبادها الذين يدركون الحقيقة وسر الزمن.

كالي يوغا:

(عصر كالي) الحقبة السوداء أو عصر الظلام، وهو زمن الكوارث والعصر الرابع من حياة البشر وهو العصر الحالي الذي نعيشه وابرز ما يميزه الانحلال والمعاصي والآثام.

كاما:

إله الحب والشهوة والمتعة، يعرف أيضاً باسم كاماديفا (إله الحب) زوجه راتي (إلهة الرغبة) تصوره الأسطورة حاملاً قوساً من قصب السكر وتره من النحل، أما السهام فطرفها من الزهور، وممتطياً ببغاء وحاملاً رايته الحمراء، وعلامته السمكة.

كاوساليا:

زوج الملك دشاراتا الأولى ووالدة راما.

كايكيه:

زوج الملك دشاراتا الأثيرة وأم بهاراتا. وهي التي طلبت من دشاراتا نفي راما إلى الغابة مدة أربعة عشر عاماً.

كوسالا:

مملكة الملك دشاراتا والد راما. وتقسم إلى شمالية وجنوبية يفصل بينهما نهر السرايو.

كوشا:

1- ابن راما وسيتا وبعد موت والده أصبح ملك كوسالا الشمالية.

2- عشبة ذات أوراق إبرية تستخدم في الطقوس الدينية الهندوسية. وتعرف كذلك باسم داربا.

كوشادفاجا:

أخو الملك جناكا. زوّج ابنته ماندافي لبهاراتا وشروتاكيري لشاتروغنا ولدا دشاراتا.

كوفيرا:

إله الثروة، الأخ الأكبر غير الشقيق لرافانا ومقره جبل كيلاسا المقدس. وكان ملك لانكا لكن رافانا استولى عليها. ويصور على أنه أبيض اللون وله ثمانية أسنان وثلاثة أرجل

وجسد مشوه وغالباً ما يركب على ظهر رجل.

كومبكارنا:

المارد العملاق والأخ الأصغر لرافانا وقتل في لانكا. وتقول الأسطورة أنه ينام ستة أشهر ويستيقظ يوماً واحداً ثم ينام ستة أشهر أخرى وهكذا.

كيشكيندا:

عاصمة مملكة القردة.

كيلاسا:

أهم جبل في الميثولوجيا الهندوسية، ويقع إلى الشرق من جبل ميرو الأسطوري. لكنه، جغرافياً يقع في إقليم التيبت الآن. وهذا الجبل مقدس لدى أتباع الإله شيفا، ويحج إليه الهندوس. وتذهب الأساطير إلى أنه مقر كوفيرا إله الثروة.

كينارا:

أتباع كوفيرا لهم رأس حصان وجسد طائر. وتقول الأسطورة أنهم ولدوا من إصبع براهما. مهمتهم الغناء وعزف الموسيقا في مقر كوفيرا ويسكنون جبال الهيمالايا.

- ل -

لافا:

ابن راما وسيتا والشقيق التوأم لكوشا. وحكم مملكة كوسالا الجنوبية بعد موت أبيه راما.

لافانا:

من عفاريت الراكشا قضى عليه شاتروغنا في أثناء حكم راما لآيوديا.

لكشمانا:

ابن الملك دشاراتا من زوجه سوميترا وتوأم شاتروغنا. رافق راما في منفاه ومعاركه لاسترداد سيتا. وزوجه أورميلا أخت سيتا.

لكشمي أو شري:

إلهة الحظ زوج فيشنو وأم كاما إله الحب. تقول الأسطورة أنها خرجت من البحر وبيدها زهرة لوتس. وتوصف بالجمال الخارق ولها اربعة أذرع، إلا أنها غالباً ما تصور بذراعين فقط. وسيتا من تجلياتها عندما تجلى فيشنو براما من آل راغو.

-م-

مادهافي:

إلهة الأرض وفي الرامايانا هي أم سيتا. ومن أسمائها الأخرى داهراتي.

ماروتا:

من أسماء إله الريح فايو والد هانومن.

ماريخا:

ابن تاتاكا اتخذ هيئة غزال واستدرج راما ليمكن رافانا من اختطاف سيتا، وقتله راما.

مانترا:

مجموعة من التراتيل والترانيم الفيدية. وهي كلمات وجمل موزونة لها قدرات سحرية.

ماندالا:

رمز هندوسي سراني للكون ويصور الكون في شكل مربع تحيط به دائرة، وكثيراً ما تحمل صوراً مرتبة بشكل متساوٍ تمثل الآلهة. ويستخدمها الهندوس والبوذيون كوسيلة للتأمل.

ماندوداري:

زوج رافانا وأم إندراجيت وابنة العفريت مايا.

مانو:

الإنسان الأول، من طبقة المحاربين، تلقى الحقيقة القدسية من أبيه فيفا سفاتا. وهو السابع في سلسلة الرجال الأسطوريين، وهم أربعة عشر مانو، ويظهرون في الأزمات الكبرى. وتذكر الأسطورة أن فيشنو أنقذه من الطوفان الكبير الذي اجتاح العالم.

ماهودايا:

حكيم نزل إلى إحدى أدنى الطبقات بسبب لعنة فيشاميترا. وهو يقطن الجبل الذي تنمو فيه الأعشاب المقدسة التي عاد لكشمانا بوساطتها إلى الحياة.

مايا:

إلهة الوهم، التي تضفي على الأوهام لمسة واقعية وتقدمها للبشر.

مهاتما:

(الروح العظيم) يطلق على من يتميز بعقله الراجح وحكمته وغيريته. (المهاتما غاندي مثلاً).

مهاديفا:

(الإله العظيم) من أسماء الإله شيفا.

مهاراجا:

ملك الملوك.

مهاريشي:

(مـهـا: عـظيم – ريشي: حكـيم) لقب يطلق على الرجل الصالح أو القديس الذي بلغ أعلى درجات المعرفة والحكمة.

مهاندرا:

من أسماء الإله إندرا ويعني إندرا العظيم.

موني:

حكيم اختار الصمت فلا يحادث أحداً.

- ن -

نارادا:

أحد الحكماء السبعة العظماء. وزعيم الجندارفا ومخترع الفينا. وبراهمي يصعب إرضاؤه اشتهر بالأسئلة التي يصعب الإجابة عنها والألغاز التي يطرحها على البشر والآلهة.

ناراكا:

الجحيم عند الهندوس. وقد ذكر مانو واحداً وعشرين جحيماً، يقضي فيها الكافرون والمذنبون ردحاً من الزمن عقاباً لهم على ما اقترفوه من الآثام والذنوب.

ناغا:

(أفعى الكوبرا) مخلوقات اسطورية لا تتمتع بقدسية كاملة، لها وجه إنسان وذيل أفعى ويقال إن عددها يبلغ الألف، وإنها ولدت من كادرو زوج كاشيابا. ومهمتها ان تسكن باتالا العالم السفلي تحت الأرض لتجعله ماهولاً.

نالا:

بطل من القردة وابن فيشفاكارما بنى الجسر الواصل إلى لانكا.

ناندي:

ثور شيفا شديد البياض يظهر دائماً في معابد الإله شيفا وهو حاجبه، وكبير خدمه.

نانديغراما:

المدينة التي اتخذها بهاراتا مقراً له في أثناء توليه الحكم في غياب أخيه راما الذي كان منفياً.

نيشادا:

قبيلة جبلية تقطن جبال فينديا وتعيش على الصيد وملكها غوها.

نيلا:

(ذو البشرة الزرقاء) من قواد جيش القردة في معركة لانكا.

- هـ -

هانومن:

القرد المقدس في الرامايانا، ابن إله الريح فايو من الأبسارا أنجانا، يتمتع بالقدرة على الطيران ويمتاز بالقوة الخارقة ووهبه راما نعمة الشباب الدائم.

هيرانيا - غاربا:

(الرحم الذهبي) تصف أسفار الريغ فيدا "البيضة الكونية بمبدأ الخليقة، خلقها الإله الواحد، مالك الأرض والسماء، واهب الحياة والنفس". وهي عند مانو براهما. نشأ عن العلة الأولى في بيضة ذهبية متالقة كالشمس ثم شطرها فكانت القشرة الأولى الأرض، والثانية السماء، وفي الوسط الفضاء، والمناطق الثمانية، وأرض الماء الأبدية.

هيمالايا:

سلسلة الجبال التي تشكل الحدود الشمالية للهند. وهيمفات تجسيد لها.

هيمفات :

تجسيد جبال الهيمالايا وله ابنتان من زوجه ميناكا هما غانجا (نهر الغانج) وأوما زوج شيفا .

- ي -

ياجنا :

(القربان) طقس ديني .

ياكشا :

مخلوقات خارقة من أتباع الإله كوفيرا يسكنون السماء .

ياما :

إله الموت والده الشمس (فيسفاتا) وأمه الغيمة (سارانيا بنة فيشفاكارما) وهو شقيق مانو (المشرع) . أما شقيقته فهي يامي التي أحبته كثيراً ولشدة محبتها له، خلقت الآلهة الليل (ياميني) عندما مات ياما لمواساتها . ويصور في شكل مخلوق قبيح جداً له بشرة خضراء . ويرتدي ثياباً حمراء بلون الدم، ويحمل حبلاً وعصاً وفأساً وسيفاً وخنجراً ويركب ثوراً .

يامونا :

نهر مقدس من فروع الغانج تجسيده ابنة الشمس ويعرف أيضاً بكاليندي .

يوجنا :

وحدة قياس للمسافة تعادل تسعة أميال تقريباً .

يوغا :

إحدى مدارس الفلسفة الهندوسية الست الرئيسة . وهي رياضة بدنية ونفسية .

يوغا:

زمن العالم منذ الخلق، يقسم إلى أربع حقب يفصل بينهما فترة تسمى الأفول، وأخرى الفجر الكاذب. وتقاس الحقبة بعمر الآلهة وهذه الحقب أو العصور هي: كريتا يوغا العصر الأول زمنه أربعة آلاف سنة، الثاني تريتايوغا ثلاثة آلاف سنة، والثالث دفابارايوغا ألفا سنة، وكالي يوغا وهو عصرنا الحالي وزمنه ألف سنة. وهذه السنوات إلهية تعادل السنة فيه 360 سنة في حساب البشر. وكل حقبة تتسم بسمات خاصة:

ففي الكريتا يوغا (العصر الذهبي) يكون الطابع السائد الصدق والاستقامة وغياب الضغائن والقسوة.

وفي التريتايوغا (العصر الثاني) تتراجع الاستقامة بنسبة الربع ويرتبط الدين بالطقوس، وتصبح الغايات النفعية سائدة بين الناس، ويتوخون المنفعة من تقديم القرابين. ويعرضون عن رياضة النفس والقيام بالواجب.

وفي الدفابارايوغا (العصر الثالث) تنحسر الاستقامة بنسبة النصف. وتنقسم أسفار الحكمة إلى أربعة. وتتفشى الأمراض والشهوات والمصائب.

أما في الكالي يوغا (العصر الأسود) تتفشى المعاصي والمصائب والأمراض والانحلال والجوع والخوف.

ثبت المراجع

الرامايانا

النص الكامل (مترجماً إلى الإنكليزية) :

The Ramayana, (with Sanskrit text and English translation), 3 vols., Gorakhpur (India), 1992.
H. P. Shastri, The Ramayana, 3 vols., London, 1952.

روايات مكثفة (بالإنكليزية) :

R. C. Dutt, The Ramayana and the Mahabharata, (verse), London, 1969.
L. Lal, The Ramayana, Bombay, 1988.
P. Lal, The Ramayana, New Delhi, 1989.
S. Mazumdar, The Ramayana, 2 vols., Bombay, 1953.
R. K. Narayan, The Ramayana, New Delhi, 1987.
C. Rajagopalachari, The Ramayana, Bombay, 1958.

K. subramaniam, The ramayana, Bombay, 1988.

أعمال أخرى

بالعربية :

الفردوسي، الشاهنامة، ترجمة الفتح بن علي البنداري، تحقيق د.عبد الوهاب عزام، القاهرة، 1993.

همايون كبير، التراث الهندي، نيو دلهي، 1955.

عبد الإله الملاّح، المهابهاراتا: ملحمة الهند الكبرى، دمشق، 1991.

هيجل ، محاضرات في فلسفة التاريخ، الجزء الثاني، العالم المشرقي، ترجمة د. عبد الفتاح إمام، القاهرة، 1986 .

بالإنكليزية:

A. Barth, The Religions of India, New Delhi, 1990.
H. Bhattacharyya, The Cultural Heritage of India, 5 vols., Calcutta, 1956.
M. Bhoothalingan, Voyage Through the Ramayana, Bombay, 1980.
A. C. Bose, The Call of the Vedas, Bombay, 1980.
A. C. Bouquet, Hinduism, London, 1948.
K. Chandrasekharan and V. H. Subramania Sastri, Sanskrit Literature, Bombay, 1951.
J. Dowson, A Classical Dictionary of Hindu Mythology and Religion, New Delhi, 1987.
H. Manning, Leading Ideas in Hinduism, Calcutta, 1952.
Sister Nivendita and A. K. Coomaraswamy, Hindus and Budhists, London, 1985.
H. D. Sankalia, The Ramayana in Historical Perspective, Delhi, 1982.
R. R. Sellman, An Outline Atlas of Eastern History, London, 1954.
Encyclopaedia Britannica.

Encyclopaedia of Religion and Ethics.

المجلات:

ثقافة الهند، نيودلهي، م37، ع 1-2(1986) ؛ م41، ع1، 3 (1990) ؛ م42، ع 1(1991).

عالم الفكر، الكويت، م16، ع 1(1985).

هذا الكتاب

إبداع ملحمي مثقلٌ بالأساطير التي شربتها نفوس أهلها ورسمته طريقاً في نظرتهم إلى الحياة، وفي عواطفهم وسلوكهم الاجتماعي، وعقائدهم وطقوسهم وأساليب عيشهم حتى تنتهي بهم الحياة على نحو ما ترضاه لهم «الهند» فكراً ومعتقداً وسبيل حياة، ولو في حدود الأسطورة.

لقد عبَّرت «الرامايانا» عن القيم الروحية والثقافية لبلد العجائب فكانت أشدَّ نفوذاً من رديفتها «المهابهاراتا» وأبعد أثراً، بوصفها المعيار المقسط في إدراك أسرار الحياة والموت أيضاً، ثم إنَّ «راما» مثال الزوج الهندي، و«سيتا» مثال الزوجة الهندية، والمثال المنشود للرجل إجلال الآباء والأمهات، ومسك ختامها العفة والطهارة والإخلاص.



تصميم الغلاف : علي الجاك سعيد



منشورات المجمع الثقافي

Cultural Foundation Publications

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

ص. ب 2380 - هاتف : 6215300

ABU DHABI - U . A . E. - P .O. BOX : 2380

TEL. 6215300 - Cultural Foundation

Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae

http://WWW.Cultural.org.ae



ISBN 9948-01-051-5

9 789948 010517

السعر 55 درهماً

